شرح تائية الإمام تقي الدين علي السبكي

في

السيرة النبوية والشمائل المحمدية

المنسوب إلى العلامة العارف الكبير والقطب
الشهير الشيخ أحمد الترمانيني
رحمه الله تعالى



حقّقه وهذّبه وعلّق عليه

عبد اللّٰه محمد

شرح تائية الإمام السبكي في

السيرة النبوية
والشمائل المحمدية



الطبعة الأولى ١٤٢٩ ـ ٢٠٠٨

الجمهورية العربية السورية

حلب ص. ب ٨٧٣٤

هـ ٢٢٣٣٥٦٢ ٢١ ٠٠٩٦٣ فاكس ٢٢١٥٣٠٤ ٢١ ٠٠٩٦٣

E-mail: daralradwan@hotmail.com

التنضيد الضوئي والإخراج الطباعي

مركز الحجازي حلب: هـ ٠٩٣٣٥٩٧٧٥٥

شرح تائية الإمام تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي السبكي

في

السيرة النبوية والشمائل المحمدية

المنسوب إلى العلامة العارف الكبير والقطب

الشهير الشيخ أحمد الترمانيني

رحمه الله تعالى

حقّقه وهذّبه وعلّق عليه

عبد الله أحمد الخالد العجيلي

الإهـداء

- إلى سيدنا محمد رسول الله ﷺ .

- وإلى الشيخ محمد جميل المنغي ناسخ هذا الكتاب.

- وإلى شيخنا ومربينا الشيخ عبد الله سراج الدين.

- وإلى والدي الشيخ أحمد الخالد.

- وإلى أم العيال ورفيقة الدرب.

عبد الله أحمد الخالد

مقدمة المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصّلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وذريته أجمعين وعلينا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

فهذا شرح الإمام العلامة العارف الكبير من بلغت كراماته حدّ التواتر الشيخ أحمد الترمانيني رضي الله عنه على تائية الإمام الكبير والجهبذ الشهير تقي الدين علي السبكي رضي الله عنه في السيرة والشمائل، وهو شرح نادر الوجود من حيث كونه منسوباً إلى الإمام الترمانيني رضي الله عنه.

ولقد كتب الإمام الترمانيني هذا الشرح عفو الخاطر من حفظه وذاكرته من غير أن يرجع رحمه الله تعالى إلى شيء من المصادر، ولعلّه رحمه الله تعالى لم يكن يريد لهذا الشرح أنْ يبرز إلى دائرة الضوء بادي الرأي، لذلك جاء هذا الشرح كالمسوّدة التي يكتبها الكاتب لا يعبأ بتحبيرها وتنضيدها، ولا بما وقع فيها من تحريف أو تصحيف، فيقع جرّاء ذلك في أخطاء، تكثر أو تقلّ، وتصغر أو تكبر.

وتناقل النسّاخ نسخة الشيخ الإمام وكتبوها نقلاً عن خطّه، فصوّب بعضهم بعض ما جاء فيها من تصحيف أو تحريف أو سبق قلم، وأضاف البعض الآخر إليها عيباً لم يكن ليظهر بنفسه.

ولقد وقعتُ على نسخة الشيخ محمد جميل المنّغي والتي نقلها عن خطّ الشيخ حمّاد بن حسن البيانوني المجاور في المدرسة الرضائية (العثمانية) آنذاك، فألفيتها متدابرة الألفاظ متعاندة التراكيب في كثير من المواضع، جيّدة السبك راقية النّظام في مواضع أخرى مما يترك في نفس الباحث في هذه النسخة شعوراً بأنّ فيها نَفَسَيْن مختلفين لرجلين متغايرين، ولا ندري أيّ الرجلين هو الشيخ الترمانينيّ رضي الله عنه.

والغريب أنني لاحظت في بعض هوامش المخطوط تصويبات لبعض الأخطاء، غير أنّ الناسخ لم يُسمِّ من صوّبها، والظاهر أنّه الناسخ نفسه، لأنّه قد يصوّب خطأ في صحيفة مثلاً ويترك أخطاء دون تصويب ـ أي: في نفس الصّحيفة.

ومن الغريب أيضاً غياب المنهج الفني في هذا المخطوط مع أنّه حديث جداً بالقياس على نحو (بدائع الصّنائع) للإمام الكاساني، وغيره مما كتبه المتقدمون والمتأخرون.

فهذّبت ما يحتاج إلى تهذيب، ورتّبت ما يحتاج إلى ترتيب، وحذفت ما يشين كلّ تركيب، وشرحت الغريب، وعلّقت بما وّفقني الله عزّ وجلّ إليه حيث دعت الحاجة إلى التّعليق، فجاء الشرح على هذه الصّورة وفي هذه الحلّة.

والله تعالى أسأل وبحبيبه ﷺ أتوسّل أنْ يجعل عملي هذا في حرز القبول وأنْ ينفعني به في الدنيا والآخرة إنّه عليه المعوّل وهو خير مأمول. والحمد الله ربّ العالمين.

وكتبه

عبد الله أحمد الخالد العجيلي

التعريف بالنّاسخَيْن وزمن النّسخ

أما النّاسخ الأوّل: فهو الشيخ حمّاد بن الشيخ حسن البيانوني، والشيخ حسن هو أخو الشيخ الكبير والولي الشهير عيسى البيانوني المدفون في البقيع الأشرف في المدينة المنوّرة على ساكنها أفضل الصّلاة والسلام.

وقد أنهى الشيخ حمّاد نسخته في التاسع والعشرين من شهر الله المحرم، سنة اثنين وثلاثمئة وألف للهجرة النبوية.

فما بين وفاة الشارح وإتمام نسخة الشيخ حماد تسع سنوات، ويظهر من عبارة الناسخ أنّ فكرة النسخ تكوّنت عند الناسخ في حياة الشيخ الشارح رحمه الله تعالى ورضي عنه[١].

وعن خطّ الشيخ حماد البيانوني نقل الشيخ جميل بن محمد سعيد بن أحمد بن ملا بن محمد علي بن عبد الحق بن حسن الصّوافي[٢].

وقد بدئ في كتابة هذا المخطوط في التاسع عشر من شهر الله تعالى المحرم، من سنة خمس وأربعين وثلاثمئة وألف للهجرة النبويّة الميمونة، كما وافق الفراغ من كتابة هذه الورقات التاسع عشر من شهر الله المحرم، من سنة سبع وأربعين وثلاثمئة وألف للهجرة النبوية.

---

(١) والغريب بناء على هذا الفهم وجود هذا الكم الكبير من الأخطاء في المخطوط، ولست أدري ما الذي منع الشيخ حمّاد في ذلك الوقت أنْ يعرض النسخة التي بخط الشيخ العلامة أحمد الترمانيني ﷺ عليه في أيّام حياته فيصحّح الشيخ النسخة الأصل، ثمّ يعتمدها الشيخ حمّاد أصلاً ينقل عنه نسخته.

(٢) وهو من فخذ التوبلس من قبيلة النُّعيم المنتسبة إلى الحسين ابن فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب ﷺ، وهو من أهالي قرية (منّغ) من أعمال مدينة اعزاز، ولد في منغ عام ١٩٠٠م، ودرس في المدرسة الشعبانية في حلب، وكان أشهر مدرسيه الشيخ سعد الإدلبي والشيخ عيسى البيانوني والشيخ شهيد والشيخ عبدو حماد، كان زملاؤه في الدراسة الشيخ والشاعر محمد الغشيم والشيخ بكري رجب والشيخ عبدالرحمن البكري والشيخ محمد النجار والشيخ محمد جبريني والشيخ محمود حياني وغيرهم.
درس الفقه الإسلامي على المذاهب الأربعة، وساهم في تأسيس دار الأيتام في منطقة اعزاز التي عمل بها في الأربعين، وفي عام ١٩٥٢م أصدر هو ومجموعة من العلماء من عدد من الدول الإسلامية في مكة المكرمة مجلة شهرية اسمها "مجلة الحج، وهي تصدر حتى تاريخ هذا اليوم.
ساهم في مع الثوار في طرد المستعمر الفرنسي من البلاد.
وقد أخذ الطريقة النقشبندية على يد الشيخ محمد أبو النصر النقشبندي الحمصي رحمه الله.
وقد توفي عام ١٩٨٦م في قرية منغ رحمه الله تعالى. (نقلاً عن حفيده السيد محمد محمد سعيد).

فيظهر من ذلك أنّه ما بين البداءة في كتابة هذه النسخة وبين وفاة الشارح نحواً من خمسين سنة.

ويتناول هذا الشرح جوانب من السيرة النبويّة لم يتعرّض لها الماتن أصلاً، كما أنّه يوفِّق بين بعض الحوادث التي يُظنُّ أنها متناقضة بادئ الرأي.

ترجمة الشارح

هو الإمام الزاهد العابد الولي الكبير العلامة النحرير أحمد الترمانيني الحلبي الشافعي.

كان رحمه الله تعالى من أفضل فضلاء عصره وأعلمهم في العلوم العقلية والنقلية، وأزهدهم في الدنيا وأرغبهم في الآخرة، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يداهن أهل الدنيا لدنياهم، بل يصدع بالحق ولا يبالي بكبير ولا صغير مأمور أو أمير، وحصل منه في نشر العلم في مدينة حلب وجهاتها ونواحيها النفع العام التام، ووقع الإجماع عليه في تلك البلاد أنّه فريد عصره عندهم في العلم والعمل.

قال الشيخ يوسف النبهاني رضي الله عنه: وقد سمعت أوصافه هذه كلّها من كثيرين اجتمعوا به من أهل العلم وغيرهم بحيث لا أشك بأنّه كان كذلك وفوق ذلك. وقد حدّثني عنه الثقات أنّه كان مع وفرة العلم والعمل صاحب كرامات وخوارق عادات. وقد قرأ العلوم في الجامع الأزهر وأدرك كبار المشايخ كالشيخ حسن القويسني، والشيخ محمد الفضالي، فأخذ عنهم مع شيخنا محمد الدمنهوري، وشيخنا إبراهيم السقا، وشيخ مشايخنا الشيخ إبراهيم الباجوري، فهو من أقران هؤلاء الأئمة، وأخذ عن بعضهم رضوان عليه أجمعين.ا.هـ[1]

توفي رحمه الله تعالى وقد جاوز الثمانين، بعد عصر يوم الأحد، ودفن يوم الاثنين الرابع عشر من شهر ربيع الثاني، الذي هو من شهور سنة ألف ومئتين وثلاث وتسعين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصّلاة وأزكى التحيَّة، ودفن بالجبَّانة الشهيرة في حلب بالجُبَيْلة، نوَّر الله تعالى ضريحه وقبره، وأجزل ثوابه وأعاد عليَّ من بركاته وأمدَّني والمسلمين بإمداداته.

---

(١) انظر ترجمته في جامع كرامات الأولياء: (١/ ٥٨٠)، والأعلام: (١/ ١٥٥)، وإعلام النبلاء: (٧/ ٣٧٢).

ترجمة الماتن

هو عليّ بن عبد الكافي بن عليّ بن تمّام بن يوسف بن موسى السُّبْكي.

الشيخ الإمام الفقيه الحافظ المفسّر المقرئ الأصوليّ المتكلّم النحويّ اللّغويّ الأديب الحكيم المِنْطيقيّ الجدليّ الخِلافيّ النّظّار.

أخذ العلوم العقلية والنقلية عن أكابر العلماء في عصره كالإمام أبي حيّان والشرف الدمياطيّ وابن الموازيني وابن مشَرَّف وغيرهم.

كان صادقاً متثبّتاً خيّراً ديّناً متواضعاً، حسن السّمت، من أوعية العلم، يدري الفقه ويقرره وعلم الحديث ويحرّره والأصول ويُقرئها والعربيّة ويحقّقها، ثمّ قرأ بالروايات على تقي الدين ابن الصّائغ وصنّف التصانيف المتقنة وقد بقي في زمانه الملحوظ إليه بالتحقيق والفضل.

توفي ليلة الاثنين المسفرة عن ثالث جمادى الآخرة، سنة ستّ وخمسين وسبعمئة بظاهر القاهرة، ودفن بباب النّصر.(١)

مقدمة الناسخ

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدك اللهم على ما أوليت من سوابغ النعم، وأشكرك على ما أسديت من بدائع الكرم، وأشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، شهادةً أنجو بها من النقم، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك، سيد من أوتي الرسالة والحكم، الذي جعلته سبباً لإيجاد هذا العالم من العدم، وأيدته بالآيات التي أذعنت لها فصحاء العرب والعجم، وجمعت فيه ما تفرق في غيره من الكمالات التي لا يحصيها قلم، وأعطيته الوسيلة والفضيلة والشفاعة العظمى لكل الأمم، صلى الله تعالى وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين انجلت عنهم بأنوار هديه دياجي الظلم،

---

(١) انظر ترجمته في البداية والنهاية: (١٤/٢٥٢)، والبدر الطالع: (١/ ٤٦٧ ـ ٤٦٩)، وبغية الوعاة: (٢/١٧٦ ـ ١٧٨)، حسن المحاضرة: (١/٣٢١ ـ ٣٢٨)، وله ترجمة حافلة في كتاب ولده الطبقات الكبرى: (١٠/ ١٣٩ ـ ٣٣٨).

وبذلوا أنفسهم في نقل أخباره إلينا، وتدوينها حتى صارت مثل المفرد العلم، صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم تشخص فيه الأبصار وتَزِل فيه القدم.

أما بعد: فلما كانت تائية الأستاذ الكبير والعلم الشامخ الشهير، من بزغت شموس معارفه في كلّ الأقطار، وأشرقت كواكب فضله على جميع البلدان والأمصار، مجتهد عصره ومُجدِّد أوانه ودهره، صاحب التصانيف العديدة والأقوال المعتمدة السديدة، مرجع العلماء العاملين، العلامة السبكيِّ الشافعيِّ تقيِّ الدين، من أجلِّ القصائد النبويَّة وأجمل المنظومات المحمدية، لأنه أودع فيها من سِيَر المصطفى وأخباره ما لم يودعه أكثر العلماء في كتبه وأسفاره، وكانت لنظمها الرائق ولطفها الفائق جديرة بشرح يزيد في بيانها ويفصح عن تبيانها، شمّر عن ساعد الجد والاجتهاد ذو الفضائل التي شاع ذكرها في البلاد، رُحلة الطالبين وقدوة العلماء العاملين الإمام الذي أزهرت روضة رياسته، واشتهرت أخبار تربيته وسياسته، وانعقد الإجماع على أنه قطب العارفين وإنسان عين الواصلين، الولي الكبير والعارف الشهير صاحب التأليفات الدقيقة والتقريرات الرشيقة، سيدي وأستاذي وشيخي وملاذي شهاب الملة والدين الشيخ أحمد بن الشيخ عبد الكريم الترمانينيُّ ذو اليقين، العُمَري نسباً، الشافعي مذهباً، الأزهري طلباً، الصّاوي والخلوتي طريقة، الترمانيني مولداً، الحلبي موطناً.

فجاء بهذا الشرح الذي تنشرح به الصّدور وتُكْمد به عين الحاسد الغيور، فلقد حوى من المعجزات النبوية وغرر الشمائل المحمدية والأحاديث الصّحيحة والآثار المنقّحة الفصيحة ما يملأ العين سروراً والقلب انشراحاً ونوراً، ولما انتقل إلى لقاء أرحم الرحماء، ولم يضع خطبة لشرحه جرياً على عادة العلماء تطفّلتُ بوضع هذه الأحرف الجريئة ليحصل لمن اطلع عليه بمعرفة مؤلفه كمالُ الأمنية، فإنه ممن يوثق به في كل زمان، ويعتمد على قوله في كل أوان، وعلى الله الاعتماد في المبدأ والمعاد.

النفس

قال الناظم رحمه الله تعالى:

تيقظ لنفس عن هداها تولّتِ ... وبادر ففي التأخير أعظم وحشةِ[1]

حاصله: أن الصّوفيَّة قسّموا النفس سبعة أقسام:

---

(١) البيت وما يليه من تائية الإمام السبكي من البحر الطويل.

الأولى الأمّارة: وهي نفس الكفّار ومن حذا حَذْوهم، فهي لا تأمر بخير أصلاً، وهي مع ذلك راضية بأفعالها مستحسنة لها.

الثانية اللوّامة: وهي التي تلوم صاحبها ـ ولو كان مجتهداً في الطاعة ـ على فعل المعاصي وترك الإكثار من الطاعة، وتتهمه بالتقصير. وهي مبدأ الخير وأصل الترقِّي.

الثالثة المُلْهمة: وهي التي أُلْهمت فجورها وتقواها.

الرابعة المطمئنة: وهي التي اطمأنت بالله تعالى وسكنت تحت مقاديره.

الخامسة الراضية: وهي التي رضيت عن الله في جميع حالاتها.

السادسة المرضية: وهي التي جوزيت بالرِّضا من الله تعالى، لأنَّ مَنْ رَضِيَ له الرضا.

السابعة الكاملة: وهي التي صارت الكمالات لها طبعاً وسجيّة، وهي مع ذلك تترقّى في درج الكمال. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

والمرجع في جميع هذه التقاسيم القرآن الكريم، وإليك بيان ذلك:

ـ **الأمّارة**: أخذت تسميتها من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[1].

ـ **اللوّامة**: أخذت تسميتها من قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[2].

ـ **الملهمة**: أخذت تسميتها من قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[3].

ـ **المطمئنة** وما بعدها أخذت تسميتها من قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[4].

وهي ـ أي: هذه النفوس السبعة في العدّ ـ في الحقيقة شيء واحد، وتعدُّدها بحسب ميلها، فلذا قال بعض المحقّقين: إن اللطيفة الربانية الدّرّاكة الحسَّاسة بما قام بالجسد، والتي مركزها القلب، وأشعّتها في الدّماغ، المفيضة الإحساسَ على باقي البدن، هي المثابة والمعاقبة والمحاسبة، والمخاطبة بالتكاليف، وأنه لها ـ أي: لهذه اللطيفة الربانية ـ قوتان توجههما حيث شاءت ـ كاليدين للإنسان يوجههما في تحصيل

---

(١) يوسف:٣٥.

(٢) القيامة:١ ـ ٢.

(٣) الشمس: ٨.

(٤) الفجر: ٢٧ ـ ٣٠.

مآربه ـ إحدى هاتين القوتين تتوجه لاكتساب معالي الأمور: كالزهد والورع والعفة إلى آخر أنواع العبادة، والأخرى تتوجه إلى سفاسفها: كالكذب والغيبة، والنميمة والمفاخر، والكبر والعجب، والحقد والرياء، والزنا وشرب الخمر إلى آخر ما هنالك من المعاصي ودواعيها. كما يشير لذلك حديث: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسدُ كلُّه وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[١].

واللطيفة المذكورة هي الإنسان على الحقيقة، كما قيل:

.... فأنت بالروح لا بالجسم إنسان[٢]

وإنّ قوتها[٣] الأولى بمنزلة اليد اليمنى وتسمى عقلاً، لأنها تعقل وتدرك الخير فتتوجَّه إليه، والشرَّ فتفرُّ منه، وتعقلُ القوة الأخرى ـ أي: تمنعها من تنفيذ مآربها إذا وجهتها اللطيفة في ذلك. فهي حينئذ كالأمير على القوة الثانية، كما أن كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات. وتسمى أيضاً قلباً، لأنها خالصّ ما في البدن[٤].

وأما القوة الثانية فتسمّى نفساً، لأنها مشغوفة بالتوجّه لحظوظ نفسها العاجلة من غير التفات إلى قيامها بحق بارئها ولا نظرٍ لما يحل بها من الذل والكآبة في الدنيا، والعذاب والخسران في المستقبل، إنْ هي دامت على تحصيل مآربها.

فهي كالطفل من حيث أنها لا تعقل إلا الحظوظ العاجلة، وكالبهائم من حيث عدم تدبرها الأمور الآجلة، وإنّ جند العقل والقلب الأرواحُ الروحانية والمواعظ الرَّبانية، وإنّ جند النفس الأرواح الشيطانية والزخارف الظلمانية.

قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[٦].

---

(١) رواه البخاري برقم: (٥٢) باب فضل من استبرأ لدينه، ومسلم برقم: (١٥٦٦) باب الوقوف عند الشبهات، وابن ماجه برقم: (٣٩٨٤) باب طلب الحلال واجتناب الشبهات. وكلهم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه. والحديث جاء من طرق أخرى غير التي ذكرنا.

(٢) المذكور عجز بيت شعر في الحكم لأبي الفتح علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن العزيز البستي /٤٠٠هـ/، وصدر البيت المذكور أعلاه:

أقبل على النفس فاستكمل فضائلها.....

(٣) الضمير عائد على اللطيفة الربانية.

(٤) أي: لبّه وإكسيره.

(٥) الإسراء: ٢٠

(٦) الشمس: ٨.

والإنسان أمير على كليهما[1]، فهو المدعو والمخاطب بالتصرف بما فيه صلاحهما ونجاحهما لحديث: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيَّته»[2]. وذلك بأنْ يوجه القوة العاقلة لما تميل إليه، ويكف القوة الثانية عما ترومه وتتطلع إليه، بأن يتيقَّظ ـ أي: يكون يقظانَ عالماً بجنودها، فيحترز منها، مُرْصِداً لشهواتها ومآربها فلا يمكِّنها من الخوض فيها، وذلك بإدمان مطالعة كتب القوم المشحونة ببيان ذلك.

قال الأبوصيري[3]:

وراعها وهي في الأعمال سائمة	وإن هي استحلت المرعى فلا تسم
واخش الدسائس من جوع ومن شبع	فَرُبَّ مخمصة شرٌّ من التخم
واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت	من المحارم وألزم حمية الندم
وخالف النفس والشيطان واعصهما	وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصماً ولا حكماً	فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

وفي الحديث: «إن المتصدق لا تخرج منه الصّدقة حتى يفك لحيي سبعين شيطانا»[4] كلهم ينفره عن فعلها ويزينها له ويكثرها في عينه ويحببها إليه ويخوفه الحاجة وينذره الفقر إن هو أخرجها، كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾[5].

---

(١) الضمير عائد على القوتين اللتين هما فرعا اللطيفة الربانية.

(٢) رواه البخاري برقم:(٨٥٣) باب الجمعة في القرى والمدن، ومسلم رقم: (١٨٢٩) باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، وأبو داود برقم: (٢٩٢٨) كتاب الخراج والإمارة والفيء، وابن حبان برقم: (٤٤٩٠) باب ذكر البيان بأن على كل راع حفظ رعيته صغر في نفسه أو كبر، وكلهم عن عبد الله بن عمر ﷺ. ورواه غيرهم.

(٣) شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصّنهاجي البوصيري المصري. شاعر حسن الديباجة، مليح المعاني، نسبته إلى بوصير من أعمال بني سويف بمصر، أمّه منها، وأصله من المغرب من قلعة حماد من قبيلة يعرفون ببني حبنون، ومولده في بهشيم من أعمال البهنساوية /٦٠٨هـ/ ووفاته بالإسكندرية /٦٩٦ هـ/ له ديوان شعر مطبوع، وأشهر شعره البردة مطلعها: أمن تذكّر جيران بذي سلم.

(٤) الحديث مذكور بالمعنى، ولفظه: «ما يخرج الرجل بشيء من الصّدقة حتى يفك عنها لحيي سبعين شيطاناً» كذا لفظ الحاكم في المستدرك، ورواه ابن خزيمة في صحيحه برقم: (٢٤٥٧) باب ذكر حب الله عز وجل المخفي من الصّدقة إذ الله فضلها على صدقة العلانية، والبيهقي في السنن برقم: (٧٦٠٨) باب كراهية البخل والشح والاقتار، وأحمد في المسند من حديث بريدة الأسلمي برقم: (٢٣٠١٢). ورواه غيرهم. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وأقرّه الذهبي.

(٥) البقرة: ٢٦٨.

وربما تأمرك النفس بالصّدقة لكن لنيل مآربها العاجلة من حب محمدة ورياء وسمعة بدليل أنك لو أمرتها أن تصرف صدقتها لعدوها المستحق المحتاج لا تطاوعك في ذلك، بل تأمرك بالامتناع عن الإحسان إليه حتى يذل ويصغر، وإذا ما بلغها حصول خير له انقبضت، وإذا ما بلغها وصول شرٍّ إليه انسرَّت وانبسطت، وإذا ما أمرتها بإخفاء الصّدقة تحتال عليك في إظهارها، ولو بالتّحدث بها، أو بالتّعريض بذلك بأنْ تمدح المتصدقين وتبالغ في ذلك بما يشير إلى أنها ممن يتصف بذلك، وربما حملتك على مدح الإسرار بالصّدقة لتنال منك حظها في الإيحاء بأنها ممن يتصدَّق سرًّا، فإنْ هي طاوعتك في صدقة لم تمكِّنْك من وضعها في محلها، واحتجت عليك ببراهين شرعية، فإذا جعلت صدقتك ضيافة للفقراء والمساكين تقول لك: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾[1].. الجيران والأصدقاء والأماثلُ خير من هؤلاء الذين تعوّدهم إحسانك فلا يمكنك أن تخلص من معرّتهم فيما بعدُ، ومع ذلك لا جزاء ولا شكوراً، وأما الأغنياء والأماثل يثمر معهم الجميل وفي دخولهم عليك بيتك شرف لك ولعقبك، ودخول هؤلاء الفقراء والعميان والمساكين بيتك فيه تنقيص لمقامك وتسليط لأعين الحساد.

وإذا أَمَرْتَك بعمل خيّر كبناء جامع أو إقامة سبيل، فإنّ أقلّ ما هنالك أنْ تقول لك: اكتب اسمك على بابه لئلا يدّعيه غيرك، وليس مرادها من وراء ذلك إلا أن تحوز السمعة لنفسها. إنْ دعوتها للتوبة سوّفت وأجّلت وقالت لك: رحمته سبحانه وسعت كل شيء، وأيٍّ شيء أنا حتّى تضيق رحمة الله تعالى الواسعة بي ذرعاً،

فلعل رحمة ربي حين يرسلها   تأتي على حسب العصيان في القسم[2]

فخلّ العين لمآربها وأطلق العنان للبصر يجول في وجوه الغيد الأوانس فتشبع العين فترجع تائبة بعد ذلك توبة حقيقية لأنها حينئذ أُتخمت بالنظر فتعافه طوعاً وتهجره سجيّة وطبعاً، وأما توبتك الآن فلا نفع تجنيه ما دامت شهوة المعصية متمكنة فيها، وهكذا لو عشت عمر نوح عليه السلام تحدثك بهذه الأباطيل، وتسوق لك تلك الأضاليل، ولذا قال صاحب البرأة:

---

(١) يس: ١٦

(٢) هو للإمام الأبوصيري.

فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها إن الطعام يقوّي شهوة النهم
والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه إن الهوى ما تولى يُصْمِ أو يَصِم

أي: احذر أن تجعل الهوى والياً ـ أي: أميراً ـ على مملكة عقلك وحصِّن قلبك، فإنه[1] داعٍ للضلالة غيرُ صالح للإمارة، فإذا نصبته أميراً عليك يصميك ـ أي: يقتلك ـ من أصمى الصيّد إذا قتله، أو يصميك بمعنى يصيبك وينقصك فهو إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[2] لأن نسيانهم إنْ كان بنحو إنكاره فهو الهلاك كالقتل، وإن كان بعدم كمال الاستعداد فهو الإعابة والنقص.

فإذا تيقظت لنفسك تجدها ضالة عن طريق فلاحها قد تولّت وأعرضت عن طريق نجاحها، فعليك بمراجعتها ثمّ معاندتها، وبادر إلى ذلك وأسرع قبل أن يفجأك الموت فتندم حيث لا تنفعك الندامة لحديث: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[3] أي: غافلون عن الكمالات، فإذا ماتوا تيقّظوا لما ضيّعوه من أعمارهم ولما فعلوه في دنياهم.

وورد أنه ما من أحد إلا ويندم يوم القيامة، فالكافر يندم على عدم الإيمان، والعاص يندم على عدم التوبة، والطائع يندم على عدم الازدياد من الطاعات، حتى أنهم يتأسّفون على كل نَفَسٍ ضيّعوه في دار الدنيا خالياً عن ذكر الله تعالى، ففي تأخير الإنسان التوبة وتسويف العمل الصّالح ارتكاب أعظم الأمور الموقعة في الوحشة والمهالك والمخاوف، فاتباع سبيل الهدى المقرِّب من المولى سبحانه وتعالى مؤنس، واتباع طريق الهوى والشيطان والنفس موحشٌ ومرعبٌ، ومبعد للعبد عن مولاه قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[4] وفي

---

(١) الضمير عائد على الهوى.

(٢) ص: ٢٦

(٣) هو من قول علي بن أبي طالب، لكن عزاه الشعراني في الطبقات لسهل التستري، ولفظه في ترجمته: (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وإذا ماتوا ندموا، وإذا ندموا لم تنفعهم ندامتهم). انظره في كشف الخفاء للعجلوني برقم: (٢٧٩٥).

(٤) آل عمران: ١٣٣.

الحديث: «من عرف نفسه عرف ربه»[1] أي: من عرف نفسه ودواعيها وقام بموجب هذه المعرفة من الحذر وتقوية جند القلب ودعمها، عرف ما للربّ عليها من حقوق الطاعة وعدم الرياء، بحيث تكون أفعاله لربه لا لحظٍّ في نفسه فيستنير قلبه، فلا يرى إلا آثار صنعه تبارك وتعالى، فإنْ وجد أنه أظهر فيه طاعة شكره عليها حيث جعله مظهراً لانصباب رحمته، وإن ظهر منه معصية قام باللوم على نفسه، وأتبعها بالاستغفار والتوبة وطلب الإقالة من ذنبه، وسأل الله تعالى أن يحفظه ولا يُعِدْه لزلّته، واعتقد أنّ الله تعالى الحكمُ العدل فيما أجرى على يديه مما يستحق عليه خزي الدنيا وعذاب الآخرة لأنه سبحانه وتعالى المالك يفعل ما يشاء في ملكه وعبيده وخليقته، ولا ييأس من إعادة نعمه عليه، ولا يكون اعتماده إلا على فضله وكرمه لا على عمله وتوبته، ولا يطلبُ عوضاً على توبته وطاعته، لأن الصّانع لا يطلب عوضاً على إبراز صنعته، ولا يروم تقريباً وكرامات على خدمته، لئلا يكون مُتهماً له ـ تعالى ـ في قسمته وغير راضٍ في إقامته[2]، ولا يؤخر العمل الصّالح حتى تطرق بابه طوارق الانتقامات المُجِدّة، ففي الحديث: «تعرَّف على الله في الرخاء يعرفك في الشدَّة»[3]، وفي آخر: «احذر التسويف فإن الموت يأتي بغتة»[4]، وفي آخر: «إذا عملت سيئة

---

(١) قال النووي في هذا الحديث: ليس بثابت، وقال أبو المظفر بن السمعاني في القواطع: إنه لا يعرف مرفوعاً، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي، يعني: من قوله، وقال فيه الشيخ محيي الدين بن عربي ﷺ: هذا الحديث وإن لم يصح من طريق الرواية، فقد صح عندنا من طريق الكشف، وللإمام السيوطي في هذا الحديث تأليف لطيف سماه: (القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه)، وقال النجم الغزي: وقع في أدبِ الدنيا والدين للماوردي، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سئل النبيّ ﷺ من أعرف الناس بربه؟ فقال ﷺ: «أعرفهم بنفسه».انظره في كشف الخفاء للعجلوني برقم: (٢٥٣٢)، وانظر الحاوي للفتاوي للسوطي: (٢/٢٣٨)، وانظر كتاب الزهد للبيهقي: (ص: ٢٠٧)، والفوائد المجموعة للصغاني: (ص: ٢٥٦)

(٢) أي: غير راض عما أقامه الله تعالى فيه من مكان العبودية وما يتعلق به من الذل والانكسار والطاعة المطلقة.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك برقم: (٦٣٠٣)، والطبراني في الكبير برقم: (١١٥٦٠)، والبيهقي في الشعب برقم: (١٠٧٤)، كلهم عن ابن عباس ﷺ.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط برقم: (٦٨٠٦)، وقال في مجمع الزوائد: إسناده حسن، وأسنده في كنز العمال إلى ابن عساكر، وكلّهم عن أبي ذر ﷺ. انظره برقم: (١٣٠٣٥٧) وانظر مجمع الزوائد (١٠/٣٣٤).

فاتبعها حسنة تمحها»[1]، وفي آخر: «وما عملت من سوء فأحدث له توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية»[2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[3] ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟﴾[4]، وفي الحديث: «من أحسن فيما بقي غفر له ما مضى، ومن أساء فيما بقي أخذ بما مضى وما بقي»[5] وبالله التوفيق.

فحتّامَ لا تلوي لرشدٍ عنانها ... وقد بلغت من غيها كل بغية[6]

(ما): استفهامية واقعة على زمان على سبيل التعجب والإنكار، وقد شبّه متابعته لنفسه ومسايرته وموافقته لها في مآربها بمتابعة وموافقة راكب دابة دابته في سيرها، مع عدم صرفها عن هذا المسير الذي تخطئ فيه طريق النجاح وتصيب به سبيل الهلاك، ومع كون عنانها ـ بكسر العين ـ ما يجعل في رأسها لتقاد به ـ أما بفتحها ـ فهو السحاب وما ظهر من السماء وما تحتها ـ بيده يمكنه أن يحوّلها لجهة النجاح، فكأنه يقول: إلى متى تستمر متابعاً لنفسك في هواها ولا تزجرها بالزواجر التي تصرفها

(١) رواه أحمد في المسند برقم: (١٢٥٢٥)، أبو نعيم في الحلية، ولفظه عن أبي ذر ﷺ أنه قال: قلت: يا رسول الله، علّمني عملاً يقرّبني من الجنة ويباعدني من النار، فقال: «إذا عملت سيئة فاعمل حسنة فإنّها عشر أمثالها»، قال: قلت: يا رسول الله، لا إله إلا الله من الحسنات؟. فقال ﷺ «من أكبر الحسنات».انظر الحلية: (٤/٢١٧)، والترغيب للمنذري: (٤/٥٤). قال في مجمع الزوائد: رواه أحمد ثقات إلا شمر بن عطية. وقال ابن حجر العسقلاني: هذا حديث حسن أخرجه أبو يعلى عن عقبة بن مكرم عن يونس بن بكير، فوقع لنا بدلاً حسناً، وقال:ولم أره في مستدرك الحاكم مع كون رجاله رجال الصّحيح. انظر مجمع الزوائد: (١٠/٨٦)، والأمالي لابن الحجر العسقلاني: (١٢٩ ـ ١٣٠).

(٢) رواه الطبراني في الكبير برقم: (٣٣١) عن معاذ بن جبل رضي عنه، وقال في مجمع الزوائد: وإسناده حسن. انظر مجمع الزوائد: (١٠/٧٢).

(٣) هود: ١١٤.

(٤) آل عمران: ١٣٥.

(٥) الحديث من رواية ابن عباس رضي الله عنهما ونصه: «النادم ينتظر من الله الرحمة والمعجب ينتظر المقت واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله وسوء عمله وإنما الأعمال بخواتيمها والليل والنهار مطيتان فأحسنوا السير عليهما إلى الآخرة واحذروا التسويف فإن الموت يأتي بغتة ولا يغترن أحدكم بحلم الله عز وجل فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ثمّ قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره). رواه الأصبهاني من رواية ثابت بن محمد الكوفي. انظر الترغيب: (٤/٤٨).

(٦) البيت من البحر الطويل.

عن طريق المهالك إلى طريق الفلاح والنجاح، والحال أن نفسك قد بلغت وحصّلت كل الذي تبتغيه وتشتهيه من الذنوب والمخالفات، فكأنك في متابعتك لها تظن أنها ترجع بنفسها، فلا ينبغي لك هذا الظن، كما قال صاحب البرأة[١]:

وراعها وهي في الأعمال سائمة ... وإن هي استحلت المرعى فلا تسم

فخوِّفها من سوط انتقامه، ورغِّبها في عظيم فضله وإنعامه، كما قيل[٢]: إذا تمكنت الشهوة من القلب فلا يخرجها منه إلا خوف مزعج أو شوق مقلق.

قال ابن الوردي[٣]:

اعتزل ذكر الأغاني والغزل ... وقل الفصل وجانب من هزل

ودع الذكرى لأيام الصبّا ... فلأيام الصبّا نجم أفل

إنّ أحلى عيشة قضيتها ... ذهبت لذاتها والإثمّ حل

واترك الغادة لا تحفل بها ... تمس في عز وترفع وتجل

واله عن آلات لهوٍ أطربت ... وعن الأمرد مرتجّ الكفل

إن تبدى تنكسف شمس الضحى ... وإذا ما ماس يزري بالأسل

زاد إن قسناه بالبدر سنا ... أو عدلناه بغصن فاعتدل

وافتكر في منتهى حسن الذي ... أنت تهواه تجد أمراً جلل

واتق الله فتقوى الله ما ... جاورت قلب امرئ إلا وصل

ليس من يقطع طرقاً بطلاً ... إنما من يتقي الله بطل

واهجر الخمرة إن كنت فتىً ... كيف يسعى في جنون من عقل

صدق الشرع ولا تركن إلى ... رجل يرصد في الليل زحل

حارت الأفكار في قدرة من ... قد هدانا سبلنا عزَّ وجلَّ

---

(١) تقدمت ترجمته في الصّحيفة: (٤) فارجع إليها إن شئت.

(٢) ينسب هذا القول لعبد الله بن خبيق، وهو في الحكم العطائية. انظر ذم الهوى لابن الجوزي: (٧٠)، وصفة الصّفوة: (٤/٢٦٢).

(٣) هو عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس أبو حفص زين الدين بن الوردي المعري الكندي، شاعر أديب مؤرخ، ولد في معرة النعمان (بسورية) عام (٦٩١هـ) وولي القضاء بمنبج وتوفي بحلب (٧٤٩هـ)، وتنسب إليه اللامية التي أولها: (اعتزل ذكر الأغاني والغزل)، ولم تكن في ديوانه، فأضيفت إلى المطبوع منه، وكانت بينه وبين صلاح الدين الصّفدي مناقضات شعرية لطيفة وردت في مخطوطة ألحان السواجع. انظر شذرات الذهب: (٣/١٦١ـ ١٦٢)، والبدر الطالع: (١/٥١٤ ـ ٥١٥).

كتب الموت على الخلق فكم	فل من جمع وأفنى من دول
أين نمرود وكنعان ومن	ملك الأرض وولى وعزل
أين عاد أين فرعون ومن	رفع الأهرام من يسمى يخل
أين من سادوا وشادوا وبنوا	هلك الكل فلم تغن القلل
أين أرباب الحجا أهل النهى	أين أهل العلم والقوم الأُول
سيعيد الله كلاً منهم	وسيجزي فاعلاً ما قد فعل
أيْ بني اسمع وصايا جَمَعت	حِكماً خصت بها خير الملل[1]

تروح وتغدو في القبيح كأنها ... لغير معاصي ربها ما أريدت

حاصله : الغدو: السير من أول النهار، والرواح: السير من الزوال إلى آخر النهار، ومنه ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[2] وقد يطلق الغدو على الذهاب، والرواح على العود ومنه: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[3].

والقبيح ما خالف الشرع[4]، والمعنى: إلى متى تتابع نفسك، والحال أنها تذهب في حظوظها وقبائحها في الغداة والعشي، والمراد كل زمن تعبيراً بالجزء عن الكل، أو في ذهابها وعودها ـ أي: كل تنقلاتها في تحصيل حظوظها ـ وأنت متابعها في ذلك مع كونها في ذلك الاسترسال شبيهة بمن خُلق لاقتراف المعاصي لا غير، والواقع أن الأمر بعكس ذلك قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[5] فتيقظ لنفسك

---

(١) القصيدة من بحر الرمل، وهي تقع في ست وسبعين بيتاً، وقد ذكر منها المصنف عشرين.

(٢) سبأ: ١٢.

(٣) رواه البزار في مسنده بلفظ: «لو أنكم توكلون...بطاناً»، وهو ثمّ برقم: (٣٤٠)، وأسنده السيوطي في الجامع الصّغير لأحمد في المسند والترمذي وابن ماجه والحاكم، قال العلامة المناوي في تعليقه على هذا الحديث: قال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم صحيح وأقره الذهبي، ورواه النسائي أيضاً، وأسنده ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم لابن حبان أيضاً، وكلهم عن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ. انظر الفيض: (٥/٣١١)، وجامع العلوم والحكم: (٤٣٤)، وموارد الظمآن للهيثمي: (٦٣٢) وما بعدها.

(٤) احترز بهذا القول عن قول الثمامية من المعتزلة بأنّ القبيح ما قبّحه العقل والحسن ما حسّنه. انظر مذهبهم في الملل والنحل لإبي الفتح الشهرستاني: (٣٠)، والتبصير في الدين لأبي المظفر الإسفرايني: (٧٣) وما بعدها.

(٥) الذاريات: ٥٦.

قبل فوات الأوان.

إذا دعيت ألوت وأقبلت   وإن دعيت للخير فرت وولت

حاصله: أن النفس متى دعيت لشيء من المعاصي والشرور التي اعتادتها وتمرنت على فعلها وألفتها أسرعت إليه، وإن دعيت للخيرات فرت منها مولّية ظهرها لاستلذاذها بالمخالفات ونفورها من الطاعات، لأنها ـ أي: النفس ـ حظ الشيطان من الإنسان، والشيطان من النار فلذا يدعو إليها وساعدته هي في مطلوبه، فكل يميل لطبعه ويدعو لأصله ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾[1]، وفي الحديث: «حُفَّت النار بالشهوات وحفَّت الجنة بالمكاره»[2] وفي آخر: «أعدى عدوٍّ لك نفسك التي بين جنبيك»[3]، لقد أسرفتْ في كل شيء وأشرفت على مهبط لا يستقال، ووهدة لا يمكن النجاة منها.

وأمارة بالسوء لوامة لمن   نهاها فليست منه بالمطمئنة

حاصله: أن النفس دائماً تأمر صاحبها وتطلب منه ارتكاب المعاصي التي توقع صاحبها في اليأس إنْ هو عوقب عليها، وإذا دعاها لطاعة مولاها تلومه وتندّمه على ما فاته من شهواتها، فمن شأنها أن لا تكون مطمئنة ساكنة تحت المقادير راضية بها مذعنة لله سبحانه وتعالى في امتثال أمره واجتناب نهيه، ولذا أثنى عليها تعالى وأكرمها حيث خاطبها بـ ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[4] فاجتهد لتكون نفسك مطمئنة ولا ترض لها أن تكون أمارة أو لوامة.

إذا أزمعت شراً فليس يردها   عن الفعل إخوان التقى والمبرة

وإن مر فعل الخير في بالها انثنى   أبو مرة يثنيه في كل مرة

حاصله: إذا أزمعت النفس على فعل الشر فلا يردها عن فعلها ولا يثنيها

---

(١) الإنسان: ٢٧

(٢) رواه مسلم برقم: (٢٨٢٢)، والترمذي برقم: (٢٥٥٩)، باب ما حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات، وأحمد برقم: (٨٩٣١ ـ ١٢٥٨ ـ ١٣٦٩٦ ـ ١٤٠٦٢)، والدارمي برقم: (٢٨٤٣)، كلهم من حديث أنس ﷺ. ورواه غيرهم. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه صحيح.

(٣) قال الإمام العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: أخرجه البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس ﷺ وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان من الوضاعين، وله شاهد من حديث أنس ﷺ.

(٤) الفجر: ٢٧ ـ ٣٠.

ويرجعها عنه إخوان ـ أي: أصحاب ـ التقى والطاعات الملازمون على المبرَّة ـ أي: البر والإحسان والصّدق والإخلاص ـ لكونها جُبِلت على المعاندة والاستنكاف عن المطاوعة كأخيها إبليس، فقد ارتضعا ثدي التلبيس فلم يألفا إلا ما فيه التعكيس والتنكيس، كما قال صاحب البرأة مما يقرب منه وليس منه:

محضتني النصح لكن لست أسمعه ... إن المحب عن العذال في صمم
إني اتهمت نصيح الشيب في عذل ... والشيب أبعد في نصح عن التهم
فإن أمّارتي بالسوء ما اتعظت ... من جهلها بنذير الشيب والهرم
ولا أعدت من الفعل الجميل قِرَى ... ضيف ألمَّ برأسي غير محتشم
لو كنت أعلم أنّي ما أوقره ... كتمت سراً بدا لي منه بالكَتَم

حاصله: أنّ الشيب والهرم لما نزلا بي ضيفين كان من اللائق إكرامهما بالضيافة اللائقة بهما من العمل الصّالح والتوبة، والحال أني ما أكرمتهما بهذه الضيافة اللائقة بهما، فلو كنت قبل ظهورهما عالماً بأني لا أكرمهما لَكُنْت سترت الشيب بالحنّاء التي تسمّى الكَتَم، لأنها تكتم الشيب وتستره، وتنشّط الجسد وتنفي ظاهر الهرم عنه، وهو ـ أي: الشيب ـ خير من حيث كونه ضيفاً ينزل بي فأكرمه[1]، ولكن النفس غلبتني وعن الخير منعتني، إنْ مرّ أوخطر لي فعل الخير في بال وقلب وقصدت النفس لتتلبس به فتشاهد عاقبة ما فيه من الحلاوة والطلاوة مغتنمة غفلة قرينها وسهوته عن الوسوسة تنبه لها أبو مرَّة ـ وهو الشيطان، سمي بذلك لدعوته إلى العصيان ومرارته باعتبار ما يترتب عليها من غضب الرحمن ـ فإذا تنبه شيطانها لمرامها استيقظ من سهوته وهبّ من غفلته وأغار عليها ليثنيها عن فعل الخير متسلّحاً بتحسين تركه وتزينه حتى تتركه، فهي أبداً تتقلّب في شراكه، فلا تتخلص من مطاوعته على المنكر.

إلى الله أشكو ما ألاقيه منهما ... فليس لغير الله تجدي شكايتي
فقد عدلا بي عن رشاديَ والهدى ... وقد نزلا بي في حضيض المذلة
هما لعبا بي مثل ما لعب الطِّلا ... بعطفيّ صبيٍّ ذي جنون وصبوة
هما استخدما الأعضاء مني في الذي ... يريدان من كل الأمور القطيعة

---

(١) أول من شاب إبراهيم عليه السلام، فقال: يا رب ما هذا؟ فقال: وقار، فقال: اللهم زدني وقاراً، وهو أول من خضب بالحناء والكتم. انظر الوسائل في مسامرة الأوائل للسيوطي برقم: (٤٠)، و الأوائل للطبراي برقم: (١٠٧٥).

حاصله : أني أشكو عجزي عن إصلاح نفسي إلى الله لا إلى غيره ﴿أَزِفَتْ الْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[1]، وكيف أشكو لغيره تعالى وهل الشكاية لغيره تجدي أوتنفع، فنفسي والشيطان ضدي تعاونا حتى لقد عدلا بي وأخرجاني عن طريق الاستقامة والهدى والرشاد، ونزلا بي إلى حضيض المذلة، فصارا يميلان بي كيفما شاءا ويلعبان بي كيفما أرادا مثل ما يلعب ويميل الطِّلا ـ وهو الخمر ـ بشاربيه غير المدمنين لشربه كالصّبية والمجانين أصحاب الصّبوة والميل إلى المهالك، فكما أن الخمرة تميل بعطفيهما وجنبيهما يميناً وشمالاً حتى تسقطهما في المهالك ولا عقل لهما يتدبران به التجنب عنها، فكذلك صرتُ في يد النفس والشيطان لا مخلص لي ولا منجى إلا أنْ يردني لهدايته المالك لأنهما استخدما الأعضاء مني في عمل كل ما يريدانه مما لهما فيه حظ من الأمور القطيعة الفظيعة الشنيعة الخارجة عما يُحلّه الشارع أو يرضاه. قال صاحب البرأة:

من لي برد جماح من غوايتها ... كما يرد جماح الخيل باللجم

حاصله : من يتكفّل لي بتبديل الصّفات الدنيّة والأخلاق الردية من نفسي الأمّارة الشبيهة بالدابة الجموح الحرون النافرة عن مراد صاحبها إلى مرادها؟؛ فنفسي في غوايتها وعدم سلوكها طريق النجاة من الأخلاق الجميلة والأفعال الحميدة كتلك الدابة، فلا بدّ لها من رائد قويّ يردّها إلى طريق الهدى كما يَردُّ اللجامُ الفرس الجموح. ولا يتسنّى ذلك إلا بمعونة الله على الحقيقة، والمسلك واسطة.

لساني في لغو الفواحش موغل ... بِمَيْنٍ نمٍّ والخصام وغيبة

حاصله : هذا بيان لكيفية استخدام الشيطان والنفس للسان ليقاس عليه بقية استخدامها لبقية الأعضاء، فكأنه يقول: أما لساني فهو متوغّل ـ أي: متعمق ومسكثر ـ من لغو ـ أي: ما لا فائدة فيه ـ بل فيه المضرَّة لكونه لغو في الفواحش ـ أي: ما يذم فاعله شرعاً ـ لكونه محرّماً، وقد صور لغوه في الفواحش بأمور:

أولاًـ إطلاق اليمين إلى كذب وفي الحديث: «لعن الله الكاذب ولو مازحاً»[2]،

---

(١) النجم: ٥٧ ـ ٥٨.

(٢) لم أجده بهذ اللفظ. وقال السخاوي في المقاصد: ما علمته في المرفوع، نعم في الأدب المفرد للبخاري عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: (لا يصلح الكذب في جِدّ ولا هزل، ولا أنْ يعد أحدكم ولده شيئاً ثمّ لا ينجز له). انظر هذا اللفظ في كشف الخفاء للعجلوني برقم: (٢٠٥٠).

وفي آخر: «آية المنافق ثلاث، وإن صام وصلى وزعم أنّه مسلم: إذا حدَّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان»[1]، وزاد في رواية: «وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر»[2].

ثانياً ـ ولوغ اللسان في النميمة وووقوعه فيها، والنميمة: نقل الحديث على جهة الإفساد، وقيل: إفشاء السر وكشف الستر.

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[3]، قيل: الهُمَزة هو الهمّاز ـ أي: النمام ـ كما قال تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾[4]، واللّمزة: المغتاب أو الغيّاب[5]. وفي الحديث: «لا يدخل الجنة قتات»[6] أي: نمام، وفي آخر: «الكذب يسود الوجه والنميمة من عذاب القبر»[7].

ثالثاً ـ وقوع اللسان في الخصام المذموم شرعاً، وهو ما لم يكن لإحقاق حقّ، بل نصرة للباطل، أو نصرة للحق لكن لا لأجل إرضاء الله تعالى بل لتظهر للنفس مزية على غيرها، ففي الحديث: «من ترك المراء ـ أي الجدال ـ وهو محق بنى الله له بيتاً في وسط الجنة»[8]، وفي آخر: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[9]، وفي آخر: «أكثر

---

(١) رواه بهذا اللفظ مسلم عنن أبي هريرة ﷺ برقم: (١٠٩) باب بيان خصال المنافق، وابن حبان عن الحسن برقم: (٢٥٧) باب ذكر إطلاق اسم النفاق على من أتى بجزء من أجزائه، ورواه عبد الرزاق عن الحسن برقم: (٢٠١٩١)، باب الأمانة وما جاء فيها. ورواه غيرهم.

(٢) رواه البخاري برقم: (٣٤)، باب علامة المنافق، ومسلم برقم: (٥٨)، باب خصال المنافق، وابن حبان برقم: (٢٥٤)، باب ذكر إطلاق اسم النفاق عل من أتى بجزء من أجزائه، وكلهم عن عبد الله بن عمرو ﷺ. ورواه غيرهم.

(٣) الهمزة: ١.

(٤) القلم: ١١.

(٥) انظر تفسير الطبري: (١٢/١٨٣)، وابن كثير: (٤/٧٠٩)، والقرطبي: (٢٠/١٦٩)، والدر المنثور: (٨/٦٢٤).

(٦) رواه البخاري في الأدب المفرد برقم: (٣٢٢)، ومسلم برقم١٠٥) باب بيان غلظ تحريم النميمة، وأبو داود برقم: (٤٨٧١)، باب في القتات النمام، والترمذي برقم: (٢٠٢٦)، باب ما جاء في النمام، وأحمد برقم: (٢٣٢٩٥)، كلهم عن حذيفة ﷺ. ورواه غيرهم. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٧) لم أجده.

(٨) رواه ابن ماجه برقم: (٥١) باب اجتناب البدع والجدل، والترمذي برقم: (١٩٩٣) باب ما جاء في المراء، والطبراني في الأوسط برقم: (٨٧٨) والكبير برقم: (٧٧٧٠).كلهم عن أنس بن مالك ﷺ. وقال الترمذي: حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث سلمة بن وردان عن أنس بن مالك ﷺ.

(٩) رواه البخاري برقم: (٦٦٦٥ ـ ٥٦٩٧ ـ ٤٨) باب ما ينهى من السباب واللعن، وباب قول النبيّ ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»، ومسلم برقم: (٦٤) باب بيان قول النبيّ ﷺ: «سباب=

الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل»[1].

رابعاً- وقوع اللسان في الغيبة وهي: ذكرك أخاك بما يكره وإن كان الذي تقوله موجوداً فيه، وتكون بالقلب كما تكون في الفعل كالغمز والمحاكاة، بأن يمشي كمشيته أو يتكلم بكلامه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾[2]، وفي الحديث: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه»[3]، وفي رواية: «وأن يظن به السوء»[4]، وفي آخر: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من اتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته»[5]، وفي آخر: «من تكلم في الناس بما فيهم سلَّط الله عليه من يتكلم فيه بما ليس فيه»[6]، وفي آخر: «من عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتى يفعله»[7]، وفي آخر: «مررت ليلة أُسريَ بي بقوم

= المسلم فسق وقتاله كفر»، وابن حبان برقم: (٥٩٣٩) باب ما جاء في الفتن، وسبب ورود هذا الحديث ما أخرجه البغوي والطبراني بسندهما عن عمرو بن مقرن المزني النعماني أنه قال: انتهى رسول الله ﷺ إلى مجلس من مجالس الأنصار، ورجل من الأنصار عرف بالبذاء والمشاتمة، فقال رسول الله ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر». وزاد البغوي في روايته: فقال الرجل: والله، لا أساب رجلاً. انظر الفتح: (١٣/ ٢٧).

(١) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني عن مسعود برقم: (٨٥٤٨)، وأخرجه ابن أبي الجعد في مسنده برقم: (٢٩٨٠)، وابن أبي الدنيا في الصّمت برقم: (٧٤ ـ ٧٦ ـ ٦٧٤) كلاهما عن قتادة بن دعامة لكن بلفظ: «إن أعظم الناس خطايا- وفي رواية ابن أبي الجعد: خطأً ـ أكثرهم خوضاً في الباطل».

(٢) الحجرات: ١٢.

(٣) رواه مسلم برقم: (٢٥٦٤) باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، وأبو داود برقم: (٤٨٨٢) باب في الغيبة، والترمذي برقم: (١٩٢٧) باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم، كلهم عن أبي هريرة ﷺ وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٤) لم أجده.

(٥) رواه أبو داود عن أبي برزة ﷺ برقم: (٤٨٨٠) باب الغيبة، وأحمد عنه برقم: (١٩٧٩١)، والطبراني عن ابن عباس ﷺ برقم: (١١٤٤٤)، وأبو يعلى في مسنده عن البراء ﷺ برقم: (١٦٧٥). ورواه غيرهم

(٦) لم أجده

(٧) رواه الترمذي برقم: (٢٥٠٥)، والطبراني في الأوسط برقم: (٧٢٤٤). وقال الترمذي: حسن غريب، ليس إسناده بمتصل، وقال البغوي: هو منقطع لأنّ خالد بن معدان ـ الرواي عن معاذ ﷺ ـ لم يدرك معاذاً ﷺ، ومحمد بن الحسن بن أبي يزيد قال أبو داود وغيره: كذاب، ومن ثمّ أورده ابن الجوزي في الموضوعات، قال المناوي في الفيض: ومن العجب أنّ المؤلف ـ السيوطي في الجامع الصّغير ـ لم يكتف بإيراده حتى أنّه رمز لحسنه. انظر فيض القدير: (٦/ ١٣٨).

لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»[1].

وأحسن أعمالي إذا كنت ناطقاً بما ليس يعني من أمور كثيرة

حاصله: أنّ أحسن أعمالي إذا كنت ناطقاً أن أنطق بأمور كثيرة مما لا حاجة لي بها، وذلك لأن الشيطان إذا لم يتيسر له أن يوقعني في معصية خشي مني الالتفات لطاعة فيشغلني بما لا يعنيني حتى لا أتذكر الطاعة، فتستولي الغفلة على قلبي حتى يردني للمعصية التي هي حظه وحظ النفس من الإنسان على الداوم، ففي الحديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[2]، وفي آخر: «إذا وجدت قساوة في قلبك ووهناً في بدنك وحرماناً في رزقك فاعلم أنك تكلمت فيما لا يعنيك»[3]، وفي آخر: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يتبين فيها ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»[4]، وفي آخر: «من حسب كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه»[5]، وفي آخر: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإنّ كثرة الكلام بغير ذكر قسوة للقلب وإن أبعد القلوب من الله القلب القاسي»[6]، وفي آخر: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يريد بها بأساً إلا ليضحك القوم فإنه ليقع منها أبعد من السماء»[7]، وفي آخر: «إن الضحكة

---

(١) رواه أبوداود برقم: (٤٨٧٨) باب في الغيبة، وأحمد برقم: (١٣٣٦٤)، والضياء المقدسي في المختارة برقم: (٢٢٨٦).

(٢) رواه ابن حبان برقم: (٢٢٩) باب ما جاء في صفات المؤمنين، وابن ماجه برقم: (٣٩٧٦) باب كف اللسان في الفتنة، والترمذي برقم: (٢٣٠٧)، ومالك في الموطأ برقم: (١٦٠٤) باب ما جاء في حسن الخلق. وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ إلا من هذا الوجه.

(٣) هو من كلام مالك بن دينار ﷺ.. انظر فيض القدير: (١/٢٨٧).

(٤) رواه مسلم برقم: (٢٩٨٨) باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار..، وابن حبان برقم: (٥٧٠٧) باب ذكر البيان بأن المرء يهوي في النار بالشيء اليسير يقوله..، وأحمد برقم: (٨٩٠٩).

(٥) جزء من حديث طويل أخرجه ابن حبان عن أبي ذر ﷺ برقم: (٣٦٠) باب ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كل خير حظّ رجاء التخلص في العقبى بشيء منها.

(٦) رواه الترمذي: (٢٤١١) باب ما جاء في حفظ اللسان، وابن أبي شيبة في المصنف برقم: (٣١٨٧٩) في كتاب الزهد. وقال الترمذي: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن عبد الله بن حاطب.

(٧) رواه أحمد في المسند برقم: (١١٣٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. قال الهيثمي: فيه أبو إسرائيل إسماعيل بن خليفة وهو ضعيف. انظر فيض القدير: (٢/٣٣٦).

في النار»[1]، وفي آخر: «استشهد رجل يوم أُحُد فوجد على بطنه حجر مربوط من الجوع فمسحت أمه التراب عن وجهه وقالت: هنيئاً لك، لك الجنة، فقال النبيّ ﷺ وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره»[2].

وطرفي كم أبدى له الدهر عِبْرة فلم يأت من خوف الإله بعَبْرة

حاصله: أنّ طَرْفي كم ـ أي كثيراً ـ ما شاهد في الدهر والزمان عِبْرة ـ أي: أمراً يعتبر ويتعظ منه ـ كالانتقامات الحاصلة منه تعالى للعصاة وانعكاس الحال بهم، ومع ذلك لم يعتبر ولم يحصل له الخوف التام منه تعالى بحيث ينزجر عن المعاصي وتسيل منه العَبْرة ـ بالفتح للعين ـ أي: الدمع الغزير خوفاً من المولى القدير، وقد ورد: (من لم يعتبر بغيره اعتبر غيره فيه ومن لم يتعظ بغيره اتعظ غيره فيه)[3] وكما قال:

وأذني لا تصغي لخير كأنها عن الذكر والقرآن صمَّت وصدت

حاصله: أن أذنه لا تصغي لسماع الخير لاسترسالها في استماع غيره، فكأنها صمَّاء طرشاء مصدودة ممنوعة من الإصغاء لاستماع الذكر والقرآن وغيرهما من أنواع البر لكراهتها ذلك بسبب أن ذلك مما يقطعها عن سماع ما تميل إليه من لغو الحديث ومحرمه، وفي الحديث: «المستمع شريك للقائل»[4] لإصغائه إلى ذلك.

ولي قدم لو قدمت لظلامة لطارت ولو أني دعيت لقربة

لكنت كذي رجلين رجل صحيحة وأخرى رمى فيها الزمان فشلت

ولا عضو إلا قد أصر على الذي يواتيه من كل الفعال القبيحة

حاصله: أن قدمه لو قدمها ـ أي: وجهها ـ لظُلامة ـ بضم الظاء، أي: معصية ـ لأسرعت في طلب نيلها فكأنها تطير، ولو أنه دعاها داعٍ وطلب منها التوجه لقربة ـ بضم القاف، أي: طاعة ـ لكان شبيهاً بمن له رجلان إحداهما سليمة والأخرى رمى إليها الزمان سهم الانتقام فشَلت ـ بفتح الشين، أي: يبست ـ فكما أن حركته متعسرة

---

(١) لم أجده.

(٢) رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده برقم: (٤٠١٧) من حديث الأعمش عن أنس ﷺ.

(٣) لم أجده.

(٤) ليس من كلام النبيّ ﷺ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية: (١٢٣/٩) عن الإمام الشافعي ﷺ، وابن أبي الدنيا في الصّمت برقم: (٢٤٧) من كلام عمر بن عتبة، وابن المبارك في الزهد: (١٦/١) من كلام يزيد بن أبي حبيب.

أو متعذرة برجل واحدة فكذلك إقبالي على الخير، ولا عضو من أعضائي إذا تأملت فيه إلا وجدته مصرًّا ومواظباً على الأفعال القبيحة المخالفة للشرع.

إذا أنا قد صليت فالقلب غافل وأنقرها نقراً بغير سكينة

حاصله: إذا صلّى فلا يحصل له حضور قلب مع الله تعالى، بل يكون قلبه مشغولاً بما اعتاده من الغفلة عن الله تعالى، وإذا ركع أو سجد فلا يتمهما إتماماً كاملاً بل ينقر كنقر الغراب، وفي الحديث: «لا يتقبل الله من عبد عملاً حتى يشهد قلبه مع بدنه»[1] أو كما قال، وفي آخر: «مثل الذي لا يتم ركوعه وسجوده مثل الجائع يأكل التمرة والتمرتين لا يغنيان عنه شيئاً»[2]، وفي آخر: «ما من مصل إلا وملك عن يمينه وملك عن شماله فإن أتمَّها عرجا بها وإن لم يتمَّها ضربا بها وجهه»[3].

وإن صمت لم أترك حلالاً ولم أزِدْ على ظمئي طول النهار وجوعة

حاصله: إذا صمت لم أترك مباحاً للصائم فعله إلا فعلته، مع أنه يُطلب ترك جميع ما فيه الترفُّه كالملابس والمشامّ ـ أي: الطيب والروائح العطرية ـ والمنظورات، على أني لغفلتي عن آداب الصّوم لم أحصِّل إلا الظمأ والعطش والجوع طول النهار، مع أنه يطلب ترك المحرمات بالأولى، ففي الحديث: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[4]، وفي آخر: «ليس الصّيام عن الأكل والشرب إنما الصّيام عن اللغو والرفث»[5]، وفي آخر: «الصّيام جُنَّة ما لم يخرقها.

---

(١) رواه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصّلاة: (١/١٩٨) من رواية عثمان بن دهرش، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/٢٠٣): ووصله الديلمي في مسند الفردوس بأبي بن كعب والمرسل أصح.

(٢) عزاه في الترغيب إلى الأصبهاني، وعزاه في الجامع الصّغير للدارقطني في الأفراد ورمز لضعفه، انظره فيه برقم: (٨١١١)، وذكره ابن الجوزي في الأحاديث الواهية. انظر الترغيب: (١/٢٠٠)، والعلل المتناهية في الأحاديث الواهية: (١/٤٤٢).

(٣) رواه الطبراني في الكبير برقم: (٣٨٤٠)، وأبو يعلى الموصلي في مسنده برقم: (٧١٨٤). وقال في مجمع الزوائد (٢/٢٠٣): إسناد أبي يعلى حسن، وعزاه في الكنز إلى ابن خزيمة في صحيحه والبخاري في تاريخه وابن منده وابن عساكر. انظره برقم: (٣٨٤٠).

(٤) رواه البخاري برقم: (١٨٠٤) باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصّوم، وأبو داود برقم: (٢٣٦٢) باب الغيبة للصائم، والترمذي برقم: (٧٠٧) باب ما جاء في التشديد في الغيبة للصائم. كلهم عن أبي هريرة ﷺ. ورواه غيرهم. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٥) لم أجده.

قيل: وبما يخرقها؟ فقال النبيّ ﷺ: بكذب أو غيبة»[1]، وفي آخر: «رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ورُبَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر»[2].

فيا ويح قلبي من دواهٍ لو انها ... بدت للبرايا أعرضت عن مودتي

إذا همَّ يوماً بالعبادة لم يكن ... له فعلها إلا بأعظم كلفةٍ

وإن وقعت تلك العبادة شابها ... شوائب من نقص وإفساد نيَّة

وإن هي قد تمت فليس بآمن ... عليها من الإبطال ساعة منة

حاصله: يقول: يا ويح قلبي - أي: يا هلاكه أو يا حزنه - من أجل دواه - جمع داهية - أي: مصيبة تدهي العقل وتغيّبه، والمراد بها العيوب القائمة بقلبه من نحو الكبر والعجب والرياء، والحقد وحب المحمدة والسمعة، وعدم الإخلاص، واشتهاء المعصية مع التلبس ظاهراً بضدّ ما ذُكِر من أجل تنفير الناس عنها، إيهاماً لهم أني منزّه عنها، فلو كُشف للناس عن سريرتي وبدت وظهرت لهم لأعرضوا عن مودتي ومكالمتي، ومن جملة مفاسد قلبي أنه إذا هم في زمن بعبادة لم يفعلها إلا إن كان للنفس والشيطان حظّ في فعلها كأجرة إمامة رغبة في المآكل والمشارب، وإن لم يكن لها حظ فيها لم تقع منه إلا بكُلفة ومشقة بحيث تأتي لا روحانية فيها لأدائه لها مع الكُره وعدم الشوق والمحبة، وإن فُرض أنّ تلك العبادة سَلِمت له من كل ما ذكر فليس بآمن من أنْ يتبعها بما يحبطها، كالمِنَّة في الصّدقة والتحدّث بالطاعة فرحاً باعتقاد الناس فيه والاعتماد عليها. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[4].

قال صاحب البرأة[5]:

---

(١) رواه النسائي برقم: (٢٢٣٣) في فضل الصّيام، وأحمد برقم: (١٦٩٠) من حديث أبي عبيدة، والدارمي برقم: (١٧٣٢) باب الصّائم يغتاب فيخرق صومه. ورواه غيرهم.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك برقم: (١٥٧١) كتاب الصّيام، وابن خزيمة في صحيحه برقم: (١٩٩٧) باب نفي ثواب الصّوم عن الممسك عن الطعام والشراب مع ارتكابه ما زجر عنه غير الأكل والشرب، والنسائي في السنن برقم: (٣٢٤٩) باب ما ينهى عنه الصّائم، كلهم عن أبي هريرة ﷺ. ورواه غيرهم. وقال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

(٣) المدثر: ٦.

(٤) البقرة: ٢٦٤.

(٥) تقدمت ترجمته.

استغفر الله من قول بلا عمل | لقد نسبت به نسلاً لذي عقم
أمرتك الخير لكن ما أتمرت به | وما استقمت فما قولي لك استقم
ولا تزودت قبل الموت نافلة | ولم أصل سوى فرض ولم أصم
ظلمت سنة من أحيى الظلام إلى | أن اشتكت قدماه الضر من ورم

وقال الشاعر[1]:

يا أيها الرجل المعلم غيره | هلا لنفسك كان ذا التعليم
إبدأ بنفسك فانهها عن غيِّها | فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويشتفي | بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خُلُقٍ وتأتي مثله | عار عليك إذا فعلت عظيم[2]

** ** **

وقائلة لما رأت ما أصابني | وما أنا فيه من لهيب وزفرة
رويدك لا تقنط وإن كثر الخطا | ولا تيأسن من نيل روح ورحمة
مع العسر يسر والتصبر نصرة | ولا فرج إلا بشدة أزمة

حاصله: لما رأت داعية الرجاء ما أصابني من تملك النفس والشيطان لجوارحي، وشاهدت ما أنا فيه من لهيب القلب وحرقته، وعاينت زفرة الأنفاس من حرارة غيظي

---

(١) هو المتوكل بن عبد الله بن نهشل بن مسافع بن وهب بن عمرو بن لقيط بن يعمر بن عامر بن ليث. من شعراء الحماسة، وهو ليثي من ليث بن بكر، يكنى أبا جهمة من أهل الكوفة في عصر معاوية وابنه يزيد.
ولقد اختار أبو تمام قطعتين من شعره إحداهما: نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا
وقال الآمدي: هو صاحب البيت المشهور: لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
شهد أيام معاوية ويزيد ومدحه، ومدح عدداً من الأمراء منهم سعيد بن العاص أمير المدينة وعبد الله بن خالد بن أسيد أمير الكوفة وغيرهم، وأغلب الظن أنه توفي سنة وفاة عبد الملك بن مروان أي سنة (٨٥هـ) وكان بينه وبين الأخطل مساجلات دلت على فطنة، وذكاء متوقد، وشعر جزل رائق رائع، ولم يكن من أسرة معروفة مشهورة، لذلك حجبت أخباره وسيرته ولم يصلنا إلا القليل ومع ذلك نرى ابن سلام جعله في الطبقة السابعة من الإسلاميين وهم أربعة:
١- المتوكل الليثي ٢- زياد الأعجم ٣- يزيد بن مفرغ الحميري ٤- عدي بن الرفاع.
وهذا يظهر لنا أن المتوكل كان مشهوراً في عصره، خاصة في الكوفة، وكان ذا مكانة بين الشعراء، وأدلّ شيء على ذلك مساجلاته مع الأخطل. انظر طبقات فحول الشعراء: (٦٨١/٢)، والأغاني لأبي فرج: (١٨٦/١٢)، وديوان الحماسة: (٤٢/٢ ـ٣٦٤ـ٣٧٠)

(٢) الأبيات من البحر الكامل.

على ما فاتني من الكمالات وابتليت به من الزلات، فربما تقول لي: رويدك ـ أي: تمهل ـ ولا تقنط وإن كثر منك الخطأ والزلل، فلا تيأس من رَوح ـ بفتح الراء ـ أي: رحمة الله التي تَهُب على قلوب عباده القاسية فترجعها ليِّنة مقربة، فإن الله تعالى قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[1] فأعاد العسر معرفاً إشارة إلى أنه عين الأول لا غيره، وأعاد اليسر منكّراً إشارة إلى مغايرته الأول[2]، ففيها إشارة إلى أنه لا يقع عسر واحد إلا ويعقبه يسران[3]، «ولن يغلب عسر يسرين» كما في الحديث[4].

كما قالت لي النفس أيضاً: إن التصبر وتجرُّع مرارته يعقبه نصرة القلب والعقل على النفس والشيطان، وقالت: لا فرج إلا بشدة أزمة ـ أي: بعد شدة عظيمة ـ قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[5].

فكم عامل أعمال أهل جهنم ... فلما دنا منها أعيد لجنة

---

(١) الشرح: ٥ ـ ٦

(٢) انظر اللباب على البناء والإعراب: (٢/١٣٧)، ومغني اللبيب: (١/١٨٦).

(٣) قال المناوي في فيض القدير: (٥/٣٠٣) قال الحكيم: اليسر الأول هو ما أعطي العبد من الآلة والعلم والمعرفة والقوة، فلولا النفس التي تحارب صاحبها تدفع ما يريد إفساده عليه لكان الأمر يتم، فإنه قد أعطي يسر ما به يقوم الأمر الذي أُمر به، لكن جاءت النفس بشهواتها والعدو بكيده فاحتاج إلى يسر آخر، فإذا جاء العون انهزمت النفس والشهوة وهرب العدو وبطل كيده، فهذا ليس يسر فهما يسران لن يغلبهما هذا العسر الذي بينهما، وهو مجاهدة النفس حتى يأتيك اليسر الثاني، وهو العون من الله بعطفه عليك، كرر ذلك اتباعا للفظ الآية إشارة إلى أن العسرين في المحلين واحد واليسر الأول غير الثاني لأن النكرة إذا كررت فالثاني غير الأول والمعرفة الثانية عينه، قال ابن أبي جمرة: كان علي كرم الله وجهه إذا كان في شدة استبشر وفرح أو في رخاء قلق، فقيل له ـ أي: سأل عن سبب ذلك ـ فقال: ما من ترحة إلا وتبعتها فرحة، وما من فرحة إلا وتبعتها ترحة، فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا. ا.هـ

(٤) روي هذا الحديث مرفوعاً موصولاً، ومرسلاً، وموقوفاً، ومنقطعاً، أما المرفوع فأخرجه ابن مردويه من حديث جابر ﷺ بإسناد ضعيف، والمنقطع أخرجه مالك في الموطأ عن عمر ﷺ، وأما المرسل فأخرجه عبد الرزاق والطبراني من حديث الحسن البصري عن النبيّ ﷺ، وأما الموقوف فأخرجه مالك عن زيد ابن أسلم عن أبيه عن عمر. وقال فيه الحاكم: قد صح عن عمر وعلي رضي الله عنهما. وقال الذهبي في التلخيص: صحيح على شرط مسلم. انظر الموطأ للإمام مالك من رواية يحيى الليثي برقم: (٩٦١)، ومصنف ابن أبي شيبة برقم: (١٩٤٨٦ ـ ٣٣٨٤٠)، والشعب للبيهقي: (١٠١٠٠ ـ ١٠٠١٣)، وكشف الخفاء للعجلوني برقم: (٢٠٧٥)، والفتح لابن حجر: (١٠/٣٤٠)،

(٥) الزمر: ٥٣.

حاصله :

ولقد قالت لي داعية الرجاء: كم ـ أي: كثير ـ ممن عمل بأعمال أهل جهنم لما دنا أجله وقرب موته أعيد وردَّ لأعمال أهل الجنة حتى فاز بها، كما يكون العكس من هذا لكن بندرة، وفي الحديث: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[1].

فقلت لها جوزيت خيراً على الذي ... منحت من البشرى وحسن النصيحة

فهل من سبيل للنجاة من الردى ... وما حيلتي في أن تفرج كربتي

فقالت: فطب نفساً وقم متوجهاً ... لطيبة تسلمْ من بوار وخيبة

حاصله :

أنّه لما قالت لي داعية الرجاء ما تقدم، قلت لها: جزاك الله عني خيراً من أجل البشرى التي منحتني إياها، وحسن النصيحة التي توجهت بها إلي في أن لا أيأس من رحمة ربي، فهل تكملين المعروف فترشديني لسبيل النجاة من الردى ـ أي: لطريق ينقذني الله تعالى به من معصيته ويردني لطاعته ـ ثمّ قلت لها: لقد ضاقت عليّ حيلتي فلم أجد ما ينفع في تفريج كربتي، فقالت لي: طب نفساً، وقم بعظيم الرجاء متوجهاً لطيبة التي طابت بحلول النبيّ ﷺ في أكنافها وتنقله في عَرَصاتها، ومن قبل مهاجرته إليها، فإن وصلت إليها وتشفعت بساكنها سلمت من بوار وهلاك، ومن خيبة وعدم حصول مأرب. ففي الحديث: «من زار قبري وجبت له شفاعتي»[2]، وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا

---

(١) رواه البخاري رقم: (٢١٥٤)، ومسلم واللفظ له برقم: (٢٦٤٣) باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، وأبو داود برقم: (٤٧٠٨)، والترمذي برقم: (٢١٣٧) باب ما جاء أنّ الأعمال بالخواتيم. ورواه غيرهم، كلهم عن ابن مسعود ﷺ.

(٢) رواه بهذا اللفظ الدارقطني في سننه برقم: (١٩٤)، والبيهقي في الشعب برقم: (٤١٥٩)، ورواه الطيالسي في مسنده برقم: (٦٥) لكن بلفظ: «من زار قبري أو من زارني كنت له شفيعاً أو شهيداً ومن مات في أحد الحرمين بعثه الله من الآمنين يوم القيامة»، ورواه الطبراني في الكبير برقم: (١٣٤٩٦)، والأوسط برقم: (٢٧٨) بلفظ: «من زارني بعد موتي كان كمن زارني في حياتي». كلهم عن ابن عمر ﷺ. وقال في الشوكاني في الفوائد المجموعة (١٧): إن طرقه كلّها ليّنة لكن يقوّي بعضها بعضاً، وانظر تلخيص الحبير لابن حجر: (٢/٢٦٦ ـ ٢٦٧).

﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾[1]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾[2].

فكم آيس من رحمة الله قد أتي ... إليها فحطت عنه كل خطيئة

فدونك فاقصدها بذل فإنها ... تقيل من الزلات من كل عثرة

وإن لم تكن أهلاً للشمّ ترابها ... فمن شأنها الإغضاء عن ذي الجريمة

حاصله: أنها قالت لي فيما قالت: كم ـ أي: كثير ـ ممن يئس من رحمة الله قد أتى إليها ـ أي: إلى طيبة ـ مستشفعاً بساكنها ﷺ فحُطّت عنه خطيئته ـ أي: فقُبل وغفرت ذنوبه ـ ففي الحديث: «تشفعوا بجاهي فإن جاهي عند الله عريض» أو كما قال[3]، وفي آخر: «حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم، ومماتي خير لكم تعرض عليّ أعمالكم فما رأيت من خير حمدت الله عليه وما رأيت من شر استغفرت لكم»[4].

وقالت: فإذا كان الأمر كما ذُكر فدونك أَقْبل على امتثال أمر النصيحة، فاقصدها ـ أي: طيبة ـ متلبساً بالذل والانكسار، معترفاً بالذنب، فتطلب العفو عما مضى، فإن المقام مقام تستقال فيه العثرات وتغفر فيه الذنوب والزلات إقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾[5].

وقالت: لا يمنعك من زيارتها والتشفع بها كونك لست أهلاً للحلول في حماها الرفيع لأن من شأنها الإغضاء وكف الطرف عن النظر لجريمة صاحب الجريمة لما جبلت عليه من مكارم الأخلاق[6]، كيف وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[7]، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾[8]، ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[9].

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) البقرة: ٢٢٢.

(٣) لم أجده بهذا اللفظ ولا ما يقاربه.

(٤) راه البزار في مسنده برقم: (١٩٢٥) عن ابن مسعود ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجاله رجال الصّحيح. انظر المجمع: (٨/٥٩٤).

(٥) النساء: ٦٤.

(٦) يريد بطيبة عند الإطلاق النبيّ ﷺ كما تلاحظ على سبيل المجاز المرسل.

(٧) الأنبياء: ١٠٧.

(٨) القلم: ٤.

(٩) التوبة: ١٢٨.

وإن لم تكن حصّلت زاداً من التقى   فزاد التقى يُلْقى بتلك المدينة

حاصله : قالت داعيةُ الرّجاءِ تخاطبني: إذا لم تكن محصِّلاً للتقوى التي هي زاد في قوت الأرواح في مدة سلوكها إلى طريق الفلاح، فزاد التقى يلقى ويوجد في تلك المدينة لما حوته من البركات واختصت به من مزيد الرحمات والخيرات وتضاعف الحسنات وتكفير السيئات، فاحظ بها لتنال من فضلها.

وقف في حمى خير الورى بتأدُّب   وذل وكسر وافتقار وخشية

وقل يا أعز المرسلين ومن له   على ذروة العلياء أعظم رتبة

وخير نبي جاء من خير عنصر   بخير كتاب قد هدى خير أمة

وأولهم خلقاً ونشراً إذا دعوا   وآخرهم بعثاً وأوسط نسبة

حاصله : فإن بلَّغك الله طيبة الطيّبة فقف في حماها ـ الذي من وصل إليه أمن ـ متأدباً قلباً وقالباً، مظهراً للذلّ والانكسار، مرتدٍ ثياب الحاجة والعوز والافتقار، مستشعراً للمهابة والجلال والإكبار، معظّماً صاحب ذلك المقام الرفيع والحمى المنيع بحسب طاقتك، وقل حينئذ: يا أعز وأشرف وأعظم المرسلين، ويا من له أعلى المنازل والرتب في القرب والشرف والحسب والنسب، ففي الحديث: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه تحت لوائي ولا فخر»[(١)].

وقل: يا خير نبي جاء من خير عنصر، أي: ولد ﷺ من خير الأصول، ففي الحديث: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم»[(٢)].

وقالت: لقد جاء هذا النبيّ الكريم ﷺ من عند ربه وأُرسل بتبليغ خير كتاب، قد جعل الله تعالى فيه هداية خير أمة، هي أمته ﷺ قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[(٣)]، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[(٤)]، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ

---

(١) رواه الترمذي برقم: (٣١٤٨) كتاب التفسير، وأحمد برقم: (٢٥٤٦). وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) رواه مسلم برقم: (٢٢٧٦) باب فضل نسب النبيّ ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، والترمذي برقم: (٣٦٠٦) باب فضل النبيّ ﷺ، وأحمد في المسند برقم: (١٧٠٢٧)، كلهم عن واثلة بن الأسقع ﷺ. ورواه غيرهم.

(٣) يونس: ١.

(٤) فصلت: ٤٢.

ٱللَّهِ﴾[1]، ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[3]، ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[4].

وقالت: قل: يا أول المرسلين خلقاً في عالم الأرواح وأولهم بعثاً من القبر في عالم الحشر إذا ما دعاهم إسرافيل للقيام من قبورهم للحساب، والعرض على رب الأرباب، ويا آخر المرسلين بعثاً وظهوراً في عالم الأشباح عند مزاوجة الأشباح بالأرواح لاكتساب مراتب الفلاح، ويا أوسط المرسلين نسبة ـ أي: أعدلهم وأحسنهم نسباً.

ففي الحديث: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع»[5].

وفي آخر: «نحن الآخرون ونحن السابقون»[6].

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أنفَسكم﴾[7] ـ بفتح الفاء ـ أي: أشرفكم وأعظمكم نسباً.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[8].

النسب النبوي الشريف:

هو ـ ﷺ ـ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ـ واسمه: شيبة الحمد ـ بن هاشم

---

(1) الحشر: 21.

(2) الإسراء: 88.

(3) آل عمران: 110.

(4) البقرة: 2.

(5) رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ برقم: (2278) باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، واللفظ له، وأبو داود عن أنس ﷺ برقم: (4673) باب التخيير بين الأنبياء عليه السلام، والترمذي عن أبي سعيد ﷺ برقم: (3148) باب فضل النبيّ ﷺ. ورواه غيرهم.

(6) رواه مسلم برقم: (855) باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، وأحمد في المسند برقم: (7308)، وابن خزيمة في صحيحه برقم: (1720) كتاب الجمعة، وابن حبان في صحيحه برقم: (2782). كلهم عن أبي هريرة ﷺ. ورواه غيرهم

(7) قراءة الفتح قرأ بها ابن عباس والزهري والضحاك وابن محيصن وأبو العالية عن أبي عمرو. انظر تفسير البغوي: (1/115)، وزاد المسير: (3/520).

(8) الأحزاب: 40.

ـ واسمه: عمرو ـ بن عبد مناف ـ واسمه: المغيرة ـ بن قصي ـ واسمه: مجمع ـ بن كلاب ـ واسمه: حكيم ـ بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ـ واسمه: قريش، وإليه تنسب بطونها وما فوقه كناني ليس بقرشي[1] ـ بن مدركة ـ واسمه: عمرو ـ بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وإليه ينتهي نسب النبيّ ﷺ المتفق عليه.

مدخل:

لك المعجزات الغر لاحت خوارقاً ... وباهر آيات عن الحصر جلت

ولكن سيأتي من بدائع حسنها ... بنزر يسير وقعة بعد وقعة

حاصله: قل: يا خير المرسلين ويا إمام الثقلين لك ـ لا لغيرك ـ المعجزات، لأن معجزات غيرك وإن كثرت فهي نزر قليل بالنظر لمعجزاتك الغراء ـ البِيْض، وأصله الخيل التي في جبهتها بياض ـ ومن لازِم ذلك نجابتُها وعلوُّ مرتبتها ومنقبتها، وهذا اللازم هو المراد، فقد لاحت تلك المعجزات وظهرت ـ في حال كونها ـ خارقة للعادات بحيث تعجز الخلائق عن مضاهاتها.

ولك يا رسول الله باهر آيات ـ مِن بهَرَهُ إذا غلبه ـ أي: لك آيات وعلامات دالة على نبوتك من القرآن وغيره، فهي بمعنى المعجزات، لكنّ المقام مقام إطناب، لأنه للشكاية.

وآياتك يا سيّدي كثيرة جلت وعظمت عن الحصر ـ أي: لا قدرة لي على حصرها ـ ولكن سيأتي ليَ التشرّف بذكر النزر القليل من بدائعها ـ أي: من محاسنها المبتدعة المبتكرة لا على مثال سابق ـ وذلك عند الكلام على تلك المعجزات

---

(١) قال الإمام الكبير والجهبذ المطلع الشهير شيخ الإسلام وحجة الله على الأنام عبد الله سراج الدين لازالت تتوالى على ضيحه الأزهر ومثواه الأنور شآبيب الرحمة والرضوان، قال نقلاً عن الحافظ الزرقاني: وهذا هو الذي صححه الدمياطي والعراقي وغيرهما، والحجة لهم حديث مسلم والترمذي مرفوعاً: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة..» الحديث.

قال: وذهب آخرون إلى أنّ أصل قريش: النضر، وبه قال الشافعي ﷺ، وعزاه العراقي للأكثرين، وقال النووي: وهو الصّحيح المشهور، وأيضاً صححه الحافظ الصّلاح العلائي وعزاه للمحققين، واحتجوا بحديث الأشعث بن قيس ﷺ قال: قدمت على رسول الله ﷺ في وفد كندة، فقلت: ألستم منا يا رسول الله؟ قال: «لا، نحن بنو النضر بن كنانة» رواه ابن ماجه وابن عبد البر وأبو نعيم في الرياضة. انظر كتاب محمد رسول ﷺ: (٤٥٨).

والخوارق، فنذكر منها الوقعة بعد الوقعة ـ أي: المعجزة تلو المعجزة والخارقة تلو الأخرى.

التنويه باسمه السامي ﷺ وقرنه باسم الله عز وجل في الذكر

لقد رفع الرحمن ذكرك فاغتدى يقارن ذكر الله عند التحيَّة

حاصله: والله يا رسول الله لقد رفع الرحمنُ ـ الذي عمَّ الخلائق إنعامُه ـ ذِكْرَكَ منوّهاً برتبتك ومقامك واللفظ الدال عليك، فاغتدى ـ صار ـ ذكرك ملازماً ومقارناً لذكر الله عند التحية والتعظيم له تعالى. يشير بذلك إلى ماروي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أتاني جبريل فقال: إن ربي وربك يقول لك: كيف رفعت ذكرك ؟. قال: الله أعلم. قال: (إذا ذكرتُ ذكِرتَ معي)»[1].

وعن قتادة قال: (رفع الله تعالى ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهِّد ولا صاحب صلاة إلا ينادي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله)[2]. صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأحبابه ومحبيه إلى يوم الدين. آمين.

رأى آدم في العرش ذكرك ثابتاً يلي ذكر رب العالمين برفعة
فبات يناجي ربه متضرِّعاً بحقك لما أن دعاه لبغية

حاصله: لقد رأى آدم ذِكْرَك مكتوباً مقارناً لذكر الله تعالى على قوائم العرش فاستشعر رفعتك، فلمّا وقع في المعصية بات ـ صار ـ يناجي ربه ويناديه متضرعاً إليه بذل وانكسار وجِدّ واجتهاد متوسلاً في قبول توبته بحقك يا رسول الله، فأعطاه الله بغيته، وقبل توبته، ووعده بعَوْده لجنته.

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما اقترف آدم الخطيئة، قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي. فقال الله: يا آدم، وكيف عرفت محمداً، ولم أخلقه ؟ قال: يا رب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيَّ من روحك، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق. فقال الله: صدقت يا

(١) رواه ابن حبان في صحيحه برقم: (٣٣٨٢) باب ذكر الإخبار عن إباحة تعداد النعم للمنعم على المنع عليه في الدنيا، وأبو يعلى في مسنده برقم: (١٣٨٠). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: إسناده حسن.

(٢) انظر تفسير الطبري: (٦٢٧/١٢)، وابن كثير: (٦٧٧/٤)، وزاد المسير: (١٦٣/٩).

آدم، إنه لأحب الخلق إليّ، وإذ سألتني بحقه، فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك»[1].

ذكر النبيّ ﷺ في الكتب السماوية السابقة

وفي كل كتب الله نعتك قد أتى يقصُّ علينا ملة بعد ملَّة

حاصله: لقد أنزل الله سبحانه وتعالى في جميع الكتب السماوية يا رسول الله نعتك ووصفك، فهو يُقَصّ على الناس ملَّة بعد ملّة.

ففي بعض مزامير داود عليه السلام: (أن الله مظهر من صهيون إكليلاً محموداً).

وصهيون: العرب، والإكليل: النبوّة، والمحمود: سيّدنا محمد ﷺ.

وفي مزمور آخر: (تقلَّد أيها الجبار السيف، فإنّ ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مسنونة والأمم يخرّون تحتك).

وفي مزمور آخر: (إنه يجوز من البحر إلى البحر ومن لدن الأنهار إلى منقطع التراب، وأنه تخر أهل الجزائر بين يديه على ركبهم، وتلحسُ أعداؤه التراب، تأتيه الملوك بالقرابين، وتسجد وتدين له الأمم بالطاعة والاعتقاد، لأنه يخلص اليائس والمضطر ممن هو أقوى منه، وينقذ الضعيف الذي لا ناصر له، ويرأف بالضعفاء والمساكين، وأنه يُعطى من كل ذهب بلادٍ شيئاً، ويُصلّى عليه ويُبارك في كل يوم، ويدومُ ذكره إلى الأبد).

وفي بعض الكتب المنزلة على بعض أنبياء بني إسرائيل: (لما قال له الله سبحانه وتعالى: قم من قومك، فقل: يا سماء اسمعي ويا أرض أنصتي، لأن الله يريد أن يقصَّ على بني إسرائيل أني ربيتهم بنعمتي، وآثرتهم بكرامتي، واخترتهم لنفسي، وإن بني إسرائيل كانوا كالغنم الشاردة التي لا راعي لها، فرددتُ شاردها، وجمعتُ ضالّتها، وداويت مريضها، وجبرت كسيرها، وحفظت سمينها، فلما فعلت ذلك معها، بطِرَت، فتناطح كباشها، فقتل بعضها بعضاً، فويل لهذه الأمة الخاطئة، وويل لها وللقوم الظالمين، إني قضيت يوم خلقت السماوات والأرض قضاء حتماً، وجعلت له أجلاً مؤجلاً لا بدَّ منه، فإنْ كانوا يعلمون الغيب فليخبروك متى حتمه، وفي أيِّ زمان

---

(١) رواه الحاكم برقم: (٤٢٢٨)، وعزاه في الكنز (٣٢١٣٨) إلى الطبراني وأبو نعيم في (الدلائل) والبيهقي في (الدلائل)، وضعّفه وابن عساكر. وقال الحاكم: صحيح الإسناد. وتعقبه الذهبي في التلخيص بقوله: بل موضوع. انظر المستدرك: (٢/٦٧٢)، ومصباح الظلام للتلمساني: (١٨ ـ ٢٣).

يكون ذلك، فإني مظهره على الدين كله، وليخبروك متى يكون هذا، ومن القائم بـه، ومن أعوانه وأنصاره إن كانوا يعلمون، فإني باعث بذلك رسولاً من الأُميِّين، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخَّاب ولا عيَّاب، ولا مدَّاح ولا قوَّال للفحش والخنى، أسدِّده لكل جميل، وأهبُ له كل خلق عظيم، أجعل التقوى شعاره، والحكمة منطقـه، والـصّدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خُلُقَهُ، والحقَّ شريعته، والعـدل سـيرته، والـسلام ملَّته، أرفع به من الوضيعة، وأغني به من العَيْلة، وأهدي به من الضلالة، وأؤلـف بـه بين قلوب متفرقة، وأهواء مختلفة، وأجعل أمته خير الأمم، أُعطيهم إيماناً بي وتوحيداً لي وإخلاصاً لما جاء به رسـول الله الأعظـم، أُلهمهـم التـسبيح والتقـديس والتحميـد في مساجدهم وصلواتهم ومُتَقلّبهم ومثواهم، يخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاتي، يقاتلون في سبيلي صفوفاً، ويصلون لي قياماً وركوعاً وسجوداً، يكبِّرون على كل شَرَف، رهبانُ الليل أسدُ النهار، ذلك فضلي أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم. اهـ.

وتـوراة موسـى والزبـور بمدحـه ... وإنجيـل عيـسى والقـرآن توالـت
وكـل نـبي جـاء يبـشر قومـه ... بأنـك تـأتي خاتمـاً للنبَّـوة

حاصله: لقد مدحك الله تعالى في التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، كما أثنى عليك في الزبور المنزل على داود عليه السلام، وكذاك في الإنجيل المـنزل علـى عيسى عليه، ومثله في القرآن المنزَّل على قلبك الشريف، فتوالت وتتابعـت آيـات الله تعالى في مدحك والثناء عليك، فما من نبيّ وما من رسول إلا وقـد بـشّر قومـه بأنّـك تبعث ختماً للأنبياء عليه السلام، ويغلق بطلعتك البهيّة باب النبـوّات ويقفـل برسـالتك باب الرسالات، وأنّه من أدركك حيّاً مكلّفاً وجبُ عليه الانقياد لما جئت به، ولو كـان نبيّاً أورسولاً.

ففي السِفرِ الخامس من التوراة في الفـصل الحـادي عـشر مـن هـذا الـسفْر عـن موسى عليه السلام: (أنّ الرب إلهكم قـال: إني أقـيم لهـم نبيًّـا مثلـك ممـن أُحَبـهم، وأجعل كلامي على فمه، وأيّما رجل لم يسمع كلماتي التي يؤديها عـني ذلـك الرجـل باسمي فإني أنتقم منه).

ومما أوحي إلى عيسى عليه السلام: (اسمع قولي وأطع أمـري يـا ابـن الطـاهرة البكر البتول، فإني خلقتك من غير فحل، وجعلتك آية للعالمين، فإياي فاعبد، وعليَّ توكل، وخذ الكتاب بقوّة، وبلِّغ مَنْ بين يديك، أَخبْرهم أني أنا الله البديع الدائم الذي

لا يزول، صدّقوا النبيّ الأُمّي الذي أبعثه في آخر الزمان، صاحب الجمل، صاحب النسك والنسب، الكثير الأزواج، القليل الأولاد، نسله من المباركة التي مع أمك في الجنة، له منها ابنة لها فرخان يستشهدان، دينه الحنفية، وقبلته يمانية، وهو وجهة العرب والعجم، له حوض أبعدُ من مكة إلى مطلع الشمس، فيه آنية عدد نجوم السماء، له لونُ كلِّ شراب في الجنة، وطعم كلّ ثمار الجنة، من شرب منه لا يظمأ أبداً، يصفُّ لي قدمَيه كما تَصفُّ الملائكة، ويخشع لي قلبه، والنور من صدره، والحق على لسانه، تنام عيناه ولا ينام قلبه، له تُدَّخر الشفاعة، وعلى أمته تقوم القيامة)[1].

وقد قال الله سبحانه وتعالى في القرآن العظيم: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[2]. ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[3]. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[4]. ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[5]. ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[6]. ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[7]. ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[8]. ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[9]. ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[10] أي: متهم. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[11]. وبالله التوفيق.

---

(١) عزاه في الدرّ المنثور إلى ابن أبي حاتم عن فرقد السبخي ﷺ. انظر الدر المنثور: (٤/٦٤٥).

(٢) الأعراف: ١٥٧.

(٣) الصّف: ٦.

(٤) الأنبياء: ١٠٧.

(٥) القلم: ٤.

(٦) النساء: ٨٠.

(٧) التوبة: ١٢٨.

(٨) الأحزاب: ٤٠.

(٩) النجم: ١ ـ ٤.

(١٠) التكوير: ٢٤.

(١١) الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦.

أخذ العهد على الأنبياء والمرسلين

وقد أخذ الله المواثيق منهم   بهديك أن يلقى لكل البرية

حاصله :

يا سيدي يا رسول الله، لقد أخذ الله تعالى العهد الوثيق ـ أي: القوي المتين، تشبيهاً له بالحبل الوثيق بجامع أنّ من تمسك بكلٍّ وصل لمآربه ـ على كلّ ذي روح خصوصاً الأنبياء والمرسلين، وحَصَل منهم الاعتراف والإقرار بموجبه، والوعد بالوفاء بمضمونه، فعاهدهم الله أن يُلقوا هديك وشرعك يا رسول الله لكل البرية، وذلك بأن يساعدوك على تبليغه إياهم وإيصاله لهم، ويقوموا في نصرتك وإعزازك وتوقيرك حتى تبلّغ رسالة ربك .

ولقد أخذ الله تعالى هذا العهد على الخلق في عالم الأرواح يوم أخرجها من ظهر آدم كالذر على العموم، ثمّ أعيد هذا العهد في عالم الأشباح فأخذه الله من كل رسول أرسله، وقرّره على أن يعمل به ويبلّغه قومه ليعملوا به إذا ما بُعث بعده نبي آخر الزمان ﷺ، فأخذ كل رسول على أمته العهد على الوفاء به، فقبلوه منه والتزموا الوفاء به[1]. كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[2].

زيارة سليمان عليه السلام للمدينة المنوّرة

وزار سليمان بن داود طيبة   وقال هنا للمصطفى دار هجرة

حاصله : روي عن كعب الأحبار، أن سليمان عليه السلام سار من اصطخر، يريد اليمن، فمر على مدينة الرسول عليه الصّلاة والسلام، فقال: هذه دار هجرة نبي يكون آخر الزمان، طوبى لمن اتبعه، ولما وصل إلى مكة رأى حول البيت أصناماً تُعبد، فجاوزه، فبكى البيت، فأوحى الله تعالى إليه: ما يبكيك؟ قال: يا رب، أبكاني أنّ هذا نبيّ من أنبيائك، ومعه قوم من أوليائك، مرّوا عليّ ولم يهبطوا، ولم يصلّوا عندي، والأصنام تُعبد حولي من دونك، فأوحى الله تعالى إليه: لا تبكِ، فإنّي سوف

---

(١) انظر (هدي القرآن لمعرفة العوالم والتفكر في الأكوان) لسيّدي قطب الواصلين وبقيّة المتقدمين في المتأخرين عبد الله سراج الدين: (٢٤٦) وما بعدها تجد ما ينفعك الله به.

(٢) آل عمران: ٨٣.

أبكيك وجوهاً سُجّداً، وأُنزل فيك قرآناً جديداً، وأبعث منك نبياً في آخر الزمان، أحبَّ أنبيائي إليَّ، وأجعل فيك عُمّاراً من خلقي، يعبدونني، وأفرض عليهم فريضة، يرفون إليك رفيف النسر إلى وكره، ويحنون إليك حنين الناقة إلى ولدها، والحمامة إلى بيضها، وأطهرك من الأوثان وعبدة الشيطان[1]. والله أعلم بالصّواب.

الكلام على المولد النبوي الشريف[2]

ولما أظلت مدة المولد الذي هدى أنفساً كانت عن الحق ضلت
تداولت الأحبار أخبارك التي تهيم بها كل النفوس الزكية

يا سيدي يا رسول الله، لما حضر وقت ميلادك الشريف، وبزوغ نجمك المنيف الذي هدى الله به الحيارى والمتخبطين جعلت الأحبار والرهبان من اليهود والنصارى يتداولون ويتناقلون أخبار ولادتك التي تهيم بسماعها كل النفوس العاقلة، بدليل وصفها بقوله (الزكية) أيّ: من شدة شوقها لظهورك صارت مثل الجمل الهائم، الذي أصابه داء الهيام ـ وهو الجنون ـ من شوقه إلى الضِّراب[3].

والتداول كناية عن الحديث المتبادَل بين الأحبار والرهبان بأنه قد آن أوان ولادة نبيّ آخر الزمان الذي يعلو دينه على كل الأديان.

روي أن حسان بن ثابت ﷺ قال: إني لغلام ابن سبع سنين أو ثمان أعقل ما رأيت، وسمعت إذا يهودي يصرخ ذات غداة: يا معشر يهود فاجتمعوا إليه، وأنا أسمع، قالوا: ويلك، مالك؟. قال: طلع نجم أحمد الذي ولد به هذه الليلة[4].

وفي رواية: كنت على سطح في المدينة فسمعت يهوديًّا يصرخ هذا كوكب أحمد قد طلع، وهو لا يطلع إلا بالنبوة، ولم يبق من الأنبياء إلا أحمد. قال: وكان أبو قيس جدّ بني عدي النّجار قد ترهّب فسمعه، فقال: صدق اليهودي، هذا أوان انتظار أحمد، فلما ظهر النبيّ ﷺ بمكة آمن به أبو قيس وهو بالمدينة، ولم يستطع الذهاب إليه في مكة لكبر سنه[5].

---

(١) انظر هذه القصة والتعليق عليها في روح المعاني للإمام الآلوسي: (١٩/ ١٨٣).

(٢) أكثر النقولات التي ستمر عليها في قصة المولد وما يتعلق به منقولة عن المواهب اللدنية للإمام القسطلاني، تجدها في بابها من المواهب.

(٣) الضِّراب: من ضرب الفحل الناقة إذا نزا عليها. انظر لسان العرب، وتاج العروس: مادة (ضرب).

(٤) كذا في المواهب اللدنية، ولم أجده في المصادر المعتمدة.

(٥) لم أجده في المصادر المعتمدة.

خبر سطيح الراهب

وجاء سطيح بالصّريح مبشراً　　بما قال شقٌّ من زوال المشقة

حاصله: أن الكاهن المشهور بـ (سطيح) قد أخبر بكلام صريح فيه البشارة بولادتك يا رسول الله موافقاً في إخباره بذلك لما قاله الكاهن الآخر الذي اسمه (شقّ بن مصعب الأنباري) والتي يكون فيها زوال المشقة والعناء وكثرة الخيرات وزيادة المبرات، حتى سميّ ذلك العالم عام الابتهاج، أي: سنة ظهور الخيرات وكثرة الأزهار ونمو المزروعات والثمرات، ودرّ البركات التي حصلت بولادتك، وكانت من جملة علامات ولادتك.

وحاصل الأمر: أنّ ربيعة بن نصر ملك اليمن رأى رؤيا هائلة أفزعته، وخاف منها، فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ولا منجّماً من أهل اليمن إلا جمعه إليه، فقال لهم: إنّي قد رأيت رؤيا هالتي وفظعت بها، فأخبروني بها وبتأويلها، فقالوا: اقصصها علينا نخبرك بتأويلها، فقال: إنّي إنْ أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم بتأويلها، لأنّه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أنْ أخبره بها، فدلّوه على سطيح بن ربيعة الغساني وشق بن مصعب الأنباري، فأحضرهما، ثمّ خلا بسطيح، فسأله فأخبره به، ففسّره له بأنّ الحبشة تملك أرضه، ثمّ ينقذها منهم سيف بن ذي يزن، ثمّ بعد ذلك يظهر نبيّ يأتيه الوحي من قِبَل العليّ الأعلى، فسأله عن نسبه فقال: من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكون المُلْك في قومه إلى آخر الدهر، ثمّ اجتمع بشقّ بن مصعب فأخبره كما أخبره سطيح حرفاً بحرف[1].

تنقل النور النبوي الشريف في الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة والغرر والجباه الباذخة

وما زلت نوراً ساطعاً متنقّلاً　　بأظهر أصلاب الرّجال الكريمة

حاصله: لقد بقيت يا رسول الله منذ أودعت في صلب آدم ـ حال كونك ـ نوراً ساطعاً تنتقل بأظهر ذُرِّيَّة آدم ـ التي هي أصُولك ـ من أصلاب طاهرة كريمة، شريفة فاخرة، إلى أرحامٍ زكية نقيَّة من العهر خليَّة، ثمّ إلى أصلاب من الزنا بريَّة، حتى ولدتَ نسمةً نورانية، وشمساً مضيئة.

---

(١) انظر البداية والنهاية: (٢/١٦٣)، وتاريخ الطبري: (١/٣٧٠).

ففي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ النبيّ ﷺ قال: «لما خلق الله آدم أهبطت في صلبه إلى الأرض، وجعلني في صلب نوح في السفينة، وقذفني في النار في صلب إبراهيم، ثمّ لم يزل ينقلني من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة، حتى أخرجني من بين أبويَّ لم يلتقيا على سفاح قط»[1]. قال تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[2].

وذكر ابن الفلاح[3] في سيرته[4]: أن الله لما خلق آدم عليه السلام سمع من ظهره نشيشاً كنشيش الذر فقال: سبحانك ما هذا؟ فقال الله سبحانه وتعالى هذا تسبيح خاتم النبيّين وسيد ولدك والمرسلين فخذه بعهدي وميثاقي على أن لا تودعه أنت ولا أولادك إلا في الأصلاب الطاهرات والأرحام الزاهرات فقال آدم: يا رب أبيت أن أودعه إلا في المطهرين من الرجال والمحصنات من النساء[5].

وفي رواية: لما نفخت الروح في آدم صار نور نبينا محمد ﷺ في ظهره، فجعلت الملائكة تقف صفوفاً خلف آدم عليه السلام، يتعجبون من ذلك النور، فقال آدم عليه السلام: يا رب، ما بال هؤلاء ينظرون إلى ظهري؟ قال تعالى: ينظرون إلى نور محمد ﷺ خاتم الأنبياء الذي أُخرجُه من ظهرك. فسأل اللهَ تعالى أن يجعله في مقدمه كي تستقبله الملائكة فجعله الله في جبهته، ثمّ سأل الله تعالى أن يجعله في محل يراه، فكان في سبابته فقال: يا رب هل بقي في ظهري من هذا النور شيء؟ قال: نعم، نور خواص أصحابه. قال: يا رب اجعله في بقية أصابعي، فكان نور أبي بكر في الوسطى، ونور عمر بن الخطاب في البنصر، ونور عثمان في الخنصر، ونور علي في الإبهام.

وروي أن نور نبينا محمد ﷺ كان يرى في دائرة غرة جبين آدم عليه السلام كما يرى القمر في الظلام، فكان آدم عليه السلام بعد نزوله إلى الأرض واجتماعه بحواء عليها السلام كلّما أراد أن يتغشّاها يتطهَّر ويأمرها بذلك، ويقول: عسى هذا النور المستودع في ظهري، اللامع في جبيني، المشاهد لي من سبَّابتي أن يستودع في بطنك، فلما حملت بشيث أصبح آدم والنور منقول منه إلى حواء، فسرت بذلك،

---

(١) انظر الدر المنثور: (٤/٣٢٩ ـ ٣٣٠)، والشفا: (١/٤٥).

(٢) الشعراء: ٢١٩.

(٣) كذا، ولم أعثر على ترجمته.

(٤) لم أقع على هذه السيرة.

(٥) لم أعثر على هذا النص.

وازدادت ملاحة، وكانت تضع كل بطن ذكراً وأنثى ما خلا شيثاً، فإنه خلق وحيداً إكراماً لنور نبينا محمد ﷺ، فلما وضعته نظرت إليه، فإذا النور انتقل بين عينيه، فسرّت بذلك إلى أن وصل النور إلى عبد الله، فتزوج آمنة ودخل بها، فانتقل النور منه إليها، ونطقت كل دابة لقريش قائلة: حُمِلَ برسول الله ﷺ وربِّ الكعبة[1].

ولما أراد الله إظهار مضمر على علم يهدي لكل جميلة
أضاء لكل الناس من ذلك السنا بجبهة عبد الله أعظم غرة

حاصله: لما أراد الله إظهار نور سيّدنا محمد ﷺ المضمر المستور في الأصلاب والأرحام، المعروف بين جميع العوالم معرفة تامَّة، لا خفاء بعدها ولا غموض، كالمضمر الذي هو أعرف المعارف، فلما أراد الله إظهاره الإظهار التَّام بولادته، ليكون في الظهور كنار على علم ـ أي: جبل ـ وذلك ليهدي به الله لكل خصلة جميلة وفعلة حميدة، فلما أراد ما ذُكر أضاء نوره ﷺ وظهر ظهوراً تامًّا كالضوء، فإنه ـ أي: الضوء ـ مع ظهوره يظهر غيره، وهكذا نور سيدنا محمد ﷺ ظاهر في نفسه جلي بذاته، مظهر لمن يقع عليه ويقذف فيه.

ولما انتقل ذاك النور المحمدي إلى عبد الله والد النبيّ ﷺ، تجلى في جبهته بياضُ ذلك النور وشعاعُه بصورة هي أعظم من بياض غرة جبهة الفرس، ولذا لما مرّ عبد الله بن عبد المطلب على قتيلة بنت نوفل[2]، عرضت نفسها عليه[3]، حتى لزمت طرف ثوبه، فأبى عليها، ثمّ مرَّ على أخرى[4] فدفعت له مئة من الإبل على أن يواقعها، فأبى موافقتها، وأنشأ يقول:

أما الحرام فالممات دونه والحلُّ لا حل فأستبينه[5]

ثمّ لما تزوَّج آمنة وواقعها، وانفصم منه ذلك النور إليها مع النطفة المشرَّفة، رجع إلى تين المرأتين واحدة بعد أخرى، يعرض نفسه عليهما، فأبتا عليه أشدّ الإباء،

---

(١) لم أعثر عليه.

(٢) هي قتيلة بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي. أخت ورقة بن نوفل. انظر طبقات ابن سعد: (١/ ٩٥).

(٣) قال بعضهم: ليتزوجها. وهو الأظهر. انظر البداية والنهاية لابن كثير: (٢/ ٢٦٢).

(٤) هي فاطمة بنت مُرّ الخثعمية، وكانت من أجمل النساء وأشبّه وأعفّه. انظر طبقات ابن سعد: (١/ ٩٦).

(٥) وتمامه: فكيف بالأمر الذي تبغينه يحمي الكريم عرضه ودينه
والبيتان من بحر الرجز.

وقالتا له: كنا رجونا ذلك النور الذي شاهدناه في جبهتك أن يحل فينا، فحيث وضعته في غيرنا لا حاجة لنا بك، وكانتا متقنيتن للقيافة[1] والعرافة[2]، وقالتا له: لا نبغي الخنا، وإنما قصدنا ذلك النور ورجونا أن يكون نور النبوة.

وآمنة لم تلق في حملك الأذى ... وقد أمِنَتْ من كل ضيم وشدَّة

وقيل لها في السر آمنة البشرى ... بحمل رسول الله خير الخليقة

حاصله: لم تلق أمّك يا رسول الله في حملك ما تلقاه النساء أيام الحمل من مشقّة الوحام وغيره، وقد حصل لها ببركة احتواء بطنها الشريف عليك الأمن من كلّ ضيم أوتعب أوإهانة أوذلٍّ، ومن كلّ شدّة من مرض أو غيره من وحام أو غيره.

وقد قيل لها في سرّها ـ أي: في قلبها بحيث تسمعه هي دون غيرها ـ : أبشري يا آمنة بالخبر السَّار: إنك حملت برسول الله، خير الخليقة أجمعين.

روي أن آمنة كانت تقول: ما شعرت أنني حملت، ولا وجدت ثقلاً كما تجده النساء، إلا أنني أنكرت رفع حيضتي، وأتاني آت، وأنا بين النائمة واليقظانة، فقال: هل شعرت أنك حملت؟، فكأنني أقول: لا أدري!، فقال: إنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيّها ـ ﷺ ـ ولما دنت ولادتي أتاني ثانياً، فقال لي: قولي:

أعيذه بالواحد ... من شر كل حاسد[3]

ثُمّ سمّيه محمداً.

وقد أبصرت نوراً أضاء لها به ... معاهد بصرى كلها وتجلت

ولدت سعيداً رافع الرأس واضعاً ... يديك لتعظيم الإله وحرمة

فيا لربيع قد بنى لبني التقى ... ربوعاً من التقوى بتلك الفضيلة

حاصله: أن أمك يا رسول الله يوم حضر وقت ولادتك أبصرت نوراً خرج منها، فأضاء وأظهر لها ذلك النور معاهد ـ أي: ما يُعهد ويعلم في بصرى من القصور

---

(١) القيافة ويقال العيافة: علم باحث عن كيفية الاستدلال بهيئات أعضاء الشخصين على المشاركة والاتحاد في النسب والولادة في سائر أحوالهما وأخلاقهما. انظر أبجد العوم للقنوجي: (٢/٤٣٦).

(٢) العرافة: علم باحث عن كيفية الاستدلال ببعض الحوادث الخالية على الحوادث الآتية بالمناسبة أو المشابهة الخفية التي تكون بينهما، أو الاختلاط على أن يكونا معلولي أمر واحد، أو بكون ما في الحال علة لما في الاستقبال، وشرط كون الارتباط المذكور خفياً أن لا يطلع عليه إلا الأفراد، وذلك إما بالتجارب أو بالحالة المعروفة في أنفسهم. انظر أبجد العلوم: (٢/٣٧٩).

(٣) البيت من مجزوء الرجز.

والدور وأهلها ـ فتجلّت واتّضحت لها كالحاضرة عندها، وكلّ ذلك لتتسلّى عن آلام الولادة، فلا تحسّ بها، فوُلدتَ يا رسول الله سعيداً رافعاً رأسك وطرفك إلى السماء إشارة لرفعة منظورك، قابضاً يديك على الأرض التي نزلتَ عليها إشارة لملكك لها وتمكنك منها.

فكانت ولادتك تحمل الناس على تعظيم الإله سبحانه وتعالى، كما تحملهم على امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وكان زمنُ الولادة على أصح الأقوال بعد فجر يوم الاثنين، من شهر ربيع الأول، ثاني عشر يوماً خلت منه.

فيا عجباً لهذا الشهر العظيم، كيف خُصّ بولادتك الميمونة دون غيره من الشهور، لكأنه بحيازته لهذا الشرف الرفيع بانٍ قد أطلقت يده، فشرع يبني لِبَناً من التقوى، ويشيّد حصونها.

وكيف لا يكون الأمر كذلك ولولا ولادتك لما اتّقى الله متّقٍ، ولما أناب إليه منيب، ولما رجع إليه أوّاب.

والتقوى: عبارة عن امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه.

(ربوعاً): الربوع: المنازل والأماكن.

روي أن آمنة قالت: لما وضعتُه خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب، ثمّ وقع على الأرض معتمداً على يديه، ثمّ أخذ قبضة من تراب ورفع رأسه إلى السماء.

فبلغ ذلك بعضَ الأحبار فقال: إنْ صحَّ ذلك عنه، فسيملك الأرض، وتصير في قبضته، ويأتيه أمر من قِبَل السماء.

ثمّ إنه ﷺ وُضِع في بُرمة[(١)] فانفلقت فلقتين[(٢)]، فكان ذلك إشارة إلى انفصام كل من أراد ستر أمره وإرهاصاً لنبوته.

وروي أن آمنة رأت نوراً خرج منها، فأضاءت له قصور الشام[(٣)].

وروي أن أم عثمان بن أبي العاص[(١)] رأت النجوم وقد تدلّت وظهرت عظيمة

---

(١) البُرمة: الإناء الكبير من الحجر.

(٢) انظر صفة الصّفوة لابن الجوزي: (١/٥٢).

(٣) هذه رؤيا في النوم.

عند ولادته ﷺ، حتى ما يُرى إلا النور.

وروي أن الشَّفَّاء[2]، أم عبد الرحمن بن عوف ﷺ قالت: لما سقط على يدي عطس، فسمعتُ قائلاً يقول: رحمك الله. وأضاء لي ما بين المشرق والمغرب حتى نظرت إلى قصور الشام.

ولما تكامل لآمنة حملها تسعة أشهر أخذها ما يأخذ النساء، وكانت وحدها آنذاك فرأت كأنّ طائراً أبيض قد مسح على فؤادها فذهب رَوْعها ـ أي: خوفها ـ ثمّ أوتيت شربة بيضاء من الغيب فتناولتها، فأضاء لها نور عال، ثمّ رأت نسوة كالنخل طوالاً أحدقن بها، فقالت لهن: من أنتن؟ قلن: نحن آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وهؤلاء من الحور العين.

وروي أيضاً أن الملائكة نزلت حين ولادته ﷺ وأحدقت بآمنة ليحفظوها من أعين الجنّ، ونادى ملك منهم: يا آمنة، أبشري ببركة هذا المولود، فإنه سيد المرسلين وخاتم النبيّين وحجة الله تعالى على الأولين والآخرين، فإذا وضعتيه فقولي:

أعيذه بالواحد — من شر كل حاسد
وقائم وقاعد — عن السبيل حائد
على الفساد جاهد — وكل خَلْق فاسد
من نافث أو عاقد — وكل جن مارد
يأخذ بالمراصد — في طرق الموارد

لا يضرونه ولا يطوفون به في يقظة ولا منام، ولا ظعن ولا مقام، يد الله فوق أيديهم، وحجاب الله دون عاديهم.

وروي أن آمنة قالت: أتاني آت في المنام، فقال: لقد حملت بسيّد البرية، فإذا وضعتيه، فسميه محمّداً، واسمه في التوراة أحمد، وعلّقي عليه هذا الكاتب. قالت آمنة: فاستيقظت، وعند رأسي كتاب من فضة جديدة، فيه: بسم الله استودعتك

أعيذه بالواحد — من شر كل حاسد

إلى آخر ما مرّ.

---

(١) هي فاطمة بنت عبد الله أم عثمان بن أبي العاص الثقفية. انظر الاستيعاب: (٤/ ١٩٠٠).

(٢) هي الشفاء بنت عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة، أم عبد الرحمن بن عوف، ماتت في حياة النبيّ ﷺ. انظر ترجمتها في الإصابة برقم: (١١٣٧٤)، والاستيعاب برقم: (٤٠٠١).

ثمّ رأت آمنة ـ حالة الطلق بالنبيّ ﷺ ـ ديباجاً أبيضَ، قد مُدَّ بين السماء والأرض، ورجالاً بأيديهم أباريق من فضة، ورأت قطعة من الطير أقبلت عليها حتى غطّت حجرتها، مناقيرها من الزمرد، ووجوهها من الياقوت، ورأت مشارق الأرض ومغاربها، ورأت ثلاثة أعلام مضروبات: عَلَمٍ بالمشرق، وعلمٍ بالمغرب، وعلمٍ على ظهر الكعبة.

وفي شرح[1] ابن حجر[2] على الهمزية[3]: فأخذها النّعاس فوضعته ﷺ، فإذا هو ساجد، قد رفع أصبعه إلى السماء كالمتضرع المبتهل ﷺ، ثمّ رأت سحابة بيضاء غشيته فغيَّبته عنها، وسمعت منادياً ينادي: طوفوا به مشارق الأرض ومغاربها، وأدخلوه البحار ليعرفوه باسمه ونعته وصورته، ثمّ انجلت عنه في أسرع وقت.

وروى محمد بن سعد[4]، أن رسول الله ﷺ قال: «رأت أمي حين وضعتني سطع منها نور أضاء قصور بصرى»[5] وفي رواية: «أضاء له ما بين المشرق والمغرب»[6]، وفي رواية: «أضاءت له قصور الشام وأسواقها حتى رأت أعناق الإبل ببصرى»[7]، وفي رواية: «حتى نظرت إلى قصور الروم»[8] اهـ.

ولا ينافي ما قبله لأن بصرى من بلاد الروم.

وقيل: إنّ الرؤيا تكررت[9].

ولما ولد ﷺ وقع على يديه رافعاً رأسه إلى السماء، وفي رواية: وقع على ركبتيه شاخصاً ببصره إلى السماء. وفي رواية: وقع معتمداً على يديه ثمّ أخذ قبضة من تراب فقبضها ثمّ رفع رأسه إلى السماء.

---

(١) (المنح المكية)، ثمّ سماه (أفضل القرى).

(٢) هو الهيثمي المكي. توفي: (٩٧٣)هـ.

(٣) الهمزية للإمام الأبوصيري ـ وقد تقدمت ترجمته ـ ومطلعها: كيف ترقى رقيك الأنبياء....

(٤) هو محمد بن سعد بن منيع الهاشمي مولاهم، أبو عبد الله البصري، كاتب الواقدي، أحد الحفاظ الكبار الثقات المتبحرين. توفي سنة: (٢٣٠) هـ. انظر لسان الميزان: (٣٥٩/٧)، وميزان الاعتدال: (١٦٢/٦)، وتقريب التهذيب: (٤٨٠/١).

(٥) ابن سعد في الطبقات: (١٠٢/١).

(٦) المرجع السابق.

(٧) المرجع السابق.

(٨) عزاه في الكنز إلى أبي نعيم، انظره برقم: (٣٥٤٢٠)، والبداية والنهاية لابن كثير: (٢٦٤/٢).

(٩) وهو الجمع بين الروايات المتقدمة.

وروى الخطيب البغدادي[1] بسنده: أن آمنة لما وضعته ﷺ رأت سحابة عظيمة لها نور عظيم يسمع فيه صهيل الخيل وخفقان الأجنحة وكلام الرجال حتى غشيته، وغُيّب عنها، فسمعت منادياً ينادي: طوفوا به جميع الأرض، واعرضوه على كل روحاني من الجن والإنس والملائكة والطيور والوحوش واغمسوه في أخلاق النبيّين، ثمّ انجلت عنه وقد قبض على حريرة بيضاء مطوية طيًّا شديداً ينبع منها ماء، وإذا قائل يقول: بخٍ بخٍ قبض محمد ﷺ على الدنيا كلها حتى لم يبق أحد من أهلها إلا دخل طائعاً في قبضته ﷺ، ثمّ رأت ثلاثة نفرٍ، بيد أحدهم إبريق فضة، والثاني بيده طست من زبرجد أخضر، والثالث بيده حريرة بيضاء، أخرج منها خاتماً يحار الناظرون منه، فغسله سبع مرات، ثمّ ختم به بين كتفيه ﷺ، ثمّ احتمله فأدخله بين أجنحته ساعة، ثمّ ردَّه إلى أمه ﷺ.

وفي شفاء الأسقام: أنه ﷺ تدلّت النجوم عند ولادته على السّقوف، ورفعته الملائكة تدور به على الخلائق وتطوف.

وجاء عن عمه ﷺ أنه قال: يا رسول الله، رأيتك في المهد تناغي القمر ـ أي: تحدثه ـ فتشير إليه بأصبعك فحيث أشرت إليه مال. قال: «كنت أحدثه ويحدثني، ويلهيني عن البكاء، وأسمع وجبته ـ أي: سقطته ـ حين يسجد تحت العرش»[2].

وكان مهده ﷺ يتحرك بتحريك الملائكة، وولد ﷺ مختوناً مكحولاً نظيفاً ما به قذر مقطوع السرّ، أو على صورة المختون لئلا يرى أحد سوأته، كما في الحديث: «من كرامتي على ربي ولدت مختوناً ولم ير أحد سوءتي»[3]. والله أعلم بالصّواب.

عام الفيل وخبر أبرهة الأشرم

وأصبح عام الفيل محمود الذي ... ولدت به المحمود في كل بلدة

حاصله: لقد صار ذلك العام الذي ولدت فيه يا رسول الله، والمضاف إليه قضية وحادثة الفيل المسمّى بمحمود لكونها وجدت فيه.

---

(١) هو أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي. توفي سنة (٤٦٣) هـ. انظر تكملة الإكمال: (١٠٣ ـ ١٠٤).

(٢) عزاه ابن كثير إلى البيهقي عن العباس بن عبد المطلب ﷺ. انظر البداية والنهاية: (٢/٢٦٦).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط برقم: (٦١٤٤٨)، ووالصّغير برقم: (٩٣٦)، وأبو نعيم في الحلية: (٢/٢٤)، وانظر مجمع الزوائد (٨/٤١٠).

المحمود: أي المثْنَى عليه في كل الأقطار والبلاد لا سيّما مكة لما وجد في ذلك العام من فَرَج بعد شدة كانت أصابت العباد من جهة الخصب والخيرات، حتى أن ذلك العام صار معروفاً بأنه عام الابتهاج والمسرات بترادف الخيرات على كلّ البلاد عموماً، وبما زوي به الفيل وأصحابه عن الحرم، وظهر به شرف الحرم المكي من هلاك أصحاب الفيل خصوصاً.

وحاصل قصّتهم: أنّ أبرهة بن الصّباح نائب النّجاشيّ صنع كنيسة في صنعاء اليمن وزخرفها بأنواع المعادن، وأراد أن يصرف إليها حج العرب، ويجعل لها ما للكعبة، وقد بذل وسعه في زخرفتها، فجعل فيها الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب، ينقله من قصر بلقيس زوجة سليمان بن داود عليه السلام، وجعل فيها صلباناً من الذهب والفضة، ومنابر من العاج والآبنوس[1]، وشدّد على العمّال فيها بحيث إذا طلعت الشمس قبل أن يأخذ العامل في عمله قطع يده، فنام رجل منهم ذات يوم فما استيقظ إلا والشمس طالعة، فجاءت معه أمه، وهي امرأة عجوز فتضرّعت إليه في أن لا يقطع يد ولدها، فأبى إلا أن يقطع يده، فقالت له: اضرب بمعولك، اليوم لك، وغداً لغيرك، فقال لها: ويحك ما قلت؟ فقالت: الأمر كما قلت: كما صار هذا الملك لك من غيرك، فكذلك يصير منك لغيرك، فأخذت موعظة تلك العجوز منه مأخذها، فعفا عنه ورجع عن هذا الأمر، فلما أتمَّ البناء، كتب إلى النّجاشيّ يعلمه بذلك، وأنه لا بد أن يصرف إليها حج العرب، لتكون السمعة له وللنجاشي، لا للكعبة والعرب، فسمع بها ـ أي: الكنيسة ـ رجل من بني مالك بن كنانة فقصدها حتى إذا وصل إليها بات عندها، ثمّ دخلها ليلاً، وتغوَّط فيها، ولطَّخ بالقذارة قبلتها وجدرانها وصلبانها، فبلغ الخبر أبرهة، وأن الفاعل من العرب، وأنّه إنما فعل ذلك إغاظة له وإجهاضاً وإفساداً لما نواه فيها من صرف الناس عن الكعبة والاستئثار بالسمعة والسؤدد، فحلف أبرهة ليسيرنَّ إلى الكعبة حتى يهدمها.

فخرج بجيشه مصطحباً فيلاً قوياً اسمه محمود وفِيَلة أخرى دونه، فلمّا وصل جيشه قريباً من أرض الحرم سابع عشر ليلة خلت من المحرم، استولى على إبل أهل مكة، فأُخبر عبد المطلب بذلك، فخرج إليه يسأله الإبل، فأكرمه أبرهة وأجلسه عنده على

---

(١) شجر ينبت في الحبشة والهند، خشبه أسود صلب. انظر المعجم الوسيط، مادة: الآبنوس.

بساط تحت سريره، ونزل عن سريره، فلما كلَّمه في شأن الإبل قال لـه: كنـت عظيمـاً في عيني حتّى كلّمتني في المال دون البيت، مع أنه شرفك وعزُّك، فصغرت في عيني.

فقال عبد المطلب: الإبل لنا، وأما البيت فله رب إن شاء منعه من الملك، فقال أبرهة: ما كان ليمنعه من أحد، وردَّ عليه ما كان أخذه منه من مـال مكـة، فرجـع عبـد المطلب إلى قومه وقال لهم: ما لنا طاقة على حربه، هذا بيت الله تعالى وحرم إبـراهيم عليه السلام، فإن شاء حماه منه، وأمر عبد المطلب أن تكون الذرية في رؤوس الجبال خوفاً عليها.

فلما وجَّه أبرهة جيشه جهة الحرم وقدَّم الفيل، برك الفيل، وكـان كلمـا وجهـه إلى الحرم برك، ولم يبرح، وإذا وجهه إلى جهة أخرى قام وهرول.

وقيل: إنّ نفيل بن حبيب الخثعمي قام بجنب الفيل فعرك أذنه، وقـال لـه: ابـرك وارجع رشيداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام، ثمّ أرسل أذنه، فبرك.

فحينئـذ أرسـل الله سـبحانه وتعـالى علـيهم الطـير الأبابيـل مـن البحـر أمثـال الخطاطيف، ترميهم بحجارة من سجيل ـ علم لديوان مكتوب فيه عذاب الكفار، وأمـا سجين بالنون، فعلم لديوان أعمالهم، فكأنـه قيـل: تـرميهم بحجـارة هـي مـن جملـة العذاب المكتوب المدون للكفار، وقيل: من سجيل: أي من طـين متحجّـر ـ مـع كـلّ طير ثلاثة أحجار: حجر في منقاره، وحجرين في رجليه، الواحدة أصغر من الحمصة، فترميهم فيقع الحجر على رأس الرجل فيخرج من دبره، فيصير هباء كالزرع المـأكول، أو أنهم لما هلكوا صارت حالتهم كحالة الزرع المأكول المرعي بجـامع ذهـاب الحيـاة والنمو من كلٍّ وعروض الآفة المفسدة لكلٍّ، فهلك غالب جيش أبرهة، ولم ينج منهم إلا القليل لعدم رضاه بفعله، وليخبر عن حقيقة ما وقع في هلاكهم.

ولم يهلك أبرهة بل تبعه طير حتى رجع وأخبر بما حصل لقومه، فلما فـرغ مـن حديثه وقع عليه حجر من الطائر فهلك بمعاينـة مـن أخـبرهم بقـصته، وقيـل: أصـاب جسده داء حتى تهرّأ وسال منه القيح والصّديد، ثمّ مات.

وممن نجا قائد الفيل وسائسه، فإنهما قد عميـا واسـتطعما النـاس بمكـة إلى أن ظهر الإسلام، فأسلما، ثمّ مزقت الحبشة كلّ ممزق، وخربـت تلـك الكنيـسة، وغَـنِم أهل مكة ثياب الجيش وأمتعته، وظهر عزّ العرب وحرمة الحرم، كما ظهر عزّ قـريش، وتابعهم الناس لأن الله تعالى قاتل عنهم، وأخذ عفان والد عثمان وعبد المطلـب والـد

أبي مسعود الثقفي من أموال أبرهة مالاً كثيراً، ودفنوه وأخفوه عن قريش، فكانا بعد ذلك أغنى قريش.

ولما نزلت سورة الفيل وتلاها النبيّ ﷺ على قريش سمعها منه من حضر الواقعة، فتذكروا ما حصل فيها، وكان ذلك كله عام ولادته ﷺ.

الإرهاصات والعلامات الدالة على نبوّته ﷺ الواقعة عند ولادته

وإيوان كسرى بات منصدعاً إذا ... بكسر ونقض جاء من غير علَّة

وقد شهدت نيران فارس كلها ... وساوة عنها غاض ماء البحيرة

حاصله: (إيوان كسرى) أي: ديوانه ومجمع جنده وحكومته. كان محكم البناء بالآجر الكبار والجص، بحيث لا تعمل فيه الفؤوس، مكث في بنائه نيفاً وعشرين سنة، وكان من أعاجيب الزمان سعة وبناء وإحكاماً.

روي أن الرشيد أمر وزيره يحيى بن خالد البرمكي، والد جعفر والفضل، بهدمه فقال له يحيى: لا تهدم بناء دلّ على فخامة شأن بانيه، فأبى الرشيد، فقدّروا له مؤنة هدمه ونقله لبغداد، فاستكثر الرشيد ذلك، فقال له يحيى: لا يحسن بك العجز عن هدم ما بناه غيرك، ثمّ بدا للرشيد ثانياً أن يهدمه وينقله لبغداد ليبني به، فشاور خالد بن برمك، فنهاه عن ذلك، وقال: هو آية الإسلام، ومصلى علي بن أبي طالب.

وكسرى هذا: هو أنوشروان، ومعناه: مُجدّد الملك، وكان مجوسيًّا يعبد هو وقومه النار، فلما كانت ليلة ولادة نبينا ﷺ ارتجّ، أي: رجف واضطرب إيوانه، ثمّ انشقّ وانصدع، وسُمع لشقّه صوت هائل، وسقط منه أربع عشرة شرفة بعدد الأملاك ـ أي: المدن ـ التي ملكتها أمة نبينا ﷺ من ملكه، فانصداع الإيوان وانشقاقه، ونقض ـ أي: خراب وسقوط وانهدام ـ شرفاته، إنما حصل تلك الليلة من غير علة مقتضية لذلك، بل إرهاصاً لنبوته ﷺ، ومقدمة لها، وبياناً لأنه يملكه ويهدم عزّ صاحبه، كالإرهاص الواقع في قصة أصحاب الفيل وما بعد ذلك.

وقد شهدت ودلّت (نيران بلاد فارس) ـ المعبودة من دون الله تعالى ـ بانطفائها كلها وخمودها مع أنها موقدة لم تطفأ منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة، بأنّ المولود في تلك الليلة يغيّر دين عابديها.

و(بحيرة البلدة) التي يقال لها: ساوة بين همذان والرِّي غاض وغار ماؤها تلك الليلة، قيل: وكذا عيون بلاد الفرس ـ مملكة كسرى ـ غارت تلك الليلة من غير ظهور

سبب يُحال عليه، وإنما هو إرهاص وإعلام بأنّ هذا المولود يقع منه سفك دمائهم بحقّها وأخذ أموالهم، كما وقع لأمته ﷺ، فإنّ الماء منه الحياة والأموال، وغَوْرها وذهابها إشارة لإذهاب ما ذُكِر.

وفي تلك الليلة أيضاً رأى الموبذان ـ وهو الذي تأخذ المجوس عنه شرائعهم ـ في منامه إبلاً صِعاباً تقود خيلاً عراباً، قد قطعت دجلة ـ نهر بغداد ـ وانتشرت في بلادها، فلما أصبح كسرى ورأى ما حلَّ بإيوانه، ثمّ أُخبر بخمود النيران، ثمّ جاءه الخبر بغَوْر ماء بحيرة ساوة وغور العيون، ثمّ أخبر بما رآه الموبذان اشتدّ كَرْبه، وقال: حدث يكون من جهة العرب، فكتب إلى عامله فيها النعمان بن المنذر ليعلمه بأعلم أهل مملكته بالكهانة، وذلك ليسأله عن الأحداث التي وقعت في بلاده، ولم يعرف لها أي تفسير، ولم يُدر لها علّة تُحمل عليها، فوجه ـ النعمان بن المنذر ـ إليه عبد المسيح الغساني، فسأله كسرى عن الخطب، فقال له عبد المسيح: علمُ ذلك عند خالي، وهو يسكن مشارق الشام ـ أي: أعمالها، وهي الجابية، واسم خاله هذا: سطيح ـ فقال له كسرى: اذهب إليه وأتني به لأسأله، فخرج عبد المسيح حتى انتهى إليه، فرآه قد أشرف على الموت، وعمره إذ ذاك ثلاثمئة سنة، وقيل: سبعمئة سنة، وكان ملقى لا جوارح له، لا يقدر على الجلوس إلا إذا غضب، فإنه ينتفخ، فيجلس، وكان وجهه في صدره بلا رأس ولا عنق، ولم يكن له عظم إلا رأسه، ولا يتحرك منه إلا اللسان (كذا...)[1]، لأنه من ماء امرأة، لأنّ ماء الرجل للعظم والعصب، وماء المرأة للحم والدم[2]، وكان يطوى كما يطوى الثوب، ويُحمل[3]، وإذا أُريد سؤاله عن المغيبات يُحرّك كما تحرّك القِرْبة وفيها اللبن ليصير سمناً.

وكان أول كاهن من العرب، فسلّم عبد المسيح على خاله سطيح وكلّمه، فلم يردّ عليه، فقال عبد المسيح شِعراً من جملته:

أصم لم يسمع غطريف اليمن.... (أي: سيّد أهل اليمن) إلى آخر أبياتٍ.

لما سمع سطيح شعره قال: عبد المسيح، على جمل مشيح، إلى سطيح، وقد

---

(١) انظر البداية والنهاية: (٢/٣٥٤).

(٢) وهل يتكوّن مخلوق تصدق عليه صفة البنوّة إلا من اتحاد مائين: ماء الذكر وماء الأنثى؟؟!!.

(٣) وللقارئ أن يتساءل: هل كان سطيح يوضع في الجيب أم في السرج، أم كان يحمل كنحو محفظة مثلاً، وله أن يتظرّف فيقول: هل يمكن أن يوضع سطيح هذا كإشارة في نحو كتاب مثلاً ؟؟؟!!!!.

وافى الضريح، بعثك ملك ساسان لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ووقوف المياه عن الجريان، ورؤيا الموبذان، رأى إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها.

يا عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نيران فارس، فليس بابل للفرس مقاماً، ولا الشام لسطيح شاماً، ما يملك منهم ملوكاً وملكات بعدد الشرفات، وكل ما هو آتٍ آت، ثمّ مات سطيح.

وصاحب الهراوة ـ أي: العصا ـ هو نبيّنا ﷺ، فقد كان يمسكها كثيراً عند مشيه ﷺ، وكان يمشي بها بين يديه، وتغرز له فيصلي إليها، وهي: العَنَزَة ـ رمح صغير ـ.

فلمّا قدم عبد المسيح على كسرى أخبره ما قال له سطيح، فقال كسرى: إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً، يكون أمور وأمور، فملك منهم عشرة في أربع سنين، وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه، وكانت مدة ملكهم ألف سنة ومئة وستة وأربعين سنة. والله أعلم بالصّواب.

كما صرف الشيطان عن خبر السما   وأولاده عن سرقة السمع صُدَّت

حاصله: ورد[1] أن الشياطين كانت تصعد إلى السماوات لتسمع ما تتحدّث به الملائكة فيما أُمروا بالنزول للأرض لإمضائه فيها، فتحفظه، ثمّ تنزل به إلى الكهنة، ويزيدون على الكلمة الحق تسعة وتسعين كلمة كذباً، فتخبر الكهنة به الناس فيقع بعض ما أَخبَروا به، فيصدّقونهم في كل ما حدّثوا به، وذلك توصلاً لإضلال الناس.

فلما ولد عيسى عليه السلام مُنعوا من أربع سماوات فصاروا يسترقون مما تحت رابع سماء فلما ولد نبيّنا محمد ﷺ مُنعوا من الثلاث الباقية، فكانوا يقعدون في مقاعد وأماكن تحت سماء الدنيا يسترقون السمع فيها، فلما بعث نبيّنا ﷺ منعوا من الاستراق بالمرّة، وصار كلّ من قارَبَ السماء يُرمى بشهاب ـ شعلة من نار تنفصل من الكوكب ـ فيحرقه أو يشقيه أو يخبله كما قال تعالى حكاية عن مقالة الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[2].

(١) رواه البخاري برقم: (٢٠٣٨) باب ذكر الملائكة، ومسلم برقم: (٢٢٢٨) باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، كلاهما عن عائشة رضي الله عنها، وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه برقم: (١٩٤). ورواه غيرهم.

(٢) الجن: ٨ ـ ٩.

قيل: كان لكلّ قبيل من الجن مقعد من السّماء يستمعون فيه، فلما ولد نبيّنا محمّد ﷺ رُجموا بالشُّهب، فقال إبليس: حدث أمر فأتوني من تراب بقاع الأرض، فأتوه من كل تربةِ بقعةٍ، فصار يشمّ التراب ويلقيه حتى أتوه بتراب بلاد الحجاز فشَمَّه وألقاه، وقال: من ههنا الحدث[1].

وعن جبير بن مطعم عن أبيه، قال: كنا جلوساً عند صنم لنا، وإذا صائح يصيح من جوفه، ويقول: استمعوا إلى العجم، وتوقعوا حادثاً قد اقترب، ذهب استراق السمع، ورُمي بالشهب بمولد نبيّ من العرب، هاشمي النّسب، مولده مكة، ومهاجره يثرب[2].

وعن عبد الله بن ساعدة، عن أبيه، قال: سمعت منادياً ينادي من جوف الصّنم الذي يُقال له: سُوَاع، يقول: قد ذهب كيد الجن، ورُميت بالشهب لنبي اسمه أحمد[3].

وفاز بنو سعد بسعد وإنما	أضاء لهم عرفاً رضاع حليمة
فدر لها ثدي وأزبد شارق	وكانت قديماً لا تبض بقطرة
وكانت لها الأغنام تأتين حفلاً	بطاناً وأغنام المراضع جفت

حاصله: لقد فاز وظَفِر (بنو سعد) وهم قبيلة حليمة السعدية مرضعته ﷺ، (بسعد): شرف، من حيث انتساب النبيّ ﷺ بإرضاع حليمة له إليهم.

(وإنما أضاء لهم) لبني سعد (عَرفاً) رائحة، أي: شرفاً، تشبيهاً له بالمسك الشريف ذي العرف، (رضاعُ) فاعل (أضاء): أي لم يُظهر شرفهم إلا إرضاعُ حليمة للنبيّ ﷺ.

(فدرّ لها) لحليمة، (ثدي).منها، وكانت لفقرها وضعفها قليلة الدّر، أي: اللبن، فلما أرضعته ﷺ كثُر لبنها و(أزبد) ودرّ لها ضرع أغنامها وأنعامها، وكانت قبل أخذ النبيّ ﷺ لا تدرّ لكون بلادها مجدبة، فببركته ﷺ صارت كثيرة الدّر.

(وأزبد.. الخ) أي: صار شارفها، أي: ناقتها المسنّة تدرّ لبناً بكثرة، فينشأُ منه زبد وسمن بكثرة، وقد كانت قبل إرضاعه ﷺ (لا تبضّ) ولا ترشح ولا تسمح بقطرة لبن لضعفها وجدب بلادها.

---

(١) انظر ما أورده ابن كثير في تفسيره: (٤/٦)، ونقل الإمام الألوسي في تفسيره القول بأنّ بعض الناس كان يشم التراب فيعرف الطريق إن كانت مسلوكة أو غير مسلوكة. قال: ومن هنا سميت المسافة أخذاً من السَّوْف بمعنى الشم. انظر تفسير الألوسي: (١٤/١١٦).

(٢) لم أجده.

(٣) أسنده ابن كثير إلى أبي نعيم، انظر البداية والنهاية لابن كثير: (٢/٣٥٠).

كماكانت الأغنام بعد إرضاعها له ﷺ ترجع إلى حليمة (حفّلاً) مملوءة الضرع من اللبن، مثل المحفلة، أي: المصراة، وهي متروكة الحلب ليظهر كبر ضرعها وغزارة لبنها.

(بطاناً) مملوءة البطن، في حين أنّ أغنام النسوة اللاتي لم يُردن إرضاعه ﷺ جفت ضروعها من قلّة لبنها، نتيجة لقلّة المراعي كأغنام بقيّة قومها.

وحاصل قصة إرضاعه ﷺ[1]: أنه ﷺ لما ولد قيل: أوّل من أرضعه ثويبة[2] جارية عمه أبي لهب، وقيل: أمه آمنة، ولما بشّرت ثويبة أبا لهب بولادة النبيّ ﷺ أعتقها[3] في مقابل تلك البشارة، فجوزي على ذلك بأنْ خفف عنه العذاب كل ليلة اثنين ويومها، وبأن يسقى ماء عذباً من بين أصبعيه.

ومرضعاته ﷺ عشرة، وكلهن أسلمن[4]، ومن جملتهن ثلاثة أبكار من بني سليم[5] أخرجن أثدائهن فوضعنه في فمه ﷺ فدرّ له لبناً خالصاً، وهذه الثلاث المرضعات كل واحدة منهن تسمّى: عاتكة[6]، وفي الحديث: «أنا ابن العواتك من سليم»[7]. قاله يوم حنين.

وفي رواية: «أنا ابن الفواطم»[8]، وقيل: العواتك جداته ﷺ.

وأرضعته ثويبة أياماً قلائل، كما أرضعته ﷺ حليمة بنت أبي ذؤيب، وتكنى أم كبشة ـ وهي بنت لها ـ وكني بها زوجها أيضاً, وهي من هوازن من بني سعد بن بكر

---

(١) قصة رضاعه ﷺ أوردها ابن كثير في سيرته: (١/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩)، وابن الجوزي في صفة الصّفوة: (١/٥٦ ـ٦٣)، وابن سعد في الطبقات: (١/ ١٠٨ ـ١١٥)، والطبري في تاريخه: (١/٤٥٤ ـ ٤٥٦)، وابن إسحاق في سيرته: (١/٢٥)، وغيرهم.

(٢) أرضعته بلبن ابن لها يقال له: مسروح. انظر طبقات ابن سعد: (١/١٠٨).

(٣) أعتقها أبو لهب بعد هجرة النبيّ ﷺ إلى المدينة. انظر المرجع السابق.

(٤) قال ابن الجوزي: فأما ثويبة فلا نعلم أحداً ذكر أنها أسلمت غير ما حكى أبو نعيم الأصبهاني أن بعض العلماء قال: قد اختلف في إسلامها. انظر صفة الصّفوة: (١/٦٢).

(٥) وهنّ: عاتكة بنت هلال أم عبد مناف، وعاتكة بنت مرة بن هلال أم هشام بن عبد مناف، وعاتكة بنت الأوقص بنت مرة بن هلال أم وهب أبي آمنة أم النبيّ ﷺ.

(٦) العاتكة: المتضمخة بالطيب. انظر النهاية لابن الأثير: (٣/١٧٩).

(٧) رواه الطبراني في الكبير برقم: (٦٧٢٤) من حديث سيابة بن عاصم، وسعيد بن منصور في السنن برقم: (٢٨٤١) من حديث سيابة، وقال الهيثمي في المجمع: رجال الطبراني رجال الصّحيح.

(٨) أسنده المناوي في الفيض إلى ابن عساكر. انظر فيض القدير: (٣/٣٩).

ابن هوازن، ففي الحديث: «أنا ابن عبد المطلب أنا أعرب العرب ولدتني قريش ونشأت في بني سعد بن بكر فأنّى يأتيني اللحن»[1].

خرجت حليمة من بلدها ومعها ابن لها ترضعه اسمه عبد الله، ومعها زوجها، وهو الحارث بن عبد العزى، ويكنى أبا ذؤيب، كما يكنى أبا كبشة، أدرك الإسلام وأسلم، وكان خروجها في عشر نسوة من بني سعد بن بكر بن هوازن يطلبن الرضعاء، وكانت بلادها مجدبة، فأتت على أتان لها، ومعها شارف، أي: ناقة مسنّة لا تبضّ ـ أي: ترشح وتسمح ـ بقطرة من لبن.

قالت حليمة: وما كنّا ننام ليلتنا من صبي لنا من بكائه بسبب الجوع، فما كان يجد في ثديي ما يغنيه، ولا في شارفنا ما يغذّيه، وما كنا نرجوا الغيب والفرج، وكنت متأخّرة عن الركب لضعف أتاني وشارفي، وكان أهل مكة يدفعون أولادهم للمراضع خصوصاً قومها لنبالتهم[2]، فما منا امرأة إلا وعرض عليها رسول الله ﷺ فأبت قبوله ليتمه ولم تبق واحدة من رفقائي إلا وأخذت رضيعاً، فكرهت أن أرجع بلا رضيع فقلت: لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه، وعسى الله أن يجعل لنا فيه البركة، فذهبت إليه لآخذه فإذا هو ﷺ مدرج في ثوب صوف أبيض من اللبن، وتحته حريرة خضراء، تفوح منه ﷺ رائحة المسك، فأشفقت أن أوقظه لحسنه وجماله، فوضعت يدي على صدره فتبسم ضاحكاً، وفتح عينيه، فخرج منهما نور حتى دخل خلال السماء، وأنا أنظر إليه، فقبّلته بين عينيه، ودخلت محبته في قلبي بعدما كنت أنا وصواحبي كارهين لأخذه.

---

(١) أسنده في الكنز إلى الطبراني عن أبي سعيد ﷺ، انظره فيه برقم: (٣١٨٧٣)، وقال في مجمع الزوائد (٤٠١/٨): فيه مبشر بن عبيد، وهو متروك.

(٢) وذكروا في سبب اتّخاذ أشراف العرب المراضع لأولادهم وجوهاً:
أحدها: تفريغ النساء لأزواجهن، كما قال عمار بن ياسر ﷺ لأم سلمة رضي الله عنها، وكان أخاها من الرضاعة، حين انتزع من حجرها زينب بنت أبي سلمة، فقال: دعي هذه المقبوحة المشقوحة التي آذيت بها رسول الله ﷺ..
ثانيها: أن ينشأ الطفل في الأعراب فيكون أفصح للسانه وأجلد لجسمه، وأجدر أن لا يفارق الهيئة المعدية، كما قال عمر رضي الله عنه: تمعددوا وتمعززوا واخشوشنوا. رواه ابن أبي حدرد. وقد قال ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه حين سأله، فقال: ما رأيت أفصح منك يا رسول الله ـ أي: فما سبب تلك الفصاحة ومن == أين اكتسبتها ـ ؟!. فقال ﷺ: «وما يمنعني وأنا من قريش وأرضعت في بني سعد ؟!» فهذا ونحوه كان يحملهم على دفع الرضعاء إلى المراضع الأعرابيات. وقد ذكر أن عبد الملك بن مروان كان يقول: أضرّ بنا حبّ الوليد؛ لأن الوليد كان لحّانا، وكان سليمان فصيحاً؛ لأن الوليد أقام مع أمه، وسليمان وغيره من إخوته سكنوا البادية، فتعربوا، ثمّ أدبوا، فتأدبوا. ا.هـ من الروض الأنف: (٧٧/١) بتصرف يسير.

قالت: فلما وضعته في حجري أقبل اللبن على ثديي حتى ملأهما، فأعطيته الأيمن فرضع منه، ثمّ حوّلته إلى الأيسر فأباه وهكذا كان دأبه العدل ﷺ، فشرب أخوه من الأيسر حتى اكتفى، وكان الضرعان لا يكفيانه، وامتلأ ضرع شارفي لبناً فحلبنا وشربنا، فقال زوجي: لقد حظيت بنسمة مباركة، ألا تري ما بتنا فيه من النعيم، فقلت: والله إني لأرجو ذلك، ثمّ خرجنا، وركبت أتاني، وحملته ﷺ بين ذراعي، فسبقتُ الركب، وصويحباتي ينظرن، فقلن: يا حليمة، أهذه أتانك التي قدمت عليها، ألم تكن ترفعك طوراً وتخفضك طوراً؟؟!، فقلت: بلى، إنها لهي، فقلن: إن لها لشأناً، فكنت أسمع الأتان تقول: والله، إن لي لشأناً ثمّ لشأناً، كيف لا، وقد بعثني الله بعد موتي، وردّ لي سمني بعد هزالي، ويحكنّ يا نساء بني سعد إنكنَّ لفي غفلة، فهل تدرين من على ظهري؟! إنّه خير النبيّين، وسيد المرسلين، وزين الأولين والآخرين، وحبيب رب العالمين ﷺ.

ولما فارقت مكة وجاوزتها رأيت الأتان سجدت نحو الكعبة ثلاث سجدات، ثمّ رفعت رأسها إلى السماء، فلمّا وصلنا ديار بني سعد، ولا أعلم أرضاً من أرض الله تعالى هي أجدب منها كانت غنمي تذهب إلى المرعى جياعاً وترجع غزيرات اللبن، فنحلب منها ما نشاء، وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع، فكان الغانم من قومي يقصدون مراعي دوابنا فترعى نعمهم مع نعمنا، ولا يحصل لها ما يحصل لنعمنا، وما زلنا في خير مذ قدمنا به ﷺ.

ولما بلغ شهرين حبى على جنبه، ولما بلغ ثمانية أشهر تكلّم، ولما بلغ تسعة أشهر تكلّم بكلام فصيح بليغ، يعجز البلغاء والفصحاء، ولما بلغ عشرة أشهر خرج مع الصّبيان يلعب ويرمي معهم بالسهام.

قالت: وإنه لفي حجري ذات يوم فمرّت غنمة، فأقبلت عليه حتى سجدت له، وقبّلت رأسه، قالت: وكان ينزل عليه كل يوم نور كنور الشمس ثمّ ينجلي عنه. والله أعلم بالصّواب.

حادثة شق الصّدر

وجاءتك أملاك السماء بأرضها	فأخرجت القلب الكريم وشقت
وعنه أزاحت ما أزاحت وأثبتت	وقد ملأته كل علم وحكمة

حاصله: جاءتك يا رسول الله أملاك السماء ــ أي: ملائكتها ـ وأنت في ديار حليمة السعدية، فأخرجت منك القلب الشريف، وشقَّته، وأزاحت عنه الذي ينبغي أن يزاح من العلقة التي هي حظّ الشيطان وما ينشأُ عنها من دواعي الميل إلى العصيان، وأفرغت مكانها في القلب الشريف كلَّ علم وحكمة، فأثبَتَتْها مكان الذي أزاحته عنه، فعنه ﷺ: «استرضعت في بني سعد بن بكر فبينما أنا في بهم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجا فأضجعاني فشقا بطني ثمّ استخرجا قلبي فشقاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها ثمّ غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى إذا أنقياه رداه»[1].

وفي رواية: «فأضجعني أحدُ ثلاثة ضجعاً لطيفاً، ثمّ شقّ بطني ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي، وأنا أنظر إليه، ولم أجد لذلك مسًّا ـ أي: أدنى مشقَّة ـ واستخرج أحشاء بطني، ثمّ غسلها بذلك الثلج الذي في الطست فأمعن في غسلها ـ أي: بالغ في غسلها ـ ثمّ أعادها في مكانها، ثمّ قال ثاني الثلاثة للأول: تنحّ عنه فنحاه عنّي، ثمّ أدخل يده في جوفي فأخرج قلبي، وأنا أنظر إليه، فصدعه، ثمّ أخرج منه مضغة سوداء، ثمّ رمى بها إلى الأرض، ثمّ مال بيده يمنة ويسرة وكأنه يتناول شيئاً، فإذا الخاتم في يده من نور يحار الناظرون دونه، فختم به قلبي ـ أي بعد أنِ التأم شقه ـ فامتلأ نوراً، وذلك نور النبوة والحكمة».

وفي بعض الروايات: «وملأه حكمة وإيماناً، وإن السِّكِّنة لازت ـ أي: لصقت ـ فيه ـ أي: في القلب الشريف ـ ثمّ أعاده مكانه، فوجدت برد ذلك الخاتم في قلبي دهراً»[2]، وفي رواية: «فأنا الساعة أجدُ برد الخاتم في عروقي ومفاصلي».

ثمّ قال: الثالث لصاحبه الثاني: تنحّ عنه فنحاه عنّي، فأمرَّ بيده ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي فالتأم الشق بإذن الله تعالى وختم عليه» ــ وفي الحديث الشريف: «كانوا يرون أثر المخيط في صدره ﷺ» لأنه روي أن الثالث خاطه ـ ثمّ قال ﷺ: «ثمّ أخذ بيدي فأنهضني من مكاني إنهاضاً لطيفاً، ثمّ قال للأول الذي شقَّ صدري: زنه بعشرين من أمته، فوزنني بهم فرجحتهم، ثمّ قال: زنه بمئة من أمته

---

(١) تعقبه ابن كثير بأنّ إسناده جيد قوي، انظر سيرة ابن كثير: (١/٢٢٨).

(٢) لم أجده بهذا اللفظ.

فوزنني بمئة فرجحتهم، ثمّ قال: زنه بألف فوزنني بألف فرجحتهم، ثمّ قال: دعه عنك، فلو وزنته بأمته كلهم لرجحهم، ثمّ ضموني إلى صدورهم، وقبّلوا رأسي وما بين عينيّ، ثمّ قالوا: يا حبيب الله، لم ترع ـ أي: لا تخف ـ إنّك لو تدري ما يُراد بك من الخير لقرّت عيناك، فبينما نحن كذلك إذا بالحي قد أقبلوا بحذافيرهم، وظئري ـ مرضعتي ـ معهم أمام الحي تهتف بأعلى صوتها، وهي تقول: واضعيفاه، لما أخبرتهم رفقتي بما حصل لي، فما وجدوا بي بأساً ولا وجعاً، ثمّ انطلقوا بي إلى الكاهن، فلما سألني، وسمع كلامي، وقصصت عليه قصتي كلها، وَثَب قائماً إليّ وضمّني إلى صدره، ثمّ نادى بأعلى صوته: يا للعرب من شرٍ قد اقترب، اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه، فواللات والعزّى، لئن تركتموه فأدرك مدرَك الرجال، ليذلَّنّ دينكم، وليسفهنّ عقولكم وعقول آبائكم، وليخالفنّ أمركم، وليأتينّكم بدين لم تسمعوا بمثله، ثمّ احتملوني إلى أهلي»[1].

قالت حليمة: فكنت بعد ذلك لا أدعه يذهب إلى مكان يبعد عني، فغفلت عنه يوماً في وقت الظهيرة فذهب، فخرجت أطلبه، فوجدته مع أخته الشيماء، فقلت: في هذا الحرّ؟ فقالت أخته: يا أمي، ما وجد أخي حرًّا، رأيت غمامة تظلّ عليه، إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت، حتى انتهى إلى هذا الموضع، فرأته حليمة على الحال التي ذكرتها ابنتها، كما شاهدت حليمة ذلك في مسيرها لردّه ﷺ إلى مكة.

ولما ردته لمكة، وكان عمره أربع سنين أضلّته ـ أي: أضاعته ـ في أعالي مكة، فأتت جدّه في مكة فأخبرته بذلك، فخرج يفتّش عليه وهو يقول:

يا رب أردد ولدي محمداً أردده ربي واصطنع عندي يداً[2]

فسمع الناس هاتفاً يقول: إن لمحمد ربًّا لن يخذله ولن يضيّعه، اذهبوا إليه، إنّه بوادي تهامة عند شجرة السمر فقصدوها فوجدوه قائماً تحتها، فقالوا له: من أنت يا غلام؟ فقال: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فقال: عبد المطلب، أنا جدك فدتك نفسي، واحتمله واعتنقه وهو يبكي. وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا

---

(١) أورد هذه الرواية بطولها الطبري في تاريخه: (١/٤٥٦ ـ ٤٥٧) من طريق عمر بن الصّبح عن ثور بن يزيد عن مكحول عن شداد بن أوس ﷺ، لكن تعقبه ابن كثير في (البداية): بأن عمر بن صبح هذا متروك كذاب متهم بالوضع. انظر البداية والنهاية: (٢/٢٧٥).

(٢) البيت من بحر الرجز.

﴿فَهَدَىٰ﴾[1].

ثمّ إن شقَّ الصّدر أُعيد ببطحاء مكة، وهو ﷺ ابن عشر سنين، ليكون أوان البلوغ في أعلى الصّفات كما كان زمن الطفولة كذلك، ثمّ أعيد الشقّ وما معه مرة ثالثة عند بلوغ عمره أربعين سنة، وذلك ليتلقّى النبوة بقلب سليم، ثمّ أُعيد مع ما معه ليلة الإسراء المعراج، ليصلح لمكالمة العلي الأعلى. فهذه أربع مرات متفق عليها.

قيل ووقع مرة خامسة عند تمام عشرين سنة، ولا تثبت[2].

رحلة الشام وخبر بحيرا راهب النصرانية

وأبصر في بصرى بحيرا غمامة	عليه استوت دون الورى وأظلت
وشاهد أغصاناً عليه تهصرة	فسر بأوصاف لديه قديمة

حاصله: أنه ﷺ لما تعلّق بعمّه أبي طالب حين أراد السفر بتجارة إلى أرض الشام، وكان عمره ﷺ حينئذ اثني عشرة سنة، فلما أشرفت القافلة على صومعة بحيرا الراهب بقرب بلدة بُصرى من أعمال الشام مما يلي الحجاز، وكان عالماً بالكتب القديمة، متقناً لها، حريصاً على معرفة نبيّ آخر الزمان، فلما أشرفت القافلة على صومعته شاهد الغمامة تظلّ نبيّنا محمداً ﷺ دون رفقته، وتسير معه حيث سار، وتقف معه حيث وقف، فتفطَّن لغرابة ذلك، وصار يراقبه، فلمّا وصلت القافلة نزلت قرب صومعته، وتسارع القوم إلى ظلّ الأشجار، وتوجَّه النبيّ ﷺ نحو القوم ليجلس إليهم، فلمّ ـ أي: نزل ـ مكاناً فيه ظل شجرة، فجلس ﷺ في جانبها الآخر الخالي عن ظلّها واستند إلى بدنتها، فأمالت الشجرة أغصانها جهته ﷺ حتى أظلّته دون القوم، وبحيرا ينظر، فنزل من صومعته، فسأله ليمتحنه، وقال له: أسألك باللات والعزى أن تخبرني عما أسألك، فقال له النبيّ ﷺ: لا تسألني بهما، فما أبغضت شيئاً كبغضي لهما، فسأله عن أمور، فأخبره بها، ثمّ سأله أن يريه كتفه، فأراه، فنظر فيه خاتم النبوّة، فقال لأبي طالب: ما هذا منك؟. قال: ابني، قال: ما ينبغي أن يكون أبوه حيًّا، فقال له: إنه

---

(١) الضحى: ٧.

(٢) انظر شرح الزرقاني: (١/١٣٥). قال الحافظ السيوطي: وما وقع من بعض جهلة العصر من إنكار شق الصّدر على الحقيقة، وحمل ذلك على الأمر المعنوي المجازي، وإلزام قائله القول بقلب الحقائق فهو جهل صُراح، وخطأ قبيح، نشأ من خذلان الله تعالى لهم، وعكوفهم على العلوم الفلسفية، وبُعدهم عن دقائق السنّة، عافانا الله تعالى من ذلك. انظر شرح المواهب: (٦/٢٥).

ابن أخي، فقال له: صدقت، ولكن ارجع به إلى بلدك، واحذر عليه اليهود، فإنه كائن له شأن عظيم.

وروي أن نفراً من أهل الكتاب رأوا ما رآه بحيرا، فأرادوا سوءاً فردّهم بحيرا وذكَّرهم الله تعالى وما يجدونه في الكتاب من ذكره وصفاته، وأنه إن يكن هو لا يصلون إليه، فعند ذلك تركوه وانصرفوا عنه. واسم بحيرا: جرجيس، وإليه انتهى علم النصرانية في زمانه[1].

وميسرة قد عاين الملكين إذ أظلاك لما سرت ثاني سفرة

حاصله: لما بلغ النبيّ ﷺ خمساً وعشرين سنة على الراجح وذاع صيت صدقه وأمانته في أنحاء مكة وأرجائها، لِمَا تكامل فيه من خصال الخير، قال له عمُّه أبو طالب: يا ابن أخي لو أتيت خديجة وطلبت لنا منها مالاً نتّجر فيه، وكانت أكثر قريش مالاً وأعلاهم جمالاً وحسباً ونسباً، وكانوا يتّجرون بمالها، فقال له النبيّ ﷺ: لا أذهب إليها ما لم ترسل هي إليّ، فقال له عمه أبو طالب: هي لا تردّك ونخشى أن يسبقك أحد للاتجار بمالها، وشكى إليه حاله، فأبى النبيّ ﷺ، وافترقا على ذلك.

فبلغ الخبر خديجة فأرسلت للنبي ﷺ ودفعت إليه مالاً عظيماً يضاربها[2] فيه، وأرسلت معه مملوكاً لها اسمه: ميسرة، ليخدمه ويآزره ويسهر على خدمته، وكانت تودّ التقرب إليه بالتجارة والتزوّج لما بلغها من حسن خصاله وجليل فعاله، ويمنعها من ذلك عدم المقتضي لذلك، فلما حصل ما حصل جعلت ذلك وسيلة لما ترومه، وأوصت ميسرة به ليكون حافظاً لما يقع منه، لتكون على بصيرة تامة منه ﷺ.

وكان ميسرة ذكيًّا يحسن التصرف، أميناً على مالها، فلمّا سافر النبيّ ﷺ مع عمه أبي طالب بمالها، وصحبه ميسرة يترقب أحواله ﷺ، ليخبر بها خديجة، فلما وصلوا سوق بصرى نزل النبيّ ﷺ في ظل شجرة قريبة من صومعة راهب اسمه:

---

(١) جمع هذا السياق بين روايات متعددة، منها ماوراه الترمذي في المناقب، وقال فيه: حسن غريب، ومنها ما رواه الحاكم في المستدرك في كتاب التاريخ وصححه، ومنها ماوراه البيهقي في الدلائل، والقاضي عياض في الشفاء، وابن أبي شيبة، والأصبهاني، والخرائطي، وابن عساكر، وقال السخاوي: وبالجملة لم تذكر الغمامة في حديث أصح من هذا. انظر الحديث في كشف الخفاء برقم: (٤٠٦).

(٢) المضاربة في لغة أهل العراق: هي القراض في لغة أهل الحجاز. يقال: ضاربته أضاربه مضاربة. وشرعاً: دفع المالك مالاً للعامل ليعمل فيه والربح بينهما. انظر التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي: (٦٦٠)، والتعريفات للجرجاني: (٢٧٨).

نسطورا[1]، فاطّلع الراهب إلى ميسرة، وكان يعرفه قبل ذلك، فقال له: يا ميسرة، من هذا الذي نزل تحت الشجرة؟ فقال ميسرة: رجل من قريش من أهل الحرم. فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبيّ، وما نزل تحتها بعد عيسى أحد، أفي عينيه حمرة؟ قال ميسرة: نعم، لا تفارقه. قال الراهب: هو هو، وهو آخر الأنبياء.

وروي أن الراهب لما رأى الغمامة تظلله ﷺ فزغ، وقال: ما أنتم عليه؟ ـ أي: بم تدينون؟ ـ ثمّ قبّل رأس النبيّ ﷺ وقدميه، وقال: آمنت بك، وأنا أشهد: أنت الذي ذكره الله في التوراة. ثمّ نظر إلى موضع خاتم النبوة، فإذا هو يتلألأ نوراً، فأقبل عليه فقبّله وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، النبيّ الأُمِّي، الذي بشّر بك عيسى بن مريم عليه السلام، وقال: إنه لا ينزل بعدي تحت هذه الشجرة إلا النبيّ الأُمِّي الهاشمي، العربي المكي، صاحب الحوض والشفاعة، وصاحب لواء الحمد.

قيل: كانت يابسة نخرٌ عودها، فلما اطمأنّ تحتها اخضرّت وتدلّت عليه أغصانها تقيه حرَّ الشمس، وأنه ﷺ نزل بعد ذلك إلى سوق بصرى، فاختلف مع رجل في سلعة، فقال الرجل للنبيّ ﷺ: احلف لي باللات والعزى، فقال النبيّ ﷺ: ما حلفت بهما قط، فقال الرجل القول قولك.

وقبل وصولهما بصرى عيي ـ مرض ـ جملان مع ميسرة، وتخلّف بسببيهما عن الركب حتى ظنَّ الهلاك، ثمّ أخبر النبيّ ﷺ بما آلت إليه حال الجملين، فرجع إليهما وداس على عراقيبهما، وعوذّهما بالله تعالى، ودعا لهما، فخرجا يسرعان حتى سبقا الركب.

وروي أنهم ربحوا في تلك التجارة ما لم يربحوا مثله قطّ، وكان ميسرة يرى ملكين يظلانه ﷺ من حرّ الشمس وهو على بعيره، وتعلّق ميسرة من حينئذ بالنبيّ ﷺ، فكان يجلُّه ويعظمه كسيّده، وتقدم رسول الله ﷺ ـ أي: سبق ـ العير إلى مكة من

---

(١) نسطورا: رجل جليل القدر متبحراً في الديانة النصرانية، والذي يدل على مكانته الرفيعة في الدين المسيحي انه كان بطرك القسطنطينية من عام (٤٢٨) إلى عام (٤٣١) للميلاد، لكنه اضطهد بسبب عقيدته ونفي إلى حيث علمت.

ملخص عقيدته: إنكار لاهوت المسيح عليه السلام والقول بأنّ تسميته إلهاً ليست جائزة، بل يجب أن يدعى (كلمة) وأن تدعى أمّه مريم عليه السلام (أم الناسوت) الذي هو مظهر الكلمة السامي، لا أمّ الله ـ تعالى الله عن ذلك وتقدّس ـ. اهـ من دائرة المعارف الانكليزية.

مَرِّ الظهران[1] وبلغ أهل مكة الخبر بقدوم القافلة، فخرجت خديجة مع نسوة ينظرن إليها، فإذا بمحمد ﷺ قد سبقهم، ورأت الملكين على رأسه الشريف يظلانه، فأرتهما النسوة اللاتي معها فتعجبن من أمره ﷺ، فلما قدم ميسرة أخبرته بما رأت، فأخبرها أنه رأى ما ذكرت، وزادها خبر الراهب والربح، فازدادت محبةً له وتعلّقاً به ﷺ.

وكانت تدعى في الجاهلية: الطاهرة وسيدة قريش، وطلبها رجالات قومها للزواج مراراً فأبت، ورغّبوها في الأموال فلم ترغب، حتى رجع ميسرة من سفره وأخبرها بأمره ﷺ، فأرسلت إليه ﷺ خُفْية تقول له: يا محمد، ما يمنعك من التزوّج، فقال: المال، فأرسلت إليه بأنّ المال، والجمال، والشرف، والكفاءة عندي، فأرسل إليها: وكيف لي بذلك؟ فأرسلت إليه ﷺ تقول له: ائتني ساعة كذا، فأتاها، فقالت له: ائتني بعمّك أبي طالب، فأتاها به، فقالت له: يا أبا طالب، تخطبني من عمّي يزوّجني من ابن أخيك محمد ﷺ، وعاهدته أنها لصادقة فيما تقول، فقدم أبو طالب إلى عمها خاطباً، وقال في خطبة ألقاها في هذه المناسبة: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضِئضِئ مَعَدّ وعنصر مُضَر، وجَعَلنا حَضَنَة بيته وَسُوَّاس حرمه، وجَعَله بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجَعَلنا حكّام الناس، ثمّ إنّ ابن أخي هذا ـ محمد بن عبد الله ـ لا يوزن به رجل إلا رجحه شرفاً ونبلاً، وفضلاً وعقلاً، وإنْ كان في المال قِلٌّ، فإنّ المال ظلّ زائل، وأمرٌ حائل، وعاريّة مسترجعة، وهو ـ والله ـ بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل، وقد خَطَب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها صداقاً عاجله وآجله اثنتا عشرة أوقية ذهباً ونشّا.

وقيل: زاد عشرين درهماً، وقيل: وعشرين بِكْرة.

وقال عمّها عمرو بن أسد: هو الفحل لا يقدح أنفه، وأنكحها منه، فسرَّ أبو طالب بذلك، وأولم بعيرين.

وتقدم ورقة بن نوفل فخطب خطبة قال فيها: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرتَ، وفضّلنا على من عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كلّه، لا تنكر العرب فضلكم، ولا يردُّ أحد من الناس فخركم وشرفكم، ورغبتنا في الاتصال

---

(١) مر الظهران: واد فحل من أودية الحجاز، ويمر شمال مكة على مسافة اثنتين وعشرين كيلا، ويصب في البحر جنوب جدة، ومن قراه: الجموم وبحرة، ومن أقسامه: وادي فاطمة نسبة إلى فاطمة زوجة بركات بن أبي نُميّ، أحد الأشراف الذين حكموا مكة. انظر معالم الأثيرة: (٢٥٠).

بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا عليّ معاشر قريش أني زوَّجت خديجة بنت خويلد من محمد ابن عبد الله، وذكر المهر، فقال أبو طالب: قد أجبت أن يشركك عمها فقال عمّها: اشهدوا عليّ يا معاشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد.

وكان عمرها رضي الله عنها يومئذ أربعين، وقيل: ثلاثين، وقيل: خمساً وأربعين سنة، وكان تزوجها قبله ﷺ رجلان: أحدهما عتيق بن عائذ، فولدت له بنتاً اسمها هند، وثانيهما أبو هالة، واسمه النباش بن زرارة، فولدت له هالة وهنداً، وقيل: زوجها الأول أبو هالة، والثاني عتيق بن عائذ.

سلام الحجر على النبيّ ﷺ

وما جزت بالأحجار إلا وسلَّمت   عليك بنطق شاهد قبل بعثة

حاصله: ما جزت ولا مررت بحجر من الأحجار يا رسول الله قبل بعثتك إلا سلَّم عليك بنطق شاهد مشاهد، أي: معلوم لك ولمن كان معك، ودالّ - أي: نطقٍ دالّ - على نبوّتك، فقد صح أنه ﷺ قال: «إني لأعرف حجراً كان يسلم علي بمكة قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن»[1]. قيل: إنه الحجر الأسود[2].

وأنه ﷺ (كان إذا خرج لقضاء حاجته، حين أكرمه الله تعالى بالنبوّة أبعد، حتى لا يرى أحد منه شيئاً، ويفضِ إلى الشعاب وبطون الأودية، فكان لا يمرُّ بشجر ولا حجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، فكان يلتفت يميناً وشمالاً وخلفاً فلا يرى أحدا)[3].

وفي الشفا: أنه ﷺ لما خرج تاجراً إلى الشام خرج إليه راهب، فأخذ بيده، وقال: هذا سيد العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين، فقيل له: وما علمك بذلك؟ قال: إنه لم يبق حجر ولا شجر إلا خرَّ ساجداً له ولا يسجدان إلا لنبيّ.

وعن علي ﷺ قال: (كنت مع النبيّ ﷺ بمكة فخرجنا إلى بعض نواحيها فما

---

(١) رواه مسلم برقم: (٢٢٧٧) باب نسب النبيّ ﷺ ويسلم الحجر عليه قبل النبوة، وأحمد في المسند برقم: (٢٠٨٦٠)، والدارمي برقم: (٢٠) باب ما أكرم الله به النبيّ ﷺ. ورواه غيرهم، وكلهم عن جابر بن سمرة ﷺ.

(٢) انظر فيض القدير للمناوي: (١٩/٢).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك برقم: (٦٩٤٢) عن برة بنت أبي تجراة رضي الله عنها، وتعقبه الذهبي في التلخيص بالقول: لم يصح. يعني هذا الحديث.

استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله)[1].

وعن أنس ﷺ، أنه قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبيّ ﷺذات يوم، وهو جالس حزيناً، قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، فقال له: مالك؟. فقال ﷺ: «فعل بي هؤلاء وفعلوا»، فقال له جبريل عليه السلام: أتحب أن أريك آية؟. قال ﷺ: «نعم» فنظر جبريل عليه السلام إلى شجرة من وراء الوادي، فقال: ادع بتلك الشجرة، فدعاها، فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه، فقال: مرها فلترجع، فأمرها، فرجعت إلى مكانها. فقال رسول الله ﷺ: «حسبي»[2].

قال سيدي محيي الدين بن عربي ﷺ: سرّ الحياة سارٍ في جميع العالم، وقد ورد أنّ كلّ شيء سمع صوت المؤذن من رطب ويابس يشهد له، ولا يشهد إلا من عَلِم، وتأمّل اندكاك الجبل لما وقع التجلي عليه، ولا يكون له ذلك إلا بمعرفته بعظمة الله تعالى، فلولا ما عنده من التعظيم له تعالى لما تدكدك ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[3].

فقد كشف لنا عن حياتها وأسمعنا تعالى تسبيحها ونطقها من غير دليل بل معاينة، والمحجوبون يقولون: خَلَق فيها علماً وحياة وقت نطقها كرامة أو معجزة، والأمر عندنا ليس كذلك. اهـ. بالمعنى. والله أعلم بالصّواب.

أطوار الوحي الأولى وخبر ورقة بن نوفل

وما زلت طوراً في حرا متعبداً ... وطوراً تحرى فيه عند خديجة

إلى أن أتاك الوحي واتضح الهدى ... وأظهرت للإيمان شمس الظهيرة

حاصله: لقد استمريت يا رسول الله طوراً ـ أي: في طور وحال ووقت من الأوقات ـ متعبّداً وفي نسخة متحنثاً، والمعنى واحد، إذ التحنّث: التعبّد الليالي ذوات العدد ـ أي: المتعددة ـ وطوراً ـ أي: في طور وحالة أخرى ـ تتحرّى في ذلك الطور وتتهيأ عند خديجة رضي الله عنها للذهاب لحراء ـ جبل فيه غار.

---

(١) رواه الترمذي برقم: (٣٦٢٦) باب في آيات ثبوت نبوة النبيّ ﷺ وما قد خصه الله تعالى به، وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

(٢) رواه أحمد في المسند برقم: (١٢١٣٣).

(٣) الإسراء: ٤٤.

كان النبيّ ﷺ يتزوّد من بيت خديجة ليمكث فيه للعبادة، ودام لك هذا الحال يا رسول الله إلى أن أتاك الوحي واتّضح لك أمر النبوّة الذي جعله الله تعالى هدى للعالمين، وأظهرت يا رسول الله ديناً كشمس الظهيرة في الوضوح، في كونه من عند الله تعالى.

وحاصله: أن بدء الوحي كان مناماً، فعن خديجة رضي الله عنها، أنّ أوّل ما بُدئ به النبيّ ﷺ من الوحي الرؤيا الصّالحة ـ أي: الصّادقة ـ فقد كان ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصّبح[1] ـ أي: فكان لا يرى رؤيا إلا وقعت يقظة بنفسها أو بتأويلها.

وحكمته[2]: لئلا يفجأه ملك الوحي يقظة، فلا تتحمّله بشريّته ﷺ، لأنها تهاب رؤية المَلَك[3]، فكانت الرؤيا تأنيساً له.

ورؤيا الأنبياء وحيٌ كيقظتهم، فكان ابتداء الوحي رؤيا منامية ستة أشهر: أوّلها شهر ربيع الأول، وابتداء تلقي الوحي يقظة كان في رمضان[4]، وعن عمر بن شرحبيل ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: «إذا خلوت سمعت نداء: يا محمد يا محمد»[5]. وفي رواية: «أرى نوراً ـ أي: يقظة لا مناماً ـ وأسمع صوتاً، وقد خشيت أن يكون والله لهذا أمر». وفي رواية: «ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيئاً قط ولا الكهان وإني لأخشى أن أكون كاهناً». وفي رواية: «وأخشى أن يكون بي جنون» أي: يكلّمني جنّي. فقالت: كلا، ما كان الله ليفعل ذلك بك، إن خُلُقك كريم: تؤدِّي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث. أي: فلا يكون للشيطان عليك سبيل.

وكان ﷺ حُبّبت إليه العزلة حتى لا يرى ما عليه قومه، ثمّ حُبّب إليه الاختلاء في غار ـ مغارة ـ جبل حراء ـ بالمدّ والقصر ـ فكان يتزوّد من بيت خديجة، ويخرج إلى الغار حتى إذا أفنى زاده وماءه جاء بيت خديجة فتزوّد ثمّ رجع إلى الغار.

---

(١) حديث بدئ الوحي رواه البخاري: (٤٦٧٠ ـ ٤٦٧٣ ـ ٦٥٨١) باب أول ما بدئ به رسول من الوحي الرؤيا الصّالحة، ومسلم برقم: (١٦٠) باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، وأحمد : (٦٥٢٤٣)، كلهم عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. ورواه غيرهم.

(٢) أي: وحكمة ابتداء الوحي بالرؤيا الصّالحة.

(٣) أي: على الهيئة الملكية التي خلقه الله تعالى عليها.

(٤) انظر فتح الباري: (١٢/٣٦٥).

(٥) انظر عمدة القاري: (١/٦٤).

وكانت زوّادته الكعك والزيت، فكان يمكث الشهر فيه والشهرين، وكان تعبّده بالذكر والفكر، وبما صح عنده من شرع إبراهيم عليه السلام، وكان يُطعم من مرَّ به من طعامه ويسقيه من شرابه، وكان إذا نزل مكة بدأ أول ما يبدأ بالطواف بالبيت، وكان على ذلك سنين إلى أن أتمّ الأربعين من عمره الشريف ﷺ.

ومضت ستة أشهر المنام[1] وجاء شهر رمضان، فجاءه مناماً ليلة السبت جبريل عليه السلام وكلَّمه، ثمّ أعاد المجيء ليلة الأحد وكلَّمه، وهو في غار حراء، حتى إذا كانت ليلة الاثنين انشق سقف الغار، وظهر جبريل عليه السلام فرآه النبيّ ﷺ يقظة بعين الصّورة التي كان رآها مناماً، فقال له مثل ما كان يقول له مناماً: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾[2] فقال النبيّ ﷺ: ما أنا بقارئ، قال ﷺ: «فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجَهْد ثمّ أرسلني». أي: ضمني إلى صدره ضمًّا عظيماً حتى انتهى صبري على مشقة ذلك الضمّ ثمّ أطلقني.

ومعنى: «ما أنا بقارئ» لا أحسنُ القراءة ولا أحفظ شيئاً منها، وقيل: المعنى: (أيّ شيء أقرأ؟) على الاستفهام.

قال ﷺ: «ثمّ أعاد عليّ الأمر بالقراءة وأعدت عليه الجواب السابق، فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثمّ أرسلني وهكذا ثلاثاً.

قيل: بعد الثالثة، وقيل: بعد الرابعة قال جبريل له ﷺ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3].

ثمّ انصرف عنه ﷺ فخرج ﷺ من الغار فرجع إلى بيت خديجة ترجف بوادره ـ أي: اللحم الذي بين المنكب والعنق يتحرك من الفزع ـ ويقال لذلك اللحم: فريصة وفرائص.

وفي رواية: «يرجف فؤاده» أي: قلبه، فقال ﷺ: «زمّلوني زمّلوني» أي: غطّوني بالثياب، فزمّلوه حتى ذهب عنه ﷺ الرّوع ـ أي: الفزع ـ فأخبر خديجة رضي الله تعالى عنها الخبر، وقال: لقد خشيت على نفسي ـ أي: من الموت أو المرض ـ وفي رواية: «على عقلي»، فقالت له خديجة رضي الله تعالى عنها: كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك

---

(١) أي: الفترة التي استغرقها وحي المنام.

(٢) العلق: ١.

(٣) العلق: ١ ـ ٥.

الله أبداً ـ أي: لا يفضحك ـ لأنك تصل الرحم وتحمل الكَلّ[1] وتُكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق) أي: تعين على الأمور الحقة النافعة التي فيها الخير والبر.

ثمّ انطلقت به خديجة إلى ورقة بن نوفل، وهو ابن عم خديجة، فقالت له: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟. فأخبره رسول الله ﷺ الخبر، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله تعالى على موسى[2]، يا ليتني فيها جَذَعاً[3] إذ يخرجك قومك، حتى أخبّ فيها وأضع[4]، فقال ﷺ: أوَمخرجي هم؟ ـ أي: أمعادون لي ومخرجون لي من مكة ـ فقال له: نعم، لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلا عودي.

ثمّ فتر الوحي ـ أي: لم ينزل عليه ﷺ قرآن ـ ليقوى شوقه إليه، ويتقوّى على تلقّيه من جبريل عليه السلام ثمّ لم يلبث ورقة بن نوفل أن توفي.

وحزن ﷺ على فتور الوحي حزناً شديداً ظانًّا أنه فاته ولن يعود إليه، حتى أنه كان يغدو إلى جبل ثبير[5] تارة وحراء[6] أخرى يريد أن يلقي بنفسه منه، فكلّما وافى ذروة الجبل، وأراد أن يلقي بنفسه منه تبدّى وظهر له جبريل عليه السلام، وقال: يا محمد، أنت رسول الله حقّاً، فيسكن حينئذ جأشه ـ أي: روع قلبه ـ وتقرّ عينه فيرجع، فإذا أطالت عليه فترة الوحي عاد لمثل ذلك، فيتبدّى له جبريل عليه السلام ويقول له مثل قوله الأول، فيسكن جأشه وروعه.

وعلّمه جبريل عليه السلام الوضوء على ما قيل، وكذا غسل الجنابة وصلاة ركعتين في الغداة وركعتين في العشيّ، بأنْ فَعَل ما ذُكِر بمرءاً من النبيّ ﷺ فتعلّم النبيّ ﷺ من مشاهدته لذلك، وصار ﷺ يفعل ما ذُكر.

ولما اشتدّ شوقه ﷺ للوحي تبدّى له جبريل عليه السلام، وهو نازل من حراء، فسمع صوتاً ولم يَرَ شخصاً، فالتفت ﷺ لِيَرَ من أين مصدر ذلك الصّوت، فنظر إلى

---

(١) الكل: هو من لا يستقلّ بأمره، ويدخل فيه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال وغير ذلك.

(٢) الناموس: صاحب السرّ والمراد به جبيريل عليه السلام.

(٣) يريد بذلك أن يكون شاباً جلداً قوياً ليكون من أنصاره ﷺ.

(٤) أي: حتى أنزل لحرب أعدائك وأوقع القتلى في صفوفهم، وأبدلهم بعزهم ذلاً.

(٥) جبل بمنى.

(٦) الجبل الذي فيه الغار المعروف.

أعلى فإذا جبريل عليه السلام بين السماء والأرض بصورته التي خُلِق عليها، وكان ﷺ يطلب أن يراه كذلك، فوقع ﷺ مغشيًّا عليه من فزعه منه وهيبة منظره، فتحوّل جبريل عليه السلام في صورة رجل، وجعل يضرب على صدره ﷺ، وهو يقول له: لن تراع يا حبيبي.... إلى آخر الحديث.

ثمّ نزل ﷺ مكة فطاف بالبيت، ودخل على خديجة رضي الله عنها، فقال: «زمّلوني» أي: غطّوني. فنزل عليه ﷺ قوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ① قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

وتتابع الوحي وحمي، فلما تزمّل بثيابه مُرياً أنه نائم، وهو متفكّر في أمره، مغتاظ مما يقول أهل مكة في شأنه حين أخبرهم برسالته، من زعمهم أنه مجنون، وأنّ شيطاناً ينزل عليه كما ينزل على الكهنة، وأنّه يقول شيئاً من عند نفسه لا عن ربه، فكلّ واحد من الكفرة يتحدّث بما تحسنه نفسه من الكذب أو الكهانة أو العرافة أو غير ذلك، عند ذلك كلّه أرادت خديجة اختباره ﷺ وذلك بإرشاد ورقة بن نوفل لها وإرشاد بحيرا الراهب حينما أرسلت تُعْلمه بأمره ﷺ، فقالت له: إذا نزل الوحي عليك فأعلمني به، فلما ظهر ﷺ جبريل عليه السلام للنبيّ ﷺ أخبرها بذلك فقالت: اجلس على فخذي وانظره، فجلس فنظره وأخبرها بوجوده، فقالت له: اجلس في حجري وانظره، فجلس فنظره، وأخبرها به فكشفت الخمار عن رأسها وسألته عنه، فقال لها: لم أنظره الآن، فأعادت خمارها فقال: إني أنظر إليه الآن، فقالت له: أبشر، فإنك رسول الله حقًّا.

والأصح أن ما ذكر كان مدة فترة الوحي عنه ﷺ، فإنه كان يظهر فيها جبريل للنبي ﷺ ولكن لا يحمل إليه قرآناً، ولا يكلّمه إلا أحياناً، فيطمئنه قائلاً: إنّك رسول الله حقًّا ونحوه.

ولازمــــك النـــاموس إمـــا بشكله وإما بنفث أو بحلية دحية

حاصله: لقد لازمك يا رسول الله منذ بعثك الله نبيًّا الناموس الذي هو صاحب خبر الخير، والمراد به جبريل عليه السلام أمّا قبل البعثة فكان إسرافيل عليه السلام موكّلاً به على ما قيل، وصاحب خبر الشر يقال له: جاسوس، وجبريل لما لازمك، كان يظهر لك تارة بشكله الذي خُلق عليه، وذلك في مرتين: مرة وأنت نازل بحراء،

(١) المزمّل: ١ ـ ٢.

والثانية لما وقعت على الأرض من هيبته، فقال لك: نشرتُ جناحين من أجنحتي الستمئة حين رأيتني، فقلت له: ما أعظم خلقتك!!، كل جناح يملأ ما بين السماء والأرض!! فقال لك: فكيف بك لو رأيت أخي إسرافيل، له اثنا عشر ألف جناح، كلّ جناح بقدر أجنحتي الستمئة، ومع هذه الخلقة العظيمة، والهيبة المفرطة، يتصاغر حتى يصير كالعصفور هيبة وخوفاً من الله تعالى.

وتارة يأتيك بالوحي فيهبط على قلبك، فينفث فيه ـ أي: يحدثك فيه بحيث تسمع أنت وحدك دون غيرك ـ وفي بعض الأوقات يسمع الحاضر عند وجه النبيّ ﷺ وقت نزول الوحي دويًّا كدويِّ النحل، فيغيب النبيّ ﷺ عن الحاضرين لمكالمته في قلبه، فيثقل بسبب ذلك التجلِّي، حتى أنه يُروى أنه كان إذا نزل عليه الوحي وهو على ناقته العضبا هبطت من ثقله حتى تكاد تبرك ويلتصق بطنها بالأرض.

وروي[1] أنه ﷺ كانت فخذه على فخذ صحابي فنزل عليه الوحي، فحلف الصّحابي أنه أحسَّ بثقل كالجبال وأنّ فخذه كادت ترضّ من ذلك الثقل، والصّحابي هو زيد بن ثابت، ويأخذ وجه النبيّ ﷺ حمرة شديدة وقت نزول الوحي عليه، فيسمع ﷺ صوت الملك كالجرس، فيصغي فيعلم ويعي مقالته له، وهذه الحالة أشقّ الأحوال عليه ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[2].

قيل: نفس تلقيه فيه مشقَّة وثقل، وقيل: الثقل من تجلي جبريل على النبيّ ﷺ، وقيل: ثقيل في كفَّة الحسنات يوم القيامة، وقيل غير ذلك[3].

فهذه الحالة من حالات الوحي هي أشق ما تكون على النبيّ ﷺ، وأخفها ما كان يراه ﷺ مناماً.

وتارة يكون بتكليم الله له أو تكليم جبريل عليه السلام في قلبه فلا يجد النبيّ ﷺ تلك المشقة.

ويشبه هذا النوع من الوحي إلهامات الأولياء، وتحديث الله تعالى والجمادات لهم بحيث يسمعونها بقلوبهم دون آذانهم.

---

(١) رواه البخاري برقم: (٢٦٧٧ ـ ٤٣١٦) باب قول الله تعالى: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين..﴾ الآية، والترمذي برقم: (٣٠٣٣)، والنسائي برقم: (٣٠٣٩).

(٢) المزمّل: ٥.

(٣) انظر زاد المسير: (٨/٣٩٠)، والدر المنثور: (٨/٣١٥).

وفي الحديث: «إن روح القدس نفث في روعي: أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها ورزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنّكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعصية الله تعالى».

و(روح القدس) هو جبريل عليه السلام، فإنه من المجردات كعالم الأرواح.

و(مقدّس): مطهر حسًّا.

ومعنى نفث: ألقى، وأصله: النفخ الخفيف بلا ريق، أي: كلّمني كلاماً خُفية سراً.

(في روعي) أي: قلبي.

وهذه الحالة أيسر أنواع الوحي في اليقظة.

وتارة يأتيه الوحي ـ أي: جبريل عليه السلام ـ بصورة دحية الكلبي ﷺ، وهو صحابي جليل، لطيف المنظر والحديث، كان إذا دخل المدينة لم تبق امرأة إلا برزت لتنظره من نحو سطحها لجماله ﷺ.

قالوا: ما سُمع بعد يوسف عليه السلام بجميل مثل جماله، وكان ﷺ كثيراً ما يرسله مبعوثاً لملوك الأرض ليدعوهم للإسلام، ففي الكثير من الأوقات كخيبر وغيرها كان الصّحابة رضي الله عنهم يرون دحية داخلاً على النبيّ ﷺ، ثمّ يأتي دحية ﷺ من مكان آخر، فيُنكر ما ينسب إليه من دخوله على النبيّ ﷺ، فيقول النبيّ ﷺ: «ذاك جبريل جاء بصورته» وذلك ليأنس به ﷺ، وتارة يأتيه جبريل عليه السلام بصورة غيره من الرجال.

وذلك كما في حديث عمر بن الخطاب ﷺ[1] قال: بينما نحن عند رسول الله إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثوب شديد سواد الشعر، لا يُرَى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إليه ﷺ، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع يده على فخذيه، فقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام...» إلى آخر الحديث.

وتارة كان يسمع الصّوت ولا يرى شخصه، وهذا كان وقت فترة الوحي ليشتاق ﷺ للرؤية فيصبر على مشقتها، فكان يقول له: يا محمد، إنك رسول الله حقًّا مع رؤيته ﷺ له وبدونها، كما كان يظهر له إبّان فترة الوحي بدون محادثة، فيقف أمامه ليتشجّع ويأنس به فلا يفزعه إذا قرب منه وكلّمه، وكان كلما نزل عليه صحبه من

---

(١) رواه مسلم برقم: (٨) باب الصّلوات التي هي أحد أركان الإسلام، والترمذي برقم: (١٦١٠) باب ماجاء في إضافة الفرائض إلى الإيمان، والنسائي برقم: (٤٩٩٠) في صفة الإيمان والإسلام. ورواه غيرهم.

الملائكة من يطرد الشياطين عن مجلس النبيّ ﷺ حتى لا يوافقوه فيما ليس بوحي.

ولقد بلغت مرات نزوله عليه ﷺ أكثر من سبعة آلاف مرة في مدة ثلاث وعشرين سنة ﷺ.

سلكت طريقاً في الهداية مَنْ نحا سِوَاها تَنحَّى عن سواء الطريقة
هديتَ إلى النجدين هدي دلالة فقوم إلى رشْدٍ وقومٌ لشِقْوةِ

حاصله: لقد سلكت يا رسول الله في هداية أمتك طريقاً قويماً مستقيماً، وهذه الطريق هي شرعك الذي بُعثت به، فإنه طريق لمرضاته تعالى، مَن نحا وقصد وسار في سواها تنحّى ومال عن سواء الطريقة، أي: الطريق السواء المستقيمة غير ذات العوج، فتؤُول به بداهة طريقُه تلك إلى غضب الله تعالى وعقابه.

ولقد هديت ودللت يا رسول الله النّاس على النّجدين: طريق الخير وطريق الشر دلالة كاملة تامّة، فقومٌ ممن بلغهم تبليغك أراد الله بهم سعادة الدارين مالوا إلى الرَّشَد، أي: إلى ما فيه الصّلاح لهم، ألا وهو ما جئت به، فتلبّسوا به، وقوم آخرون لم يرد الله بهم سعادة مالوا إلى شقوة مخالفة ما جئت به، فشقوا بسبب ذلك.

وأرسلت بالنوعين شِرْعَةَ ديننا فَطَوْراً بتفصيل وطوراً بجملة
وأسْعَدْتَ بالأمرين فرقتي الورى فريق بلِيْنٍ أو فريق بشدَّة
وأرسلت للدارين من طاع أو عصى فهذا إلى نارٍ وذاك لجنة

حاصله: ولقد أرسلت يا رسول الله بالتّبليغ عن ربك ملتبساً بنوعين من الكلام الذي تكلّمت به: فطوراً، أي: ففي طور وحالة تفصّل الأمر تفصيلاً تامًّا لا خفاء فيه على أحد كالمتفق عليه، وفي طور وحالة تُجْمل ما جئت به وتخفيه كالمتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه، والذي اختص بمعرفته الراسخون في العلم مع اعتقادهم استحالة ظاهره كالمختلف فيه بين الأئمة، فكان الإجمال لتتّسع دائرة الأخذ، فيتّسع الأمر على الأمة.

ولقد أسعدت يا رسول الله بكلّ من المجُمل والمفصّل ـ اللذين أُرسلت بهما وبلّغتهما أمتك ـ فرقتين منهم: فرقة أسعدتها بالكلام اللين، وفرقة بالشدّة، كالذين دخلوا في شريعتك قهراً بالسّيف، ثمّ استنارت بواطنهم للإيمان، والأظهر أن المراد بالأمرين: اللين والشدّة.

كما وأرسلت يا محمد ـ ﷺ ـ معلماً العباد بالدارين ومبيّناً أهلهما، فمن أطاع منهم فإلى الجنة مآله، ومن عصى ففي النّار قراره.

وبالقمرين النيِّرينِ هديتَنا كتابٍ من الله الكريم وسُنَّة
وصليت نحو القبلتين تفرداً وكلُّ نبيٍّ ما له غيرُ قبلَة

حاصله: ولقد هديتنا يا رسول الله بالكتاب وهو القرآن الشبيه بالشّمس، وبالسنّة الشبيهة بالقمر، فهما كالنيرين، نيِّران ليلاً ونهاراً، وصلَّيتَ إلى القبلتين: قبلة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام والمتقدّمين وهي الكعبة، وقبلة موسى وعيسى عليهما السلام وما بينهما وهو بيت المقدس.

فقد حاز ﷺ شرفهما، وفي الحقيقة هما شرُفا به ﷺ إذ أنّ الكعبة التي هي أشرف القبلتين قد طافت ببعض أولياء أمّته ﷺ، ورقَّاها إلى منزلة لم تكن لها قبل، فكيف به ﷺ. واعلم أنّه ما من نبيّ من الأنبياء المتقدمين، إلا واختص بقبلة منهما، غير نبيّنا ﷺ، فكانت القبلتان له على الترتيب.

ما تُشِرْ بالطرْفِ للأفق لحظة ترامت إليك النيِّرات وخرَّت

حاصله: ومتى تشير ببصرك يا رسول الله للأفق جهةَ السماء لحظةً، أي: إشارة بلحاظ عينيك، أو في لحظة وزمن من الأزمان، تترامى، أي: تجيبك النيرات لما أشرت إليه وطلبته منها بالإشارة بالطّرف مع طلبك ذلك بالقلب، وذلك كما في قصة علي رضي الله عنه في وقعة الخندق لما نام ﷺ على فخذه رضي الله عنه حتى غربت الشمس، ولم يصلّ العصر حين قال ﷺ: «اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة نبيّك فاردد الشمس عليه حتى يصلي العصر» فردّت وظهرت على الحيطان والجبال ثمّ صلاها، ثمّ غربت[1]. وكما في قصة انشقاق القمر لقريش بمكة.

وإنْ هوَ قَدْ أَوْمَئ إلى السُّحْبِ بأُصبعِ تداوم في أقطارها كلُّ ديمَةِ

حاصله: أنه ﷺ إن أومئ إلى السّحاب ـ أي: الغيم ـ بأصبعه الشريفة تداوم في أقطار الأمكنة ونواحيها التي يشير بالأصبع للسحب أن تمطر فيها، وتتابع من السحاب المشار إليه كل ديمة ـ سحابة ـ مطرها غزير يدوم الزمن الطويل، وذلك كما في وقعة

---

(١) رواه الجوزقان عن أسماء بنت عميس رضي الله عنها. انظر الحكم على هذا الحديث في الفوائد المجموعة: (٣٥٠).

تبوك ومنصرفه ﷺ منها لما عطش الناس وأشرفوا على الهلاك حتى صاروا يذبحون البعير ويمصون رطوبة لحمه وفرثه، حتى هموا بذبح الإبل جميعها، فقال عُمَرُ ﷺ: إذاً تهلكون أنتم وهم، فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله، عَوّدنا الله على بركاتك، فقال له النبيّ ﷺ: «أتحبّ ذلك يا أبا بكر؟» فقال: بلى يا رسول الله. فدعا الله تعالى فأقبل السحاب من كل جهة وأُمْطروا في الحال حتى شربوا وسقوا دوابهم وملأوا قربهم. قالت الصّحابة: ففتّشنا مواقع المطر ـ أي: مكان وقوعه ـ فإذا هو لم يجاوز الجيش الذي كان مع النبيّ ﷺ[1].

وكما وقع في المدينة حيث دخل المسجد الشريف أعرابي، والنبيّ ﷺ يخطب على المنبر، فقال: يا رسول الله، هلك الكراع، ويبست الأشجار والزروع والنباتات، وجاعت البطون، فادع الله لنا ـ ولم يكن في السماء سحابة ـ فرفع ﷺ يديه جهة السماء، وقال: «اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً، سَحًّا طبقاً، غدقاً مجللاً دائماً، اللهم أدرَّ لنا الضّرع واسق لنا الزرع، وأنزل علينا من بركات السماء، وأنبت لنا من بركات الأرض....»[2] أو كما قال ﷺ.

فما نزل ﷺ حتى أقبل السحاب من كل جهة، وأبرقت، وأرعدت، وأمطرت، وما خرجوا من صلاة الجمعة حتى تمرغّت وجوه الصّحابة في وكف المسجد الشريف، ودام المطر واستمرّ إلى الجمعة القابلة، فبينما النبيّ ﷺ يخطب إذ أقبل أعرابيّ، هو الأول أو غيره، فقال: يا رسول الله، انسدت الطرق وانهدم البنيان، وهلكت الحيوانات، فادع الله لنا يصرف عنا ما نزل بنا، فرفع كفيه ﷺ جهة السماء وقال: «اللهم حوالينا ولا علينا اللهم على الآكام وبطون الأودية والظراب ومنابت الشجر» أو كما قال.فإن الجميع مرويٌّ بالمعنى.

فما أتمّ ﷺ كلامه حتى انكشف الغمام عن المدينة المنوّرة، وطلعت عليها الشمس، وصار السحاب محيطاً بها كإحاطة الإكليل، أي: العمامة برأس صاحبها، فخرج الصّحابة رضي الله تعالى عنهم بعد صلاة الجمعة في شمس بلا مطر.

---

(١) انظر البداية والنهاية: (٥/ ٩ ـ ١٠).

(٢) رواه ابن ماجه في سننه برقم: (١٢٦٩) باب ما جاء في الدعاء في الاستسقاء، وأحمد في المسند برقم: (١٨٠٩١)، والحاكم: (١٢٢٦) كتاب الاستسقاء، وقال الحاكم: صحيح إسناده على شرط الشيخين. ورواه غيرهم.

وعنــدي يمــين لا بمَـيْنٍ بــأنَّ في   يمينك وكفاً حيث ما السُحْبُ ضنَّتِ

حاصله: وعندي ـ أي: ناظم هذه الأبيات ـ يمين عظيمة مغلّظة، بشهادة التنكير[1]، غير مصحوبة بمَيْنٍ ولا كذب، بأنّ في يدك يا رسول الله اليمنى المعدودة للخير وكْفاً، أي: سخاء وعطاء كثيراً شبيهاً بالوكْف الذي هو المطر، وذلك الوِكْف الثجّاج تظهره يمينك حين تضنّ السحب وتبخل.

فلقد كان ﷺ أجود الناس، وأجود من الريح المرسلة، وكان أجود ما يكون في رمضان[2]، ولقد أعطى رجلاً نَعَماً قد ملأت ما بين جبلين، فأخذها وذهب إلى قومه، وقال لهم: أسلموا، فقد جئتكم من عند رجل يعطي عطاءَ من لا يخشى الفقر[3].

ووضع ﷺ يده مراراً في قدح ماء فشرب منه وتوضأ ألف وخمسمئة من الرجال، وملؤوا أوعيتهم، وفي مرة ثلاثمئة، وفي أخرى أقلّ من ذلك، وفي رابعة أكثر.

كما وأطعم ﷺ من صاع شعير وداجن[4] في بيت جابر ﷺ أكثر من ألف، وبقي منهما أكثر مما ذهب[5]، وأطعم ﷺ ذلك الجمع أيضاً في مدة الخندق من أقل من عشرة أقراص شعير وفضلة سمن وعسل كانت في بيت أم أنس رضي الله عنهما، وبرَّك على تمرات ولُقَم خبز مُنْصَرَفه من غزوة تبوك بعد أن أشرفوا على الهلاك، وبرَّك على قُرْبتين لامرأة فملأ الجيش أوعيتهم منهما، وشربوا، والقربتان على ما هما عليه لم ينقصا، وتفل في وعاء فيه بقية من سمن ففار السّمن حتى ملأه، فأخذوا منه كفايتهم، ثمّ قال ﷺ: «ارفعوها، فوالله لولا الخشية من الله تعالى لأبقيتها تجري في الوادي سمناً وعسلاً إلى يوم القيامة، ولكن الأدب مع الله تعالى منعني من إبقائها لئلا ينسب ما لله

---

(١) المراد: أنّ التنكير في قوله (يمين) الغرض منه التعظيم.

(٢) رواه البخاري برقم: (٣٣٦١) باب كان جبريل عليه السلام يعرض القرآن على النبيّ ﷺ، وأحمد برقم: (٢٥٥٢)، كلاهما عن ابن عباس رضي الله عنهما. ورواه غيرهما.

(٣) رواه مسلم برقم: (٢٣١٢) باب ما سئل رسول الله ﷺ قط شيئاً فقال: لا، وكثرة عطائه، وأحمد: (١٢٠٧٠)، وابن خزيمة برقم: (٢٣٧١) باب إعطاء المؤلفة قلوبهم من الصّدقة ليسلموا للعطية، وابن حبان برقم: (٦٣٧٣) باب ذكر البيان بأن المصطفى ﷺ كان لا يستكثر الكثير من الدنيا إذا وهبها لمن لا يؤبه له احتقاراً لها، كلهم عن أنس ﷺ. ورواه غيرهم.

(٤) ما يربى في البيوت من أولاد الغنم وغيرها ولا يخرج به إلى المرعى من دجن إذا أقام.

(٥) رواه البخاري برقم: (٣٨٧٦) باب غزوة الخندق، ومسلم برقم: (٢٠٣٩) باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه في ذلك.

إليّ» هذا هو معنى كلامه ﷺ لا عين لفظه، وكذا في كل المواطن[1].

بل خير الدنيا والآخرة بواسطته ﷺ، فمنه نعيم الجنّة الأبديّ الذي لا نهاية له، وورد «أنّ جهنم تأتي يوم القيامة أرض المحشر ولها سبعون ألف زمام، كل زمام بيد سبعين ألف ملك، فإذا أشرفت على الخلائق تَفَلَّتت من الجميع تريد أن تأخذ الخلائق غَيْرة لله تعالى، والسبعة الصّفوف من الملائكة المحيطة بالخلائق تريد منعها فلا تقدر، حتى يبرز لها ﷺ بردائه الشريف، فيتلقّاها، فترجع حينئذ عن عبيده سبحانه وتعالى». وهو بالمعنى أيضاً لجميع ما في الكتاب.

بعضٌ من خصائص النبيّ ﷺ

لقد نَزَّه الرَّحْمَنُ ظِلَّكَ أنْ يُرى ... على الأرض مُلْقًى فانطوى لمَزِيَّة

حاصله: أن الله تعالى نزّه ظلّك يا رسول الله أن تكون له صورة على الأرض تُرى، فانطوى ـ أي: انعدم ظهور ظلّك على الأرض ـ لتَظْهر مزيّتك على غيرك من الأنبياء، وامتيازك عن غيرك بهذه الحالة.

وذلك لأنه ﷺ نور، والنورُ لا ظلّ له كالملائكة، وقيل: لئلا يوطأ ظله ﷺ بالأَرْجُل؛ يوضّحه ما رُوي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، لما افترق عن يهودي كان قد صحبه في سفر، أنه قال لذلك اليهودي: بلغني أنّكم تدينون بإيذاء المسلمين، فاصدقني، هل فعلتَ معي شيئاً، وهل قَدَرت على شيء من ذلك؟. فقال: إن أمّنتني أخبرتُك فقال: قد فعلتُ، ثمّ قال: لم أقدر على أكثر من أني إذا رأيت ظلّك على الأرض وطئته بقدمي وفاءً بأمر ديننا.

وقيل: كان ذلك لـلأنّ الغمامة تظلّه كما وَرَدَ فلا يُرى له ظلّ. والله أعلم بالصّواب.

وأثّر في الأحجار مشيُك ثمّ لم ... يُؤَثِّره برمل أو ببَطحاءَ رَطْبة

حاصله: ولقد ظهر أثر قدميك على الأحجار لما مشيت يا رسول الله معجزة لك، ولم يظهر أثرهما لما مشيت بهما على الرمل أو البطحاء الرطبة ـ أي: الأرض التي ترطّبت بالماء حتى صارت كالطّين ـ معجزة أخرى، فلذا كان ﷺ يأمر أبا بكر أنْ يضع قدميه موضع قدميه[2] ﷺ حين خرجا من مكة حتى لا يظهر أثرهما.

---

(١) هذا نص من الشيخ ﷺ أنّ جميع ما يرويه عن النبيّ ﷺ هو بالمعنى لا باللفظ.

(٢) الضمير عائد على النبيّ ﷺ.

وتُبصر ما قد كان خلفك والذي أمامك يَبْدو رُؤيَة بالسَّوِيَّة

حاصله : كما وكنت يا رسول الله تبصر ما قد كان خلفك مثل الذي أمامك، فما كان خلفك وما كان أمامك كُلاً يبدوان ويظهران لك من جهة رؤيتك لكليهما بالسّوية، إما بعين قلبه الشريف ﷺ، وإما لكونه ﷺ نوراً، والنّور يُرى به، ولا يحجب به شيء، فتكون قوّة الباصرة في عينيه الشريفتين غير محجوبة عن الإبصار من جهة خلفه بعَظْم ولحم الدّماغ، كما أنّ الجلدة الزجاجية من جهة الأمام ليست حاجِبَتهما عن الإبصار، ففي الحديث: «إني والله لأبصر من ورائي كما أبصر من بين يدي».

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها، أنّها قالت: «كان ﷺ يرى في الظلمة كما يرى في الضوء، وانطفأ المصباح، وضاع المخيط، فلمّا دخل ﷺ عليَّ أضاء البيت ورأيت المخيط»، وفي رواية: وضممت الخيط في المخيط. وقالت: يا رسول الله، ما أنْور وجهك!!. فقال ﷺ: «ويل لمن أدركني ولم يؤمن بي» أو كما قال.

ومن جملة أسمائه ﷺ: نور، وفي القرآن ﴿سراجاً منيراً﴾[1]، وكأنَّ النون من (يبدو) حذفت للوزن.

تأمين الجدار وانشقاق البدر

وجُدرانُ بيتِ اللهِ أمَّنَ عندما دعوتَ فما كانت لغير جديرة

حاصله : أنّ جدران بيت الله أمَّنت ـ أي: قالت: آمين ـ عندما دعوتَ، فما كانت إجابة الجدران وتأمينها لدعائك يا رسول الله كائنة لغيرٍ جديرة ـ أي: حقيقة ـ بل لأمر حقيقي وهو الدلالة على صدقك في دعواك، فقد روي أنه لما نزل ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾[2] دعا النبيّ ﷺ فاطمة وعليًّا والحسن والحسين، قيل: والعباس، وقيل: وأولاده، قيل: وأهل بيته، وأسامة بن زيد، فسترهم بكساء، وقيل: بردائه، وقيل: بمِلاءة، وقال ﷺ: «اللهم إن هؤلاء أهل بيتي فطهرهم تطهيراً»[3].

---

(١) الأحزاب: ٤٦.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

(٣) رواه الترمذي برقم: (٣٢٠٥) باب ومن سورة الأحزاب عن عمر بن أبي سلمة ﷺ، وأحمد برقم: (١٧٠٢٩) عن واثلة بن الأسقع ﷺ، والحاكم في المستدرك برقم: (٣٥٥٨) عن أم سلمة رضي الله عنها، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. ورواه غيرهم.

وروي: «اللهم استرهم من النار كستري إياهم بهذه المِلاءة، فأمّنت أسكفّة الباب وحوائط البيت آمين آمين آمين»[1] والمعروف أنّ المراد بالبيت: البيتُ الذي وقع فيه الستر، وظاهر النّظم أنه الكعبة لأنه المراد ببيت الله عند الإطلاق غالباً، فلعله كان جمعهم فيه أو تعددت الواقعة، فليراجع.

وبدر الدياج انشق نِصفَين عندما ... أرادت قريش منك إظهار آية

أنّ البدر، وهو القمر ليلة الأربعة عشر من الشهر العربي الذي يبدو كالشمس، أي: طلوعه يسبق غروبها، والذي يزيح الدياجي ـ الظلام ـ ويظهر بنوره وقت سلطانها فيمحوها، قد انشق ذلك البدر نصفين عندما أردت انشقاقه يا رسول الله حين أرادت قريش منك انشقاقه ليكون في ذلك الانشقاق إظهارُ آيةٍ ومعجزة منك تحملهم على تصديقك.

فقد ورد أنه ﷺ كان يغشى قريشاً في مجالسهم يعرض عليهم نبوته فغشيهم ليلة البدر في مجالس سمرهم فقالوا له: يا محمد، لا نصدقك إلا إذا انشقّ لك هذا البدر نصفين، فأشار إليه ﷺ بالانشقاق، وطلب من الله وجوده، فانشقّ القمر فلقتين، كلّ فلقة على جبل من جبال مكة، وقيل: فلقة على رأس الجبل، وفلقة أسفل من الجبل بين السماء والأرض، أو في السماء من جانبها المنحط عن رأس الجبل، فقال أهل مكة: سحر محمدٌ القمر!، فقال بعضهم: الساحر لا يجاوز سحره محلّه أو بلدته، دعوه حتى نسأل عنه أهل الآفاق، ماذا رَأَوْا، فلما أصبحوا سألوا عنه أهل القوافل من كلّ جانب مدة أيام، فأخبر جميع من سألوهم بأنه وقع الانشقاق للقمر ليلة من شهر كذا، فحينئذ قالوا: هذا سحر مستمر، أي: عام على خلاف عادة السحر في كل البلاد، فنزل قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[2]. والله أعلم.

دفع جبريل عليه السلام أبا جهل

وجاء أبو جهل أخو الجهل والخَنَا ... يَؤمُّك في وقت الصّلاة بصخرة

فقام له جبريلُ فحلاً فلو دَنَا ... إليك لأفناه بأيسرِ نفخة

---

(١) رواه الطبراني في الكبير برقم: (٥٨٤) عن أبي أسيد الساعدي رضي الله عنه.

(٢) القمر: ١ ـ ٢، والحديث رواه الترمذي برقم: (٣٢٨٦) باب ومن سورة القمر، وأحمد برقم: (١٢٧١١)، وأبو يعلى برقم: (٣١٨٧)، والنسائي برقم: (١١٥٥٤) قوله تعالى: ﴿انشق القمر﴾. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

حاصله: أنّ أبا جهل اللعين أخو الجهل، أي: الملازم له، كما لازمه الخنا: وهو العيب للعرض الذي يُستقبح ذكره، ومنه ما صحّ عنه من أنه مأبون[1] جاء يؤمُّك ويقصدك يا رسول الله في وقت كونك تصلّي وبيده صخرة يريد أن يرضخ رأسك بها كراهةً لصلاتك، فلمّا جاء وهَمَّ بذلك ظهر له جبريل عليه السلام بصورة جمل فاتح فاه يريد التقامه، ولَوْ دنا إليك يا رسول الله لأفناه وأهلكه وأماته بأيسر وأسهل وأقلّ نفخة منه، فضلاً عن عضّه له.

وحاصل القصة: أن أبا جهل قال لقريش: إن رأيتم محمداً يعفّر وجهه عند الكعبة في التراب فأعلموني، فأعلموه، فاحتمل صخرة عظيمة، زَعَم أنه يلقيها على النبيّ ﷺ، فلما دنا من النبيّ ﷺ سقطت الصّخرة من يديه، ورجع ناكصاً على عقبيه مصفرّاً لونه، ترعد فرائصه، وقريش تنظر صنيعه، وتشاهد ما حصل له، فحينئذ قالت له قريش: ويلك، ما دهاك؟!! فأشار إليهم ليمهلوه، فلمّا سكن روعه قال: إني لما دنوت من محمد ـ ﷺ ـ حال بيني وبينه أسد ـ كأنه فحل عظيم من الإبل ـ فاتح فاه، فلو دنوت منه لاختطفني، فأخبر ﷺ فقال: «إنه جبريل ولو قدم لأهلكه».

وروي أن أبا جهل نهى النبيّ ﷺ عن الصّلاة، فلما نهاه انتهره النبيّ ﷺ، فقال أبو جهل: أتنهرني يا محمد، وأنا أكثر أهل الوادي نادياً؟؟ فنزل قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾[2]، ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾[3]، من الزَّبْن: وهو الدَّفْع، لأن الواحد يدفع السبعين ألف إلى النار فلا يخطئها، فحينئذ قال أبو جهل لما بلغه نزولها: واللات والعزى، لأن رأيت محمداً يصلي لأطأن رقبته، فوجده يوماً يصلّي، فقدم عليه، ثمّ رجع القهقرى، وهو يتقي بيديه، فقيل له: ما شأنك فقال: وجدت بيني وبينه خندقاً من نار وأهوالاً وأجنحة، فأُخبر النبيّ ﷺ بذلك فقال: «لو دنا لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»[4].

كما قام فحلاً حائلاً فوق رأسه وقد جئته يوماً لدفع شكيَّة

(١) المأبون: هو الرجل تنتقل شهوته من فرجه إلى دبره عياذاً بالله تعالى. انظر النهاية لابن الأثير: (٥/٢٤١).
(٢) العلق: ٩ ـ ١٠.
(٣) العلق: ١٧ ـ ١٨.
(٤) رواه مسلم برقم: (٢٧٩٧) باب قوله ﴿إنّ الإنسان ليطغى﴾، وابن حبان في صحيحه برقم: (٦٥٧١) باب ذكر أبي جهل أن يطأ رقبة المصطفى ﷺ، والنسائي برقم: (١١٦٨٢) في سورة العلق.

حاصله : أنّ جبريل عليه السلام قام بصورة فحل فوق رأس أبي جهل يريد التقامه يوم جئته يا رسول الله مطالباً بحق رجل كان أبو جهل قد تنكر لحقه.

وحاصل القصة:

أن رجلاً من أراش اشترى أبو جهل منه إبلاً ثمّ ماطله بدفع أثمانها فلما آيس منه، قال: يا معشر قريش من يخلّصني من أبي الحكم بن هشام، فإني غريب، وقد غلبني على حقِّي؟ فدلّوه على النبيّ ﷺ مستهزئين بالسّائل لِمَا يعلمون بينهما من العداوة، فأتى الأراشيّ إلى النبيّ ﷺ لظنّه أنّ الكلام عن جِدّ لا لعب فيه، فأخبره خَبَره كله، ثمّ قال له: خذ لي حقي يرحمك الله، فقام ﷺ معه إلى أبي جهل، وأرسلت قريش تَنْظر ما يكون فضرب النبيّ ﷺ باب أبي جهل بقوة، فقال أبو جهل: من هذا؟. فقال النبيّ ﷺ: محمد.

فخرج أبو جهل منتقعاً لونه، فقال له النبيّ ﷺ: أعط هذا الرجل حقّه، فقال أبو جهل: نعم وكرامة، لا تبرح حتى أعطيَه فأعطاه، وانصرف النبيّ ﷺ، فقدم على قريش رسولهم فأخبرهم الخبر، ثمّ قدم عليهم الأراشيّ، فقال: جزاه الله عنيّ خيراً، فوالله لقد أخذ لي حقي، فقالت له قريش: وكيف ذلك؟ فقال الأراشيّ: والله ما رأيت أعزّ من محمد ـ ﷺ ـ عند صاحبكم، ولا أذلّ من صاحبكم عند محمد.

ثمّ قدم عليهم أبو جهل فقالوا له: ويلك.. مالك؟ فقال: ويحكم.. والله، لما ضرب بابي امتلأتُ رُعباً، فلمّا خرجتُ وجدتُ على محمد ـ ﷺ ـ فحلاً من الإبل، ما رأيتُ مثل أنيابه، ولا مثل هامته لفحلٍ قطّ، ولو أَبَيْتُ لأكلني[1]، أو كما قال، لأن المذكور كله رواية بالمعنى.

أوائل المؤمنين

وحاولت للإسلام عزًّا ومَنْعة ... به أو فبِالفاروق في وقت أزْمة

ففاز بها الفاروقُ واختصَّ دونه ... فيالك من سعدٍ وسابقِ شِقوةِ

حاصله : أنك يا رسول الله في وقت الأزمة والشدّة الذي عَصَف بالمسلمين حاولتَ ـ أي: قصدتَ حصول عزّ الإسلام وأهله ـ ومَنْعة ـ أي: قوة ـ يمنعون بها ويحمون أنفسهم ممن تعرّض لأذاهم، وكان ذلك القصد حاملاً لك على أن دعوت

(١) انظر القصة في البداية والنهاية: (٣/٤٥).

الله تعالى أنْ يؤيّد الإسلام به ـ أي: بـأبي جهـل أو بالفـاروق عمـر ﷺ[1] ـ بـأنّ يوفّـق أحدهما للإسلام، ليتقوّى به أهله، ففاز وظفر بها ـ بتلك الدعوة ـ الفـاروق عمـر ﷺ فَوُفِّق للإسلام ونُصْرة أهله، وبقي أبو جهل في شقاوته، فحيثما كان الأمر كمـا ذكـر، فقل يا من وقـف علـى حالتيهمـا: يـا لـك ـ أي: يـا عجبـاً ـ وإرادتي بـذلك التعجّـب استعظام ما حصل لك يا فاروق، ومن السَّعد الذي ظفرتَ به، واستعظام ما حصل لك يا أبا جهل من الشقاوة السابقة في الأزل.

واعلم أنّ أوّل من آمن به ﷺ خديجةُ زوجتُه الشريفة رضي الله عنها، وأمَّا بناتـه ﷺ فلم يتقدّم منهنّ إشراك حتى يُقال: آمَنَّ به.

وسبب إيمان خديجة ما ظهر لها بتعليم ورقة بن نوفل، وما شـاهَدَتْه مـن أعـلام نبوّته ﷺ.

وثاني من آمَنَ به ﷺ عَلِيُّ بن أبي طالب كرَّم الله تعالى وجهه، وكان أصغرَ إخوته، فهو أصغر من أخيه جعفر بعشر سنين، وجعفر أصغر من عقيل بعشر سنين، وعقيل أصغر من طالب بعشر سنين، وكلُّهم أسلموا إلا طالباً اختَطَفَتْه الجنّ، ولم يُعْلم إسلامه.

وكان علي ﷺ قبل النبوّة عند النبيّ ﷺ يُطْعمه ويقوم بأمْره تخفيفاً على عمّـه أبي طالب الذي كثرت عياله، كما أَخَذ العباس ﷺ أخاه جعفراً لذات السبب.

ولما أسلم عليّ ﷺ كان عمره ثماني سنين، وقيل: تسعاً، فمرَّ أبو طالـب فـرأى عليّاً ﷺ يصلّي خلف النبيّ ﷺ عن يمينه في بعض شـعاب مكـة مـستخفياً مـن قومـه، فقال للنبي ﷺ: يا ابن أخي، ما هذا الذي أراك تدين به؟، فقال له النبيّ ﷺ: «دين الله ودين ملائكته ورسله، ودين أبينا إبراهيم، بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت أحـق من بَذَلْتُ له النصيحة ودعوته إلى الهدى» فقال أبو طالب: ما بالذي تقوله يا ابـن أخـي من بأس، ولكنْ والله لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ثمّ قال لعلـيّ ﷺ: إني لأعلم أن ما يقوله محمد حقّ، ولولا أنّي أخاف أنْ تعيّرني نساء قريش لاتّبعته صِلْ يا جعفر جناح ابن عمك، فأسلم جعفر ﷺ، وصار يصلي مع عليّ خلـف الـنبيّ ﷺ، فكان ثالث من أسلم[2].

---

(١) انظر تاريخ ابن خلدون: (٢/٤١٢).

(٢) انظر تاريخ الطبري: (١/٥٣٩)، وعيون الأثر: (١/١٧٨).

وثالثُ من أسلم زيد بن حارثة بن شرحبيل ـ أي: من الرّجال ـ كان مملوكاً لخديجة رضي الله عنها فوهبته للنبي ﷺ، ثمّ تبنَّاه قبل البعثة حين كان عمره ثماني سنين فكان يقال له: زيد بن محمد حتى نزل: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ ﴾[1] فصار يقال له: زيد بن حارثة.

وكان قدم أبوه وعمّه في طَلَبه ودفعا ثمنه للنبيّ ﷺ، فقال لهما النبيّ ﷺ: «هو لكما إنِ اختاركما بلا ثمن ولا فداء، وإنِ اختارني فما أختار على من اختارني فداء» فقالا: نصفتنا يا محمد، فقال زيد: لا أختار على محمد أحداً أنت مني مكان الأب والعم. فقال النبيّ ﷺ بمحضر قريش: «إنّ زيداً ابني أرِثه ويرثني» فانصرفا عنه[2]، وبقي زيد عند النبيّ ﷺ فزوَّجه ﷺ بَركة الحبشية حاضنته ﷺ وقد ورثها من أبيه، فولدت له أسامة، فجاء أَسْود على لون أمّه وكان زيد أبيضَ فكانوا يطعنون في نسب أسامة من زيد، وكان النبيّ ﷺ يتشوّش من ذلك حتىّ دخل مجزز المدلجي على النبيّ ﷺ، وعنده أسامة وزيد نائمين مغطىً رأسيهما بادية أرجلهما، فنظر إليهما فقال: هذه الأقدام بعضها من بعض[3]، فسرَّ النبيّ ﷺ بذلك ودخل على عائشة رضي الله عنها بما قاله المدلجي، لأنه كان معروفاً عند العرب بصدق قيافته. وكان أسامة ﷺ يسمى الحِبُّ ابن الحِبِّ.

إسلام سيّدنا أبي بكر ﷺ

ورابع من أسلم أبو بكر ﷺ، وكان سمع قول ورقة فيه ﷺ: أنه نبيٌّ هذه الأمة، وكان متوقِّعاً لنبوته ﷺ، وكان رأى القمر نزل إلى مكة، ودخل كلّ بيت منه شُعْبة، ثمّ كان جميعه في حجره ﷺ، فقصَّها على بعض الكُهّان فعبَّرها له بأنه يتّبع النبيّ المنتظَر، ويكون أسعدَ الناس به، ويكون وزيره في حياته وخليفته بعد مماته، فلما بلغه ﷺ مبعث النبيّ ﷺ جاء إليه وقرع الباب عليه فقال: ما شيءٌ بلغني عنك؟ فقصّ عليه النبيّ ﷺ القصّة، فقال: وما آيتُك ـ أي: علامة نبوّتك ؟ ـ فقال له ﷺ: «كلام الرّاهب» فآمَنَ به، وقال: أنت أهل الصّدق والوفاء.

---

(١) الأحزاب: ٥.

(٢) انظر المنتظم للجوزي: (٣/٣٤٨).

(٣) رواه البخاري برقم: (٣٣٦٢ ـ ٣٥٢٥)، ومسلم برقم: (١٤٥٩) باب العمل بإلحاق القائف، وأبو دود برقم: (٢٢٦٧)، والترمذي برقم: (٢١٢٩)، كلهم عن عائشة رضي الله عنها. ورواه غيرهم

فلمَّا أسلم أبو بكر ﷺ دعا إلى الإيمان بالنبيّ ﷺ من وثِق به من أهله وقومه، فأسلم عثمان بن عفان ﷺ فعذِّب بالدّخان ليرجع عن الإسلام، فلم يرجع، ثمّ دعا الزبير بن العوام ﷺ، وكان عمره ثماني سنين فأسلم، ثمّ عبد الرحمن بن عوف ﷺ فأسلم، ثمّ دعا سعد بن أبي وقاص ﷺ إلى الإسلام فأتى النبيّ ﷺ فسأله عن أمره، فأخبره فأسلم، وكان عمره تسع عشرة سنة، وهو من بني زهرة، ومن ثمّ قال ﷺ: «وسعد خالي فليرى امْرُؤٌ خاله»، فكرهت أمّه إسلامه، وكان باراً بها، فقالت له: ألستَ تزعم أنّ الله يأمرك بصلة الرحم وبرّ الوالدين؟، فقال لها: نعم، فقالت: والله لا أكلتُ طعاماً ولا شربتُ ماءً حتى تكفر بمحمد ـ ﷺ ـ وتمسّ إسافاً ونائلة ـ صنمين كانا على الصّفا والمروة كانوا يفتحون فاهما ثمّ يلقون فيهما الطعام والشراب، فأنزل الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾(١).

فقال سعد: والله يا أماه، لو كان لك مئة نفس تخرج منك نفساً نفساً، ما تركت دين محمد، فلما رأت منه ذلك أكلتْ، فكانت بعد ذلك تعيِّره بأخيه عامر وتقول: هو البارُّ بأمه، لا يفارق دينه، فلمّا أسلم عامر لقي منها ما لم يلق أحد من الصّياح والأذى، حتى هاجر إلى الحبشة وتركها.

وممن أسلم بدعاء أبي بكر ﷺ غير من تقدّم أبو طلحة بن عبد الله التميمي، فسمع بإسلامه نوفل بن العدوية، وكان يُدعى أسدَ قريش فشدَّه مع أبي بكر في حبل واحد، ولم يمنعهما منه بنو تميم، فكان ﷺ يقول: «اللهم اكفنا شرّ ابن العدوية».

وطلحة هذا أحد العشرة المبشّرين بالجنّة، وقد شاركه في اسمه واسم أبيه ونسبته طلحة بن عبد التيمي الذي قال: يتزوج محمّد بنات عمّنا ويحجبهنّ عنّا، لَئِنْ مات لأتزوجنّ عائشة من بعده، فنزل: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾(٢).

فجملة من أسلم على يد أبي بكر خمسة من العشرة المبشرين بالجنّة، وهم: عثمان، وطلحة، والزبير بن العوّام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وزاد بعضهم سادساً، وهو أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، ثمّ دخل الناس في

---

(١) العنكبوت: ٨.

(٢) الأحزاب: ٥٣.

دين الإسلام أفواجاً رجالاً ونساءً، فكان من السابقين في الإسلام عبد الله بن مسعود، وأبو ذرّ الغفاريّ، واسمه: جندب بن جُنادة ـ بضم الجيم فيها ـ[1].

إسلام سيّدنا عبد الله بن مسعود ﷺ

كان ابن مسعود يرعى الغنم لآل عقبة بن أبي معيط، فجاء رسول الله ﷺ عنده ومعه أبو بكر فقال له النبيّ ﷺ: «هل عندك لبن؟» فقال: نعم، ولكنْ مؤتمن، فقال: «هل عندك شاة لم ينزل عليها الفحل؟» فقال: نعم، فأتاه بشاة ذهب لبنها، وعلق ضرعها ببطنها، فمسح بيده الشريفة عليه فامتلأ لبناً، فاحتلب ﷺ منها، وسقاه وسقى أبا بكر، ثمّ شرب ﷺ، ثمّ قال للضّرع: «اقلِصي» فرجع كما كان، فلمّا رأى ذلك، قال: يا رسول الله، علِّمني، فمسح ﷺ رأسه، وقال: «بارك الله فيك، فإنك غلام معلَّم» فأسلم ﷺ، وكان سادس ستة في الإسلام[2].

إسلام سيّدنا أبي ذر ﷺ

وأبو ذرّ ﷺ خامس خمسة، بلغه مبعث النبيّ ﷺ فأرسل أخاه ليأتيه بخبره ﷺ، فرجع وأخبره بأنّي رأيتُ رجلاً يأمر بالخير وينهى عن الشرّ، قال: فقلت له: لم تشفني، وقدم بنفسه، قال: فلما وصلتُ إلى النبيّ ﷺ قلت له: اعرضْ عليَّ الإسلام، فعَرَضه عليَّ، فأسلمتُ، فقال ليَ النبيّ ﷺ: «يا أبا ذرٍّ، اكتمْ هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا، فأقبِلْ علينا» فقلت: والذي بعثك بالحقّ لأخرجنّ بها بين أظهرهم، فجاء إلى المسجد وقريش فيه، فقال: يا معشر قريش، إنّي أشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، قال: فضربني الكفرة ضرباً شديداً حتى لقد كدت أموت، لولا أنْ أدركني العبّاس، فأكبّ عليَّ، وقال: ويلكم تقتلون رجلاً من غِفَار، ومَتْجرُكم وممرُّكم على غِفَار، فأقلعوا عنّي[3].

---

(١) انظر قصة إسلام أبي بكر ﷺ في الروض الأنف: (١/١٢٨)، والطبقات الكبرى لابن سعد: (٣/١٧١) وما بعدها.

(٢) انظر عيون الأثر: (١/١٧٨).

(٣) قصة إسلام أبي ذر ﷺ رواه البخاري برقم: (٣٣٢٨)، والحاكم في المستدرك برقم: (٥٤٥٦) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ورواه الطبراني في الكبير برقم: (١٢٩٥٩). ورواه غيرهم.

إسلام سيّدنا خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه

وممن له سابقة في الإسلام خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه، رأى في منامه النّار وفظاعتها وأهوالها، وأنّ أباه يريد أنْ يلقيه فيها، ومحمد ﷺ ماسِكُهُ يَحْتَجِزه لئلا يقع فيها، فاستيقظ مرعوباً، ووقع في قلبه الإسلام، فأَخْبر أبا بكر رضي الله عنه بذلك، فأتى به إلى النبيّ ﷺ فأَسْلم عنده ﷺ، فطَرَده أبوه بعد أنْ ضَرَبه بِمِقْرعة كَسَرَها على رأسه لمّا واجهه، وأمر إخوته بهجره، ثمّ مرض أبوه المذكور فقال: إنْ رفعني الله من مرضي هذا لا يعبد إله ابن أبي كبشة بمكة أبداً. فقال خالد: اللهم لا ترفعه، فمات في مرضه(١).

وخالد هذا هو أوّل من كتب البسملة الشريفة. وأسلم أخوه عمرو بن سعيد بن العاص، وأسلم أيضاً من بني سعد إِبَان والحَكَم الذي سماه رسولُ الله ﷺ عبد الله.

إسلام ساداتنا صهيب الرومي وعمار بن ياسر وأبويه رضي الله عنهم

ومن السابقين للإسلام صهيب رضي الله عنه، كان أبوه عاملاً لكسرى، أغارتِ الرّوم عليهم فسَبَتْ صُهَيباً، ثمّ لمّا كَبُر اشتراه العرب، وباعوه بعُكَاظ لعبد الله بن جدعان، فلما بُعِث رسول الله ﷺ مرَّ صهيب رضي الله عنه على دار رسول الله ﷺ، فرأى عمّار بن ياسر فدخلا على النبيّ ﷺ معاً، فعَرَض عليهما الإسلام بعد أنْ تلا عليهما القرآن فأسلما معاً، ومكثا عنده يومهما ذلك، حتّى إذا أمسيا خرجا مستخفيَيْن من عنده ﷺ فدخل عمّار على أمّه وأبيه فأخبرهما بإسلامه، وقرأ عليهما ما حفظه من القرآن في يومه فأعجبهما ذلك، فطلب منهما الإسلام فأسلما معاً على يديه رضي الله عنهم.

إسلام سيّدنا حصين والد عمرانِ رضي الله عنهما

وممن أسلم أيضاً من السابقين حُصَيْن والد عمران بن الحُصَيْن، وسبب إسلامه: أنّ قريشاً كانت تعظّمه فقالوا له: كَلِّمْ لنا هذا الرجل فإنّه يذكر آلهتنا بسوء ويسبُّها، فدخل حُصَيْن بيت النبيّ ﷺ فقال عليه الصّلاة والسلام: «أوسعوا للشيخ» وعِمران ولدُه من جملة الصّحابة الحاضرين، فقال حُصَيْن: ما هذا الذي بلغنا عنك، أنّك تشتم آلهتنا وتذكرهم، وقد كان أبوك ـ أي: عمّك أبو طالب ـ حصينة وخيراً؟. فقال النبيّ ﷺ: «كم تعبد من إله؟»، فقال: سبعة في الأرض وواحد في السماء، فقال ﷺ: «فإذا أصابك الضرّ من تدعو؟»، قال: الذي في السّماء، فقال ﷺ: «فإذا هلك المال، من

---

(١) انظر الإصابة لابن عبد البر: (٢٣٦/٢)، وطبقات ابن سعد: (٩٥/٤)، والبداية والنهاية: (٣٣/٣).

تدعو؟»، فقال: الذي في السّماء، فقال ﷺ: «فيستجيب لك وحده وتشركهم معه، أرضيته في الشكر أم تخاف أنْ يغلب عليك؟»، قال: ولا واحدة من هاتين، فقال ﷺ: «يا حصين، أسلم تسلم» فأسلم رضي الله عنه، فقام ولده عِمْران فقبَّل رأسه ويديه ورجليه، فبكى النبيّ ﷺ، فلمّا خرج من سُدَّة الباب، قالت قريش: صبأ حُصَين وتفرّقوا عنه[1].

إسلام سيّدنا حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

ومن أسلم أيضاً مع السابقين حمزة رضي الله عنه عمُّ النبيّ ﷺ، وذلك أنّه لمَّا أقبل من صيده إلى مكة أخبره أقاربه وأوّلُهم إخباراً له مولاة أخته صفية بنت عبد المطلب، فقالت له: لو رأيت ما صنع أبو جهل اللّعين بابن أخيك محمد ـ ﷺ ـ وَطِئَ على عنقه، وألقى التراب على رأسه وشتمه، ثمّ تتابعت الأخبار بذلك، فغضب حمزة رضي الله عنه، فدخل المسجد فرأى أبا جهل، فقام على رأسه بالقوس، وقيل: ضربه وشجَّ رأسه، وأبو جهل يقول له: سفَّه عقولنا وسبَّ آلهتنا، وخالف دين آبائنا، فقال حمزة رضي الله عنه: ومن أسفه منكم تعبدون الحجارة من دون الله تعالى، أنا أشهد أن لا إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، فقامت رجال من بني المخزوم لنصرة أبي جهل، وقالوا لحمزة: ما نراك إلا صبأت، فقال حمزة رضي الله عنه: ومَنْ يمنعني، وقد استبان لي منه الحق من أنْ أشهد أنه رسول الله، وأنّ الذي يقوله حق، واللهِ لا أَنْزِع ـ أي: أترك ـ ولا أرجع، فامنعوني إن كنتم صادقين، فقال لهم أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإنّيَ والله قد أسمعت ابن أخيه شيئاً قبيحاً، ثمّ استمرّ حمزة رضي الله عنه على الإسلام بعدَ أنْ أعلم النبيّ ﷺ بخواطره، فوعَظَه وخوّفه وبشَّره، فقال: أشهد أنك يا ابن أخي صادق، أظهِرْ عليَّ دينك، فسرَّ النبيّ ﷺ بإسلامه سروراً كثيراً، وأُنْزل فيه وفي أبي جهل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ يعني: حمزة رضي الله عنه ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[2] يعني: أبا جهل.

ولمّا عرفتْ قريش بإسلام حمزة رضي الله عنه انكفُّوا بعض الانكفاف عن أذيَّة النبيّ ﷺ خوفاً منه، فقد كان يُدعى أسد الله، وانصبّ أذاها على الأصحاب رضوان الله تعالى عليهم[3].

---

(١) انظر الإصابة لابن عبد البر: (١/ ٣٣٧).

(٢) الأنعام: ١٢٢.

(٣) قصة إسلام حمزة رضي الله عنه رواها الإمام الحاكم في المستدرك برقم: (٤٨٧٨) وقال: صحيح ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والطبراني في الكبير برقم: (٢٩٢٥)، وانظر عيون الأثر: (١/ ١٩٥).

إسلام سيّدنا عمر بن الخطاب ﷺ

وممن له سابقة في الإسلام عمر بن الخطاب ﷺ قال: كنت من أشدّ الناس على النبيّ ﷺ فأُخبِرتُ بأنّ أختي أمّ جميل ـ واسمها: فاطمة، وقيل: زينب، وقيل: آمنة ـ أسلمت هي وزوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ـ أحد العشرة المبشّرين بالجنّة ـ وكان ﷺ يجمع الرّجُل والرّجُلين إذا أسلما عند الرّجُل الواحد ليصيبا من طعامه، ويتقوّى بهما، فدفع لزوج أختي رجلين أحدهما خبّاب، وكان يختلف إليهما ليُعلّمهما القرآن، فجئت إلى بيتها غضبان مما بلغني من إسلامها، فقرعت الباب، وكانوا جلوساً يقرؤون صحيفة معهم، فلمّا سمعوا صوتي تبادروا واستخفُوا، ونسوا الصّحيفة، فخرجتْ أختي وفتحت الباب، فقلت لها: يا عدوّة نفسها، قد بلغني عنك أنّك صبأت، وضربْتُها بشيء كان في يدي، فسال الدّم من رأسها، فلمّا رأت الدّم بكت، وقالت: يا ابن الخطاب، افعل ما كنت فاعلاً، فقد أسلمتُ، فدخلتُ البيت وجلستُ على السّرير، فنظرتُ فإذا بالصّحيفة في ناحيةٍ من البيت، فقلت لها: ما هذا الكتاب، أعطنيه، فقالت لي: لستَ مِن أهله، أنتَ لا تغتسلُ من الجنابة، ولا تتطهّر، وهذا لا يمسّه إلا المطهّرون، فلم أزلْ بها حتى أعطتني إيّاه بعد أن اغتسلتُ ـ كما في بعض الروايات ـ وعاهدتها على أن لا أفعل بها مكروهاً، وأردّها ـ أي: الصّحيفة ـ إليها كما هي، فدفَعَتها إليَّ، فنظرت فيها، فإذا بسم الله الرحمن الرحيم، فذُعِرْت، ورَمَيْتها من يدي، ثمّ أخذتُها، فإذا فيها: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1] فكنتُ كلّما مررتُ باسم الله ذُعِرْت، فألقيتُها، فإذا رُدّت روحي إليَّ ـ أي: سكن خوفي ـ أخذتُها، ونظرتُ فيها، فلمّا بلغتُ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ إلى قوله ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2] فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فخرج القوم يتبادرون بالتّكبير استبشاراً بما سمعوا منّي، وحمدوا الله تعالى، ثمّ قالوا: يا ابن الخطاب، أبشر فإنّ رسول الله ﷺ دعا فقال: «اللهم أعزَّ الإسلام بأحد العمرين» وفي رواية: «بأحد الرجلين عمرو بن هشام وعمر بن الخطاب»[3].

قال عمر ﷺ: فلمّا عرفوا منّي الصّدق قلت لهم: أخبروني بمكان رسول الله

(١) الحديد: ١.

(٢) الحديد: ٨.

(٣) وكان دعاؤه ﷺ يوم الأربعاء، فأسلم عمر يوم الخميس. مؤلف.

ﷺ، أين هو؟، فقالوا: هو في بيتٍ في أسفل الصّفا، ووصفوه لي، وهو دار الأرقم، فخرجتُ مع خبّاب إليه، فلمّا قرعتُ الباب، قيل: مَنْ هذا؟، قلتُ: عمر بن الخطاب، فما اجترأ أحد أنْ يفتح الباب لماَ عرفوا مِنْ شدَّتي على رسول الله ﷺ، ولم يعلموا بإسلامي حينئذ، فقال رسول الله ﷺ: «افتحوا له الباب، فإنْ يردِ الله به خيراً يهده» ففتحوا لي، وأخذ رجلان بعضدي حتّى دنوتُ من رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «أرسلوه» فلمّا أرسلوني جلستُ بين يديه ﷺ، فأخذ بمجامع قميصي، فجذبني إليه، ثمّ قال ﷺ: «أما آنَ لك أنْ تُسلم يا ابن الخطاب، اللهم اهده»، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّك رسول الله فكبَّر المسلمون تكبيرة سُمعت بطرق مكة. وكان ذلك بعد إسلام حمزة رضي الله عنه بثلاثة أيام.

ويروى أنه رضي الله عنه قال: كنت قبل إسلامي أتعرَّض لرسول الله ﷺ فوجدتُه مرّة سبقني إلى المسجد، فتبعته، فقمتُ خلفه، فاستفتح بسورة الحاقة، فجعلتُ أتعجّب من تأليف القرآن وحُسْنه، فقلت: والله، ما هذا بشاعر كما قالت قريش، فقرأ ﷺ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾[1] قال: فقلت: إنه كاهن عَلِم ما في نفسي فقرأ ﷺ ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[2] إلى آخر السورة.

ويُروى أنّه قرأ صحيفة في بيت أخته فيها سورة طه، فلما قرأ عمر رضي الله عنه ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾[3] نطق بالشهادتين، فلما انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[4] قال: ينبغي لمن قال هذا القول أنْ لا يُعبد سواه[5].

وكان إسلامه رضي الله عنه تمام أربعين رجلاً أسلموا، وقال للنبيّ ﷺ لما أسلم رضي الله عنه: لا ينبغي أنْ يُكتم هذا الدِّين، أظهر دينك، لا يُعبد الله سرّاً، فخرج النبيّ ﷺ بالصّحابة على ميمنتهم عمر رضي الله عنه، وعلى ميسرتهم حمزة رضي الله عنه متقلّدين سيوفهمَ، حتى طاف النبيّ ﷺ بالبيت وصلّى جهَاراً، فسمَّاه النبيّ ﷺ بالفاروق[6]، لفرْقه بين الحق والباطل،

---

(١) الحاقة: ٤٠ ـ ٤١.

(٢) الحاقة: ٤٢.

(٣) طه: ١٦.

(٤) طه: ١٤.

(٥) انظر قصة إسلام عمر رضي الله عنه في البداية والنهاية: (٣/٧٩ ـ ٨١)، وتاريخ الخلفاء للسيوطي: (١٠٠).

(٦) انظر الحلية لأبي نعيم: (١/٤٠)، والبداية والنهاية: (٧/١٣٧)، وتاريخ الطبري: (٢/٥٦٢).

وقال فيه ﷺ: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»[1].

وكان من أشراف قريش جاهليّة وإسلاماً، وكنّاه النبيّ ﷺ أبا حفص، والحَفْص: الأسد، وكان سبب ذلك ما رآه من شدَّته، كما رواه زيد بن أسلم عن أبيه قال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمسك أُذُن فرسه بإحدى يديه، ويمسك بالأخرى أذنه، ثمّ يَثِب حتىّ يَقْعد عليه.

وجاء في فضله رضي الله عنه قوله ﷺ: «لو كان نبيٌّ بعدي، لكان عمر بن الخطاب»[2]، وجاء أيضاً: «أوّل من يصافحه الربّ عزَّ وجلَّ عمر بن الخطاب»[3]، وجاء: «جُعِل الحقُّ على لسان عمر وقلبه» وجاء: «ما قال النّاس بشيء، وقال فيه عمر إلا نزل القرآن على نحوٍ مما قال عمر»[4]، وجاء: «إنّ جبريل عليه السلام نَزَل على النبيّ ﷺ، فقال: يا محمد، لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر»[5].

ومن كراماته رضي الله عنه ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنّه قال: كانت نارٌ تأتي كلّ عام المدينة الشريفة، فشكا المسلمون لعمر رضي الله عنه، فقال لغلامه: خذ هذا الرداء، وانشره في وجهك، وقابل به النّار، وقل: يا نار، هذا رداء عمر، فهي ترجع، ففعل الغلام فرجعت حالاً، ولم تعد بعد ذلك.

ومنها: لمّا كتب إليه عمرو بن العاص رضي الله عنه: أنّ النّيل لم يَزدد زيادته المعتادة إلا بأنْ تُلقى فيه امرأة بكر من أجمل النّساء، فأرسل له عمر بكتاب، وأمره أنْ يلقيه فيه بدلاً من المرأة، وكان من جملة ما كتب فيه: من عمر بن الخطاب إلى بحر النيل، أما بعد: يا نيل، إنْ كنتَ من عند الله فاطلُع ـ أي: ازدد وهو المدّ المعروف ـ بإذن الله،

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك برقم: (٤٥٠١) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا السياق، ورواه ابن حبان في صحيحه برقم: (٦٨٨٩)، وأبو داود برقم: (٢٩٦٢)، وابن ماجه برقم: (١٠٨). ورواه غيرهم.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك برقم: (٤٤٩٥) وقال: هذا الحديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ورواه الترمذي في سننه برقم: (٣٦٨٦)، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث مشرح بن عاهان، ورواه الطبراني في الكبير برقم: (٤٧٥)، وأحمد برقم: (١٧٤٤١). ورواه غيرهم.

(٣) رواه ابن ماجه في سننه برقم: (١٠٤)، وقال (الكناني) في مصباح الزجاجة:(١/١٧): إسناده ضعيف، فيه داود بن عطاء المديني، وقد اتفقوا على ضعفه، وباقي رجاله ثقات.

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه برقم: (٦٨٩٥)، وأحمد في المسند برقم: (٥٦٩٧).

(٥) رواه ابن ماجه في سننه برقم: (١٠٣)، وابن حبان في صحيحه برقم: (٦٨٨٩).

وإن كنت تطلُع من قِبَلِ نفسك فلا حاجة لنا بك. فطَلَع، ولم يُلْقَ فيه بعد ذلك امرأة[1].

ومنها: أنّه حدثت زلزلة عظيمة في زمن خلافته كادت الجبال أنْ تقع من وجه الأرض، وذلك عقب طاعون عمواس، فضرب عمر ﷺ الأرض بدرَّته، وقال لها: اسكني، أنا عادل، فويل لعمر إنْ لم يعدل عليك. فسكنت، ولم يأت بعدها مثلها.

ومنها قصة: (يا سارية الجبل) الشهيرة[2]. والكلّ مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال ابن مسعود ﷺ: كان إسلام عمر فتحاً، وهجرته نصراً وإمارته رحمة[3].

نقض الصّحيفة

وأخبرت عمَّا في الصّحيفة أنه تآكل غير اسمٍ لربك مُثْبَتِ

وكاتبها منصور شُلَّتْ يمينه ولِمْ لا وقد جاءتْ بشَرٍّ قطيعة

حاصله: أنّك يا رسول الله، قد أخبرتَ عمّا كُتِب في الصّحيفة التي كَتَبَتْها قريش، وفيها التعاهد على قطيعتك، وقطيعة من يحميك منهم، بأنّ ما فيها من القطيعة أكلته الأَرَضةُ ـ أي: الدودة التي تأكل الكتب ـ ولم يبق فيها سوى اسم الله تعالى، وكان الأمر كما ذكرتَ، فكان ذلك من جملة أعلام نبوّتك.

وكاتب هذه الصّحيفة هو منصور بن عكرمة بن عامر بن عبد الدار بن قصيّ، شُلَّت يده اليمنى، ولِمَ لا تشلّ، والحال أنها قد جاءت، وكتبت شرّ قطيعة.

وحاصل قصة الصّحيفة تلك: أنّ كفّار مكّة لما رأوْا دخول الناس في الإسلام ومهاجرة بعض الصّحابة إلى الحبشة، وإكرام النّجاشيّ لهم، أجمعوا على قتل النبيّ ﷺ، وقالوا لعمّه أبي طالب: قد أفسد أبنائنا ونسائنا، وسفَّه عقولنا، وسبَّ آلهتنا وآبائنا، فخذوا منَّا دية مضاعفةً وسلّموه لنا لنقتله، وندفع لكم بدله من تشاؤونه من أولادنا، أجمل منه وأحسن، فقال أبو طالب: لا والله، لا يكون ذلك أبداً، كيف أدفع لكم ابن أخي تقتلونه، ثمّ أُربّي لكم ولدكم، وهل يحنُّ الفصيل لغير أمّه.

فحينئذ أجمعت قريش على منابذة بني هاشم وبني المطلب وإخراجهم من مكّة إلى شِعْب أبي طالب خارج مكة، والتضييق عليهم، بمنعهم من حضور الأسواق،

(١) انظر البداية والنهاية: (٧/١٠٠)، وتاريخ الخلفاء للسيوطي: (١١٣).

(٢) انظر البداية والنهاية: (٧/١٣١)، والمنتظم: (٤/٣٢٤ ـ ٣٢٦).

(٣) تاريخ الخلفاء: (١٠٠).

ومنع الناس من مبايعتهم أوالشراء منهم، أو مناكحتهم، ولا يقبلوا منهم صُلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رأفة، حتى يسلِّموا رسول الله ﷺ إليهم ليقتلوه، وكتبوا بذلك صحيفة وعلَّقوها في الكعبة، وقيل: كتبتْ أخرى وجُعلتْ عند خالة أبي جهل، وقيل: هي واحدة كانت عندهم أوّلاً، ثمّ جُعلتْ في الكعبة توكيداً على أنفسهم وتبرُّأً من بني هاشم والمطّلب بني عمهم عبد شمس ونوفل، فدخل بنو هاشم وبنو المطّلب مؤمنُهم وكافرُهم ـ إلا أبا لهب فإنّه ظاهَرَ عليهم قريشاً ـ الشِّعبَ هلال المحرَّم سنة سبع من النبوّة أي: البعثة ـ وأقاموا فيه ثلاثة سنين، فكانوا إذا قدمت العير إلى مكّة يأتي أحدهم السّوق ليشتريَ قوتاً، فيقوم أبو لهب ويقول: يا معشر التجّار غالوا أسعاركم على أصحاب محمد، حتى لا يدركوا شيئاً منكم.

وحينئذ هاجر المؤمنون إلى بلاد الحبشة الهجرة الثانية، فكان عند النّجاشيّ منهم ثلاثة وثمانون رجلاً وثماني عشرة امرأة، وهاجر أبو موسى الأشعري ﷺ من اليمن يريد الوصول إلى النبيّ ﷺ، فرمتهم الريح إلى بلاد النّجاشيّ بالحبشة فوجد جعفراً وأصحابه رضي الله تعالى عنهم هناك، فأمرهم جعفر بالإقامة معه، فأقاموا واستمرّوا فيها حتّى قدموا مع جعفر على النبيّ ﷺ عند فتح خيبر.

ثمّ إنّ أهل مكة كان الواحد منهم لا يستطيع أنْ يصل إلى بني هاشم وبني المطلب بشيء إلا خُفْية، ودعا ﷺ على كاتب الصّحيفة فشُلَّت يده، وكان أبو طالب في كل ليلة يأمر النبيّ ﷺ أنْ يأتي فراشه ويضطجع فيه، فإذا نام النّاس أقامه، وأمر أحد بنيه أو أقاربه أنْ ينام مكانه، كلّ ذلك خوفاً عليه ﷺ أنْ يغتاله أحد ممن يريد به سوءً.

ولقي ليلة أبو جهل حكيمَ بن حزام قبل أنْ يُسلم ومعه غلام يحمل قمحاً يريد به عمّته خديجة زوجة رسول الله ﷺ في الشّعب، فتعلّق به، وقال له: تذهب بالطعام إلى بني هاشم، والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فرآه أبو البحتري بن هشام فقال: مالك وله، طعامٌ كان لعمّته عنده فتمنَعُه أنْ يأتيها به؟!! خَلِّ سبيل الرجل. فأبى أبو جهل فنال كلٌّ من صاحبه كلاماً، فأخذ أبو البحتري لَحْيَ جمل فضرب به أبا جهل فشجَّه، ووطئه وطأً شديداً، لأنه كان مع كفره قليل الإيذاء للمسلمين، لكنّه قُتِل مع أبي جهل يوم بدر كافرَيْن.

وكان أيضاً هشام بن عمرو بن العامري يصل بني هاشم، وهم في الشّعب، وكان ذا شرف في قومه، فكان يأتي بالبعير موقوراً طعاماً إلى فم الشّعب فيخلع خطامه

منه، ثمّ يضربه على جنبه حتى يدخل الشّعب عليهم، ثمّ يأتي بالبعير موقوراً فيفعل به مثل ذلك، وأسلم بعد ذلك ﷺ، وقد علمت قريش بأنّه أدخل عليهم ثلاثة أحمال طعاماً فمشَوْا إليه وكلّموه في ذلك، فقال لهم: إنّي غير عائل ـ أي: مُطْعم ـ لمن خالفكم، ثمّ أدخل عليهم ثانياً حملاً آخر وقيل: حملين، فعلمتْ به قريش فغاظته، وهمَّت به، فقال أبو سفيان بن حرب: دعوه، رجلٌ وَصَل رَحمه، أَمَا إنّي أحلف بالله، لو فعلنا مثل ما فعل كان أحسن بنا، ثمّ أَخبر رسول الله ﷺ بأنّ الأَرَضة ـ أي: الدودة ـ أكلت ما في الصّحيفة من ميثاق وعهد وكلمات متضمّنة للظلم وقطيعة الرّحم، ولم تدع أوتترك فيها إلا أسماء الله تعالى، فجاء أبو طالب مع جماعة من أهله إلى مجلس قريش، فأخبرهم بما وقع للصّحيفة، وأنه أخبره ابن أخيه محمد ﷺ، فإذا كان صادقاً فدَعُوا قطيعة رَحِمَنَا، وإن كان كاذباً ـ حاشاه ـ أُسلِّمه لكم تقتلونه.

فلمّا رأت قريش الصّحيفة وصِدْقه فيما أَخْبر به ﷺ قالت لأبي طالب ومن معه: إنّه سحر ابن أخيك، فدخل أبو طالب بمن معه تحت أستار الكعبة، وقالوا: اللهم انصرنا على من ظلمنا، وقطع رحمنا، واستحلَّ منّا ما يَحْرم عليه. ثمّ رجعوا إلى الشِّعب.

فحينئذ قام هشام بن عمرو العامري بنقض الصّحيفة، فأتى زهير بن أبي أمية المخزومي، وكانت أمه عاتكة عمّة النبيّ ﷺ، فقال له: يا زهير، أرضيتَ أنْ تأكل الطّعام وتلبس الثّياب وتنكح النّساء وأخوالك من بني هاشم حيث ترى، قد علمتَ أنهّم محصورون يموتون جوعاً، أما والذي يُحْلف به، لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ودعوتَه إلى ما دعاك إليه ما أجابك، فقال: يا هشام، ويحك.. وماذا أصنع؟ وإنّما أنا رجل وحدي، لو كان معي أحد لقمتُ بنقضها ـ أي: الصّحيفة ـ فقال له: قم، وأنا أقوم معك، فقال له: ابغ لنا ثالثاً، فذهب إلى المُطْعِم بن عدي النوفليّ فقال له: يا مُطْعِم، أرضيتَ أنْ يهلِكَ بطنان من بني عبد مناف جَدِّك، وأنت شاهد موافق لقريش، أما والله، لئن أمكنتموهم من هذه تجدونهم منها إليكم سراعاً، قال: فما أصنع وحدي؟، قال: أنا معك وزهير، قال له: ابغنا رابعاً فذهب إلى البحتريّ الأسديّ وأخبره الخبر، فقال له: ابغنا خامساً، فأتى زَمْعة بن الأَسْود فأخبره الخبر، فتواعدوا أنْ يجتمعوا عند الحَجُون ليلاً، ويتعاهدوا على نقض الصّحيفة، ففعلوا، فقال زهير: أنا أبدؤكم بالكلام، فلمّا أصبحوا لبس زهير حلَّة، وطاف بالبيت، ثمّ أقبل على النّاس فقال: يا أهل مكة، نأكلُ الطّعام ونلبس الثّياب، وبنو هاشم هلكى، والله، لا أقعد

حتى تشقَّ الصّحيفة القاطعة الظالمة، فقال أبو جهل: كذبتَ، والله لا تُشَقّ، فقال زمعة: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كُتِبت، فقال أبو البحتري: صدقَ زمعة لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقرُّ به، فقال المُطْعِم: صدقتما، وكذَبَ من قال غير ذلك، فقال أبو جهل: هذا أمرٌ قضيَ به في ليل، فجاء أبو طالب، وقال: على أيٍّ شيء نحبس، وقد بان الأمر، واتّضح صدقُ ابن أخي، ثمّ خرجوا سراعاً. اهـ.

وفي جَبْهَـةِ الدَّوسي ثمّ بسَوْطِه جعلتَ ضياءً مثل شمس الظهيرة

حاصله: أن الطُّفيل بن عمرو الدوسيّ الشاعر اللبيب لمّا أخبرته قريش بمبعث النبيّ ﷺ متظلّمين منه، ذهب إليه وسمع منه كلاماً حسناً، فلمّا انصرف إلى بيته ﷺ تبعه وأخبره بكلام قريش، وأسلم بعد أنْ سمع منه القرآن، وقال: فلا والله، ما سمعتُ أحسن منه شيئاً، وقال للنبيّ ﷺ: إنّي مُطاع في قومي، وإنّي أدعوهم إلى الإسلام، فادعُ الله لي أنْ يكون لي عوناً عليهم، فقال ﷺ: «اللهم اجعل له آية»، قال: فخرجتُ حتّى دنوتُ من روض قومي، وقع نورٌ في جبهتي بين عينيَّ مثل المصباح، فقلتُ: اللهمّ اجعله في غير وجهي، إنّي لأخشى أنْ يظنّوا أنّها مُثْلة لفراقي دينهم، فتحوّلت إلى رأس سوطي، فجعلوا يتراءون ذلك النّور في سوطي كالقنديل حتّى وصلتُهم، فدعوتُ أبي وزوجتي وأولادي للإسلام، فأجابوا، فدعوتُ دَوْساً فأبَوا، فجئت النبيّ ﷺ، فقلت: يا رسول الله، غَلَبَ عَلَيَّ دوس الرياسة، فلم يجيبوني، فادع الله عليهم، فقال ﷺ: «اللهم اهد دوساً، ارجع إلى قومك فادعهم، وارفق بهم» فرجع ودعاهم فأجابه بعضهم، وقدم بثمانين بيتاً منهم على النبيّ ﷺ بخيبر، فأسْهم لهم، ولم يزل عنده حتى قبض رضي الله تعالى عنهم.

فلما كانت وقعة اليمامة رأى في منامه، وهو ذاهب مع المسلمين في طريقها لقتال مسيلمة الكذّاب، وكان معه ابنه عمرو كأنَّ رأسه حُلِق، وخرج من فمه طائر، وأدخلته امرأة في جوفها، وابنه يطلبه طلباً حثيثاً، فقال لما أُخبَر بها وسُئِلَ عن تأويلها: أمّا حَلْق رأسي فوضعه، وأمّا الطائر فروحي، وأما المرأة فالأرض، أُغيب وأُقْبر فيها، وأمّا ابني، فإنّه سيجتهد أنْ يصيبه ما أصابني، فقُتِل شهيداً، وجُرِح ابنه، ثمّ برئ، وعاش إلى أنْ استشهد باليرموك في زمن عمر رضي الله عنهما[1].

---

(١) انظر البداية والنهاية: (٣/٩٩)، وعيون الأثر: (١/٢٣٩).

وأعطيت في الإسلام والجسم قوة بأيسرهما ركني ركانة هدت
فألقيته صرعاً وأبصر أيكة أطاعتك سعياً في غدوٍّ وروحة

حاصله: لقد أعطيت يا رسول الله في الإسلام قوّة عبادةٍ وتصديق وحسن أخلاق حتّى شهد لك الله به في قوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[(١)]، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(٢)]، ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[(٣)]، ﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾[(٤)].

وفي الحديث: «لأنْ أقول سبحان الله ـ وفي آخر إلى آخر الباقيات الصّالحات ـ خير مما طلعت عليه الشمس»[(٥)] فهو ﷺ أعْرَف النّاس بربّه، وإيمانه على قدر معرفته، فلذا كان ﷺ أقوى المخلوقات على طاعة مولاه تعالى ومحبّتِه، وأزهدهم فيما سواه، حتّى صحّ أنه ﷺ قام في الصّلاة بين يديّ ربّه حتّى تشقّقت بطون أقدامه من طول قيامه ﷺ، وكان يُسمعُ لانصباب دموعه ﷺ على الأرض صوت كصوت وَقْع المطر من كثرة خشوعه، وكانت أوقاته ﷺ لا تخلو عن تشريع أو تسبيح أو ذِكْر أو دعاء أو صيام أو صلاة، وربّما واصل الليالي َ بالأيّام في الصّيام.

وأعطيتَ أيضاً يا رسول الله، قوّة جسم وحواس أيضاً على وصف لم ينله مخلوق، فمن مسموعاته ﷺ كلام الوحي، والنّاس بحضرته لا يسمعون ما يسمعه ﷺ، حتى أنه ﷺ كان يسمع صرير الأقلام في تصاريف الأحكام فوق العرش، وسمع بأذني رأسه كلام ربه عزَّ وجلَّ، وأبصره تعالى بعيني رأسه يقظة لا مناماً، وأبصر قصور الشام وبصرى واليمن والجنّ والروحانين إلى غير ذلك، وقال ﷺ: «إني لأجد ريح الجنة، وإنّي أشّم ريح الرحمة من قِبَل اليمن»[(٦)].

وقال ﷺ: «أعطيتُ قوة أربعين رجلاً»[(٧)] أي: من رجال الآخرة، كما صحّ،

---

(١) القلم: ٤.

(٢) التوبة: ١٢٨.

(٣) المزمّل: ٢.

(٤) طه: ١ ـ ٢.

(٥) رواه مسلم برقم: (٢٦٩٥)، وابن حبان: (٨٣٤)، والنسائي برقم: (١٠٦٥٩)، والترمذي برقم: (٣٥٩٧)، وقال: حديث حسن صحيح. ورواه غيرهم.

(٦) لم أجده.

(٧) رواه الطبراني في الأوسط برقم: (٥٦٧)، وقال الهيتمي في مجمع الزوائد: فيه المغيرة بن قيس وهو ضعيف، ورواه عبد الرزاق في مصنفه برقم: (١٤٠٤٩)، وأبو يعلى في مسنده برقم: (٣١٧٦). ورواه غيرهم.

وكلّ واحد ـ أي من رجال الآخرة والمقصود الجنانيّون ـ يُعطى قوّة ألف رجل وأكثر ـ أي: من رجال الدنيا ـ فلذا كان ﷺ يطوف على زوجاته الطّاهرات أمّهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهنّ أجمعين كلهنّ في اليوم الواحد.

ومن شجاعته ﷺ ما صحّ: (أنّه كان أشجع النّاس)[1]، وقال بعضُ الصّحابة: كنّا نتّقي به الأعداء إذا حمي الوطيس ـ أي: اشتدت الحرب ـ وكان الشّجاع من يَثْبت عنده أو قريباً منه ﷺ حينئذ[2]، مع ما كان يُظْهره ﷺ من نحو قوله: «أنا النبيّ لا كذب أنا ابن عبد المطلب»[3].

ومرَّ ﷺ بركانة، وهو يرعى بغنمه، وكان مشهوراً بالصّرَعَة، لا يكاد يُصْرع، بل كان يَصْرع الرجلين الشديدين مجتمعين على مصارعته معاً، فعَرَض عليه الإسلام، فقال له ركانة: تصارعني، فقال له النبيّ ﷺ: «أرأيت إنْ صرعتُك تشهد أنّي رسول الله» فقال: نعم، فصارعه ﷺ وصرعه، فقال ركانة: أعد، فأعاد، فصرعه، فقال: أعد، فأعاد، فصرعه، ثمّ قال له النبيّ ﷺ: «أوفِ بما شرطت ووعدت»، فقال ركانة: فهل من آية تريني إيّاها، فقال ﷺ: «نعم»، ثمّ دعا أيكة ـ وهي شجرة من أشجار الوادي ـ فأتت تجرجر عروقها، حتى قامت بين يديه ﷺ فاستشهدها، فشهدت أنّه رسول الله، ثمّ أمرها بالرّجوع فرجعت إلى مكانها، فدفع للنبيّ ﷺ قطعت غنم نحو العشرين، ليتركه من الإسلام فردّها عليه وتركه، فجاء مكّة وصار يقول: ساحروا وغالبوا بصاحبكم محمّد جميع أهل الأرض فما رأيت أسحر منه، ثمّ أسلم يوم الفتح رضي الله عنه[4].

والمراد: لقد ألقيتَ يا رسول الله ركانة صَرْعاً ـ أي: مصروعاً ـ ملقىً على الأرض، كما أبصر معجزة لك، وهي غدوٌّ ومجيء الأيكة ساعية لمّا طلبتها، ورواحها ورجوعها لمكانها لمّا أمرتها.

---

(١) رواه مسلم برقم: (٢٠٣٧)، وابن حبان في صحيحه برقم: (٦٣٦٩)، وابن ماجه برقم: (٢٧٧٢). ورواه غيرهم.

(٢) رواه أحمد برقم: (١٤٠٢ ـ ١٣٤٦)، والحاكم برقم: (٢٦٣٣) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ورواه أبو يعلى في مسند برقم: (٣٠٢ ـ ٤١٢)، والبزار في مسنده برقم: (٧٢٢). ورواه غيرهم.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) حديث المصارعة ذكره ابن إسحاق مطولاً، وذكره ابن كثير، انظر البداية والنهاية: (١٠٣/٣ ـ ١٠٤). ورواه مختصراً أبو داود برقم: (٤٠٧٨) والترمذي برقم: (١٧٨٤)، والحاكم برقم: (٥٩٠٣)، والطبراني في الكبير: (٤٦١٤). وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب وإسناده ليس بالقائم، ولا نعرف أبا الحسن العسقلاني ولا ابن ركانة.

وكان ما ذكر بعد أنْ صَرَعت ركانة، فكأنّه حائط انهدم ركناه بسبب صرعك له، وكأنّه كنّى بالرّكنين عن شجاعته وشدّة خبرته بالمصارعة، أو عن قوّته وخبرته، أو عن يديه، أو رجليه، أو كليهما، والخطب سهل.

بعض من معجزاته ﷺ

وجاءت تخدُّ الأرضَ أخرى مقرَّة   بأنك مبعوث وعادت لِمَنْبَتِ

حاصله: هذه شجرة أخرى لما دعوتهَا يا رسول الله جاءت تخدُّ وتشقُّ الأرض، وتخطّ فيها خطّاً من أثر انسحابها عليها في حال كونها مقرّة ومعترفة وناطقة بأنّك نبيّ مبعوث ومرسل، ثمّ عادت لمكان نباتها، فدلَّت عروقها فيه، ورجعت كما كانت لمّا أمرتها بالرّجوع، كما روي عن بريدة قال: سأل أعرابيٌّ النبيّ ﷺ آية له، فقال ﷺ: قل لتلك الشّجرة: رسولُ الله ﷺ يدعوك، قال: فمالتِ الشّجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها، فقطّعت عروقَها، ثمّ جاءت تَخِدُّ الأرض مغبرة حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ فقالت: السلام عليك يا رسول الله، فقال للأعرابي: مُرْها فلترجع إلى منبتها، فأمرها فرجعت ودلّت عروقها في ذلك الموضع، ثمّ استوت قائمة، فقال الأعرابي: فَأْذن لي يا رسول الله أنْ أسجد لك، فقال ﷺ له: «لو أمرت أحداً أنْ يسجد لأحد، لأمرتُ المرأة أنْ تسجد لزوجها»[1].

وثنتان في الأشجار أيضاً أطاعتا   لأمرك يوماً في اجتماع وفرقة

حاصله: أنّ اثنتين من الأشجار أيضاً أطاعتاك يا رسول الله في أمرك لهما بالاجتماع عليك ليستراك وقت قضائك حاجتك، فلمّا فرغتَ وأمرتَهما بالرّجوع رجعتا كما كانتا أوّلاً، روي من حديث جابر ﷺ أنّه قال: ذهب رسول الله ﷺ ليقضِ حاجته فلم يرَ شيئاً يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال لها: انقادي عليَّ بإذن الله تعالى، فانقادت معه كالبّعير، ثمّ فعل بالأخرى ما ذُكِر، فلمّا أتمّ قضاء حاجته أَمَرَهما، فرجعتا كما كانتا عليه أوّلاً[2].

كما أنس أرسلته بأوامر   إلى نخلات فاستجابت ولَبّتِ

---

(١) انظر الشفا: (١/٢٢٤).

(٢) رواه مسلم برقم: (٣٠١٢).

حاصله: أنّ إجابة الأشجار لك يا رسول الله فيما مرّ هي نظير ما وقع في بعض الغزوات لما انصرفت عن القوم ولم تجد محلاً يسترك منهم، فقلتَ لأنس خادمك ﷺ[1] وقد كان معك: «هل ترى من نخل بالوادي؟»، فقال لك: أرى نخلات متقاربات، فقلت له: «انطلق إليهنّ، وقل لهنّ: إنّ رسول الله ﷺ يأمركنّ أنْ تأتينَ لِمَخْرج رسول الله ﷺ» فاستجابت ولبَّت، أي: أجابت النّخلات والحجارة إجابة بعد إجابةٍ، الأُولى في إقبالها عليك، والثانية في عَوْدها كما كانت أوّلاً، قال أنس ﷺ: فقلت لهنّ كما أمرني رسول الله ﷺ، فَوَ الذي بعثه بالحق نبيًّا، لقد رأيتُ تلك النّخلات يتقاربنَ حتّى اجتمعنَ، والحجارة يتعاقدنَ حتّى صرنَ ركاماً خلف النّخلات، فلما قضى ﷺ حاجته، قال لي: قل لهنّ: يتفرّقنَ إلى ما كنَّ عليه قبل ذلك، فقلتُ لهنّ، فتفرَّقنَ حتّى عُدْنَ إلى مواضعهن.

وجبريل لما استهزأت فرقة الرَّدا ... أشار إلى كلٍّ بأقبح ميتة

حاصله: لمّا استهزأتْ فرقة من أهل مكّة بك يا رسول الله، أشار جبريل إلى كلّ واحد منهم بنوع من المهالك، فهلك به كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾[2] فمن المستهزئين أبو جهل اللعين لمّا نزل: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[3] قال: أنا أكفيكم يا معشر قريش عشرة، فاكفوني أنتم تسعة إنْ كان ما يقوله محمّد حقًّا، فأدفع خمسة بيميني وخمسة بيساري، ونعبر الصّراط إلى الجنّة، وننجو من النّار فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لا يطاقون كما تتوهّمون ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[4] إلى آخره.

ومنهم الوليد بن المغيرة كان نمَّاماً مغتاباً ملمازاً، فنزلت في شأنه سورة الهمزة، فالهُمَزَة: المغتاب، واللمَزَة: العائب لغيره، وقيل: الهُمَزَة يهمز النّاس في وجوههم، واللمَزَة يلمزهم إذا غابوا، وقيل: الهُمَزة: الطعّان في النّاس، واللمَزة: الطعّان في أنساب النّاس، وقيل: الهُمَزة: المغتاب باللسان، واللمَزَة: المغتاب بالعين، والحُطَمة:

---

(١) لم أجده عن أنس بل عن جابر ﷺ. انظر الشفا: (١/٢٢٤).

(٢) الحجر: ٩٥.

(٣) المدثر: ٣٠.

(٤) المدثر: ٣١.

النّار تَحطِم كلّ شيء طُرِح فيها، وتطّلع على الأفئدة: تصل إلى الباطن والقلوب بعد حرقها الظاهر، مؤصدة: مُطْبَقة، مِنْ أَوْصدتُ الباب إذا أطبقته، في عَمَدٍ ممدّدة: موثوقون في عواميد. اهـ.

ومنهم عقبة بن أبي معيط وأُبيّ بن خلف، روي أنّ عقبة صَنَع طعاماً، فكان من جملة مَنْ دعاه لطعامه النبيّ ﷺ، فلمّا حضروا، قال له ﷺ: «لا آكل من طعامك هذا حتى تشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله» فَفَعل ما أمره ﷺ به، فلمّا انصرفوا من الضيافة، وكان عقبة صديقاً لأُبيٍّ بن خلف، وبلغه الخبر، فأتاه، وقال له: يا عقبة، صبأتَ؟ قال: لا، ولكنْ دخل عليَّ رجل، فأبى أنْ يأكل طعامي إلا أنْ أشهد له، ففعلتُ حياءً منه أنْ يخرج من بيتي من غير أكْلٍ، فقال له: ما أنا براضٍ عنك حتى تأتيه فتَبْزُق في وجهه، فَفَعل ذلك عقبة، فعاد بُزاقُه في وجهه، فأحرقه، وقال له رسول الله ﷺ: «لا أراك خارج مكة إلا علوتُ رأسك بالسّيف»[1] فأسر يوم بدر، فأمر ﷺ عليًّا فقتله، وطعَن النبيّ ﷺ أُبيًّا بأُحُد، فرجع إلى مكة، ومات قبل وصوله، ونزل في عقابه ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ الآية[2].

ومن جملتهم أبو لهب، فلمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[3] صعد النبيّ ﷺ على الصّفا ونادى بأعلى صوته: يا بني عَدِي، يا بني هاشم إلى آخر بطون مكة، فلمّا حضروا، قال لهم النبيّ ﷺ: «إنّي لكم نذير بين يدي عذاب شديد... إلخ» فقال أبو لهب: تبًّا لك، ألهذا جمعتنا، فنزل فيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[4] [5] فلمّا نزلتْ قال أبو لهب لابنه رضي الله عنه ـ فإنّه أسلم يوم الفتح: رأسي من رأسك حرام إنْ لم تفارق بنت محمد ـ يعني: رقيّة رضي الله تعالى عنها، فإنه كان تزوجها ولم يدخل بها ـ ففارقها.

---

(١) عزاه في الدر المنثور إلى أبي نعيم من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) الفرقان: ٢٧ ـ ٢٨.

(٣) الشعراء: ٢١٤.

(٤) المسد: ١.

(٥) رواه البخاري برقم: (٤٦٨٨)، و الترمذي في سننه برقم: (٣٣٦٣)، وأحمد برقم: (٢٥٤٤)، والنسائي في السنن برقم: (١١٤٢٦).

وكان أخوه عُتَيْبة ـ بالتّصغير ـ متزوّجاً ابنته ﷺ أم كلثوم رضي الله تعالى عنها ولم يدخل بها أيضاً، فقال وقد أراد السفر إلى الشّام مع والده اللعين: لآتين محمّداً فلأوذينّه في ربّه، فأتاه وقال له: يا محمد، هو[1] كافر بالنّجم إذا هوى، وفي لفظ: بربّ النّجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلّى، ثمّ بصق في وجه النبيّ ﷺ، وردَّ عليه ابنته، وطلّقها فقال النبيّ ﷺ: «اللهم سلِّط عليه كلباً من كلابك» فقال أبو طالب: ما كان أغناك يا ابن أخي عن هذه الدّعوة، فرجع عتيبة إلى أبيه أبي لهب اللعين، فأخبره بذلك، ثمّ خرجا جهة الشام في جماعة، فنزلوا منزلاً، فأشرف عليهم راهب من دير، وقال لهم: إنّ هذه الأرض مُسْبعة ـ أي: كثيرة السّباع ـ فخذوا حِذْركم، فقال أبو لهب لمن معه: أعينونا يا معشر قريش هذه الليلة، فإنّي أخاف على ابني دعوة محمّد، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصّومعة، ثمّ افرشوا لابني عليه، ثمّ افرشوا لأنفسكم حوله، ففعلوا ما أمرهم به، ثمّ جمعوا جِمَالهم، فأناخوها حولهم، وأحدقوا بعتيبة من كلّ جهة محافظةً عليه، فجاء الأسد، وصار يشمُّ وجوههم واحداً بعد واحد حتّى وصل إلى عتيبة الشقيّ، فضربه بذنبه، أو بيده، فقتله، فقال وهو بآخر رَمَق: ألم أقل لكم: إنّ محمداً أصدقُ النّاس لهجة. وقال أبو لهب: عرفتُ والله، ما كان ينفلتُ من دعوة محمّد[2].

ثمّ مات أبو لهب بداء العَدَسة، وهو داء تتشائم منه العرب، وتزعم أنّه ينتقل لمن مسَّه كداء الكَلَب، فَتُرِكَ ميتاً ثلاثة أيام حتّى أَنْتَن، ثمّ استأجروا له بعض السودان حتّى دفنوه لمّا عُيِّروا به، وقيل: جُعِل له حفرة ثمّ دفع فيها بالأخشاب الطويلة، ثمّ رُجِم عليه بالحجارة، ثمّ بالتّراب سَتْراً عليه.

ولمّا نزلت سورة (تَبّت) جاءت زوجته أم جميل، واسمها: صخرة، ولقبها: فاختة، وكانت عوارء خيبة من الله عليها، فقالت لأخيها أبي سفيان بن حرب والد معاوية رضي الله تعالى عنهما: ويحك يا أحمس ـ أي: شجاع ـ أَمَا تغضب أنْ هجاني محمّد؟؟ فقال: سأكفيك إيّاه، ثمّ أَخَذ سيفه، ثمّ خرج، فغاب، ثمّ عاد، فقالت له: قتلته؟ فقال لها: يا أُخيَّة، أيسرُّك أنّ رأس أخيك في فم ثعبان؟ فقالت: لا، والله!، قال: فقد كاد ذلك يكون السّاعة، فإنّي رأيت دونه ثعبان، لو قَرُبت منه لالتقمني، ثمّ

---

(١) عدل الإمام رضي الله عنه عن قول عتيبة في الأصل: (أنا.) إلى (هو..) لما يترتّب على ذلك القول من المحظور.

(٢) عزاه ابن كثير في تفسيره إلى ابن عساكر، انظر تفسير ابن كثير: (٤/٣١٦)، وتفسير القرطبي: (١٧/٧٢).

ذهبت، فقالت للنبيّ ﷺ: يا محمّد تهجوني..؟، فقال لها ﷺ: «ما هجوتك، فما هجاك إلا الله»، فقالت: أرأيتني حمالةَ حطب، وفي جيدي حبل من مسد؟[1] [2].

فرجعت وتركته ﷺ، ثمّ ثار غضبها، فعادت، فحملت فِهْراً ـ أي: حجراً ـ وحلفت لتشجنّه به، فجاءت مسرعةً إلى مجلسه ﷺ في المسجد، ومعه أبو بكر وعمر، فقالا له: يا رسول الله، إنّها امرأة بذيئة، لو قُمْتَ وذهبتَ لئلا تؤذيك، فقال لهم النبيّ ﷺ: «لن تراني»، فلمّا وصلتْ إليهم لم تبصره ﷺ، فقالت: والله، لو أبصرتُه لخدشته بحجري هذه، يهجوني صاحبكم. فقالوا لها: ما هجاك، فلمّا ولّت قال النبيّ ﷺ: «لم يزل ملك يسترني منها بجناحه»[3].

ومنهم خمسة شكاهم النبيّ ﷺ لجبريل عليه السلام عند البيت: الوليد بن المغيرة والد خالد بن الوليد، وعمّ أبي جهل، والعاص بن وائل والد عمرو بن العاص، والحارث بن قيس، والأَسْود بن عبد المطلب، وكنيته: الأَسْود أبو زمعة، وهو الذي دعا عليه النبيّ ﷺ أنْ يُعمي الله بصره، وأنْ يثكله ولده، فقُتِل ولداه: زمعة وعقيل يوم بدر، وهؤلاء الأربعة كانوا من أقاربه وجيرانه ﷺ، لكنْ غلب عليهم الكبر والحسد فَشَقُوا بمخالفته وعدم اتباعه ﷺ، والأَسْود بن عبد يغوث، فقد جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، أنّ هؤلاء الخمسة هَلَكوا في ليلة واحدة.

ومن جملة أذيَّتهم له ﷺ أنّهم كانوا رؤساء مجلس لقريش قريب من الكعبة، فرأَوْا النبيّ ﷺ ساجداً عند الكعبة فقالوا: من يأتي بسلول ـ أي: أمعاء وكرش ـ جزور بني فلان الميتة يضعه على محمّد وهو ساجد، فذهب واحد منهم، فوضعه عليه ﷺ وهو يصلي، فبلغ الخبر إلى فاطمة رضي الله تعالى عنها، فجاءت فأزاحته عنه ﷺ، وهم يضحكون ويتمايلون على بعضهم بعضاً، فلما فرغ النبيّ ﷺ من صلاته قال: «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بفلان...»[4] إلى آخر الخمسة، فلما جاء جبريل

---

(١) رواه الحاكم برقم: (٣٩٤٥) وقال: صحيح الإسناد، لكن تتبعه الذهبي في التلخيص بأنه معلول.

(٢) وهذا يؤيد ما قاله بعض المفسرين من أنّ الحطب النّميمة، يقال فلان يحطب عليّ، أي: ينمُّ عليَّ. وقيل: بل كانت تنشر حزمةَ الحطب في طريق النبيّ ﷺ مع كونها غير حطّابة، لكنّها تتكلّف فَعْل ذلك مِنْ غيظها. وقيل: في نار جهنّم تحمل الحطب. مؤلف.

(٣) رواه الحاكم برقم: (٣٣٧٦)، وابن حبان في صحيحه برقم: (٦٥١١)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٤) رواه البخاري برقم: (٢٧٧ ـ ٤٩٨ ـ ٢٧٧٦)، ومسلم برقم: (١٧٩٤)، والنسائي برقم: (٣٠٧). ورواهم غيرهم.

عليه السلام أخبره ﷺ بصنيعهم فكلّما أخبره بواحد أشار جبريل إليه إشارةً قائلاً له ﷺ: قد كفاك الله شرَّه. فهلكوا جميعُهم.

أمّا الوليد بن المغيرة فقد مرَّ برجل نبَّال، يصنع النّبل، وهو يجرّ إزاره، فتعلّقت قطعة من النّبل بإزاره فمنعه الكبر أنْ يطأطئ رأسه وينزعها، فجعلت تضرب ساقه وتخدشه، فمرض ومات منها.

وأمّا العاص بن وائل فقد خرج على راحلته فدخل شِعباً فدخلت شوكة في أخمص رجله، فانتفخت رجله حتّى صارت مثل عنق البعير فمات مكانه.

وأمّا الحارث بن قيس بن الطلاطلة فصار القيح يجري من أنفه وعينيه وفمه حتّى مات.

وأمّا الأَسْود بن عبد المطلب فرماه جبريل عليه السلام بورقة خضراء فذهب بصره، وَوَجِعت عينُه فجعل يضرب رأسه بالجدران حتّى هلك.

وأمّا الأَسْود بن عبد يغوث فأصابه مرض الاستسقاء بعد أنْ أكل حوتاً مملّحاً، فشرب حتّى انشقّت أمعاؤه فمات.

وزاد بعضهم[1]: أصرم وبعكك ابني عبد الحارث، فأما أحدهما فأخذته الدبيلة، والآخر أخذته ذات الجنب فماتا.اهـ.

مضيت على ظهر البراق مسارعاً ... إلى المسجد الأقصى بجانب صخرة
وجزتَ إلى السّبع الطَباق مكرّماً ... إلى العرش حتى جئت موضع سدرة
وصلّيت بالأملاك والرُّسْل كلّهم ... فكنت ولم تبرح إمام الأئمة
وقد كان رب العالمين مطالباً ... بخمسين فرضاً كل يوم وليلة
فأوتيت أجراً الكل ما اختلَّ ذرة ... وخففت الخمسون عنَّا بخمسة
وكم آية قد نلت ثمّ عظيمة ... وعدت وكلّ الأمر في قدر لحظة
وشمس الضحى طاعتك وقت مغيبها ... فما غربت بل وافقتك بوقفة

حاصله: لقد مضيت وذهبت يا رسول الله، وأنت راكب على ظهر البراق في حال كونك مسارعاً في الذّهاب من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى حتّى ربطتَ البراق بحلقة الباب القريب من الصّخرة أو بجانب من جوانب الصّخرة خَرَقه جبريل عليه السلام بأصبعه لتُرْبط في ذلك الخَرْق البراق، وجزتَ يا رسول الله إلى أنْ ارتفعت

---

(١) انظر زاد المسير: (٤/٤٢٣)

صاعداً إلى ما فوق السّبع الطّباق بواسطة المعراج الذي له عشر درجات، كلّ درجة ترفع إلى سماء، والدرجة الثامنة ترفع إلى الكرسي، والتاسعة إلى العرش، والعاشرة إلى سدرة المنتهى، ثمّ غيِّبتَ في الرّفرف إلى ما لا يعلمه إلا الله، وصلّيتَ يا رسول الله قبل صعودك في بيت المقدس إماماً بالأملاك والرّسل كلّهم، فكنتَ ـ والآن على ما أنت عليه ـ إمامَ الأئمة كلّهم.

ولمّا عُرِج بك فُرِض عليك وعلى أمتك خمسين صلاة في كلّ يوم وليلة، كلّ صلاة ركعتين بمئة ركعة، فما زلتَ يا رسول الله تتشفّع إليه تعالى بإشارة موسى عليه السلام متردّداً من مكانه إلى مكان المكالمة، وفي كلّ مرّة من مرات الشّفاعة يخفّف خمساً بإسقاط طلبها عن أمّتك حتّى بقي المطلوب، وهو خمس صلوات من حيث العدد وخمسون من حيث الأجر، كما في حديث: «هي خمس وهي خمسون لا يبدّل القول لديَّ»[1].

وكم ـ أي: كثير ـ من الآيات والمعجزات وخوارق العادات الدالة على نبوّتك وعلى باهر قدرة الله تعالى بحيث لا يعجزه شيء نلتَه في تلك الليلة، ومِنْ أبدعها أنّ جميع ما وقع لك كان في لحظة بحيث لم يبرد مكان منامك الذي أُسري بك منه، وأكثرُ ما قيل فيها: مقدار أربع ساعات، وقيل: أكثر ما قيل فيها ثلاث ساعات، ولمّا أَخبرت قومك واستبعدوا خَبَرك، وطلبوا منك علامة على صدقك أخبرتهم بقدوم عِيْرهم وقافلتهم في الشّام يوم الأربعاء، فلم تقدُم إلى قبيل الغروب، فضاق صدرك من خوف تكذيبهم لك، فطلبتَ من الشمس أنْ لا تغرب حتى تقدُمَ القافلة فأطاعتك في ذلك، ووقفتْ حتّى برزت القافلة ووصلت.

وتمام الكلام يُطْلب من قصة المعراج، وما لخّصناه من القليوبي على معراج الغيطي.

ولا بِدْع أنّ في إطالة القصير معجزة أو كرامة لمن شاء الله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[3].

---

(١) رواه البخاري برقم: (٣٤٢ ـ ٣١٦٤ ـ ٧٠٧٩)، ومسلم برقم: (١٦٣)، والترمذي برقم: (٢١٣)، والنسائي برقم: (٤٤٩). ورواه غيرهم

(٢) المعارج: ٤

(٣) السجدة: ٥.

وورد أنّ يوم القيامة مع طوله على المؤمن كصلاة ركعتين، وفي قدوم عرش بلقيس مصداق ذلك، والجنّ يسترقون السمع بلحظة، ونُقِل عن سهل بن عبد الله التستري أنّه أصابته حرقة بول، وهو في الصّفّ الأوّل يسمع خطبة الجمعة، فكُرِب كرباً شديداً، ولم يستطعِ الخروج ولا الصّلاة، قال: فجذبني شابّ وأدخلني تحت ردائه، ففتحتُ عينيّ وإذا أنا بباب كير، فدخلته فإذا ميضأة ومطهرة وبيوت راحة، وسمعته يقول لي: تطهّر وأدرك الصّلاة، فحللتُ لباسي وقضيت حاجتي، وتوضأت، فإذا منشفة معلّقة بنخلة، فتنشّفت بها، فنزع الرداء عنّي، فإذا أنا جالس مكاني، ولم يشعر أحد بحالي، ولم يفتني من كلام الخطبة شيء، فلمّا صلَّيت لم يكن لي شغل إلا الشّاب، فتبعته حين خرج فقال لي: كأنّك ما أيقنتَ، ثمّ قال لي: أدخل فدخلتُ، فإذا الميضأة كما هي، وإذا المنشفة مبلّلة، ثمّ قال لي: يا سهل، من أطاع الله أطاعه كلّ شيء، اطلُبْه تجدْه، فدمعَتْ عيناي فمسحتهما، فلم أجدِ الشاب ولا وجدت شيئاً مما رأيته. والله أعلم بالصّواب.

ورُبَّ عناق ما نزا الفحلُ فوقها   مسحت عليها باليمين فدرَّت

أي: كثير من العَنَاق ـ وهو ولد العنز دون ستة أشهر، أو دون سنة ـ ما طَرَقها فحل، ولا صَعِد فوقها ـ أي: على ظهرها لكونها لم تبلغ أوان طروقِه ـ فمسحتَ بيدك اليمنى يا رسول الله على ضرعها فدرَّت لبناً كما وقع في قصّة إسلام ابن مسعود المتقدّمة.

ولما أتى الكفار بابك للذي   أرادوه من كيد ومكر مُبَيَّتِ
أخذت على أبصارهم فعموا وقد   رميت على كل تراب بحفنة
وسِرْتَ وأملاك السماء كفيلة   بحفظك والأملاك خير حفيظة

حاصله: لمّا أتى كفار مكة بابك يا رسول الله لفعل الأمر الذي أرادوا إيقاعه بك من الكيد والإذلال بزعمهم، وإنزال النقيصة بك بتنفيذ مكرهم بك ـ خداعهم ـ ليقتلوك من حيث لا تشعر، وأنت نائم أو قائم من منامك، كفعل المبيِّت للقوم المكروه، خرجت يا رسول الله ليلاً وقت البيتوتة من بينهم وأخذتَ على أبصارهم ـ أي: أخذتها حتى لا يبصروك، أو أخذت نفسك عن مكان أبصارهم، أي: عن مَبْصرهم، أو علوتَ على أبصارهم وقهرتها، فلم تصل الأبصار لك ـ فعموا بسبب ذلك عن المشاهدة لك.

وقد رميت حال خروجك عليهم على رأس كل واحد منهم جزءاً من التّراب الذي أخذته بحفنتك حتى تمكّنَ العماء والنوم والإغماء فيهم إلى أنْ نجوتَ منهم، وسرتَ من بينهم، والحال: أنّ أملاك السماء كفيلة متكفّلة بحفظك، والحال أنّ الأملاك خير حافظ لك.

وحاصل الأمر: أنّ النبيّ ﷺ لما بُعث توجهت قريش لأذيَّته، فكان أبو طالب وخديجة يردّان عنه ﷺ، فلمّا ماتا تصدّت قريش لأذيَّته ﷺ، فردّ عنه أبو لهب حميَّة، ثمّ قال له: يا محمد أيدخل عبد المطلب النّار؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار» فقال له أبو لهب: لا برحت لك إلا عدوًّا، وأنت تزعم أنّ عبد المطلب يدخل النّار(١).

واشتدّ عليه هو وسائر قريش بالأذى، فخرج ﷺ إلى الطائف، وهو مكروب من شدَّة ما لقي منهم، وتجاذبهم ﷺ وأبو بكر ﷺ يدافع عنه، ويقول لهم: أتقتلون رجلاً أن يقول ربيَ الله؟! (٢).

وكان خروجه ﷺ في شوّال سنة عشر من النبّوة، ومعه مولاه زيد بن حارثة يلتمس من ثقيف الإسلام رجاء أن يسلموا أو يناصروه على الإسلام، فلمّا وصل إليهم عمد إلى سادة ثقيف، وكانوا إخوة ثلاثة، أحدهم عبد ياليل، واسمه: كنانة، وأخوه مسعود وهو عبد كلال، ولم يُعلم لهما إسلام، والثالث حبيب، وهم أولاد عمرو بن عمير بن عوف الثّقفي، وجلس إليهم ﷺ وكلَّمهم فيما جاء به ومِنْ نُصْرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة ـ أي: ينتفها ويقطّعها، وقيل: يسرقها ـ إنْ كان الله تعالى أرسلك، وقال له الآخر: ما وجد الله أحداً يرسله غيرك، وقال له الثالث: والله، لا أكلّمك أبداً، لَئِن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظمُ قدراً من أنْ أردّ عليك الكلام، ولئن كنتَ تكذب على الله ما ينبغي أنْ أكلّمك، فقام رسول الله ﷺ-من عندهم، ويئس من خير ثقيف، وقال لهم: اكتموا عليَّ، وكره أنْ يبلغ قومه ذلك، فيشتدّ أمرهم عليه ﷺ، وقالوا له: اخرج من بلدنا، والْحَقْ بأرضك، وأغروا به ـ أي: سلَّطوا عليه ـ سفاءهم وعبيدهم يسبُّونه،

---

(١) انظر سيرة ابن كثير: (٢/١٤٧).

(٢) انظر البداية والنهاية: (١/٣٨).

ويصيحون به حتّى اجتمع عليه النّاس، وقعدوا له صفّين على طريقه، فلمّا مرَّ ﷺ بين الصّفين جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما ـ أي: دقوهما ـ بالحجارة حتى أدْموا رجليه ﷺ، واختضبت نعلاه بالدِّماء، وكان ﷺ إذا أزلقته الحجارة ـ أي: وجد ألمها ـ قعد إلى الأرض، فيأخذون بعضديه، فيقيموه، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون كلّ ذلك وزيد بن حارثة ﷺ يقيه بنفسه، حتّى لقد شجّ رأسه ﷺ شجاجاً، فلمّا خَلَص منهم ورجلاه يسيلان دماً، عَمَد إلى حائط ـ أي: بستان ـ من حوائطهم، فاستظلّ في حَبَلة ـ أي: شجرة عنب ـ وقيل: لها حَبَلة لأنّها تَحْبَل بالعنب، وذلك الحائط كان لعتبة وشيبة ابنا ربيعة، فلمّا دخل الحائط رجعوا عنه، فحينئذ دعا النبيّ ﷺ بقوله: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلّة حيلتي وهواني على النّاس، يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين وأنت ربّي، إلى من تَكِلُني، إنْ لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي». وإذا في الحائط ـ أي: البستان ـ عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وقد رأيا ما لقي من سفهاء أهل الطائف، فكَرِه ﷺ مكانهما لما يعلم من عداوتهما لله ولرسوله ﷺ، فحرّكتهما الرّحميّة فدَعَوَا غلاماً لهما نصرانيًّا يقال له: عدّاس، وهو معدود من الصّحابة ﷺ، مات قبل الخروج إلى بدر، فقالا له: خذ قَطْفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق، ثمّ اذهب إلى ذلك الرّجل، فقل له: كُلْ منه، ففعل عدّاس ما أمراه به، ثمّ أقبل على النبيّ ﷺ حتى وضعه بين يديه ﷺ وقال له: كُلْ، فمدّ يده وقال: «بسم الله» ثمّ أكل، فقال عدّاس، إنّ هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: «من أيِّ البلاد أنت يا عداس وما دينك؟» قال: نصرانيّ من أهل نينوى قرية على شاطئ الدّجلة من أرض الموصل، فقال له رسول الله ﷺ: «من أهل قرية الرّجل الصّالح يونس بن متّى» فقال له عدّاس: وما يدريك ما يونس بن متّى، فإنّي والله قد خرجت منها ـ يعني: نينوى ـ وما فيها عشرة يعرفون ما متّى، فمن أين عرفت ابن متّى، وأنت رجل أُمِّي، وفي أمّة أمِّيَّة؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذاك أخي كان نبيًّا ورسولاً، وأنا نبيّ ورسول، أرسلني الله، والله تعالى أخبرني مِنْ خبره، وما وقع له مع قومه.. إلى آخر قصّته» فأكبَّ عدّاس على رسول الله وقبَّل رأسه ويديه وقدميه، وعتبة وشيبة ينظران إلى ما فعل عدّاس، فقال أحدهما: يا عدّاس، ويلك مالَكَ تقبِّل رأسه ويديه ورجليه؟!، فقال: يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أعلمني بأمرٍ لا يعلمه إلا نبيّ، فقالا له: ويحك يا عدّاس، لا يصرفنّك عن دينك، فضحكا

به، ثمّ قالا له: لا يفتننّك عن نصرانيّتك، فإنّه رجل خدّاع، ودينك خير من دينه[1].

وفي الصّحيح عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنّها قالت للنبيّ ﷺ: هل أتى عليك يوم أشدّ من يوم أُحُد؟، فقال ﷺ: «لقد لقيت من قومِك ـ أي: أهل الطائف ـ ما هو أشدّ عليَّ من يوم أُحُد، وكان من أشدّ ما لقيت يوم العقبة إذ عرضتُ نفسي على عبد ياليل وكُلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقتُ، وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقَرْن الثّعالب ـ وهو قرن المنازل ميقات لأهل الحجاز واليمن وبينه وبين مكة مرحلتان ـ فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلّتني، فنظرتُ إليها فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني وقال لي: قد سمع الله قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث لك ملك الجبال فتأمره بما شئت فيهم، فناده مَلَك الجبال وسلّم عليه، وقال له: إنّي في طاعتك، فإنْ شئت أُطْبق عليهم الأخشبين ـ أي: الجبلين ـ فعلتُ، وإنْ شئت خسفتُ بهم الأرض، فقال النبيّ ﷺ: بل أرجو أنْ يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى لا يشرك به شيئاً»[2].

والأخشبان: جبلان يحتوشان مكة، والهاء في (عليهم) إمّا لأهل مكة، وإمّا لأهل الطائف.

ثمّ إنه ﷺ عند منصرفه المذكور من الطائف نزل محلًّا بين مكة والطائف يقال له: نخلة[3]، فقام يصلّي من الليل، فصرف الله إليه نفراً من جنِّ نصيبين ـ بلدة بالشام، وقيل: باليمن ـ فسمعوا قراءته ﷺ في الصّلاة، ولم يشعر ﷺ بهم، فآمنوا به ﷺ وولّوا إلى قومهم منْذِرين، وكانوا سبعة، فأجابوهم إلى ماسمعوه، فقصَّ الله عليه ﷺ خبرهم في إنزاله تعالى سورة الجنّ عليه ﷺ بعد ذلك[4].

ثمّ بعد ذلك اجتمع النبيّ ﷺ بهم ـ بالجنّ ـ في مكة في مكان يقال له: الحَجَون شِعْب جبل، ومعه ابن مسعود رضي الله عنه فخطّ ﷺ على ابن مسعود رضي الله عنه خطاً ثمّ دخل الشّعب

---

(١) انظر تاريخ الطبري: (١/٥٥٦)، وسيرة ابن هشام: (٢/٢٦٨).

(٢) رواه البخاري برقم: (٣٠٥٩)، ومسلم برقم: (١٧٩٥)، والطبراني في الأوسط برقم: (٨٩٠٢)، والنسائي برقم: (٧٧٠٦).

(٣) نخلة هذه هي نخلة الشامية، وهي واد فحلمن أودية الحجاز، وهو أحدرافدي «مرّ الظهران» العظيمين ويقع على ليلة من مكّة. انظر المعالم الأثيرة: (٢٨٧).

(٤) انظر البداية والنهاية: (١/٥٧).

ليلاً وابن مسعود ينظر إليه ﷺ، وقد أوصاه بأنْ لا يفارق محلّه حتّى يرجع إليه، فصار ينزل عليه ﷺ أمثال قطع السحاب وأمثال النّسور حتى ازدحموا عليه ﷺ وغَشُوه، فخاف ابن مسعود عليه ﷺ غاية الخوف، ثمّ قامت لهم ضجّة عظيمة، ثمّ تحوّلوا عنه ﷺ آخر الليل، فرجع إلى ابن مسعود، فقال له ابن مسعود: يا رسول الله، لقد هممت بالخروج والمجيء عندك، فقال له ﷺ: «ما كنت آمَن عليك لو جئت أنْ تختطفَك الجنّ»، فقال: يا رسول الله، وما هذه الضجّة آخر الأمر، فقال له رسول الله ﷺ: «تلك ضجّة في شأن قتيل استفتوني فيه فقضيتُ بينهم».

وفي رواية: فرجع السّبعة من الجن مع ثلاثمئة من قومهم، فانتهوا إلى الحَجُون، فجاء واحد منهم إلى رسول الله ﷺ وهو بمكة، فقال له: إنّ قومنا حضروا بالحَجُون يلقَوْنك، فقام ﷺ من مجلس الصّحابة وقال: «إنّي أُمرت أنْ أقرأ على إخوانكم من الجنّ، فليقم معي رجل منكم، ولا يقم رجل في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر»، قال ابن مسعود ﷺ: فقمت معه بعد أنْ كرر ذلك ثلاث مرات، ولم يجبه أحد، فلمّا برزنا إلى أعلى مكة بالحَجُون خطّ لي خطاً برجله الشريفة، وقال: «لا تخرج فإنك إنْ خرجت لم ترني، ولم أرك إلى يوم القيامة»[1].

وفي رواية: «لا تحدّثني شيئاً حتى آتيك ولا يروعنّك ولا يهولنّك شيء تراه» ثمّ جلس ﷺ، فإذا رجال سود كأنهم رجال الزّط ـ وهم طائفة من السودان ـ كادوا يكونون عليه لازدحامهم لبداً ـ أي: كاللبد في ركوب بعضهم بعضاً حرصاً على سماع القرآن منه ﷺ ـ فأردتُ أنْ أخرج وأقوم أذبّ وأطرد عنه ﷺ، فتذكّرت ما عاهدني عليه، فلبثتُ مكاني، فسمعتهم يقولون له: يا رسول الله، إنّ شقّتنا إلى أرضنا التي نذهب إليها بعيدة، ونحن منطلقون، فزوّدنا لأنفسنا ودوابّنا، فقال ﷺ: «كلّ عظم ذُكِر اسم الله عليه يقع في يد أحدكم أوفَرَ ما كان عليه لحماً، وكلّ بَعْرٍ فهو علف دوابّكم» فقالوا له: انّهَ يا رسول الله أمّتك عن الاستنجاء بها، فإنّ الله تعالى قد جعل لنا فيهما رزقاً، فنهى النبيّ ﷺ عن الاستنجاء بالعظم والبعر، فلمّا ولّوا، قلتُ: يا رسول الله، من هؤلاء؟، فقال لي: «جنّ نصيبين»[2].

---

(١) رواه البيهقي في سننه برقم: (٢٨).

(٢) رواه الطبراني في الكبير برقم: (٩٩٦٨).

وكان انصرافهم سطوعَ الفجر، وقال لي رسول الله ﷺ: «أنمتَ؟»، فقلت: لا والله يا رسول الله، ولقد هممت مراراً أنْ أستغيث بالنّاس لمّا تراكموا عليك، وسمعتُ منهم لَغَطاً شديداً حتّى خفتُ عليك إلى أنْ سمعتك تقرعهم بعصاك وتقول لهم: «اجلسوا»، وسأله عن سبب اللّغَط الذي كان منهم، فقال ﷺ: «إنّ الجنّ تداعت في قتيل فيهم، فتحاكموا إليَّ، فحكمت بينهم بالحقّ»، ثمّ شبّك ﷺ بين أصابعه وقال: «إني وُعِدت أنْ يُؤمن بيَ الأنس والجنّ، أمّا الإنس فقد آمنت، وأمّا الجنّ فقد رأيتَ»[1].

فأقام ﷺ بنخلة[2] أياماً بعد أنْ كان أقام بالطائف شهراً أو عشرة أيام، لا يَدَع ـ أي: يترك ـ أحداً من أشرافهم إلا كلَّمه، فلم يجبه، فلمّا أراد الدّخول إلى مكة أرسل ﷺ زيد بن حارثة إلى المُطْعِم بن عدي يقول له: «إنّي داخل مكة في جوارك»، فأجابه إلى ذلك فتسلَّح المُطْعِم بن عدي وأهل بيته، وخرجوا وأدخلوه ﷺ مكة حتى أتوا به المسجد فقام المُطْعِم بن عدي على راحلته فنادى: يا معشر قريش، إنّي قد أَجَرْت محمّداً، فلا يؤذه أحد منكم، فطاف ﷺ بالبيت وصلّى وانصرف آمناً من أهل مكة، وقال أبو سفيان: قد أجرنا من أجرت يا مُطْعِم بعد أنْ كانت قريش أجمعوا على عدم إدخاله ﷺ مكة لمّا بلغهم خبره بالطّائف، فلذا قال رسول الله ﷺ في أسارى بدر: «لو كان المُطْعِم بن عدي حيًّا ثمّ كلّمني في هؤلاء الأسارى لتركتُهم له»[3] ومع ذلك مات كافراً قبل بدر بنحو سبعة أشهر، وساعد في نقض الصّحيفة سابقاً.

وصار ﷺ يَعْرِض نفسه على قبائل العرب، ويطلب منهم حمايته ونصره حتى يبلِّغ رسالة ربّه في مواسم أسواقهم وفي بيوتهم من رابع سني البعثة، ويقول: «يا أيها الناس، إنّ الله تعالى يأمركم أنْ تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، ألا رجلٌ يعرض على قومه، فإنّ قريشاً منعوني أنْ أبلّغ كلام ربّي»[4] ووراءه ﷺ رجل يقول: يا أيّها النّاس، إنّ هذا الرّجل يأمركم أنْ تتركوا دين آبائكم، ويرجمه بالحجارة، وتارة يقول: أيّها النّاس، لا تسمعوا له، فإنّه كذّاب.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير برقم: (٩٩٦٩)، وقال الهيتمي في مجمع الزوائد (٨/٥٥٢): فيه يحيى بن يعلى وهو ضعيف.

(٢) نخلة هذه هي نخلة اليمانية وهي واد من أودية الحجاز وهي إحدى شعبتي «مرّ الظهران» يأخذ مياه هدأة الطائف. انظر المعالم الأثيرة: (٢٨٧).

(٣) رواه البخاري: برقم: (٢٩٧٠ ـ ٣٧٩٩)، والطبراني في الكبير برقم: (١٥٠٤).

(٤) رواه الدارمي في سننه برقم: (٣٣٥٤).

وذلك الرّجل هو أبو لهب لعنه الله، فلمّا أراد الله تعالى هداية أهل المدينة جاء ﷺ إلى المكان الذي عند العقبة فإذا فيه ثمانية من أهل المدينة يحلقون رؤوسهم، فجلس إليهم ﷺ ودعاهم للإسلام فأجابوه، وقال بعضهم لبعض: تعلمون والله أنّه النبيّ الذي يوعِدُكم به اليهود، فلا تسبقنّكم إليه.

وقد كانت اليهود إذا وقع بينهم وبين الأوس والخزرج شرٌّ يقولون: اللهم انصرنا ببعثة النبيّ المنتظر لنتبعه ونقتلهم قتل عاد وإرَم، فلمّا أسلموا قالوا له ﷺ: إنّا تركنا قومنا الأوس والخزرج بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم، وقد كان جَدّاهما الأوس والخزرج أخوين شقيقين، فوقعت بينهما عداوة وحروب، وتطاولت أكثر من مئة سنة، فإنْ يجمعهم الله عليك، فلا رجل أعزّ منك، فدعنا نرجع إليهم ونخبرهم خبرك، ونأتيك العام القابل، فانصرفوا، حتّى إذا كان العام القابل قدم مكة في الموسم اثنا عشر رجلاً من الأوس والخزرج، أحدُهم عبادة بن الصّامت رضي الله عنه، فاجتمعوا برسول الله ﷺ في العقبة وبايعوه بيعة العقبة الأُولى، ثمّ رجعوا لبلدهم المدينة، وفي العام التالي قدم مكة في الموسم سبعون معتلّين بالحج فواعدهم ﷺ أنْ يجتمع بهم خفية في الليل في العقبة أيضاً.

قال كعب بن مالك، وكان معهم: كنّا نكتمُ على مَنْ معنا من المشركين، وقد كان ﷺ أمَرَهم أنْ لا ينبّهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً، قال: فصرنا ثلاثاً وسبعين رجلاً وامرأتين، فجاءنا ﷺ ومعه عمّه العبّاس رضي الله عنه، وكان يومئذ على دين قريش إلا أنه جاء حميّة على ابن أخيه، وأبو بكر وعليّ رضي الله عنهم، فأوقف ﷺ أبا بكر في باب الشِّعب وعليًّا في بابه الآخر ـ أي: طريقه الآخر ـ عيناً لئلا تَبْغَتَهم قريش، فلمّا جلس النبيّ ﷺ والعبّاس، كان العبّاس أوّل متكلّم فقال: يا معشر الأوس والخزرج، إنّ محمّداً، قد أبى النّاسَ كلَّهم غيركم، فإنْ كنتم أهل قوّة وجَلَد وبَصَر بالحرب، واستقلال بعدواة جميع العرب فاتّبعوه، فإنّ العرب قاطبة ترميكم عن قوس واحدة، فرَوْا رأيكم وأْتَمِروا بينكم ولا تفرّقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع، فإنّ أحسن الحديث أصدقه. فقالوا له: قد سمعنا، فخذْ يا رسول الله لنفسك ما شئت، واشترط لربّك ما شئت، فقال ﷺ: «اشترط لربي عزَّ وجلَّ أنْ تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً، ولنفسي أنْ تمنعوني ممّا تمنعون منه أنفسكم وأبناءكم ونساءكم» فقال أبو رواحة رضي الله عنه: فإذا فعلنا ذلك، فما لنا عند الله؟، فقال ﷺ: «لكم الجنّة»، قالوا: ربح البيع، لا نقيل

ولا نستقيل، ثمّ قالوا: والله، نحن أهل الحرب وأهل الحلقة ـ أي: السلاح ـ ورثناها كابراً عن كابر، فقال أبو الهيثمّ بن التيهان: يا رسول الله، إنّ بيننا وبين اليهود عهوداً قاطعوها، فهل عسيتَ إنْ نحن فعلنا ذلك معك، ثمّ أظهرك الله أنْ ترجع إلى قومك وتدعنا ـ أي: تتركنا ـ فتبسّم النبيّ ﷺ ثمّ قال: «الدمُ الدمُ، الهدم الهدم» أي: دمي دمكم، ودمكم دمي، وهدمي هدمكم، وهدمكم هدمي.

فقال العبّاس لهم: عليكم بما ذكرتم ذمَّة الله مع ذمتكم وعهد الله مع عهدكم في هذا الشهر والبلد الحرام، يد الله فوق أيديكم لتجدُنّ في نصرته، فقالوا جميعاً: نعم، قال العباس: اللهم إنك سامع شاهد، وإنّ ابن أخي قد استرعاهم ذمّته، واستحفظهم نفسه، اللهم كن لابن أخي عليهم شهيداً، ثمّ قال ﷺ: «أخرجوا لي منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وهم: سعد بن عبادة، وأسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وسعد بن خيثمة، والمنذر بن عمرو، وعبد الله بن رواحة، والبراء بن معرور، وأبو الهيثمّ بن التيهان، وأسيد بن حضير، وعبد الله بن عمرو بن عوام، وعبادة بن الصّامت، ورافع بن مالك، كلّ واحد من قبيلة، فقال لهم ﷺ: «أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي[1]» فقال العباس بن عبادة بن فضيلة: يا معشر الخزرج، هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل، إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود ـ أي: العرب والعجم ـ من الناس فتوافقوا على ذلك، وقالوا: يا رسول الله، ما لنا بذلك إنْ نحن قضينا ما عاهدناك عليه؟، قال: «رضوان الله والجنة» قالوا: رضينا يا رسول الله، أبسط يدك نبايعك فبسط ﷺ يده، فبايعوه، ثمّ بايعه السبعون، وبايعته المرأتان من غير مصافحة[2]، فحينئذ صاح إبليس اللعين من رأس الجبل، يا معشر قريش هؤلاء بنو الأوس والخزرج تحالفوا على قتالكم، ففزع الأنصار عند ذلك، فقال لهم رسول الله ﷺ: «لا يروعنّكم هذا الصّوت فإنّما هو عدوٌّ الله إبليس، وليس يسمعه أحد ممن تخافون» وقد حضر هذه البيعة جبريل عليه السلام.

ثمّ إنّ الحديث عن خبر البيعة نما وكَثُر وسمع المشركون من قريش بذلك، وعند فشوِّ الخبر جاء أجلّتهم وأشرافهم حتى دخلوا شعب الأنصار فقالوا: يا معشر

---

(١) يعني: المهاجرين رضي الله عنهم. مؤلف.

(٢) البداية والنهاية: (٣/١٦١)، وتاريخ الطبري: (١/٥٦٢)، وعيون الأثر: (١/٢٧١).

الأوس والخزرج، بلغنا أنّكم جئتم إلى صاحبنا هذا لتخرجوه من بين أظهرنا وتبايعوه على حربنا، والله ما من حيّ أبغض إلينا أنْ تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم، فصار مشركوا الأوس والخزرج ممن لم يحضروا البيعة ولم يبلغهم الخبر من أصله يحلفون لهم ما كان من هذا شيء، ثمّ نفر النّاس من منى، وبحثت قريش عن خبر الأنصار رضي الله تعالى عنهم، فوجدوا خبر البيعة حقًّا، فتبعوهم فما أدركوا إلا سعد بن عبادة، فعذّبوه ثمّ أنقذه الله تعالى منهم، وإلا المنذر، فأفلتَ منهم بعدما أمسكوه.

ثمّ أمر ﷺ من كان معه من المسلمين بالهجرة إلى المدينة الشريفة لمّا صارت قريش تبالغ في إيذائهم بعد خبر البيعة، فهاجروا مستخفين من قريش إلا عمر بن الخطاب ﷺ فإنّه وقف على مجالس قريش بعد أنْ طاف وصلّى عند البيت وقال لهم: شاهت الوجوه، من أراد أنْ تثكله أمّه ـ أي: تفقده ـ أو ترمل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي، ثمّ مضى لوجهه متقلّداً سيفه، وبيده عنزة ـ أي: حربة صغيرة ـ علّقها عند خاصرته، وجعل القوس على منكبه، وبيده سهم أخرجه من جعبة سهامه، فما تبعه أحد[1].

فكان أوّل من قدم المدينة مصعب بن عمرو وابن أم مكتوم رضي الله عنهما، وكانا يُقرآن النّاس القرآن ثمّ قدم بلال وسهيل وعمار بن ياسر رضي الله عنهم، ثمّ قدم عمر بن الخطاب ﷺ في عشرين من أصحاب النبيّ ﷺ، ولمّا أذن ﷺ لأصحابه في الهجرة وهاجروا مكث ﷺ بعد أصحابه رضي الله تعالى عنهم ينتظر أنْ يُؤْذن له ﷺ في الهجرة، ولم يتخلّف معه إلا عليّ بن أبي طالب كرّم الله تعالى وجهه وأبو بكر الصّديق ﷺ وصهيب ومن كان محبوساً أو مريضاً عاجزاً عن الخروج.

وكان أبو بكر ﷺ كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول له: «لا تعجل لعلّ الله أنْ يجعل لك صاحباً» فيطمع أبو بكر ﷺ أن يكون معه ﷺ، وتارة يقول له: «على رِسْلك، فأنا أرجو أنْ يُؤْذن لي» فاشترى أبو بكر ﷺ راحلتين فحبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك، فلمّا رأت قريش أنّ رسول الله صار له شيعة ـ أي: أصحاب وأنصار ـ من غيرهم خافوا أنْ يخرج ﷺ إليهم ويجتمع معهم على حربهم، فاجتمعوا في دار النّدوة يتشاورون في أمره وما يصنعونه به ﷺ، وقد كانت تلك الدار محلًّا

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي: (١٠٥).

لمشورتهم لا يقضون أمراً إلا فيها، وهي أوّل دار بمكة كانت لقصيّ بن كلاب منزلاً، ثمّ صارت لولده عبد الدار، وكانت جهة الحجر عند المقام الحنفي الآن، وكان لها باب إلى المسجد، وقد أدخلت في المسجد بعد ذلك، وسميت دار النّدوة لاجتماع النّديّ ـ وهي الجماعة ـ فيها فاجتمع فيها ذلك اليوم أهل الرأي، ولم يتخلّف أحد منهم، فازدحموا فيها، فلذلك سَمَّوْا ذلك اليوم يوم الازدحام، ثمّ إنّ إبليس اللعين لعنه الله جاء إليهم في صورة شيخ نجدي عليه طيلسان من خزّ أو صوف، فطرق الباب ففتحوا له، فلمّا رأوه قالوا له: من الشيخ؟، فقال لهم: من أهل نجد سمع بالذي اجتمعتم له فحضر معكم، وعسى أنْ لا تعدمونه رأياً ونصحاً، فقالوا: أجل، فدخل معهم، وإنّما قال لهم: من نجد، لأنّ قريشاً قالوا: لا يدخلنّ معكم في المشورة أحد من أهل تهامة، لأن هواهم كان مع محمّد ﷺ.

وعند المشورة والرأي قال بعضهم: إنّ هذا الرّجل ـ يعني: النبيّ ﷺ ـ كان من أمره ما قد رأيتم، وإنّا والله لا نأمنه على الوثوب علينا مع من قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً فتشاوروا، فقال أبو البحتري بن هشام: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه باباً، وتربصوا به حتى يموت كما مات غيره، فقال الشيخ النّجدي: لا والله ما هذا لكم رأي، والله لو حبستموه كما تقولون ليخرجنّ عن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلم تشكوا أنْ يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم، ثمّ يكاثرونكم ـ أي: يغلبونكم ـ وتقوم شوكته عليكم، فما هذا برأي، فانظروا غير هذا، فتشاوروا، ثمّ قال قائل منهم، وهو الأَسْود بن زمعة بن عمرو: نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنّا، فوالله لا نبالي أين يذهب، فقال النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حُسْن حديثه وحلاوة منطقه وغَلَبَته على قلوب الرجال بما يأتي الله به، والله لو فعلتم به ذلك ما أمنتم أنْ يحلّ ـ أي: ينزل ـ على حيّ من العرب فيغلب بذلك عليهم من حُسْن قوله وحديثه حتى يبايعوه، ثمّ يجيء بهم إليكم، فيأخذ أمركم من أيدكم، ثمّ يفعل بكم ما أراد، دبّروا أمراً غير هذا، فقال أبو جهل اللعين لعنه الله: والله، إنّ لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه، قالوا له: وما هو يا أبا الحكم؟، فقال: الرأي عندي أنْ تأخذوا من كلّ قبيلة شاباً جَلْداً ـ أي: قويًّا ـ حسيباً في قومه نسيباً وسطاً، ثمّ يُعطى كلّ فتى منهم سيفاً صارماً ـ أي: قاطعاً ـ ثمّ يَعْدون عليه فيضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه، فتستريحون منه، فإنّهم إنْ فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل

جميعاً فلم يقدر قومه بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فيرضوا منّا بالعقل ـ أي: الديّة ـ فنعقله لهم، فقال الشيخ النجديّ: القول ما قال هذا الرّجل، وهذا هو الرأي السّديد لا غيره[1].

فتفرّق القوم على ذلك، ووظّفوا شبّاناً وعينوا وقت التنفيذ ليفعلوا ما ذكر في وقت معين، فنزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ وقال له: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه، وأخبره بمكرهم، فأرسل لعلي ﷺ أنْ نم على فراشي الليلة واتّشح بردائي هذا، فإنه لن يَخْلص إليك شيء تكرهه منهم، فحصل له ﷺ الطمأنينة بمقالة الصّادق المصدوق تلك، وأعلمه بالهجرة، وأَمَره أنْ يتخلّف بعده حتى يؤدي عنه الودائع التي أُوْدعت عنده، لأنه لم يُعْرف سواه بتأديته الأمانة، كما كان ﷺ يؤديها حتّى اشتهر بأنه ﷺ المأمون أو الأمين.

ثمّ جاء ﷺ إلى بيت أبي بكر ﷺ فقال: «أشعرت ـ أي: أعلمت ـ يا أبا بكر، إنه قد أُذِن لي في الهجرة» فقال أبو بكر ﷺ: الصّحبة يا رسول الله، فقال النبيّ ﷺ: نعم ـ أي: تكون أنت رفيقي ـ فقال أبو بكر ﷺ: فخذ إحدى راحلتي هاتين، وكان أبو بكر ﷺ أعدّ راحلتين للهجرة لمّا قال ﷺ: «إني رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين» وهما الحرّتان بعد أن هاجر من هاجر إلى أرض الحبشة، ورجع من كان بأرض الحبشة إلى المدينة المنوّرة، وأبو بكر همَّ بالهجرة أيضاً، فقال له رسول الله ﷺ: «على رِسْلك، فإنيَ أرجو أنْ يُؤْذن لي فقال أبو بكر ﷺ: فهل ترجو ذلك يا رسول الله بأبي وأمي؟، قال ﷺ: «نعم» فحبس نفسه.

وكان أبو بكر ﷺ قبل ذلك كلّه خرج مهاجراً نحو الحبشة مع من هاجر إليها لمّا ابتلي المؤمنون، فلمّا بلغ بَرْكَ الغماد لقيه ابن الدغنّة، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟، فقال ﷺ: أخرجني قومي، فأريد أنْ أسيح في الأرض، فأعبد ربّي، قال ابن الدغنّة: فإنّ مثلك لا يَخْرُجُ ولا يُخْرَجُ، إنّك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتعين على نوائب الحقّ، فأنا لك جار، فارجع واعبد ربّك ببلدك، فرجع ﷺ مع ابن الدغنّة فطاف به ابن الدغنّة على أشراف قريش، وهو يقول لهم: إنّ أبا بكر لا يَخْرُج مثله ولا يُخْرَجُ، أتخرِجون من يُكْسب المعدوم ويحمل الكلّ ويقوّي الضعيف، ويعين على نوائب الحقّ، فلم تقدر قريش على ردٍّ جوار ابن الدغنّة، لأنه سيّد المفازة، وإنما قالت له

---

(١) انظر البداية والنهاية: (٣/١٧٥)، وتاريخ الطبري: (١/٥٦٥ ـ ٥٦٦)، وعيون الأثر: (١/٢٨٦ ـ ٢٨٧).

قريش: مُرْ أبا بكر فليعبد ربّه في داره، فليصلِّ بها وليقرأ ما شاء، ولا يُؤْذنا بذلك، ولا يستعلن به، فإنّا نخشى أنْ يفتن نسائنا وأبنائنا، فقال ابن الدغنّة: ذلك لأبي بكر.

ولبث أبو بكر ﷺ يعبد ربه في داره، ثمّ بدا لأبي بكر ﷺ فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلّ فيه ويقرأ القرآن، فيتقصّف عليه نساؤهم وأبناؤهم يعجبون منه، وينظرون إليه، وكان أبو بكر ﷺ رجلاً بكّاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنّة، فقدم عليهم، فقالوا له: إنّا أجرنا أبا بكر بجوارك على أنْ يعبد الله ربّه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصّلاة وبالقراءة، وإنّا قد خشينا أنْ يفتن نساءنا وأبناءنا، فانْهَهُ عن ذلك، فإنْ أحبَّ أنْ يقتصر على أنْ يعبد ربّه في داره فَعَل، وإنْ أبى إلا أنْ يعلن بذلك فاسأله أنْ يرد لك جوارك، فإنّا قد كرهنا أنْ نَخْفِر جوارك، ولسنا مقرّين لأبي بكر الاستعلان، فأتى ابن الدغنّة أبا بكر ﷺ فقال له: قد علمت الذي عاقدتُ لك عليه قريشاً، فإمّا أنْ تقتصر على دارك، وإمّا أنْ تُرْجع لي ذمّتي، فإني لا أحب أنْ تسمع العرب أني خَفَرت في رجل عقدتُ له، فقال له أبو بكر ﷺ: إني أردّ لك جوارك وأرضى بجوار الله تعالى(1).

ثمّ أُذِنَ للنبي ﷺ في الهجرة فجاءه إلى بيته متقنّعاً في وقت لم يَعْتد المجيء فيه، فقال له أبو بكر: فداك أبي وأمي، ما جاء بك الساعة إلا أمر!، فقال له النبيّ ﷺ: «أخرج مَنْ عندك»، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك يا رسول الله، فقال له ﷺ: «إني أُذِن لي في الخروج»، فقال أبو بكر: الصّحبة يا رسول الله، فقال ﷺ: «نعم»، فقال له: خذ إحدى هاتين الراحلتين يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «بالثمن»، قالت عائشة رضي الله عنها: فجهزّناهما أحبّ الجهاز وصنعنا لهما سفرة من جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت بها على فمِ الجراب، والقطعة الأخرى عصاماً لقربة رسول الله ﷺ، فلذا سميت ذات النطاقين، وبكى أبو بكر ﷺ فرحاً بقدوم النبيّ ﷺ وببشارته له برفقته، قالت عائشة رضي الله عنها: وما كنت قبل ذلك أظنّ أنّ أحداً يبكي فرحاً، وكان الجراب سفرة جلد بصورة الجراب، وفي رواية البخاري، عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: استأجر النبيّ ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدئل وهو من بني عبد الله بن عدي هادياً وخِرِّيتاً ـ والخرّيت: الماهر بالهداية

(1) انظر عيون الأثر: (1/298).

ـ قد غمس يمينَ حلف في آل العاص بن وائل، وهو على دين كفار قريش فأمّناه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحلتيهما صبيحة الثالثة، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل الدئلي، فأخذ بهم أسفل مكة، وهو طريق الساحل[1]. اهـ.

قالت أسماء أخت عائشة رضي الله تعالى عنهما: دخل علينا جدّي أبو قحافة بعد المهاجرة، وكان قد كُفَّ بصره فقال: والله، إني لأراه ـ يعني: أبا بكر ـ قد فجعكم بماله مع نفسه، فقلت له: كلا يا أبت ـ أي: يا جدّي ـ إنّه ترك لنا خيراً كثيراً، قالت: وأخذتُ أحجاراً فوضعتها في كوّة ـ أي: طاقة ـ في البيت كان أبي يضع ماله فيها، ثمّ وضعت عليها ثوباً، ثمّ أخذت بيد أبي قحافة جدّي فوضعتها عليه، فقال: لا بأس، إنْ كان ترك لكم هذا، إنّ في هذا لبلاغاً لكم، قالت أسماء رضي الله تعالى عنها: فوالله، ما ترك لنا شيئاً، ولكن أردتُ أنْ أسكّن قلب الشيخ.

وكانت أسماء أسلمت بمكة قديماً وبايعت، وسماها النبيّ ﷺ بذات النّطاقين لمّا فعلت ما مرّ، وقال لها: «أبدلك الله بنطاقيك نطاقين في الجنّة»، والنطاقان: تثنية نطاق، وهو ما يُشدّ به الوسط.

والحق أنّ الزاد والماء والنّطاقين بعد تمام الثلاث عند الخروج من الغار، وأنّ النبيّ ﷺ بعدما خرج من بيت أبي بكر متنكراً من خوخة كانت في ظهر بيت أبي بكر واستئجارِه الدئلي والدّليل ودفعِ الراحلتين إليهما ومواعدتِهما غار حراء، رجعَ إلى بيته الشريف، وأمر عليًّا أنْ ينام موضعه، وأنْ يتسجّ بردائه الشريف، وينام على فراشه الشريف، لتظن قريش أنّ النبيّ ﷺ نائم فلا يقتفون أثره الشريف ﷺ، وقال له ﷺ: «إنه لن يخلص إليك منهم شيء تكرهه»، وقال له أيضاً: «إذا جاءك أبو بكر فوجّهه خلفي نحو بئر أم ميمونة» وكان ذلك في فحمة العشاء، والرَّصَد من قريش قد أحاطوا بالدار ينتظرون خروجَ النبيّ ﷺ ليفتكوا به، ويرقبون انتصاف الليل ليهجموا عليه، وجاءهم أبو جهل يصحبه أبو لهب، وأميَّة بن خلف، وزمعة بن الأَسْود، والنضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، وابن العاص فقال لهم: إنّ محمداً يقول: إنّكم إنْ تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثمّ بعثتم بعد موتكم، فجُعِلت لكم جنّات كجنّات الأردن ـ محلّ بالشام بقرب بيت المقدس ـ وإنْ لم تفعلوا، كان فيكم

---

(١) انظر البداية والنهاية: (٣/ ١٨٤).

ذبح، ثمّ بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم نار تُحْرقون فيها، فسمعه ﷺ فقال: «نعم أنا أقول ذلك»، ثمّ أخذ ﷺ حفنة من تراب فوافق خروجُه عليهم، وهو يقرأ ياسين: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[1] فجعل ﷺ يكرّرها وينثر التّراب على رؤوسهم، فلم يبقَ من الرّصَد أحد إلا وَضَع على رأسه تراباً، فأخذ الله بسمعهم وأبصارهم، وألقى عليهم النوم، وانصرف ﷺ وتركهم، فكانوا كلّ حين يفتحون أعينهم فينظرون فيرون عليًّا رضي الله عنه نائماً على فراش رسول الله ﷺ متسجيّاً ببرده فيقولون: والله، إنّ هذا محمد نائماً، وعليه بُرْده، حتى أصبحوا، واتّضح النّهار، والقوم ينتظرون ما يحصل منهم، فلمّا استبطؤوهم، بعثوا لهم من يخبرهم بما جرى، فجاء إليهم المستخبر عن خبرهم فإذا هم كالمغمى عليهم، وإذا على رأس كل واحد منهم تراب، فأيقظهم وقال لهم: ما تنتظرون؟ إنّ محمداً قد خرج، ووضع على رأس كلّ واحد منكم تراباً، سَحَر أعينكم به، فنظروا إلى فراش النبيّ ﷺ فإذا عليّ رضي الله عنه هو الذي كان نائماً فيها، فقام عليٌّ فسألوه عن رسول الله ﷺ فقال: لا علم لي به.

والتقى رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه عند بئر ميمونة، ثمّ إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه، ثمّ إلى جبل ثور، ولما مرًّا بجبل حنين نادى: اهبط عنّي يا رسول الله، فإنّي أخاف أنْ تُقْتل على ظهري فأعذّب، فناداه جبل ثور: إليَّ يا رسول الله، ولما توجَّها نحو الغار جعل أبو بكر رضي الله عنه تارة يمشي أمام النبيّ ﷺ وتارة خلفه، وتارة عن يمينه، وتارة عن يساره، فسأله ﷺ عن ذلك، فقال: يا رسول الله، أذكرُ الرَّصد، فأكون أمامك، وأذكر الطّلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لآمن عليك، فلمّا وصلا الغار أنزل أبو بكر رضي الله عنه النبيّ ﷺ عند فم الغار، ثمّ قال له: والذي بعثك بالحق نبيّاً، لا تدخله أنت حتى أدخله قبلك، فإنْ كان فيه شيء نزل بي قبل أن ينزل بك، فدخل رضي الله عنه فجعل يتلمّس بيده، فحيثما رأى جحراً شقَّ قطعة من ثوبه، فوضع فيها حجراً، ثمّ جعلها فيه، حتّى فعل ذلك بجميع ثوبه، ثمّ دخل ﷺ، ووضع رأسه الشريف في حجر أبي بكر ونام ﷺ، فأحسَّ أبو بكر بجحر، فوضع عقبه فيه، فإذا فيه حيَّة فلسَعَتْه مراراً، ولم يتحرّك رضي الله عنه لئلا يزعجه ﷺ، فصارت دموعه رضي الله عنه تنفر وتسقط على وجه رسول الله، فاستيقظ ﷺ، فقال: «مالك يا أبا بكر؟»، فقال رضي الله عنه: لدغتني حيّة، فتفل رسول الله ﷺ على مكان اللدغة فبرأ في الحال، فلمّا أصبح الصّبح، قال له رسول الله: «أين ثوبك

---

(1) يس: ٩.

يا أبا بكر»، فأخبره بأنّه سدّ به جحور الغار، فقال ﷺ: «اللهم اجعل أبا بكر معي في درجتي في الجنّة» فنزل الوحي عليه ﷺ: بأنّ الله تعالى قد استجاب لك دعوتك.

ولما نزلا الغار كانت شجرة أمّ غيلان بقرب الغار مثل قامت الإنسان، فأقبلت حتّى خيمت على فم الغار كأنّها نابتة فيه، ونسجت العنكبوت ما بين أغصانها نسجاً متراكماً بعضه على بعض كنسيج أعوام، وعشّشت حمامتان على الأغصان التي بفم الغار، وقيل: باضتا وفرّختا فيه.

ثمّ إنّ كفّار مكة لمّا بلغهم خبر خروجه ﷺ وعدم ظَفَرهم به شَقّ عليهم ذلك وخافوا من ذلك خوفاً عظيماً، فطلبوه بمكة أعلاها وأسفلها فلم يجدوه، فبعثوا القافة يقتفون أثره، فصادفوا الأثر إلى غار ثور، ثمّ غاب عنهم، فجعلوا يطوفون بثور فلم يروا أثراً ولا مخدعاً يستتران فيه حتى وقفوا على فم الغار فنظروا أم غيلان والعنكبوت والحمامتين، فاستبعدوا نزولهما فيه، فقال قائل: ما بقي إلا هذا الغار، ادخلوه، فقال أمية بن خلف: ما حاجتكم إلى الغار، إنّ عليه لعنكبوتاً من قبل ميلاد محمد، ولو دخل الغار لانقطع نسيج ذلك العنكبوت، ولطار هذا الحمام وانخرب بيته، ثمّ جاء قبالة فم الغار فبال، فقال أبو بكر: إنّه يرانا يا رسول الله، فقال له النبيّ ﷺ: لو رآنا ما فعل هذا الفعل مستقبلاً لنا، فقال: يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى قدميه لأبصَرَنا تحت قدميه وبكى ﷺ، وقال: والله، ما أبكي على نفسي، ولكن أبكي مخافة أنْ تموت فتهلك الأمّة، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، لا تحزن إنّ الله معنا، لو جاءونا من ههنا لذهبنا من ههنا» فنظر الصّديق ﷺ إلى موضع إشارة النبيّ ﷺ، فإذا الغار قد انفرج والبحر متّصل به، والمراكب مشدودة بجانبه، وأنزل الله سكينته عليهما، وأنزل ملائكة تحرسهما.

ومكثا في الغار ثلاث ليال يأتيهما كل ليلة عبد الله بن أبي بكر حين يختلط الظلام بخبر قريش وطعام وشراب، فيستمر عندهما إلى قبيل الفجر، ثمّ يصبح في مكة، وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يروح عليهما بقطعة غنم من غنم أبي بكر ﷺ، فيحلبها لهما، وكانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنها تختلف إليهما كلّ ليلة بطعام من بيت أبي بكر في ظلمة الليل، ثمّ لما كانت صبيحة الثالثة من دخولهما الغار جاءهما الدّليل الدئلي براحلتيهما وقربة ماء وسفرة طعام، وزوّادة من بيت أبي بكر ﷺ، فركب كلّ واحد راحلته، وانطلق بهما يصحبهما عامر بن فهيرة رديفاً لأبي

بكر ﷺ يخدمهما، وقال النبيّ ﷺ: «اللهم احجبني في سفري، واخلفني في أهلي، اللهم إنّك أخرجتني من أحبّ البلاد إليّ، فاسكني في أحب البلاد إليك»، وفي رواية: لمّا خرج ﷺ من مكة وقف عند الحَجُون فقال مشيراً لمكة: «والله، إنك أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أهل الكفر أخرجوني لم أخرج منك، ولو تُرِكْتُ فيك لم أخرج» فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[1]. أي: إلى مكة.

والحقّ أنّهما نزلا بالجحفة لما وصلا إليها، واشتاق النبيّ ﷺ لمكة فالتفت إليها وقال ما تقدّم، لا بالحجون، وأخذ بهما الدليل طريق ساحل البحر، وقال رسول الله ﷺ لأبي بكر ﷺ: «اشغل النّاس عنّي، فإنّه لا ينبغي لنبيّ أنْ يكذب» أي: ولو صورة كالتورية، فصار أبو بكر ﷺ كلّما سأله سائل عن النبيّ ﷺ يقول: هذا الرجل يهديني الطريق، يوهم طريق سفر التّجارة الدنيوية، ومراده الأخروي من ذلك.

ولما بلغ ضمرة بن جندب خروجَه ﷺ وكان مريضاً قال: لا عزَّ لي في مقامي بمكة بعد خروج النبيّ ﷺ منها، فأمر أهله فأخرجوه فمات في التنعيم، فضحكت منه قريش، وقالوا: ترك دين قومه، وما بلغ دين محمد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2].

ثمّ إنّ قريشاً لما آيست منهما أرسلت في طلبهما، وأمر أبو جهل منادياً ينادي بأعلى مكة وأسفلها: من جاء بمحمّد أو دلَّ عليه فله مئة بعير، في رواية: من قتل أو أسر أبا بكر أو محمّداً، فله بكلّ واحد مئة ناقة، قال سُرَاقة: لمّا بلغني خبر قريش خرجت أتجسس خبرهما، فبينما أنا جالس مجلس قومي بني مُدْلج بقُدَيْد[3] إذ أقبل رجل علينا فقال: إنّي رأيت رَكَبة ـ بالتحريك جمع راكب ـ مروا عليَّ آنفاً ـ أي: قريباً ـ وإني لأراهم محمّداً وأصحابه، قال سُرَاقة: فأومأت إليه أنِ اسكت، ثمّ قلت بأعلى صوتي: إنهم بنو فلان يتّبعون ضالّة لهم، ثمّ لبثت في مجلس القوم ساعة حتّى تنوسيَ

---

(١) القصص: ٨٥.

(٢) النساء: ١٠٠.

(٣) قُدَيد: بضم القاف وفتح الدال الأولى، واد فحل من أودية الحجاز التهامية، يقطعه الطريق من مكة إلى المدينة على نحو (١٢٠) كيلاً. انظر المعالم الأثيرة: (٢٢٢).

خبرهم، ثمّ قمت إلى منزلي فأمرت جاريتي أنْ تخرج فرسي خفية إلى بطن الوادي وتحبسها عليَّ، وأخذت رمحي وخرجت من ظاهر البيت، ثمّ انطلقتُ فلبست لَـأمتي، وجعلت أجرّ الرمح ورائي مخافة أنْ يشركني أهل الماء ـ يعني: قومه في الجُعْل ـ حتى أتيت فرسي فركبتها ودفعتها ـ أي: بالغت في إجرائها ـ حتى دنوت منهم، فعثرتْ بي فرسي، ثمّ قامت تحمحم، فخررت عنها، فقمت فأهويت بيدي إلى كنانتي فاستخرجت الأزلام فاستقسمت بها أضرهم أم لا، فخرج لي الذي أكره، فعصيت الأزلام، وركبت ودفعت الفرس حتّى أبصرتُهم، وسمعت قراءة رسول الله ﷺ، وهو لا يلتفت يميناً ولا شمالاً، وأبو بكر ﷺ يكثر الالتفات، ثمّ قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، هذا هو سراقة جاء في طلبنا وقد أدركنا، فقال ﷺ: «اللهم اكفنا أمر سراقة بما شئت، وكيف شئت، وأين شئت» فغابت قوائم فرس سراقة في الأرض حتى لم يقدر الفرس على الحراك، وحينئذ نزل سراقة عن الفرس وانتهره فلم ينتهر، فقال: يا محمّد، ادع الله يطلق عليَّ جوادي، ولك عليَّ عهد وميثاق أنْ أرجع عنك، فدعا له النبيّ ﷺ، وفي رواية كانت المعاهدة ونقضه العهد ثلاث مرات، في كل مرة كان يستقسم بالأزلام ويخرج له الذي يكره حتى وفَّى أمراً بالعهد، وأمّنهما وأمّناه، فلما وصل إليهما قال سراقة: عرضا عليّ الماء والزاد، فلم أرزأهما بشيء، وإنما قلت لهما: مراني بما شئتما، فقالا: أعْمِ عن القوم خبرنا، وقيل: إنّ العرض للماء والزاد كان من قبل سراقة، وأنّهما هما اللذان لم يرزأاه في شيء.

قال سراقة: فمن يومئذ وقع في قلبي أنّ أمر النبيّ ﷺ سيتمّ، فسألته أنْ يكتب لي كتاباً آمنُ به إذا تمّ أمره، وأنْ يكرمني إذا جئته يومئذ، فأمر ﷺ عامر بن فهيرة ـ وقيل: أبا بكر ـ أنْ يكتب له كتاباً فكتب له مطلوبه في رقعة من أَدَم، ولمّا أراد سراقة الانصراف، قال له رسول الله ﷺ: «كيف بك يا سراقة إذا سوّرت بسواري كسرى»، قال سراقة: كسرى بن هرمز؟!، فقال له النبيّ ﷺ: «نعم»، قال سراقة: فلما كان يوم حنين جئته ﷺ بالرّقعة في الجِعِرَّانة فصارت خيل الأنصار تضربني بالرماح وتقول: إليك، ماذا تريد حتى دنوت من رسول الله ﷺ؟، فقلت: يا رسول الله، هذا كتابي وأنا سراقة، فقال رسول الله ﷺ: «هذا يوم وفاء إذن يا سراقة»، فدنوت منه ﷺ وأسلمت.

ولما جيء لعمر بن الخطاب ﷺ في زمن خلافته بسواري كسرى وتاجه ومِنْطقته وبساطه، وكان ستين ذراعاً في ستين يبسط له في إيوانه منظوماً باللؤلؤ والجواهر

الملوّنة على ألوان زهر الربيع، وكان يشرب عليه الخمور إذا عدمت الزهور، وجيء له أيضاً ببنات كسرى الثلاثة، وعليهنّ من الحلل والجواهر ما يقصر اللسان عن وصفه فأمر عمر ﷺ أنْ ينادي المنادي عليهنّ، وأنْ يزال نقابهن عن وجوههن ليزيد المسلمون في ثمنهنّ، فامتنعنَ من كشف نقابهنّ فوكزهنّ المنادي في صدورهن، وهمَّ عمر ﷺ بضربهنّ بالدّرة، وهنّ يبكين، فقال علي ﷺ: مهلاً يا أمير المؤمنين، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ارحموا عزيز قوم ذلَّ وغني قوم افتقر» فسكن غضب عمر ﷺ، فقال علي ﷺ: إنّ بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهنّ من بنات السوقة، فقال عمر ﷺ: كيف الطريق في العمل بهنّ، فقال علي ﷺ: يقوَّمن متنقّبات، ومن اختار واحدة منهنّ يأخذها بما قوّمت به متنقّبة فقوّمن فأخذهنّ علي كرم الله تعالى وجهه، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فجاءه منها ولده سالم، وأعطى الأخرى لمحمد بن أبي بكر فجاءه منها ولده القاسم، وأعطى الثالثة ولده الحسين فجاءه منها زين العابدين.

ثمّ إنّ عمر ﷺ دعا سراقة وقال له: ارفع يديك فرفعهما، وألبسهما سواري كسرى إظهاراً لمعجزته ﷺ في إخباره عنهما قبل حيازتهما، وفرَّق المال وقطع البساط قطعاً وفرَّقه على المسلمين، فخصَّ علياً قطعة فباعها بخمسين ألف دينار.

ولمّا رجع إلى مكة من يرد الطّلب عن النبيّ ﷺ ومن معه، قال سراقة: خرجتُ وأنا أشدّ الناس رغبة في تحصيلهما، ورجعت وأنا أشدّ الناس حرصاً على ألا يعْلم بأمرهما أحد. فصار لا يرى أحداً إلا ردّه وهو يقول له: سرتُ الطريق، فلم أر أحداً حتّى وصل مكة، فما زال به أبو جهل حتّى أخبره بحقيقة الذي جرى، فعتب عليه حيث تركهما، فأنشد سراقة مخاطباً له شعراً:

أبا الحكم والله لو كنتَ شاهداً ... لأمر جوادي إذ تسيخ قوائمه

علمتَ ولم تشكك بأن محمداً ... رسول ببرهان فمن ذا يقاومه

عليك بكف القوم عنه فإنني ... أرى أمره يوماً ستبدوا معالمه

بأمر يود النصر فيه ذوو النهى ... لو أنْ جميع الخلق طرًّا تسالمه

وعن أبي بكر الصّدّيق ﷺ أنّه قال: لما خرجنا من الغار سرنا يومنا وليلتنا كلّها وثاني يوم حتى قام قائم الظّهيرة وخلا الطريق فلا يُرى فيه أحد، رُفِعت لنا صخرة طويلة لها ظلّ فنزلنا عندها، فأتيت الصّخرة فسويت بيدي مكاناً ينام فيه رسول الله ﷺ

في ظلّها، ثمّ بسطت له فروة كانت معي، ثمّ قلت له: يا رسول الله، نم، وأنا أتجسس وأتعرّف من تخافه، فنام رسول الله ﷺ، وإذا براع مقبل بغنمه إلى الصّخرة يريد منها الذي أردناه، وهو الظلّ، فلقيته، فقلت له: لمن أنت يا غلام؟، فقال: لرجل من أهل مكة، فسمَّاه لي فعرفته، فقلت له: فهل في غنمك من لبن؟ قال: نعم، قلت: أفتحلب لي قال: نعم، فأخذ شاة فحلب لي في قَصَب كان معه وأعطانيه، فأتيت النبيّ ﷺ فوجدته نائماً، فكرهت أنْ أوقظه من نومه، فوقفت، حتى استيقظ ﷺ فصببت على اللبن من الماء حتى برد أسفله، فقلت: يا رسول الله، اشرب من هذا اللبن، فشرب حتى رضيتُ، ثمّ قال ﷺ: «ألم يأنِ الرحيل؟»، قلت: بلى، فارتحلنا بعدما زالت الشمس.

ثمّ إنهمُ اجتازوا ـ أي: مرُّوا ـ في طريقهم بأمّ معبد الخزاعية، واسمها عاتكة، وكان منزلها بقُدَيْد ـ محل سراقة بطرفه الآخر ـ وكانت تطعم وتسقي المارّة، وهي لا تعرفهم، فطلبوا منها لحماً أو تمراً أو لبناً يشترونه منها فقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم للشّراء، وفي رواية: للقِراء، وذلك لأنهم كانوا مجْدُبين، فرأى ﷺ شاة في الخيمة، فقال لها: «هل بها من لبن؟»، فقالت: هي أَجْهد من ذلك، فقال ﷺ لها: «أتأذنين لنا في حلابها؟»، فقالت: والله، ما ضربها فحل قطّ، فشأنك بها، إنْ رأيت بها حَلْباً فاحلبها، فدعا بها رسول الله فمسح بيده الشريفة ضرعها وظهرها وسمَّى الله تعالى وقال: «اللهم بارك لنا في شاتنا» فدرَّت وفتحت رجليها للحَلْب، فحلبها ثانياً، فملأ من لبنها إناءً يكفي الرّهط، فسقاها حتى رويت، ثمّ سقى أصحابه، ثمّ شرب ﷺ، فكان آخرهم شرباً، وقال ﷺ: «ساقي القوم آخرهم شرباً» ثمّ حلب منه وملأ الإناء وتركه عندها، ثمّ ارتحل، ثمّ جاء زوجها فرأى اللبن، فقال لها: ما هذا اللبن؟، فقالت: جاءنا رجل ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه ـ أي: مشرقه ـ في أشفاره ـ أي: شعر عينيه ـ وَطَف ـ أي: طول ـ وفي عينه دَعَج ـ أي: شدة سواد في شدة بياض، وهو الحور ـ وفيهما شكَل ـ من الشكلة: حمرة في بياض العين، وهو دليل الشّهامة، ومن أعلام نبوّته ﷺ ـ. لكن قوله (وفيهما شكل) ليس من كلامها بل في نفس الأمر كانا كذلك، ثمّ ذكرت كُلاً[1] من صفاته الشريفة، فقال زوجها: هذه والله صفة صاحب قريش، لو رأيته لاتّبعته، ولأجهدن أنْ أفعل إنْ وجدت إلى ذلك سبيلاً.

---

(١) أي: جملة من أوصافه ﷺ.

وفي الخصائص الكبرى أنه ﷺ بايعها ـ أي: أسلمت ـ قبل أنْ يرتحلوا عنها، وقيل: إنّ زوجها خرج في إثرهم وأدركهم وبايعه النبيّ ﷺ ورجع.

ويروى أنّ أهل مكة لما احتاروا في معرفة طريق ذهاب النبيّ ﷺ سمعوا ليلة من ينشد على جبل أبي قبيس:

جزى الله ربُّ الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلا بالبر وارتحلا به ... فأفلح من أمسى رفيق محمد
فيا لقصيّ ما زوى الله عنكم ... به من فعال لا تجارى وسؤدد
فما حملت من ناقة فوق ظهرها ... أبرُّ وأوفى ذمة من محمد
سلوا أختكم عن شأنها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلّبت ... له بصريح ضرة[1] الشاة مزبد
فغادره رهنا لديها لحالب ... يدر بها في مصدر ثم مورد

فعلم أهل مكة حينئذ أنّ النبيّ ﷺ مرّ على أمّ معبد، ويُروى أنّ النبيّ ﷺ لقي الزّبير في ركب قافلاً من الشّام، فكسا الزبيرُ رضي الله عنه النبيّ ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه، ثمّ إنه ﷺ اجتاز ومرّ بغنم، فقال لراعيها: «لمن هذه؟»، فقال الراعي: لرجل من أَسْلم، فالتفت ﷺ وقال لأبي بكر رضي الله عنه: «سلمت إنْ شاء الله»، ثمّ قال للراعي: «ما اسمك؟»، قال: مسعود، فالتفت ﷺ إلى أبي بكر رضي الله عنه وقال له: «سعد إنْ شاء الله».

ولقي ﷺ في طريقه بريرة بن الحُصَيْب الأسلمي في ركب من قومه فدعاهم إلى الإسلام، فأسلموا وصلُّوا خلفه العشاء الأخيرة، ثمّ قال بريرة: يا رسول الله، لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء، فحلَّ بريرة عمامته ثمّ شدَّها في رمح، ثمّ مشى بين يديه ﷺ وقال: يا رسول الله، تنزل على مَنْ؟، فقال له النبيّ ﷺ: «إن ناقتي هذه مأمورة» فقال بريرة: الحمد الذي أسلمتْ بنو سهم ـ يعني: قومه ـ طائعين غير مكرهين.

ولما سمع المسلمون بالمدينة بخروج رسول الله من مكة كانوا يغدون كلّ غداة إلى الحَرّة ينتظرونه حتى يردَّهم حرّ الظّهيرة، فانقلبوا يوماً بعد أنْ طال انتظارهم وأحرقتهم الشمس، وإذا رجل من اليهود صعد على أطم ـ أي: محل مرتفع من محالهم المرتفعة ـ لأمر ينظر إليه، فبَصُر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيّضين من ثياب الزّبير فقال: يا

(١) الضرّة هنا: أصل الضرع.

معشر العرب ـ وفي رواية: يا بني قيلة ـ هذا جدُّكم. أي: حظّكم الذي تنتظرونه.

وكان ﷺ بعث برجل من أهل البادية إلى أبي أمامة وأصحابه من الأنصار يُعْلمهم بقدومه ﷺ عليهم، فلمّا فشا مجيئه ﷺ ثار المسلمون إلى السّلاح فتلقوا رسول الله بظهر الحَرّة متسلحين زهاء خمسمئة من الأنصار، وذلك يوم الاثنين لاثني عشر خلت من ربيع الأول، فعدل بهم ﷺ ذات اليمين حتّى نزل في بني عمرو بن عوف على كلثوم بن الهرم.

وعند وصوله ﷺ قباء نادى كلثوم على غلامه: يا نجيح، فقال رسول الله ﷺ: «نجحت يا أبا بكر»، وكان ﷺ يجالس النّاس ويتحدَّث مع أصحابه في بيت سعد بن خيثمة، لأنّه ﷺ كان عَزَباً لا أهل له هناك، فمكث ﷺ بضع عشرة ليلة بقباء، وأسس المسجد الذي أُسِّس على التّقوى فيه، وصلّى فيه، ثمّ ركب راحلته يوم الجمعة بعد صلاتها قاصداً المدينة، فقالت له بنو عمرو بن عوف: يا رسول الله، أَخَرَجت مَلَالاً لنا، أو تريد خيراً من ديارنا؟، فقال ﷺ: «إني أُمِرت بقرية تأكل القُرى» ــ أي: تغلبها وتقهرها، والمراد أنّ أهلها يفتحون القرى، فيأكلون أموالها ـ فخلّوا سبيل ناقته، وساروا وسار النّاس معه يتنازعون على زمام ناقته ﷺ حرصاً على إكرامه ﷺ حتى دخل المدينة، وصار الخدم والصّبيان يقولون: الله أكبر، جاء رسول الله ﷺ، جاء محمّد ﷺ وينشدون شعراً:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

ولمّا وصل المدينة أرخى زمامها ولم يحركها، وهي تنظر يميناً وشمالاً، فسئله بنو سالم النزول عندهم وتعرّضوا لناقته فقال ﷺ: «خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة» فانطلقت حتى وردت دار بني بياضة ـ أي: محلّتهم ـ فسألوه النزول وأجابهم كما تقدّم، وهكذا عند دور بني ساعدة حتى وصلت لدور بني النجّار، فقالوا له وقال لهم كما تقدّم، وانطلقت حتى بركت في محلّ من محلات بني النجّار عند دار أبي أيوب الأنصاري ﷺ، فلم ينزل عنها ﷺ، ثمّ وثبت وسارعت غير بعيد، ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها، ثمّ التفت خلفها ورجعت إلى مبركها فبركت فيه وتجلجلت ـ بالجيم، أي: تضعضعت ـ ووضعت جِرَانها ـ أي: باطن عنقها من المذبح إلى المنحر ـ وأرزمت ـ

أي: صوّتت من غير أنْ تفغر فاها ـ فنزل عنها ﷺ، وقال: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾[1] أربع مرات يكرّرها، ثمّ أخذه الوحي، ثمّ سرِّي عنه فقال: «هذا إن شاء الله» فقال أبو أيوب: ائذن لي يا رسول الله أنْ أحطّ رحلك، فأذِن ﷺ له فوضعه في بيته، وجاء أسعد بن زرارة ﷺ، وأخذ بزمام راحلته ﷺ فكانت عنده، وخرجت جويرات من بني النجار بالدفوف يقلن:

نحن جوارٍ من بني النجار   يا حبذا محمد مِن جار

فخرج إليهنّ رسول الله ﷺ فقال: «أتحببنني؟»، قلن: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «وأنا والله أحبكنّ» ثلاث مرات، ونزل رسول الله ﷺ على أبي أيوب ﷺ وقال ﷺ: «المرء مع رحله» فصارت هذه الكلمة مثلاً.

واسم أبي أيوب: خالد بن زيد بن كليب الأنصاري من بني كليب بن النجار، ولمّا نزل قال ﷺ: «أيُّ بيوت أهلنا من بني النجار أقرب؟»، أي: أخوالنا، فقال أبو أيوب ﷺ: داري هذه، وقد حططنا رحلك فيها، فقال ﷺ لأبي أيوب: «اذهب فهيّئ لنا مقيلاً»، فذهب فهيّأ ذلك، ثمّ جاء فقال: يا نبيّ الله، قد هيّأت لك مقيلاً، فقم على بركة الله، وأنزل معه زيد بن حارثة ﷺ، وكان أبو أيوب قال للنبيّ: يا رسول الله، إنّ لمنزلنا علواً وسُفلاً، فاختر أيّهما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «السفل أيسر لنا»، فهيّأه له، وارتفع أبو أيوب مع عياله إلى العلوّ، فلمّا أمسى المساء وذهب لينام تفطن أنّه قد استعلى على رسول الله ﷺ فانحاز إلى طرف من العلو، ولم ينم طوال الليل فلما أصبح قال: يا رسول الله، ما يكون لي أن أعلوَ على رسول الله ﷺ فقال له: «أنت في حلٍّ»، فأبى وقال: «إمّا أنْ تصعد أنت إلى العلو، وإما أنْ أفارق لك المنزل بتمامه فانحاز رسول الله ﷺ بمن معه إلى العلو، فمكث ﷺ اثني عشر شهراً في بيت أبي أيوب حتى كَمُل بناء المسجد الشريف وبيوت بعض أزواجه الشريفات، وكانت أرض المسجد ليتيمين، وهما سهل وسهيل من بني مالك بن النجار في حجر أبي أيوب، وقد عرضها أبو أيوب على رسول الله ﷺ على أنْ يدفع ثمنها، فأبى ﷺ وابتاعها منهما بعشرة دنانير أدّاها من مال أبي بكر ﷺ، وكانت أرض المسجد مَرْبداً ـ أي: بيراً للتّمر ـ وروي أنه كان فيه مقابر للمشركين، وكانت فيه خُرَب، وكان فيه نخل، فأمر ﷺ

---

(١) المؤمنون: ٢٩.

بالقبور فنبشت، وبالخُرَب فسوّيت، وبالنخل فقطع، وأمر باتخاذ اللِبن فسوّيت واتُّخذت، ولما شرع في البناء وضع ﷺ أوّل لَبنة، ووضع الثانية بلصقها أبو بكر، ثمّ عمر، ثمّ عثمان، ثمّ عليّ رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وقيل: ليس فيهم عليّ، ثمّ أمر ﷺ النّاس فقال: «ضعوا» فوضعوا، فرُفع البناء بالحجارة إلى قرب ثلاثة أذرع، وشيء باللبن، وجعل عِضَادتيه ـ أي: جانبيه ـ بالحجارة، وسقف بالجريد، وجعلت سواريه ـ أي: عُمُده ـ من جذوع النخل، وارتفاع جداره قدر قامة، كما في حديث: «ابنوا لي عريشاً كعريش موسى، إذا قام وبسط يديه أصابت الرأس، فجبريل أمرني بذلك، وقال لي: الأمر أعجل من ذلك، ولا ترفرفوه»، وعمل فيه المسلمون المهاجرون والأنصار، ونقل ﷺ فيه اللِبن حتى اغبّر صدره الشريف ﷺ وهو يقول:

«هذا الحمالُ لا حمالُ خيبر هذا أبرَّ ربنا وأطهر

ويقول:

اللهم إن الأجرَ أجرُ الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة»

فهاجت الأنصار للعمل غيرة من عمل رسول الله ﷺ، فسلّمت، وأقبلت تنقل حجراً حجراً، وعمّار بن ياسر حجرين حجرين، ويقول: إحداهما عنّي والأخرى عن رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ ينفض التّراب عن عمّار ويقول له: «ألا تحمل كما يحمل قومك؟» فقال ﷺ: أريد الأجر من الله سبحانه وتعالى، فمسح ﷺ ظهره وقال له: «يا ابن سُميّة للنّاس أجر ولك أجران، وآخر زادك من الدنيا ضيح من لبن»، وفي الصّحيح: «عمّار تقتله الفئة الباغية»[1].

روي أنّه لما كان يوم صفين بين معاوية وعلي رضي الله تعالى عنهما، قال عمار: اللهم لو أعلم رضاك عنّي أنْ أوقد ناراً فأرمي نفسي فيها لفعلتُ أو أغرق نفسي في ماء لفعلت، فإني لا أريد قتال هؤلاء ـ أي: جماعة معاوية لأنه كان مع علي ـ إلا لوجهك الكريم، وإني لأرجو أنْ لا تخيبني، وجعلت يده ترتعش على الحربة لأنّ عمره كان يومئذ ثلاثاً وسبعين سنة، فجيء له بلبن فضحك، وقال بعدما شربه: اليوم زخرفت الجنان، وزيّنت الحور الحسان اليوم نلقى الأحبّة محمّداً وحزبه، وقال ﷺ:

---

(١) رواه البخاري برقم: (٤٣٦ ـ ٢٦٥٧)، ومسلم برقم: (٢٩١٦)، وأحمد برقم: (٦٤٩٩)، والترمذي برقم: (٣٨٠٠). ورواه غيرهم.

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «آخر زادك من الدنيا شربة من لبن»[1].

روي أن قاتله هو أبو العالية، وكان أبو العالية قبل ذلك اليوم يقول: سمعت من رسول الله ﷺ: «قاتل عمّار في النّار».

وروي أنّ عمرو بن العاص ﷺ دخل على معاوية وقال له: قُتِل عمّار مذكّراً له بأنه باغٍ في قتاله عليًّا لينزجر، فقال له معاوية ﷺ: دحضت ـ أي: زلقت في بولك ـ أنحن قتلناه؟ إنما قتله الذي أخرجه، وهو عليّ.

وكان أبو العالية مع معاوية، وعمّار مع علي رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة المنوّرة به ﷺ وجد أهلها مِنْ أخبث النّاس كيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[2]، فأحسِنوا الكيل وكانت المدينة مِنْ أوبأ البلاد، وكان إذا أشرف عليها الغريب ينهق نهق الحمار، فلا تضرّه حمّاها، ولما حُمَّت عائشة رضي الله تعالى عنها بها، قال لها رسول الله ﷺ: «ما لي أراكِ هكذا؟» فذكرت له الحمى وسبَّتها، فقال لها ﷺ: «لا تسبي الحُمّى فإنّها مأمورة» وقال لها: «قولي: اللهم ارحم جلدي الرقيق، وعظمي الدقيق من شدة الحريق، يا أم ملدم، إنْ كنت آمنت بالله العظيم، فلا تصدعي الرأس، ولا تنتني الفم، ولا تأكلي اللّحم، ولا تشربي الدم، وتولّي عنّي إلى من اتّخذ مع الله إلهاً آخر»، فقالتهن، فعوفيت.

ولما شكا له ﷺ أصحابه حمّى المدينة نظر إلى السماء، وقال ﷺ: «اللهم حبّب إلينا المدينة كما حبّبت إلينا مكة وأشدّ، اللهم بارك في مُدّها وصاعها، وصححها لنا وانقل حماها إلى مهيعة»[3] فانتقلت حمّاها إلى مهيعة ـ أي: الجحفة ـ فخرّبتها، وكان سكانها يومئذ اليهود، وشكوا له ﷺ سرعة فناء طعامهم، فقال لهم ﷺ: «قوتوا طعامكم يبارك لكم فيه»[4] أي: صغّروا أرغفتها، وفي رواية: «كيلوا طعامكم يبارك

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك برقم: (٥٦٦٨)، والطبراني في الأوسط برقم: (٦٤٧١)، وعبد الرزاق في المصنف برقم: (٢٠٤٢٦)، وقال الحاكم: على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) المطففين: ١.

(٣) رواه مالك في الموطأ من طريق يحيى الليثي برقم: (١٥٨٠)، والبخاري برقم: (١٧٥٠ ـ ٣٧١١ ـ ٥٣٣٠ ـ ٥٣٥١ ـ ٦٠١١)، ومسلم برقم: (١٣٧٦)، وأحمد برقم: (١٥٥٣١ـ ٢٢٨٣ ـ ٢٤٣٣٣). ورواه غيرهم.

(٤) عزاه السهيلي في الروض الأنف إلى البزار من طريق أبي الدرداء، وعزاه الهيتمي في مجمع الزوائد إلى الطبراني. انظر الروض الأنف: (٢٥٨/١)، ومجمع الزوائد: (٤١/٥).

لكم فيه»[1]، ثمّ قال ﷺ: «اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة»[2] «واجعل مع البركة بركتين»[3] وشكوا إليه مرعى الغنم فقال ﷺ: «اللهم اجعل نصف كرائها بمثل ملئها في غيرها من البلاد»، ولما أمطرت السماء جعل الرجل يأتي بالحصا في المسجد الشريف فيبسطه تحته ليصلّي فيه، فقال ﷺ: «ما أحسن هذا البساط»[4].

ولمّا أسلم تميم الداري قدم بقناديل وحبال وزيت، فربط القناديل بسواري المسجد بالحبال وأنارها بالزيت فقال له ﷺ: «نوَّرت مسجدنا نوَّر الله عليك، أما والله لو كان لي ابنة لأنكحتك»[5].

وبنى ﷺ بعد تمام بناء المسجد حجرتين متلاصقتين مجاورتين لبناء المسجد سقفُهما من جذوع النّخل والجريد، ثمّ بعد ذلك بنى بقيّة الحُجُرات التسعة عند الحاجة إليهنّ.

ثمّ في السنة الأولى من الهجرة شاور النبيّ ﷺ عامّة الصّحابة رضي الله تعالى عنهم في علامة يُعرف بها وقت الصّلوات الخمس، فكلّ واحد أشار مشورته، فقالوا: نجعل النّاقوس علامة، فقال ﷺ: إنّه شعار المجوس، فقالوا: نعمل بوقاً، فقال ﷺ: إنّ البوق ـ وهو قرن ـ يدعو فيه اليهود بعضهم بعضاً للصلاة، فقالوا: ننصب راية فلم يعجبه ﷺ أمرٌ من هذه الأمور، فأمر بلالاً أنْ ينادي: الصّلاة جامعة، ثمّ انصرفوا متحيّرين، فنام عبد الله بن زيد ﷺ فرأى في منامه رجلاً بيده ناقوس وعليه ثوبان أخضران قال: فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ فقلت: ندعوا به إلى الصّلاة، فقال: أفلا أدلّك على ما هو خير لك من ذلك؟ فقلت: بلى، قال: تقول: الله أكبر... إلى آخر الأذان، ثمّ تأخّر عني ذلك الرجل غير بعيد ثمّ قال لي: وتقول إذا قمت إلى الصّلاة: الله أكبر... إلى آخر الإقامة.

فلمّا أصبحتُ أتيتُ رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت فقال: «إنها لرؤيا حقّ إنْ

---

(١) رواه ابن ماجه برقم: (٢٢٣١)، وأحمد في المسند برقم: (١٧٢١٦)، وابن حبان في صحيحه برقم:(٤٩١٨). ورواه غيرهم.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم: (١٧٨٦)، ومسلم في صحيحه برقم: (١٣٦٩).

(٣) رواه مسلم في صحيحه برقم: (١٣٧٤)، ورواه الترمذي في سننه برقم: (٣٩١٤)، وأحمد في مسنده برقم: (٩٣٦)، وابن خزيمة في صحيحه برقم: (٢٠٩). ورواه غيرهم.

(٤) رواه البيهقي برقم: (٤١١١).

(٥) لم أجده.

شاء الله تعالى، فقم مع بلال فألقِ عليه ما رأيت، فليؤذّن به، فإنّه أندى - أي: أمدّ - صوتاً منك» ففعلت فأذّن بلال، فسمع عمر بن الخطاب وهو في بيته فخرج يجرُّ ردائه عَجِلاً فقال: والذي بعثك بالحقّ يا رسول الله، لقد رأيت مثل ما رأى عبد الله، فقال النبيّ ﷺ: «فله الحمد»[1] فصار بلال يؤذّن للصلوات الخمس، وفي غيرها يقول: الصّلاة جامعة.

ولمّا أذّن ذات يوم بلال لصلاة الصّبح، وثقل النوم على النبيّ ﷺ زاد بلال الصّلاة خير من النّوم مرتين، فأقرّها النبيّ ﷺ[2].

ثمّ إنّ اليهود أبغضتِ النبيّ ﷺ وقالت: إنّه منذ دخل المدينة غلتِ الأسعار ونقصتِ الثمار، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾[3].

وسَحَر لبيدُ بنُ الأعصم اليهودي النبيّ ﷺ في مشط وشعر، ومثّلَهُ ﷺ في عجين، وغرز فيه إبراً، وجعل فيه وَتَراً عقد فيه إحدى عشرة عقدة، ودفن ذلك تحت راغوفة - أي: حجر - في بئر ذروان، فمكث ﷺ ضعيفَ القلب والبدن، وربما يخيّل إليه أنه فعل الأمر ولم يفعله، فنام ﷺ مرّة فرأى في منامه أنّ جبريل وميكائيل يعودانه، فقال أحدهما للآخر: ما شأن الرجل؟ قال الآخر: مطبوب - أي: مسحور - قال: ومن طَبّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، وذكر ما وقع كلّه، وقال: إنّ شفاءَهُ أنْ يُخْرج السِّحر من مكانه، وتُنْزع الإبر، وتُحَل العقد، ويقرأ المعوِّذتين إحدى عشرة مرة، كلّ مرة على عقدة تحلّها، أو عند حلِّها، فلمّا استيقظ ﷺ بعث عليّاً وعمّار بن ياسر فاستخرجا السِّحر وكان في جفنة - أي: قحف - نخلة، فكان ﷺ كلّما أخرج إبرة يُحِسُّ بخروج ألم من بدنه الشريف كالشوكة عند خروجها، وقرأ ﷺ المعوِّذتين، فكان كلّما قرأ آية انحلّت عقدة، فذهب عنه ﷺ ما كان يجد.

- ولقد سحر لبيد النبيّ ﷺ مرّة أخرى في قبر، وكان أخذ جُعلاً على سحره من اليهود في المرّتين، من يهود خيبر مرّة، ومن يهود المدينة مرّة أخرى، وقالوا له:

---

(١) رواه أبو دواد في سننه برقم: (٤٩٩)، وابن ماجه في سننه برقم: (٧٠٦)، وأحمد في مسنده برقم: (١٦٥٢٥)، والدارمي في سننه برقم: (١١٨٧). ورواه غيرهم.

(٢) رواه أبو داود في سننه برقم: (٥٠٠)، والنسائي في سننه برقم: (٦٣٣) عن أبي محذورة، ورواه ابن ماجه في سننه برقم: (٧٠٧) عن ابن عمر، وفي الباب رواية أخرى عن بلال برقم: (٧١٥) وأخرى عنه أيضاً برقم: (٧١٦)، ورواه الدارمي في سننه برقم: (١١٩٢) ورواه غيرهم.

(٣) النساء: ٧٨.

أعيانا أمر محمّد ﷺ وسحرناه، فلم يؤثّر فيه سحرنا، فسَحَره كما مرّ ـ.

ولما ظهر سحره أرسل ﷺ إلى لبيد فاعترف به، فأرادت الصّحابة قتله فعفا عنه رسول الله ﷺ قائلاً: «أما أنا فقد عافاني الله تعالى»[1].

وسأل اليهودُ النبيّ ﷺ عن ذي القرنين فنزل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾[2] الآيات. وسألوه عن فتية ممن كان لهم نبأ عظيم في الزمن السابق فنزل: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا﴾[3] الآيات.

وسألوه عن الروح فنزل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾[4] الآية، وسألوه عن الساعة فنزل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾[5] الآية.

وسأله يهوديان عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾[6] ما هي؟، فقال ﷺ لهما: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النّفس التي حرّم الله إلا بالحقّ، ولا تسرقوا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان، ولا تأكلوا الرّبا، ولا تقذفوا محصنة، وعليكم يا يهود خاصّة أن لا تعتدوا في السّبت» فقبّلا يديه ورجليه ﷺ وقالا: نشهد إنّك نبيّ، فقال: «ما يمنعكما أنْ تسلما»، فقالا: نخاف إنْ أسلمنا أنْ تقتلنا اليهود[7].

وسأله حبران من أحبار الشّام قدما المدينة فقالا: ما أشبه هذه البلدة ببلدة نبي آخر الزمان، فسمعهما المسلمون فأخبروهما بأنّه قد بعث محمّد، فأتياه فقالا: يا محمّد، نسألك عن أعظم شهادة شهد الله بها في كتبه لنفسه، فنزل: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٣٠٩٥ ـ ٢١٧٤)، ومسلم برقم: (٢١٨٩)، وابن ماجه في سننه برقم: (٣٥٤٥) كلهم عن عائشة رضي الله عنها. ورواه غيرهم.

(٢) الكهف: ٨٣.

(٣) الكهف: ٩.

(٤) الإسراء: ٨٥.

(٥) الأعراف: ١٨٧.

(٦) الإسراء: ١٠١.

(٧) رواه الترمذي في سننه برقم: (٣١٤٤) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، ورواه أحمد في المسند برقم: (١٨١١٧)، والمستدرك برقم: (٢٠) وقال: صحيح لا نعرف له علة، ووافقه الذهبي، ورواه الطبراني في الكبير برقم: (٧٣٩٦). ورواه غيرهم.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾[1] فتلاها ﷺ عليهما فآمنا[2].

وعن قتادة ﷺ، أنّ رهطاً من اليهود قالوا: يا محمّد، هذا الذي خلق الجنّ والإنس مَنْ خَلَقَه؟، وفي رواية: أُنْسب لنا ربّك[3]، وفي لفظ: خلق الله الملائكة من نور الحجاب، وآدم من حمأ مسنون، وإبليس من لهب النار، والسّماء من دخان، والأرض من زبد الماء، فأخبرنا عن ربك من أيّ شيء خُلِق، فغضِبَ ﷺ حتّى انتقع لونه، فنزلت سورة الإخلاص.

وقال عبد الله بن سلام: لما قدم ﷺ المدينة رأيت النّاس تسرع إليه فكنت فيمن أتى إليه، فلمّا رأيت وجه رسول الله ﷺ عرفتُ أنه ليس بوجه كذاب. فهو كما قال الشاعر:

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... لكان منظره ينبيك بالخبر[4]

قال عبد الله: فسمعته ﷺ يقول: «أيها الناس أفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وأطعموا الطعام، وصلّوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنّة بسلام»، فقلت: أشهد أنك رسول الله حقًّا، وأنّك جئت بالحقّ، ثمّ تقدّمتُ، وقلت: يا رسول الله، إنّي سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبيّ: ما أول أشراط السّاعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنّة؟ وما بال الولد تارة يشبه أمه وتارة يشبه أباه؟.

فقال له رسول الله ﷺ: «أخبرني بهنّ جبريل آنفاً»، قال ابن سلام: ذاك عدوّ اليهود من الملائكة، فقال ﷺ: «أما أشراط الساعة: فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد الحوت، وأما الولد: فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى الرّجل وإذا سبق ماء المرأة ماء الرّجل نزع الولد إلى المرأة» فقال: أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنّك رسول الله، ثمّ رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم بالإسلام فأسلموا، وكتمتُ إسلامي عن اليهود، ثمّ جئته ﷺ وقلت له: يا رسول الله، قد عَلِمَتِ اليهود أنّيَ سيّدهم وابن سيّدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فاحبسني يا رسول الله عندك قبل أنْ يدخلوا عليك، ثمّ ادعهم فاسألهم عنّي قبل أنْ يعلموا أنّيَ أسلمت فإنّهم قوم بُهْت يواجهون الإنسان بالباطل، وإنْ يعلموا بإسلامي

---

(١) آل عمران: ١٨ ـ ١٩.

(٢) انظر تفسير القرطبي: (٤/٤٤)، وتفسير البغوي: (١//١٨)، وروح المعاني للآلوسي: (٣/١٠٤).

(٣) رواه البيهقي في الشعب برقم: (٢٥٥٢).

(٤) البيت من البحر البسيط، وأجزاءه: مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن.

يقولون فيَّ ما ليس فيّ، فاستتر عبد الله، وأرسل النبيّ ﷺ إلى اليهود فلمّا حضروا قال لهم رسول الله: «ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنّكم لتعلمون أنّي رسول الله حقًّا، وأنّي جئتكم بحقّ، أسلموا»، قالوا: ما نعلم، فقال ﷺ: «فأيُّ رجل فيكم عبد الله بن سلام؟»، قالوا: سيّدنا وابن سيّدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: أفرأيتم إنْ شهد أنّي رسول الله؟ فقالوا: نعيذه بالله من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «اخرج يا عبد الله بن سلام» فخرج، فقال له: «أتعلم أنّي رسول الله، تجدني عندكم مكتوباً في التوراة والإنجيل، وقد أخذ الله عليكم ميثاقكم أن تؤمنوا بي، وأن يتّبعني من أدركني منكم؟» فقال ابن سلام: نعم، ثمّ قال: يا معشر اليهود، ويلكم اتقوا الله، والله الذي لا إله إلا هو، إنّكم لتعلمون أنه رسول الله حقًّا وأنّه جاء بالحق، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة اسمه وصفته، فقالوا: كذبتَ أنت شرّنا وابن شرّنا[1]، فقال عبد الله بن سلام: هذا الذي كنتُ أخاف يا رسول الله، فأخرجهم النبيّ ﷺ، وأظهر إسلامه عبد الله بن سلام.

وقد آمن به ﷺ حبر من اليهود آخر غير عبد الله بن سلام، وكان اسم ذلك الحبر ميمون بن يامين، فقال: يا رسول الله، ابعث إليهم، واجعلني في مكان عندك، فأدخله ﷺ مكاناً، وأرسل إليهم، فلمّا حضروا قال ﷺ لهم: اختاروا رجلاً يكون حكماً بيني وبينكم، فقالوا: رضينا ميمون بن يامين، فخرج إليهم فقال: أشهد أنّه رسول الله حقّاً[2].

كما سأل اليهودُ النبيّ ﷺ عن سواد القمر[3]، فأجابهم بأنّه كان مضيئاً كالشّمس، فمُسِح ضوءه حتى صار على هذه الحال، كما قال تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[4].

وسألوه عن مُحْصنٍ زنى بمحصنة، فقال ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرّجم؟» فقالوا: نفضحهم ويجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم، وأمرهم بإحضار التوراة فأحضروها، وقرؤوا ما قبل آية الرجم وما بعدها، وتركوا قراءة آية الرّجم،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٣١٥١)، وأحمد في المسند برقم: (١٢٩٩٤)، وابن أبي شيبة في المصنف برقم: (٣٥٩٨٧)، والنسائي في السنن برقم: (٨٢٥٤).

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى عبد بن حميد عن سعيد بن جبير. انظر الدر: (٧/٤٣٩ ـ ٤٤٠).

(٣) انظر الدرّ المنثور: (٥/٢٤٧).

(٤) الإسراء: ١٢.

فحضر عبد الله بن سلام فقال: يا رسول الله، قد تجاوز آية الرّجم، وها هي تحت يده، قد وضع يده عليها ثمّ قرأها[1].

وكان قبل مجيئه ﷺ المدينة قد مات أميرُها فاتّفق رأيهم على جعل عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول أميراً لهم عليها، وكانت الأنصار من آل قحطان، ولا يتوَّج من العرب إلا قحطان، وكان عَهِد إليهم كلّ أمير توّجوه أنْ يجعلوا له خرزة من خرز تاج قحطان ليكون كالنائب عنهم في ولاية قومه العرب، وكان لم يبق من الخرز إلا خرزة واحدة فنظموها في تاج ليتوّجوا به عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول، فبغتتهم هجرة النبيّ ﷺ فانصرف رأي الأنصار إلى الإسلام وإلى متابعة النبيّ ﷺ، ولم يلتفتوا بعد ذلك لعبد الله بن أبي ابن سلول، ولا لتتويجه ولا لتأميره، فاغتاظ ابن سلول من أجل ذلك، وأضمر الحقد والعداوة والنّفاق، لأنه رأى أنْ النبيّ ﷺ قد سلبه ملكاً عظيماً، مع أنّ قحطان أعلم بأنّ آخر ملوك العرب صاحب الخرزة الأخيرة، فكان ذلك الآخر هو ﷺ لا عبد الله بن أبي ابن سلول، كما ظنّ، فلمّا وجد الأمر كما شاهده ما أمكنه إلا أنْ يدخل في الإسلام كُرْهاً، وصار يسعى في النّفاق باطناً، إلى أنْ صار المتابعون له في النّفاق من أهله ثلاثمئة ما بين ذكر وأنثى، وقيل: من غير النّساء المنافقات، ومات عبد الله بن أبي ابن سلول على نفاقه، وبعض رفقائه في النّفاق مات على نفاقه أيضاً، وبعضهم مات على الإسلام.

معجزات النبيّ ﷺ

وكم آية في الغار بين حمائم ... تبيض ونسج العنكبوت الضعيفة

مسحت على شاةٍ لدى أمِ مَعْبَد ... بجُهدٍ فألْفَتْها أدرَّ حَلُوبَةِ

ألم يأتِ سعياً لاستراقٍ سراقةٌ ... فساخَ جوادٌ في الجماد وزلَّتِ

بذا شعرت في الحال كفار مكة ... وقد سمعوا شِعراً بإنشادِ جنَّة

وألقى عليكَ اللهُ حفظاً ومَنْعةً ... فلم تخشَ من كيدٍ وأخذٍ بغَيْلَة

إلى أن أتى من طَيبةٍ طَيّب الثنا ... وصرت بحمد الله في دار هجرة

نزلتَ على قومٍ بأيمن طائرٍ ... لأنك ميمونُ السَّنا والنَّقيبة

فيا لبني النّجارِ من شرفٍ به ... يَجُرُّونَ أذيالَ المعالي الشريفة

[1] رواه البخاري برقم: (٣٤٣٦)، ورواه مسلم برقم: (١٦٩٩). ورواه غيرهم.

حاصله : أنك يا رسول الله لما كنتَ في غار ثور مستخفياً من كفّار مكة عند خروجك منها مهاجراً للمدينة، كثير من الآيات.والكرامات والمعجزات الدالَّة على نبوَّتك حصلت ووقعت لك في الغار فما بعده.

ففي الغار ما تقدم من بيض الحمام بفم الغار بعد تعشيشها، وبقائها ومن نسج العنكبوت، تلك الحشرة الضعيفة، كما مَرَّ مفصَّلاً.

وفيما بعد الغار ما تقدم من مسحك الشاة التي لأمّ معبد مع كونها متلبسة بجهد ـ أي: جوع ـ فلمّا مسحت عليها أَلْفَتْها ـ أي: وجدتها ـ أدرّ ـ أكثر درًّا ـ من كل شاة حلوبة ـ يحلب منها بكثرة.

ثمّ قال: ألم يأت سعياً ـ أي: أقْرِرْ ـ أيّها العاقل بما تعرفه من كون سراقة أقبل على النبيّ ﷺ يسعى سعياً ويسرع إسراعاً.

وكان مقصده في ذلك أن يظفر بالنبيّ ﷺ وبسيدنا أبي بكر الصّديق ﷺ، فلما اقترب منهما ساخت ـ أي: غاصت ـ قوائم جواده في الرمل، وذلّت فرسه أو قوائم فرسه ـ أي: عجزت عن الخروج ـ حتى دعا له النبيّ ﷺ كما مرَّ.

ثمّ قال: (بذا شعرت) أي: قد شعرت كفارُ مكة بهذا الحال الواقع مع أم معبد من شعر الجن السابق ومع سراقة باعترافه لهم كما مرَّ.

وقد ألقى الله عليك يا رسول الله حفظاً ومنعة، حُفظت بهما من كفّار مكة وغيرهم زمن الهجرة وقبلها وبعدها الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1] فصرت يا رسول الله لا تخشى من كيدٍ وأخذ بغِيْلة ـ خديعة أو خيفة ـ فدام لك الحفظ إلى أن أُتى من طيبة ـ المدينة المشرفة طابت بالإيمان وبأهله ـ طيبُ الشذا، فأتاك منها طيب الشذا ـ أي: المسك، والمراد روائح الإيمان الذي حصل في قلوب الأنصار ـ فقاموا بنصرتك وقابلوك بالتكرمة وتلقوك قبل قدومك، وكانوا معك إلى أن صرت بحمد الله في دار الهجرة المدينة المشرفة، فنزلت يا رسول الله على قوم هم الأنصار أو خصوص أخوالك بني النّجار، وعلى رأسهم أبي أيوب الأنصاري كما مرَّ.

فكنت بنزولك عليهم يُمْناً وبركة عليهم كأيمن طائر ـ أي: حصل لهم خير كالخير الحاصل لهم لو تفائلوا بالطير يطير الميمنة ـ فاستبشروا بأبرك فألٍ لهم من ذلك.

---

(١) المائدة: ٦٧.

وذلك لأنك يا رسول الله ميمون السنا والنقيبة ـ أي: الرِّفعة ـ فإذا كان الأمر كذلك، فأقول: يا لبني النّجار ـ أي: فيا عجبي لهم ـ وكان تعجبي من كثرة وعظيم شرفٍ حصل لهم بقدومه ﷺ عليهم، فصاروا يجرون أذيال المعالي الشريفة ـ أي: فلقد لبسوا أثواب المعالي الشريفة، أي: اتصفوا بالصّفات التي تُعلي مرتبتهم وتعظم شأنهم ـ وكأنّ المعالي زادت عليهم حتى شرفت بها ذريتهم إلى قيام الساعة، كالثياب الزائدة عن لابسها حتى جرت على الأرض[1].

وفي يوم بدرٍ كنت بَدراً بنوره تسير المنايا للنفوس الشقيَّة

حاصله: لقد كنت يا رسول الله في يوم وَقْعة بدر المشهورة بدراً، أي: شبيهاً بالبدر: وهو القمر ليلة الأربعة عشر في كونك عال المقام ساطع النور، لِما ورد أنّ وجهه الشريف كان إذا سُرَّ ﷺ يتلألأ كتلألؤ البدر، وهذا في الظاهر، وإلا فهو ﷺ لا يعلوه شيء، لا جمال ولا علو ولا شرف.

وكان من جملة معجزاتك يا رسول الله في ذلك اليوم حصول النصر لك وهلاك أعداءك وظفرك بهم، فقد كانت تسير المنايا وتقبل لإزهاق النفوس والأرواح الشقيَّة بعدم إيمانها بك يا رسول الله.

وحاصل الأمر: أنّ المهاجرين لما هاجروا لنُصْرة الدين اغتاظت كفار مكة منهم، واستولوا على أملاكهم ومنعوهم الأخذ منها، ولم تتيسر لهم المكاسب حال غربتهم لتولّعهم في الدين، وحينئذ أباح الله لهم غزو المشركين وأخذ أموالهم بأيِّ وجه كان ليستعينوا بها على إقامة الدين، فأعلم ﷺ المسلمين بذلك فسُرُّوا بذلك أجمعون.

وصار ﷺ يخرج معهم لذلك تارة، ويسمى خروجهم مع خروجه ﷺ غزوة، وتارة يأمرهم بالخروج ولا يخرج معهم، ويسمى الخارجون حينئذ سريَّة، وفي كلا الحالتين تارة يقع حرب، وتارة لا يقع، وأقلّ السرية خمسة أنفس، وأكثرها أربعمائة، فإنْ زاد إلى ثمانمئة قيل له: منسر، فإن زاد إلى أربعة آلاف قيل له: جيش، فإنْ زاد إلى خمسة آلاف قيل له: خميس، لأنّ له أربعة أركان وقلب، فهو خمسة أقسام، فإنْ زاد على خمسة آلاف إلى اثنا عشر ألفاً قيل له: جحفل.

(١) قال الجلال المحلّي في شرحه على التائية (وهو مخطوط لم يطبع): تزوج هاشم بن عبد الله بن عبد مناف سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار، فولدت له عبد المطلب جد النبيّ ﷺ فهذا هو النّسب الذي عناه الناظم بقوله: فيا لبني النجار من شرف به.

وعدد بعوثه وسراياه وغزواته ﷺ تزيد على السبعين، وكان ﷺ إذا أمَّر أميراً على سرية أوصاه خاصة بتقوى الله تعالى وبمن معه من المسلمين خيراً، ثمّ يقول له: «اغز بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من يكفر بالله، اغزوا ولا تغلوا وتغدروا، ولا تمثّلوا ولا تقتلوا وليداً ولا شيخاً فانياً ولا امرأة»[1].

فأوّل غزواته ﷺ غزوة ودَّان، خرج ﷺ لاثني عشرة ليلة خلت من صفر في السنة الثانية من الهجرة، وقيل في الأول غازياً في سبعين رجلاً من أصحابه المهاجرين خاصة يتعرَّض عير قريش، واستعمل ﷺ على المدينة سعد بن عبادة ﷺ، وكان لواؤه ﷺ أبيض مع عمِّه حمزة ﷺ حتى بلغ ودّان فوجد العير مضت، ولما بلغ الأبواء وجد سيد بني ضمرة، واسمه: مجدي بن عمرو الضَمْري مع جماعة من بني ضمرة، فصالحه ﷺ، وكتب لهم كتاباً بعد طلبهم لذلك وصورته:

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب محمد رسول الله لبني ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصر على من رامهم ـ أي: قصدهم ـ إلا أنْ يحابوا في دين الله ما بل بحر صوفة وأن النبيّ ﷺ إذا دعاهم لنصرته أجابوه عليهم بذلك ذمة الله تعالى وذمَّة رسوله ﷺ»[2] أي: أمانهما. اهـ.

وكانت غيبته ﷺ خمس عشرة ليلة، ثمّ إنّ وَدّان ـ بفتح الواو وتشديد الدال ـ قرية كبيرة بينها وبين الأبواء ستة أميال أو ثمانية، والأبواء قرية بين مكة والمدينة.

سرية حمزة بن عبد المطلب ﷺ

بعث رسول الله ﷺ حمزة ﷺ في ثلاثين رجلاً من المهاجرين في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة، وعقد له لواءً أبيض، وهو أوّل لواء عقد في الإسلام، حمله أبو مرشد حليف حمزة، وذلك ليعترض عير قريش لما جاءت من الشام تريد مكة وفيها أبو جهل وثلاثمئة رجل، فسار حمزة ﷺ إلى أنْ وصل سِيف البحر ـ أي: ساحله ـ من ناحية العيص من أرض جهينة، فصادف العير هناك، فلما تصافَّا للقتال حجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني، وكان حليفاً للفريقين فأطاعوه وانصرفوا ولم يقع بينهم قتال، ولما عاد حمزة إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر، قال

---

(١) رواه أحمد في المسند برقم: (١٨١٢٢ ـ ٢٣٠٨٠)، والدارمي في سننه برقم: (٢٤٣٩)، والطبراني في الأوسط برقم: (١٤٣١). ورواه غيرهم.

(٢) انظر الروض الأنف: (١/ ٢٦٢).

رسول الله ﷺ في مجدي: «إنه ميمون النقيبة، مبارك النفس، مبارك الأمر سعيد الأمر» أي: أموره ناجحة، ومع ذلك لم يتفق له إسلام.

سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب رضي الله عنه

وهو ابن عمه ﷺ كانت على رأس ثمانية أشهر من الهجرة بعثه ﷺ مع ستين راكباً أو ثمانين من المهاجرين منهم سعد بن أبي وقاص، وعقد له لواء أبيض، حمله مسطح بن أثاثة ليعترض عير قريش، وكان رئيسهم أبا سفيان وقيل: عكرمة بن أبي جهل في مئتي رجل، فوافوا العير في بطن رابغ[1]، فلم يكن منهم إلا المناوشة برمي السِّهام ولم يسلوا السيوف ولم يصطفوا للقتال، وكان أول من رمى من المسلمين سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فكان سهمه أول سهم رمي به في الإسلام، كما أنّ سيف الزبير بن العوام أول سيف سلّ في الإسلام، ثمّ انهزم المشركون لظنّهم أنّ للمسليمن مدداً ولم يتبعهم المسلمون لكثرتهم مع خوف المدد لهم أيضاً، وفرَّ من المشركين المقدادُ بن الأسود وعُيَيْنةُ بن غزوان لأنهما كانا مسلمين خرجا مع المشركين ليتوصلا بهم إلى المسلمين.

سرية سعد بن أبي وقاص إلى الخرار

بفتح الخاء المعجمة ورائين مهملتين، بعثه رسول الله ﷺ على رأس تسعة أشهر من الهجرة مع عشرين من المهاجرين وقيل: ثمانية، وعقد له لواء أبيض، حمله المقداد بن الأسود، وقد عهد ﷺ إليه أن لا يجاور الخرار، وهو واد يتوصل منه إلى الجحفة، وكانت السرية لتتعرض عير قريش إذا مرت بهم، فخرجوا يمشون على أقدامهم يكمنون النهار ويسيرون الليل حتى صبّحوا المكان المذكور في صبح خميس فوجدوا العير قد مرَّت بالأمس فرجعوا إلى المدينة.

سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه إلى بطن نخلة

لما صلّى رسول الله ﷺ العشاء الأخيرة قال لعبد الله بن جحش: «وافِني الصّبحَ معك سلاحُك أبعثك وجهاً» فوافاه الصّبح ومعه قوسه وجعبتُه ودرقته، فلمّا انصرف رسول الله ﷺ من صلاة الصّبح وجده واقفاً عند بابه، فدعا رسول الله أبيَّ بن كعب

---

(١) رابغ: هي بلدة حجازية ساحلية بين جدة وينبع، على مسافة (١٥٠) كيلاً شمال جدة، وعلى بعد (١٩٥) كيلاً جنوب ينبع. انظر المعالم الأثيرة: (١٢٣).

فدخل عليه فأمره أنْ يكتب كتاباً، ثمّ دعا عبد الله بن جحش ودفع إليه الكتاب، وقال له: «قد استعملتك على هؤلاء النفر» وسماه رسول الله أمير المؤمنين، فهو أول من تسمى بذلك في الإسلام، ثمّ عمر بن الخطاب ﷺ، لكن الأول أمير من معه خاصّة، والثاني إمارته عامّة، وسماه المسلمون بذلك.

وكان النفر الذي تأمّر عليهم ثمانية وقيل: اثنا عشر من المهاجرين يتعقّب كل اثنين بعيراً، ومنهم واقد بن عبد الله، وعكاشة بن محصن، ودفع رسول الله ﷺ الكتاب لعبد الله بن جحش وأمره أنْ لا ينظر فيه حتى يسير يومين ولا يُكرِه أحداً من أصحابه على السير معه، وعقد له راية فلمّا سار عبد الله يومين فتح الكتاب فإذا فيه إذا نظرتَ في كتابي هذا فسِرْ حتى تنزل نخلة مكان بين مكة والطائف فترْصد عيرَ قريش وتعلم لنا أخبارهم، فلمّا قرأه على أصحابه قالوا: نحن سامعون ومطيعون لله ولرسوله ولك، ولم يتخلَّف منهم أحد فساروا حتى إذا كانوا بموضع يقال له: بحران أضلَّ سعدُ بن أبي وقاص وعُيينة زميلُه بعيرَهما فتخلّفا في طلبه، فمضى عبد الله ومن عداه حتى نزلوا نخلة فمرت عيرُ قريش وأدُماً ـ أي: جلوداً ـ من الطائف وأمتعة للتجارة، ومع تلك العير عمرو بن الحضرمي وعثمانُ بن المغيرة وأخوه نوفل والحكمُ بن كيسان، فنزلوا قريباً من عبد الله بن جحش، فلما رأوا رأسه محلوقاً قال القوم: إنهم عُمَّار لا بأس عليكم منهم.

وكان ذلك أخر يوم من جمادى الثانية، وخافوا أنْ يكون أول رجب، وهو من الأشهر الحرم، فيحرم القتال فيه ثمّ تشجعوا ورجع رأيهم على قتل مَنْ لم يقدروا على أسره وأخْذِ ما معهم، فأغاروا عليهم وقتلوا عمرو بن الحضرمي، رماه واقدُ بن عبد الله بسهم فهو أول قتيل قتله المسلمون، وأسَرُوا عثمان والحكم، فهما أول أسيرين أسرهما المسلمون، وأفلت باقي القوم، وجاء الخبر لأهل مكة بعد أن دخل شهر رجب، فلم يمكنهم الطلب في الأشهر الحرم، واستاق عبد الله وأصحابه العيرَ حتى قدموا على رسول الله ﷺ، فهي أول غنيمة غنمها المسلمون، وكانوا بعد القتال والغُنم مساء ذلك اليوم قد رأوا الهلال كبيراً، فندموا على ما فعلوه لئلا يكون فعلُهم في الشهر الحرام، فلمّا أخبروه ﷺ بذلك قال لهم: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام» وأبى أنْ يتسلّم العير، فندموا على ما فعلوا، وعَنَّفهم إخوانهم من المسلمين، وصارت قريش تقول: قد استحلَّ محمد وأصحابه الشهر الحرام ـ يعني: مع أنّ حرمة القتال فيه معلومة

لهم من شرع إبراهيم ـ وسفكوا الدماء فيه، وأخذوا الأموال، وأسروا فيه الرجال، وصارت قريش تعيِّر بذلك المسلمين بمكة، وكتبوا للنبيّ ﷺ: أيحلّ ما ذكر؟ ـ سؤال تشنيع منهم عليه ﷺ ـ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[1] فكبيرٌ: خبرُ قتال، أي: إثمه عظيم، لكنّه قد نسخ التحريم بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[2] أي: في أيِّ وقت من الأوقات، الأشهر الحرم أو غيرها، وفي أيّ مكان حرصاً وغيرة.

لكن هذا الثاني ﴿إن قاتلوكم﴾ فيما عدا غزوة الفتح، وإلا فالقتال وقتها أُحِلَّ له ﷺ، ﴿وصدٌّ﴾: أي منعٌ ﴿عن سبيل الله﴾ أي: عن الدخول في الإيمان الموصل لمرضاة الله تعالى، ﴿وكفرٌ به﴾: أي: بالله، معطوف على صدّ، ﴿والمسجد الحرام﴾ معطوف على سبيل الله، أي: وصدّ ومنع للمسلمين من مكة، ﴿وإخراج﴾: مبتدأ، ﴿أهله﴾: أي: المسجد الحرام منه، وهم النبيّ ﷺ وأصحابه، خبرُه: ﴿أكبرُ عند الله﴾، أي: أعظم وِزْراً، ﴿والفتنة﴾: مبتدأ، أي: فتنتكم وكفركم، والأُولى وفتنتكم المؤمنين، أي: تعذيبهم على الإسلام ليعودوا إلى الكفر، ﴿أكبر﴾: أي: أعظم إثماً عند الله ﴿من القتل﴾، وهو الخبر، أي: مِنْ قَتْل المسلمين لكم في الأشهر الحرم.

فاستُفيد من الآية: أنه لا إثمّ على عبد الله بن جحش وأصحابه في قتالهم الكفّار وقتلهم لهم في الأشهر الحرم، حيث لم يعنِّفهم الله تعالى على ما فعلوا، بل رَدَّ على من عَيَّرهم بذلك.

وعدمُ الإثم: إما لكون قتالهم كان في آخر يوم من جُمادى الثانية، وكِبَرُ الهلالِ لا يدلُّ على كونه ابن ليلتين، وهذا الجواب هو الموافق للواقع، وإما لعدم علمهم بأنه من رجب، فهم مخطئون، وقد رُفع الخطأ عن هذه الأمة، وإمّا لأنّ هذه الآية ناسخة لحرمة القتال في الأشهر الحرم بدليل عدم التعنيف عليهم، ويكون معنى قوله تعالى ﴿كبير﴾: أي كبير إثمه في زعم المشركين، أو باعتبار ما كان، أمّا الآن، فلا حرج على المسلمين بدليل عدم التعنيف.

---

(١) البقرة: ٢١٧.

(٢) التوبة: ٥.

فلمّا نزلت الآية تسلَّم رسول الله ﷺ العِيرَ والأسيرين، وطمع عبد الله بن جحش وأصحابه في حصول الأجر فسألوه ﷺ عنه فنزل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] ثمّ قسَّم ﷺ تلك العير وخمَّسها، وجعل أربعة أخماسها للغانمين، وبعثت قريش في عثمان والحكم، فما قبل ﷺ الفداء منهم حتى قدم سعدُ بن أبي وقاص وزميلُه عيينةُ بن غزوان لما تخلَّفا في طلب البعير الشارد منهما مخافة أن تكون قريش ظفرت بهما، فلما قدما أخذ ﷺ فداء كلّ واحد من الأسيرين أربعين أوقية، وضمها للغنيمة وأفلتهما فأما الحكم فأسلم وحَسُنَ إسلامه وأقام بالمدينة حتى قتل يوم معونة شهيداً، وأما عثمان فرجع إلى مكة حتى مات على كفره.

غزوة بواط[2]

خرج رسول الله ﷺ في مئتين من أصحابه من المهاجرين خاصة في ربيع الآخر من السنة الثانية الهجرة، وحمل اللواء وكان أبيض سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه واستعمل ﷺ على المدينة سعد بن معاذ وقيل: غيره، ثمّ سار مع أصحابه حتى بلغ بواط ـ بضم الباء وتخفيف الواو والطاء المهملة ـ قاصداً عير قريش وقد كان فيها أمية بن خلف ومئة رجل من قريش وألفان وخمسمئة بعير، فوجد العير قد سبقته فرجع ﷺ ولم يلق كسباً.

غزوة العشيرة

(وبها بدأ البخاري رحمه الله تعالى)

ثمّ غزا رسول الله ﷺ في خمسين ومائة، وقيل: في مئتين من المهاجرين خاصّة خرجوا يستعقبون ثلاثين بعيراً واستخلف ﷺ على المدينة أبا سلمة بن عبد الله الأسدي، وحمل اللواء ـ وكان أبيض ـ عمُّه ﷺ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وذلك في جمادى الأولى والآخرة من تلك السنة على كلام البخاري، أما على ما قال غيره ففي شهر ربيع الآخر، يريد ﷺ عير قريش متوجّهة إلى الشام، فقد جمعت فيها قريش جميع أموالها، فكان فيها ألف بعير وخمسون ألف دينار، وكان قائدها أبو سفيان،

---

(١) البقرة: ٢١٨.

(٢) بواط: واد بأرض الحجاز ناحية جبل رضوى: الذي هو من جبال ينبع ومساكن جهينة، ويقع على يمين المصعد إلى مكة من المدينة.

وكان معه دون الأربعين رجلاً، فسار ﷺ بأصحابه المذكورين حتى بلغ العشيرة بالعين المهملة والشين المعجمة والتصغير، موضع ببطن الينبع منزل الحاج المصري ـ فوجد العير قد مضت قبل ذلك بأيام، فرجع ﷺ بلا حرب، وعند رجوعها من الشام لمكة حصل في طلبها غزوة بدر الكبرى الآتية، وفي هذه الغزوة ـ أعني غزوة العُشَيْرة ـ وادع ﷺ بني مدلج، وكتب بينه وبينهم كتاباً كما كتب لبني ضمرة في غزوة وَدَّان التي تقدّمت، وكنّى ﷺ في هذه الغزوة علياً كرَّم الله وجهه بأبي تراب حين وجده نائماً هو وعمّار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما، وقد عَلِق به التراب، فأيقظه ﷺ برجله الشريفة، وقال له: «قم أبا تراب» لما رأى التراب الذي سفته الريح عليه، ولما قام صار ﷺ ينفض التراب عنه ويقول: «أشقى الناس أجمعين عاقر الناقة والذي يضربك على هذا ـ ووضع ﷺ يده الشريفة على قرن رأسه ـ فيخضب هذه ـ ووضع ﷺ يده الشريفة على لحيته الشريفة»[1] فكان كما قال، وعُدّ معجزة له ﷺ.

غزوة سفوان ويقال لها غزوة بدر الأولى

فحين قدم ﷺ من غزوة العشيرة لم يقم بالمدينة الشريفة إلا ليالي نحو العشرة حتى خرج ﷺ خلف كُرْز بن جابر الفهري، وقد أغار قبل إسلامه على سرح المدينة ونَعَمها، فلمّا وصلوا وادي سفوان في ناحية وجدوا كُرْزاً سبقهم، ولم يدركوه، وكان ﷺ استعمل على المدينة زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهما، وحمل اللواء وكان أبيض علي بن أبي طالب ﷺ، فرجع ﷺ ولم يلق حرباً.

غزوة بدر الكبرى

التي هي مراد الناظم والمرادةُ في القرآن الكريم وغيره عند الإطلاق، وبدر: موضع بين مكة والمدينة في منتصف طريقيهما تقريباً، وقيل: اسم كان لرجل يقال له: بدر من قبيلة جهينة، وكانت غزوة بدر هذه يوم السابع عشر من شهر رمضان يوم الجمعة لثمانية عشر شهراً من الهجرة.

وسببها: أنه ﷺ لما سمع برجوع العير التي كان قَصَدَها ﷺ في غزوة العُشَيْرَة ـ المتقدمة قبل هذه ـ من الشام فندب المسلمين ودعاهم إليها وقال: «هذه عير قريش

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك برقم: (٤٥٩٠) وصححه، ورواه أبو يعلى الموصلي في مسنده برقم: (٤٨٥)، لكن بغير هذا بغير هذا السياق، والبزار في مسنده برقم: (١٤٢٤). ورواه غيرهم.

فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله تعالى ينفلكموها» فأجابه ﷺ ناس طائعين له ﷺ، وثَقُل آخرون فلم يجيبوا لظنّهم أنّ رسول الله ﷺ لم يلق فيها حرباً، ولم يحتفل ﷺ بها بل قال: «من كان ظهره ـ أي: ما يركبه ـ حاضراً، فليركب معنا» ولم ينتظر من كان ظهره غائباً، وكان قائد عير قريش أبا سفيان كما تقدم، فلمّا قرب من أرض الحجاز صار يتجسس أخبار المسلمين مخافة عليها، فأُخْبِرَ بأنّ المسلمين همُّوا بالخروج للعير فاغتمَّ حينئذ أبو سفيان غمّاً عظيماً، وخاف على العير خوفاً شديداً، فاستأجر رجلاً يقال له: ضمضم بن عمرو الغفاري بعشرين مثقالاً ليأتي مكة يستفزّ أهلها بثلاث ليال، وكانت عاتكة بنت عبد المطلب عمَّة النبيّ ﷺ رأت في منامها راكباً أقبل على بعيره حتى وقف بالأبطح وهو ما بين المحصب ومكة، ثمّ صرخ بأعلى صوته ألا فانفروا يا آل غدر ـ أي: يا أصحاب غدر وعدم وفاء ـ انفروا إلى مصارعكم في ثلاث ـ أي: بعد ثلاثة أيام ـ فإن تخلَّفتم فأنتم غدرٌ لقومكم، قالت: فرأيت الناس اجتمعوا إليه ثمّ دخل المسجد والناس يتّبعونه فبينما هم حوله إذ مَثَل به بعيره ـ أي: انتصب به ـ على ظهر الكعبة، ثمّ صرخ بمثلها، ثمّ مثل به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ بمثلها، ثمّ أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوي حتى كانت بأسفل الجبل ارتضت ـ أي: تكسرت ـ فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلها منها فلقة؛ فتخوّفت من تلك الرؤيا وتوجّست أمراً عظيماً وخطباً جسيماً ينزل بمكة وأهلها، فبعثت إلى أخيها العباس فلما حضر أخذت عليه العهد أنْ لا يتحدَّث بما تخبره به من الرؤيا، وقالت له: يا أخي، لا تذكرها لأحد من قومك، إنهم إنْ سمعوها آذونا وأسمعونا ما لا نحب، ثمّ أخبرته بالرؤيا فقال لها العباس ﷺ: إنها لرؤيا شنيعة، وأنت كذلك فاكتميها ولا تذكريها لأحد.

ثمّ خرج العباس من بيتها فلقي الوليد بن عتبة وكان صديقاً له فذكرها له واستكتمه فذكرها الوليد لأبيه عتبة فتحدَّث بها عتبة ففشى الحديث، قال العباس ﷺ: ففي اليوم الثاني من رؤيا عاتكة غدوت لأطوف بالبيت وإذا أبو جهل مع رهط من قريش قعود في المسجد يتحدَّثون برؤيا عاتكة فناداني أبو جهل وقال: يا أبا الفضل، إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا، فلمّا فرغت وجئته قال لي لعنه الله: يا بني عبد المطلب، متى حدثت فيكم هذه النبيّة؟ قال العباس ﷺ: فقلت له: وما ذاك؟ قال رؤيا عاتكة. ثمّ قال أبو جهل: يا بني عبد المطلب، أما رضيتم أنْ تستنبأ رجالكم حتى

صارت تستنبأ نساؤكم، أما رضيتم بكذب الرجال حتى جئتمونا بكذب النساء، فسنتربص بكم هذه الثلاث ليالي التي أخبرت بها، فإنْ يكن ما تقول حقًّا نجوتم، وإنْ لم تقع في هذه الثلاث ليالي رؤياكم نكتب كتاباً أنكم أكذب أهل بيتٍ في العرب، قال العباس ﷺ: فوالله ما أمكنني أنْ أجيبه إلا بجحدي وإنكاري للرؤيا بالمرّة، ثمّ حملني الغضب على أنْ قلت له: هل أنت منتهٍ يا مُصَفّر استه ـ أي: مأبون يغير برص أسته بالزعفران ـ فإنّ الكذب فيك وفي أهل بيتك فقالت قريش: ما كنت جهولاً يا أبا الفضل ولا خرقا!!.

فلما رجعت إلى بيتي ما بقي امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني وقالت: أقررتم لهذا الخبيث أنْ يقع في رجالكم ثمّ يتناول النساء وأنت تسمع، ثمّ لم يكن عندكم غَيْرة لشيء مما سمعت منه، فقلت لهن: والله لأتعرضنّ له وإن عاد قاتَلْته، فغدوتُ في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة، وأنا مغضب أرى أنه قد فاتني منه أمر أحبُّ أنْ أدركه فدخلتُ المسجد، فرأيته، فوالله، إني لأمشي نحوه أتعرّضه ليعود لبعض ما قال فأُوقع به ما يكره إذ هو خرج نحو باب المسجد يشتدّ ـ أي: يعدو ويسرع ـ فقلت في نفسي: ما له لعنه الله أكلُّ هذا فَرَق ـ أي: خوف مني ـ فإذا هو يسمع ما لا أسمع، فإذا ضمضم بن عمرو الغفاري جَدَع أنف بعيره وحَوَّل رحله وشقَّ قميصه من قُبُلِه ومن دُبُرِه، وهو يصرخ ببطن الوادي وهو على ظهر بعيره: يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة ـ هي العير التي تحمل الطيب والبز ـ أدركوا أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لن تدركوها إن أصابها محمد، ولن تفلحوا أبداً، الغوث الغوث.

قال العباس ﷺ: فذلك الصّريخ شغله عني وشغلني عنه، فتجهَّز الناس مسرعين وفزعوا أشدّ الفزع وخافوا من رؤيا عاتكة، وقالوا: أيظنّ محمد وأصحابه أن تكون كعير الحضرمي، والله ليرينَّ ويعلمنَّ محمد غير ذلك، فكانوا بين رجلين إمّا باعث مكانه رجلاً، وإما خارج بنفسه، وأعان قويُّهم ضعيفهم، وقام أشراف قريش يحضّون الناس على الخروج، وقال سهل بن عمرو: يا آل غالب، أتاركون أنتم محمداً والصّبأة من أهل يثرب يأخذون أموالكم، من أراد مالاً فهذا مالي، ومن أراد قوّة فهذه قوتي.

ولم يتخلَّف من أشراف قريش إلا أبا لهب لعنه الله تعالى تخلَّف خوفاً من رؤيا عاتكة، فإنه كان يقول: رؤيا عاتكة صادقة، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، استأجره بأربعة آلاف درهم، كانت عليه أفلس بها، فقال: اخرج عني، ودينُك لك.

وأراد أمية بن خلف لعنه الله القعودَ، وكان شيخاً جسيماً ثقيلاً، وجاءه عقبة بن أبي معيط وهو جالس مع قومه بمجمرة فيها بخور، فوضعها بين يديه، يعيّره بأنّه كالنساء يقعد ويتطيب، وكان عقبة سفيهاً، وكان أبو جهل سلَّط عقبة عليه، فقال له: استجمر إنما أنت من النساء، فقال أميَّة: قبَّحك الله، وقبَّح ما جئت به، فقال له أبو جهل لعنه الله: يا أبا صفوان، إنك متى يراك الناس تتخلّف وأنت سيد أهل الوادي تخلَّفوا معك، فسر يوماً أو يومين، فسار فقتله الله.

وسبب تخلف أمية أنّ سعد بن معاذ ﷺ قال له: إني سمعت محمداً ﷺ يزعم أنه قاتلك، فقال أمية: والله ما كذب محمد، ثمّ أخبر زوجته فقالت: والله ما كذب محمد، فكان يفزع من ذلك حتى يبوّل في فراشه.

ومعنى كونه ﷺ قاتله: أنّه سبب قتله، وإلا فهو ﷺ لم يباشر قتل أحد سوى أخيه أبيّ بن خلف في أُحُدٍ كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ثمّ إنهم لما فرغوا من جهازهم، وكان ذلك في ثلاثة أيام وعزموا على السّير وكانوا خمسين وتسعمئة، وقيل: ألفاً، وقادوا معهم مئة فرس عليها مئة درع سوى دروع المشاة، وصحبوا معهم القينات يضربن بالدفوف ويغنين ليهيجن للحرب، وعند خروجهم تذاكروا ما بينهم وبين كنانة من الحرب والدماء، وقالوا: نخشى أنْ يأتونا من خلفنا وكاد ذلك أنْ يصرفهم عن الخروج فتبدّى وظهر لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك المدلجي، وكان من أشراف بني كنانة، وقال لهم: إني جار لكم من أنْ تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعاً، وخرج إبليس معهم يعدهم أنّ بني كنانة ورائهم قد أقبلوا لنصرتهم، وقال لهم: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾[1] فاستدرجهم حتى أهلكهم.

ثمّ إنّ رسول الله ﷺ لما خرج من المدينة ضرب عسكره ببئر أبي عتبة، فأمرهم أن يستقوا من مائها، ويروى أنه ﷺ عسكر ببيوت السقيا، وهي عين ماء بينها وبين المدينة يومان، وأمر ﷺ أن تعدّ المسلمون فعدُّوا بعد أن جاوزوا المدينة ميلاً، وعرضوا عليه ﷺ فردّ منهم من استصغره.

---

(١) الأنفال: ٤٨.

وسار ﷺ بمن بقي وهم ينوفون على ثلاثمئة وخمسة عشر، أو ثلاثة عشر، أو أربعة عشر، من المهاجرين أربعة وستون، وباقيهم من الأنصار، واستعمل ﷺ أبا لبابة والياً على المدينة، وردَّه من بئر أبي عتبة، وقيل: من الروحاء ـ قرية على ليلتين من المدينة ـ واستعمل ﷺ ابن أم مكتوم ﷺ على الصّلاة بالناس في المدينة، وخلَّف عاصم بن عدي على أهل قباء، وخلَّف عثمان ﷺ على ابنته ﷺ رقية رضي الله تعالى عنها، وكانت مريضة، وهو به أثر مرض، فقال له ﷺ: «إنّ لك رجلاً وسهماً».

وبعث ﷺ قبل خروجه من المدينة طلحة بن عبد الله وسعيد بن زيد رضي الله تعالى عنهما يتجسسان خبر العير ـ أي: يعلمان خبرها بالجاسّة، إنْ قرئ بالحاء، وبالفحص التفتيش إن قرئ بالجيم ـ فرجعا بخبر العير إلى المدينة على ظنّ أنه ﷺ لم يخرج، فلمّا علما بخروجه خرجا إليه، فلقياه ﷺ منصرفاً من بدر فأسهم لكل واحد منهما وأعلمه بأنه حصل له الأجر، ودفع ﷺ اللواء وكان أبيض إلى مصعب بن عمير، وكان أمامهُ ﷺ رايتان سوداوان: أحدهما مع علي بن أبي طالب، يُقال لها: العقاب من مرط لعائشة رضي الله تعالى عنها، والأخرى مع رجل من الأنصار، ولواء الخزرج كان مع الخباب بن المنذر، ولواء الأوس كان مع سعد بن معاذ، ولبس ﷺ درعه ذات الفضول وتقلّد بسيفه العضب ـ أي: القاطع ـ أرسل بها إليه ﷺ سعد بن عبادة عند توجهه إلى بدر، وكان حبيب بن سياف ذا بأس ونجدة، ولم يكن أسلم يومئذ، ولكنّه خرج نجدة لقومه من الخزرج طالباً للغنيمة، ففرح المسلمون بخروجه معهم، فقال رسول الله ﷺ: «لا يصحبنا إلا من كان على ديننا» وفي رواية: «قال له: ارجع فإنا لا نستعين بمشرك فتكررت منه المراجعة للنبيّ ﷺ في عدم الرجوع فقال ﷺ له في ثالث المراجعات: «تسلم؟»، قال: نعم، فأسلم وقاتل قتالاً شديداً».

ثمّ إنه ﷺ أمر بإحصاء من معه ممن لحقه من المسلمين والذي بقي في بئر أبي عتبة، فإذا هم ثلاثمئة وثلاثة عشر، ففرح بذلك رسول الله ﷺ وقال: «عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا النهر»، وحين وصل ﷺ من بيوت السقاء ـ موضع معسكره ﷺ بينه وبين المدينة يومان ـ نظر إلى أصحابه الكرام رضي الله تعالى عنهم فرقَّ لهم ودعا لهم قائلاً: «اللهم إنهم حفاة فاحذهم، ومشاة فاحملهم، وعراة فاكسهم، وجياع فأشبعهم وعالة فأغنهم من فضلك»[1] أو كما قال.

---

(١) رواه أبوداود في السنن برقم: (٢٧٤٧)، ورواه الحاكم في المستدرك برقم: (٢٥٩٦) وصححه الذهبي. ورواه غيرهم.

روي أنهم لما رجعوا ما يريد أحد الركوب إلا وجد له بعيراً أو بعيران، واكتسى من كان عارياً، وأصابوا طعاماً من زاد المشركين، وأصابوا الأسرى، فاغتنى كل عائل بالفداء والغنيمة، وكان في الجيش خمسة أفراس: فرسان له ﷺ، وفرس لمرشد ﷺ، يُقال له: السيل، وفرس للمقداد بن الأسود ﷺ يقال له: سَبْحَة، وفرس للزبير ﷺ، وقيل: لم يكن في الجيش إلا فرسان: فرس للمقداد بن الأسود وفرس للزبير رضي الله عنهما.

وكانت الإبل التي مع النبيّ ﷺ والمسلمين سبعين بعيراً يعتقبونها، كلّ ثلاثة يعتقبون بعيراً إلا ما كان من حمزة وزيد بن حارثة وأبي كبشة وأنيسة مولى النبيّ ﷺ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فإنّ هؤلاء الأربعة كانوا يعتقبون بعيراً، وكان النبيّ ﷺ وعلي بن أبي طالب ومرشد رضي الله تعالى عنهما يعتقبون ثلاثتهم بعيراً، فكان إذا فرغت عقبى النبيّ ﷺ، يقولان له: اركب حتى نمشي عنك، فيقول ﷺ لهما: «ما أنتما بأقوى مني على المشي، وما أنا بأغنى منكما عن الأجر».

وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف ﷺ يعتقبون بعيراً، وخلاد ورفاعة ابنا رفاعة وعبيد بن زيد الأنصاري رضي الله تعالى عنهم يعتقبون بعيراً، حتى إذا كانوا بالروحاء برك بعيرهم، فمرَّ بهم رسول الله ﷺ فقالوا له: يا رسول الله، برك بعيرنا، فدعا ﷺ بماء فتمضمض وألقاه في إناء ثمّ قال: «افتحوا فاه»، ففتحوه، فصبَّ ﷺ الماء في فيه، وصبَّ باقي الماء عليه، ثمّ قال ﷺ: «اركبوا»، ومضى ﷺ وتركهم فلحقوه، وإنّه لينفر بهم.

وفي أثناء الطريق بعرق الظبية[1] لقوا رجلاً من الأعراب فسألوه عن الناس، فلم يجدوا عنده خبراً فقالوا له: سلم على رسول الله ﷺ فقال لهم: أفيكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: نعم، فسلّم عليه، وقال له: إن كنت رسول الله ﷺ حقًّا، فأخبرني عمّا في بطن ناقتي هذه فقال له سلامة بن سلامة بن وقش: لا تسأل رسول الله ﷺ، أقبل عليَّ أنا أخبرك عن ذلك، نزوتَ عليها ففي بطنها منك سخلة، فقال رسول الله ﷺ: «مَهْ فحشت على الرجل»، ثمّ أعرض عن سلامة.

فلما نزلوا بوادٍ يقال له زَفِران ـ بفتح الزاي وكسر الفاء ـ واد قريب من

(١) قال السهيلي: الظبية شجرة تشبه القتادة، وعرق الظبية مكان بين مكة والمدينة يقع قرب الروحاء. انظر معجم البلدان: (٤/٥٨).

الصّفراء[1] أتاه ﷺ الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم من المسلمين، فاستشار ﷺ أصحابه وأخبرهم الخبر، أي: قال لهم: إنّ القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول ـ أي: مسرعين ـ فما تقولون، العير أحبّ إليكم أم النّفير؟ فقالوا[2]: العير أحبّ إلينا من لقاء العدوّ، وفي رواية قالوا: يا رسول الله، هلا ذكرت لنا القتال لنتأهّب له، إنا خرجنا للعير، فدع العدوّ يا رسول الله، وعليك بالعير، فتغيّر وجه رسول الله ﷺ، فعند ذلك قام أبو بكر الصّديق رضي الله عنه فتكلّم وقال وأحسن القول، ثمّ قام المقداد بن الأسود رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله به فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، بل نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ما دامت منا عين تطرف، فوالله الذي بعثك بالحق نبيًّا، لو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد ـ مدينة بالحبشة ـ لجالدنا ـ أي: ضربنا بالسيوف ـ معك من دونه حتى تبلغه، وفي رواية: حتى نقاتل عن يمينك وعن يسارك وبين يديك ومن خلفك.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك، وفي الكشّاف: فضحك رسول الله ﷺ عند مقالة المقداد ذلك وقال له: «قد قلت خيراً»، ثمّ دعا له ﷺ بخير، ثمّ قال ﷺ: «أشيروا عليّ»، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، إنّها قريش وعزّها، والله ما ذلّت منذ عزّت ولا آمنت منذ كفرت.

فتأهّب رسول الله أهبته وأعدّ لذلك عدّته، ثمّ استشار ﷺ ثالثاً فقال: «أشيروا عليّ أيها الناس» ففهمت الأنصار رضي الله تعالى عنهم أنه يعنيهم ويقصدهم، وذلك لأنهم أكثر الناس عدداً، وخاف ﷺ أن تكون الأنصار لا ترى نصرته إلا ممن دهمه ـ أي: جاءهُ المدينة من أعدائه ـ لا أنهم يسيرون معه إلى بلاد عدوه، فيقاتلونه معه، عملاً بظاهر قولهم له ﷺ حين بايعوه عند العقد: يا رسول الله، إنا براء من دمائك حتى تصلَ إلى دارنا فإذا وصلت إليها فأنت في ذمّتنا، نمنعك بما نمنع به آباءنا ونساءنا.

ومن ثمّ قال سعد بن معاذ سيد الأوس، وقيل: سعد بن عبادة سيد الخزرج رضي الله تعالى عنهم أجمعين: لعلك تريدنا ـ أي: تقصدنا ـ معاشر الأنصار، يا رسول الله فقال ﷺ: «أجل»، قال: فإنّا قد آمنّا بك وصدقناك، وشهدنا أنّ ماجئت به هو الحق،

---

(١) واد، وقرية، بين المدينة وبدر. انظر المعالم الأثيرة: (١٥٩).

(٢) أي: قال بعضهم. مؤلف.

وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، ولعلك يا رسول الله تخشى أن تكون الأنصار ترى عليها أنْ لا ينصروك إلا في ديارهم، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم، فاظعن حيث شئت، وصِلْ حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وسالم من شئت، وعادِ من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت من أموالنا كان أحبّ إلينا مما تركت، وما أمرتنا من أمر فمُرْنا نتّبع أمرك، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق نبيًّا، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلّف منّا رجل واحد، وما نكره أنْ تلقَ بنا عدوَّنا وإنا لصُبُر في الحرب صُدُقٌ في اللقاء، لعل الله يريك منّا ما تقرُّ به عينك فسر بنا على بركة الله تعالى، فنحن عن يمينك وشمالك، وبين يديك وخلفك.

فسرَّ النبيّ ﷺ بذلك وأشرق وجهه الشريف، فقال ﷺ: «سيروا وأبشروا فإنّ الله تعالى وعدني إحدى الطائفتين ـ أي: وهما عير قريش ومن خرج من مكة من قريش يريد حمايتها ـ فوالله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم».

وحينئذ علمت الصّحابة أنّ العير لا تحصل لهم، وأنهم ملاقوا العدو ثمّ ارتحل ﷺ من زَفِران حتى نزل قريباً من بدر، فركب ﷺ هو وأبو بكر ﷺ حتى وقفا على شيخ من العرب يقال له: سفيان، فسأله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني من أين أنتما فقال له رسول الله ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك»، فقال الشيخ: ذاك بذاك؟، فقال ﷺ: «نعم»، فقال: إنه بلغني أنّ محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإنْ كان صدَق الذي أخبرني عنهم، فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي نزل به رسول الله ﷺ وأصحابه، وبلغني أنّ قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدَق الذي أخبرني عنهم فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي نزلت به قريش، فلمّا فرغ الشيخ من خبره قال: من أين أنتما؟، فقال له رسول الله ﷺ: «نحن من ماء دافق» وأشار بيده الشريفة إلى جهة العراق، ثمّ انصرفا عنه، فقال الشيخ: أمن ماء العراق أنتم؟.

ثمّ رجع ﷺ إلى أصحابه ودعا لهم بما دعا لهم سابقاً وهو: «اللهم إنهم حفاة فاحذهم، ومشاة فاحملهم... إلخ».

فلمّا أمسى ﷺ بعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى بدر يلتمسون الخبر فأصابوا سقاة راوية لقريش معهم غلام

لابن الحجاج وغلام لابن العاص فأتوا بهما إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي، فقالوا: لمن أنتما، وظنوا أنهما لأبي سفيان؟، فقالا: نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم من الماء فضربوهما، فلما أوجعوهما ضرباً قالا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما، فلمّا فرغ رسول الله ﷺ قال: «إذا صدقا لم ضربتوهما، وإذا كذبا فلم تركتموهما، صدقا، إنهما لقريش، أخبراني عن قريش أين هم؟ قالا: هم وراء الكثيب ـ أي: التل من الرمل ـ الذي يرى بالعدوة القصوى ـ أي: جانب الوادي المرتفع ـ فقال لهما رسول الله: «كم القوم؟»، قالا: كثيراً عددهم شديداً بأسهم وما ندري عدتهم، فقال ﷺ: «كم ينحرون من الجزر كل يوم؟» قالا: يوماً تسعة ويوماً عشرة، فقال ﷺ: «القوم ما بين تسعمئة والألف» أي: لكل جزور مائة، ثمّ قال ﷺ لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش؟» قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البحتري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نفيل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجَّاج، وسهيل بن عمرو العامري ﷺ[1] فأقبل رسول الله على أصحابه فقال لهم: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذها ـ أي: قطع كبدها، والمراد: أشرافها وعظمائها ـ وذكر أنّ مسير قريش وإقامتهم كانت عشرة ليال حتى إذا بلغوا الجحفة ردُّوا القِيانَ من الجحفة.

وكان مع قريش رجل من بني عبد المطلب بن عبد مناف يقال له: جهم بن الصّلت، فوضع رأسه ونام، ثمّ استيقظ مرعوباً، فقال لأصحابه: هل رأيتم الفارس الذي وقف عليَّ؟، فقالوا: لا، قال: وقف عليَّ فارس، فقال: قُتِل أبو جهل، وعتبة، وشيبة، وزمعة، وأبو البحتري، وأمية بن خلف، وفلان وفلان، وعَدَّ رجالاً من أشراف قريش ممن قتل يوم بدر، وقال: أُسِر سهل بن عمرو وفلان وفلان عدد رجالاً ممن أُسِر، ثمّ قال: رأيت ذلك الفارس ضرب في لبة بعيره، ثمّ أرسله في العسكر وأوداجه تشخب دماً، فما من خباء من أخبية العسكر إلا أصابه من دمه، فقال له أصحابه: إنما لعب بك الشيطان.

ولما شاعت هذه الرؤيا في عسكره وبلغت أبا جهل اللعين قال: لقد جئتم بكذب بني عبد المطلب مع كذب بني هاشم، وهذا أيضاً نبيّ آخر من بني عبد المطلب سيعلم غداً من المقتول نحن أو محمد وأصحابه، ثمّ مضى رجلان من

---

(١) فإنه أسلم بعد ذلك.

الصّحابة[1] إلى ماء بدر فنزلا قريباً منه عند تلٍّ هناك، ثمّ أخذا شنّاً لهما يستقيان فيه، وشخص على الماء[2] وإذا بجاريتين يتخاصمان على الماء وتمسك إحداهما الأخرى فتقول الممسوكة لصاحبتها: إنما تأتي العير غداً أو بعد غد فأعمل لها وأقضيك الذي لكِ، فقال ذلك الرجل: صدقتِ، ثمّ خلّص بينهما.

ورجع الصّحابيان فأخبرا رسول الله ﷺ بما سمعا، ثمّ إنّ أبا سفيان تقدّم العير حذراً حتى ورد الماء، فلقي الرجل على الماء، فقال له أبو سفيان: هل أحسست بأحد؟ قال: ما رأيت إلا رجلين أناخا إلى هذا التلّ، ثمّ استقيا في شنٍّ لهما، ثمّ انطلقا فذهب أبو سفيان إلى مناخهما، فأخذ من أبعار بعيريهما ففتّه، فإذا فيه النوى، فقال: والله علوفة يثرب فرجع إلى العير قبل أنْ تصل إلى بدر سريعاً، وأخبر أصحابه وصوَّب العير عن الطريق، وترك بدراً يساره، وانطلق مسرعاً، فلمّا علم أنه قد أحرز العير أرسل إلى قريش، وكان بلغه مجيئهم، وكانوا حينئذ بالجحفة فقال لهم: إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجّاها الله لكم فارجعوا، فقال أبو جهل لعنه الله: والله لا نرجع حتى نرد الماء ببدر، ونقيم عليه ثلاثة أيام، وننحر الجزر، ونشرب الخمر، وتضرب على رؤوسنا القينات بالمعازف، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها.

فلما بلغ الخبر أبا سفيان قال: هذا بغي، والبغي شؤم ومنقصة، ورجع من القوم بنو زهرة، وكانوا نحو المائة، وقيل: ثلاثمئة، وكان قائدهم الأخنس بن شريق، فإنه قال لبني زهرة: قد نجّى الله أموالكم وخلَّص لكم صاحبكم، وأراد بنو هاشم الرجوع فأغلظ عليهم أبو جهل وقال: لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع.

ثمّ لم يزالوا سائرين حتى نزلوا بالعدوة القصوى قريباً من الماء، ونزل رسول الله ﷺ والمسلمون بعيداً من الماء بيهم وبين الماء مرحلة فظمأ المسلمون وأصابهم عطش شديد، وأجنب غالبهم، فعند ذلك ألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ ووسوس إليهم بأنكم تزعمون أنكم أولياء الله وأنكم على الحق وفيكم رسول الله - ﷺ - وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم عطاش وتصلُّون مجنبين، وما ينتظر أعداءكم إلا أن يقطع العطش رقابكم ويُذهب قواكم، فيحكموا فيكم كيف شاؤوا من قتل وأسر.

---

(١) هما عدي بن أبي الزغباء وبَسْبَس بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) هو مجدي بن عمرو.

وكان الوادي دهساً ـ بالسين المهملة، أي: ليناً كثير التراب ـ تسيخ فيه الأقدام فبعث الله سبحانه وتعالى السماء بما يُذهب الغبار ويلبّد الأرض ويكسبها قوّة وصلابة، فشربوا وملؤوا الأسقية وسقوا الركائب، واغتسلوا من الجنابة وطابت نفوسهم كما قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ أي: من الأحداث ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: وسوسته ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يشدها ويقويها ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾[(١)] أي: بتلبّد الأرض حتى لا تسيخ الأقدام في الرّمل.

وأصاب قريشاً من المطر ما منعهم من الارتحال والوصول للماء، فكان ذلك نعمة على المسلمين ونقمة على المشركين، وعن عَلِيٍّ ﷺ: أصابنا من الليل طمس من المطر، فانطلقنا تحت الشجر والجحف نستظل من المطر، وبات رسول الله يدعو ربه تحت شجرة، ويُكثر في سجوده من أن يقول: «يا حيُّ يا قيوم حتى أصبح» وأصاب المسلمين تلك الليلة نعاس شديد يلقي الشخص على جنبه.

وعن قتادة ﷺ: كان النّعاس أَمَنة من الله تعالى، وكان النعاس نعاسين: نعاس يوم بدر ونعاس يوم أحد[(٢)].

وقال ابن مسعود ﷺ: النّعاس عند القتال أمنة من الله، والنعاس في الصّلاة من الشيطان[(٣)].

ولما طلع الفجر نادى رسول الله ﷺ: «الصّلاةَ عبادَ الله» فجاء الناس، وصلَّى النبيّ ﷺ بهم الفجر وحرّضهم على القتال في خطبة خطبها فقال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه: «أما بعد، فإني أحثّكم إلى ما حثّكم الله عليه... إلى أن قال: وإنّ الصّبر في مواطن اليأس مما يفرج الله تعالى به الهمَّ وينجِّي به من الغمّ».

ثمّ خرج رسول الله يباريهم ـ أي: يسابق قريشاً إلى الماء ـ فسبقهم حتى جاء أدنى ماء من بدر بالنّسبة للقادم من المدينة لمكة، فنزل ﷺ به فقال له الحُباب بن المنذر ﷺ: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزل أنزلكه الله تعالى، ليس لنا أنْ نتقدّمه ولا نتأخره عنه، أم هو منزل الرأي والحرب والمكيدة؟، فقال ﷺ: «بل هو

---

(١) الأنفال: ١١.

(٢) عزاه الشوكاني في فتح القدير إلى عبد بن حميد، انظر فتح القدير: (٢/٤٢٥).

(٣) عزاه في الدر المنثور إلى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني. انظر الدر المنثور: (٢/٣٥٤).

منزل الرأي والحرب والمكيدة» قال: يا رسول الله، إنّ هذا ليس بمنزل، انهض بالناس حتى تأتي بهم أدنى ماء من القوم ـ أي: أقرب ماء من مياه بدر إلى قريش القادمين من مكة جهة المدينة الشريفة ـ فتشرب ولا يشربون، فإني أعرف غزارة مائهم وكثرته بحيث لا ينزح، فقال ﷺ: «لقد أشرت بالرأي»، فنزل جبريل عليه السلام على النبيّ ﷺ فقال: الرأي ما أشار إليه الحُبَاب، فنهض رسول الله ومن معه من الناس فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم ـ أي: من المحل الذي نزل به القوم ـ فنزله ﷺ، ثمّ بنى عليه حوضاً وملأه المسلمون ماءً، ثمّ قذفوا فيه الآنية ثمّ بنوا لرسول الله ﷺ عريشاً من جريد النخل فوق تلٍّ مشرف على المعركة كالخيمة ليستظلّ به، وهُيِّئت له ﷺ الركائب ـ أي: النجائب ـ على باب العريش ليركبها إن احتاج إليها، وذلك بعد قول سعد بن معاذ له ﷺ: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً تستظلُّ به، وتكون فيه وتقعد عندك ركائبك، ثمّ نلقى عدوَّنا، فإذا أعزَّنا الله وأظهرنا على عدوِّنا كان ذلك ما أحببنا، وإنْ كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن ورائك فبنى له العريش بعد بناء الحوض على القليب كما تقدم.

وكان نزولهم على القليب نصف الليل، فلما كان الصّباح أقبلت قريش من الكثيب فلما رآها رسول الله، وقد أقبلت بالدروع الساترة والجموع الوافرة والأسلحة المتنوعة، فقال ﷺ: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها ـ أي: كبرها وعجبها وفخرها ـ تحادّك ـ أي: تعاديك ـ وتخالف أمرك وتكذّب رسولك فنصرك ـ أي: انجز لي نصرك ـ الذي وعدتني ـ أي: في بدء الرسالة ـ اللهم إنك أنزلت عليَّ الكتاب، وأمرتني بالثبات ووعدتني إحدى الطائفتين، وقد فاتت إحداهما ـ وهي العير ـ وإنك لا تخلف الميعاد اللهم فأَحِنْهُمْ ـ أي: أهلكهم ـ الغداة، اللهم لا تفلتن أبا جهل فرعون هذه الأمة، اللهم لا تفلتن زمعة بن الأسود، وإسحق بن زمعة، واعم بصر زمعة، اللهم لا تفلتن سهيلاً...» الحديث.

ولما اطمأنت قريش أرسلوا عمير بن وهب الجمحي ؓ[1] فقالوا له: احزر لنا أصحاب محمد ـ أي: انظر لنا عدتهم ـ فاستجال بفرسه نحو عسكر النبيّ ﷺ، ثمّ رجع إليهم فقال: ثلاثمئة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، ولكن أمهلوني حتى أنظر هل للقوم كمين أو مدد، فذهب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئاً، ثمّ رجع إليهم

(١) فإنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وشهد أحداً مع النبيّ ﷺ.

وقال: ما رأيت شيئاً، ولكن قد رأيت يا معاشر قريش البلايا ـ وهي في الأصل النوق تبرك على قبر صاحبها فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت ـ تحمل المنايا ـ الموت ـ نواضح يثرب ـ جمع ناضحة: وهي الناقة ينضح عليها الماء من البئر ـ تحمل الموت الناقع، ألا تروهم خرساً لا يتكلمون، يتلمظّون تلمظ الأفاعي، لا يريدون أن ينقلبوا إلى أهليهم، زرق العيون، كأنهم الحصى تحت الحجف، ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم والله ما أرى أن نقتل رجلاً منهم حتى يقتلوا رجلاً منّا مكانه، فإذا أصابوا منكم عددهم فما تأخير للعيش بعد ذلك، فَرَوْا رأيكم، فلمّا سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة فقال له: يا أبا الوليد، إنك أنت كبير قريش وسيّدها والمطاع فيها، هل لك أنْ تفعل شيئاً لا تزال تُذكر فيها بخير إلى آخر الدهر قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي، فقام عتبة خطيباً فقال: يا معشر قريش، والله إنكم ما تصنعون بأنْ تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه الرّجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه وابن خاله ورجلاً من عشيرته، فارجعوا خلُّوا بين محمد وسائر العرب، فإنْ أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك فهو ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون، يا قوم عصبّوها اليوم برأسي ـ أي: اجعلوا عارها اليوم متعلِّقاً بي ـ وقولوا جَبُنَ عتبة وأنتم تعلمون أني أشجعكم، ولست أجبنكم، فقال حكيم بن حزام لعتبة بن ربيعة: تجير بين الناس وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي، وتحمل ما أصابه محمد من تلك العير، فإنهم لا يطلبون من محمد إلا ذلك، فقال عتبة: نعم قد فعلت، ونِعْمَ ما قلت يا حكيم، ونِعْمَ ما دعوتَ إليه، فركب عتبة جملاً له وصار يجيله في صفوف قريش ويقول لهم: يا قوم أطيعوني فإنكم لا تطلبون غير دم ابن الحضرمي وما أخذ منه من العير، وقد تحمَّلت ذلك لكم يا معشر قريش، أنشدكم الله في هذه الوجوه التي تضيء ضياء المصباح ـ يعني قريشاً ـ أن تجعلوها أنداداً لهذه الوجوه التي كأنها عيون الحيَّات يعني الأنصار رضي الله تعالى عنهم.

وقد كان ﷺ لما رأى قريشاً أقبلت من الكثيب، وعتبة بن ربيعة على جمل أحمر، قال ﷺ: «إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا».

ولما رأى رسول الله ﷺ راكب الجمل الأحمر يجيله في صفوف قريش قال: «يا

علي، نادِ حمزة» وكان أقربهم ـ أي: أقرب المسلمين إلى المشركين، واسأله عن صاحب الجمل: ـ «ما يقول لهم؟» فقال حمزة ﷺ: هو عتبة بن ربيعة، ينهى الناس عن القتال، ثمّ انطلق عتبة لحكيم بن حزام فقال له: انطلق إلى ابن الحنظلية ـ يعني أبا جهل لعنه الله ـ قال حكيم: فانطلقتُ حتى جئت أبا جهل فوجدته قد سلَّ درعاً له من جرابها ـ أي: أخرجها منه ـ فقلت له: يا أبا الحكم، إنّ عتبة أرسلني إليك لتترك القتال، فقال أبو جهل: انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه ـ وهي كلمة تقال للجبان ـ ما قال عتبة ما قال إلا لما رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور ـ أي: في قلتهم بحيث يكفيهم الجزور الواحد ـ وفيهم ابنه ـ وهو أبو حذيفة ـ فقد تخوَّفكم عليه، فغضب عتبة وسبَّ أبا جهل وقال: سيعلم مصفّر أسته من انتفخ سحره أنا أم هو، وسيعلم أيُّنا أفسد لقومه.

ثمّ بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب إلى قريش يقول لهم: «ارجعوا، فإنّ مثل هذا الأمر إنْ يلقه من غيركم أحب إليه من أن تلقوه منه» فقال عمر لهم ذلك، فقال حكيم بن حزام: قد عرض محمد نَصَفاً، فاقبلوه، فوالله لا تنصرون عليه بعدما عرض عليكم من النَّصَفة، فقال أبو جهل لعنه الله: والله لا نرجع بعدما أمكننا الله منهم.

ثمّ إنّ أبا جهل لعنه الله بعث إلى عامر بن الحضرمي أخا المقتول: هذا خليلك عتبة يريد أن يُرجع الناس ويخذِّلهم عن القتال، ويتحمّل دية أخيك من ماله يزعم أنك قائلها، ألا تستحيي، تقبل الدية من مال عتبة، وقد رأيت ثأرك بعينك؟ فقم فاذكر مقتل أخيك، فقام عامر بن الحضرمي أخو المقتول، فكشف أسته وحثى التراب عليه، ثمّ صرخ وا عمراه، فثارت النفوس، وانتصب الناس، وثار الشرّ وحميت الحرب.

ثمّ إنّ الأسْوَد بن عبد الأسد المخزومي كان رجلاً شريراً شديد العداوة لرسول الله فقال: أعاهد الله لأشربنَّ من حوضهم أو لأهدمنَّه ـ يعني: حوض المسلمين ـ على القليب ـ أي: بئر الماء الذي نزلوا عليه ـ أو لأموتنّ دونه، فلمّا خرج نحو الحوض خرج إليه حمزة بن عبد المطلب ﷺ فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه بنصف ساقه ـ أي: أسرع قطعها ـ فطارت وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دماً، ثمّ جثى إلى الحوض حتى اقتحم فيه وشرب منه وهدمه برجله الصّحيحة، يريد أن يبرأ بيمينه، فاتّبعه حمزة ﷺ فضربه حتى قتله في الحوض، وأقبل نفر من قريش حتى وردوا على الحوض، منهم حكيم بن حزام، فأرادوا أن يمنعوهم، فقال رسول الله

ﷺ: «دعوهم»، فما شرب منهم رجل يومئذ إلا قتل كافراً إلا ما كان من حكيم بن حزام فإنه لم يُقتل، ثمّ أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، فكان ﷺ إذا اجتهد في يمينه قال: لا والذي نجّاني يوم بدر.

ثمّ إنّ عتبة بن ربيعة التمس بيضة ـ أي: خوذة ـ ليدخل رأسه فيها فما وجد في الجيش بيضة تسع رأسه لعظمها، فاعتجر على رأسه ببُرْدٍ له ـ أي: تعمم به ـ ولم يجعل تحت لحيته من العمامة شيئاً، وخرج بين أخيه شيبة وابنه الوليد حتى فصل من الصّفّ، ودعا للمبارزة فخرج إليهم فتية من الأنصار ثلاثة أشقاء، وهو معوّذ ومعاذ وعوف بنو عفراء، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار، قالوا: ما لنا بكم من حاجة، وفي رواية: أنتم أكفاء كرام إنما نريد قومنا، أخرجوا إلينا بني عمّنا، وفي لفظ: أنه ﷺ أمرهم بالرّجوع فرجعوا إلى مصافِّهم، لأنه كره أن تكون الشوكة لغير بني عمِّه وقومه في أوّل القتال، وعند ذلك نادى مناد منهم: يا محمد، أخرج لنا أكفاءنا من قومنا، فقال النبيّ ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي»، وفي رواية: «قوموا يا بني هاشم، فقاتلوا بحقكم الذي بعث به نبيّكم إذ جاؤوا بباطلانهم ليطفئوا نور الله، قم يا عبيدة بن الحارث...إلى آخره».

فلما قاموا رضي الله عنهم ودنوا منهم قالوا لهم: من أنتم؟ ـ أي: لأنهم كانوا لابسين لا يعرفون من السلاح ـ فقال عبيدة بن الحارث: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال عليّ: عليّ، قالوا: نعم أكفاء كرام، فبارز عليٌّ رضي الله عنه الوليد، وبارز حمزة رضي الله عنه شيبة، وبارز عبيدة بن الحارث رضي الله عنه عتبة، وكان أسنَّ القوم، وكان أسنّ من النبيّ ﷺ بعشر سنين، فأما حمزة رضي الله عنه فلم يمهل أنْ قتل شيبة، وأما عليٌّ رضي الله عنه فلم يمهل أنْ قتل الوليد، واختلف عبيدة رضي الله عنه وعتبة بينهما بضربتين أثبت كل منهما صاحبه، فحينئذ كرَّ حمزة وعليٌّ رضي الله عنهما بأسيافهما على عتبة فذفّفاه واحتملا صاحبهما عبيدة بن الحارث رضي الله عنه فجرَّاه إلى أصحابه، وأضجعاه إلى جناب موقفه ﷺ، ففرش له ﷺ قدمه الشريف فوضع خدَّه عليها، وقال رسول الله ﷺ: «أشهد أنك شهيد» أي: بعد أن قال له عبيدة: ألستُ شهيداً يا رسول الله؟ فتوفِّي رضي الله عنه بالصّفراء، ودفن بها عند مرجع المسلمين إلى المدينة. وقيل: وهذه المبارزة أول مبارزة وقعت في الإسلام.

ثمّ تزاحم الجيشان ودنا بعضهم من بعض، وقد كان ﷺ عدّل الصّفوف لأصحابه بقِدْح كان في يده ـ والقدح: سهم لا نصل له ـ فمرَّ ﷺ بسواد بن غزية وهو

خارج من الصّف فطعنه[1] ﷺ في بطنه، وقال له: استوِ يا سواد، فقال: يا رسول الله، أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقدني ـ أي: مكنِّي من القصاص من نفسك ـ فكشف له رسول الله ﷺ عن بطنه الشريف وقال له: استقد ـ أي: خذ القَوَد أي: القصاص ـ فاعتنقه سواد، فقبّل بطنه الشريف، فقال له رسول الله ﷺ: «ما حملك على هذا يا سواد؟»، فقال: يا رسول الله، قد حضر ما ترى من القتال للمشركين، فأردت أنْ يكون آخر العهد بك أنْ يمسَّ جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير، ومن خصائصه ﷺ أنه ما التصق ببدنه الشريف مسلم وتمسّه النار.

ثمّ لما عدّل رسول الله ﷺ الصّفوف قال لهم: «إنْ دنا القوم فانضحوهم ـ أي: ادفعوهم عنكم ـ بالنّبل واستَبْقُوا نبلكم ـ أي: لا ترموهم به بعد، فإنّ الرمي مع البعد غالباً يُخطئ، فيضيع النّبل بلا فائدة ـ وقال لهم رسول الله ﷺ: «لا تسلُّوا السيوف حتى يغشوكم» وخطبهم خطبة حثَّهم فيها على الجهاد وعلى المصابرة فيه، ثمّ رجع ﷺ إلى العريش فدخله ودخل معه أبو بكر الصّديق ﷺ شاهراً سيفه على رأس رسول الله ﷺ خوفاً عليه، وهذا كله قبل التحام الحرب.

وأما بعد التحام القتال فقام أيضاً سعد بن معاذ ﷺ على باب العريش مع نفر من الأنصار يخافون عليه ﷺ كرَّة العدو، وعند التحام الحرب كان أول من قُتِلَ من المسلمين مهجع مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، قَتَله عامر بن الحضرمي بسهم أرسله إليه، وبعده قُتِلَ أيضاً حارثة بن سراقة، وقد جاءت أم حارثة، وهي عمَّة أنس بن مالك إلى النبيّ ﷺ حين رجع من بدر، ومعها ابنتها فقالت: يا رسول الله حدّثني عن حارثة، فإنْ يكن في الجنّة لم أبكِ عليه، ولكن أحزن، وإنْ يكن في النار بكيت عليه ما عشت في دار الدنيا، فقال ﷺ: «يا أم حارثة، إنها ليست بجنة لكنّها جنّات، وحارثة في الفردوس الأعلى منها» فرجعت وهي تقول: بخٍ بخٍ لك يا حارثة، ثمّ دعا رسول الله ﷺ بإناء فيه ماء فغمس يده الشريفة فيه ومضمض فاه ثمّ ناوله أمّ حارثة فشربت، ثمّ ناولت ابنتها فشربت، ثمّ أمرهما أن ينضحا ما بقي في جيوبهما ففعلتا، ورجعتا من عند النبيّ ﷺ وما في المدينة امرأة أقرُّ عيناً منهما ولا أسرُّ.

ثمّ صار رسول الله ﷺ يناشد ربَّه على ما وعد من النّصر بقوله: «اللهم أنشدك

---

(١) ليس المراد المتبادر من الطعن بمعنى الجراحة، إنما المراد بالطعن هنا أنّ النبيّ ﷺ ضربه ضرباً لطيفاً بذلك العود الذي كان في يده.

عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد» - أي: إن شئت هلاك هذه العصابة لم تعبد - حتى سقط رداؤه الشريف من على كتفيه، فحينئذ أخذ أبو بكر ﷺ بيديه، والتزمه ﷺ وقال: حسبك يا رسول الله تناشد ربك، فإنه منجز لك وعده، فحينئذ خرج ﷺ من العريش وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾[1].

وكان ابتهال النبيّ ﷺ ليطمئنَّ أصحابه رضي الله تعالى عنهم بالنّصر، فإنهم كانوا يعلمون أنه ﷺ مجاب الدعوة، وكان الصّديق ﷺ في مقام الرّجاء حينئذ، وكان ﷺ في مقام الخوف من أن يفعل سبحانه ما يشاء.

وحين رأى المسلمون القتال نشب عجُّوا بالدّعاء إلى الله تعالى، فأنزل الله تعالى عند ذلك ملائكة لنُصْرتهم كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[2] أي: متتابعين، فنزل جبريل بألف ملك، وميكائيل بألف ملك، وإسرافيل بألف ملك، وأمدُّوا تسعين من مؤمني الجنّ، وكان نزول الملائكة بهذه العِدّة لتكثير سواد المسلمين تقوية لقلوبهم وإرعاباً لعدوِّهم، وإلا فمَلَك واحد يُغْني عن هذه الألوف.

روي أنّ رسول الله ﷺ خفق خفقة - أي: مالت رأسه - من النّعاس، ثمّ انتبه فقال: «أبشر يا أبا بكر، فقد أتاك النصر، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع - أي: الغبار - وهو يقول: أتاك نصر الله»[3].

ثمّ خرج رسول الله ﷺ من العريش إلى الناس فحرّضهم على القتال فقال: «والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة، قوموا إلى جنّة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين».

فقال عمير بن الحُمَام: بخٍ بخٍ، فقال رسول الله ﷺ: «لِمَ تبخبخ؟» - أي: لم تتعجَّب - فقال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أنْ أكون من أهلها، فأخذ تمرات فجعل يلوكهنَّ، ثمّ قال: والله، إنْ بقيتُ حتى ألوكهن، وفي لفظ: إنْ حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنّها لحياة طويلة. فنبذهنَّ وقاتل، وهو يقول:

---

(١) القمر: ٤٥.

(٢) الأنفال: ٩.

(٣) انظر البداية والنهاية: (٣/٢٧٦)، وعيون الأثر: (١/٣٩٣).

ركضاً إلى الله بغير زادٍ إلا التقى وعمل المعاد
والصّبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

واستمر يقاتل حتى قتل ﷺ.

وقال عوف بن الحارث بن عفراء: يا رسول الله، ما يُضْحك الربّ من عبده؟ - أي: ما يرضيه غاية الرّضى - قال ﷺ: «غمسه يده في العدو حاسراً»[1] - أي: لا درع له ولا مغفر - فنزع درعاً كانت عليه فقذفها، ثمّ أخذ سيفه فقاتل حتى قتل ﷺ.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: حدثني رجل من بني غفار قال: أقبلت أنا وابن عم لي حتى صعدنا على جبل يشرف على بدر ونحن مشركان ننظر الوقعة على من تكون الدبرة - أراد بالدبرة هنا الهزيمة، وقد فسّرت فيما سبق بالنّصر والظَّفَر - فننهب مع من ينهب، فبينما نحن على الجبل إذ دنت منَّا سحابة، فسمعنا حمحمة الخيل فسمعت قائلاً يقول: اقدُم حيزوم، فأما ابن عمي فانكشف قناع قلبه - أي: غشاؤه - فمات مكانه، وأمّا أنا فكدت أنْ أهلك، ثمّ تماسكت نفسي[2].

(واقُدم) من التقدّم، كلمة يزجر بها الخيل، (وحيزوم) اسم فرس جبريل عليه السلام، ويقال لها: (الحياة) لأنها ما مسَّها شيء إلا صار حيًّا، وهي التي قبض السامري من أثر حافرها ما ألقاه في العجل الذي صاغه من حليِّ القبط، فكان له خوار، إذا خار سجدوا، وإذا أمسك رفعوا[3].

وقاتلت الملائكة يوم بدر، وكان آثار قتلهم سواداً كسِمَة النار بلا جراح من جراح الآدميين، وكانت الملائكة لا تعرف القتال فعلمهم الله تعالى ذلك بقوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[4] أي: مِفْصل[5]، فكانوا يعرفون

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف برقم: (١٩٤٩٩). وانظر البداية والنهاية: (٣/٢٧١).

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم: (١٧٦٣)، وابن حبان في صحيحه برقم: (٤٧٩٣)، والبزار في مسنده برقم: (١٩٦). ورواه غيرهم، وكلهم بغير هذا اللفظ، لكن أورده ابن هشام بهذا اللفظ من طريق ابن إسحق. انظره في سيرة ابن هشام: (٣/١٨١).

(٣) انظر الروض الأنف: (١/٢٦٨).

(٤) الأنفال: ١٢.

(٥) انظر روح المعاني للآلوسي: (٩/١٧٨)، وتفسير القرطبي: (٧/٣٣١).

قتلى الملائكة من قتلاهم بآثار سواد كسمة النار في الأعناق[1].

وروي عن سهيل بن حنيف عن أبيه رضي الله عنه أنه قال: لقد رأينا يوم بدر، وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك أو يرفعه إليه فيقع رأسه من جسده قبل أنْ يصل السيف[2].

وكان شعار الأنصار رضي الله تعالى عنهم ـ أي: علامتهم التي يتعارفون بها ذلك اليوم إذا جاء الليل، أو وقع اختلاط (أحد أحد)، وشعار المهاجرين يومئذ (يا بني عبد الرحمن)، وشعار النبيّ ﷺ (يا منصور أَمِتْ أَمِتْ)، وربما كان شعار الخزرج (يا بني عبد الله)، وشعار الأوس (يا بني عبد الرحمن)، وربما كان شعار الجميع (أَمِتْ).

وكانت سيما الملائكة عمائم صفراً قد أرخوها بين أكتافهم، وربما كانت عمائم بيضاً، إلا جبريل عليه السلام فإنّ عمامته كانت صفراء، وكانت خيل الملائكة بُلْقاً.

ثمّ إن إبليس اللعين لما كان مع المشركين بصورة سراقة وقال لهم لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم وشاهد نزول الملائكة وضَرْبَها المشركين وكانت يده في يد مشرك اسمه الحارث بن هشام أخو أبي جهل انتزع يده من يد المشرك بقوة ثمّ نكص ورجع على عقبيه راجعاً وتبعه جنده ولم يزل ذاهباً حتى سقط في البحر ورفع يديه وقال: يا رب موعدك الذي وعدتني فلنا انتزع يده قال له الحارث يا سراقة أتزعم أنك لنا جار وتفعل هكذا فقال إبليس لعنه الله: إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب وتشبث به الحارث رضي الله عنه[3] وقال: والله ما أراه إلا حرافيش يثرب، فضرب إبليس الحارث في صدره فسقط، ثمّ هرب.

وعند ذلك قال أبو جهل لعنه الله: يا معشر قريش لا يهمنّكم خذلان سراقة فإنه كان على ميعاد من محمد، ولا يهمنّكم قتل عتبة وشيبة والوليد فإنهم قد عجلوا، فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمداً وأصحابه في رؤوس الجبال، وصار يقول: لا تقتلوهم خذوهم باليد.

وذكر السهيلي[4] رحمه الله تعالى، أنه يروى أنه من بقي من قريش وهرب إلى

---

(١) انظر تفسير ابن كثير: (٢/٣٨٦)، وتفسير القرطبي: (٤/١٨٦)، والدر المنثور: (٤/٣٥).

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور إلى أبي الشيخ وابن مردويه من حديث أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن سهل رضي الله عنهما. انظر الدر المنثور: (٤/٣٣)

(٣) فإنه أسلم بعد ذلك.

(٤) الروض الأنف: (١/٢٧٥).

مكة وجدوا سراقة بمكة فقالوا: يا سراقة خرقت الصفّ، وأوقعت فينا الهزيمة فقال: والله ما علمت بشيء من أمركم ولا شهدت معكم، فما صدّقوه حتى أسلم، وسمعوا ما أنزل الله فعلموا حينئذ أنه إبليس لعنه الله جاءهم بصورة سراقة.

وفي مسلم[1] عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ أنه قال: إني لواقف يوم بدر في الصفّ فنظرت عن يميني وعن شمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار[2] حديثة أسنانهما، فغمزني أحدهما فقال لي: يا عمّ هل تعرف أبا جهل بن هشام؟ قلت: نعم، وما حاجتك به؟ قال: بلغني أنه كان يسبُّ رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده، لو رأيته لم يفارق سوادي سواده ـ أي: شخصي صخصه ـ حتى يموت الأعجل منّا ـ أي: الأقرب منا أجلاً ـ ثمّ غمزني الآخر، فقال مثلها، فعجبت لحرص كل منهما على قتله وإخفائه عن الآخر ليكون هو المختص به دون الآخر، وحَقِرت نفسي لما رأيت منهما ذلك حيث لم ترغب فيما رغبا فيه، فلم ألبث إذ نظرت أبا جهل يزول في الناس ـ أي: يتجوّل من محل إلى محل آخر ـ فقلت لهما: ألا تريان هذا فإنه صاحبكما الذي تسألان عنه، فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ـ أي: أشرفا به على القتل ـ ثمّ انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه فقال: أيُّكما قتله؟ فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، قال ﷺ: هل مسحتما سيفكما من دمه؟ قالا: لا، فنظر ﷺ في السيفين فقال: «كلاكما قتله».

وقال معاذ بن عمرو بن الجموح: رأيت أبا جهل، وقد أحاطوا به ـ أي: المشركون ـ وهم يقولون له: أبا الحكم، لا يخلص إليك، فلما سمعتهم عمدت نحوه وحملت عليه وضربته ضربة أطنتْ قدمه بنصف ساقه ـ أي: أسرعت قطعها ـ فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى، وضربني ابنه عكرمة ﷺ[3] على عاتقي فطرح يدي، فتعلّقت بجلدة من جسمي وأجهضني ـ أي: شغلني ـ القتال عنها، فلقد قاتلت عامة يومي ذلك، وأنا أسحبها خلفي، فلما آذتني وضعت عليها قدمي، ثمّ تمطيت عليها حتى طرحتها. وفي رواية: جاء بها إلى رسول الله ﷺ فبصق عليها ولصقها فلصقت، ولذا قال الناظم فيما يأتي:

---

(١) انظره في صحيحه برقم: (١٧٥٢).

(٢) الغلامان: هما معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعوّذ بن عفراء. انظر الفصول في سيرة الرسول ﷺ لابن كثير: (١٣٦).

(٣) فإنه أسلم بعد ذلك.

وبانت بها كف ابن عفراء فاشتكى إليك فعادت بعد أحسن عودة

ثمّ مرّ بأبي جهل ـ وهو عقير ـ معوِّذ بن عفراء فضربه حتى أثبته وتركه وبه رمق.

ومعوّذ هذا لا زال يقاتل حتى قتل ﷺ، قال عبد الله بن مسعود: رأيت أبا جهل بآخر رمق فعرفته فوضعت رجلي على عنقه، ثمّ قلت له: هل أخزاك الله يا عدوَّ الله، قال: وبماذا أخزاني؟ أعار عليّ، وهل فوق رجل قتلتموه أأعْمَدَ رجل قتلتموه ـ أي: أنا أعظم رجل قتلتموه، لأنّ عميد القوم سيدهم، أي: فلا عار عليَّ في قتلكم إيَّاي.

وجاء[1] أنه قال: لو أن غير أكَّار قتلني لكان أحب إليَّ وأعظم لشأني، ولم يكن عليَّ في ذلك نقص ـ والأكَّارُ: الزراع ـ ثمّ رفع رأسه، وقال لابن مسعود ﷺ: ألستَ رُوَيْعينا بمكة قال: فقلت: مه، فلما ارتقيت صدره لأجزَّ رأسه قال لي: لقد ارتقيت يا رويعي الغنم مرتقاً صعباً، أخبرني لمن الدبرة ـ أي: النصرة والظفر اليوم ـ لنا أو علينا؟ قلت: لله ولرسوله ﷺ، ثمّ احتززت رأسه، فلم يعمل فيه سيفي شيئاً، فتناولت سيفه فأجهزت عليه وذفّفته، ثمّ حملت رأسه فوضعته بين يدي رسول الله ﷺفقلت: يا رسول الله هذا عدو الله أبو جهل فقال رسول الله ﷺ: «آللهَ الذي لا إله غيره؟ ـ وردَّدها ثلاثاً ـ قتلتَ أبا جهل» بنصب الجلالة، فقلت: نعم والذي لا إله غيره إلا هو، فحمد الله وسجد خمس سجدات شكراً لله تعالى، وقال: «الله أكبر،الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، ثمّ خرج ﷺ معي يمشي حتى قام عليه، ثمّ قال: «الحمد لله الذي أخزاك يا عدوَّ الله، هذا كان فرعون هذه الأمة».

وفي رواية قال ابن مسعود: ونفلني ﷺ سيفه، وكان قصيراً عريضاً فيه قبائع فضة وحلق فضة[2].

وأعطى سلبه للغلامين الأنصاريين لأنهما هما اللذان أثبتاه، وهما معاذ بن عمرو ابن الجموح ومعوذ بن عفراء بن الحارث.

وقال ﷺ: «رحم الله ابني عفراء، قد اشتركا في قتل فرعون هذه الأمة ورأس أئمة الكفر». فقيل: يا رسول الله ومن قتله معهم؟. قال: «الملائكة، وابن مسعود قد اشترك في قتله»[3].

---

(١) رواه البخار ي في صحيحه برقم: (٣٧٩٥)، ومسلم في صحيحه برقم: (١٤٧٤).

(٢) انظر الروض الأنف: (١/٢٦٨)، ومحمد رسول الله ﷺ لرشيد رضا: (٢٣٩).

(٣) عزاه ابن كثير في سيرته إلى البيهقي، انظر سيرة ابن كثير: (٢/٤٢٠).

وقال ﷺ: «من له علمٌ بنَوْفَل بن خويلد؟» فقال عليٌّ كرم الله وجهه: أنا قتلته يا رسول الله، فكبَّر ﷺ وقال: «الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه» أي: فإنه لما التقى الصَّفَّان نادى نوفل بصوت رفيع: يا معشر قريش اليوم يوم الرفعة والعلا، فقال ﷺ: «اللهم اكفني نوفل بن خويلد».

وروي أنه لما اشتدَّ الحرب أخذ رسول الله ﷺ حفنة من الحصى بأمر جبريل عليه السلام ورمى بها المشركين وفي رواية: قبضة من تراب، وفي رواية: قال لعلي رضي الله عنه: «ائتني بقبضة من تراب» فأتاه بها فاستقبل بها قريشاً ثمّ قال: «شاهت الوجوه - أي: قبحت الوجوه - اللهم أرعب قلوبهم وزلزل أقدامهم» ثمّ ضربهم بها فملأت أعين المشركين جميعهم فانهزموا وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون.

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: وقعت يوم بدر ثلاث حصيات من السماء كأنما وقعت في طست لهنّ رنة فأخذهنّ رسول الله ﷺفرمى بهن في وجوه القوم المشركين يمنة ويسرة، وبين أيديهم، ثمّ قال لأصحابه: «شدُّوا في الجهاد» فكانت الهزيمة، فتبعهم المسلمون وتبعهم أيضاً رسول الله ﷺ في إثرهم بالسيف مصلتاً، وهو يتلو ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾[1] وكانت هذه نزلت في مكة.

قال عمر رضي الله عنه: كنت أتعجَّب منها إلى أن اتضحت لي يوم بدر[2].

وقال ﷺ حينئذ: «من قتل قتيلاً أعطيَ سلبه، ومن أسر أسيراً فهو له، ومن لقي أبا البحتري بن هشام فلا يقتله» أي: لأنه ممن كان سعى في نقض الصّحيفة، ونص ﷺ على أن من لقي أحداً من بني هاشم فلا يقتله بل يتركه فإنهم ما خرجوا لقتالنا إلا كرهاً، وكذا من لقي من خرج لا لقتالنا بل كرهاً لا يقتله.

وممن نصّ ﷺ على أنه لا يقتل عمّه ﷺ العبّاس فعند ذلك قال أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة: أيقتل آبائنا وأبناؤنا وإخواننا وعشيرتنا، ويترك العباس، والله لئن لقيته لألجمنّه بالسيف، فبلغت مقالته رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لعمر رضي الله عنه: «يا أبا حفص، أيضرب وجه عمّ رسول الله ﷺ بالسّيف؟» فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، دعني أضرب عنقه - يعني: أبا حذيفة - بالسّيف، فوالله لقد نافق، فقال أبو حذيفة رضي الله عنه: فإني لست

---

(١) القمر: ٤٥.

(٢) عزاه في الدر المنثور إلى الطبراني في (الأوسط). انظر الدر المنثور: (٤/٧٨).

بآمن من تلك الكلمة التي قلتُها من يومئذ إلا أنْ تكفّرها عنّي الشهادة، فقتل ﷺ يوم اليمامة شهيداً في جملة من قتل من الصّحابة، وهم أربعمئة وخمسون أو ستون.

وكان أول من قُتِلَ من المشركين عتبة أبو حذيفة ﷺ، وعمّه شيبة، وأخوه الوليد مبارزة كما تقدم.

وأما أبو البحتري فقد لقيه المجذر ﷺ فقال له: إن رسول الله قد نهى عن قتلك، فقال: وزميلي ـ أي: رفيقي ـ وكان معه زميل خرج معه من مكة يقال له: جنادة بن مليحة، فقال له المجذر ﷺ: لا والله، ما نحن بتاركي زميلك، ما أمرنا رسول الله إلا بك وحدك، قال: والله إذاً لأموتنّ أنا وهو جميعاً، ولا تتحدث عنّي نساء مكة أنّي تركت زميلي يُقتل حرصاً على الحياة، فقتله المجذر ﷺ بعد أنْ قاتله، ثمّ أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، والله الذي بعثك بالحق، لقد جَهِدت عليه أنْ يستأسر فآتيك به، فأبى إلا أن يقاتلني فقاتلني فقتلته.

وفي يوم بدر هذا قَتَل أبو عبيدة بن الجراح ﷺ أباه، وكان مشركاً أراد قتل ابنه أبي عبيدة فولّى عنه، فلم يرجع عنه، فرجع أبو عبيدة ﷺ فقتل أباه، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[1].

وعن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: لقيت أمية بن خلف وكان صديقاً لي في الجاهلية ومعه ابنه علي، فأخذ بيده وكان معي أدراع استلبتها، فأنا أحملها فلما رآني أميّة ناداني وقال: هل لك فيَّ فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك، قلت: نعم، فطرحت الأدراع من يدي، وأخذت بيده وبيد ابنه علي، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قطّ، ثمّ قال: يا عبد الرحمن، من الرجل منكم المعلَّم بريشة نعامة في صدره؟ قلت: ذلك حمزة بن عبد المطلب ﷺ، فقال: ذلك الذي فعل بنا الأفاعيل، ثمّ خرجت أمشي بهما، فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال ﷺ معي، وكان هو الذي يعذِّب بلالاً بمكة على أنْ يترك الإسلام، فيجرُّه إلى الرمضاء إذ حميت فيضجعه على ظهره ثمّ يضع الصّخرة العظيمة على صدره ثمّ يقول له: لا تزال كذلك أو تفارق دين محمد ـ ﷺ ـ فيقول ﷺ: أَحَدٌ أَحَدٌ، فلما رآه بلال ﷺ معي قال: رأس الكفر أمية بن خلف،

(١) المجادلة: ٢٢.

لا نجوت إنْ نجا، فقلت: أي بلال، أبأسيري تفعل ذلك؟، قال: لا نجوت إنْ نجا، وكررتُ ذلك وكرّر ذلك، ثمّ صرخ بلال بأعلى صوته: يا أنصار الله، هذا رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوتُ إنْ نجا، فأحاطوا بنا، فقلت: يا بلال، أبأسيري تفعل ذلك، فأسَلَّ بلال السيف من غمده، فضرب رِجْلَ ابنه عليّ، فوقع، فصاح أميّة صيحة ما سمعتُ بمثلها قطّ، فقلت له: انج بنفسك، فوالله لا أغني عنك شيئاً، قال: فضربوهما بأسيافهم فهبروهما.

وكان عبد الرحمن في الأول خلف ابنه عليّ، فتركه لهم ليشغلَهم بقتله عنه، فقتلوه، ثمّ لحقوا عبد الرحمن ومعه أمية، فقال عبد الرحمن لأمية: ابرك، وكان رجلاً جسيماً، فبرك، فألقى عبد الرحمن نفسه عليه ليمنعه من القتل، فتخلّلوه بالسّيوف من تحته، وقتلوه وأصاب أحدهم رِجْلَ عبد الرحمن بسيفه ـ أي: ظهر قدمه ـ فجرحها.

وكان القاتل لعلي بن أمية هو عمّار بن ياسر، والقاتل لأمية بن خلف معاذ بن عفراء وخارجة بن زيد وحبيب بن إساف، هؤلاء الثلاثة اشتركوا في قتله.

وكان عبد الرحمن بن عوف ﷺ يقول: يرحم الله بلالاً، أذهب أدراعي وفجعني بأسيريَّ. وفي رواية عنه: لما كان يوم بدر حصل لي درعان، فلقيني أمية ومعه ابنه فقال: خذني وابني، فأنا خير لك من هذين الدّرعين، فألقيت الدّرعين وأخذتهما، فلمّا قُتلا صار يقول: يرحم الله بلالاً، فلا درْعَيَّ ولا أسيريَّ.

ثمّ أمر رسول الله ﷺ بأبي جهل أنْ يُلْتَمس في القتلى، وقال: «إنْ خفي عليكم ـ أي: لانفصال رأسه عن جثته ـ فانظروا إلى أثر جرح في ركبته، فإني ازدحمت يوماً أنا وهو على مائدة لعبد الله بن جدعان، ونحن غلمان، وكنت أسنّ منه بيسير، ورفعته فوقع على ركبته، فجحش ـ أي: خدش ـ على إحداهما جحشاً لم يزل أثره به».

ولعله هذا هو المراد بقول بعضهم إنه ﷺ صرع أبا جهل، فإنّه لم يصحّ أنه ﷺ صارع أبا جهل.

وانكسر سيف عكاشة بن محيصن وهو يقاتل فأعطاه رسول الله جَزْلاً من حطب ـ أي: أصلاً من أصول الحطب ـ وقال: «قاتِلْ بهذا يا عكاشة»[1]، فلمّا أخذه من رسول الله ﷺ عاد في يده سيفاً طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديد، فقاتل به ﷺ حتى فتح الله تعالى على المسلمين، وكان ذلك السيف يسمّى: العون، ثمّ لم يزل

---

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة، انظر سيرة ابن هشام (١/ ٦٣٧).

عند عكاشة ﷺ، وشهد به المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ[(١)].

وانكسر سيف سلمة بن أسلم ﷺ فأعطاه رسول الله ﷺ قضيباً كان في يده ـ أي: عرجوناً من عراجين النخل ـ وقال له: «اضرب بهذا» فإذا هو سيف حديد جيد، فلم يزل عنده.

وعن خبيب بن عبد الرحمن، قال: ضرب خبيب[(٢)] جدّي يوم بدر فمال شقّه فتفل عليه رسول الله ﷺ ولأمه وردَّه فانطبق[(٣)].

وعن رفاعة بن مالك ﷺ قال: لما كان يوم بدر رميت بسهم ففقئت عيني، فبصق عليها رسول الله ﷺ، ودعا لي فما آذاني منها شيء.

وروي عن قتادة ﷺ ما هو أصح وأشهر في ذلك حيث وقعت عينه على خدِّه، فجاء بها إلى النبيّ ﷺ فقال له رسول الله: «إنْ شئت عادت لك في الجنة أحسن ما كانت عليه في الدنيا، وإن شئت دعوت الله لك ليردَّها عليك؟» فقال قتادة ﷺ: يا رسول الله، إن زوجتي حديثة السنّ، وأخاف إنْ رأتني على حالتي أنْ تزدريني، فادعُ الله أنْ يردّها لي، وأرجو الله أنْ لا يحرمني من بركاتك في الجنة، فتناولها رسول الله ﷺ بيده الشريفة وأعادها إلى موضعها، وأصابها من بصاقه الشريف فعادت أحسن من أختها، فكانت تلك ترمد وهذه لا ترمد، ويرى بهذه ما لا يرى بالأخرى.

وعن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: كان رسول الله ﷺ يرينا مصارع أهل بدر فيقول: «هذا مصرع عتبة بن ربيعة، وهذا مصرع شيبة بن ربيعة، وهذا مصرع أمية بن خلف، وهذا مصرع أبي جهل بن هشام، وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله تعالى» ـ أي: ويضع ﷺ يده الشريفة على الأرض ـ فما تنحَّى أحد منهم عن موضع يده الشريفة، وكان ذلك ـ أي: تعيين مواضع القتلى ـ ليلة بدر بعد أنْ وصل ﷺ إلى محل الوقعة، فحقَّق الله تعالى ذلك، ولم يخطئ واحد منهم مصرعه الذي أخبر به ﷺ.

ثمّ لما تمت الوقعة أمر رسول الله ﷺ أنْ يُطْرح القتلى في القليب، فطرحوا إلا أمية بن خلف، فإنّه انتفخ في درعه فملأها، فذهبوا ليحرّكوه فتقطَّعت أوصاله، فأقرّوه مكانه وألقوا عليه من التراب والحجارة ما غيّبه، ولمّا أمر رسول الله بالقتلى أن يسحبوا

(١) انظر البداية والنهاية: (٢/ ٢٩٠).

(٢) هو خبيب بن إساف.

(٣) انظر عيون الأثر: (١/ ٤٢٠).

إلى القليب وسُحب عتبة بن ربيعة ـ والد أبي حذيفة ـ نظر رسول الله ﷺ في وجه أبي حذيفة بن عتبة فإذا هو كئيب قد تغيَّر فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا حذيفة لعله دخلك شيء»، فقال ﷺ: لا والله يا رسول الله ولكني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً فكنت أرجو أن يهديه الله تعالى إلى الإسلام فلما رأيت ما مات عليه أحزنني ذلك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيراً.

وسمع أهل مكة ليلاً هاتفاً يهتف في الجبال يسمعون صوته ولا يرون شخصه وهو يقول:

أزار الحنيفيون بدراً وقعية ... سينقض منها ملك كسرى وقيصرا
أصابوا رجالاً من لؤيٍّ وأبرزت ... خرائد يضربن الترائب حسَّرا
ألا ويح من أمسى عدو محمد ... لقد جار عن قصد الهدى وتحيرا
وأصبح في هامي التراب معفرا ... تناوبه الطير الجياع وتنقرا

فعلموا حينئذ بالوقعة. ولما اتَّضح لهم الأمر رثَت كفارهم قتلاهم بنحو:

وماذا بالقليب قليب بدر ... من الشيزى تكلل بالسنام
وماذا بالقليب قليب بدر ... من القينات والشرب الكرام
تحيا بالسلامة أم بكر ... فهل لي بعد قومي من سلام
يحدثنا الرسول بأن سنحيا ... وكيف حياة أصداء وهام

الشّيزى[1]: شجر تعمل منه الجفان والقصاع للثريد حال كونها تزين بلحوم سنام الإبل، والقينات: جمع قَيْنة، وهي المغنية، والشَرْب بفتح الشين وسكون الراء: النّدى، أي: الكرم. ويشير إلى إنكار البعث بقوله: يحدثنا الرسول بأن سنحيا... إلخ.

ثمّ جاء رسول الله ﷺ حتى وقف على شفير القليب ـ قيل: بعد ثلاثة أيام من إلقائهم ـ عند منصرفه من بدر، وجعل ﷺ يقول لهم: «يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقًّا، فإنّي وجدت ما وعدني الله حقًّا، بئس عشيرة النبيّ كنتُم لنبيكم، كذّبتموني وصدّقني الناس، وأخرجتموني، وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فقال عمر ﷺ: يا رسول الله، كيف تكلّم أجساداً لا أرواح فيها، قد جيّفوا؟! فقال رسول الله ﷺ: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يجيبون»[2].

---

(١) ويقال له: الآبنوس، وهو شجر خشبه أسود. انظر لسان العرب: مادة: (شيز).

(٢) انظر البداية والنهاية: (٣/٢٩٢)، وتاريخ الطبري: (٢/٣٧).

وأما الآيتان، قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[2]، فمعناهما: أنهم لا ينتفعون بدعوتك إياهم للإسلام، كما لا ينتفع بها الموتى ولا أهل القبور الذين ماتوا كفاراً.

ثمّ بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة رضي الله عنه بشيراً لأهل العالية ـ وهو محل قريب من المدينة الشريفة ـ وبعث زيد بن حارثة بشيراً لأهل السافلة راكباً ناقته ﷺ القصواء، وقيل: العَضْباء، وعلواء المدينة: ما كان في جهة نجد، ويسمى: العالية، وما كان في جهة تهامة يسمى السافلة، وقباء من عوالي المدينة، فلمّا ذهبا صارا يبشران بما وقع كله، وصار كعب بن الأشرف اليهودي يكذّبهما، ويقول: إنْ كان محمد قتلَ من ذكراه فبطن الأرض خير من ظهرها، قال أسامة بن زيد رضي الله عنه: فأتانا الخبر حين سوَّينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ زوجة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولما عُزِّي بها رسول الله ﷺ قال: «الحمد لله، دفن البنات من المكرمات»[3]، وفي رواية: «نِعْم الصّهر القبر»[4].

وأنشدوا في معناه:

القبر أخفى سترة للبنات	ودفنها يروى من المكرمات
أما رأيت الله عز اسمه	قد وضع النعش بجنب البنات[5]

وكان ولد لعثمان رضي الله عنه ولدٌ من رقيّة هذه يقال له: عبد الله، فاكتنى به، وكان قبل ذلك يكنى: أبا عمرو.

ثمّ لما رجع النبيّ ﷺ إلى المدينة رأى عثمان رضي الله عنه مهموماً بعد موت زوجته رقيّة رضي الله تعالى عنها فقال له: «ما لي أراك مهموماً؟»، فقال: يا رسول الله، وهل دخل

---

(١) النمل: ٨٠.

(٢) فاطر: ٢٢.

(٣) قال الهيتمي في مجمع الزوائد (٣/٩٧): رواه الطبراني في الأوسط والكبير إلا أنه قال: «موت البنات» وفيه عثمان بن عطاء الخراساني وهو ضعيف، وعزاه في كنز العمال إلى العسكري في الأمثال، وابن عساكر. انظره برقم: (٦٥٨٨ ـ ٤٢٩٦١)، وجزم ابن حجر ببطلانه. انظر الفوائد المجموعة: (١/٢٦٦).

(٤) ليس بحديث. انظره في كشف الخفاء للعجلوني برقم: (١٣٠٨ ـ ٢٨٢٩)، وأسنى المطالب للحوت البيروتي: (٢٤٤).

(٥) إشارة إلى المجموعة النجمية المعروفة ببنات نعش: وهي سبعة كواكب تشاهد جهة القطب الشمالي، شبهت بحملة النعش.

على أحد ما دخل عليَّ انقطاع الصّهر بيني وبينك، فبينما هو يحاوره إذ قال ﷺ: «هذا جبريل عليه السلام يأمرني عن الله عزَّ وجلَّ أنْ أزوجك أختها أم كلثوم على مثل صداقها، وعلى مثل عشرتها» فزوَّجه إياها.

ولما تزوَّجها رضي الله تعالى عنهما دخل ﷺ عليها وقال لها: «يا بنيَّة، أين أبو عمرو»، قالت: خرج لبعض حاجاته، فقال لها ﷺ: «كيف رأيت بعلك؟»، قالت: خير بعل وأفضله، قال: «يا بنيَّة، كيف لا يكون كذلك، وهو أشبه الناس بجدك إبراهيم وأبيك محمد ـ صلى الله عليهما وسلم».

ولما ماتت أم كلثوم تحته سنة تسع قال رسول الله ﷺ: «زوّجوا عثمان، لو كان لي ثالثة لزوّجته إيَّاها، وما زوجته إلا بوحي من الله تعالى».

وجاء أنه ﷺ قال: «لو كان لي أربعون بنتاً لزوجتكهن واحدة بعد واحدة حتى لم يبق منهن واحدة».

ولما قدم حِبُّ رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ﷺ على ناقة النبيّ ﷺ بالبشارة قال رجل من المنافقين لأبي لبابة ﷺ: قد تفرّق أصحابكم تفرّقاً لا يجتمعون بعده أبداً، قد قتل محمد وغالب أصحابه، وهذه ناقته عليها زيد بن حارثة لا يدري ما يقول من الرّعب، قال أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما: فجئت حتى خلوت بأبي، فقلت له: أحقٌّ ما تقول ـ أي: من البشارة ـ فقال: «إي والله يا بني» فقويت نفسي، فرجعت إلى المنافق فقلت له: أنت المرجف برسول الله ﷺ، لنقدمنّك إلى رسول ﷺ إذا قدم فليضربنّ عنقك، فقال: إنما هو شيء سمعت الناس يقولونه.

ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة قسَّم الغنيمة قبل وصوله ﷺ إليها حين خرج من مضيق الصّفراء، فكانت مئة وخمسين من الإبل وعشرة أفراس ومتاعاً وسلاحاً وأنطاعاً وثياباً وأدماً كثيرة حملها المشركون للتجارة، وذلك كله من غير السلب، وكان ذلك ما تنازعت الصّحابة رضي الله عنهم في قسمها، فقال الشبان: الغنيمة لنا لأننا نحن الذين باشروا القتال والذَّبَّ عن رسول الله ﷺ، وقال الشيوخ: بل لنا ولكم لأننا كنا ردْءاً لكم، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ ...﴾[1] إلى آخر الآيات.

---

(١) الأنفال: ١.

وقد أسهم رسول الله ﷺ لمن لم يحضر الوقعة لعذر منعه من الحضور كعثمان ﷺ والأربعة عشر نفراً قتلوا وماتوا بعد حوز الغنيمة، وتنفّل ﷺ زيادة على سهمه جمل أبي جهل، وكان مهرياً وسيفه ذو الفقار كان لمنبه بن الحجاج، وقيل لغيره وأمر ﷺ عليًّا بقتل النضر بن الحارث فقتله، فقال المقداد: يا رسول الله، إنه أسيري، فقال ﷺ: «إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول».

وقد رثته أختله قتيلة بنت الحارث، وقيل: ابنته رضي الله عنها، فإنها أسلمت بعد ذلك يوم الفتح، فقالت:

أمحمدٌ ولأنت نجلُ نجيبةٍ ... في قومها والفحلُ فحلٌ معرقُ

ما كان ضرَّك لو مننت وربما ... منَّ الفتى وهو المغيظ المحنق

فقال رسول الله ﷺ حين سمع كلامها:لو بلغني هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه[1].

ثمّ أمر رسول الله ﷺ بقتل عقبة بن أبي معيط بعرق الظبية - وهي شجرة يُستظلّ بها - فقال عقبة لما قدم للقتل: مَن للصِّبْية يا محمد؟، قال ﷺ: «النار»، فقال عقبة: يا معشر قريش، ما لي أقتل فيكم صبراً؟، فقال رسول الله ﷺ بكفرك وافترائك على رسول الله ﷺ. وفي لفظ آخر: «بفجورك وعتوِّك على الله وعلى رسوله، وببزاقك في وجهي» وأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾[2].

وأما النضر بن الحارث فوقائعه في تكذيب النبيّ ﷺ، وقد ذكر الكثير منها في التفاسير وكان يقول: محمد يأتيكم بأخبار الفراعنة، وأنا آتيكم بأخبار الأكاسرة، لأنه كان يتجر إلى الحيرة فيشتري كتب التواريخ ويقرؤها على أهل مكة فيعجبون منها، فلما بُعِث النبيّ ﷺ أعرض عنه المسلمون، فبغض رسول الله ﷺ، وقال: ولو نشاء لقلنا مثل هذا القرآن الذي يزعم محمد - ﷺ - أنه من عند الله، إنْ هذا إلا أساطير - أي: أكاذيب - الأولين، كما حكاه الله تعالى عنه وعن غيره في كتابه العزيز.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «لما قدمت المدينة، وكنت جائعاً، استقبلتني امرأة يهودية على رأسها جفنة فيها جدي مشويّ، فقالت: يا محمد، الحمد لله الذي سلَّمك الله كنت نذرت لله إنْ قدمت المدينة سالماً لأذبحنّ هذا الجدي

---

(١) انظر البداية والنهاية: (٣/٣٠٦)، وسيرة ابن هشام: (٣/٣٠٩).

(٢) الفرقان: ٢٧.

ولأشوينّه ولأحملنّه إليك لتأكلَ منه» فأنطق الله الجدي فقال: يا محمد، لا تأكلني فإني مسموم.

ثمّ فرّق ﷺ الأسارى بين الصّحابة رضي الله تعالى عنهم وقال: «استوصوا بهم خيراً».

وأما خبر أهل مكة، فقد كان أول من قدم مكة بمصاب قريش ابن عمرو[1] ﷺ[2] فقال لهم: قتل عتبة وشيبة وأبو الحكم وأمية...إلى آخر من قُتِل، وأُسِرَ فلان وفلان...إلى آخر من أُسِرْ، فقال صفوان بن أمية، وكان يقال له: سيد البطحاء، وكان من أفصح قريش، وكان جالساً في الحجر: والله إنْ يَعْقِلُ هذا ـ أي: ما يعقل هذا ـ فاسألوه عنّي، فسألوه، وقالوا: ما فُعِل بصفوان؟، قال: ذاك جالس في الحجر، وقد رأيت أباه وأخاه حين قُتِلا، فلما ظهر الخبر في مكة ناحت قريش على قتلاها، وجَزَّت النساء شعورهنَّ، وكنّ يأتينَ بفرس الرجل أو راحلته ويسترنها بالستور وينحن حولها، ويخرجن إلى الأزقَّة، ثمّ أُشير عليهنّ بأنْ لا تفعلنَ هذا الفعل، فيبلغ محمداً وأصحابه، فيشمتوا بنا، فلا نبكي على قتلانا حتى نأخذ بثأرهم، وتواصوا على ذلك.

وكان الأَسْود بن المطلب أصيب له في بدر ثلاثة: ولداه، وولد ولده، وكان يحب أن يبكي عليهم، وكان قد ذهب بصره بدعوة النبيّ ﷺ، لأنه كان من المستهزئين بالنبيّ ﷺ وأصحابه الكرام وكان إذا رآهم يقول: وقد جاءكم ملوك الأرض، ومن يغلب على ملك كسرى وقيصر، ويتكلّم في رسول الله ﷺ بما يشقُّ عليه، فدعا عليه رسول الله بأنْ يعميَ الله تعالى بصره، ويُثكله ولده، فاستجاب الله تعالى دعوة نبيه ﷺ فيه، فعمي وفقد أولاده في وقعة بدر.

ولما سمع الأسود المذكور صوت باكية قال لغلامه: انظر هل بكت قريش على قتلاها لعلِّي أبكي، فإنّ جوفي قد احترق، فلما رجع الغلام قال: إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلَّته، فأنشد أبياتاً منها:

أتبكي أن يضل لها بعير ... ويمنعها من النوم السهود
فلا تبكي على بكر ولكن ... على بدر تقاصرت الجدود
ألا قد ساد بعدهم رجال ... ولولا يوم بدر لم يسودوا

---

(١) واسمه: الحيسمان.

(٢) فإنه أسلم بعد ذلك.

والسُّهود بضم السين المهملة: الأَرَق والسَّهر، والبَكْر بفتح الباء الموحدة: الفتيّ من الإبل، والجُدود بضم الجيم: جمع جَدْ بفتحها، وهو الحظّ والسّعد.

وروى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، عن عكرمة مولى أبي رافع مولى رسول الله ﷺ، وكان غلاماً للعباس ﷺ يومئذ: أنه لما قدم أبو سفيان بن الحارث على أبي لهب في مكة، وكان مع قريش، فقال له عمه أبو لهب: عندك الخبر، ذذذذ أخبرني ما فُعِل بقومك؟، فقال أبو سفيان: والله ما هو إلا أنْ التقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وايم الله ما من الناس، ولقد لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض، والله لا يقوم لها شيء، فقال أبو رافع: والله تلك الملائكة، فضربه أبو لهب بيده على وجهه ضربه شديدة، واحتمله وضرب به الأرض، ثمّ برك عليه يضربه، فقامت أمّ الفضل إلى عمود وضربته به ضربة على رأسه فشجّته شجة منكرة، وقالت: استضعفته أنْ غاب سيده ـ تعني العباس ﷺ ـ فما عاش أبو لهب بعدها إلا سبعة أيام حتى رمي بالعدسة ـ وهي بثرة تشبه العدسة من جنس الطاعون ـ فقتلته، فلم يحفروا له حفرة، وإنما أسندوه إلى حائط، ثمّ قذفوه بالحجارة حتى واروه.

وذلك لأن العرب يزعمون أنّها تعدي أشدّ العدوى. وقيل: حفروا له حفرة ودفعوه فيها بالعِصِيِّ من بعيد، ثمّ رموه بالحجارة لما خافوا العار من تباعد أهله عنه.

ثمّ استشار ﷺ الصّحابة رضي الله تعالى عنهم فيما يفعله بأسارى بدر من القتل والفداء، فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله، أهلك وقومك، بنو العمّ والعشيرة والإخوان، قد أعطاك الله الظَّفَر بهم ونصرك عليهم، فالذي أراه أنْ تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذناه منهم قوّة لنا على الكفار، وعسى الله أنْ يهديهم بك، فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله ﷺ: «ما تقول يا ابن الخطاب؟»، قال: يا رسول الله، قد كذّبوك، وأخرجوك، وقاتَلوك، وما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أنْ تُمكّنني من فلان ـ قريب من عمر ﷺ ـ فأضربَ عنقه، وتمكّن عليًّا من أخيه عقيل، فيضرب عنقه، وتمكّن حمزة من العباس، فيضرب عنقه، حتى يُعلم أنه ليست في قلوبنا مودَّة للمشركين، ما أرى أن يكون لك أسرى، فاضرب أعناقهم، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم.

وقال ابن رواحة ﷺ: انظروا وَادِياً كثير الحطب فأضرموه عليهم ناراً، فقال العباس ﷺ وهو يسمع: ثكلتك أمك. فدخل رسول الله ﷺ البيت، ولم يردَّ عليهم

شيئاً، فقال بعض الناس: يأخذ ﷺ بقول أبي بكر ﷺ، وقال بعضهم: يأخذ بقول ابن رواحة ﷺ، وسكتوا عن قول عمر ﷺ، ثمّ خرج رسول الله فقال: «إن الله ليلينّنّ قلوب أقوام فيه حتى تكون ألْين من اللين، وإنّ الله ليشدّ قلوب أقوام فيه حتى تكون أشدّ من الحجارة، مَثَلُك يا أبا بكر في الملائكة مثل ميكائيل ينزل بالرحمة، ومَثَلُك في الأنبياء مَثل إبراهيم عليه الصّلاة والسلام حيث يقول: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] ومثلك يا يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2] ومَثَلك يا عمر في الملائكة مَثل جبريل عليه السلام ينزل بالشّدة والبأس والنقمة على أعداء الله تعالى ـ أي: أغلب أحواله ذلك، فلا ينافي أنه ينزل بالرحمة في بعض الأوقات ـ ومَثَلك في الأنبياء مَثل نوح عليه السلام إذ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[3] ومثلك في الأنبياء مثل موسى عليه السلام إذ قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[4] ثمّ قال رسول الله ﷺ نزل عليَّ جبريل عليه السلام، فقال: إن شئتم أخذتم منهم الفداء، ويستشهد منكم سبعون بعد ذلك في العام القابل ـ يعني: في غزوة أحد ـ وإنْ شئتم قتلتوهم، فقالت الصّحابة رضي الله تعالى عنهم ـ أي: الحاضرون منهم، أي: معظمهم ـ بل نفاديهم يا رسول الله فنتقوّى بالفداء عليهم، ويدخل في القابل منّا الجنة سبعون يستشهدون فليس ذلك مما نكره، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر ويا عمر، لو توافقتما لما خالفتكما، فلا يفلتنّ منهم أحد إلا بفداء أو عتق، فلمّا كان الغد غدا عمر ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فإذا هو وأبو بكر يبكيان فقال عمر: يا رسول الله، ما يبكيكما، فإنْ وجدت بكاءً بكيت معكما، وإلا تباكيت لبكائكما»، فقال رسول الله ﷺ: «إن كاد لمسّنا في خلاف ابن الخطاب عذابٌ عظيم، لو نزل عذاب ما أفلتَ منه إلا ابن الخطاب، لقد عرض عليَّ عقابهم أدنى من هذه الشجرة» أشار لشجرة قريبة منه ﷺ فقد أنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ

(١) ابراهيم: ٣٦,٠

(٢) المائدة: ١١٨.

(٣) نوح: ٢٦.

(٤) يونس: ٨٨.

﴿أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ﴾ أي: يكثر القتل ويبالغ فيه ﴿فِي الأَرْضِ﴾ ليذلَّ الكفر ويقلَّ حزبه ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ أي: حطامها بأخذكم الفداء ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ أي: أن يكون ثوابها لكم بسبب إعزاز دينه وقمع أعدائه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ ينصر أولياؤه على أعدائه ﴿حَكِيمٌ﴾[1] يعلم ما يليق بكل حال، فدبَّر ذلك لكم ﴿لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ في اللوح المحفوظ من أنّ المخطئ في اجتهاده لا يعاقب ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أي: نالكم وأصابكم ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ أي: من الفدية فإنّها أحلّت لكم مع الغنيمة ﴿حَلاَلاً﴾ أحلَّها الله تعالى لكم ﴿طَيِّباً﴾ لا شبهة في حلِّها، إذا كانت طاهرة يحل تناولها ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ في مخالفته ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يغفر لكم ذنوبكم ﴿رَّحِيمٌ﴾[2] بكم، حيث أباح لكم ما أخذتم من الغنيمة والفداء.

ثمّ لما أباح الله تعالى أخذ الفداء بلغ الخبر إلى قريش، فتواصوا فيما بينهم على أن لا يعجّلوا في طلب فداء الأسارى لئلا يتغالى النبيّ ﷺ وأصحابه بزعمهم في الفداء، ولم يلتفت لذلك المطلب بن أبي وداعة السّهمي، بل خرج من الليل خفية، وقدم المدينة، فأخذ أباه بأربعة آلاف درهم، وقد كان قال ﷺ لأصحابه رضي الله تعالى عنهم لما رأى أبا وداعة أسيراً: «إن له بمكة ابناً كيّساً تاجراً ذا مال، وكأنّكم به قد جاءكم في طلب فداء أبيه». فكان أبوه ـ واسمه الحارث ـ أول أسير فدي.

وعند ذلك بعثت قريش في فداء الأسارى، وكان الفداء فيهم على قدر أموالهم من أربعة آلاف إلى ثلاثة آلاف إلى ألفين إلى الألف.

وكان من جملة الأسارى عمرو بن أبي سفيان بن حرب أخو معاوية، أسره سيدنا علي ﷺ، فقيل لأبي سفيان: افد ابنك عَمْراً، فقال: أيجمع على دمي ومالي، قتلوا حنظلة ـ يعني: ابنه، وهو شقيق أم حبيبة أم المؤمنين ﷺ ـ وأفكُّ عمراً، دعوه في أيديهم يسبونه ما بدا لهم.

فبينما أبو سفيان في مكة إذ قدم سعد بن النعمان أخو بني عمرو بن عوف من المدينة معتمراً، فغار عليه أبو سفيان فحبسه بابنه فمضى بنو عمرو بن عوف إلى النبيّ ﷺ فأخبروه خبر سعد بن النعمان، وسألوه ﷺ أنْ يعطيهم عمرو بن أبي سفيان،

(١) الأنفال: ٦٧.

(٢) الأنفال: ٦٨ ـ ٦٩.

فيفكُّون به صاحبهم سعد بن النعمان، ففعل رسول الله ﷺ، فبعثوا بـه إلى أبي سـفيان فخلَّى سبيل سعد رضي الله عنه.

وكان في الأسرى زوج بنت النبيّ ﷺ زينب رضي الله عنها، وهو أبو العاص بن الربِيَّع[1] ـ بكسر الموحدة وتشديد الياء التحتية مفتوحة ـ.

ولا يليق أن يقال: هو أو عليّ رضي الله عنه ختن النبيّ ﷺ فإنّ المالكية يرون أن مـن قـال ذلك، أو نعت النبيّ ﷺ بأنّه يَتِيمَ أبي طالب، فقد ارتد والعياذ بـالله تعـالى، لإشـعاره بالتنقيص.

فبعثت زينب رضي الله عنها في فداء زوجها أبي العـاص قـلادة كانـت لهـا، وكانـت أمهـا خديجة رضي الله تعالى عنها أدخلتها بها عليه لمّا بنى بها، وكان الجائي بالقلادة عمرو بن الربِيَّع، ولا يُعلم لعمرو هذا إسلام، فلمّا رأى رسول الله ﷺ تلك القـلادة رقّ لهـا رقَّة شديدة، وقـال ﷺ للـصحابة رضـي الله تعـالى عنـهم: «إنْ رأيـتم أن تطلقـوا لهـا أسيرها، وتردوا عليها قلادتها، فافعلوا»، فقالوا: نعم يـا رسـول الله، فـأطلقوه وردُّوا عليها القلادة، فشرط عليه أن يخليّ سبيل ابنتـه زينـب ـ أي: أنْ تهـاجر إلى المدينـة ـ وقد كان كفّار قريش أرادوا إلى عمرو هذا أن يطلق زينب بنت رسول الله ﷺ لما طلـق ولدا أبي لهب بنتي النبيّ ﷺ قبل الدخول بهمـا ـ رقيـة وأم كلثـوم رضـي الله عنـهما ـ وقالوا له: إنْ طلقتها نزوِّجك من شئت من نساء قـريش، فـأبى ذلـك، وقـال: والله لا أفارق صاحبتي، وما أحبّ أنّ لي بها امرأة من قريش، فشكر له رسول الله ﷺ ذلـك، وأثنى عليه بذلك خـيراً، فلمّـا وصـل أبـو العـاص مكـة أمرهـا باللّحـاق بأبيهـا ﷺ، فخرجت رضي الله تعالى عنها، وقد كان أرسل ﷺ زيد بـن حارثـة ورجـلاً آخـر مـن الأنصار وقال لهما: تكونان بمحل كذا لمحل قريب مـن مكـة حـتى تمـرّ بكمـا زينـب فتصحبانها حتى تأتيا بها.

وقدّم أخو زوجها لها بعيراً فركِبَتْه، فأخذ قوسه وكنانته، ثمّ خرج بها يقودهـا في هودج لها، وكانت حاملاً، فتحدّث بذلك رجال من قـريش فخرجـوا في طلبـها حـتى أدركوها بذي طوى، فكان أوّل من سبق إليها هبـار بـن الأسـود رضي الله عنه[2] ونخس الـبعير

---

(١) أبو العاص: اختلف في اسمه، فقيل: جرو البطحاء، وقيل: لقيط، وقيل: هشيم، والأكثر لقيط، وأمّه هالة بنتِ خويلد خالت السيّدة زينب رضي الله عنها. توفي في ذي الحجة سنة ١٢هـ. انظر الاستيعاب: (٥٤٥).

(٢) فإنه أسلم بعد ذلك.

بالرمح، فوقعت رضي الله تعالى عنها، وألقت حَمْلها، فبرك كنانة أخو زوجها ونشر كنانته، وقال: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهماً، فخرج أبو سفيان مع جماعة من قريش وقالوا له: إنّك لم تصب في إخرجها جهراً نهاراً على رؤوس الناس، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد فيظنّ الناس إذ خرجتَ بابنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا أنّ ذلك عن ذلّ أصابنا، وأنّ ذلك ضعف منا ووهن ولعمري مالنا من حاجة بحبسها عن أبيها، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدّث الناس أنْ قد رددناها، فتسلل بها سراً، فألحقها بأبيها.

فردَّها إلى مكة ليالي ثمّ أخرجها سرًّا ليلاً حتى سلَّمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، وقيل: أرسل إليها زيد خاتم النبيّ ﷺ فلما رأته عرفته، فقالت: من دفع إليك هذا؟، قال: رجل في ظاهر مكة، فخرجت زينب رضي الله عنها ليلاً، فركبت وراءه، حتى قدم بها المدينة، ومن ثمّ قال ﷺ: هي أفضل بناتي أصيبت فيّ»[١].

وكان من الأسارى سهيل بن عمرو العامري، وهو من أشراف قريش وخطبائها في الجاهلية، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: دعني أنزع ثنيَّتي سهيل بن عمرو، ويدلع ـ أي: يخرج لسانه ـ لأنه كان أعلم ـ أي: مشقوق الشفَّة العليا، فإذا نزعت ثنيَّته لم يستطع الكلام ـ فلا يقوم عليك خطيباً يا رسول الله في موطن أبداً، فقال رسول الله ﷺ: «لا أمثّل به فيمثّل الله تعالى بي وإن كنت نبيّاً، وعسى أن يقوم مقاماً لا تذمُّه».

فكان كذلك، فإنه لما مات رسول الله ﷺ أراد أهل مكة الرجوع عن الإسلام حتى خاف أمير مكة عتاب بن أسيد رضي الله عنه وتوارى خوفاً منهم، فقام سهيل بن عمرو رضي الله عنه خطيباً فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثمّ ذكر وفاة رسول الله ﷺ وقال: يا أيها الناس من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، ألم تعلموا أن الله قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[٢]، وقال: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾[٣].

وقال: والله إني لأعلم أنّ هذا الإسلام سيمتدُّ امتداد الشمس في طلوعها وغروبها، وتوكَّلوا على ربكم، فإنّ دين الله قائم وكلماته تامَّة، وإن الله ناصر من نصره، ومقوٍّ

---

(١) عزاه ابن كثير في سيرته إلى البيهقي. انظر سيرة ابن كثير: (٢/٥١٦).

(٢) الزمر: ٣٠.

(٣) آل عمران: ١٤٤.

دينه، وقد جمعكم الله على خيركم أبي بكر الصّديق ﷺ.

وقال: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رأيناه ارتدَّ ضربنا عنقه، فتراجع الناس عن ارتدادهم وكفُّوا عمّا هموا به، فعند ذلك ظهر عتاب بن أسيد أمير مكة ﷺ.

وقدم مكرز بن حفص في فداء سهيل فلمّا ذكر قدراً أرضاهم به قالوا له: هات به، فقال: اجعلوا رِجلي مكان رجله وخلُّوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه، فخلُّوا سبيل سهيل وحبسوا مكرز.

وكان في الأسارى الوليد بن الوليد، أخو خالد بن الوليد، افتكه أخواه هشام وخالد، فلما افتدي أسلم فعاتبوه في ذلك، فقال: كرهت أن يظنَّ بي أنّي جزعت من الأسر.

ولما أسلم ﷺ وأراد الهجرة حبسه أخواه هشام وخالد، وكان النبيّ ﷺ يدعو له في القنوت عدّة أيام، ثمّ أفلت ولحق بالنبيّ ﷺ في عمرة القضاء.

وكان في الأسارى وهب بن عمير ﷺ[1] أسره رفاعة بن رافع، وكان عمير ـ أبو وهب ـ شيطاناً من شياطين قريش، وكان ممن يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه بمكة رضي الله تعالى عنهم، فجلس يوماً مع صفوان بن أمية في الحجر فتذاكرا أصحاب القليب فقال صفوان: ما في العيش والله خير بعدهم، فقال له عمير: صدقت، أما والله لولا دَيْن عليَّ ليس عندي قضاؤه، وعيال أخشى عليهن الضيعة بعدي لكنت آتي محمداً حتى أقتله، فإنّ لي فيهم علة: ابني أسير في أيديهم، فقال صفوان: أما الدين فأنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، قال عمير: واكتمها عنّي.

ثمّ انطلق مسافراً إلى المدينة فصار صفوان يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم، فتنسيكم وقعة بدر، فلمّا وصل عمير المدينة، وأناخ راحلته بباب المسجد الشريف، وعمر بن الخطاب ﷺ يتحدّث في نفر من المسلمين عن يوم بدر، فوقع نظره عليه، فقال عمر: هذا الكلب عدو الله عمير، ما جاء إلا بشرٍّ، ثمّ دخل عمر ﷺ على رسول الله فقال: يا رسول الله، هذا عدو الله عمير بن وهب، قد جاء متوشّحاً سيفه، فقال ﷺ: «أدخله عليَّ»، فأدْخله عمر ﷺ بعد أنْ وضع حمّالة سيفه في عنقه، فمسكه بها، وقال لرجال كانوا معه من الأنصار رضي الله عنهم: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، فإن هذا الخبيث غير مأمون.

---

(١) فإنه أسلم بعد ذلك.

ثمّ دخل ﷺ به على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر ﷺ آخذ بحمّالة سيفه في عنقه قال ﷺ: «أرسله يا عمر، أُدْنُ يا عمير»، فدنا، ثمّ قال عمير: انعموا صباحاً، فقال رسول الله ﷺ: «قد أكرمنا الله بالسلام خير من تحيَّتك، فإنه تحية أهل الجنة، فما جاء بك يا عمير؟»، قال: جئتكم لهذا الأسير الذي في أيديكم ـ يعني: ولده وهباً ـ فأحسنوا فيه، قال ﷺ: «فما بالُ السيوف؟»، فقال: قبَّحها الله من سيوف، وهل أغنت عنَّا شيئاً، فقال ﷺ: «أصدقني بالذي جئت به»، فقال: ما جئت إلا لذلك، فقال ﷺ: «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثمّ قلت: لولا دين عليَّ ليس عندي قضاؤه وعيال أخشى عليهنّ الضيعة بعدي لخرجت حتى أقتل محمدا، فتحمَّل لك صفوان دينك، وتكفَّل بمواساة عيالك على أن تقلتني، والله حائل بينك وبين ذلك»، فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنَّا يا رسول الله نكذّبك بما تأتي به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أنبأك به إلا الله تعالى، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثمّ أعاد الشهادة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «فقِّهوه في دينه، وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره»، ففعلوا ذلك.

ثمّ قال: يا رسول الله، إنّي كنت جاهداً على إطفاء نور الله شديد الأذى لمن كان على دينك، فإنّي أحبّ أنْ تأذن لي أقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام لعلّ الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم، فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة.

وأسلم ولده وهب ﷺ ودخل مكة وأظهر إسلامه، ثمّ قال لصفوان: أرأيت الذي كنَّا عليه من عبادة الحجر والذبح له، أهذا دين الله؟!، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، فلم يجبه صفوان بكلمة، وحلف لا يكلمه أبداً، وعند فتح مكة أستأمن عمير لصفوان حتى آمَن برسول الله ﷺ بعد أنْ جالسه أياماً. وإلى قصة صفوان وما قاله لوهب أشار الشارح المحلي مذيِّلاً الأصل ببيتين يُلحقان به حيث قال:

وأظهرت سرًّا لابن وهب بعيد ما ... تجهز لقتل حين صار بطيبة
وأخبرته عما نواه مفصِّلاً ... فأسلم حالاً عند كشف الحقيقة

وكان في الأسارى أبو عزيز بن عمير[1]، أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه، قال

(١) واسمه: زرارة بن عمير. انظر الروض الأنف: (١/ ٢٧٢).

أبو عزيز: مرَّ أخي مصعب فقال للذي أسرني: شدَّ يديك به، فإنّ أمّه ذات متاع لعلّها تفديه منك، فقلت له: يا أخي هذه وصيتك بي، فبعثت أمّه في فدائه أربعة آلاف درهم، ففدته بها.

وكان في الأسارى العبّاس عمُّ النبيّ ﷺ وقد شُدَّ وثاقُهُ، فأَنَّ ﷺ أنيناً قويًّا فلم يأخذه ﷺ نوم، فقيل له: ما أرّقك يا رسول الله، فقال ﷺ: «أنين العباس»، فقام رجل فأرخى وثاقه، وفعل ذلك بالأسارى كلّهم، والذي أسر العباس هو أبو اليسر كعب بن عمرو، وكان دميماً ـ بالمهملة صغير الجثة ـ والعباس ﷺ جسيماً طويلاً، فقيل للعباس: لو أخذته بكفك لوسعته كفك، فقال ﷺ: ما هو إلا أنْ لقيته فظهر في عيني كالخَنْدمة[1] وأبو اليسر هو الذي انتزع راية المشركين، وكانت بيد أبي عزيز بن عمير.

وروي أنّ النبيّ ﷺ سأل كعباً: «كيف أسرت العباس» فقال: يا رسول الله، أعانني عليه مَلَكٌ كريم.

وروي أنّ العباس قال: والله إنّ هذا ما أسرني، لقد أسرني رجل أبلج من أحسن الناس وجهاً على فرس أبلق، ما أراه في القوم.

وجعل ﷺ فداء العباس أربعين أوقية من ذهب، وجعل عليه أيضاً فداء عقيل ابن أخيه أربعين أوقية، وجعل عليه أيضاً فداء ابن أخيه نوفل أربعين أوقية، وقيل: فداء كل واحد من الأخيرين ثمانون.

وروي أنه ﷺ قال له: «افد نفسك يا عباس، وابن أخيك عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو بن ربيعة»، ففدى نفسه بمئة أوقية، وكلّ واحد بأربعين، وقال للنبيّ ﷺ: تركتني فقيرَ قريش ما بقيتُ، فقال له رسول الله ﷺ: «فأين المال الذي دفعته لأمّ الفضل ـ يعني: زوجته ـ وقلتَ لها: إنّي أصبتُ هذا المال لابنيَّ الفضل وعبد الله وقثم»، فقال: والله، إني لأعلم أنك رسول الله، وشهد شهادة الإسلام، وقال: والله هذا شيء ما أعلمه إلا أنا وأمّ الفضل، وقال: يا رسول الله، إنّي كنت مسلماً، ولكنّ القوم استكرهوني، فقال له النبيّ ﷺ: «الله أعلم بما تقول، إن يكن حقًّا، فإنّ الله يجزيك، ولكنّ ظاهر أمرك أنّك كنت علينا، وقد أنزل الله فيك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ

---

(١) جبل من جبال مكة.

﴿خَيْرًا﴾ أي: إيماناً وإخلاصاً ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ أي: من الفداء ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ما وقع منكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لعباده التائبين ﴿رَّحِيمٌ﴾[1] بعباده المؤمنين.

ثمّ إنّ العبّاس لم يُظْهِر إسلامه إلا يوم فتح مكة خوفاً من قريش أنْ تأكل أمواله، وقال آخِراً للنبيّ ﷺ: والله لوددت لو أخذتَ مني فداءً أضعاف ما دفعتُه لك، فقد آتاني الله خيراً مما أخذ مني: مئة عبد.

ثمّ مَنَّ رسول الله ﷺ على نفر من الأسارى بغير فداء: منهم أبو عزَّة عمرة الجمحي الشاعر، كان يؤذي النبيّ ﷺ بشعره فقال: يا رسول الله، إني فقير ذو عيال وحاجة قد عرفتَها، ولي خمس بنات ليس لهنّ شيء، فتصدَّق بي عليهنّ، ففعل ﷺ وأعتقه، وعاهده أنْ لا يظاهر عليه أحداً.

ولما وصل أبو عزَّة إلى مكة قال: سحرت محمداً، فلمّا كان يوم أُحُد نقض العهد، وخرج مع المشركين يحثُّهم على قتال المسلمين بشعره فأُسِرَ، وقتل صبراً عند منصرف المسلمين من أُحُد، وحمل رأسه إلى المدينة.

وورد أنّ جبريل عليه السلام قال للنبيّ ﷺ: ما تعدُّون أهل بدر فيكم؟، فقال ﷺ: «من أفضل المسلمين»، فقال جبريل عليه السلام: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة، إنّ للملائكة الذين شهدوا بدراً لفضلاً على من تخلَّف منهم[2].

وقال رسول الله ﷺ «اطَّلع الله على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»[3]. أي: ما تقدّم وما تأخر.

وعن الشَّعبي[4] أنّ رجلاً قال للنبيّ ﷺ: إني مررت ببدر فرأيت رجلاً يخرج من الأرض فيضربه رجل بمقمعة، وفي لفظ: بعمود من حديد حتى يغيب في الأرض، ثمّ يخرج فيفعل به مثل ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك أبو جهل يعذَّب إلى يوم القيامة»[5].

---

(١) الأنفال: ٧٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٣٧٧١).

(٣) رواه البخاري رقم: (٤٠٢٥)، ومسلم في صحيحه رقم: (٢٤٩٤)، وأبوداود في سننه واللفظ له برقم: (٤٦٥٤)، والترمذي في سننه برقم: (٣٣٠٥). وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) هو التابعي الجليل عامر بن شراحيل رضي الله عنه. توفي سنة /١٠٤/هـ. انظر طبقات ابن سعد: (٢٤٦/٦).

(٥) انظر البداية والنهاية: (٢٨٩/٣).

وذكر ابن مرزوق أنّ ابن عمر ﷺ مرَّ ببدر فإذا رجل يعذَّب ويئنُّ فناداه يا عبد الله، قال: فالتفتُ إليه، فقال: اسقني، فأردتُ أنْ أفعل، فقال الأسود الموكل بتعذيبه: لا تفعل يا عبد الله، فإنّ هذا من المشركين الذين قتلهم رسول الله ﷺ، فأخبرت النبيّ ﷺ بما كنت رأيت فقال ﷺ: «أوَقد رأيته؟»، قلت: نعم، قال: ذاك عدو الله أبو جهل، وذاك عذابه إلى يوم القيامة».

رميت من الحصباء كفًّا كأنما   رميت إلى كلٍّ بكأس المنية

حاصله: يا رسول الله في يوم بدر لما اشتدَّ الأمر على المسلمين، واشتبكت الحرب رميت الكفار كفًّا مملوءاً من الحصباء، وقيل: من الرمل، وقيل: من التراب، فكل من أصابه شيء من ذلك قُتِل أو أسر، وقال ﷺ عند رميها: «شاهت الوجوه، شدّوا عليهم»، وقيل: رماهم ﷺ بثلاث حصيات نزلت من السماء، فأمرك جبريل عليه السلام برمي كلّ واحدة في جهة من جهات الكفار، فانهزموا كأنما رميتَ كلّ واحد بكأس المنيّة ـ أي: بكأس الموت يموت متناوله فور رميه به ـ أشار به إلى قول عمرو بن وهب الجمحي لكفار قريش لمّا بعثوه ليحزر لهم كم عدد المسلمين، فقال لهم: ثلاثمئة تقريباً، ولكني رأيت ـ يا معشر قريش ـ البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع. كما تقدم مفصَّلاً.

بكل امرئ شاكي السلاح مجالد   محيّاهُ سهل وهو صعب الشكيمة

حاصله: فصار المشركون بعد رميك يا رسول الله الحصى في وجوههم مرمين بكلّ امرئ وشخص من المسلمين معه المنيَّة لهم، وهو (شاكى السلاح) أي: حادّه وتامّه، (مجالد) أي: له جلَد وثبات في الحروب، (محيّاه) أي: وجهه، يظهر السهولة وحسن الأخلاق الكامنة في صاحبه المدلول عليها بسيما وجوههم، ففيها ما يدل على حلمهم وتواضعهم وبشرهم في وجوه الضعفاء والمساكين والضيوف، ومع ذلك فإنّ الواحد من هؤلاء المسلمين الذين رميت الكفار بالمنايا التي يحملونها هو (صعب الشكيمة) أي: صعب عند الشكيمة، أي: عند اللقاء في الحرب مع أعدائه لشجاعته وفروسيَّته، كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾[1] أي: أعزَّة على الكافرين، أذلّة فيما بينهم، قال عمر بن الخطاب ﷺ: لقد لان قلبي في الله حتى لهو

---

(١) الفتح: ٢٩.

ألين من الزُّبد، ولقد اشتدَّ قلبي في الله حتى لهو أشدُّ من الحجر.

أمدتك أملاك السماء وقاتلت عداك فأفنت منهم أي فرقة

لقد أمدَّتك أملاك السماء يا رسول الله في وقعة بدر، فقاتلت معك أعداءك، فأفنت منهم (أيّ فرقة) أي: فرقة عظيم فسادهم وشرهم وعتوُّهم.

وأخبرت عن كلٍ بموضع قتله فلم يتزحزح عنه مغرز إبرة

إنّك يا رسول الله قد كنت قبل وقعة بدر ـ لما وصلت بدراً قبل المشركين ـ أخبرت عن كلّ قتيل وعن موضع قتله، فلما صارت الوقعة قُتِل كلّ من أخبرت بقتله في الموضع الذي أخبرت عنه، ولم يتزحزح عن موضع إخبارك بقدر مغرز إبرة كما تقدم مفصَّلاً.

وأعطيت جزلاً واهياً لعكاشة وقد حميت نار القتال وشَبَّت

فصار بإذن الله سيفاً بكفِّه وكان له عوناً على كل غزوة

إنك يا رسول الله لما جاءك عكاشة، وقد انكسر سيفُه جراء قتال الكفار ببدر أعطيته عوداً يابساً كان بيدك الشريفة، فأخذه وهزَّه فصار سيفاً طويلاً بطول قامة شديد المتن أبيض الحديد، فقاتل به في بدر ولم يزل يقاتل به بعد ذلك حتى قتل في قتاله المرتدين وهو معه في خلافة أبي بكر الصّديق ﷺ، وكان يسميه العون كما تقدم مفصلاً.

وأخبرتهم عن عتبة بمقالة ففا بها من بعد ذاك بلحظة

فما ضره لو كان خالف رأيهم وما ضرَّهم لو وافقوا ابن ربيعة

حاصله: أنّ عتبة بن ربيعة لما سُحِب إلى القليب مقتولاً يوم بدر على الكفر أخبرت يا رسول الله ابنه أبا حذيفة بأنه وقع في قلبه حزن على أبيه ففاه أبو حذيفة ـ أي: تفوَّه ـ واعترف بصدقك يا رسول الله فيما قلت من المقالة، وذلك لما قال له رسول الله ﷺ: «لعلك داخلَك في شأن أبيك شيء؟»، فقال أبو حذيفة ﷺ: لا والله يا رسول الله، ما شككتُ في أبي ولا في مصرعه، ولكنّي كنت أعرف من أبي رأياً وعقلاً وحلماً، فكنت أرجو أن يهديَه الله بذلك للإسلام، فلما رأيت ما مات عليه من الكفر أحزنني ذلك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير حتى ذهب ما به.

وكان عتبة والد أبي حذيفة المذكور لا يحبّ معادات النبيّ ﷺ وأشار عليهم مراراً بعدم قتالهم له ﷺ فاتهموه بأنّه إنما وقف هذا الموقف لكون ابنه أبي حذيفة مع

النبيّ ﷺ، فحينئذ وافقهم على القتال حتى قتل كافراً لسابقة الشقاء المحتَّم عليه والعياذ بالله تعالى.

فما كان عتبة بن ربيعة تضره مخالفته لقريش في رأيهم لقتال النبيّ وكفرهم به ﷺ، وما كان يضرُّهم لو وافقوه فيما أشار به من عدم القتال وعدم المعاداة له ﷺ، ولكن وقع ما ذكر ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وعتبة هذا كان خال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وكان شجاعاً سخيًّا عاقلاً، وهو الذي لما اجتمعت قريش يتشاورون في أمر رسول الله ﷺ قال: انظروا أعلمكم بالشعر والسِّحْر والكهانة فليكلّم محمداً لينظر ماذا يردّ عليه، فاجتمعوا على أنّ أعلمهم عتبة فأرسلوه إلى النبيّ ﷺ يكلِّمه فقال له: إنّ قومك يقولون لك: إنْ كان مرادك الزواج فاختر أيّ نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً، وإنْ كان مرادك المال جمعنا لك من المال حتى تكون أغنى رجل من قريش، وإن كان مرادك الملك ملكناك علينا، فقال ﷺ له: أفَرَغت؟ قال: نعم، فقرأ ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[2] فأمسك عتبة على فيه، وناشده الرّحم ليسكت، وقال: حسبك يا محمّد، ثمّ رجع إلى قريش فقال لهم: ليس ما أتى به سحر ولا شعر ولا كهانة، والذي نصبها كعبة، ما فهمتُ مما قال غير ﴿أنذرتكم صاعقة﴾ فخفت نزولها. فهذا مَنْ أجمعت قريش على عقله، وتقدّم له كلام آخر فتدبَّر.

ومات ابن صيفي على الصّفة التي ذكرت وحيداً بعد طرد وغربة

يعني: قد ذكرت يا رسول الله في أثناء دعائك على أبي عامر بن صيفي أنه يموت طريداً غريباً وحيداً فكان كما قلت.

وحاصل خبره:

أنّ أبا عامر المذكور هو وابن أُبَيٍّ ابن سلول كانا طامعان في الرياسة على المدينة، وكانت بعثة النبيّ ﷺ حائلة ومانعة لهما من مأربهما، وكان لكل واحد منهما ولد صالح فعبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول له ولد اسمه عبد الله حَسَنُ الإسلام، لما أظهر

---

(١) فصلت: ١ ـ ٤.

(٢) فصلت: ١٣.

أبـوه نفاقـه وغيظـه وقـال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾[1] وذلك أنّه وقع في بعض الغزوات تنازعٌ بين مملوك لعمر بن الخطاب ﷺ مـع مملوكـه وخادمه على نزع الماء أولاً، فغلب مملوك عمر بن الخطاب ﷺ وقهر مملوك عبـد الله ابن أُبيٍّ، فبلغ الخبر عبد الله بن أُبيٍّ فقال: يا أهل المدينة، صار فينا كما يقـول المثـل: سمّن كلبك يأكلك، هذه المرة تعدّوا علـى المملـوك، والمـرة الثانيـة يكـون التعـدّي عليكم، أنتم آويتموهم ـ أي: المهاجرين ـ وأطعمتموهم فيكم، حتى فعلوا هكـذا، ثمّ يتوصلون بعد ذلك لما هو أعظم منه، ولكن ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ ومراده بالأعزّ نفسه ومن معه من المنافقين، وبالأذل المسلمون، فلمّا بلغ الخبر النبيّ ﷺ كذّب ﷺ القائل له حتى نزل القـرآن بتـصديقه، فـأراد عمـر ﷺ قطـع رأسه، فقال له النبيّ ﷺ: «لا يتحدّث أنّ محمداً يقتل أصحابه»، فلمّا بلغ الخـبر لابنـه عبد الله قال: يا رسول الله، أنت الأعزّ وهو الأذلّ، إن شئت أتيتك برأسه، فأبى رسول الله، فقال ابنه: يا رسول الله، لا تؤاخذه، فإن ذلك من غيظه على ما فاته مـن الرياسـة على أهل المدينة.

وأبو عامر اسمه عبد عمرو بن صيفي[2]، له ولـد يقـال لـه: حنظلـة[3]، حَسَن الإسلام أيضاً، يدعى بغسيل الملائكة، كان متزوجـاً بجميلـة بنـت عبـد الله بـن أُبيّ، استشهد ﷺ بأحد، لأنه خرج للقتال فأنساه الاهتمام بالحرب الاغتسال مـن الجنابـة، فأخبر النبيّ ﷺ بأنّ الملائكة غسّلته بماء المزن في صحاف الفضة قتله أبـو سـفيان بـن حرب، فسُئِلت زوجته عن شأنه فأخبرتْ بأنه خرج جنباً.

وكان أبو عامر ابن صيفي قد رغب عن الشرك وطلب الحنيفية دين إبراهيم عليـه الصّلاة والسلام، ورحل إلى جهات شتّى يسأل اليهود والنصارى عن الحنيفية فـأخبروه بمبعث النبيّ ﷺ ووصفوه له فذهب ولبس المسوح وزعم أنه على الحنيفية، وطمع في النبوّة بأنْ يكون هو نبيّ آخر الزمان، ويكون من خلاصة أتباع نبيّ آخـر الزمـان، فلمّـا ظهر النبيّ ﷺ بمكة لم يهاجر إليه وصرفه الحسد عمّا نـواه إلى أنْ قـدم رسـول الله ﷺ إلى المدينة الشريفة أتاه وقال له: يا محمد، بأيّ دين بعثت؟ فقال ﷺ: «بالحنيفية الـتي

---

(١) المنافقون: ٨.

(٢) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد: (٥/٦٥).

(٣) انظر ترجمته في الإصابة في تمييز الصّحابة لابن عبد البرّ: (٢/١٣٧).

كنت تطلبها» فقال له: يا محمد، إنك خلطتها بغيرها، فقال النبيّ ﷺ: «أين ما كنت تزعم من انتظاري، وتخبر به عن صفتي كما أخبرك به علماء اليهود والنصارى؟» فقال: لستَ الذي وصفوه لي، فقال له النبيّ ﷺ: «الكاذب يموت طريداً وحيداً غريباً» فقال أبو عامر: آمين.

ثمّ كفر عناداً وحسداً وخرج إلى مكة يحرِّض أهلها على قتال النبيّ ﷺ، وقال لهم: إذا رأتني الأوس لا يتخلَّف عنّي اثنان فلما وصل أُحُداً في يومه قال: أنا أبو عامر الراهب فقال له المسلمون: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق، وكان النبيّ ﷺ سمَّاه الفاسق بدل الراهب، فلما سبَّه الأنصار قال: لقد أصاب قومي بعدي شرّ، ثمّ قاتل المسلمين، ثمّ قال: يا محمد، لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم، وكان حفر حُفَراً بقرب أُحُد في بستان هناك وسترها بشيء حتى لا تُعْلم فيقعَ المسلمون فيها إذا زاحمهم المشركون، وأعلم كفار مكة بذلك ليُلجئوا المسلمين إليها ففعلوا، فجعل المسلمون يقعون في تلك الحفر حتى أنّ النبيّ ﷺ نفسه وقع في حفرة منها، وحصل له ﷺ جرّاء ذلك مشقّة عظيمة، ثمّ أنقذه الله تعالى منها.

فلم يزل أبو عامر المذكور يقاتل المسلمين مع المشركين حتى فتحت مكة فآيس من نصرة مشركي العرب على النبيّ ﷺ فهرب طريداً إلى الروم فتنصَّر هناك وصار يكاتب المنافقين في المدينة وحولها بأنْ يُهَيِّئوا له مسجداً فإنه قادم بجيوش الروم فبنوا له مسجد الضّرار بقباء فأخبر جبريل عليه السلام به النبيّ ﷺ فأرسل من هدمه.

ثمّ إنّ ملك الروم غضب عليه فطرده فمات طريداً غريباً كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ فكان الإخبار من جملة المعجزات.

وأخبرت عَمَّاراً بآخر رزقه وبالقتل فاستوفاهما بعد مدة

حاصله: أنّك يا رسول الله أخبرت عماراً بأن آخر رزقه شربة لبن فلمّا كان يوم صفين نادى عمار ﷺ: هل من رائح إلى الجنة؟، ثمّ دعا بشربة من لبن فشربها، فكانت آخر رزقه من الدنيا، فقال ﷺ: اليوم نلقى الأحبة محمداً وحزبه، زخرفت الجنان وزُيّنت الحور الحسان، أخبرني رسول الله ﷺ بأنّ آخر رزقي شربة من لبن[1]، وقد شربتها، ثمّ قال: اللهم لو أعلم أنّ رضاك عنّي أنْ أوقد ناراً فأرمي نفسي فيها

(١) رواه الحاكم في المستدرك برقم: (٥٦٦٩)، وأبو يعلى الموصلي في مسنده برقم: (١٦١٣)، وعبد الرزاق في مصنّفه: (١١/٢٣٩). وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

لفعلت، أو أغرق نفسي لفعلت، وإنّي لا أريد بقتال هؤلاء إلا وجهك الكريم، وأنا أرجو أنْ لا تخيبني ـ أي: من الشهادة ـ وجعلت يده ترتعش على الحربة، فلم يلبث قليلاً حتى استشهد ﷺ كما أخبر ﷺ.

وكان الذي قتله من جماعة معاوية ﷺ، وانعقد الإجماع على أنّ معاوية هو الذي بغى على سيدنا عليّ كرَّم الله وجهه، وأنّ علياً هو المصيب في اجتهاده.

فقد صدق ﷺ بكون عمّار يموت قتيلاً، وكون الذي يقتله من الفرقة الباغية، كما في حديث: «ويح عمار تقتله الفئة الباغية، عمار يدعوهم إلى الله، وهم يدعونه إلى النار»[1]، فكان في تحقق الأمرين له ﷺ صدق الحديثين، فهما من جملة معجزاته ﷺ.

وكنية عمار المدعو بها: أبو اليقظان ابن ياسر العنسي من اليمن من السابقين الأولين، شهد بدراً والمشاهد كلها مع النبيّ ﷺ، وعذّب أبوه وأمه لإيمانهما إلا عماراً ﷺ، وكان الثلاثة يعذّبون من أجل إيمانهم بالله تعالى في بدء الإسلام فمرَّ بهم رسول الله ﷺ فقال: «صبراً آل ياسر فإنّ موعدكم الجنة، اللهم اغفر لهم».

وأمّ عمار اسمها سُميَّة طعنها أبو جهل في مكة بحربة في قُبُلِها، فهي شهيدة رضي الله عنها.

وعن عمرو بن ميمون قال: حرق المشركون عماراً بالرّمضاء ليرجع عن دين محمد ﷺ، فمرَّ عليه رسول الله ﷺ فوضع يده الكريمة على رأسه وقال: «يا نار كوني برداً وسلاماً على عمّار كما كنت على إبراهيم عليه السلام»، فكانت، وقال: «اللهم اغفر لعمّار».

وفي الحديث: «الجنة تشتاق لثلاثة: لعمار وعليّ وسلمان»[2] رضي الله تعالى عنهم.

وكم فرقة في دينها استشهدت بذا	شهدت وكلّ منهم غير ميت
لعثمان مع بلوى وفاروق ديننا	وأم حزام وابن قيس وطلحة

حاصله: أنّ كثيراً من الفرق والجماعات استشهدوا ـ أي: مات أفرادها من رجال ونساء شهداء في سبيل الله تعالى ـ وقد شهدتَ وأخبرتَ يا رسول الله بهذا

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٤٣٦)، وأحمد في المسند: برقم: (١١٨٧٩)، وابن حبان في صحيحه برقم: (٧٠٧٩).

(٢) قال في مجمع الزوائد: رواه أبو يعلى والبزار وفيه النضر بن حميد الكندي وهو متروك، وروى الترمذي منه طرفاً. انظر مجمع الزوائد للهيتمي: (٤/١٢٩).

الفضل الذي حصل لهم من كونهم يموتون شهداء، والحال أنّ كلّ واحد ممن أخبرت عنهم بذلك حيّ غير ميّت، فلمّا مات ما كان موته إلا كما أخبرت.

فمن ذلك عثمان ﷺ لما جهَّز جيش العُسْرَةِ بألف دينار، ثمّ بألف دينـار، ثمّ بـألف دينار وثلاثمئة بعير وخمسين فرساً، وفي رواية: ألف بعير وخمسين فرساً، واشترى بئر أرومة بثلاثين ألفاً ووقفها للمسلمين، دَلْوُهُ كدلائهم، فدعا له رسول الله ﷺ كثيراً.

قال أبو سعيد ﷺ: رأيت رسول الله ﷺ من أول الليل إلى أنْ طلـع الفجـر رافعـاً يديه الكريمتين يدعو لعثمان بن عفان يقـول: «اللـهم إني رضـيت عـن عثمـان فـارض عنه»[1]، وفي رواية: «غفر لك يا عثمان ما قدمت وما أخّرت وما أسررت وما أعلنت، وما كان منك وما يكون إلى يوم القيامة»[2].

وكان عثمان ﷺ يعتق كلّ جمعة رقبة فإن تعذَّر عليه اعتـق في الجمعـة الأخـرى رقبتين، ولم يمسّ بيده اليمنى فرجه منذ بايع بها النبيّ ﷺ، وكان يختم القرآن في كـل ركعة عند الحجر الأسود في مدة الحج كلّ ليلة في كل حجة، وعن ابن عمـر في قولـه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَـاجِدًا وَقَائِمًـا﴾[3] هـو عثمـان ﷺ[4]، وكـان نقـش خاتمه: آمنت بالذي خلق فسوَّى، وكان جـواداً كريمـاً يطعـم النـاس طعـام الأمـراء، ويدخل بيته فيأكل الخلَّ والزيت، وكان له على طلحة خمسون ألفاً فلقي عثمـان وهـو متوجِّه إلى المسجد فقال: إنّ الخمسين ألفاً قد حصلت فأرسل من يقبـضها فقـال ﷺ: قد وهبتها لك لمروءتك.

ولما طلب من الأشعري أنْ يستأذن له على رسول الله، قال له النبيّ ﷺ: «ائـذن له وبشِّره بالجنة على بلوى تصيبه»، فقال: «اللهُ المستعان»[5].

وعن أنس ﷺ أنّه قال: صعد النبيّ ﷺ أُحُداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف

---

(١) عزاه في كنز العمال إلى ابن عساكر وأبي نعيم. انظره برقم: (٣٢٨٤١).

(٢) عزاه في كنز العمال إلى أبي نعيم وابن عدي وابن عساكر والدارقطني. انظره برقم: (٣٢٨٤٧ـ ٣٦١٨٩).

(٣) الزمر: ٩.

(٤) قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وإنما قال ابن عمر رضي الله عنهما ذلك لكثرة صلاة أمـير المـؤمنين عثمـان ﷺ بالليل وقراءته، حتّى إنه ربما قرأ القرآن في ركعة كما روى ذلك أبو عبيدة عنه ﷺ. انظر تفـسير ابـن كثير: (٤/ ٦١)، والدرّ المنثور: (٧/ ٢١٤).

(٥) رواه البخاري برقم: (٣٤٧١)، ومسلم في صحيحه برقم: (٢٤٠٣)، والترمذي في سننه برقم: (٣٧١٠). ورواه غيرهم.

الجبل، فقال ﷺ: «أثبت أُحُد فإنما عليك نبيٌّ وصدّيق وشهيدان»[1]. قيل: وضربه برجله فسكن.

ولما حوصر عثمان ﷺ جاءه جمع من الصّحابة رضي الله تعالى عنهم لينصروه منهم الحسن والحسين وابن عمر رضي الله تعالى عنهم، فأبى وحلف عليهم أنْ يرجعوا، وقال لغلمانه من ألقى سلاحه فهو حرٌّ فرموا السلاح، وكانوا عشرين إلا واحداً منهم لم يرم السلاح بل قاتل حتى قتل.

ولما قُتِلَ سيدنا عثمان ﷺ كان صائماً يقرأ القرآن، وكان ليلة قتله رأى النبيّ ﷺ في المنام وأبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، فقال له النبيّ ﷺ: «اصبر فإنّك تفطر عندنا»[2]. قيل: أنه قطعت يده فقال ﷺ: «والله إنها لأول يد خطَّت كتاب الله» فوقع دمه على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[3] فكفاه الله دمائهم حيث لم يقاتلهم.

وعن حذيفة ﷺ قال: أول الفتن قتل عثمان ﷺ وآخر الفتن فتنة المسيح الدجال[4]، والذي نفسي بيده، لا يموت رجل في قلبه مثقال حبة من قتل عثمان إلا تبع الدجال إنْ أدركه، وإن لم يدركه آمن به وهو في قبره[5].

وكان عليٌّ ﷺ غائباً حين قتل عثمان فلمّا بلغه قال: اللهم إنك تعلم أني لم أرض بذلك، ولكنّي غبت أو غلبتُ وأنت أعلم، ثمّ جعل يبكي، فلم يزل يبكي حتى ظنّوا أنه سيلحق به، ثمّ قال: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، ولقد طاش عقلي حين قتل[6].

ولما سئل في البيعة قال: إني لأستحي من الله أن أبايع وعثمان لم يدفن بعد[7].

ورثاه جماعة كثر، منهم حسَّان ﷺ بأبيات منها:

قتلتم وليَّ الله في وسط داره ... وجئتم بأمر جائر غير مهتدي

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٣٤٧٢)، وأبو داود في سننه برقم: (٤٦٥١)، والترمذي في سننه برقم: (٣٦٩٧). ورواه غيرهم.

(٢) انظر البداية والنهاية: (٧/١٩٨)، والعواصم من القواصم لابن العربي المالكي: (١٤٤).

(٣) البقرة: ١٣٧.

(٤) إلى هنا رواه ابن أبي شيبة في مصنفه: (٧/٣٦٤).

(٥) انظر البداية والنهاية: (٧/١٩٢).

(٦) انظر البداية والنهاية: (٧/١٩٣)، وتاريخ الخلفاء للسوطي: (١٤٠).

(٧) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي: (١٤٠).

فلا ظفرت أيمان قوم تعاونوا على قتل عثمان الرشيد المسدد

ومنهم عمر بن الخطاب ﷺ قال: وافقت ربي في ثلاث، فقلت: يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلًّى فنزل: ﴿وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[1]، وقلت: يدخل على نسائك البرُّ والفاجر، فلو أمرتهن يحتجبن يا رسول الله، فنزلت آية الحجاب، واجتمع عليه نساؤه ﷺ في الغَيرة، فقلتُ: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن فنزلت كذلك[2].

وسبب تسميته ﷺ بالفاروق أن بشيراً المنافق خاصم يهودياً فدعاه اليهوديّ إلى النبيّ ﷺ ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف، ثمّ إنهما تحاكما إلى رسول الله ﷺ، فقضى ﷺ لليهودي، فلمّا خرجا من عنده ﷺ أظهر المنافق عدم الرضا بقضاء النبيّ ﷺ، وقال لليهودي: تعال حتى يحكم بيننا عمر بن الخطاب، فأتياه فأخبره اليهودي بما وقع كله، وقال له: قضى لنا نبيّكم فلم يرض بقضائه ﷺ، ومراده أنْ تكون أنت القاضي فيما بيننا، فقال عمر ﷺ: نعم، مكانكما حتى أخرج إليكما، ثمّ دخل عمر فاشتمل سيفه فضرب به المنافق فقتله، ثمّ قال: هكذا أقضي على من لم يرضَ بقضاء رسول الله ﷺ فنزل: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...﴾[3] الآية.

وقال جبريل عليه السلام: إنّ عمر فرَق بين الحق والباطل، فقال رسول الله ﷺ: «أنت الفاروق».

وروي أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»[4].

وفي الحديث: «والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجًّا إلا سلك فجًّا غير فجِّك»[5].

---

(١) البقرة: ١٢٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٣٩٣)، ومسلم في صحيحه رقم: (٢٣٩٩)، وأحمد في المسند برقم: (١٥٧). ورواه غيرهم.

(٣) النساء: ٦٥.

(٤) رواه الترمذي في سننه برقم: (٣٦٨٢)، وأحمد في المسند برقم: (٥١٤٥)، وابن حبان في صحيحه برقم: (٦٨٩٥)، والحاكم في المستدرك برقم: (٤٥٠١) وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة، وتعقبه الذهبي بالقول بأنّه صحيح على شرط مسلم، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٥) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٣١٢٠)، ومسلم في صحيحه برقم: (٢٣٩٦)، وأحمد في المسند برقم: (١٤٧٢). ورواه غيرهم.

ومن مناقبه ﵁، ما ورد في البخاري، أنّ النبيّ ﷺ قال: «بينا أنا نائم أُتيت بقدح لبن فشربت منه حتى أني لأرى الريّ يخرج من أظفاري، ثمّ ناولت فضلتي إلى عمر»، فقال: ما أوَّلته يا رسول الله؟، فقال ﷺ: «العلم»[1].

وفيه أيضاً: «بينا أنا نائم رأيت الناس عرضوا عليَّ وعليهم قُمُص منها ما يبلغ الثدي، ومنها مادون ذلك، وعرض عَلَيَّ عمر وعليه قميص يجرُّه»، قالوا: فما أوَّلته يا رسول الله؟، فقال ﷺ: «الدين»[2].

وقد اتفق العلماء على شرف نسبه ﵁، فإنه قرشي عَدَوي يلتقي مع النبيّ ﷺ في جدِّه كعب بن لؤي، وهو أحد الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الذين توفي النبيّ ﷺ وهو عنهم راضٍ، وأحد أفاضل أصهاره، وأحد من كان يفتي في حياته ﷺ وبحضرته، وأحد وزيريه في حياته، وأحد ضجيعيه بعد وفاته.

وأجمعوا على كثرة علمه وقوَّة فهمه ووفور زهده وتواضعه، ورفقه بالمسلمين وشفقته على الرعيَّة واهتمامه بمصالحهم، وقيامه في نصرة الإسلام، وإكرامه لأهل العلم والأفضال، وشدّة اعتنائه بفرائض الله تعالى، وكثرة متابعته لآثار رسول الله ﷺ.

كان إسلامه نصراً وهجرته فتحاً وولايته أمناً، وكان مع قوَّته وشدّة مُلْكه أكثر الناس تواضعاً، فقد حكي أنه كان في ثوبه زمن خلافته ﵁ ثماني عشرة رقعة بعضها من خفّ وبعضها من جراب.

ومن جملة أدعيته: اللهم ارزقني شهادة في سبيلك وموتاً في بلد نبيّك ورسولك، فقالت حفصة: أنى يكون هذا يا أبت، قال: يأتيني الله إذا شاء[3].

فاستجاب الله دعوته وبلَّغه من الشهادة بالمدينة أمنيّته، وأخبر ﷺ بأنه يموت شهيداً كبقيَّة الخلفاء الأربعة، وروي أنّ عمر ﵁ خطب يوم الجمعة، وقال في خطبته: رأيت في المنام أنّ ديكاً أحمر نقرني نقرتين، وكأنّها رؤيا لحضور أجلي، فقصصتها على أسماء بنت عميس، فقالت: يقتلك رجل من العجم[4].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٦٦٠٤)، والترمذي في سننه برقم: (٢٢٨٤)، وأحمد في المسند برقم: (٥٨٦٨)، والدرامي في سننه برقم: (٢١٥٤). ورواه غيرهم.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٢٣)، ومسلم في صحيحه برقم: (٢٣٩٠)، والترمذي في سننه برقم: (٢٢٨٥). ورواه غيرهم.

(٣) انظر البداية والنهاية: (١٣٧/٧)، وتاريخ الخلفاء: (١٢٠).

(٤) انظر تاريخ الخلفاء: (١٢٠)، وتاريخ الإسلام: (٤١٣/١).

فلم تأت الجمعة الأخرى حتى قتله أبو لؤلؤة في صلاة الصّبح، وهو مملوك المغيرة بن شعبة، كان مجوسيًّا، طلب من عمر أن يخفِّف خراجه فقال له عمر رضي الله عنه: اتق الله مع سيّدك، فإنه لم يُثْقل عليك، وما صنعتك؟، فقال: أعمل الطواحين، وسأصنع لك طاحوناً يتعجب الناس من دورانها، ففطن لذلك عمر، وقال للحاضرين: إنه يتوعّدني بالقتل، فصنع ـ وكان حداداً للسيوف ـ خنجراً بطرفين، وقبضته في وسطه، ولكل طرف حدان، فلمّا أحرم عمر رضي الله عنه بصلاة الصّبح إماماً طعنه طعنتين في بطنه، ثمّ طعن معه ثلاثة عشر رجلاً فمات نصفهم، ثمّ أمسك فنحر نفسه، فقال عمر: الحمد لله الذي لم يجعل منيّتي على يد رجل يدّعي الإسلام، ثمّ دعا ابنه عبد الله فقال له: اذهب إلى عائشة رضي الله عنها فقل: يستأذنك عمر أنْ يدفن عند صاحبيه، فإنْ أذنت فادفنوني عند صاحبَيَّ، وإنْ أبت ردّوني إلى مقابر المسلمين، فذهب إليها ثمّ رجع فقال: أَذِنت، فقال عمر: الحمد لله، لم يكن عندي شيء أهمّ من هذا، إذا وضعتموني على سريري، استأذنوا فإنْ أُذِن لي، وإلا فردّوني إلى مقابر المسلمين، وإذا وضعتموني في قبري فأفضوا بخدي إلى الأرض حتى لا يكون بينه وبين التراب شيء، فلما حمل على سريره، استأذنوا فسمعوا صوتاً من داخل الحجرة الشريفة يقول: «أدخلوا الحبيب على الحبيب».

وأم حرام هي أخت أم سليم (الغميصا)، وأختها (الرميصا) خالة أنس بن مالك، قال أنس رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يدخل على أم حرام، فتطعمه، وكانت تحت عبادة بن الصّامت رضي الله عنه، فدخل عليها يوماً فأطعمته، وجعلت تفلّي رأسه، فنام ﷺ ثمّ استيقظ، وهو يضحك، فقالت: وما يضحكك يا رسول الله؟، قال: «ناس من أمتي عرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله يركبون شيح ـ أي: ظهر هذا البحر الأخضر ـ كالملوك على الأسرة، قالت: فقلت: يا رسول الله، ادع الله أنْ يجعلني منهم، فدعا لها، ثمّ وضع رأسه ثمّ استيقظ وهو يضحك فقلت: وما يضحكك يا رسول الله؟، قال: «ناس من أمتي عرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله»، قالت: فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم قال: «أنت من الأولين»[1].

فركبت البحر مع زوجها عبادة، وكانت تلك غزوة قبرص، وكان أمير الجيش

---

(١) رواه مالك في الموطا (برواية يحيى الليثي): (٢/٤٦٤)، والبخاري في صحيحه برقم: (٢٦٣٦)، ومسلم برقم: (١٩١٢)، وأبو داود في سننه برقم: (٢٤٩٠). ورواه غيرهم.

معاوية، فلما جاوزوا البحر، ركبت دابة فلم تلبث أنْ سقطت عن متن دابتها فماتت في خلافة عثمان ﷺ.

وابن قيس بن شماس الخزرجي خطيب رسول الله ﷺ شهد أُحُداً وما بعدها، وكان في أذنيه صمم، فكان يجهر بصوته في حضرة النبيّ ﷺ، فلما نزلت آية: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[1] انقطع في بيته يبكي على نفسه حيث رفع صوته في حضرة النبيّ ﷺ، ففقده النبيّ ﷺ فسأل عنه، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعرف حاله كلّ المعرفة، فأرسله إليه فوجده جالساً في بيته منكّساً رأسه، فقال: ما شأنك؟، قال: شرٌّ، كان برفع صوتي فوق صوت النبيّ ﷺ فقد حبط عملي ـ لأنه كان جهوري الصّوت ـ فأنا في النار، فأتى الرجل النبيّ ﷺ وقص عليه خبره، فقال ﷺ: «اذهب فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكن من أهل الجنة»[2]، وفي رواية: «أما ترضى أن تعيش حميداً وتموت شهيداً وتدخل الجنة؟»، فقال: رضيت ببشرى رسول الله ﷺ[3].

قال أنس ﷺ: فكنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشي بين أظهرنا، فلما كان حرب مسيلمة الكذاب باليمامة، وولّى المسلمون، قال ثابت لسالم مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنا نقاتل ورسول الله ﷺ حيًّا، فحفر كل واحد منهما حفرة لنفسه، وثبت فيها، ثمّ قاتلا حتى قتلا شهيدين.

وكان على ثابت درع نفيسة فُقِدَت، فرآه رجل من الصّحابة بعد موته فقال له: إني موصيك بوصية، فإياك أنْ تقول: هذه حُلم فتضيّعها، إعلم أن فلاناً نزع درعي فذهب بها، فوضعها تحت بُرْمة ووضع على البرمة رحلاً، ودخل منزله في أقصى العسكر، وعند خبائه فرس يستن في طِوَله، فأت خالد بن الوليد أمير العسكر، فأخبره فليسترد درعي، وائت أبا بكر فأخبره أن عليَّ ديناً وهو كذا وكذا، وفلان وفلان من رقيقي عتيق، فأخبر الرجل خالداً برؤياه فوجد الدرع والفرس على ما وصفه ثابت، فأخبرا أبا بكر فأجاز أبو بكر وصيته.

---

(١) الحجرات: ٢

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٣٤١٧)، والبيهقي في شعب الإيمان برقم: (١٥١٧).

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه برقم: (٧١٦٧)، والحاكم في المستدرك برقم: (٥٠٣٤)، والطبراني في الكبير برقم: (١٣١١)، والأوسط برقم: (٤٢). ورواه غيرهم.

ولا يعلم بوصية نُفذّت بمجرّد الرؤيا المنامية إلا هذه.

وطلحة: هو ابن عبد الله بن عثمان بن عمر بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة. يلتقي مع رسول الله ﷺ في مُرَّة بن كعب، مثل نسب الصّديق رضي الله عنه، كان من المهاجرين الأولين، وهو أحد العشرة المبشّرين بالجنة، وأصحاب الثروة وأحد الأجواد، حتى أنه كان يقال له: طلحة الخير، وطلحة الفياض ـ أي: الجواد الوهَّاب.

قال رضي الله عنه: دخلت سوق بصرى، فإذا راهب في صومعته يقول: سلوا هؤلاء أفيهم أحد من أهل الحرم؟ فقلت: نعم قال: أَظَهر أحمدُ بعد؟، فقلت: ومَنْ أحمد؟، قال: ابن عبد المطلب، هذا زمانه، وهو آخر الأنبياء، ومخرجه من الحرم، ومهاجره إلى نخل، قال طلحة فوقع في قلبي ما قاله: فخرجت مسرعاً حتى أتيت مكة فقلت: هل كان من حدث؟، قالوا: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب تنبَّأ، وقد تبعه أبو بكر، فدخلت على أبي بكر، فقلت: أتبعْتَ هذا الرجل؟ قال: نعم، فأخبرته بمقالة الراهب، ثمّ ذهبت معه إلى رسول الله ﷺ وأخبرته بمقالة الراهب، فسرَّ رسول الله ﷺ بذلك، فأسلم طلحة، وبعد الهجرة آخى النبيّ ﷺ بينه وبين أبي أيوب الأنصاري.

وحكي أنّ أعرابيًّا سأله شيئاً وتقرَّب بالرّحم، فقال له طلحة: إنّ هذه الرّحم ما سألني بها أحد قبلك، ولي أرض قد سألني بيعها عثمان بثلاثين ألف دينار، فإن شئت الأرض تستلفّها أنت وذريتك، وإنْ شئت الثّمن، فقال: الثمن، فدفع إليه بثلاثين ألف دينار.

وكان لعائشة رضي الله عنها عليه في كل سنة ألف دينار يصلها بها، وطلحة هذا ممن ثبت يوم أُحُد مع النبيّ ﷺ بايعه على الموت، وكان على النبيّ ﷺ يومئذ درعان، فلما شُجّ جبينه الشريف ﷺ وكُسِرَت رباعيّته، وجرح أكثر من سبعين جرحاً ما بين سيف ورمح وسهم وحجر، أراد ﷺ أنْ يصعد على صخرة فشقّ عليه ذلك، فبرك طلحة رضي الله عنه وصعد النبيّ ﷺ على ظهره وارتفع به حتى استوى على الصّخرة فقال ﷺ: «أوجب طلحة»[1] أي: فعل ما يستحقُّ به دخول الجنة.

وكان رضي الله عنه يتلقى السّهام وغيرها بيده وبصدره وبدنه عن رسول الله ﷺ، بل صحّ أنه كان يتلقَّاها بوجهه عن وجه رسول الله ﷺ وباقي بدنه الشريف، ويقول: وجهي

---

(١) رواه الترمذي في سننه برقم: (١٦٩٢)، وأحمد في المسند برقم: (١٤١٧)، وابن حبان في صحيحه برقم: (٦٩٧٩). ورواه غيرهم. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

لوجهك الوقاء، وروحي لروحك الفداء[1].

روي أنّ النبيّ ﷺ قال يوم أُحُد لأبي بكر وأبي عبيدة: «عليكما بصاحبكما» يعني: طلحة ﷺ، فأتياه فإذا هو في حفرة من الحفر التي كاد بها المسلمين أبو عامر بن صيفي المتقدِّم لعنه الله، فإذا به بضع وسبعون ما بين طعنة وضربة، وإذا أصابعه قد قطعت وشلَّت يده التي وقى بها رسول الله ﷺ[2].

وكان أبو بكر ﷺ إذا حدَّث عن يوم أُحُد يبكي ويقول: كان ذلك اليوم كلُّه لطلحة ﷺ[3]، وقال ﷺ: «من أحبّ أن ينظر إلى شهيد يمشي على الأرض، فلينظر إلى طلحة بن عبد الله»[4].

ولما كانت قضية عثمان ﷺ اعتزل طلحة ﷺ خشية الفتنة، فلمّا كانت وقعة الجمل وقف طلحة مع عليٍّ في بعض الصّفوف فرمي بسهم في ركبته فأصاب عرق النّسا فحمل إلى البصرة فمات بها شهيداً، وكانت وقعة الجمل سنة ثلاث وثلاثين، وهو ابن خمس وسبعين سنة ﷺ[5].

غزوة بني سليم

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من غزوة بدر لم يُقِم بها إلا تسع ليال، ثمّ خرج ﷺ لبني سليم واستعمل ابن أم مكتوم على الصّلاة في المدينة، وأعطى لواءه الأبيض لعليٍّ كرم الله وجهه، وسار حتى بلغ ماءً لهم يقال له: الكدر، لأنّ نوعاً من الطير في ألوانه كُدْرة كانت تنزل فيه، فأقام ﷺ على ذلك الماء ثلاث ليال، ولم يلق حرباً، فرجع إلى المدينة، وفي تلك الغزوة قال ﷺ: «إن الله تعالى أمرني أن أزوِّج فاطمة من عليٍّ»[6]، فعقد ﷺ له عليها في شهر رمضان، وكان عمرها خمس عشرة سنة، وعمر عليٍّ إحدى وعشرين سنة، ودخل بها في ذي الحجة.

---

(١) رواه أحمد في المسند برقم: (١٣٧٧١)، والبخاري في الأدب المفرد: ص (٢٧٩)، وأبو يعلى الموصلي في مسنده برقم: (٣٩٨٣).

(٢) انظر تاريخ الإسلام: (١/٢١١).

(٣) عزاه ابن كثير في البداية والنهاية إلى الطيالسي في مسنده. انظر البداية: (٤/٢٩).

(٤) رواه الترمذي في سننه برقم: (٣٧٣٩)، وابن ماجه في سننه برقم: (١٢٥)، والحاكم في المستدرك برقم: (٥٦١٢)، والطبراني في الكبير برقم: (٢١٥). ورواه غيرهم. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٥) انظر الاستيعاب: ص (٢٣١).

(٦) رواه الطبراني في الكبير برقم: (١٠٣٠٥).

وكان قبل ذلك خطبها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فسكت رسول الله ﷺ ولم يجبهما، وقال: «حتى يأتيني الإذن».

قال علي ﵁: فجاء إليَّ أبو بكر وعمر فنبَّهاني على أمر كنت عنه غافلاً، فقالا: أُخْطب فاطمة من رسول الله ﷺ، فجئته ﷺ فقلت: يا رسول الله تزوِّجني فاطمة؟ فقال ﷺ: «وهل معك شيء؟»، قلت: فرسي وبدني ـ أي: درعي ـ فقال ﷺ: «أما فرسك فلا بدَّ لك منها، وأما بدنك فبعها، فبعتها بأربعمئة وثمانين درهماً»، فجئته ﷺ بها فوضعتها بين يديه، فقال ﷺ لبلال ابتع لنا بها متاعاً، وكان الذي اشترى الدرع من عَلِيٍّ عثمان ووهبها له بعد ذلك، فدعا له رسول الله ﷺ بدعوات.

ولما أراد ﷺ أنْ يعقد نكاحها خطب خطبة منها: «الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بعظمته، الذي خلق الخلق بقدرته، وميَّزهم بحكمته، ثمّ إنّ الله تعالى جعل المصاهرة نسباً وصهراً، وكان ربك قديراً، وإن الله عزَّ وجلَّ أمرني أن أزوِّج فاطمة من عليٍّ على أربعمئة مثقال فضة، أرضيت يا علي؟»، قال: رضيت، بعد أن خطب خطبة كان منها: «الحمد لله شكراً لأنعمه وأياديه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تبلغه وترضيه».

ولما تَمَّ العقد دعا النبيّ ﷺ بطبق بُسَر فوضع يديه ﷺ، ثمّ قال للحاضرين: «انتهبوا».

وليلة بنى بها عليٌّ قال له رسول الله ﷺ: «لا تحدث شيئاً حتى تلقاني» فجاءت بها أم أيمن، فقعدت بفاطمة في جانب البيت وعليٌّ في جانب آخر، وجاء رسول الله ﷺ فقال لفاطمة: ائتني بماء فقامت تعثر في ثوبها من الحياء، فأتته بقعب فيه ماء، فأخذه رسول الله ﷺ ومجَّ فيه، فنضح بين ثدييها وعلى رأسها، ثمّ قال: «اللهم إني أعيذها بك وذريَّتها من الشيطان الرجيم»، ثمّ فعل مع عليٍّ ما فعل بها، ثمّ قال: «اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما في شملِهما» أي: الجماع، وقرأ ﷺ الإخلاص والمعوذتين، ثمّ قال له: «ادخل بأهلك بسم الله والبركة»(1).

وكان فراشهما رضي الله عنهما إهاب ـ أي: جلد كبش ـ ومخدَّتهما من ليف، ثمّ بعد ثلاث ليال دخل ﷺ عليهما صبيحة الرابع في غداة باردة، وعليهما قطيفة إذا جعلاها بالطول انكشفت ظهورهما وإن جعلاها بالعرض انكشفت أرجلهما، فقال

---

(1) رواه بطوله ابن حبان في صحيحه برقم: (٦٩٤٤)، والطبراني في الكبير برقم: (١٠٢١).

ﷺ: كما أنتما فجلس عند رأسيهما، ثمّ أدخل ﷺ قدميه وساقيه بينهما فجعل إحداهما ببطن وصدر عليٍّ، والأخرى ببطن وصدر فاطمة رضي الله تعالى عنهما.

ولما خطب عليٌّ كرَّم الله وجهه بنت أبي جهل خطب رسول الله ﷺ خطبة فقال فيها: «إنّ فاطمة مني (يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها)[1]، وأنا أتخوَّف أنْ تفتن في دينها»[2] ثمّ أثنى على صهره من عبد شمس، فقال: «حدثني فصدقني، ووعدني فوفاني، وإني لست أحرّم حلالاً ولا أحلّ حراماً، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدوِّ الله أبداً».

توفيت فاطمة رضي الله تعالى عنها بعد وفاة أبيها رسول الله ﷺ بستة أشهر تقريباً، وسنّها رضي الله عنها ثلاث أو تسع وعشرون سنة.

غزوة بني قينقاع

كانوا أشجع اليهود، وكانوا صاغة، وهم حلفاء عبادة بن الصّامت ﷺ وعبد الله بن أبيٍّ ابن سلول المنافق، فلمّا كانت وقعة بدرٍ أظهروا البغي والحسد، ونبذوا العهد، لأنه ﷺ لما دخل المدينة الشريفة عرض الإيمان على اليهود فأبوا، وقالوا: حتى يستبين لنا أمرك، ولكن نعاهدك على أن لا نظاهر عليك ولا نحاربك ولا نغدر بك، وكان في العهد مع بني قريظة والنّضير وغيرهم.

وكان أول عمل يظهر نقضَ بني قينقاع للعهد أنّ امرأة قدمت إلى المدينة بمتاع، وكانت من الأعراب، وكانت زوجة لبعض الأنصار الساكنين بالبدو، فباعته ثمّ جلست في سوق بني قينقاع إلى صائغ، فعقد طرف ثوبها عند ظهرها وهي جالسة لا تشعر، فلمّا قامت انكشفت سوأتها وهي لا تشعر، فضحكوا منها، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصّائغ فقتله، وشدّ اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون على اليهود وتواثبوا من كلّ جهة فبلغ الخبر النبيّ ﷺ، فقال ﷺ: ما على هذا قرّرناهم، فتبرأ عبادة بن الصّامت من حلفهم، وقال: يا رسول الله، أتولّى الله ورسوله والمسلمين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار،

---

(١) ما بين قوسين رواه البخاري برقم: (٤٩٣٢)، وأبو داود في سننه برقم: (٢٠٧١)، وأحمد في المسند برقم: (١٨٩٤٦)، والطبراني في الكبير برقم: (١٠١٠). ورواه غيرهم.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٢٩٤٣)، ومسلم في صحيحه برقم: (٢٤٤٩)، وأبو داود في سننه برقم: (٢٠٦٩). ورواه غيرهم.

ولم يتبرأ عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول من حلفهم فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ...﴾[١] إلى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[٢].

فجمعهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «يا معشر اليهود، احذروا من الله أن ينزل بكم نقمة كما أنزلها بقريش ببدر، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني مرسل إليكم، تجدون ذلك في كتابكم»، فقالوا: يا محمد، إنك ترى أنَّا قومك ـ أي: تظن أننا مثل قومك ـ فلا يغرنَّك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنَّا والله لو حاربناك لتعلمنَّ أنا نحن الناس فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ...﴾[٣] الآية، ثمّ أنزل الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ...﴾[٤] الآية.

فنبذ إليهم رسول الله ﷺ عهدهم فتحصَّنوا في حصونهم، فسار إليهم رسول الله ﷺ ولواؤه كان أبيض بيد حمزة بن عبد المطلب عمِّه ﷺ، واستخلف على المدينة أبا لبابة رضي الله عنه، وحاصرهم خمس عشرة ليلة أشدَّ الحصار النصفَ الأخير من شوال بتمامه، فقذف الله في قلوبهم الرّعب، وكانوا أربعمئة حاسر وثلثمئة درّاع، فسألوا رسول الله أن يخلي سبيلهم على أنهم يخرجون من المدينة، وأنّ لهم النساء والذريّة، وله ﷺ الأموال ومنها الحلقة ـ أي: الدروع والسلاح ـ.

وقيل: نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فأمر ﷺ أن يكتّفوا فكتِّفوا، فأراد ﷺ قتلهم، فكلَّمه فيهم عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول وألحَّ عليه، وقال: يا محمد، أحسن في مواليَّ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ من خلفه، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك أرسلني»، فقال: والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليَّ، فإنهم عزٌّ لي وأنا أخشى الدوائر، فقال رسول الله ﷺ: «خلُّوهم لعنهم الله ولعنه معهم» فلم يقتلهم النبيّ ﷺ، وقال: «خذهم، لا بارك الله لك فيهم»[٥].

وأمر ﷺ أنْ يُجلوا من المدينة الشريفة، ووكَّل بإجلائهم عبادة بن الصّامت رضي الله عنه،

---

(١) المائدة: ٥١.

(٢) المائدة: ٥٦.

(٣) آل عمران: ١٢.

(٤) الأنفال: ٥٨.

(٥) انظر البداية والنهاية: (٤/٤)، وتاريخ الطبري: (٢/٤٩).

وأمهلهم ثلاثة أيام، فطلبوا زيادة، فقال عبادة بن الصّامت ﷺ: لا، ولا ساعة واحدة، فذهبوا إلى أَذْرعات ـ بلدة في الشام ـ فلم يدر الحول عليهم حتى هلكوا أجمعون بدعوته ﷺ بقوله لابن أبيٍّ: «لا بارك الله لك فيهم».

وكان عبد الله بن أبيٍّ أتى منزل النبيّ ﷺ يسأله في إقرارهم ـ أي: الإبقاء عليهم في المدينة ـ فاحتجب منه النبيّ ﷺ، فأراد الدخول على النبيّ ﷺ في بيته فمنعه بعض الصّحابة، فصدم وجهه الحائط فشجّه فانصرف مغضباً، فقال بنو قينقاع: لا نمكث في بلد يفعل فيه بأبيٍّ هكذا ولا ننتصر له، فتأهَّبوا وخرجوا.

ووجد ﷺ في منازلهم سلاحاً كثيراً فأخذ ﷺ من سلاحهم ثلاث قسيّ: قوساً يُدعى الكتوم، وهو الذي لا يسمع له صوت إذا رمي به، وقوساً يُدعى الروحاء وقوساً يدعى البيضاء، وأخذ رسول الله ﷺ درعين: إحداهما يقال لها السغدية ـ بسين مهملة وغين معجمة ـ وأخرى يقال: إنها درع داود التي لبسها حين قتل جالوت، والأخرى يقال لها: فضة.

وأخذ ﷺ ثلاثة أرماح، وثلاثة أسياف: سيف يقال له: قلعي، وسيف يقال له: تيار، وسيف يقال له: الحتف ـ وهو الموت ـ ووهب ﷺ درعاً لمحمد بن سلمة ودرعاً لسعد بن معاذ رضي الله تعالى عنهما، وخمّس أموالهم فيئاً لا غنيمة، لأنها لم تحصل بقتال.

وأُجلوا عنها عند التقاء الصّفين، وجعل ﷺ ذوي القربى بين بني هاشم وبني المطلب دون بني أخويهما عبد شمس ونوفل مع أن الأربعة أولاد عبد مناف، فحينئذ قال جبير بن مطعم من بني نوفل، وعثمان بن عفان من بني عبد شمس: إخواننا من بني هاشم لا ننكر فضلهم، لأنك منهم، أرأيت إخواننا من بني عبد المطلب أعطيتَهم وتركتنا، وإنما قرابتنا وقرابتهم واحدة، فبم فضَّلتهم علينا؟، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّا بني هاشم وبني المطلب شيء واحد هكذا ـ وشبَّك بين أصابعه ـ لم يفارقونا في الجاهلية والإسلام» لأنهم هم الذين حموه ﷺ، ودخلوا الشعب معه ﷺ دون بني عبد شمس ونوفل[1].

غزوة السويق

لما أصاب قريشاً في بدر ما أصابهم نذر أبو سفيان أنْ لا يمسَّ رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً، فخرج أبو سفيان في مئتي راكب من قريش ليبرَّ بيمينه حتى

---

(١) انظر تاريخ الإسلام: (١/٢٨٠).

نزل بمحلّ بينه وبين المدينة نحو بريد، ثمّ أتى بني النّضير، وهم حيٌّ من يهود خيبر، ينسبون إلى هارون أخي موسى عليهما الصّلاة والسلام تحت غطاء الليل، فأتى حُيي بن الأخطب وهو من رؤساء بني النّضير، وهو والد صفية أم المؤمنين رضي الله عنها، فضرب عليه بابه فأبى أن يفتح له لأنّه خافه، فانصرف عنه، وجاء إلى سلام بن مشكم سيد بني النّضير وصاحب كنزهم ـ أي: المال الذي كانوا يجمعونه ويدَّخرونه لرأيهم ونوائبهم وما يعرض لهم ـ فاستأذن عليه فأذن له واجتمع به، ثمّ خرج إلى أصحابه فبعث رجالاً من قريش فأتوا ناحية من المدينة، فحرقوا نخلاً منها ووجدوا رجلاً من الأنصار، وهو معبد بن عمرو وحليفاً له فقتلوهما، ثمّ انصرفوا راجعين، فعلم بهم الناس، فخرج رسول الله ﷺ في طلبهم في مئتين من المهاجرين والأنصار، واستعمل على المدينة بشير بن عبد المنذر.

وكان خروجه ﷺ لخمس خلون من ذي الحجة، فهرب أبو سفيان وأصحابه، وجعلوا يلقون مزاود لهم يتخففون للهرب، والمسلمون في إثرهم يأخذون ما يلقونه ويلحقوهم، فرجع ﷺ إلى المدينة، وكانت غيبته خمسة أيام.

وفي هذه السنة ـ الثانية من الهجرة ـ بعث رسول الله ﷺ عمير الضّرير إلى عصماء بنت مروان اليهودية، وكان زوجها مرثد بن زيد بن حصين الأنصاري ﷺ[1]، وكانت متزوجة به في بني خطمي، وكان بعثه رسول الله ﷺ في قتلها لكونها كانت تسبُّ الإسلام، وتؤذي النبيّ ﷺ في شِعرها وتحرِّض عليه، فقال رسول الله ﷺ: «ألَا رجل يكفينا هذه» يعني: العصماء بنت مروان، فقال عمير بن عديٍّ: أنا يا رسول الله، فأتاها وكانت تمّارة ـ تبيع التمر ـ فقال لها: أعندك أجود من هذا التمر؟ لتمر كان بين يديها قالت: نعم، فدخلت البيت وانكبَّت لتأخذ شيئاً من التمر ولما تأكّد عمير من عدم وجود أحد في البيت ضرب رأسها، فلا زال يضربها حتى قتلها.

وفي رواية: فجاءها عمير الضّرير في جوف الليل حتى دخل عليها في بيتها وحولها نفر من ولدها نيام وعلى صدرها صبيّ ترضعه فمسّها بيده، ونحّى الصّبيّ ووضع سيفه على صدرها وتحامل عليه حتى أنفذه من ظهرها، ثمّ صلى الصّبح مع النبيّ ﷺ بالمدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «أقتلت ابنة مروان؟»، قال: نعم، فهل عليّ شيء من ذلك؟، فقال ﷺ: «لا، لاينتطح فيها عنزان، إذا أحببتم أن تنظروا إلى

(١) فإنه أسلم بعد ذلك.

رجل نصر الله ورسوله، فانظروا إلى عمير»، فقال عمر بن الخطاب ﷺ: انظروا في هذا الأعمى الذي يرى في طاعة الله ورسوله، فقال ﷺ: «لا تقل الأعمى، وقل: البصير» فسمي: البصير بدل الضّرير[1].

ثمّ رجع عمير إلى منزل خطمي فوجد بنيها في جماعة يدفنونها، فقالوا: يا عمير، أنت قتلتها؟، قال: نعم، فكيدوني جميعاً ثمّ لا تنظرون، والذي نفسي بيده، لو قلتم بأجمعكم مثل ما قالت: لضربتكم بسيفي هذا حتى أموت أو أقتلكم.

وعمير هذا أول من أسلم من بني خطمي، فيومئذ ظهر الإسلام في بني خطمي، وكان يخفي إسلامه مَنْ أسلم منهم قبل ذلك.

وفي هذه السنة ـ الثانية من الهجرة ـ بعث رسول الله ﷺ ابن عمير إلى أبي عفك اليهوديّ، والعَفْك ـ بفتح العين المهملة وبالفاء والكاف ـ الحمق، قال ﷺ: «من لي بهذا الخبيث؟» يعني: أبا عفك، وكان شيخاً كبيراً بلغ من العمر مئة وعشرين سنة يحرِّض الناس على رسول الله ﷺ ويعيبه في شعره، فقال سالم بن عمير، وهو أحد البكّائين وقد شهد بدراً: عليَّ نذر أنْ أقتل أبا عفك أو أموت دونه، فطلب له غَرّة ـ أي: غفلة ـ فلمّا كانت ليلة صافية ـ أي: شديدة الحر ـ نام أبو عفك بفناء بيته ـ أي: خارجه ـ فعلم بذلك سالم بن عمير، فأقبلَ نحوه ووضع السيف على كبده، ثمّ تحامل عليه حتى غشي السيف في الفراش، وصاح عدوُّ الله، فتركه سالم وذهب، فقام إلى أبي عفك الناس من أصحابه، فاحتملوه وأدخلوه بيته، فمات عدوُّ الله.

غزوة قرقرة الكدر

بلغ رسول الله ﷺ أنّ جمعاً من بني سليم وغطفان بقرقرة الكدر، وأنّهم يريدون الإغارة على المدينة بعد أن غزاهم رسول الله ﷺ كما تقدم، وقرقرة الكدر: أرض ملساء فيها طيور في ألوانها كُدْرة، فعُرِف ذلك الموضع بها، فسار رسول الله ﷺ في مئتين من أصحابه وحمل لواءه علي بن أبي طالب ﷺ، واستعمل ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم أو سباع بن عرفطة، فلما وصل ﷺ ذلك الموضع لم يجد أحداً، فأرسل ﷺ نفراً من أصحابه إلى أَعْلَى الوادي فوجدوا في بطن الوادي خمسمئة بعير مع رعاتها، منهم شخص يقال له: يسار فحازوها، وانحدروا بها إلى المدينة، فلمّا كانوا بمحلّ

---

(١) انظر عيون الأثر: (١/٤٤١).

على ثلاث ليال من المدينة خمّسها رسول الله ﷺ، فأخرج خمسها لنفسه، وقسّم الأربعة أخماس على أصحابه، فخصَّ كلّ واحد منهم بعيران، ووقع يسار الراعي في سهمه ﷺ، فأعتقه ﷺ لأنه رآه أسلم وتعلّم الصّلاة من المسلمين، وصار يصلي معهم بعد أنْ أسر، وكانت مدة غيبته ﷺ خمس عشرة ليلة.

غزوة ذي أمرّ[1]

بلغ رسول الله ﷺ أنّ رجلاً يقال له: دعثور بن الحارث الغطفاني من بني محارب جمع جمعاً من ثعلبة ومحارب بذي أمَرَّ ـ اسم موضع من ديار غطفان ـ يريدون أنْ يصيبوا من أطراف المدينة، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في أربعمئة وخمسين رجلاً لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، واستخلف ﷺ على المدينة عثمان بن عفان ﷺ، وأصاب الصّحابة رجلاً منهم يقال له: حِباب ـ بكسر الحاء المهملة والباء الموحدة ـ من بني ثعلبة فأُدخل على رسول الله ﷺ فأخبره من خبرهم، وقال له: لن يلاقوك، ولما سمعوا بسيرك هربوا في رؤوس الجبال، وأنا سائر معك، فدعاه رسول الله ﷺ للإسلام، فأسلم وضمَّه رسول الله ﷺ إلى بلال، فأخذ به ﷺ ذلك الرجل طريقاً، وهبط به عليهم، فسمعوا بمسير رسول الله ﷺ فهربوا في رؤوس الجبال، فبلغوا ماءً يقال له: ذو أَمَرّ، فعسكر به رسول الله ﷺ وأصابهم مطر كثير بلّ ثيابه ﷺ وثياب أصحابه، فنزع رسول الله ﷺ ثوبيه ونشرهما على شجرة ليجفَّا، واضطجع ﷺ بمرءاً من المشركين واشتغل المسلمون في شؤونهم، فبعث المشركون لدعثور بن الحارث الذي هو سيّد القوم وأشجعهم المجمّع لهم، فقالوا له: قد انفرد محمّد فعليك به، فلمّا رأى النبيّ ﷺ قال: قتلني الله إنْ لم أقتل محمداً، فجاء دعثور ومعه سيفه حتى قام على رأس رسول الله ﷺ، ثمّ قال: من يمنعك مني اليوم؟، وفي رواية: الآن، فقال رسول الله ﷺ: «الله»، ودفعه جبريل عليه السلام في صدره، فوقع على ظهره، وسقط السيف من يده، فأخذ السيفَ رسول الله ﷺ، وقال له: «من يمنعك مني؟»، فقال: لا أحد، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، والله لا أكثر عليك جمعاً أبداً.

ثمّ أتى قومه بعد أن أعطاه رسول الله سيفه فجعل يدعوهم إلى الإسلام،

(١) بتشديد الراء، اسم لماء، وسمّاه البخاري غزوة أنمار، ويقال: إنها غزوة غطفان. مؤلف

وأخبرهم أنه رأى رجلاً دفعه في صدره فوقع على ظهره، فقال: علمت أنه مَلَك، فأسلمت[1]. ونزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ...﴾[2] الآية. ثمّ أقبل رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلقَ حرباً، وكانت مدَّة غيبته ﷺ إحدى عشرة ليلة.

غزوة بُحْران[3]

لما بلغه ﷺ أنّ جمعاً كبيراً من بني سليم قد التأم في بحران، فخرج رسول الله ﷺ إليه في ثلاثمئة من أصحابه لستٍّ خلت من جمادى الأولى في السنة الثالثة من الهجرة، واستخلف ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، وأحثّ ﷺ على السير حتى بلغ بحران، فوجدهم قد تفرّقوا في مياههم، فرجع ﷺ، وكانت مدة غيّبته ﷺ عشر ليال.

وبهذه الغزوة يكون ﷺ قد غزا بني سليم ثلاث مرات: هذه مرَّة، وعقب غزوة بدر ثانية، وغزوة ذي أَمَرَّ ثالثة. وهذه والثالثة كانتا في السنة الثالثة من الهجرة.

سرية محمد بن مَسْلَمة رضي الله عنه

توجّه بها محمد بن مسلمة إلى خاله كعب بن الأشرف الأوسي، فإنّ الأشرف أبا كعب كان قد أصاب دماً في الجاهلية فأتى المدينة فحالف بني النّضير فشَرُف فيهم، وتزوَّج عقيلة بنت الحقيق، فولدت له كعباً، وكان طويلاً جسيماً ذا بطن وهامة، وكان شاعراً مُجِيداً، وكان ساد يهود الحجاز بكثرة ماله، فكان يعطي أحبار اليهود ويصلهم، فلمّا قدم النبيّ ﷺ المدينة جاءه أحبار اليهود من بني قينقاع وبني قريظة لأخذ صلتهم منه على عادتهم، فقال لهم: ما عندكم من أمر هذا الرجل ـ يعني: النبيّ ﷺ ـ قالوا: هو الذي كنَّا ننتظره، ما ننكر من نعوته شيئاً، فقال لهم: قد حرمتم من الخير، ارجعوا إلى أهليكم، فإنّ الحقوق في مالي كثيرة، فرجعوا عنه خائبين، ثمّ رجعوا إليه، وقالوا له: إنا عجلناك فيما أخبرناك به، ولما استثبتنا علمنا أنا غلطنا وليس هو المنتظر، فرضي عنهم، ووصلهم وجعل لكل من تابعهم من الأحبار شيئاً في ماله.

---

(١) انظر عيون الأثر: (١/٤٥٤).

(٢) المائدة: ١١.

(٣) بفتح الموحدة، وتضم، وسكون الحاء المهملة، موضع في الحجاز بينه وبين المدينة المنوّرة ثمانية بُرُد. مؤلف.

ولما انتصر رسول الله ﷺ يوم بدر وقدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة مبشّرين لأهل المدينة بذلك صار كعب بن الأشرف يكذّب في ذلك ويقول: هؤلاء أشراف العرب وملوك الأرض، والله إنْ كان محمّد قتل هؤلاء القوم فبطن الأرض خير من ظهرها، فلما تيقَّن عدوُّ الله الخبر خرج إلى مكة، وكان شاعراً، فجعل يهجو رسول الله ﷺ والمسلمين، ويمدح عدوّهم ويحرضهم عليهم، وينشد في ذلك الأشعار، ويبكي على من قُتِل من أشراف قريش، فقال ﷺ: «اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت».

ثمّ رجع ابن الأشرف إلى المدينة بعد أنْ لم يجد مَن يؤوي رحله بمكة لأنه لما قدم مكة وضع رحله عند المطلب بن وداعة، وأكرمته زوجة المطلب، وهي عاتكة بنت أسيد بن العيص، فدعا رسول الله ﷺ حسَّاناً، وأخبره بذلك فهجا حسانُ المطلبَ وزوجتَه، فلمّا بلغهما هجاء حسَّان ألقت زوجة المطلب رحله، وقالت: ما لنا ولهذا اليهودي، وأسلم المطلب وزوجته بعد ذلك رضي الله عنهما.

وصار كلَّما تحوَّل عند قوم من أهل مكة صار حسَّان يهجوهم فيلقون رحله فخرج من مكة إلى المدينة، فلمّا وصل المدينة صار يشبّب بنساء المسلمين ويتغزّل فيهن ويذكرهنَّ بسوء حتى آذاهنَّ.

وروي أنه صنع طعاماً وواطأ جماعة من اليهود على أنه يدعو النبيّ ﷺ إليه، فإذا حضر يقتلونه، ثمّ دعا النبيّ ﷺ إلى الطعام مع بعض أصحابه، فأعلم جبريلُ النبيّ ﷺ بما أضمروه حتى خرج فلما فقدوه تفرَّقوا، فقال رسول الله ﷺ: «من لي بابن الأشرف، فقد استعلن بعداوتنا، فإنه آذانا بشعره وقوّى المشركين علينا»، فقال محمد ابن مَسْلمة ﷺ: أنا لك به يا رسول الله هو خالي وأنا أقتله، فصحب معه أربعة من الأوس: وهم عبّاد بن بشر، وأبو نائلة[1]، وكان أخاً لكعب بن الأشرف من الرّضاعة، والحارث بن عيسى، والحارث بن أوس، ومكث محمد بن مسلمة بعد قوله لرسول الله ﷺ ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب إلا ما تقوم به نفسه خوفاً من عدم وفائه بما ذكر، ثمّ قال: يا رسول الله، لا بدَّ لنا أن نقول ـ أي: نذكر ـ ما نتوصل به إلى قتله من الحيلة فقال رسول الله ﷺ: «قولوا ما بدا لكم، فأنتم في حلٍّ من ذلك»، فأباح لهم رسول الله ﷺ الكذب لأنه من خِدَع الحرب، فتقدمهم إلى كعب بن الأشرف أبو نائلة ﷺ، وكان يقول الشعر فتحدّث معه ساعة وتناشدا شعراً، ثمّ قال له أبو نائلة: ويحك يا ابن

---

(١) واسمه سلكان بن سلامة بن وقش.

الأشرف، إني قد جئتك لحاجة أريد أنْ أذكرها لك فاكتم عنّي، فقال: أفعل، فقال: كان قدوم هذا الرّجل علينا بلاء من البلاء عادتنا العرب فرمتنا عن قوس واحدة، فقطّعت عنا السبل حتى جاع العيال، وجهدت الأنفس، وقد سألنا الصّدقة ونحن لا نجد ما نأكل، وكلٌّ ما عندنا أنفقناه على هذا الرجل وأصحابه، فقال كعب: لقد كنت أخبرتك يا ابن سلام أنّ الأمر سيصير إلى ما تقول، ثمّ قال له كعب: اصدقني بالذي تريدون في أمره، فقال: خذلانه والتخلّي عنه، وقال له أبو نائلة: إني أريد أن تبيعني وأصحابي طعاماً ونرهنك ونوثّق لك قال: ارهنوني نساءكم، قال: كيف نرهنك نسائنا، وأنت أجمل العرب، ولا نأمن عليهنّ، وأيُّ امرأة تتمنّع عنك لجمالك، فإنّك تعجب النساء؟ قال: فارهنوني أبناءكم قال: كيف نرهنك أبناءنا فيُسَبُّ أحدهم، فيقال: أرهن بوسق، هذا عار علينا، وإنما نرهنك اللامة ـ أي: السلاح ـ وقد أردت أن آتيك بأصحابي، أراد أبو نائلة أنْ لا ينكر كعب السلاح إذا جاء به هو وأصحابه فرجع أبو نائلة إلى أصحابه فأخبرهم الخبر، وأمرهم أنْ يأخذوا السلاح معهم، ثمّ جاؤوا إلى رسول الله ﷺ عشاء، وخرجوا من عنده متوجِّهين إلى كعب بن الأشرف، فخرج رسول الله ﷺ معهم يمشي إلى بقيع الغرقد، ثمّ وجَّههم وقال: «انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم»، ثمّ رجع رسول الله ﷺ إلى بيته وأمَّرَ ﷺ عليهم محمد بن مسلمة وهو ابن أخت كعب بن الأشرف، وكانت تلك الليلة مقمرة، فأقبلوا حتى انتهوا إلى حصن كعب فهتف به ـ أي: ناداه أبو نائلة.

وكان كعب قريب عهد بعرس، فوثب في ملحفته، فقالت له امرأته[1]: أين تخرج هذه الساعة، فإني أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم، وفي رواية: كأنّه صوت دم ـ أي: صوت طالب دم ـ قال: إنما هو ابن أختي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة، لو وجدني نائماً ما أيقظني، فقالت: والله إني لأعرف في صوته الشرّ، فنزل يفيح منه ريح الطيب، فتحدّث معه هو وأصحابه ساعة، ثمّ تماشوا، ثمّ إنّ أبا نائلة وضع يده في رأس كعب ثمّ شمَّها وقال: ما رأيت طيباً أعطر من هذا الطيب، فقال: كيف وعندي أعطر نساء العرب وأجمل العرب، فقال له: يا أبا سعيد، ادن مني رأسك أشمه وأمسح أعيني ووجهي، ثمّ مشوا ساعة، ثمّ عاد أبو نائلة فوضع يده على رأسه واستمسك به، وقال: اضربوا عدوَّ الله، فضربوه، فاختلفت عليه أسيافهم، فلم تغنِ

(١) أي: بعد أن أخذت ثوبه. مؤلف.

شيئاً ـ أي: وقع بعضها على بعض ـ ولصق عدوُّ الله بأبي نائلة وصاح صيحة منكرة، فلم يبق حصن إلا وأُوْقِدَتْ عليه نار، وقال محمد بن مسلمة ﷺ: فوضعت سيفي في ثنيّته، ثمّ تحاملت عليه حتى بلغ عانته، فوقع ولما صاح اللعين صاحت امرأته، يا آل قريظة والنّضير مرتين، فخرجت اليهود وأخذوا على غير طريق الصّحابة ففاتوهم.

قال محمد بن مسلمة ﷺ: وأصيب الحارث بن أوس من بعض أسيافنا في رجله ورأسه فنزف منه الدم، فتخلّف عنّا. أي: ونادانا: أقرئوا رسول الله ﷺ منّي السلام واحتملوه. وفي رواية: أنهم حزُّوا رأس كعب وحملوا تلك الرأس ثمّ خرجوا ينشدون، فلما بلغوا بقيع الغرقد كبّروا، وقد قام رسول الله ﷺ يصلي تلك الليلة، فلما سمع ﷺ تكبيرهم بالبقيع كبَّر، وعرف أنّهم قتلوه، فخرج إلى باب المسجد، فلما قدموا وجدوا رسول الله ﷺ واقفاً على باب المسجد، فقال رسول الله ﷺ: «أفلحت الوجوه»، فقالوا: أفلح وجهك يا رسول الله، ورموا برأس كعب بين يديه ﷺ، فحمد الله على قتله.

قال محمد بن مسلمة: وتفل رسول الله ﷺ على جرح صاحبنا فبرئ من وقته، وعند ذلك أصبحت اليهود مذعورين فأتوا النبيّ ﷺ فقالوا: قتل سيدنا غيلة، فذكر لهم النبيّ ﷺ صنيعه من التحريض عليه وأذيّته المسلمين فازْدَادُوا خوفاً.

سرية عبد الله بن عتيك ﷺ لقتل أبي رافع[1]

هو سلام بن أبي الحقيق ـ على وزن نصير ـ الخزرجي، كان بخيبر، وكان تاجر أهل الحجاز، وكان أشدّ الناس عداوة لرسول الله ﷺ، فكان يشابه كعب بن الأشرف في العداوة لرسول الله ﷺ، وعن عروة أنه كان ممن أعان غطفان وغيرهم من مشركي العرب بالمال الكثير على رسول الله، وهو الذي حزَّب الأحزاب يوم الخندق فانتدب لقتله خمسة من الخزرج رضي الله عنهم، منهم عبد الله بن عتيك، وعبد الله بن أنيس، وأبو قتادة، واستأذنوا رسول الله ﷺ في ذلك ـ أي: في أنْ يتكلّموا بما يتوصلون به إليه من الحيلة ـ فأذن لهم ﷺ، وأمَّر عليهم عبد الله بن عتيك ﷺ وأمرهم أنْ لا يقتلوا وليداً ولا امرأة، فخرجوا حتى أتوا خيبر غروبَ الشمس، فكمنوا قريباً منها، ودخل حصن خيبر عبد الله بن عتيك، فكمن في مربط دوابهم، قال: وأغلقوا باب الحصن، ثمّ إنّهم فقدوا حماراً لهم فخرجوا يطلبونه، فخرجت فيمن خرج أريهم أني أطلب

---

(١) قصة قتله رواها البخاري في صحيحه برقم: (٣٨١٣)، والبيهقي في الشعب برقم: (١٧٨٧٩).

معهم، فوجدوا الحمار، فدخلوا ودخلت معهم، وأغلقوا باب الحصن ليلاً، فوضعوا المفاتيح في كوَّة حيث أراها، فلمّا ناموا أخذت المفاتيح ففتحت باب الحصن، ثمّ دخلت عليه، فقلت: يا أبا رافع فأجابني فتعمّدت الصّوت فضربته، فصاح فخرجت، ثمّ رجعت كأني مغيث له، فقلت يا أبا رافع وغيّرتُ صوتي، فقال: مالك لأمّك الويل، فقلت: ما شأنك؟، قال: لا أدري من دخل عليَّ فضربني فعمدت إليه فضربته أخرى، فلم تغن شيئاً، فتواريت، ثمّ جئته فإذا هو مستلق على ظهره، فوضعت السيف في بطنه، ثمّ تحاملت عليه حتى قرع العظم، ثمّ خرجت وأنا دهش، فأتيت سلماً لهم لأنزل منه فوقعت منه فانخلعت رجلي فعصبتها بعمامة، ثمّ انطلقت فخرجت إلى أصحابي أحجل، فقلت: انطلقوا فبشّروا رسول الله ﷺ فإنّي لا أبرح حتى أسمع الناعي فما برحتُ حتى سمعت الناعي يقول: انعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز، قال: فقمت أمشي وما بي قلبة حتى أتينا النبيّ ﷺ فأخبرناه.

وفي رواية: لما وصل الخمسة خيبر تسوّروا دار أبي رافع ليلاً، فلم يدعوا بيتاً في الدار إلا أغلقوه على أهله، وكان أبو رافع في عُلّية لها درج - أي: سلّم من الخشب - من محل يصعد عليها، وكان أبو رافع يأتي تلك العُلّية ينام فيها كلّ ليلة، فصعدوا على تلك الدرج حتى قاموا على باب تلك العُليّة فاستأذنوا فخرجت إليهم امرأته فقالت: من أنتم؟ قالوا: ناس من العرب نلتمس الميرة، وكان المتقدم فيهم بالكلام وغيره عبد الله بن عتيك لأنّه كان يتكلّم بلسان اليهود، فاستفتح، وقال: جئت أبا رافع بهدية، ففتحت له امرأته، وقالت: ذاكم صاحبكم فادخلوا عليه، فلمّا دخلوا عليه أغلقوا عليهم وعليها الحجرة، ووجدوه على فراشه ما دلهَّم عليه في الظلمة إلا بياضه كأنّه قطن أبيض فابتدروه بأسيافهم، ووضع عبد الله بن أنيس سيفه في بطنه وتحامل عليه حتى أنفذه، وهو يقول: قطني قطني - أي: يكفيني - فعند ذلك صاحت امرأته، فأشرنا إليها بالسلاح فكفّت وخرجنا من عندها، وكان عبد الله بن عتيك ضعيف البصر فوقع من الدرجة السفلى، فجُرِحت رجله جرحاً بليغاً، فعصبها بعمامته، وحملناه حتى أتينا محلًّا استخفينا فيه حتى سكن الطلب لأنهم أوقدوا النيران وتفرَّقوا في كل جهة يطلبونهم.

ثمّ رجعوا إلى عدوِّ الله فاكتنفوه وهو بينهم يجود بنفسه، ثمّ خرجوا مستخفين وكمنوا قريباً من خيبر، وقال عبد الله بن عتيك: لا أخرج الليلة من خيبر حتى أعلم أني

قتلته أو لا، فلمّا صاح الديك وطلع الفجر قام الناعي على السور فقال: انعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فحينئذ انطلق يحجل إلى أصحابه وقال: قد قتل اللهُ أبا رافع فأسرعوا.

وقيل: مكثوا كامنين يومين بقرب خيبر حتى سكن عنهم الطلب ثمّ قدموا على رسول الله ﷺ فلما رآهم قال: أفلحت الوجوه، قالوا: أفلح وجهك يا رسول الله وأخبروه بالخبر كلِّه. والله أعلم.

سرية زيد بن حارثة إلى القَرَدَة[1]

والسبب في بعث هذه السرية أنّ قريشاً لما كانت وقعة بدر خافوا الطريق التي كانوا يسلكون إلى الشام من عمل بدر، فسلكوا طريقاً أخرى من جهة العراق، فخرجت عير لهم فيها أموال كثيرة جداً من تلك الطريق يريدون الشام، واستأجروا رجلاً يدلُّهم على الطريق، وكان ذلك الرجل ممن هرب من أسارى بدر، وفي تلك العير من أشراف قريش أبو سفيان، وصفوان بن أمية، وعبد الله بن أبي ربيعة، وحويطب بن عبد العزَّى، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة رضي الله عنه في مئة راكب، وهي أول سرية لزيد بن حارثة يخرج فيها أميراً، فصادف تلك العير على ذلك الماء فأصاب العير وأفلت القوم وانصرفوا، وأسروا دليلهم، وقدم زيد بتلك العير على رسول الله ﷺ، فخمَّسها ﷺ فبلغ الخمس ما قيمته عشرون ألف درهم، وأتى بالأسير إلى رسول الله ﷺ فقيل له: إنْ تسلم تترك من القتل فأسلم، فتركه النبيّ ﷺ، وحسن إسلامه رضي الله عنه.

غزوة أُحُد[2]

وسببها أنه لما أصاب قريشاً يوم بدر ما أصابهم مشى عبد الله بن أبي ربيعة والحكم وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية رضي الله تعالى عنهم ـ فإنهم أسلموا بعد ذلك ـ ورجال آخرون من أشراف قريش إلى أبي سفيان رضي الله عنه[3] وإلى من كان له تجارة في تلك العير التي كان سببها وقعة بدر.

وكانت تلك العير موقوفة في دار الندوة ولم تعط لأربابها فقالوا: إنّ محمداً قد وتركم ـ أي: قتل رجالكم، ولم تدركوا دماءهم ـ وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال

---

(١) بفتح القاف والراء، اسم ماء. مؤلف.

(٢) وقعت في شوال سنة ثلاث للهجرة باتّفاق الجمهور. مؤلف.

(٣) فإنه أسلم بعد ذلك.

على حربه لعلّنا ندرك منه ثأراً بنن أُصيب منّا، فأجابوه لما أراد بطيب نفس، فقال أبو سفيان: وأنا أوّل من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي، فأعطوا رأس المال لأربابه، وكان خمسين ألف دينار، وجعلوا الربح ـ وكان بقدر رأس المال، وقيل: بقدر نصفه ـ لقتال النبيّ ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾[1] وتجهَّزت قريش ومن كان معهم ومن والاهم من أهل كنانة وتهامة، وقال صفوان بن أمية لأبي عَزّة الشاعر الذي وقع أسيراً في بدر ومَنَّ عليه النبيّ ﷺ فأعتقه: يا أبا عَزّة، إنك رجل شاعر فأعِنّا بلسانك ولك عليَّ إنْ رجعت أنْ أغنيك، وإنْ أُصبت أجعلُ بناتك مع بناتي يصيبهنّ ما أصابهنّ من عسر ويسر، فقال أبو عزة: إنّ محمداً قد مَنَّ عليَّ وأخذ عليَّ العهد أنْ لا أظاهر عليه أحداً حين أطلقني وأنا أسير في بدر بلا فداء، فلا أريد أنْ أظاهر عليه، قال صفوان: بلى، فأعِنّا بلسانك، فخرج أبو عَزّة معهم وشاعرٌ آخر يقال له: مسفع يستنفران الناس بأشعارهما، ودعا جبير بن مطعم بن عدي رضي الله عنه[2] غلاماً له حبشيًّا يقال له: وَحْشي رضي الله عنه[3] وكان يقذف بحربة له قذف الحبشة فلا يخطئ بها فقال له: اخرج مع الناس فإنْ أنت قتلت حمزة عمَّ محمد بعَمّي طعيمه فأنت حرٌّ، وقيل: إنّ وحشيًّا كان غلاماً لطعيمه، وإنّ ابنة سيّده طعيمة قالت له: إنْ قتلت محمداً أو حمزة أو عليًّا بأبي، فإني لا أرى في القوم كفؤاً غيرهم فأنت عتيق.

وخرج معهم النساء بالدّفوف، وخرج من نساء قريش خمس عشرة امرأة مع أزواجهن منهن هند زوج أبي سفيان رضي الله عنها ـ فإنها أسلمت بعد ذلك ـ وأم حكيم بنت طارق مع زوجها عكرمة رضي الله عنهما ـ فإنهما أسلما بعد ذلك ـ وسلافة مع زوجها طلحة بن أبي طلحة، وأمّ مصعب بن عمير يبكين ويَنُحْن على قتلى بدر ليحرضنّ على القتال وعدم الهزيمة والفرار.

وبلغ رسول الله ﷺ ذلك بكتاب أرسله إليه عمّه العبّاس مع رجل من بني غِفَار وشرط عليه أنْ يأتي المدينة في ثلاثة أيام بلياليها ففعل ذلك، ودفع الكتاب للنبيّ ﷺ فدفعه ﷺ لأبيٍّ بن كعب فقرأه عليه أبيٌّ، فاستكتم النبيّ ﷺ أُبيًّا الخبر، ثم نزل ﷺ

---

(١) الأنفال: ٣٦.

(٢) فإنه أسلم بعد ذلك.

(٣) فإنه أسلم بعد ذلك.

على سعد بن الرّبيع فأخبره بكتاب العباس فقال: والله، إني لأرجو أن يكون خيراً، فاستكتمه الخبر أيضاً، فلما خرج رسول الله ﷺ من عنده قالت له امرأته: ما قال لك رسول الله ﷺ؟ فقال لها: كلاماً لنا به غرض، وما أنتِ وذاك؟!، فقالت له: قد سمعت ما قال وأخبرَتْه بما قاله رسول الله ﷺ، فاسترجع ـ أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ـ وأخذ بيدها ولحقه ﷺ وأخبره خبرها، وقال: يا رسول الله، إني خفتُ أن تفشو الخبر فترى أني أنا المفشي له، وقد استكتمتني إياه، فقال له رسول الله ﷺ: خلِّ عنها.

وسارت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل، وخرج معهم أبو عامر الراهب في سبعين فارساً من الأوس، وفيهم مائتا فرس، وثلاثة آلاف بعير، وسبعمئة درع، وكان أميرهم أبا سفيان، وكان الجيش من أهل مكة والحلفاء لهم والأحابيش التابعين لهم، فساروا حتى نزلوا مقابل المدينة بذي الحليفة، وهو ميقات أهل المدينة الذين يُحرِمون منه، وأرجفت اليهود والمنافقون الأخبار، فبعث رسول الله ﷺ عينين ـ أي: جاسوسين ـ له فأتيا رسول الله ﷺ بخبرهم، ويقال: أنّ عمرو بن سالم الخزاعي مع نفر من خزاعة فارقوا قريشاً من ذي طوى وجاؤوا إلى النبيّ ﷺ وأخبروه خبرهم وانصرفوا.

ولما وصل كفّار قريش ومن معهم الأبواء أرادوا نبش قبر أمّه ﷺ أشارت بذلك هند زوجة أبي سفيان، فقالت: لو نبشتم قبر أمّ محمد، فإنْ أُسر منكم فديتم كلَّ أسير بجزء من أجزائها، فحينئذ قال بعض قريش: لا يفتح هذا الباب وإلا نبشت بنو بكر موتانا.

وعند مجيئهم حُرِست المدينة الشريفة وبات سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة في المسجد بباب رسول الله ﷺ حتى أصبحوا، ورأى رسول الله ﷺ رؤيا قال: «رأيت البارحة في منامي خيراً، رأيت بقراً تذبح، ورأيت في ذباب سيفي ـ وهو ذو الفقار ـ ثلماً ـ بإسكان اللام ـ ورأيت أنّي أدخلت يدي في درع حصينة، فأوّلتها المدينة»[1]، وفي رواية: «رأيت سيفي ذا الفقار انقصم من عند ضبّته فكرهته، وهما مصيبتان، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة، وأني مردف كبشاً» فقالت الصّحابة: وما أوّلتها يا رسول الله؟ قال: «أمّا البقر، فناس من أصحابي يُقتلون، وأما الثَّلم الذي رأيته في سيفي فهو رجل من أهل بيتي ـ وفي رواية: من عترتي ـ يُقْتَل،

(١) عزاه ابن كثير في البداية والنهاية إلى البخاري ومسلم. انظر البداية: (٤/١١)، وانظر عيون الأثر: (٢/٥).

وأما الدّرع الحصينة، فهي المدينة، وأما الكبش، فإني أَقْتل كبش القوم[1]»، ثمّ قال ﷺ لأصحابه: «إنْ رأيتم أنْ تقيموا في المدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإنْ أقاموا بشرّ مقام، وإنْ هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها، فأنا أعلم بها منهم»[2].

وكانوا قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية، فهي كالحصن، وكان ذلك رأيُ أكابر المهاجرين والأنصار ووافق على ذلك عبد الله بن أبيّ ابن سلول، فإنّ رسول الله ﷺ أرسل إليه يستشيره، وقَبِل ذلك، وقال: يا رسول الله، أقم بالمدينة ولا تخرج، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوٍّ لنا قطّ إلا أصاب منَّا ولا دخلها عدوٌّ لنا إلا أصبنا منه، فدَعْهم يا رسول الله، فإنْ أقاموا أقاموا بشرِّ مجلس، وإنْ دخلوا قابلهم الرجال في وجوههم، ورماهم الصّبيان بالحجارة من ورائهم، وإنْ رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا.

وقال رجال غالبهم أحداث، أحبُّوا لقاء العدوِّ، وغالبهم آسِفٌ على ما فاته من مشهد بدر: اخرج بنا إلى أعدائنا يا رسول الله، لا يرون أنَّا جبنَّا عنهم وضعفنا فيكون ذلك جراءة منهم علينا، والله لا تطمع العرب في أن تدخل علينا منازلنا، وفي لفظ: إنّ الأنصار قالوا: يا رسول الله، ما علينا من عدوِّنا، أتانا في دارنا في ناحية من نواحيها، فكيف وأنت فينا. ووافقهم على ذلك حمزة عمُّ النبيّ ﷺ، فقال للنبيّ ﷺ: والله لا أطعم طعاماً حتى أُحاربهم بسيفي خارج المدينة كلّ ذلك ورسول الله ﷺ كاره للخروج، فلم يزالوا يقولون: يا رسول الله، اخرج إليهم حتى وافق ﷺ على الخروج، فصلَّى الجمعة بالناس، ثمّ وعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد، وأخبرهم بأنّ لهم النّصرة ما صبروا، وأَمَرهم بالتهيُّؤ لعدوِّهم ففرحوا بذلك، ثمّ صلَّى النبيّ ﷺ بالنّاس العصر، وقد اجتمعوا وحضر أهل العوالي، ثمّ دخل رسول الله ﷺ بيته ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فعمَّماه وألبساه ﷺ، وصُفَّ النّاس ينتظرون خروجه ﷺ، فقال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير: استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج، فرُدُّوا الأمر إليه، فما أمركم به فأطيعوه، فخرج رسول الله ﷺ وقد لبس لامته وظاهر بين درعين ـ أي: لبس درعاً فوق درع ـ وهما ذات الفضول وفضة اللتان أصابهما ﷺ من بني قينقاع، وحزم ﷺ وسطه بمَنْطَقة من أدم من حمائل سيفه ﷺ، وتقلَّد ﷺ بالسيف، وألقى الترس في ظهره، وتقلَّد القوس، وركب فرسه السّكب، وأخذ قناة ـ

---

(١) أي: حاميهم والمدافع عنهم.

(٢) انظر البداية والنهاية: (٤/١٢)، وتاريخ الإسلام: (١/٢٠٢).

رمحاً ـ بيده فقالوا له: ما كان لنا أنْ نخالفك ونستكرهك على الخروج، فاصنع ما شئت، فإنْ شئت يا رسول الله فاقعد، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قد دعوتكم إلى القعود، فأبيتم، وما ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لامته أنْ يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه حتى يقاتلهم» أي: لأنَّ نزع ذلك يُشْعر بالجبن، وهو ممتنع على الأنبياء عليهم الصّلاة والسلام.

وعقد ﷺ ثلاث ألوية: لواء للأوس وكان بيد أسيد بن حضير، ولواء للمهاجرين وكان بيد علي بن أبي طالب ﷺ، وقيل: بيد مصعب بن عمير، ولواء للخزرج وكان بيد الحُباب بن المنذر، وقيل: بيد سعد بن عبادة.

وخرج ﷺ في ألف من أصحابه منهم مئة درّاع، وخرج السّعدان أمامه يعدوان: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما، واستعمل ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم ﷺ، وسار ﷺ إلى أنْ وصل رأس الثنيّة، وعندها وجد ﷺ كتيبة كبيرة فقال: ما هذا؟، قالوا: حلفاء عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول من اليهود، فقال ﷺ: «أسلموا؟»، فقيل: لا، فقال ﷺ: «إنا لا نستنصر أهل الكفر على أهل الشرك»، فردَّهم رسول الله ﷺ وعسكر بالسبخين، وهما أُطَمَانِ ـ أي: جبلان.

وعند ذلك استعرض ﷺ الشباب فردَّ جمعاً شباباً لم يرهم بلغوا خمس عشرة سنة، منهم عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، وزيد بن الأرقم، والبراء بن عازب، وأسيد بن ظُهَير، وعَرابة بن الأوس، وأبو سعيد الخدري، وسعيد بن خثعمة، وزيد بن حارثة الأنصاري، ورافع بن خديج، وسمرة بن جندب رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وأجاز ﷺ رافع بن خديج لما قيل: إنه رامٍ وأصيب ذلك اليوم بسهم فقال ﷺ: «أنا أشهد له يوم القيامة» ومات ﷺ في زمن عبد الملك بن مروان لما نقض عليه ذلك الجرح، وعندما أجازه رسول الله ﷺ قال سمرة بن جندب لزوج أمِّه: أجاز ﷺ رافع بن خديج وردَّني وأنا أصرعه فأعلم بذلك رسول الله ﷺ، فقال لهما: تصارعا فصرع سمرة بن جندب رافعاً فأجازه النبيّ ﷺ، وممن ردَّهم رسول الله ﷺ يوم أُحُد لصغر سِنِّه سعد بن بجير، فلمّا كان يوم الخندق رآه النبيّ ﷺ يقاتل قتالاً شديداً، فدعاه رسول الله ﷺ، ومسح على رأسه ودعا له بالبركة في ولده ونسله فكان عمّاً لأربعين وخالاً لأربعين وأباً لعشرين، ومنهم أبو أبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنهم أجمعين.

فما فرغ رسول الله ﷺ من العرض إلا وقد غابت الشمس، فأذَّن بلال ﷺ بالمغرب فصلّى رسول الله ﷺ بأصحابه، ثمّ أذَّن بالعشاء فصلّى بهم ﷺ وبات، واستعمل على الحرس تلك الليلة محمد بن مسلمة في خمسين رجلاً يطوفون بالعسكر، ونام رسول الله ﷺ وذكوان بن عبد قيس يحرسه لم يفارقه، وذلك لما قال ﷺ: «من يحفظنا الليلة؟» حتى إذا كان السَّحَر قال رسول الله ﷺ: «رأيت في النوم أنّ الملائكة تغسل حمزة ـ ﷺ»، وأدلج رسول الله ﷺ في السحر فحانت صلاة الصّبح بالشوط بين المدينة وأُحُد.

ورجع عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول ومن معه من أهل النفاق وهم ثلاثمئة رجل، وهو يقول: عصاني محمد، واتّبع الولدان ومن لا رَأْيَ له، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون، علامَ نقتل أنفسنا، ارجعوا أيها الناس، فرجعوا، فتبعهم عبد الله بن عمرو بن حزام يقول: يا قوم، أذكِّركم الله أن لا تخذلوا قومكم ـ أي: بانصرافكم وعدم إعانتهم عندما حضر عدوُّهم ـ قالوا: لو نعلم أنّكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكن لا نرى أنه يكون قتال وأبوا إلَّا الانصراف، فقال لهم عبد الله بن عمرو بن حزام: أبعدكم الله ـ أي: أهلككم ـ أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيَّه ﷺ.

فلمّا رجع عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول بمن معه من المنافقين قالت طائفة: نقتلهم، وقالت طائفة أخرى: لا نقتلهم وكاد القتال يشتعل بين تلكم الطائفتين، والطائفتان: هم بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج، فأنزل الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾[1] أي: ردَّهم إلى كفرهم.

وكانت بنو حارثة وبنو سلمة هَمَّا بالانصراف بعدما ذكر مع كونهما جناحي العسكر فعصمهما الله سبحانه وتعالى وأنزل فيهما قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا...﴾[2] الآية.

وبقي مع رسول الله ﷺ سبعمئة رجل، ولم يكن يومئذ مع المسلمين بعد انخناس أُبيّ ومن معه إلا فرسان: فرس لرسول الله ﷺ وفرس لأبي بردة ﷺ، وقالت الأنصار رضي الله عنهم لما رجع عبد الله بن أُبَيّ: يا رسول الله، ألا نستعين بحلفائنا من يهود المدينة؟ فقال ﷺ: «لا حاجة لنا فيهم»، ثمّ قال ﷺ: «من يخرج بنا على

(١) النساء: ٨٨.

(٢) النساء: ١٢٢.

القوم من كثب؟» أي: يسلك بنا طريقاً قريباً، فلا يمر بنا على القوم إلا كارِّين عليهم من قبل أنْ يعاينوا عددنا فيتجاسروا علينا، فقال أبو خيثمة: أنا يا رسول الله، فنفَذَ بهم في حرَّة بني حارثة وبين أموالهم حتى دخل في حائط ـ أي: بستان لمربع بن قبطي الحارثي ـ وكان رجلاً منافقاً ضريراً، فقام يحثوا التراب في وجوههم، ويقول: إن كنتَ رسول الله، فإني لا أحلُّ لك أنْ تدخل حائطي وفي يده حفنة من التراب، وقال: والله إني لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك، فابتدر إليه سعد بن زيد فضربه بالقوس في رأسه فشجَّه، وأراد القوم قتله، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقتلوه فهذا الأعمى أعمى القلب والبصر».

وغضب له ناس من بني حارثة كانوا منافقين لم يرجعوا مع ابن سلول فهمَّ بهم أسيد بن حضير رضي الله عنه، فأشار إليه رسول الله ﷺ بترك ذلك.

ومشى رسول الله ﷺ حتى نزل الشِّعب من أُحُد فجعل به عسكره وظَهْره إلى أُحُد واستقبل المدينة، وصفَّ ﷺ المسلمين في جبل أُحُد بعد أنْ بات فيه تلك الليلة، وحانت صلاة الصّبح والمسلمون يريدون المشركين فأذَّن بلال رضي الله عنه وأقام وصلَّى رسول الله ﷺ بأصحابه صفوفاً، وخطب خطبةً حثَّهم فيها على الجهاد، فقال ﷺ: «أيها الناس أوصيكم بما أوصاني الله تعالى به في كتابه، من العمل بطاعته، والتناهي عن محارمه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذي عليه، ثم وطن نفسه له على الصبر واليقين، والجد والنشاط، فإن جهاد العدو شديد كريه، قليل من يصبر عليه إلا من عزم الله تعالى رشده، فإن الله تعالى مع من أطاعه، وإن الشيطان مع من عصاه فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله تعالى وعليكم بالذي أمركم به، فإني حريص على رشدكم، وإن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز، والضعف، مما لا يحب الله تعالى، ولا يعطي عليه النصر ولا الظفر.

يا أيها الناس، جدد في صدري أن من كان على حرام فرق الله تعالى بينه وبينه، ومن رغب له عنه غفر الله له ذنبه، ومن صلى عليّ صلاة صلى الله عليه وملائكته عشراً، ومن أحسن من مسلم أو كافر وقع أجره على الله، في عاجل دنياه وآجل آخرته، ومن كان يؤمن بالله واليوم الاخر فعليه الجمعة إلا صبيا أو امرأة أو مريضاً أو عبداً مملوكاً، ومن استغنى عنها استغنى الله عنه، والله غني حميد.

ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به، ولا أعلم من عمل

يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه، وأنه قد نفث في روعي الروح الأمين ـ أي: جبريل عليه السلام ـ أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها لا ينقص منه شيء، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله ربكم، وأجملوا في طلب الرزق، ولا يحملنّكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله تعالى، فإنه لا يُقْدَرُ على ما عنده إلا بطاعته، قد بيّن لكم الحلال والحرام غير أن بينهما شُبُهاً من الأمر، لم يعلمها كثير من الناس إلا من عصم الله تعالى، فمن تركها حفظ عرضه ودينه، ومن وقع فيها كان كالراعي إلى جنب الحمى أوشك أن يقع فيه، وليس ملك إلا وله حمى، ألا وإن حمى الله تعالى محارمه، والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد إذا اشتكى تداعى عليه سائر جسده، والسلام عليكم».

ولما أقبل خالد بن الوليد ومعه عكرمة بن أبي جهل رضي الله تعالى عنهما ـ فإنهما أسلما بعد ذلك ـ بعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام ﷺ، وقال له: «استقبل خالد بن الوليد، وكن بإزائه»، وأمر بجماعة أخرى فكانوا بإزاء خيل أخرى للمشركين، وقال ﷺ: «لا تبرحوا حتى آذن لكم»، وقال ﷺ: «لا يقاتلنّ أحدٌ حتى آمره بالقتال».

وكان الرماة خمسين رجلاً، فأمَّر رسول الله ﷺ عليهم عبد الله بن جبير وقال: «انضح الخيل عنّا بالنّبل لا يأتوننا من خلفنا، واثبت في مكانك إنْ كانت لنا أو علينا»، وفي رواية: «إنْ رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم، وارشقوهم بالنّبل فإنّ الخيل لا تقدم على النّبل، إنا لا نزال غالبين ما مكثتم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم»، وأخرج رسول الله ﷺ سيفاً وكان مكتوباً في إحدى صفحتيه:

في الجبن عار وفي الإقدام مكرمة ... والمرء بالجبن لا ينجو من القدر

وقال: «من يأخذ هذا السيف بحقِّه؟»، فقام إليه رجال وبسطوا أيديهم، كلّ واحد منهم يقول: أنا آخذه يا رسول الله، فأمسكه عنهم جميعاً، وكان من جملتهم عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه قام ليأخذه فقال ﷺ له: «اجلس»، وطلبه عمر ﷺ فأعرض ﷺ عنه، كما طلبه الزبير ﷺ ثلاث مرات، وفي كلّ ذلك يُعرض رسول الله ﷺ عن دفعه، حتى قام أبو دجانة[1] ﷺ فقال: وما حقُّه يا رسول الله؟، فقال ﷺ: «تضرب به

(١) هو سماك بن خرشة ﷺ، ويقال سماك بن أوس بن خرشة، وهو أنصاري خزرجي، شهد بدراً، وكان أحد الشجعان، له مقامات محمودة في المغازي التي خاضها مع رسول الله ﷺ، استشهد يوم اليمامة. انظر أسد الغابة: (١/٤٧٨)، والاستيعاب: (١٩٧).

وجه العدوِّ حتى ينحني»، فقال: أنا آخذه بحقّه، فدفعه رسول الله ﷺ إليه.

وكان ﷺ رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب ـ أي: يمشي مِشْيَةَ المتكبِّر ـ فحين رآه رسول الله ﷺ يتبختر بين الصّفَّين قال: «إنّها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن» أي: لأنّ فيها دليلاً على عدم الاكتراث بالعدوِّ.

وكان له ﷺ عصابة حمراء لا يتعصَّب بها إلا عند اصطلاء نار الحرب علامة على كثرة إراقة الدم من شدَّة غيظه من عدوِّه تُدعى عصابة الموت الأحمر، فتعصَّب بها حينئذ فقالوا: تعصَّب أبو دجانة بعصابة الموت، وعند اصطفاف القوم نادى أبو سفيان بن حرب: يا معشر الأوس والخزرج خلُّوا بيننا وبين بني عمِّنا وننصرف عنكم، فشتموه أقبح شتم ولعنوه أشدَّ اللعن، فحينئذ خرج رجل من المشركين على بعير له فدعا للمبارزة فأحجم عنه الناس حتى دعا ثلاثاً، فقام إليه الزبير ﷺ فوثب حتى استوى معه على البعير ثمّ عانقه فاقتتلا فوق البعير، فقال ﷺ: «الذي يلي حضيض الأرض مقتول»، فوقع المشرك فوقع عليه الزبير فذبحه، فأثنى عليه رسول الله ﷺ وقال: «لكل نبيٍّ حواري ـ أي: ناصر ـ وإنّ حواريي الزبير، لو لم يبرز إليه الزبير لبرزت إليه»، وذلك لما رأى ﷺ من إحجام الناس عنه، وخرج طلحة بن أبي طلحة بين الصّفين وكان بيده لواء المشركين، وطلب المبارزة مراراً، فلم يخرج إليه أحد فقال: يا أصحاب محمد، قد زعمتم أنّ قتلاكم في الجنة وأنّ قتلانا في النار، وتزعمون أنّ الله يعجّلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة، فهل أحد منكم يعجّلني بسيفه إلى النار، أو أعجّله بسيفي إلى الجنة، كذبتم واللات والعزّى، لو تعلمون ذلك حقًّا لخرج إليَّ بعضكم، فخرج إليه عليٌّ بن أبي طالب كرَّم الله تعالى وجهه، فاختلفا في ضربتين فقتله عليٌّ ﷺ، وفي رواية: فالتقيا بين الصّفين فبدره عليٌّ ﷺ فصرعه ـ أي: قطع رجله ـ ووقع على الأرض فبدت عورته، فقال: يا ابن عمي أنشدك الله والرَّحم فرجع عليٌّ عنه، فقال ﷺ: «ما منعك أنْ تجهز عليه؟» فقال: ناشدني الله والرحم، فقال ﷺ له: «اقتله»، فقتله، فلما قتل أخذ لواء المشركين أخوه، وهو عثمان بن أبي طلحة فحمل عليه حمزة ﷺ فقطع يده وكتفه حتى انتهى إلى مؤتزره، فأخذ اللواء أخو عثمان، وهو أبو سعيد بن أبي طلحة، فرماه سَعْد بن أبي وقاص ﷺ، فأصاب حنجرته فقتله، فحمله مسافع ابن أبي طلحة الذي قتله عليٌّ ﷺ، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأفلج فقتله، ثمّ حمله أخو مسافع، وهو الحارث بن

طلحة، فرماه عاصم أيضاً فقتله، وكانت أمهما ـ وهي سلافة ـ معهما، وكلّ واحد منهما بعد أنْ رماه عاصم يأتي أمه ويضع رأسه في حجرها فتقول: يا بنيّ من أصابك فيقول: سمعت رجلاً حين رماني يقول: خذها وأنا عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح، فنذرت أمهما إنْ أمكنها الله من رأس عاصم بن ثابت أنْ تشرب فيه الخمر، وجعلت لمن جاء برأسه مئة من الإبل، ثمّ حمله أخو مسافع وأخو الحارث، وهو كلاب بن طلحة، فقتله طلحة بن عبد الله، وعند ذلك حمله أرطاة بن شرحبيل فقتله عليٌّ كرم الله وجهه، وقيل: حمزة ﷺ فحمله شريح بن قارظ الدار فقتله قزمان، فحمله صُوَا غلامهم، وكان عبداً حبشيًّا فقاتل حتى قطعت يده، فبرك عليه وأخذه لصدره واعتنقه حتى قتله قزمان أيضاً، وقيل: سعد بن أبي وقاص، وقيل: عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.

وقد كان أبو سفيان قال لأصحابه: يا بني عبد الدار، إنكم تركتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإمّا أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلُّوا بيننا وبينه فنكفيكموه، فهمُّوا به وتواعدوه، وقالوا: نحن نسلِّم إليك لواءنا؟!، ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع.

وذلك الذي أراده أبو سفيان منهم ونزل في بني عبد الدار: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1].

ولما صُرِع صاحب لواء المشركين الذي هو طلحة بن أبي طلحة استبشر النبيّ ﷺ وأصحابه، لأنه كبش الكتيبة ـ أي: حامي الجيش الذي رأى رسولُ الله ﷺ مناماً سابقاً أنّه مردفه خلفه، وقال يومها: «أوّلتُ ذلك أنّي أقتل صاحب الكتيبة ـ فهذا كبش الكتيبة.

وعند وجود ما ذكر من قتل أصحاب اللواء صاروا كتائب متفرّقة فجاش المسلمون فيهم ضرباً حتى أجهضوهم ـ أي: أزالوهم عن أثقالهم ـ وكان شعار المسلمين يومئذ (أَمِت أَمِت)، وشعار الكفار (يا للعزى يا لهبل).

وخرج عبد الرحمن بن أبو بكر ﷺ[2] فقال: من يبارزني فنهض إليه أبوه أبو بكر ﷺ شاهراً سيفه، فقال رسول الله ﷺ: «متعنا بنفسك، أما تعلم أنك مني بمنزلة السمع والبصر».

---

(١) الأنفال: ٢٢.

(٢) فإنه أسلم بعد ذلك.

وقد وقع للصديق ﷺ أنّ العرب لما ارتدّت بعد موته ﷺ خرج أبو بكر ﷺ مع الجيش شاهراً سيفه، فأخذ عليٌّ ﷺ بزمام راحلته وقال له: إلى أين يا خليفة رسول الله، أقول لك كما قال رسول الله ﷺ لك يوم أحد: «شم سيفك ولا تفجعنا بنفسك، وارجع إلى المدينة، فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبداً»، فرجع وأمضى الجيش. اهـ.

وفي أوّل الأمر حملت خيل المشركين على المسلمين ثلاث مرات، كلّ ذلك وتنضح بالنبل فترجع مفلولة ـ بالفاء، أي: متفرقة ـ وحمل المسلمون على المشركين فنهكوهم ـ أي: أضعفوهم ـ قتلاً فلما التقى الفريقان وحميت الحرب قامت هند في النّسوة اللاتي معها وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال، ويقلن:

ويهاً بني عبد الدار ... ويها حماة الأدبار

ضرباً بكل بتار

ويقلن:

نحن بنات طارق ... نمشي على النمارق

والدر في المخانق ... والمسك في المفارق

إن تقبلوا نعانق ... ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق ... فراق غير وامق[1]

وكان ﷺ إذا سمع ذلك ـ أي: تحريض هند بما ذكر ـ يقول: «اللهم بك أحول ـ أي: أمنع ـ وبك أصول، وبك أقاتل، وحسبي الله ونعم الوكيل».

وقاتل أبو دجانة حتى أمعن، فعن الزبير قال: وجدتُ ـ أي: غضبت ـ في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ السيف الذي قال فيه: «من يأخذه بحقه» ثلاث مرات، وأنا ابن عمته ﷺ، فمنعنيه، وأعطاه أبا دجانة، فقلت: والله لأنظرن ما يصنع به، فاتبعته، فأخذ عصابة حمراء، أخرجها من ساق خفه، وكان مكتوب على أحد طرفيها نصرٌ من الله وفتح قريب، وفي طرفها الآخر: (الجبانة في الحرب عار، ومن فَرَّ لم ينج من النار) فعصب بها، فقال الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، فجعل لا يلقى واحداً إلا قتله، وكان إذا كلَّ السيف استحدَّه ـ أي: يحدُّه بالحجارة ـ ولم يزل يضرب به العدوَّ حتى انحنى، وصار كأنه منجل.

---

(١) الأبيات من منهوك المنسرح، وأجزاؤه: مستفعلن مفعولات.

وكان رجل من المشركين لا يدع لنا جريحاً إلا ذفف عليه ـ أي: أسرع بقتله ـ فدعوت الله أن يجمع بينه وبين أبي دجانة، فالتقيا، فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقى بدرقته فعضّت الدرقة على سيفه، وضربه أبو دجانة فقتله، ثمّ رأيته حمل على هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، وقيل: غيرها بالسّيف، ثمّ ردَّ السيف عنها، قال أبو دجانة: رأيت إنساناً يحمِّس الناس حمساً شديداً ـ أي: يشجّعهم ـ يوقد الحرب ويثيرها، فعمدت إليه فلمّا حملت عليه بالسيف ولّى ودعا بالويل ـ أي: قال: يا ويلاه ـ فعلمت أنه امرأة، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أنْ أضرب به امرأة.

وقاتل حمزة عمُّ النبيّ ﷺ قتالاً شديداً، ومرَّ به سباع بن عبد العزَّى، فقال له حمزة ﷺ: هلمَّ ـ أي: أقبل ـ يا ابن مقطّعة البظور، لأنّ أمه كانت ختّانة بمكة، أتحادُّ الله ورسوله ـ أي: أتحاربهما وتعاندهما.

وكان من أمْره أنه لما اصطف المشركون للقتال خرج سباع فقال: هل من مبارز، فخرج إليه حمزة وشدَّ عليه، فلما التقيا ضربه حمزة ﷺ فقتله، فكان كأمسِ الذاهب، وكان تمام واحد وثلاثين قتلهم حمزة.

وعثر حمزة ﷺ فانكشف الدرع عن بطنه، فهزّ وحشيّ حربته حتى إذا رضي عن تسديدها، دفعها إليه، فوقعت في ثنيَّته ـ وهو موضع بين السرة والعانة ـ فخرجت من بين رجليه، فأقبل حمزة ﷺ نحوه فغلبت عليه إصابته، فوقع فأمهله وحشيّ حتى إذا مات جاءه، فأخذ الحربة، ثمّ تنحى إلى العسكر، ولم يكن له في الحرب حاجة غيره.

ثمّ لما قُتِل أصحاب لواء المشركين واحداً بعد واحد، ولم يقدر أحد أن يدنو منه ـ أي: اللواء ـ انهزم المشركون وولَّوْا، ونساؤهم يدعون بالويل بعد فرحهنّ وضربهنّ بالدفوف، وألْقَيْنَ الدفوف، وقصدن الجبل كاشفات سيقانهن يرفعن ثيابهن، وتبع المسلمون المشركين يضعون فيهم السلاح وينتهبون الغنائم.

وفي هذه الأثناء فارق الرماة محلّهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ أنْ لا يفارقوه مهما حصل، وكان الرماة متمركزين على سفح الجبل ليحموا المسلمين إنْ قصدهم العدو من خلف الجبل، فنهاهم أميرهم عبد الله بن جبير، فقالوا له: انهزم المشركون، فما مقامُنا ههنا، وانطلقوا ينتهبون، وثبت عبد الله بن جبير مكانه، وثبت معه دون العشرة، وقال: لا أجاوز أمر رسول الله ﷺ، فنظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل من الرماة، وقلّة من به منهم، فكرَّ بالخيل ومعه عكرمة بن أبي جهل، فحملوا على من

بقي من الرماة فقتلوهم مع أميرهم عبد الله بن جبير، ومثّلوا به، وأحاطوا بالمسلمين، فبينما المسلمون قد شُغلوا بالنّهب والأسر إذ دخلت خيول المشركين تنادي فرسانها شعارها (يا للعزى يا لهبل)، ووضعوا السيوف في المسلمين وهم آمنون، وتفرّق المسلمون في كلّ وجه وتركوا ما انتهبوه وخلوا من أسروه، وانتقضت صفوف المسلمين واختلط المسلمون بالكافرين، وصاروا يضرب بعضهم بعضاً من غير شعار مما أصابهم من الدهشة والحَيْرة، ولم يزل لواء المشركين ملقى حتى أخذته عمرة بنت علقمة ورفعته لهم فاستداروا واجتمعوا عنده، ونادى ابن قمئة أنّ محمداً قد قتل، وقيل: المنادي بذلك إبليس متمثّلاً بصورة جُعال أو جعَيْل بن سراقة، وكان رجلاً صالحاً ممن أسلم قديماً، وكان من أهل الصفَّة، وهو الذي غيَّر النبيّ ﷺ اسمه يوم الخندق وسمّاه عمراً.

ثمّ إنّ الناس وثبوا على عمرو ليقتلوه فتبرّأ من ذلك القول، وشهد له خوات بن جبير وأبو بردة بأنّه كان عندهما وبخبائهما حين صرخ ذلك الصّارخ، وقيل: المنادي بذلك إِزْب العقبة قال ذلك ثلاث مرات، لأنه لما بلغ رسول الله ﷺ ما صرخ الشيطان به قال: «هذا إزب العقبة»، والإِزْب بكسر الهمزة وسكون الزاي: القصير.

وقد ذكر أنّ عبد الله بن الزبير رضي الله عنه رأى رجلاً طوله شبران على رحله، فقال له من أنت قال: إِزْب، قال عبد الله: ما إزب؟ قال: رجل من الجنّ، فضربه عبد الله على رأسه بعود السوط حتى هرب[1].

ويجوز أن يكون الصّراخ وقع من الثلاثة.

فلمّا جرى ما ذكر كلّه رجعت الهزيمة على المسلمين، وقال قائل: يا عباد الله، أخراكم ـ أي: احترزوا من جهة أخراكم ـ فعطف المسلمون على أخراهم يقتل بعضهم بعضاً، وهم لا يشعرون وانهزمت طائفة منهم إلى جهة المدينة، ولم يدخلوها، وقال رجال من المسلمين: حيث قتل رسول الله ﷺ فارجعوا إلى قومكم يؤمّنوكم، وقال آخرون: إن كان رسول الله ﷺ قتل، أفلا تقاتلون على دينكم وعلى ما كان عليه نبيّكم حتى تلقوا الله شهداء.

وروي أنّ ثابت بن الدحداح قال: يا معشر الأنصار، إنْ كان محمد قد قتل، فإنّ

---

(١) انظر الروض الأنف: (١/٢١٩).

الله حيٌّ لا يموت، قاتلوا عن دينكم، فإنّ الله مظفركم وناصركم. فنهض إليه نفر من الأنصار رضي الله عنهم فحمل بهم على كتيبة فيها خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب، فقاتلوا حتى قتلوا.

وكان من جملة من انهزم عثمان بن عفان، والوليد بن عقبة، وخارجة بن زيد، ورفاعة بن المعلَّى فأقاموا ثلاثة أيام، ثمّ رجعوا إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ذهبتم فيها عريضة»، وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾[1].

وانهزمت طائفة منهم حتى دخلت المدينة فلقيتهم أم أيمن فجعلت تحثو التراب في وجوههم وتقول لبعضهم: هاك المغزل فاغتزل به، وأعطني سيفك.

وثبتَ رسول الله ﷺ لما تفرَّق أصحابه وصار يقول: «إليَّ يا فلان إليَّ يا فلان، أنا رسول الله»، فما يعرج إليه أحد، والنّبل يأتيه من ناحية والله يصرفه عنه قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ أي: تذهبون ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أي: لم يقف أحد لأحد ولم ينظره ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾[2] أي: يقول: «إليَّ عباد الله، أنا رسول الله، من بكّر فله الجنة».

وقوله: ﴿أخراكم﴾ أي: في ساقتكم وجماعتكم الأخرى المتأخرة، وفي البخاري: قوله: ﴿في أخراكم﴾ أي: احترزوا من جهة أخراكم، وهي كلمة تقال لمن يخشى أنْ يؤتى عند القتال من ورائه، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم، أي: وهم يظنّون أنهم من العدوّ.

وثبت معه ﷺ جماعة من الصّحابة منهم أبو طلحة، فإنه استمر بين يدي النبيّ ﷺ يحوز عنه بحَجَفَته[3]، وكان رجلاً رامياً شديد الرمي، فنثر له النبيّ ﷺ كنانته وقيل: هو الذي نثر كنانته بين يدي النبيّ ﷺ، وصار يقول: نفسي لنفسك الفداء، ووجهي لوجهك الوقاء، فلم يزل يرمي بها، وكان الرّجل يمر بالجعبة من النّبل، فيقول رسول الله ﷺ: «أنثرها لأبي طلحة»، وكسر في ذلك اليوم قوسين أو ثلاثة، وصار رسول الله ﷺ يُشْرف ـ أي: ينظر إلى القوم ليرى مواضع النّبل ـ فيقول له أبو

(١) آل عمران: ١٥٥.

(٢) آل عمران: ١٥٣.

(٣) الحَجَفَة: الترس من الجلد.

طلحة: يا نبيّ الله، بأبي أنت وأمي، لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك، ويتطاول أبو طلحة بصدره يقي رسول الله ﷺ ـ لأنه يجب على كلّ مسلم أن يؤثر حياته ﷺ على حياة نفسه ـ ولا زال ﷺ يرمي عن قوسه المسماة بالكتوم لعدم تصويتها إذا رمى بها حتى صارت شظايا ـ أي: ذهبت قطعاً ـ وفي رواية: وما زال رسول الله ﷺ يرمي عن قوسه حتى تقطّع وتره[1]، وبقيت في يده منه قطعة تكون شبراً في سيّة القوس، فأخذ القوس عكاشة بن محصن ليوتره له ﷺ فقال: يا رسول الله، لا يبلغ الوتر فقال ﷺ: «مدَّه يبلغ»، قال عكاشة: فوالذي بعثه بالحق لمددته حتى بلغ، وطويت منه لفّتين وثلاثاً على سيّة القوس[2] [3].

ومن الرماة الذين قاتلوا قتالاً بليغاً: سعد بن أبي وقاص بن مالك القرشي الزهري، أحد الستة أصحاب الشورى عند خلافة عثمان ﷺ، والثمانية السابقين للإسلام، والعشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الشجعان المشهورين، وهو أوّل من رمى بسهم في سبيل الله، وأوّل من أراق دماً في سبيل الله، وأوّل من كان يقال له: فارس الإسلام، شهد المشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ.

ومن كراماته الظاهرة: أنه قطع بجيوشه البحر على ظهور الخيل، ولم يبلغ الماء منها إلى حزمها، والناس في غاية الطمأنينة، كأنهم سائرون في البرِّ.

ولّاه عمر ﷺ العراق، فكان الأمير في فتح مدائن كسرى.

ورمى يوم أُحُد ألف سهم، قال سعد: أجلسني رسول الله ﷺ أمامه، فجعلت أرمي ويناولني ويقول: «ارم فداك أبي وأمي»، حتى أنّه ليناولني السّهم ماله نصل فيقول: «ارمي به»، فجعلت أرمي به وأقول: اللهم سهمك، فارم به عدوّك، ورسول الله ﷺ يقول: «اللهم استجب لسعد، اللهم سدِّد رميه وأجب دعوته»، حتى إذا فرغت من كنانتي نثر رسول الله ﷺ ما في كنانته.

وقد جاء أنّ حِبّان بن العرقة رمى بسهم، فأصاب أمّ أيمن، وكانت تسقي الجرحى، فوقعت وتكشّفت، فأغرق عدوّ الله في الضّحك، فشقّ ذلك على رسول الله ﷺ، فدفع ﷺ سهماً إلى سعد ولا نصل له، وقال: «ارم به»، فأخذه فرمى به، فوقع

---

(١) أنكر بعضهم رميه ﷺ أصالة، وإلا لو رمى لأصاب، ولو أصاب لنقل. مؤلف.

(٢) السيّة: ما انعطف من طرفي القوس اللذين هما محل الوتر. مؤلف.

(٣) انظر سبل الهدى والرشاد: (١٩٧/٤).

السهم في نحر حبّان، فوقع مستلقياً حتى بدت عورته، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال ﷺ: «اللهم استجب لسعد إذا دعاك»، فلم تسقط له دعوة بعد ذلك.

ولما سعى أهل الكوفة بسعد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل عمر يتجسَّسهم عن حاله فأثنوا عليه خيراً إلا رجلاً منهم يقال له: أبو سعدة ذمَّه، وقال: لا يقسم بالسويّة ولا يعدل في القضيّة، فلما بلغ ذلك سعداً قال: اللهم إنْ كان كاذباً، فأطل عمره وأدم فقره، واعم بصره، وعرّضه للفتن. فعمي، وافتقر، وكبرت سنُّه، وصار يتعرض للإماء في سكك الكوفة، فإذا قيل له: كيف أنت يا أبا سعدة؟، يقول: شيخ كبير فقير مفتون، أصابتني دعوة سعد[1].

ولما كفَّ بصر سعد في آخر عمره قيل له: لو دعوت الله سبحانه وتعالى أنْ يردَّ بصرك فقال رضي الله عنه: قضاء الله تعالى أحبُّ إليَّ من بصري.

وممن ثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحُد، وكان مشهوراً بالرمي سهيل بن حنيف، بايع النبيّ ﷺ يومئذ على الموت، فثبت معه ﷺ حتى انكشف الناس عنه، وجعل ينضح بالنّبل عن رسول الله ﷺ، وقال ﷺ: «نبلوا سهيلاً» أي: أعطوه النَّبل.

وممن ثبت وقاتل دون النبيّ ﷺ يوم أُحُد أمّ عمارة رضي الله عنها، قال ﷺ: «ما التفتُّ يميناً ولا شمالاً إلا ورأيتها تقاتل دوني»، اسمها: سُمَيّة ـ بالتصغير ـ خرجت يوم أُحُد هي وزوجها زيد بن عاصم وابناها: حبيب وعبد الله، فقال رسول الله ﷺ: «رحمكم الله أهل البيت»، وفي رواية: «بارك الله فيكم أهل البيت».

قالت أمّ عمارة رضي الله عنها: ادع الله يا رسول الله، أن نرافقك في الجنة، فقال ﷺ: «اللهم اجعلهم رفقائي في الجنّة»، فقالت عند ذلك: ما أبالي ما أصابني من أمر الدنيا.

قالت رضي الله عنها: خرجت يوم أحد لأنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء أسقي به الجرحى، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه والربح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فقمت أباشر القتال، وأذبُّ عنه ﷺ بالسيف، وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراحة إليَّ، ورئي على عاتقها جرح أجوف له غَوْر، فقيل لها: من أصابك بهذا؟، فقالت: ابن قميئة، لما ولّى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دلُّوني على محمد فلا نجوت إنْ نجا، فاعترضت له أنا

---

(١) انظر البداية والنهاية: (٧٦/٨)، وتاريخ الطبري: (٥٢٢/٢).

ومصعب بن عمير، فضربني هذه الضربة وضربته ضربات، ولكنّ عدوّ الله كان عليه درعان. وقد جرحت رضي الله عنها اثنا عشر جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف.

وقاتل دونه ﷺ زياد بن عمارة ﷺ حتى أثبتته الجراحة ـ أي: أصابت مقتله ـ فقال ﷺ: «أدنوه منيّ» فوسّده رسول الله ﷺ قدمه الشريف، فمات ﷺ وخده على قدمه ﷺ.

وذُكِر أنّ أبا دجانة ﷺ تترّس دون رسول الله ﷺ فصار يقع النبل على ظهره، وهو منحن عليه حتى كثر فيه النبل.

وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله ﷺ حتى قتله ابن قميئة، وهو يظنُّه رسول الله ﷺ، فرجع إلى قريش فقال: قتلت محمداً، وقيل: القاتل لمصعب أبيُّ بن خلف، فإنه أقبل نحو النبيّ ﷺ وهو يقول: أين محمد لا نجوت إن نجا، فاستقبله مصعب بن عمير، فقتل مصعباً، فاعترض له رجال من المسلمين، فأمرهم رسول الله ﷺ أنْ يخلّوا طريقه فأقبل وهو يقول: يا كذّاب أين تَفِرّ، فتناول النبيّ ﷺ الحربة من ابن الصّمّة[1] أو الزبير بن العوام، ثمّ انتفض ﷺ انتفاض الطير من بلل الماء، ثمّ رماه بالحربة فخدشته في أسفل عنقه على حنجرته خدشاً غير كبير فاحتقن الدم ـ أي: لم يخرج ـ بسبب ذلك الخدش، فرجع وهو يقول: قتلني والله محمد، فقالوا له: ذهب عقلك إنك لتأخذ السهام من أضلاعك لترمي بها، فما هذا، والله ما بك من بأس، إنما هو خدش، ولو كان هذا الذي بك بعين أحد لما ضرَّه، فقال: واللات والعزّى لو كان الذي بي بأهل الأرض لماتوا أجمعين، كثيراً ما كان يقول لي: أنا أقتلك، فوالله لو أشار عليَّ بتبْنةٍ لقتلني. وفي رواية: فوالله لو بصق عليَّ لقتلني، ما قال قولاً إلا وقع كما قال.

وروي أنه كان يقول للنبيّ ﷺ بمكة: إنّ عندي العَوْد ـ يعني فرسه ـ أعلفها كل يوم فَرَقاً من ذرة أقتلك عليها، فقال له النبيّ ﷺ: «أنا أقتلك إن شاء الله تعالى»، فحقق الله قول نبيّه المصطفى ﷺ، فقد روي أنّ النبيّ ﷺ لما طعنه وقع مراراً من على فرسه، وجعل يخور كما يخور الثور إذا ذبح، فمات عدوّ الله وهم قافلون ـ أي:

---

(١) الحارث بن الصّمّة: بن عمرو بن عتيك الأنصاري الخزرجي، كان فيمن سار مع رسول الله ﷺ إلى بدر، فكُسر بالرّوحاء، فردّه، وضرب له بسهمه، وشهد معه أحداً فثبت معه يومئذ، واستشهد ﷺ في بئر معونة. انظر أسد الغابة: (١/٣٣٣).

راجعون به ـ إلى مكة بسَرِف[1]، وقيل: ببطن رابغ[2]، فهو يعذَّب إلى يوم القيامة[3].

فقد جاء في الحديث: «كلّ من قتله نبيّ أو قُتِل بأمر نبيّ يعذّب من حين قُتِل إلى نفخة الصّعْق»[4].

وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: إني لأسير ببطن رابغ بعد هويٍ من الليل إذا نار تأجج فهبتها، وإذا رجل يخرج منها في سلسلة يجتذب بها بصيح العطش، وناداني يا عبد الله، فلا أدري أَعَرف اسمي، أو كما يقول الرجل لمن يجهل اسمه: يا عبد الله فالتفتُّ إليه، فقال: اسقني، فأردت أنْ أفعل، فإذا رجل وهو الموكّل بتعذيبه يقول: لا تسقه هذا قتيل رسول الله ﷺ هذا أُبَيُّ بن خلف[5].

وجاء في رواية: «أشدّ النّاس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبياً أو قتله نبيّ.. » الحديث[6]، وجاء: «اشتد عذاب الله على من قتله نبيّ، واشتدّ غضب الله تعالى على من دمى وجه رسول الله ﷺ»[7] فخرج من قتله[8] خطأ أو حدًّا، إلا أبيّ بن خلف لعنه الله.

ووقع ﷺ في حفرة من الحفر التي حفرت للمسلمين التي حفرها أبو عامر الفاسق مات كافراً بأرض الروم لما فتحت مكة كما تقدم.

فلمّا وقع ﷺ في الحفرة أغمي عليه وجحشت ـ أي: خدشت ـ ركبتاه فأخذ علي رضي الله عنه بيده ورفعه أبو طلحة بن عبد الله حتى استوى ﷺ قائماً، وكان سبب وقوعه ﷺ أنّ ابن قميئة علاه ﷺ بالسّيف فلم يؤثر فيه السيف إلا أنّ ثقل السيف أثر في عاتقه الشريف، فشكا رسول الله ﷺ شهراً أو أكثر، وقذف النبيّ ﷺ بالحجارة حتى وقع لشقه، ورماه عتبة بن أبي وقاص ـ أخو سعد بن أبي وقاص ـ بحجر فكسر رباعيّته اليمنى، وشقّ شفته السّفلى، فقال ﷺ: «اللهم لا تحل عليه الحول حتى يموت

---

(١) هو واد متوسط الطول من أودية مكة، يأخذ مياه ما حول الجعرّانة ـ شمال شرقي مكة ـ ثم يتّجه غرباً، فيمرّ على اثني عشر كيلاً، شمال مكة. انظر المعالم الأثيرة: (١٣٩).

(٢) تقدم الكلام عنها.

(٣) انظر زاد المعاد: (٢/١٠٤)، والفصول في سيرة الرسول ﷺ: (١٤٩).

(٤) لم أجده بهذا اللفظ.

(٥) انظر البداية والنهاية: (٤/٣٢)، وتاريخ الإسلام: (٢/٢١٢).

(٦) رواه البزّار في مسنده برقم: (١٧٢٨).

(٧) رواه البخاري برقم: (١٤٩٦).

(٨) أي: قتله النبيّ ﷺ.

كافراً»، فقتله في ذلك اليوم حاطب بن أبي بلتعة ﷺ، فأتى برأسه إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «رضي الله عنك مرتين»، وكسرت البيضة ـ أي: الخوذة ـ على رأسه ﷺ، وشجَّ وجهه الشريف، شجَّه عبد الله بن شهاب ﷺ[1].

وروي أنّ عتبة بن أبي وقاص هو من كسر رباعية النبيّ ﷺ وجرح شفته السفلى، وأن عبد الله بن شهاب هو الذي شجَّه في جبهته الشريفة ﷺ[2]، وأنّ عبد الله بن قمئة جرحه في وجنته المشرقة الشريفة، ولما رماه عبد الله بن قمئة قال: خذها وأنا عبد الله بن قمئة، فقال رسول الله ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه: «مالَكَ أقمأك الله؟؟». أي: صغّرك وأذلَّك.

فسلَّط الله عليه لما رجع إلى مكة تيس غنم لما ذهب يعترضها فنطحه فسقط من أعلى الجبل إلى أسفله فلما سقط أسفل الجبل سلَّط الله عليه تيس الجبل فلم يزل ينطحه حتى قطَّعه قطعاً[3].

وكانت شجَّة النبيّ ﷺ بعد برئها زادت وجهه الشريف حسناً فكانت كالهلال في السماء وكالزهر إذا بدا من أكمامه لأنّ حسنه ﷺ الباطني أعظم من الظاهري، فلما انكشط بعض الجلد الشريف عن الوجه الشريف ظهر الحسن الباطني الذي كان مستوراً بالجلدة الظاهرية.

وجرحت وجنتاه ﷺ من ضربة ابن قمئة وصار الدم يسيل على وجهه الشريف ﷺ يمسحه وينشِّفه ويقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيّهم وهو يدعوهم إلى ربهم، اشتدَّ غضب الله على قوم أدمَوا وجه رسوله»، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[4][5].

وامتصَّ مالك بن سنان الخدري دم النبيّ ﷺ، ثمّ ازدرده ـ أي: بلعه ـ فقال رسول الله ﷺ: «من مس دمي دمه لم تصبه النار، من أراد أنْ ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا» وأشار ﷺ إليه، فاستشهد ﷺ في هذه الغزوة.

---

(١) فإنه أسلم بعد ذلك.

(٢) انظر فتح الباري: (١/٢٩٠).

(٣) رواه الطبراني في الكبير برقم: (٧٥٩٦).

(٤) آل عمران: ١٢٨.

(٥) رواه ابن ماجه في سننه برقم: (٤٠٢٧)، وأحمد في المسند برقم: (١٢٨٥٤)، والنسائي في السنن الكبرى برقم: (١١٠٧٧).

وممن ثبت مع النبيّ ﷺ طلحة، قال فيه رسول الله ﷺ: «شهيد يمشي على وجه الأرض»[1] أي: حكمه حكم من ذاق الموت في سبيل الله تعالى، لأنه جعل نفسه يوم أُحُد وقاية للنبيّ ﷺ من الكفّار وفداه بنفسه بعدما رأى الأمر عياناً.

وقال فيه النبيّ ﷺ: «طلحة ممن قضى نحبه[2]» أي: نذره فيما عاهد الله عليه من الصّدق في مواطن القتال، وقد يطلق النحب على الأجل كقولك: فلان قضى نحبه، أي: مات واستوفى أجله.

وُجِدَ بطلحة يوم أحد بضع وسبعون جراحة من طعنة وضربة ورمية، وقطعت أصابعه وشلَّت يده التي وقى بها النبيّ ﷺ من سهم، وقيل: من حربة، فنزف منها الدم حتى أغمي عليه، فصبّ أبو بكر على وجهه ماء، فلمّا أفاق قال: ما فعل رسول الله ﷺ؟، فقال أبو بكر ﷺ: أرسلني إليك، فقال ﷺ: الحمد لله، كلّ مصيبة بعده جلل ـ أي: هيّنة.

عقر في سائر جسده ﷺ حتى في ذَكَرِه يوم أُحُد، وعندما قطعت أصابعه نظر ﷺ إلى يده وقال: حَسِّ، فقال ﷺ لو قلت: «بسم الله لرفعتك الملائكة، والناس ينظرون إليك حتى تلج في جو السماء»[3]. وفي رواية: «ثمّ ردّ الله المشركين»[4].

ونزع أبو عبيدة عامر بن عبد الله الجرَّاح ﷺ إحدى الحلقتين من وجه رسول الله ﷺ، فسقطت ثنيّة أبي عبيدة ثمّ نزع الأخرى، فسقطت ثنيّته الأخرى فصار أهتم، لم ير أحسن منه ببركة رسول الله ﷺ.

وكان أوّل من عرف رسول الله بعد الهزيمة كعب بن مالك ﷺ قال: عرفت عينيه ﷺ تزهران ـ أي: تضيئان ـ وتتوقّدان من تحت المغفر ـ وهو ما يجعل على الرأس من الزرد ـ فحينئذ نادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أبشروا هذا رسول الله ﷺ، فأشار إليَّ رسول الله ﷺ: «أن أنصت» ففرح به ﷺ الصّحابة رضي الله عنهم فرحاً

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه برقم: (١٢٥)، واللفظ له، ورواه الترمذي في سننه برقم: (٣٧٣٩)، ورواه الحاكم في المستدرك برقم: (٥٦١٢). وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الصّلت بن دينار.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه برقم: (١٢٦)، والترمذي في سننه برقم: (٣٧٤٠). وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث إلاّ من هذا الوجه.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط برقم: (٨٧٠٤).

(٤) رواه النسائي في السنن برقم: (٣١٤٩)،.

شديداً بعدما كانوا تيقّنوا قتله بسبب كثرة الأصوات المخبرة بقتله ﷺ، فكأن الصّحابة رضي الله عنهم من الفرح برسول الله ﷺ لم يصبهم شيء، فأقبلوا نحوه ﷺ ونهضوا به، ونهض بهم نحو الشّعب، وفيهم أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير والحارث بن الصّمَّة رضي الله عنهم.

ومن أكاذيب الرافضة أنّ الناس انهزموا كلُّهم عن رسول الله ﷺ إلا عليّ بن أبي طالب، وتعجّبت الملائكة من شأن عليٍّ ومن قول جبريل عليه السلام وهو صاعد إلى السماء: «لا سيف إلا سيف ذي الفقار، ولا فتى إلا علي»، وكون الذي قتل من المشركين في ذلك اليوم إنما كان بقتل عليٍّ، وكون الفتح فيه كان على يد عليٍّ، وقوله: أصابني يوم أُحُد ست عشرة ضربة سقطتّ في أربع منهن، فجاءني رجل حسن الوجه، حسن الهيئة واللحية طيب الريح، وأخذ بضبعي، فأقامني ثمّ قال: أقبل عليهم فقاتل في طاعة الله وطاعة رسوله، فإنّهما عنك راضيان، وقوله: لما أخبرتُ النبيّ ﷺ قال: يا علي أقرّ الله عينيك، فإنه جبريل. لا أصل له، جميعُه من أكاذيب الرافضة.

وأقبل عثمان بن عبد الله بن المغيرة على فرس أبلق، وعليه لامة كاملة ـ أي: سلاح كامل ـ قاصداً رسول الله ﷺ، وهو متوجّه للشّعب، وهو يقول: لا نجوت إنْ نجوتَ يا محمد، فوقف رسول الله ﷺ فعثر بعثمان فرسُه في بعض تلك الحفر، ومشى إليه الحارث بن الصّمَّة فاصطدما ساعة بسيفيهما، ثمّ ضربه الحارث على رجله فبرك، وذفّف عليه، وأخذ درعه ومغفره، فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي أحانه» أي: أهلكه.

وأقبل عبيد الله بن جابر العامري يعدو فضرب الحارث على عاتقه فجرحه، فاحتمله أصحابه، ووثب أبو دجانة رضي الله عنه إلى عبد الله فذبحه بالسيف، ولحق برسول الله ﷺ.

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى آخر الشِّعب خرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى ملأ درقته ماءً وغسل به رسول الله ﷺ عن وجهه الشريف الدم، وهو يقول: «اشتدّ غضب الله على من أدمى وجه نبيّه»، ثمّ أراد رسول الله أنْ يعلو الصّخرة التي في الشّعب، فلمّا ذهب ﷺ لينهض لم يستطع لضعفه ﷺ من كثرة الجراحات التي أصابت رأسه ووجهه الشريفين وما فقده من الدماء الزكيّة وللدرعيين الثقيلين اللذين كان يلبسهما، فجلس تحته طلحة بن عبد الله فنهض به حتى استوى عليها، فقال رسول الله: ﷺ:

«أوجب طلحة»[1] أي: فعل شيئاً استوجب به الجنة.

وكان طلحة في مشيه اختلاف لعَرَج جزئي كان به، فلما حمل النبيّ ﷺ تكلّف استقامة المشي لئلا يشقَّ عليه ﷺ، فذهب عَرَجُه، ولم يعد إليه ببركة النبيّ ﷺ، وعطش رسول الله ﷺ عطشاً شديداً ولم يشرب من الماء الذي جاء به علي في درقته لأنه وجد فيه ريحاً، فأتى محمد بن مسلمة بماء عذب، فشرب ﷺ منه ثمّ دعا له بخير.

وخرجت نساء المدينة لما بلغهنّ الخبر وفيهنّ فاطمة رضي الله عنها، فلما شاهدته ﷺ اعتنقته، وجعلت تغسل جراحاته، وعليٌّ يسكب الماء فيزداد الدم، فأخذت رضي الله عنها قطعة من حصير البردي وأحرقته بالنار حتى صار رماداً، ثمّ كمَّدت بذلك الرّماد جراحاته ﷺ حتى وقف نزف الدم[2].

وبينما رسول الله ﷺ في الشّعب مع أولئك النفر من أصحابه إذ علت طائفة من قريش الجبل ومعهم خالد بن الوليد، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إنهم لا ينبغي لهم أنْ يعلونا، اللهم لا قوة لنا إلا بك»، فقاتلهم عمر بن الخطاب وجماعة من المهاجرين حتى أنزلوهم من فوق الجبل، ونزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾[3] أي: لا تضعفوا عن الحرب ولا تحزنوا على ما فاتكم من الظفر بالكفار.

وروي أنه ﷺ قال لسعد: «ردّهم»، فقال سعد: «كيف أردهم وحدي؟!»، فقال ﷺ: «ارددهم»، قال سعد: فأخذت سهماً من كنانتي فرميت به رجلاً منهم فقتلته فناولني رسول الله ﷺ سهماً آخر، فإذا هو عين سهمي الذي كنت رميت به، فرميت به رجلاً آخر فقتلته، وهكذا إلى ثمانية أو تسعة، وفي كلّ ذلك يردّ لي رسول الله ﷺ سهمي الأول حتى نزلوا عن الجبل، فقلت: هذا سهم مبارك، هذا سهم دم ـ أي: يصيب ـ فجعلته في كنانتي لا يفارقني[4].

وصلَّى رسول الله ﷺ ظُهْر ذلك اليوم وهو جالس من الجراح التي أصابته، وقال ﷺ: «لقد رأيتُني يوم أُحُد وما في الأرض قربي مخلوق غير جبريل عن يميني

---

(١) رواه الترمذي في سننه برقم: (١٦٩٢ ـ ٣٧٣٨)، وأحمد في المسند برقم: (١٤١٧)، وابن حبان في صحيحه برقم: (٦٩٧٩). وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٣٨٤٧)، ومسلم في صحيحه برقم: (١٧٩٠)، وأحمد في المسند برقم: (٢٢٨٨٠). ورواه غيرهم.

(٣) آل عمران: ١٣٩.

(٤) انظر زاد المعاد: (٣/ ١٨٥).

وطلحة عن يساري»[1] ـ أي: فهما اللذان كانا يحرساني من الكفار يومئذ.

وأصيب يوم أحد عبد الرحمن بن عوف ﷺ إصابة تركته أهتم ـ أي: أسقطت ضربة ثنيته ـ وجرح ﷺ أكثر من عشرين جراحة وجرح في رجله فكان يعرج منها[2].

وأصيب كعب بن مالك ﷺ عشرين جراحة، قال عاصم بن عمرو بن قتادة: كان عندنا رجل غريب لا ندري ممن هو، يُظْهر الإسلام يقال له: قزمان، وكان ذا بأس شديد، وكان رسول الله ﷺ يقول فيه: «إنه من أهل النار» فقاتل يوم أحد قتالاً شديداً، وكان يرمي النّبل كأنها الرماح، ثمّ فعل بالسيف الأفاعيل، فقتل ثمانية أو تسعة من المشركين، وكلما أُخْبر ﷺ عنه يقول: «إنه من أهل النار»، فأعظم الناس شأنه.

فلمّا أثبتته الجراحة احتُمِل إلى دار بني ظفر لأنه كان حليفاً لهم، فقال له المسلمون: أبشر يا قزمان، لقد أبليت في هذا اليوم، فقال: بماذا أُبْشر؟ فوالله ما قاتلت إلا على أحساب قومي ـ أي: على شرفهم ومفاخرهم ـ ولولا ذلك ما قاتلت.

فلمّا اشتدت عليه الجراحة أخذ سهماً من كنانته فقطع به عرقاً في باطن ذراعه يقال له: الزاهق، ثمّ جعل السيف في بطنه وتحامل عليه حتى قتل نفسه، فجاء رجل كان يرقبه إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله، فقال النبيّ ﷺ: «وما ذاك؟» فقال: الرجل الذي ذكرت آنفاً أنه من أهل النار فعل كذا وكذا، فقال ﷺ: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[3].

وقصة هذا الرجل والحديث نُقِلا في غزوة خيبر، فلعل الواقعة تعددت مع آخَر أو وقع وهْمٌ في الغزوة.

وقد وقع للأُصَيْرم في غزوة أُحُد عكس ما وقع لقزمان، فإنّه كان يأبى الإسلام، فلما كان يوم أُحُد جاء إلى النبيّ ﷺ وقت اشتباك الحرب فقال: يا رسول الله، أُسْلم أم أقاتل؟، فقال رسول الله ﷺ: «بل أَسْلم، ثمّ قاتِلْ»، فأسلم ثمّ قاتل حتى أثبتته الجراحة، فلم يلبث أنْ مات، فقال رسول الله ﷺ: «إنه لمن أهل الجنة عَمِل قليلاً فأُجِرَ كثيراً»[4] كما في بعض الروايات.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك برقم: (٥٦١٦).

(٢) انظر تاريخ الإسلام: (١/٤٣٣).

(٣) انظر البداية والنهاية: (٤/٣٦)، وتاريخ الطبري: (٢/٧٣).

(٤) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٢٦٥٣)، وأحمد في المسند برقم: (١٨٥٨٨)، وابن حبان في صحيحه برقم: (٤٦٠١).

فكان أبو هريرة ﷺ يقول: حدّثوني عن رجل دخل الجنة قطعاً، ولم يصلِّ أصلاً مع كونه بالغاً عاقلاً ـ يعني به الأصيرم من بني الأشهل ﷺ[1].

وقُتِل حنظلة ﷺ يوم أُحُد، وسبب قتله: أنّه ضرب فرس أبي سفيان فوقع أبو سفيان إلى الأرض، فصاح وعلاه حنظلة يريد ذبحه، فرآه شدّاد بن الأسود، فحمل عليه فقتله، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ صاحبكم ـ يعني: حنظلة ـ لتغسله الملائكة» ـ وفي رواية: «رأيت الملائكة تغسل حنظلة في صحاف من فضة»[2] ـ فسُئلت زوجته، فقالت: خرج جنباً، فقال رسول الله ﷺ لذلك: «غسّلته الملائكة»[3].

فإنّه دخل عليها عروساً ليلة غزوة أحد، فنادى منادي رسول الله ﷺ بالخروج، فعجِل عن الغسل إجابة للداعي، وقد جاء أنها أشهدت أربعة عليه بأنّه دخل بها تلك الليلة قبل خروجه من عندها، وقالت: فعلت ذلك لأنني رأيت السماء قد فرجت، فدخل فيها، ثمّ التأمت، فأوّلتها الشهادة[4].

وعلقت منه تلك الليلة بولده عبد الله بن حنظلة رضي الله عنهما، وزوجته المذكورة اسمها: جميلة بنت عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول المنافق، أما هي فقد حسن إسلامها كأخيها عبد الله رضي الله عنهما[5].

وعن أبي سعيد الساعدي ﷺ قال: ذهبنا إلى حنظلة فإذا رأسه يقطر ماء[6].

وقد مثَّلت قريش بقتلى المسلمين، ولم تمثّل بحنظلة ﷺ لكون والده معهم وهو أبو عامر الراهب.

وأقبل رجل من المشركين يوم أُحُد متقنعاً بالحديد، يقول: أنا ابن عويف، فتلقّاه رشيد الأنصاري الفارسي فضربه على عاتقه فقطع الدّرع، وقال: خذها وأنا الغلام الفارسي، ورسول الله ﷺ يرى ذلك ويسمعه، فقال رسول الله ﷺ: «هلَّا قلت: خذها وأنا الغلام الأنصاري»، فعرض لرشيد أخو ذلك المقتول يعدو كأنه كلب، وهو يقول: أنا ابن عويف، فضربه رشيد على رأسه وعليه المغفر ففلق رأسه، وقال: خذها

---

(١) انظر البداية والنهاية: (٣٧/٤)، وعيون الأثر: (١٨/٢)، وسيرة ابن هشام/ (٣/٤).

(٢) ذكره المتقي الهندي في الكنز برقم: (٣٣٢٥٧)، وانظر الروض الأنف: (٣٠٢/١)

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية: (٣٥٧/١).

(٤) انظر سبل الهدى والرشاد: (٢١٣/٤).

(٥) انظر الاستيعاب: (٥٨١)، والإصابة في تمييز الصحابة: (٥٥٦/٦).

(٦) انظر الشفا: (٢٤٩/١)، وسبل الهدى والرشاد: (٢١٣/٤).

وأنا الغلام الأنصاري، فتبسَّم رسول الله ﷺ وقال: «أحسنت يا أبا عبد الله» وكان يومئذ لا ولد له.

وقتل عمر بن الجموح ﷺ، وكان أعرج وله بنون أربعة مثل الأُسْد، يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد، فلمّا كان يوم أُحُد أرادوا حبسه عن القتال، وقالوا له: قد أعذرك الله، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إن بَنيَّ يريدون أن يحبسوني عن الخروج معك، فوالله إني أريد أن أطأ الجنة بعرجتي هذه، فقال له رسول الله ﷺ: «أمَّا أنت، فقد أعذرك الله، فلا جهاد عليك»، وقال لبنيه: «ما عليكم أنْ لا تمنعوه، لعلّ الله يرزقه الشهادة»، فأخذ سلاحه وخرج وتوجَّه إلى القبلة وقال: اللهم ارزقني الشهادة، ولا تردَّني خائباً إلى أهلي، فقتل ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن منكم من لو أقسم على الله لأبرَّه منهم عمرو بن الجموح، ولقد رأيته يطأ في الجنة بعرجته»[1].

وكان ﷺ قال للنبيّ ﷺ: أرأيت يا رسول الله، إن قاتلت في سبيل الله حتى قتلتُ، أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة»[2].

وكان عمرو بن الجموح المذكور في الجاهلية خادم الأصنام، وكان في الإسلام يولم عن النبيّ ﷺ إذا تزوَّج.

وقتل أيضاً أحد بني عمرو بن الجموح، وهو خلَّاد، وقتل أخو زوجته هند بنت حزام، وهو عبد الله، والد جابر، فحملتهم هند على بعير لها تريد أن تدفنهم في المدينة فلقيتها عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وعن أبويها مع نساء المدينة خرجن يستروحن الخبر، فقالت عائشة رضي الله عنها لها: ما خبر الجيش؟، فقالت هند: أما رسول الله ﷺ فصالح، وكل مصيبة بعده جلل ـ أي: واتخذ الله من المؤمنين شهداء ـ ثمّ قالت لها: من هؤلاء قالت: أخي عبد الله، وابني خلاد، وزوجي عمرو بن الجموح، فبرك بهم البعير، وصار كلّما يوجّه إلى المدينة يبرك وإنْ وجه إلى أرض أُحُد فزع ـ أي: أسرع ـ فرجعت هند إلى النبيّ ﷺ وأخبرته بذلك، فقال ﷺ: «إن الجمل مأمور، فقبرهم بأُحُد»، وقال ﷺ لهند: «ما زالت الملائكة مظلّة على أخيك

---

(١) انظر عيون الأثر: (١٨/٢)

(٢) رواه أحمد في المسند برقم: (٢٢٦٠٦). وانظر تاريخ الإسلام: (٢٠٩/١).

من لدن قتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن»[1].

قال جابر ﷺ: كان أبي أول قتيل في سبيل الله من المسلمين يوم أُحُد، قتله أبو الأعور السلمي، ثمّ إنّ هند زوج أبي سفيان رضي الله عنها ـ فإنها أسملت بعد ذلك ـ والنسوة اللاتي خرجن معها صرن يمثِّلن بقتلى المسلمين: يقطّعن آذانهم وأنوفهم ويتخذن من ذلك قلائد، وبقَرت ـ أي: شقّت ـ هند بطن سيدنا حمزة ﷺ، وأخرجت كبده فلاكتها ـ أي: مضغتها ـ فلم تستطع أن تبتلعها فألقتها من فيها، لأنها كانت نذرت إنْ قدرت على حمزة لتأكلنّ من كبده.

ولما بلغ رسول الله ﷺ أنها أخرجت كبد حمزة قال: هل أكلت منها شيئاً؟ قالوا: لا. قال ﷺ: «إن الله حرَّم على النار أن تذوق من لحم حمزة شيئاً أبداً ولو أكلت منه ـ أي: استقر في جوفها ـ لم تمسَّها النار» لأن حمزة ﷺ أكرم على الله من أن يدخل شيء من جسده النار.

ثمّ لما انقضت الحرب أقبل أبو سفيان على من بقي من المسلمين ونادى بأعلى صوته: أفي القوم محمّد؟ ثلاث مرات، فنهاهم النبيّ ﷺ أن يجيبوه، ثمّ قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرات، ثمّ قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات، ثمّ رجع إلى أصحابه فقال: أمّا هؤلاء فقد قتلوا فما ملك عمر ﷺ نفسه، فقال له: كذبت يا عدوّ الله، والله إنّ الذين عددت لأحياء كلّهم، وقد بقي لك ما يسوءك، فقال: يومٌ بيوم بدر، والحرب سجال، وإنّكم ستجدون في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني ـ أي: لم أكرهها وإن كان وقوعها بغير أمري ـ فرجع يرتجز وهو يقول: اُعْلُ هُبَل، اُعْلُ هُبَل.

فقال رسول الله ﷺ: قولوا له: «الله أعلى وأجلّ»، فقالوا له ذلك، فقال: نحن لنا العزى ولا عُزّى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تجيبوه»، فقالوا: يا رسول الله، ما نقول له؟، قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»، فقال أبو سفيان: إنّ موعدكم بدر العام القابل، فقال رسول الله ﷺ لرجل من الصّحابة: «قلْ: نعم بيننا وبينكم موعد»، ثمّ انصرفت قريش من أُحُد.

ثمّ بعث رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وقيل: سعد بن أبي وقاص فقال: «اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون، وماذا يريدون، فإن كان قد جنَّبوا الخيل وامتطوا الإبل ـ أي: ركبوها ـ فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل،

---

(١) انظر سبل الهدى والرشاد: (٤/٢١٤).

فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها، ثمّ لأناجزنّهم»، قال علي أو سعد: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنّبوا الخيل وامتطوا الإبل وتوجَّهوا إلى مكة بعدما تشاوروا في نهب المدينة، فأشار عليهم صفوان ابن أمية أنْ لا يفعلوا، وقال لهم: فإنّكم لا تدرون ما يغشاكم.

وحينئذ فزع الناس لقتلاهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل من رجل ينظر ما فعل سعد بن الربيع، في الأحياء أم في الأموات؟، فإني رأيت الأسنة قد أسرعت إليه»، فقال رجل من الأنصار ـ وهو أُبَيُّ بن كعب وقيل: محمد بن مسلمة: أنا أنظره لك يا رسول الله، فقال ﷺ: «إن رأيت سعد بن الربيع، فأقرئه منّي السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟»، فنظر فوجده طريحاً وبه رمق ـ أي: بقية روح ـ فقال له: إنّ رسول الله ﷺ يقرئك السلام ويقول لك: «كيف تجدك؟»، وقد أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات، فقال ﷺ: أنا في الأموات، فأبلغ عنّي رسول الله ﷺ، وقل له: إنّ سعد بن الربيع يقول: جزاك الله عنَّا خيراً ما جزى نبيًّا عن أمَّته، وأبلغ قومك عنّي السلام، وقل لهم: إنّ سعد بن الربيع، يقول لكم: لا عذر لكم عند الله أنْ يَخلص إلى نبيّكم عدو[1]، وفيكم عين تطرف، ثمّ قال: لم أبرح حتى مات[2].

وخرج رسول الله ﷺ يلتمس عمَّه حمزة بن عبد المطلب ﷺ، فقال له رجل: رأيته بتلك الصّخرات وهو يقول: «أنا أسد الله وأسد رسوله ﷺ، اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء النفر أبو سفيان وأصحابه، وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء بانهزامهم»[3].

وهذا الدعاء نقل عن أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك ﷺ خادم رسول الله ﷺ، فإنه غاب عن بدر فشقّ عليه ذلك فلما كان يوم أحد ـ أي: وانهزم المسلمون ـ وكان قال للنبيّ ﷺ: يا رسول الله، إني غبت عن أول قتال وقع، قاتلتَ فيه المشركين، والله لئن شهد نبي الله قتال المشركين ليرينَّ الله ما أصنع، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني أصحابه ـ وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء ـ يعني: المشركين.

---

(١) أي: أو يناله شيء من الأذى.

(٢) انظر البداية والنهاية: (٣٩/٤)، وتاريخ الطبري: (٧٢/٢).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك برقم: (٢٥٥٧)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي في التلخيص بأنّ أبي حماد ـ أحد رجال السند في هذا الحديث ـ وهو المفضل بن صدقة، قال فيه النسائي: متروك.

ولما سمع بقتل رسول الله ﷺ قال: ما تصنعون بالحياة بعده، موتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثمّ استقبل القوم، وقال لسعد بن معاذ ﷺ: هذه الجنة وربّ أنس أجد ريحها دون أُحُد، وقاتل حتى قتل ﷺ، ووجِد به بضع وثمانون جراحة ما بين ضربة سيف وطعنة برمح أو رمية بسهم.

ولما قتل مثَّل به المشركون فما عرفته أخته الرُّبيِّع إلا بثيابه، ونزل فيه وفي أشباهه قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ...﴾ (1) الآية.

وتقدم رسول الله ﷺ نحو عمّه حمزة فوجده ببطن الوادي، قد بقر ـ أي: شق بطنه ـ ومثّل به فجدع أنفه وأذناه وقطعت مذاكيره، فنظر ﷺ إلى شيء لم ينظر إلى شيء قطّ كان أوجع لقلبه منه(2)، فقال ﷺ: «لن أصاب بمثلك، ما وقفت موقفاً أغيظ لي من هذا»، وقال: «رحمة الله عليك، فإنك كنت كما علمتك فَعُولاً للخيرات وصولاً للرحم، أما والله لأمثلنَّ بسبعين رجلاً منهم مكانك».

فحينئذ قالت المسلمون: لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدّهر لنمثّلن بهم مثلة لم يمثّلها أحد من العرب، فلما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾(3) الآيتين.

فعند ذلك عفا رسول الله ﷺ ونهى عن المُثْلة، وكفَّر ﷺ عن يمينه، وبكى رسول الله ﷺ على حمزة أشدّ البكاء، وأمر الزبير أنْ يُرْجع أمه صفية أخت حمزة عن رؤيته، فقال لها: يا أمَّاه، إنّ رسول الله ﷺ يأمرك أنْ ترجعي فدفعت في صدره وقالت: لِمَ، وقد بلغني أنه مثّل بأخي، وذلك في الله، فما أرضاني بما كان في الله من ذلك، لأحتسبنّ ولأصبرنَّ إن شاء الله تعالى، فجاء الزبير ﷺ فأخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال ﷺ: «خلِّ سبيلها»، فلمّا رأته استرجعت واستغفرت له.

وكان دعا لها رسول الله ﷺ ووضع يده الشريفة على صدرها مخافة على عقلها إن رأته ممثّلاً به فكفّنوا حمزة رضي الله عنه ببردة كانت عليه فكانوا إذا مدّوها على رأسه انكشفت رجلاه، وإنْ مدوها على رجليه انكشف رأسه، فمدّوها على رأسه،

---

(1) الأحزاب: ٢٣.

(2) وروى البزار في مسنده بسند لا بأس به من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنّه قال: إنّ رسول الله ﷺ لما بلغه قتل حمزة ﷺ بكى، فلمّا نظر إليه شهق. انظر سبل الهدى والرشاد: (٤/٢٢٢).

(3) النحل: ١٢٦ ـ ١٢٧.

وجعلوا على رجليه الإِذْخر، وفي لفظ: الحرمل. وهكذا فُعِل بمصعب بن عمير ﷺ.

وعن أنس ﷺ قال: قلَّت الثياب يوم أُحُد، وكثرت القتلى، فكان الرجل والرجلان والثلاثة يدفنون في قبر واحد وفي ثوب واحد، فدُفِنوا بثيابهم ودمائهم، وكانوا اثنين وسبعين قتيلاً يومئذ شهداء، ولم يصلِّ عليهم رسول الله ﷺ صلاة الجنازة، ولم يغسّلوا كبقية الشهداء[1].

والحنفية قالوا: يُصلَّى على الشهداء بلا غسل عملاً بالرواية الأخرى: أن رسول الله ﷺ صلَّى على قتلى أحد صلاة الجنازة، وأجاب عنها الشافعي ﷺ بأنّ رواية عدم الصّلاة أصحّ، مع إمكان الجمع بأنّه ﷺ دعا لهم كدعائه في صلاة الجنازة عملاً بالروايتين[2].

وممن مثِّل به يوم أحد عبد الله بن جحش ﷺ، قال ﷺ قبل أحد بيوم: اللهم ارزقني غداً رجلاً شديداً بأسه فيقتلني، ثمّ يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك قلتَ: يا عبد الله، فيمَ جدع أنفك وأذنيك؟، فأقول: فيك وفي رسولك، فيقول عزَّ وجلَّ: صدقت[3].

(وهذا من تمنِّي الشهادة الممدوح لا من تمنِّي الموت المذموم).

فلما كانت وقعة أُحُد انقطع سيفه، فأعطاه رسول الله ﷺ عرجون نخلة فصار في يده سيفاً، فقاتل به حتى قُتِل، ومثِّل به ودفن مع خاله حمزة بن عبد المطلب عمّ النبيّ ﷺ.

وكان القاتل له أبو الحكم الأخنس، فقُتِل قاتله المذكور بعد قتله له في يومه ذاك كافراً.

ولما قتل عبد الله بن عمرو والد جابر دفن مع عمرو بن الجموح زوج عمّة جابر في قبر واحد لما بينهما من الصّفاء، وأصاب والد جابر المذكور جراحة في وجهه، فوضع يده عليها حتى مات ودفن هكذا، لأنه عندما أزيلت يده عن وجهه خرج الدم فردّت، فسكن الدم[4].

---

(١) انظر ما رواه البخاري من حديث جابر ﷺ برقم: (١٢٥٧ـ ١٢٦١).

(٢) انظر المبسوط: (٢/٤٩ ـ ٥٠)، والحجة: (١/٣٥٩) من كتب الحنفية، وانظر من كتب الشافعية المجموع: (٥/٢١٥ ـ ٢١٦)، وروضة الطالبين: (٢/١١٩ ـ ١٢٠).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك برقم: (٢٤٠٩)، والبيهقي في السنن الكبرى برقم: (١٢٥٤٩)، وأبو نعيم في الحلية: (١/١٠٩). وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٤) انظر البداية والنهاية: (٤/٤٣).

وبعد الوقعة بست وأربعين سنة حفر السيل قبرهما فوجدا بلا تغيُّر كأنهما ماتا بالأمس، وأزيلت يد والد جابر عن جرحه، فرجعت كما كانت.

ولما بنى معاوية العين وأجراها في مقبرة أُحُد قال جابر: استَصْرَخَنا إلى قتلانا بأُحُد، فأتيناهم فأخرجناهم رطابا تنثني أطرافهم، وذلك بعد ست وأربعين سنة. وفي رواية: خمسين سنة مع الأرض السبخة التي يتغيّر الميت المدفون فيها من ليلته.

وأصابت المسحاة قدم حمزة فانبعثت دماً وفاح من قبورهم المسك[1].

ولما أشرف رسول الله ﷺ على قتلى أُحُد قال: «أشهد على هؤلاء، ما من مجروح جُرِح في الله عزّ وجلّ إلا بعثه الله تعالى يوم القيامة يدمى، اللون لون الدم والريح ريح المسك»[2].

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأُحُد جعل سبحانه وتعالى أرواحهم في أجواف طير خضر تَرِد أنهار الجنّة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلّقة في ظلّ العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن منقلبهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا يتّكلوا» أي: يمتنعوا عن الحرب، فقال عزَّ وجلَّ: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[3] إلى آخر الآيات[4].

وروي أن امرأة من بني دينار مرَّت يوم أُحُد بأخيها وابنها وزوجها وأبيها قتلى، فلم تكترث، وإنما كانت تقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟. أي: ما فُعِل به ؟.

فيقولون لها: أمامك حتى جاءته، فأخذت بناحية ثوبه، ثمّ جعلت تقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا أبالي إذا سلمت من الخطب[5].

---

(١) انظر المرجع السابق، وانظر: أسد الغابة: (١/٢٨٤)، والإصابة: (٢/١٢٢)،

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٢٦٤٩)، والترمذي في سننه برقم: (١٦٥٦)، وأحمد في مسنده برقم: (٢٣٧٠٧) واللفظ له من حديث عبد الله بن ثعلبة بن صغير، ورواه الدارمي في سننه برقم: (٢٤٠٦). ورواه غيرهم.

(٣) آل عمران: ١٦٩.

(٤) رواه أبو داود في سننه برقم: (٢٥٢٠)، وأحمد في المسند: (٢٣٨٨)، والحاكم في المستدرك برقم: (٢٤٤٤ـ ٣١٦٥)، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٥) انظر البداية والنهاية: (٤/٤٧)، وتاريخ الطبري: (٢/٧٤)، وعيون الأثر: (٢/٣٢).

وأصيبت يوم أحد عينا قتادة قال ﷺ: كنت يوم أُحد أتقي بوجهي السّهام عن وجه رسول الله ﷺ، فكان آخرها سهماً بدرت منه حدقتي، فرفعتها بيدي، وجئت بها إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت رددتها ودعوت الله لك» فقلت: يا رسول الله، إنّ الجنّة لجزاء جزيل وعطاء جليل، وإني مغرم بحبِّ النساء، وأخاف أنْ يقلن: أعور، فلا يردنني ولكنْ تردُّها لي وتسأل الله سبحانه وتعالى لي الجنّة، فردَّها رسول الله ﷺ، ودعا لي بالجنة.

قال قتادة ﷺ: لما رآها رسول الله ﷺ في كفِّي دمعت عيناه ﷺ، ولما ردَّها قال: «اللهم قِ قتادة كما وقى وجه نبيّك بوجهه، فاجعلها أحسن عينيه وأحدهما نظراً» فكانت كذلك، ولم ترمد قطّ بعد ذلك، فكان يحلُّ الرمد بأختها دونها[1].

ورمي أيضاً كلثوم بن الحصين ﷺ بسهم في نحره، فجاء إلى رسول الله ﷺ فبصق عليه أي: على المكان الذي أصابه السهم ـ فبرئ[2].

وحضرت الملائكة يوم أُحُد غير أنها لم تقاتل إلا ما كان من جبريل وميكائيل فإنهما قاتلا عن النبيّ ﷺ لا عن غيره.

فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أُحُد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشدَّ القتال، وما رأيناهما قبل ولا بعد. أي: وهما جبريل وميكائيل كما ورد[3].

ولمَّا أراد رسول الله ﷺ أن يتوجَّه إلى المدينة ركب فرسه وخرج المسلمون حوله، عامّتهم جرحى، ومعهم أربع عشرة امرأة، فلما كانوا بأصل أُحُد قال رسول الله ﷺ: «اصطفوا حتى أثني على الله ربي عزَّ وجلَّ» فاصطف الرجال صفوفاً وخلفهم النساء وقال ﷺ: «اللهم لك الحمد كلّه، اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لما هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرِّب لما أبعدت، ولا مبعد لما قرّبت» ثمّ توجه ﷺ فلقيته

---

(١) جمع المؤلف ما بين عدّة روايات وصاغ البعض بالمعنى، فالبعض رواه الطبراني في المعجم الكبير وأبو نعيم في الحلية، والبعض رواه البيهقي في الدلائل وابن شاهين، والبعض أخرجه ابن عبد البر، والبعض ذكره شارح المواهب اللدنية.

(٢) انظر عيون الأثر: (١٨/٢)، والشفا: (١/ ٢٤٠).

(٣) رواه مسلم في صحيحه برقم: (٢٣٠٦)، وأحمد في المسند برقم: (١٤٦٨ـ ١٤٧١ـ ١٥٣٠)، ورواه ابن حبان في صحيحه برقم: (٦٩٨٧). ورواه غيرهم.

حمنة بنت جحش بنت عمّته ﷺ أخت زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنهما فقال لها رسول الله ﷺ: «احتسبي»، قالت: مَنْ يا رسول الله؟ قال: «خالك حمزة»، قالت: إنَّا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئاً له الشهادة، ثمّ قال لها: «احتسبي»، قالت: من يا رسول الله؟، قال: «أخاك عبد الله بن جحش»، قالت: إنَّا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئاً له الشهادة، ثمّ قال لها: «احتسبي»، قالت: من يا رسول الله؟ قال: «زوجك مصعب بن عمير»، فقالت: وا حزناه، وصاحت، وولّت، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ زوج المرأة منها لبمكان»، لِمَا رأى من تثبُّتها على أخيها وخالها وصياحها على زوجها، ثمّ قال لها: «لِمَ قلتِ ذلك؟»، فقالت: يا رسول الله، ذكرت يتم بنيه فراعني، فدعا لها رسول الله ﷺ ولولدها أنْ يُحسن الله تعالى عليهم من الخلف[1]، فتزوجها طلحة بن عبد الله، فكان أوصل النّاس لولدها، وولدت له محمد بن طلحة.

قال: وجاءت أم سعد بن معاذ رضي الله عنه تعدو نحو رسول الله ﷺ، وهو على فرسه وولدها سعد بن معاذ آخذ بلجامها، فقال له سعد: يا رسول الله، أمي، فقال ﷺ: «مرحباً بها»، فوقف لها، فدنت حتى تأمّلت رسول الله ﷺ، فعزّاها رسول الله ﷺ بابنها عمرو بن معاذ، فقالت: أما رأيتك سالماً، فقد أثويت المصيبة. أي: دفنتها.

ودعا رسول الله ﷺ لأهل من قتل بأُحُد بعد أنْ قال ﷺ لأم سعد: «يا أم سعد، أبشري وبشّري أهلهم: أنّ قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعاً، وقد شفعوا في أهلهم»، قالت: رضينا يا رسول الله، ادع لمن خلّفوا، فقال ﷺ: «اللهم أذهب حزن قلوبهم، واجبر مصيبتهم، وأحسن الخلف على من بعدهم».

وسمع ﷺ نساء الأنصار يبكين على أزواجهن وعلى أبنائهن وإخوانهن فقال ﷺ: «حمزة لا بواكي له»، وبكى ﷺ لأنه لم يكن له بالمدينة أهل، فأمر سعد بن معاذ رضي الله عنه نساءه ونساء قومه أن يذهبن إلى بيت رسول الله ﷺ يبكين على حمزة رضي الله عنه بين المغرب والعشاء، وكذلك أسيد بن حضير أمر نساءه ونساء قومه أنْ يذهبن إلى بيت رسول الله ﷺ يبكين على حمزة.

ولما جاء ﷺ بيته حمله السّعدان: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة وأنزلاه عن فرسه، ثمّ اتكأ ﷺ عليهما حتى دخل بيته، ثمّ أذّن بلال لصلاة المغرب، فخرج رسول الله ﷺ على مثل تلك الحال يتوكأ على السّعدين، فصلّى ﷺ صلاة المغرب، فلمّا

(١) انظر سبل الهدى الرشاد: (٤/٢٢٨).

رجع من المسجد من صلاة المغرب سمع البكاء فقال: «ما هذا؟»، فقيل نساء الأنصار يبكين على حمزة ﷺ، فقال ﷺ: «رضي الله عنكنّ وعن أولادكنّ»، وأمر ﷺ أن تردّ النساء إلى منازلهنّ وباتت وجوه الأوس والخزوج تلك الليلة على بابه ﷺ بالمسجد يحرسونه خوفاً من قريش أن تعود إلى المدينة.

ولما وصل رسول الله ﷺ المدينة أظهر المنافقون واليهود الشماتة والسرور، وصاروا يظهرون أقبح القول ومنه: ما محمد إلا طالب ملك، ما أصيب بمثل هذا نبيّ، أصيب في بدنه، وأصيب في أصحابه، ويقولون: لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل.

واستأذن عمر بن الخطاب ﷺ النبيّ ﷺ في قتل هؤلاء المنافقين، فقال رسول الله ﷺ: «أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟»، فقال عمر: بلى، لكن تعوُّذاً من السّيف، فقد بان أمرهم وأبدى الله أضغانهم، فقال ﷺ: «نهيت عن قتل من أظهر ذلك».

وكان من عادة ابن أبيٍّ ابن سلول أنّه جلس ﷺ يوم الجمعة على المنبر قام فقال: أيها الناس، هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم أكرمكم الله به، وأعزّكم به فانصروه، وعزِّروه واستمعوا له وأطيعوا، ثمّ يجلس. فبعد وقعة أحد أراد أن يفعل كذلك، فلمّا قام أخذ المسلمون بثوبه من نواحيه، وقالوا له: اجلس يا عدوّ الله، لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت، فخرج يتخطّى رقاب الناس وهو يقول: كأنّي إنّما قلتُ هُجْراً[1]، فقال له بعض الأنصار: ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ، فقال: والله لا أبغي أن يستغفر لي[2].

ولما مات جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أسألك أن تقوم على قبره، ولا تشمت به الأعداء، فقام ليصلي عليه رسول الله ﷺ، فقال عمر ﷺ: يا رسول الله أتصلي عليه، وقد نهاك الله عن الاستغفار للمنافقين بقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[3]؟، فقال ﷺ: «إنما خيِّرت، وسأزيد على السبعين، فصلّى عليه رسول الله فنزل: ﴿ وَلَا

---

(١) الهُجْر: الفحش في القول. انظره في المصباح المنير، مادة: هجر.

(٢) انظر البداية والنهاية: (٤/ ٥١).

(٣) التوبة: ٨٠.

تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾[1] [2].

ونزل في ابتداء قصة أحد قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ من حجرة عائشة رضي الله عنها وعن أبويها ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تنزلهم أو تسوي وتهيئ لهم ﴿مَقَـٰعِدَ﴾ مواقف ﴿لِلْقِتَالِ﴾ مع أهل مكة عند أحد ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾[3] بأحوالكم[4].

روي أن المشركين نزلوا بأُحُد يوم الأربعاء ثاني عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة، وخرج ﷺ بعد صلاة الجمعة، وأصبح بشعب أُحُد يوم السبت فنزل في عَدْوة الوادي، وجعل ظهره وعسكره إلى أُحُد، وسوَّى صفوفهم، وأمَّر عبد الله بن جبير على الرّماة، كما تقدم وأشار إلى وقعة أحد المصنف بقوله:

ومن أُحُد فليتعجب الناس إنه ... تثبت لما قيل يا أحد اثْبُت

وفيت أبياً عند ذاك وعيده ... فأثخنته قتلاً بألطف خدشة

وقلت لشخص يدعي الدين إنه ... بنار فألقى نفسه للمنيَّة

وسالت على خديّ قتادة عينه ... ففادتها بالمسح أحسن مقلة

وأعطيت عرجوناً له فمشى به ... يضيء له في ليلة مدلهمَّة

وناولت فيها لابن جحش عسيبة ... فأصبح سيفاً ذا مِضاءٍ وشدة

حاصله: فليتعجب المؤمنون من معجزتك يا رسول الله لما صعدت جبل أُحُد أنت وأبو بكر وعمر وعثمان فرجف وتزلزل، وأنتم عليه، فقلت للجبل بعد ما ضربته برجلك: «اثبت أحد فإنما عليك نبيٌّ وصديقٌ وشهيدان»[5] فثبت فور كلامك، سامعاً مجيباً بالفعل لما طلبته منه، وهو سكونه.

---

(١) التوبة: ٨٤.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٤٣٩٥)، ومسلم في صحيحه برقم: (٣٤٠٠ــ ٢٧٧٤)، والطبراني في الكبير برقم: (١٢٢٤٤)، وفي الأوسط برقم: (٥٦٦٢). ورواه غيرهم

(٣) آل عمران: ١٢١.

(٤) انظر تفسير القرطبي: (٤/ ١٨٠).

(٥) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٣٤٧٢ـ ٣٤٨٣)، وأبو داود في سننه برقم: (٤٦٥١)، والترمذي في سننه برقم: (٣٦٩٧). ورواه غيرهم.

وليتعجب الناس من معجزة ثانية ظهرت لك يا رسول الله يوم وقعة أُحُد عند انقضائها لمَّا أقبل أبيٌّ بن خلف عليك وعلى أصحابك يا رسول الله وقال: قتلني الله إن لم أقتل محمداً فضربته على بُعْد بحربة أصابته في أصل حلقه، فخدشته خدشاً جزئيًّا، فرجع وهو يقول: قتلني محمد، فقال له المشركون: إنما هو خدش، فقال لهم: لو كان ما بي بأهل الأرض لقتلهم، إنه قال لي بمكة ـ لما قلت له: أعلف فرسي هذه كلّ يوم فَرَق ذُرَة لأقتلك عليها يا محمد، فقال رسول الله ﷺ: «إني أنا أقتلك إن شاء الله»: فوالله لو بصق عليَّ لقتلني، ما عهدنا عليه خلفاً فحقن الدم في حنجرته فمات في رجوعه بطريق مكة.

فإثخانك وإسراعك لأبيٍّ من جهة قتلك له بتلك الضربة وفاء بالوعيد الذي أوعدته إيّاه.

وليتعجب الناس من معجزة ثالثة وقعت يوم أُحُد كما قيل، والبخاري ذكرها يوم خيبر: وهي أنّ رجلاً يقال له: قزمان أظهر الإسلام، وكان كلّما ذُكِر للنبيّ ﷺ بجودة القتال وحسن الاقتحام ونصرة الإسلام يقول النبيّ ﷺ: «إنه من أهل النار» فلازمه رجل من المسلمين ليرى عاقبة أمره، وصار يرقبه حتى أصيب وآلمته الجراحة فتعجّل موت نفسه، فوضع ذباب سيفه في بطنه وتحامل عليه حتى قتل نفسه، وظهر نفاقه في إظهار إسلامه، كما أخبرتَ وقلتَ فيه ما قلتَ يا رسول الله.

وليتعجب الناس من معجزة رابعة، وقعت يوم أُحُد: وهي أنّ قتادة رضي الله عنه ضُرِب بسهم يوم أُحُد، فأصاب عينَه، فسقطت من محجرها على خدِّه، فأخذتها يا رسول الله من يده ـ لما سألك ردَّها، وتعلل بأنّ له زوجة يحبُّها، ويخاف إنْ هي رأته أعور أنْ تنفر منه ـ فرددتَها، وتفلت عليها، وسألت الله تعالى بُرْأَها، فعادت في الحال أحسن من أختها.

ونظير هذه المعجزة معجزة أخرى معه وقعت له رضي الله عنه أيضاً وقد ذكرها للنّاس، ألا وهي ما روي عن قتادة رضي الله عنه أنّه قال: صليت مع النبيّ ﷺ العشاء في ليلة مطيرة، فأضاء البرق في شدّة الظلمة، فلمّا أردت الانصراف لبيتي ناداني رسول الله ﷺ فقال: «أقتادة»، فقلت: لبيك يا رسول الله، فأعطاني عرجوناً كان بيده، وقال لي: «انطلق به، فإنه سيضيء لك بين يديك عشراً ومن خلفك عشراً، فإذا دخلت بيتك، فإنّك سترى سواداً فاضربه به حتى يخرج، فإنه الشيطان»، فانطلقت، فأضاء لي، ثمّ دخلتُ بيتي

فوجدت السواد، فضربته به حتى خرج كما أخبر ﷺ[1]، فهذه معجزة خامسة، وإنْ لم تقع في أُحُد.

وليتعجب الناس من معجزة سادسة، وقعت بأُحُد لعبد الله بن جحش ﷺ شقيق زينب أم المؤمنين بنت عمته ﷺ، ألا وهي أنّك يا رسول الله أعطيته عسيب نخل ـ أي: عوداً من أعواد عناقيده ـ فقاتل به بعدما انقلب في يده سيفاً ذا مِضاء وقطعٍ وحِدَّة، وفي نسخة: وشدَّة[2]، ثمّ قُتِل في نفس تلك الوقعة.

فكان ما وقع له نظير ما وقع لعكاشة ﷺ في غزوة بدر حيث أعطاه رسول الله ﷺ عود حطب فصار سيفاً وابن جحش أعطاه قطعة من جريد النخل فانقلبت في يده سيفاً.

وغورث لما استل سيفك أرعدت فرائصه فانكف عنك بضربة

حاصله: أن نظير ما وقع لدعثور سابقاً في غزوة ذي أمرَّ وقع لواحد آخر اسمه: غورث في غزوة أخرى ستأتي بعد غزوة بني النّضير، وهي غزوة ذات الرقاع، كان فيها النبيّ ﷺ منفرداً عن أصحابه، معلِّقاً سيفه بشجرة، فما استيقظ ﷺ حتى استلّ غورث سيفه ﷺ الصّارم، المدعو بالصّمصام، وقال: يا محمد من يمنعك منّي؟، فقال له النبيّ ﷺ: «الله»، فأُرعد وسُلِب القوة التي كان يقتدر بها على إظهار سرّ السيف، فصار ما في يده من شديد الحديد كضعيف الجريد، فلم يستطع إعماله، بل لم يستطع تحريك تلك الآلة، فسقط السيف من يده، وضرب برأسه الشجرة، ووقع على الأرض، فتناول النبيّ ﷺ السيف وقال له: «من يمنعك مني؟»، فقال: يا محمد، كن خير آخذ، فعفا ﷺ عنه ورجع إلى قومه وقال: جئتكم من عند خير الناس، وأخبرهم بما وقع له.

وبان بها كف ابن عفراء فاشتكى إليك فعادت بعد أحسن عودة

يعني: أنه في وقعة أُحُد قطع عكرمة بن أبي جهل يد معوِّذ بن عفراء، فجاء معوِّذ يحمل يده إلى النبيّ ﷺ فبصق عليها النبيّ ﷺ وألصقها فعادت أحسن ما كانت وأشد[3]. وتقدَّم نظير هذه المعجزة في غزوة بدر.

---

(١) انظر الشفا: (١/٢٤٥).

(٢) انظر المرجع السابق.

(٣) انظر المرجع السابق: (١/١١٦ ـ ١١٧).

غزوة حمراء الأسد

لما كان صبيحة قدومه ﷺ من أُحُد أذَّن مؤذِّنه ﷺ أنْ يخرجوا خلف قريش، وأنْ لا يخرج إلا من حضر أُحُداً، وذلك إرهاباً للعدوّ ليبلغهم أنه ﷺ خرج في طلبهم ليظنُّوا أنه ﷺ به قوّة، وأنّ الذي أصابهم في أُحُد لم يوهنهم ـ أي: لم يضعفهم ـ عن عدوِّهم مع ما بلغه ﷺ من أنّ قريشاً يتشاورون في الرّجوع إلى المدينة، ويقولون: ما صنعنا شيئاً، قد بقي رؤوسهم يجمّعون لكم، فارجعوا نستأصل من بقي منهم، وصفوان بن أمية يأبى ذلك عليهم ويقول: يا قوم لا تفعلوا، فإني أخاف أنْ يجمع عليكم من تخلَّف عن الخروج، فارجعوا، والدولة لكم، فإني لا آمن إنْ رجعتم أنْ تكون الدولة عليكم، فقال ﷺ: «أرشدُهم صفوان، وما كان برشيد».

وكان المخبر للنبيّ ﷺ عبد الله بن عوف، فأخبر ﷺ أبا بكر وعمر فأشارا بالخروج وقالا: يا رسول الله، اطلب العدوَّ لا يقتحمون على الذريَّة.

فلمّا انصرف رسول الله ﷺ من صلاة الصّبح ندب الناس، وأمر بلالاً ينادي: أنّ رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوّكم، ولا يخرج إلا من شهد القتال بالأمس، فطلبت جماعة ممن تخلّف أو رجع كابن سلول وغيره من مؤمنين ومنافقين الخروج معه ﷺ، فلم يأذن إلا لجابر بن عبد الله كان تخلَّف عن وقعة أُحُد بأمر أبيه له بالتخلّف مع عدم رضاه هو بالتخلُّف، فقبل عذره النبيّ ﷺ وأذن له دون غيره بالخروج معه ﷺ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم.

وركب ﷺ فرسه المسمى بالسّكب، ولم يكن مع أصحابه فرس سواه، وعليه الدرع والمغفر، وما يرى إلا عيناه، وخرج الناس معه الذين كانوا بأُحُدٍ، وهم سبعمئة إلا السبعين الذين قتلوا فخرجوا بجراحاتهم، لا يأبهون لها، ولا يلتفتون إليها، فأسيد بن حضير كان به تسع جراحات، وخراش بن الصّمة كان به عشر جراحات، وطلحة بن عبد الله كان به بضع وسبعون جراحة، وعبد الرحمن بن عوف كان به عشرون جراحة وهكذا كانوا متفاوتين في الجراحات.

وخرج من بني سلمة أربعون جريحاً، فلمّا رآهم ﷺ قال: «اللهم ارحم بني سلمة»، وجراحاته ﷺ أكثر من سبعين.

وتلقّاه ﷺ طلحة، فقال ﷺ: «يا طلحة، أين سلاحك»، فقال: قريب، فذهب وأتى به، قال طلحة: وأنا أهَمّ بجراحات النبيّ ﷺ منّي بجراحاتي، ثمّ قال رسول الله

ﷺ: «يا طلحة، أين ترى القوم؟»، قال: فقلت: بالسيالة، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك الذي ظننتُ، أما إنهم يا طلحة لن ينالوا منا مثلها حتى يفتح الله مكة علينا».

وكان دليله ﷺ في السّير ثابت بن الضحاك، وكانت الراية لم تُحَلّ من غزوة أُحد فدفعها النبيّ ﷺ لعليّ بن أبي طالب ﷺ، ولم يزالوا سائرين حتى عسكروا بحمراء الأسد[1] وأقاموا بذلك المحل ثلاث ليال، وكانوا كل ليلة من تلك الليالي يوقدون خمسمئة نار حتى ترى من المكان البعيد، فذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كلّ وجه وناحية، وحمل سعد بن عبادة ﷺ ثلاثين بعيراً تمراً فوافقهم بحمراء الأسد، وساق جُزُراً أخرى لتنحر، فنحر في يوم اثنتان وفي يوم ثلاثة.

وقدم معبد الخزاعي عليهم وهم بحمراء الأسد، وكانت خزاعة بقضّهم وقضيضهم، ومؤمنهم وكافرهم، كلهم يحبّ رسول الله ﷺ، وكان معبد يومئذ مشركاً فقال: يا محمد، والله لقد عزَّ علينا ما أصابك في نفسك، وما أصابك في أصحابك، ولوددنا أنّ الله أعلى كعبك، وأنّ المصيبة كانت لغيرك، ثمّ مضى معبد حتى إذا كان بالروحاء رآه أبو سفيان فقال: ما ورائك يا معبد؟ فقال: تركت محمداً وأصحابه قد خرجوا لطلبكم في جمع لم أر مثله قطّ يتحرّقون عليكم تحرّقاً، قد اجتمع معه من كان تخلَّف عنه بالأمس من الأوس والخزرج، وتعاهدوا على أنْ لا يرجعوا حتى يلقوكم فيأخذوا ثأرهم منكم، وغضبوا لقومهم غضباً شديداً وندموا على ما فعلوا، فقال أبو سفيان: ويلك ما تقول؟ قال: والله ما أرى أنْ ترحل حتى ترى نواصي الخيل، قال أبو سفيان: لقد أجمعنا الكرّة عليهم لنرجع ونستأصلهم، قال معبد: إني أنهاك عن ذلك، فانصرفوا سراعاً.

وعند انصرافهم أرسل أبو سفيان مع نفر يريدون المدينة أنْ يخبروا المسلمين بأنهم أجمعوا على الرّجوع للمدينة فلمّا أُخْبر رسول الله ﷺ بذلك قال ﷺ: «حسبنا الله ونعم الوكيل» فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ ...﴾[2] الآية، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لقد سوّمت لهم الحجارة، لو رجعوا لكانوا كأمس الذاهب»[3].

---

(١) محل بينه وبين المدينة المنوّرة تسعة أميال أو عشرة.

(٢) آل عمران: ١٧٢.

(٣) انظر البداية والنهاية: (٥١/٤)، وعيون الأثر: (٥٧/٢).

وأرسل معبد الخزاعي رجلاً يخبر رسول الله ﷺ بانصراف أبي سفيان ومن معه خائفين، فانصرف ﷺ إلى المدينة وقد ظفر في حمراء الأسد بأبي عزّة الشاعر[1] الذي منَّ عليه ﷺ لما أُسِرَ في بدر من غير فداء لأجل بناته وعاهده ﷺ أنْ لا يقاتله ولا يُظاهر عليه أحداً، فنقض العهد وخرج مع قريش لأُحُد، وصار يستنفر الناس ويحرّضهم على قتاله ﷺ بأشعاره، ولم يأسِر المسلمون أحداً غيره في وقعة أُحد.

فلمّا جيء به إلى النبيّ ﷺ قال: يا محمد، أقلني وامنن عليَّ ودعني لبناتي وأعطيك عهداً أن لا أعود لمثل ما فعلت، فقال ﷺ: «لا والله لا تمسح عارضيك بمكة وتقول خدعت ـ وفي لفظ: سحرت محمداً ـ اضرب عنقه يا زيد ـ أو يا عاصم أو يا الزبير ـ لا يلدغ ـ أي: لا يلسع ـ المؤمن من جحر مرتين»[2].

وكان الذي أسره عاصم بن ثابت وجده نائماً متخلِّفاً عن المشركين بحمراء الأسد، وكان ﷺ بعث ثلاثة نفر من أسْلَم طليعة في آثار القوم، فلحق اثنان منهم القوم بحمراء الأسد فقتلوهما، فوجدهما النبيّ ﷺ قتيلين بحمراء الأسد فدفنهما في قبر واحد، ورجع المسلمون إلى المدينة حاملين رأس أبي عزَّة مشهورة على رمح، فلمّا وصل رسول الله ﷺ المدينة نزل عليه جبريل يخبره أنّ الحارث بن سويد في قباء فانهض إليه واقتصَّ بمن قتله من المسلمين غدراً يوم أُحُد، وهو المجذر بن زياد وقيس بن زيد، فنهض رسول الله ﷺ إلى قباء في وقت لم يكن يأتيهم فيه، وهو في شدّة الحرّ في يوم حار، فخرج إليه الأنصار من أهل قباء، ومنهم الحارث بن سويد وعليه ثوب مورّس، فأمر رسول الله ﷺ عويمر بن ساعدة بضرب عنقه، فقدم ليضرب عنقه، فقال الحارث: لِمَ يا رسول الله؟، فقال ﷺ: «بقتلك المجذر بن زياد»، فاعترف الحارث بما وقع، وقال: أتوب وأدفع الدية والكفّارة، فما قبل منه رسول الله ﷺ إلا ضَرْب عنقه، فضُرِبت عنقه.

وكانت في هذه السنة الثالثة من الهجرة ولادة الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما، فسماه أبوه علِيٌّ حرباً، فقال ﷺ: «بل هو حسن»[3].

---

(١) واسمه: عمرو بن عبد الله بن عثمان بن أبي أهيب بن حذافة بن جمع الجمحي. كان فقيراً محتاجاً ذا بنات. انظر البداية والنهاية: (٢/٣١٢).

(٢) انظر المرجع السابق: (٤/٤٦).

(٣) انظر أسد الغابة: (١/٢٨٥)، والإصابة لابن عبد البر: (٢/٦٨)، وتهذيب الكمال للمزي: (٦/٢٢٠).

وروي أنه ﷺ قال: «سمى هارون ابنيه شَبَراً وشبيراً، وإنّي سميت ابنيَّ الحسن والحسين كما سمّى به هارون ابنيه شبراً وشبيراً»[1]، بوزن جبل وجبيل، معناهما في السّريانية: حسن وحسين.

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة[2] سألوه عن شرب الخمر وأكل القمار فنزل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ أي: القمار ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[3] فانكفّ بعض الصّحابة عن شربها مخافة الإثم، وبقي آخرون رأوا أنّ الله لم يصرّح بحرمتهما، ثمّ إنّ بعض الصّحابة شربوا خمراً، ثمّ قدّموا واحداً يصلّي بهم المغرب، فقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[4] أعبُدُ، بإسقاط (لا) في كلها، فأُخبر ﷺ بذلك، فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾[5] فانكفُّوا عنها أوقات الصّلوات، وصاروا يشربونها في غير وقتها، فشربوها مرّة، وكان فيهم حمزة ﷺ عمُّ النبيّ ﷺ، فخرج فوجد ناقتين لعليّ بن أبي طالب ﷺ فعلاهما بالسّيف وبقَّر خواصرهما، ثمّ أخذ من أكبادهما وجبَّ اسنمتهما في سكره، فبلغ الخبر لعليّ فاغتاظ وأتى النبيّ ﷺ وعنده زيد بن حارثة، فأخبره الخبر، فخرج ﷺ ومعه زيد فدخل على حمزة فتغيّظ عليه، فرفع حمزة بصره فيهما، وقال في سكره: هل أنتما إلا عبيد لأبي، فرجع النبيّ ﷺ يقهقر حتى خرج فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[6] وكان نزولها في السنة الثالثة قبيل وقعة أحد[7].

وكان عمر ﷺ كثيراً ما يراجع النبيّ ﷺ في تحريمها ويقول: انظر يا رسول الله ما ينشأ عنها، فلمّا نزلت الآيتان الأوليتان ووقع ما وقع من حمزة قال عمر ﷺ: اللهم إنك

---

(١) قال الهيتمي في مجمع الزوائد: (١٠٣/٨): رواه الطبراني وفيه بردعة بن عبد الرحمن وهو ضعيف، وعزاه في الكنز إلى أحمد في المسند وابن أبي شيبة في المصنف وغيرهم. انظره في الكنز برقم: (٣٧٦٧٩).

(٢) يظهر أنّ هذا القدوم قدومٌ وقع قبل غزوة أحد.

(٣) البقرة: ٢١٩.

(٤) الكافرون: ١.

(٥) النساء: ٤٣.

(٦) المائدة: ٩٠.

(٧) انظر تفسير القرطبي: (٢٦٦/٦)،

الشافي اللهم بيِّن لنا بياناً شافياً ـ أي: محرِّماً للخمر بكلّ حال ـ فنزلت الآية الثالثة[1].

وقال ﷺ: «لا طيّب الله من تطيّب بها، ولا شفى الله من استشفى بها»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر، من شربها وقع على أمِّه وخالته وعمَّته»[3].

وقال رسول الله ﷺ: «الخمر أم الخبائث فمن شربها لم تقبل صلاته أربعين يوماً، فإنْ مات وهي في بطنه مات ميتة جاهلية»[4].

وقال رسول الله ﷺ: «كلّ مسكر خمر وكل خمر حرام»[5].

ثمّ إنّ الخمرة تُذْهِبُ الغيرة عن شاربها، وتورثه الخزي والفضيحة والندامة وتلحقه بالمجانين، ولا تجتمع مع خمر الجنّة في جوف واحد.

ثمّ إنّ النبيّ ﷺ قد أمر بحمراء الأسد بقتل معاوية بن المغيرة بن أبي العاص وهو جدُّ عبد الملك بن مروان لأمّه، جاء إلى المدينة يتجسَّس أحوال المسلمين فبلغه أنّ النبيّ ﷺ أمر بقتله فاستشفع بعثمان فقال: يا ابن عم، لم يكن أحد أمس بي رحماً منك، فأجرني فأدخله عثمان منزله، ثمّ خرج عثمان ليأخذ له أماناً من رسول الله ﷺ فسمع رسول الله ﷺ يقول: «إنّ معاوية بالمدينة فاطلبوه» فدخلوا منزل عثمان فأشارت إليهم أمّ كلثوم بأنّه في ذلك المكان فأتوه فأخرجوه وأتوا به رسول الله ﷺ، فأمر بقتله فقال عثمان: والذي بعثك بالحق ما جئت إلا لآخذ له أماناً فهبه لي يا رسول الله، فوهبه له رسول الله ﷺ وشفَّعه فيه بناءً على أنْ يقيم ثلاثاً ويرحل، وأقسم ﷺ أنه إنْ وجده بعدها قتله، فأقام معاوية ثلاثاً يستعلم فيها أخبار المسلمين لقريش.

كلّ ذلك كان بعد وقعة أُحُد وقبل خروجه ﷺ إلى حمراء الأسد، فلمّا خرج رسول الله ﷺ لحمراء الأسد وعاد للمدينة يوم الرابع خرج معاوية هارباً فقال ﷺ لزيد

---

(١) انظر تفسير الطبري: (٥/٣٢)، وتفسير ابن كثير: (١/٢٤٤)، وفتح القدير: (١/٣٣٨).

(٢) لم أجده.

(٣) قال في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عبد الكريم أبو أمية وهو ضعيف. انظر مجمع الزوائد: (٥/١٠٣).

(٤) عزاه التقي الهندي في الكنز إلى الطبراني في الأوسط، وابن النجار. انظره في الكنز برقم: (١٣١٨٣ـ ١٣٢٤٦)، وعزاه في الدرّ المنثور إلى الإمام عبد الرزاق في المصنف من حديث محمد بن المنكدر. انظر الدر: (٣/١٨٣).

(٥) عزاه في الدر المنثور إلى الشافعي ﷺ وابن أبي شيبة والبيهقي. انظر الدر المنثور: (٣/١٦٧).

ابن حارثة وعمّار بن ياسر رضي الله عنهما: «إنكما ستجدانه بمكان كذا وكذا[1] فاقتلاه فيه»، فخرجا ورمياه حتى أثبتاه ولحقهما عليٌّ فأتمّ قتله جمعاً بين الأخبار.

غزوة بني النّضير

وهم قوم من يهود المدينة، وكانت تلك الغزوة في ربيع الأول من السنة الرابعة، وسبب ذلك أنّهم أرسلوا إليه ﷺ: أنْ اخرج إلينا في ثلاثين من أصحابك ويخرج منّا ثلاثون حَبْراً، فإنْ صدّقوك وآمنوا بك آمنّا بك، وكان قصدهم الغدر به ﷺ، فلمّا غدا عليهم في ثلاثين من أصحابه، قال بعضهم لبعض: كيف تخلُصُون إليه ومعه ثلاثون كلّ يحبّ أنْ يموت قبله، فأرسلوا إليه: كيف نفهم ونحن ستون، اخرج في ثلاثة من أصحابك ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإنْ آمنوا بك اتبعناك، ففعل ﷺ، فلمّا وصل إليهم اشتملت اليهود الثلاثة على الخناجر، ومرادهم أنْ يغدروا به ﷺ، فأرسلت امرأة من بني النّضير لأخ لها مسلم تُعْلمه بذلك، فأعلم أخوها النبيّ ﷺ بذلك، وكان النبيّ ﷺ قبل ذلك أتاه الوحي بنيَّتهم الغدر به ﷺ، وذلك لأنّ رجلين من بني عمير طلعا من المدينة متوجِّهين إلى أهلهما، وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ، فالتقى عمرو بن أمية الضمري بهما فقتلهما، وكان لم يعلم بالعهد، فلمّا قدم المدينة وأخبر بما فعل، قال النبيّ ﷺ: «قتلت قتيلين، لأَدِيَنَّهما» أي: لأعطينّ ديّتهما.

فخرج ﷺ إلى بني النّضير في نفر من أصحابه دون العشرة، منهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم يستعين بهم في دِيَة القتيلين، وكان ﷺ أخذ العهود على اليهود أنْ يعاونوه في الديات، فقالوا له: نعم، نعينك يا أبا القاسم على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، وقد آن لك أن تزورنا وأنْ تأتينا، اجلس حتى تطعم وترجع بحاجتك، ونقوم فنتشاور ونصلح أمرنا فيما جئتنا به.

وكان ﷺ جالساً بجنب جدار من بيوتهم فخلا اليهود بعضهم ببعض وقالوا: إنّكم لن تجدوا الرّجل على مثل هذه الحالة، فهل من رجل يعلو بصخرة على هذا البيت فيلقيها عليه فيريحنا منه، فقال أحد ساداتهم: أنا لذلك، وهو عمير بن جحاش، فقال لهم سلام بن مشكم: إنْ تفعلوا والله ليخبرنّ بما هممتم به، وإنّه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه، فلما صعد ذلك الرجل ليلقي الصّخرة جاءه ﷺ الخبر من السماء

---

(١) لموضع بينه وبين المدينة ثمانية أميال. مؤلف.

بذلك، فقام ﷺ مظهراً أنّه يقضي حاجته، وترك أصحابه في مجالسهم ورجع مسرعاً إلى المدينة، ولم يعلم من كان معه من أصحابه، فقاموا في طلبه ﷺ لما استبطؤوه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه فقال: رأيته ﷺ يدخل المدينة فأقبل أصحابه حتى انتهوا إليه ﷺ، فأخبرهم بما أراده بنو النّضير، فحينئذ عرفت يهود أنّ النبيّ ﷺ اطلع على ما أضمروا فدبّروا الحيلة المذكورة أولاً، فأخبر ﷺ عن ما أضمروه ثانياً.

فحينئذ أرسل النبيّ ﷺ محمد بن مسلمة إليهم: أنِ اخرجوا من بلدي ـ يعني: المدينة، لأنّ قريتهم من أعمالها ـ فلا تساكنوني فيها، فلقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وهو كذا وكذا»، فسكتوا ولم يقولوا حرفاً، قال: ويقول لكم: قد أجّلتكم عشرة أيام، فمن رؤي بعد ذلك منكم ضربتُ عنقه، ونزل قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾[1].

فأرسلوا حينئذ في إحضار الإبل، فأرسل إليهم المنافقون: أنْ لا تخرجوا من دياركم، ونحن معكم، إنْ قوتلتم فلكم علينا النصر، وإنْ خرجتم لن نتخلّف عنكم خصوصاً عبدَ الله بن أُبيٍّ ابن سلول، فإنّه أرسل إليهم: لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حيّكم، فإنّ معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون فيكم فيموتون عن آخرهم قبل أنْ يصل إليكم أَحَدٌ وتمدّكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان.

فطمع بنو النّضير فيما قال ابن أبيٍّ فأرسلوا لرسول الله ﷺ: إنّا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك، فأظهر ﷺ التكبير وكبَّر المسلمون لتكبيره تكبيرة واحدة، وقال ﷺ: «حاربت يهود»[2].

وكان المتولي لذلك سيد بني النّضير حُيَيٌّ بن أخطب، والدُ صفية أم المؤمنين رضي الله عنها، وقد نهاه أحد سادات بني النّضير، وهو سلام بن مشكم، وقال له: منَّتْك نفسُك والله يا حُيي الباطل، فإنّ قول ابن أُبيّ ليس بشيء، وإنما يريد أن يورِّطك في الهلكة حتى تحارب محمّداً، فيجلس في بيته ويتركك، فهو والله جلاؤنا من أرضنا وذهابُ أموالنا وشرفنا وسبيُ ذرارينا مع قتل مقاتلينا، فأبى حُيَيٌّ إلا محاربةَ رسول الله ﷺ.

---

(١) المائدة: ١١.

(٢) انظر تاريخ الطبري: (١/ ٢٣٤).

فخرج ﷺ إليهم بالمسلمين واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وحمل رايته عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وسار ﷺ بالنّاس حتى نزل بهم وصلّى العصر بفنائهم، وقد تحصَّنوا وقاموا على حصنهم يرمون بالنّبل والحجارة.

ولما جاء وقت العشاء رجع ﷺ إلى بيته في عشرة من أصحابه عليه الدّرع وهو على فرس، واستعمل على العسكر علي بن أبي طالب وأبا بكر رضي الله عنهما، وبات المسلمون يحاصرونهم ويكبّرون حتى أصبح الصبّح فأذّن بلال بالفجر، فغدا رسول الله ﷺ في أصحابه الذين كانوا معه فصلّى بالناس وأمر بلالاً فضرب القبَّة، وهي قبة من خشب عليها مسوح فدخل ﷺ فيها، وكان رجل من اليهود يقال له: عزوك، وكان أعسرَ رامياً، يبلغ نبله ما لا يبلغه نبل غيره، فوصل نبله تلك القبة، فأمر بها رسول الله ﷺ فحوِّلت.

وفي ليلة من الليالي فُقِدَ عليٌّ رضي الله عنه قرب العشاء، فقال الناس: يا رسول الله، ما نرى عليّاً!، فقال ﷺ: «دعوه فإنّه في بعض شأنكم»، فبعد قليل جاء عليٌّ رضي الله عنه برأس الرجل الذي يقال له: غزوك، الذي أصاب نبلُه قبّة النبيّ ﷺ، كَمَن ـ من باب قعد ـ له عليٌّ رضي الله عنه حين خرج يطلب غَفْلة المسلمين مع جماعة، فشدَّ عليه عليٌّ فقتله، وفرَّ من كان معه، فأرسل ﷺ مع عليٍّ أبا دجانة وسهيل بن حنيف في عشرة فأدركوا أولئك الجماعة الذين كانوا مع غزوك وفرُّوا من عليٍّ رضي الله عنه فقتلوهم[1].

وأمر ﷺ بقطع النّخل وحرقها بعد أن حاصرهم مدّة، وكان سعد بن عبادة رضي الله عنه يحمل التّمر للمسلمين مدّة حصارهم، واستعمل على النّخل أبا ليلى المازني وعبد الله بن سلام، وكان أبو ليلى يقطع العجوة وعبد الله يقطع اللين.

ويقال له[2]: اللون، وهو ما عدا العجوة، والبرني: من أنواع تمر المدينة، ومن أنواعه الصَّيْحاني، فعن علي رضي الله عنه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ فصاحتْ نخلةٌ بأُخْرَى: هذا النبيّ المصطفى وعليٌّ المرتضى، فقال ﷺ: «يا علي سَمِّ نخلَ المدينة ـ أي: هذا النوع منه ـ صَيْحانيًّا». وبعضهم طعن في هذا الحديث والله أعلم بالصّواب.

فلمّا قطعت العجوة شقَّ بنو النّضير جُيُوبَهم وضربوا الخدودَ ودعوا بالويل، ونادوا: يا أبا القاسم، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه، زعمتَ أنك تريد الإصلاح،

---

(١) انظر سبل الهدى والرشاد: (٤/٣٢٢)، ومغازي الواقدي: (١/٣٧٢).

(٢) أي: للين.

أفمِنَ الإصلاح قطعُ العجوة؟ وهل وجدت فيما زعمتَ أنه أنزل عليك الفساد في الأرض، فأنتم تفسدون مع كونكم تنهون عن الفساد، فوقع في نفوس المسلمين شيء من أجل ذلك الكلام، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1] أي: في قولهم: إنّ ذلك من الفساد.

والنخل الذي قطع هو نخل البُوَيْر ـ بضم الباء وفتح الواو ـ موضع معروف من بلد بني النّضير، وكانت العجوة أعزُّ أموالهم، ومنها قوتهم، فلذلك انزعجوا لها انزعاجاً تاماً.

ولا زال ابن أُبَيٍّ يبعث لبني النّضير: أنِ اثبتوا وتمنّعوا، فانتظره بنو النّضير فأخلف موعدهم وخذلهم، وصار سلام بن مشكم يعنّف حُيَيًّا، فيقول حييٌّ: ما أصنع، هي ملحمة كتبت علينا.

ولزم رسول الله ﷺ حصارهم، وقذف الله في قلوبهم الرُّعب، فسألوا رسول الله ﷺ أنْ يجليهم ويكفَّ عن دمائهم على أنّ لهم من أموالهم ما حملت الإبل إلا الحلقة ـ أي: آلة الحرب ـ ففعل ﷺ فاحتملوا النّساء والصّبيان، وحملوا من أموالهم غير الحلقة ما استقلّت به الإبل، وكانت ستمئة بعير.

وصاروا ينقضون العُمُد والسقوف والجدران حتى لا يسكنها المسلمون حسداً، وخرجوا مظهرين التجلُّد، النساءُ على الهوادج وعليهنّ الديباج والحرير والذهب والفضة، وخلفهم القينات يضربن بالدّفوف والمزامير وشقّوا سوق المدينة وصفّ لهم الناس فجعلوا يمرّون قطاراً في إثر قطار، وكان سلام بن أبي الحقيق يدفع جلد جمل مملوءاً حليّاً وينادي بأعلى صوته: هذا أعددناه لرفع الأرض وخفضها، إن كنّا تركنا نخلاً ففي خيبر النّخل.

وحزن المنافقون لخروجهم أشدَّ الحزن، وهذا الحلي كانوا يعيرونه للعرب من أهل مكة وغيرهم، وكان المسؤول عنه أبا الحقيق.

فمنهم من سار إلى خيبر وهو حييٌّ بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع، فلمّا نزلوا خيبر دان لهم أهلها، ومنهم من سار إلى الشام إلى أذرعات، وكان فيهم جماعة من أبناء الأنصار لأنّ المرأة من الأنصار كانت إذا لم يعش لها ولد تجعل

---

(١) الحشر: ٥.

على نفسها إنْ عاش ولدها تهوّدت، فلمّا رحل بنو النّضير قال آباء أولئك: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ...﴾[1] الآية.

وهي منسوخة[2] بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾[3]، أو هي خاصة بهؤلاء، لِمَا روي من أنّ أنصاريًّا كان له ابنان قد تنصّرا قبل المبعث، ثمّ قدما المدينة يبيعان فيها زيتاً فلزمهما أبوهما وقال: والله لا أدعكما حتى تسلما، فأبيا، واختصموا إلى رسول الله ﷺ فنزلت[4].

ولم يُسلم من بني النّضير إلا رجلان: وهما يامين بن عمير وأبو سعيد بن وهب، قال أحدهما لصاحبه: والله إنّك تعلم أنه رسول الله فما ننتظر، نسلم فنأمن على دمائنا وأموالنا فنزلا من الليل فأسلما، فأحرزا أموالهما، وجعل يامين لرجل من قيس جُعلاً على قتل عمرو بن جحّاش الذي أراد أنْ يلقي الحجر على رسول الله ﷺ فقتله غيلة بعد أن قال رسول الله ﷺ ليامين: «ألم تر ما لقيتُ من ابن عمّك، وما همّ به من شأني»، فسرَّ النبيّ ﷺ بقتل عمرو بن جحّاش[5]، ونزلت سورة الحشر في أمر بني النّضير. وكان عبد الله بن عباس يسميها سورة بني النّضير[6].

فوجد ﷺ بعد انصرافهم عنها ـ أي: ديارهم ـ خمسين درعاً وخمسين بيضة وثلاثمئة وأربعين سيفاً، ولم يخمّس رسول الله ﷺ أموال بني النّضير، فقال عمر ﷺ: ألا تخمّسها يا رسول الله كما خمَّست أموال بني قينقاع، فقال رسول الله ﷺ: «لا أجعل شيئاً جعله الله لي دون المؤمنين» بقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى...﴾[7] كهيئة ما وقع فيه السهمان».

فكانت أموال بني النّضير وعقارهم فيئاً لرسول الله ﷺ خاصّة، ثمّ دعا رسول الله ﷺ الأنصار الأوس والخزرج: فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثمّ ذكر ﷺ الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين من إنزالهم في منازلهم وإيثارهم على أنفسهم

---

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) انظر أحكام القرآن للجصاص: (٢/١٦٧)، والناسخ والمنسوخ لابن حزم: (٣٠).

(٣) التوبة: ٧٣.

(٤) انظر العجاب في بيان الأسباب: (١/٦١٢)، وتفسير البضاوي: (٥٥٧).

(٥) انظر البداية والنهاية: (٤/٧٦)، وعيون الأثر: (٢/٧٣).

(٦) انظر الإتقان للسيوطي: (١/١٥٤).

(٧) الحشر: ٧.

بأموالهم، لأنه لما قدم المهاجرون المدينة من مكة وليس بأيديهم شيء وكان الأنصار أهل أرض وعقار ـ أي: نخل ـ آثروهم بالانتفاع بأشجارهم ومنازلهم.

ثمّ قال رسول الله ﷺ يوم جلاء بني النّضير: «ليست لإخوانكم من المهاجرين أموال، فإن شئتم قسمت هذه الأموال التي كانت لبني النّضير وأموالكم بينكم وبينهم جميعاً، وإنْ شئتم أمسكتم أموالكم، وقسَّمت هذه فيهم خاصة»، فقالت الأنصار رضي الله عنهم: بل اقسم يا رسول الله هذه فيهم خاصّة، واقسم لهم من أموالنا ما شئت[1].

وفي رواية: «إنْ أحببتم قسمتُ بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله من بني النّضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السُّكنى في منازلكم وأموالكم ـ أي: الأرض والنخل ـ وإنْ أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم وأموالكم؟».

فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ رضي الله عنهما: بل تقسم يا رسول الله بين المهاجرين خاصّة، ويكونون في دورنا وأموالنا كما كانوا، بل نحب يا رسول الله أنْ تقسم ديارنا وأموالنا على المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وعشائرهم، وخرجوا حبًّا لله ولرسوله ﷺ ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها، ونادت الأنصار رضي الله عنهم: رضينا وسلَّمنا يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

وقال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما: جزاكم الله يا معشر الأنصار خيراً وأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[2] أي: فاقة وحاجة إلى ما يؤثرون به.

فقسم رسول الله ﷺ ذلك بين المهاجرين ولم يعط أحداً من الأنصار إلا سهل ابن حنيف وأبا دجانة كانا محتاجَيْن، وأعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحقيق أحد سادات بني النّضير، وكان سيفاً له ذكر عندهم.

وكان رسول الله ﷺ يزرع أراضيهم التي تحت النّخل فيدَّخر منها قوت أهله سنة، وما فَضَل يجعله في الكراع ـ أي: الخيل ـ والسلاح عدَّة في سبيل الله[3]. ولم يُعْلم كيفية زرعه ﷺ للأرض مزارعة أو غيرها.

---

(١) انظر عيون الأثر: (٢/ ٧٢).

(٢) الحشر: ٩.

(٣) رواه مسلم برقم: (١٧٥٧).

وأعطى ﷺ أبا بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وصهيباً وأبا سلمة بن الأسد ضياعاً معروفة من ضياع بني النّضير ـ أي: أراض من أراضيهم ـ وأمر المهاجرين بردٍّ ما بأيديهم من أموال الأنصار للأنصار.

وفي مسلم: أن الردّ كان بعد فتح خيبر، ولعله تأخّر الردّ من بعضهم إلى فتح خيبر، أو أنّ بعض المنايح أُخّر ردّها إلى أن فتحت خيبر، وكان ذلك برضى الأنصار والمهاجرين رضي الله عن الفريقين ونفعنا بتراب أقدامهم وجمعنا معهم تحت لواء سيد المرسلين في جنة النعيم. آمين يا أكرم الأكرمين.

وإلى قصة بني النّضير أشار المصنف رحمه الله بقوله:

وجاء وحي بالذي أضمرت ... بنو النّضير وقد هموا بإلقاء صخرة

يعني: نزل عليك جبريل بالوحي يعلمك بالذي أضمرته ونوته بنو النّضير من الغدر بك يا رسول الله، والحال أنهم قد همُّوا بإلقاء صخرة عليك ليقتلوك بها فنجَّاك الله من كيدهم، وجعله في نحرهم كما مرّت القصة مفصّلة.

خصصت بخمس ما حصلن لمرسل ... فبعثك يحوي كل إنس وجنة

نصرت برعب والبسيطة مسجداً ... طهوراً وقد أوتيت فضل الوسيلة

وخامسها حل الغنائم كلها ... هذا وكم خمس لديك وخمسة

حاصله: لقد خصّصت يا رسول الله بخمس لم يعطهنَّ أحد قبلك من الأنبياء والرسل:

الأولى: بعثتك العامة للأنس والجنّ كلهم رسالةَ تكليف، ولغيرهم رسالة تشريف، وغيرك من الرّسل إنما كان يبعث لقومه خاصة، كرُسُل بني إسرائيل، أو لجماعة مخصوصين كلوط وإبراهيم، وأما سليمان فحكمه في الجميع بطريق الملك، فهو كذي القرنين مع أنه غير نبيٍّ على الأصحّ.

وأما أصل رسالة سليمان فإنما هي لخصوص بني إسرائيل، لكنْ يُشكل عليه قوله لبلقيس ما قصَّه الله علينا من التهديد بالقتال اللازم منه القتل، والقتل لا يكون إلا في الواجب، وأجابوا بما لا يشفي القلب، فالظاهر أنه أرسل لقوم بلقيس بعدما بلغه أمرها، أو أنّ الله حكّمه فيهم كما حكّم ذا القرنين في أهل الأرض مع عدم رسالته إليهم، وكانت شريعته تجوّز ذلك فليُتأمّل.

كما ويُشكِل عليه عموم رسالة نوح بعد الطوفان[1]، وأجيب عن ذلك بأنه اتفق له عليه السلام أنه لم يبق على وجه الأرض أحد مما سواهم، فهو كآدم، أما قبل الطوفان فإنما كانت رسالته خاصة بقومه، وهلاك غير قومه من أجل ذنوب قومه على حدّ ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾[2] بل يعمّ عقابها الظالم وغيره بخلاف رسالة نبينا محمد ﷺ فهي عامة أصالة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾[3].

الثانية: نصرتَ بالرّعب الواقع في قلوب أعدائك هيبة ومخافة من سطوتك يا رسول الله بهم مسيرة شهر، وفي رواية: شهرين، أي: من كلّ جهة من جهات المكان الذي حللتَ فيه، فأيُّ مكان حللتَ فيه يقع الرّعب في قلوب أعدائك منك مسيرة شهر، ففي الحديث: «أعطيت خمساً لم يعطهنَّ نبيٌّ قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر ـ وفي رواية: شهرين ـ وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيُّما رجل من أمّتي أدركته الصّلاة فليصلِّ، وأُحلَّت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبيّ يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة»[4].

الثالثة: جُعِلت الأرض له ﷺ ولأمته كرامة له ﷺ مسجداً، فتصحُّ صلاتهم في أيّ بقعة منها طاهرةً بخلاف الأمم السابقة فكانوا لا يصلون إلا في بِيَعِهم وكنائسهم، فيتضيَّق الأمر عليهم، ويتَّسع على الأمة المحمَّدية كما في الحديث المتقدم وغيره.

الرابعة: جُعُلت الأرض كلّها طَهُوراً[5] له ﷺ ولأمته كرامة له ﷺ بخلاف الأمم السابقة، فإنما كانت طهارتهم بخصوص الماء، فقد تضيّق الأمر عليهم واتّسع على الأمة المحمّدية كما في الحديث المتقدم وغيره.

---

(١) أي: ويشكل أيضاً على خصوص رسالة المرسلين إلا رسالة سيدنا محمداً عمومُ رسالة نوح عليه السلام.... الخ.

(٢) الأنفال: ٢٥.

(٣) سبأ: ٢٨.

(٤) رواه البخاري برقم: (٤٢٣)، ومسلم برقم: (٥٢١)، والنسائي في سننه برقم: (٤٣٢)، وأحمد في المسند برقم: (٧٦٣)، وغيرهم.

(٥) طَهوراً: هو بفتح الطاء، ما يُتطهر به من حدث أصغر أو أكبر بدون ماء، ومن نجاسة مع الماء كما في المغلّظة. مؤلف.

والتيمم من خصوصيات هذه الأمة المحمديّة، وهو وسيلة للعبادة، فكان ذلك لئلا تتعطل عن العبادة في وقت عدم وجود ماء للطهارة، كما أن التوسعة في صحة الصّلاة في جميع بقاع الأرض لما ذُكِر.

والوسيلة: هي الواسطة بينك وبين مأربك، كصحة التيمم والصّلاة بجميع بقاع الأرض، وتطلق لغةً على المنزلة عند الملك، أي: فقد أعطيتَ يا رسول الله المنزلة العظيمة عند الله تعالى حتى وسَّع عليك وعلى أمتك كرامةً لك بما ذُكِر وغيره.

الخامسة: حِلُّ الغنائم له ﷺ ولأمته كرامة له ﷺ، والأمم السابقة كانوا إذا غنموا غنيمة وضعوها في مكان ودعوا الله في قبولها، فإنْ قُبِلت منهم نزلت نار من السماء فأكلتها، وإن لم تقبل بقيت على حالها، ففيه تضييق عليهم وفضيحة عدم قبولها من غير مُخْلصهم، وسترٌ على الأمة المحمدية وتوسعةٌ عليهم لما في الحديث المتقدم وغيره.

وقوله: (هذا وكم.. إلى آخره) معناه ـ والله أعلم ـ وهذا الفضل الذي أعطيتَ يا رسول الله الجامعُ للمزايا الخمسة، (وكم) أي: لقد منحك الله تعالى يا رسول الله الكثير من الفضائل المتضمِّنة لاختصاصك وانفرادك بخمس بعد خمس، أي: بخمسات متعددة، فلستَ مقصوراً على الخمسة[1]، بل هي مقصورة عليك، كما قصر عليك يا رسول الله فضائلُ كثيرةٌ، فمن جملتها: اجتماع الصّلوات الخمس، وما في مسلم: «أعطيتُ جوامع الكلم، وبينا أنا نائم أوتيتُ مفاتح خزائن الأرض، فوُضعتْ في يدي[2]، وأعطيتُ خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهنَّ نبيٌّ قبلي[3]، وختم بي النبيّون[4]، وجُعِلت صفوفنا كصفوف الملائكة[5]».

وما ورد: «ما حسدكم اليهود على شيء ما حسدوكم على السلام والتأمين»[6] إلى غير ذلك مما لا يحصى. والله أعلم بالصّواب.

---

(١) أي: لك الخمسة المزايا هذه لا غير، بل لك غيرها الكثير الكثير.

(٢) إلى هنا رواية مسلم برقم: (٥٢٣).

(٣) رواه أحمد في المسند برقم: (٢١٣٨٢).

(٤) رواه مسلم برقم: (٥٢٣)، وأحمد في المسند برقم: (٩٣٢٦)، وابن حبان في صحيحه برقم: (٢٣١٣).

(٥) رواه مسلم في صحيحه برقم: (٥٢٢)، وابن خزيمة في صحيحه برقم: (٢٦٣)، وابن حبان في صحيحه برقم: (١٦٩٧).

(٦) رواه البخاري في الأدب المفرد: (٣٤٣)، وابن ماجه في سننه برقم: (٨٥٦)،

غزوة ذات الرقاع[1]

كانت بعد غزوة النّضير بشهرين ـ ربيع الأول والثاني، وبعض جمادى الأولى ـ وقد وقعت هذه الغزوة ثانية بعد خيبر أيضاً، والتي وقع فيها صلاة الخوف الثانية على ما قيل.

خرج رسول الله ﷺ في أربعمائة، وقيل: سبعمائة، وقيل: ثمانمائة، ويمكن الجمع بأنّ إحداها في الأكثر والأخرى في الأقل، وهي الأولى، وبأنه[2] خرج في الأقل ثمّ تبعه الأكثر.

واستخلف ﷺ على المدينة أبا ذرّ في إحداهما وعثمان في الأخرى جمعاً بين الأخبار، وكان بلغه ﷺ أنه اجتمع جموع من القبائل المتقدمة لغطفان يريدون محاربته ﷺ، فسار ﷺ حتى بلغ نجداً، فلم يجد بها أحداً ووجد نسوة فأخذهنّ، وفيهنّ جارية وضيئة، ثمّ أتى جمعاً، فتقارب الجمعان ولم يكن بينهما حرب، وقد خاف بعضهم بعضاً فصلَّى النبيّ ﷺ صلاة الخوف[3] مخافة أنْ يغير المشركون على المسلمين في حال الصّلاة، وكانت أول صلاة للخوف، وكان العدو في غير جهة القبلة فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ ...﴾[4] الآية، ففرّقهم رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة وقفت في وجه العدو، وفرقة تصلّي معه ﷺ، فصلَّى بكلٍ ركعة على ما هو مبيَّن في كتب الفقه.

وفي هذه الغزوة نزل ﷺ ليلاً، وكانت تلك الليلة ذات ريح، وكان نزوله في شِعْب استقبله، فقال ﷺ: «هل من رجل يكلؤنا ـ أي: يحفظنا ويحرسنا ـ الليلة»، فقام عبّاد بن بشر وعمّار بن ياسر رضي الله عنهما، فقالا: نحن يا رسول الله نكلؤك، فجلسا على فم الشِّعب، فقال عبّاد بن بشر لعمّار بن ياسر: أنا أكفيك أول الليل وتكفيني آخره، فقال: نعم، فنام عمّار وقام عبّاد يصلّي.

---

(١) وتسمى غزوة الأعاجيب لما وقع فيها من الأمور العجيبة، وتسمى غزوة محارب، وغزوة بني ثعلبة وغزوة بني غار. مؤلف.

(٢) أي: ويجمع بين القولين أيضاً بأنّه.... الخ.

(٣) روى البخاري حديث صلاة الخوف بذات الرقاع في (المغازي)، باب غزوة ذات الرقاع، برقم: (٤١٢٩)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الخوف، رقم: (٨٤٢ ـ ٨٤٣).

(٤) النساء: ١٠٢.

وكان زوج بعض النسوة اللاتي أصابهنّ رسول الله ﷺ غائباً، فلمّا جاء أُخْبر فتبع الجيش وحلف لا ينتهي حتى يصيب محمداً - ﷺ - أو يهريق في أصحاب محمد دماً، فلمّا رأى سواد عبّاد قال: هذا رائية القوم، ففوّق عليه سهماً فوضعه فيه، فانتزعه عباد وطرحه فرماه بآخر فوضعه فيه، فانتزعه، فرماه بآخر فوضعه فيه، فانتزعه، فلما غلبه الدم قال لعمّار: اجلس فقد أثبتُّ، فجلس عمّار فلمّا رأى ذلك الرجلُ عمّاراً وقد جلس علم أنه نَذِر - أي: علم به - فهرب خائفاً، فقال عمّار: ما منعك أنْ توقظني في أول سهم، فقال: كنت أقرأ سورة الكهف، فكرهتُ أن أقطعها[١].

وفي هذه الغزوة انفرد رسول الله ﷺ عن أصحابه في مكان، فبينما سيفه ﷺ في حجره، إذ جلس عنده غورث بن الحارث[٢] من القوم المقصودين لأهل الغزوة، فقال: يا محمد، أرني أنظر سيفك هذا، فأخذه من حجر النبيّ ﷺ، ثمّ استلّه، ثمّ جعل يهزُّه، ويهمّ به إلى النبيّ ﷺ فيكبّته الله تعالى - أي: يخزيه - ويرد يده عن ضرب النبيّ ﷺ، ثمّ قال: يا محمد ما تخافني؟، قال: «لا»، قال: من يمنعك مني، قال: «الله يمنعني» أي: يحفظني الله منك، ثمّ دفع السيف إليه ﷺ، فأخذه رسول الله ﷺ وقال: «من يمنعك مني؟»، فقال: كن خير آخذ، فقال ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟»، فقال: أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلّى سبيله رسول الله ﷺ، فجاء قومه وكان قال لهم: لأقتلنَّ محمداً في حال غفلته، فقال لهم: جئتكم من عند خير الناس وأخبرهم بما وقع، ثمّ أسلم بعد ذلك[٣].

ولما قفل رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة أدركته القائلة بواد كثير العضاه - أي: الأشجار العظيمة التي لها شوك - فتفرّق الناس يستظلُّون بها، ونزل ﷺ تحت شجرة ظليلة، قال جابر ﷺ: تركناها للنبيّ ﷺ، فعلّق ﷺ سيفه فيها، ونمنا نومة، فإذا رسول الله

---

(١) رواه أبو داود في سننه برقم: (١٩٨)، وأحمد في المسند برقم: (١٤٧٤٥). ورواه غيرهم.

(٢) قال ابن كثير (٣/٤) في معرض كلامه عن غزوة ذي أمر التي تضمنتها السنة الثالثة للهجرة: قال البيهقي: وسيأتي في غزوة ذات الرقاع قصة تشبه هذه فلعلهما قصتان، قلت (ابن كثير): إنْ كانت هذه محفوظة فهي غيرها قطعاً لأنّ ذلك الرجل اسمه غورث با الحارث أيضاً لم يسلم بل استمر على دينه ولم يكن عاهد النبيّ ﷺ أنْ لا يقاتله.

(٣) رواه أحمد في المسند من حديث جابر ﷺ برقم: (١٤٤٠١)، والحاكم في المستدرك: برقم: (٤٢٩٠)، والبيهقي في الدلائل برقم: (١٠٢٣)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص.

ﷺ يدعونا، فجئنا إليه فوجدنا عنده أعرابيًّا جالساً، فقال ﷺ: «إنّ هذا قد اخترط سيفي، وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده مصلَتاً ـ أي: مسلولاً ـ فقال: من يمنعك مني؟ قلت: «الله ـ قال ذلك ثلاثاً ـ ثمّ سقط السيف من يده، ووقع منكبًّا على وجهه، فأخذتُ السيف منه، وقلتُ له: كما قال لي فطلب مني العفو فعفوت عنه»[1].

وكان عفوه ﷺ تأليفاً للكفّار حتى يدخلوا في الإسلام.

وكانت مدة غيبته ﷺ عشر ليال وسُميت هذه الغزوة ذات الرّقاع لما رواه البخاري في (المغازي)[2]، عن أبي موسى الأشعري ﷺ[3]، أنّه قال: (خرجنا مع النبيّ ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه، فنُقِبت قدماي وسقطت أظفاري، وكنّا نلفُّ على أرجلنا الخرق، فسميّت ذات الرّقاع، لما كنّا نعصب من الخرق على أرجلنا).

وفي هذه الغزوة قدمت امرأة بدويّة على النبيّ ﷺ بولد لها فقالت: يا رسول الله، هذا ولدي قد غلبني عليه الشيطان، فبصق ﷺ بفمه، وقال: «اخسأ عدوّ الله وأنا رسول الله» قالها ثلاثاً، ثمّ قال: «شأنك بابنك، ليس عليه بأس، فلن يعود إليه شيء مما كان يصيبه» فأخذَتْه ولم يعد إليه الشيطان بعد ذلك أصلاً[4].

وفيها أيضاً جاء رجل بفرخ طائر فأقبل أحد أبوي الطائر حتى طرح نفسه في يدي الذي أخذ فرخه، فعجب الصّحابة من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «أتعجبون من هذا الطائر الذي أخذتم فرخه، فطرح نفسه لفرخه، والله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه»[5].

وفيها أيضاً جيء له ﷺ بثلاث بيضات من بيض النّعام، فقال: «دونك يا جابر،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٢٧٥٣ ـ ٣٩٠٥)، ومسلم في صحيحه برقم: (٢٧٥٣). ورواه غيرهم.

(٢) انظره فيه برقم: (٤١٢٨).

(٣) مال البخاري إلى أنّ هذه الغزوة كانت في السنة السابعة وأجمع أهل السير على خلافه، وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح): الأولى الاعتماد على ما جاء في الحديث الصحيح، قال: والذي ينبغي الجزم به أنّها بعد غزوة قريظة، لأنّ صلاة الخوف في غزوة الخندق لم تكن شُرِعت، وقد ثبت وقوع صلاة الخوف في غزوة ذات الرّقاع، فدلّ على تأخّرها بعد الخندق. انظر فتح الباري: (٤١٧/٧) وما بعدها.
وقال المباركفوري في (الرحيق): إنّ غزوة ذات الرّقاع شهدها أبو هريرة وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما، وكا إسلام أبي هريرة ﷺ قبل غزوة خيبر بأيام وكذلك أبو الأشعري ﷺ وافى النبيّ ﷺ بخيبر، وإذن غزوة ذات الرّقاع بعد خيبر، انظر الرحيق المختوم: (٢٨٢ ـ ٢٨٣).

(٤) رواه الطبراني في (الأوسط) برقم: (٩١١٢)،

(٥) رواه عبد الرزاق في المصنّف برقم: (٢٠٥٨٦)، والبيهقي في الشعب برقم: (٧١٣١).

فاعمل هذه البيضات»، قال جابر: فعملتهن، ثمّ جئت بهن في قصعة، فجعلنا نطلب خبزاً فلم نجد، فجعل رسول الله ﷺ وأصحابه يأكلون من ذلك البيض بغير خبز حتى انتهى كلّ إلى حاجته ـ أي: إلى الشبع ـ والبيض في القصعة كما هو[1].

وفي هذه الغزوة أيضاً جاءه ﷺ جمل مرحّل حتى وقف عنده فأرغى، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما قال هذا الجمل؟ هذا الجمل يستعيذ بي على سيّده، يزعم أنّه كان يحرث عليه منذ سنين، وأنه الآن أراد أن ينحره، اذهب يا جابر إلى صاحبه فأت به»، قال جابر: فقلت: لا أعرفه، فقال ﷺ: «إنه سيدلُّك عليه»، قال جابر: فخرج الجمل بين يدي حتى وقف على صاحبه، فجئت به إلى النبيّ ﷺ، فكلّمه في شأن الجمل[2].

وفي رواية عبد الله بن جعفر تطويل واقعة الجمل، وأنّه قبّل رأس النبيّ ﷺ مراراً، ورغى، وأنّ أصحابه أقبلوا مسرعين، وقالوا: جملُنا منذ ثلاث ليال غاب عنّا، فأخبرهم النبيّ ﷺ بما قاله الجمل، فاعترفوا، ثمّ اشتراه منهم وجعله في نَعَم الصّدقة[3].

---

(١) انظر سبل الهدى والرشاد: (١٧٦/٥)، ومغازي الواقدي: (٣٩٩/١).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط برقم: (١١١٦٦)، وعزاه الهيثمي إلى البزار، وقال: فيه عبد الحكيم ابن أبي سفيان، ذكره ابن أبي حاتم ولم يجرحه أحد، وبقية رجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد: (٥٥/٤).

(٣) لم أجده بهذا اللفظ من رواية عبد الله بن جعفر، ولعله أراد ما رواه ابن ماجه في سننه، عن تميم الداري ﷺ، أنّه قال: كنا جلوسا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل بعير يعدو حتى وقف على هامة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم: «أيها البعير، اسكن، فإن تك صادقاً فلك صدقك، وإن تك كاذباً فعليك كذبك، مع أنّ الله تعالى قد أمَّن عائذنا، وليس بخائب لائذنا»، فقلنا: يا رسول الله، ما يقول هذا البعير؟، فقال: «هذا بعير قد همَّ أهله بنحره وأكل لحمه، فهرب منهم واستغاث بنبيكم ﷺ»، فبينا نحن كذلك إذ أقبل أصحابه يتعادَوْن، فلما نظر إليهم البعير عاد إلى هامة رسول الله ﷺ فلاذ بها، فقالوا: يا رسول الله، هذا بعيرنا هرب منذ ثلاثة أيام، فلم نلقه إلا بين يديك، فقال ﷺ: «أما إنه يشكو إليَّ فبئست الشكاية»، فقالوا: يا رسول الله، ما يقول؟، قال: يقول: «إنه ربي في أمنكم أحوالاً، وكنتم تحملون عليه في الصّيف إلى موضع الكلأ، فإذا كان الشتاء رحلتم إلى موضع الدفاء، فلما كبر استفحلتموه، فرزقكم الله منه إبلا سائمة، فلما أدركته هذه السنة الخصبة هممتم بنحره وأكل لحمه، فقالوا: قد والله كان ذلك يا رسول الله، فقال عليه الصّلاة والسلام: «ما هذا جزاء المملوك الصّالح من مواليه»، فقالوا: يا رسول الله، فإنا لا نبيعه ولا ننحره، فقال عليه الصّلاة والسلام: «كذبتم، قد استغاث بكم، فلم تغيثوه، وأنا أولى بالرحمة منكم، فإن الله نزع الرحمة من قلوب المنافقين، وأسكنها في قلوب المؤمنين»، فاشتراه عليه الصّلاة والسلام منهم بمئة درهم، وقال: «يا أيها البعير، انطلق فأنت حر لوجه الله تعالى، فرغى على هامة رسول الله ﷺ، فقال عليه الصّلاة والسلام: «آمين»، =

ومن جملة ما وقع في هذه الغزوة[1] أنّه بينما هم قافلون وراجعون إلى المدينة أبطأ جمل جابر بن عبد الله، فنخسه رسول الله ﷺ ونهره ودعا له بالبركة، فانطلق متقدّماً بين يدي الرّكب، قال جابر: فلقد رابتني أكفُّه عن التقدّم على رسول الله، وهو ينازعني ويتقدّم، ثمّ قال رسول اله ﷺ لجابر «أتبيعني هذا الجمل؟»، قلت: نعم، فابتاعه رسول الله ﷺ ـ أي: اشتراه منه بأربعة دنانير ـ وقال: «ولك ظهره إلى المدينة»، قال جابر: فلما قدمتُ المدينة قال: «يا بلال اقضه وزده»، فأعطاه بلال أربعة دنانير، وزاده قيراطاً، وأعطاه سهمه مع القوم، ثمّ ردَّ عليه البعير بلا عوض[2].

وفي البخاري[3] عن جابر ﷺ قال: غزوت مع النبيّ ﷺ فتلاحق بي النبيّ ﷺ وأنا على ناضح لنا قد أعيا، فلا يكاد يسير فقال: «ما لبعيرك؟»، قال: قلت: عيي، قال: فتخلّف رسول الله ﷺ فزجره ودعا له، فما زال بين يدي الإبل يسير قدّامها، فقال لي: «كيف ترى بعيرك؟»، قلت: بخير قد أصابته بركتك، قال: «أفتبيعه؟»، قال: فاستحييت ولم يكن لنا ناضح غيره، فقلت: نعم، فبعته له على أن لي فقار ظهره حتى أبلغ المدينة، فقلت: يا رسول الله، إني عروس فاستأذنته فأذن لي، فتقدّمت المدينة، وقد كان قال لي رسول الله ﷺ حين استأذنته: «هل تزوجت بكراً أم ثيِّباً؟»، فقلت: ثيِّباً، فقال لي: «هلاّ بكراً تلاعبها وتلاعبك»، قلت: يا رسول الله، توفي والدي ولي أخوات صغار، فكرهتُ أنْ أتزوّج مثلهنّ، فلا تؤدِّبهن ولا تقوم عليهن، فتزوجت ثيِّباً لتؤدبهنّ وتقوم عليهنّ، فلما أتيت المدينة لقيني خالي فسألني عن البعير فأخبرته بما صنعتُ فيه فلامني، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة غدوتُ عليه بالبعير، فأعطاني ثمنه وردَّه عليَّ.

= ثمّ دعا، فقال: «آمين»، ثمّ دعا، فقال: «آمين»، ثمّ دعا الرابعة، فبكى عليه الصّلاة والسلام، فقلنا: يا رسول الله، ما يقول هذا البعير؟، قال: «قال: جزاك الله أيها النبيّ عن الإسلام والقرآن خيراً، فقلت: آمين، ثمّ قال: سكّن الله رعب أمتك يوم القيامة كما سكنت رعبي، فقلت: آمين، ثمّ قال: حقن الله دماء أمتك من أعدائها كما حقنت دمي، فقلت: آمين، ثمّ قال: لا جعل الله بأسها بينها، فبكيت، فإن هذه الخصال سألت ربي فأعطانيها ومنعني هذه، وأخبرني جبريل عن الله تعالى أن فناء أمتي بالسيف، جرى القلم بما هو كائن».. انظر الترغيب والترهيب: (٣/١٤٥).

(١) ووقع نظير ذلك عند عودة النبيّ ﷺ من غزوة تبوك، لكن اشترى رسول الله ﷺ الجمل بثلاثة عشر ديناراً. رواه أحمد في المسند برقم: (١٤٥٢٠)، وأبو يعلى في مسنده برقم: (١٧٩٣).

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٢١٨٥)، ومسلم في صحيحه برقم: (٧١٥).

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٢٨٠٥).

سرية أبي سلمة[1] إلى قَطَن[2]

لما بلغ النبيّ ﷺ أنّ طليحة وسلمة ابني خويلد قد سارا في فئة من قومهما وممن أطاعهما إلى حرب رسول الله ﷺ، أخبره بذلك رجل من طيّ كان قدم المدينة لزيارة أخيه المقيم فيها، فدعا رسول الله ﷺ أبا سلمة المذكور وعقد له لواء، وبعث معه مئة وخمسين رجلاً من الأنصار والمهاجرين، وخرج الرجل المُخبر لهم دليلاً لهم، وقد قال ﷺ لأبي سلمة: «سِرْ حتى تنزل أرض بني أسد فأغِرْ عليهم قبل أنْ تلاقى عليكم جموعهم» فخرج فأغذّ السير ـ أي: أسرع السير ـ ونكّب ـ أي: عدل ـ عن سنن الطريق، وسار بهم ليلاً ونهاراً ليسبق الأخبار، فانتهى إلى ماء من مياههم، فأغار على سَرْح لهم، وأسر ثلاثة من الرعاة وأفلت باقيهم، ففرق أبو سلمة أصحابه ثلاث فرق: فرقة ثبتت معه، وفرقتان أغارتا في طلب النّعم والشاء والرجال، فأصابوا إبلاً وشاء ولم يلقوا أحداً، فانحدر أبو سلمة بذلك كلّه إلى المدينة.

وأخرج صفي[3] رسول الله ﷺ من ذلك عبداً وأخرج الخمس ثمّ قسَّم ما بقي بين أصحابه فأصاب كل إنسان سبعة أبعرة.

وطليحة هذا كان يعدّ بألف فارس قدم عليه ﷺ في بعض الوفود وأسلم، ثمّ ارتد وادّعى النبوّة وتوفي رسول الله ﷺ وهو على دعوته، فقويت شوكته، ثمّ أسلم بعد وفاة أبي بكر، وحسن إسلامه، وحج زمن عمر رضي الله عنه، ولم يعرف لأخيه سلمة إسلام.

بَعْث عبد الله بن أنيس

بلغ رسول الله ﷺ أنّ سفيان[4] قد جمع الجموع لحربه ﷺ فبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن أنيس ليقتله، فقال عبد الله: صفه لي يا رسول الله، فقال ﷺ: «إذا رأيته هِبْتَه وفَرِقْتَ منه، وذكرت الشيطان»، فقال عبد الله: يا رسول الله، كنت لا أهاب

---

(١) هو عبد الله بن عبد الأسد، وهو ابن عمة رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة أرضعتهما ثويبة. مؤلف.

(٢) قطن: جبل ما زال معروفاً على الضفة اليسرى لوادي الرّمة يمر به الطريق من المدينة إلى القصيم، على مسافة ثلاثمئة وثلاثين كيلا من المدينة. انظر المعالم الأثيرة: (٢٢٧).

(٣) قال السهيلي رحمه الله تعالى: وكان أمر الصفيّ أنّه كان عليه الصلاة والسلام إذا غزا في الجيش اختار من الغنية قبل القسم رأساً وضرب له بسهم مع المسلمين، فإذا قعد ولم يخرج مع الجيش ضرب له بسهم ولم يكن له صفيّ. انظر الروض الأنف: (١/٣٦٣).

(٤) هو سفيان بن خالد الهذلي ثمّ اللحياني. مؤلف.

الرجال، وما فرقت من شيء قط، فقال رسول الله ﷺ: «بلى، إنك تجد له قشعريرة إذا رأيته»، قال عبد الله: فاستأذنت رسول الله ﷺ أن أقول ما أتوصل به إليه من الحيلة، فأذن لي، وقال لي: «قل ما بدا لك، وانتسب إلى خزاعة».

قال عبد الله: فسرت حتى إذا كنت ببطن عُرَنة، وهو واد بقرب عرفة لقيته يمشي متوكِّئاً على عصاً يهدُّ الأرض وراءه الأحابيش[1].

قال عبد الله: فلما رأيته عرفته بنعت رسول الله ﷺ لأني هبته وكنت لا أهاب الرجال، فقلت: صدق الله ورسوله، وكان وقت العصر وخشيت أن تكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصّلاة، فصليت وأنا أمشي نحوه أومئ برأسي، فلما انتهيت إليه قال لي: مَنِ الرجل؟، فقلت: رجل من خزاعة، سمعتُ بجمعك لمحمد فجئت لأكون معك، قال: أجل، إني لأجمع له، فمشيت معه ساعة وحدَّثته فاستحلى حديثي، وكان فيما حدثته به أن قلت: عجبت لما أحدث محمد من هذا الدين المحدث فارق الآباء وسفَّه أحلامهم، فقال لي: إنه لم يلق أحداً يشبهني ولا يحسن قتاله، فلمّا انتهى إلى خبائه وتفرَّق عنه أصحابه، قال لي: يا أخا خزاعة هلمَّ، فدنوت منه فقال: اجلس فجلست معه حتى إذا هدأ الناس وناموا، اغتررته فقتلته، وأخذت رأسه، ثمّ دخلت غاراً في الجبل، ونسجت العنكبوت عليَّ، وجاء الطلب فلم يجدوا شيئاً فانصرفوا راجعين، ثمّ خرجت، فكنت أسير الليل وأتوارى النهار حتى قدمت المدينة، فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد فلمّا رآني قال: «أفلح الوجه»، قلت: أفلح وجهك يا رسول الله، فوضعت رأسه بين يديه، وأخبرته خبري، فدفع إليّ عصاً، وقال: «تتخصر بهذه في الجنة» أي: تتوكَّأ عليها.

فكانت تلك العصا عنده، فلمّا حضرته الوفاة أوصى أهله أنْ يدخلوها معه في كفنه، وأنْ يجعلوها بين جلده وكفنه ففعلوا[2].

سرية الرجيع وأثر خبيب

بعث رسول الله ﷺ عشرة ـ وقيل: ستة ـ عيون إلى مكة يتحسسون أخبار قريش ليأتوه بها، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري، ويقال له: ابن أبي الأفلح، ومن

---

(١) الأحابيش: هم أخلاط من النّاس ممن انضمّ إلى سفيان، وسموا بالأحابيش لأنهم تحالفوا بالله عزّوجلّ عند جبل بأسفل مكة اسمه حُبْش أنّهم باليد واحدة على غيرهم ما سجى ليل ووضؤ نهار.

(٢) انظر عيون الأثر: (٢/٥٩).

جملة العشرة عبد الله بن طارق، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، فخرجوا يسيرون ليلاً ويكمنون نهاراً حتى إذا كانوا بالرجيع ـ وهو ماء لهذيل بين مكة وعسفان ـ لحقهم بنو لحيان قوم سفيان بن خالد الهذلي الذي قتله عبد الله بن أنيس وجاء برأسه إلى رسول الله ﷺ كما تقدم، فإنهم ذُكِروا لهم فنفروا إليهم فيما يقرب من مئة رامٍ، فاقتفوا آثارهم حين وجدوا نوى التمر الذي أكلوه في منزل نزلوه[1] فلما أحسوا بهم لجؤوا إلى موضع من جبل هناك ـ أي: صعدوا إليه ـ فأحاطوا بهم، وقالوا لهم: انزلوا ولكم العهد أن لا نقتل منكم أحداً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمَّة ـ أي: عهد وأمان ـ كافر، فرموهم بالنبل، وردّ عاصم بالنَّبل، وهو ينشد أبياتاً، منها:

المـوت حـق والحيـاة باطـل وكـل مـا قـضى الإلـه نـازل

بالمـرء والمـرء إليـه آيـل[2]

ولم يزل يرميهم حتى فنيت نبله، ثمّ طاعَنَهم حتى انكسر رمحه، ثمّ سلَّ سيفه، وقال: اللهم إني حميت دينك صدر النهار فاحمِ لحمي آخره، فاستجاب الله تعالى له، ثمّ إنهم لم يزالوا يرمونه بالنبل، فقتلوا عاصماً وستة منهم، ونزل إليهم من الجبل الذي صعدوا عليه ثلاثة على العهد، وهم خبيب، وزيد، وعبد الله بن طارق، فلمَا أمسكوهم أطلقوا أوتار أقواسهم فربطوا خبيباً وزيداً، وامتنع عبد الله بن طارق، وقال: هذا أوّل الغدر، والله لا أصحبكم، إنّ لي بهؤلاء القتلى أُسوة، فعالجوه فأبى أن يصحبهم فقتلوه.

ولما قتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه من سلافة، وهي أم مسافع وجلاس ابني طلحة بن أبي طلحة بن عبد الدار، فإنّ عاصماً هذا قتل يوم بدر ولديها، فنذرت إنْ قدرت على رأسه لتشربن في قحفه الخمر، ولمن يجيء برأسه مئة ناقة، فلما أرادوا أخذ رأسه حالت الدَّبَر ـ وهي: النحل ـ بينهم وبينه، فقالوا: دعوه حتى يمسي فنأخذه فسال الوادي، واحتمل السّيل عاصماً فذهب به إلى حيث أراد الله، فسُميّ حميَّ الدَّبَر.

ولما سمعت قريش بقتل عاصم بعثوا في طلب جثّته ليمثّلوا بها لأنه قتل عقبة بن

---

(١) وشت بهم امرأة من بني لحيان كانت ترعى غنماً فرأت النوى، فقالت هذا تمر يثرب، فصاحت بقومها: أتيتم، فتبعوها إلى أن وجدوهم في المحل المذكور. مؤلف.

(٢) الشعر من البحر الرجز، وأجزاؤه: مستفعلن مستفعلن مستفعلن.

أبي معيط بعد أن انصرفوا من بدر قتله صبراً أمره النبيّ ﷺ بذلك، فلم يقفوا على موضع جثّته.

ثمّ إنّ هذيلاً بعد قتلهم لعاصم وعبد الله وتلك الستة انطلقوا بخبيب وزيد ودخلوا بهما مكة في شهر ذي القعدة، فباعوهما بأسيرين من هذيل كانا بمكة، وقيل: بيع كلّ واحد منهما بخمسين من الإبل، فابتاع بنو الحارث بن عامر خبيباً، قيل: لأنه قتل الحارث يوم بدر ليقتلوه به، وابتاع زيداً صفوان بن أمية ليقتله بأبيه[1]، فحبسوهما إلى أن تنقضي الأشهر الحرم.

واستعار يوماً خبيب ـ وهو محبوس ـ موسى من بنت الحارث ليستحدّ به حين حضره القتل، فدرج لها ابن صغير، وهي غافلة عنه حتى أتى إلى خبيب، فأجلسه خبيب على فخذه والموسى بيده، فلمّا رأت ابنها على تلك الحالة فزعت فعرف خبيب الفزع في وجهها فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله، فكانت بنت الحارث تقول: والله ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب، والله لقد وجدته يوماً، وقد اطلعت عليه من شق الباب يأكل قطفاً من عنب في يده مثل رأس الرجل، وإنه لموثّق بالحديد، وما بمكة ثمر، ولا أعلم في أرض الله عنباً يُؤكل.

واستُدلّ بقصة خبيب هذه على أنه يستحب لمن أشرف على الموت أن يتعهّد نفسه بتقليم أظفاره وأخذ شعر شاربه وإبطه وعانته.

فلما انقضت الأشهر الحرم بانقضاء ذي الحجة خرجوا بخبيب من الحرم ليقتلوه في الحلّ، فلما قُدِّم للقتل قال لهم: دعوني أصلِّ ركعتين. فتركوه، فركع ركعتين، وقال لهم: والله لولا أن تحسبوا أنّ ما بي جزع من الموت لزدت.

وخرجت النساء والصّبيان والعبيد معه وقت خروجه للقتل، فلما انتهوا به إلى التنعيم، وكانوا أمروا بخشبة طويلة فحفروا لها فلما انتهوا بخبيب إليها صلبوه عليها بعد صلاته الركعتين ليراه الوارد والصّادر فيذهب خبره إلى الأطراف، ثمّ قالوا له وهو على الخشبة: ارجع عن الإسلام نخلِّ سبيلك، وإن لم ترجع لنقتلنَّك، فقال: إنّ قتلي في سبيل الله لقليل.

وكان خبيب ﷺ تحرّك على الخشبة فانقلب وجهه عن القِبْلة فقال: اللهم إنْ كان

---

(١) وصفوان بن أمية أسلم بعد ذلك ﷺ. مؤلف.

لي عندك خير، فحوِّل وجهي نحو قبلتك، فحوَّل الله عزَّ وجلَّ وجهه نحوها، فقال: الحمد لله الذي جعل وجهي نحو قبلته التي رضي لنفسه ولنبيه ﷺ وللمؤمنين.

ودعا عليهم خبيب ﷺ فقال: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ـ أي: متفرقين واحداً بعد واحد ـ ولا تغادر ـ أي: لا تبقي ـ منهم أحداً. وقد قُتِلوا في الخندق متفرّقين.

ولما وضعوا السلاح في خبيب وهو مصلوب نادوه وناشدوه: أتحبّ أن يكون محمد مكانك، فقال ﷺ: لا والله ما أحبّ أن يؤذى بشوكة في قدمه، وقال: اللهم إنه ليس أحد هنا يبلغ رسولك ﷺ عني السلام، فبلغه عني السلام، وبلغه ما يُصنع بنا[1].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان جالساً مع أصحابه فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحي، فسمعناه يقول: «وعليه السلام ورحمة الله وبركاته»، فلما سُري عنه ﷺ قال: «هذا جبريل يقرئني من خبيب السلام، خبيب قتله قريش»[2].

وقد جاء أن المشركين دعوا أربعين ولداً ممن قُتِل آباؤهم يوم بدر فأعطوا كل واحد رمحاً، وقالوا: هذا الذي قتل آباءكم فطعنوه بتلك الرماح حتى قتلوه، وصلبوه على خشبة، ووكّلوا بتلك الخشبة أربعين رجلاً يحرسها، فأرسل ﷺ المقداد والزبير في إنزال خبيب عن خشبته، فجاءاه وقد نام الأربعون بعد سكرهم، فأنزلاه عنها، وذلك بعد أربعين يوماً من صلبه وموته، وحمله الزبير على فرسه وهو رطب لم يتغيَّر منه شيء، فشعر بهما المشركون فتبعوهما فلمّا لحقوا بهما، قذفه الزبير من على الفرس فابتلعته الأرض، ومن ثمّ قيل له: بليع الأرض[3].

وكشف الزبير ﷺ العمامة عن رأسه وقال لهم: أنا الزبير بن العوام وصاحبي المقداد بن الأسود أسدان ربضان يذبّان عن شبلهما، فإن شئتم ناضلتكم، وإن شئتم نازلتكم، وإن شئتم انصرفتم، فانصرفوا عنهما، وقدما على رسول الله ﷺ المدينة، وكان عنده جبريل عليه السلام، فقال جبريل عليه السلام: يا محمد، إنّ الملائكة تباهي بهذين من أصحابك[4] فنزل فيهما: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ

---

(١) انظر البداية والنهاية: (٤/٦٦)، وسيرة ابن هشام: (٤/١٢٧).

(٢) انظر سبل الهدى والرشاد: (٦/٤٤).

(٣) المرجع السابق: (٦/٤٥).

(٤) لم أعثر عليه.

مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ...﴾[1] الآية[2].

وأخرج صفوان بن أمية زيد بن الدثنّة ﷺ إلى الحلِّ مع مولى له ليقتله به، واجتمع عند قتله رهط من قريش، فلما قدِّم زيد للقتل، قال له أبو سفيان: أنشدك الله يا زيد أتحبّ أن محمداً الآن عندنا مكانك تُضْرب عنقه، وأنت في أهلك؟، فقال زيد ﷺ: والله ما أحب أنّ محمداً ﷺ الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحبّ أحداً كحبّ أصحاب محمدٍ محمداً[3].

وأرادوا فتنته عن دينه فلم يزدد إلا إيماناً، ثمّ قتله ذلك المولى، طعنه برمح في صدره حتى أنفذه من ظهره.

وكان خبيب ﷺ هو أول من سنّ لكل مسلم يقتل صبراً الصّلاة، لأنّه لما بلغه ﷺ ما صنع استحسنه.

سرية القرّاء إلى بئر معونة

لما قدم على رسول الله ﷺ أبو براء عامر بن مالك[4] ــ وهو رأس بني عامر، ويقال له: أبو براء ـ بالمدّ ـ وهو عمّ عامر بن الطُّفيل عدوّ الله ـ قال: يا محمّد، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد ـ أي: وهم عامر، وبنو سليم ـ فدعوتهم إلى أمرك رجوتُ أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله ﷺ: «إني أخشى عليهم أهل نجد»، فقال أبو براء: أنا لهم جار، وهم في جواري وعهدي، ابعثهم فليدعوا الناس لأمرك.

وخرج أبو براء إلى ناحية نجد، وأخبرهم أنه قد أجار أصحاب محمّد، فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو ﷺ بثلاثين، وقيل: أربعين، وقيل: سبعين رجلاً، يقال لهم: القرّاء لملازمتهم قراءة القرآن، فكانوا إذا أمسوا اجتمعوا في ناحية المدينة يصلّون ويتدارسون القرآن، فيظنُّ أهلهم أنهم في المسجد ويظنّ أهل المسجد أنهم في أهلهم حتى إذا كان وجه الصّبح استعذبوا من الماء واحتطبوا، وجاؤوا بذلك إلى حِجْر النبيّ ﷺ وبيوت زوجاته، وكانوا يحتطبون في النهار ويشترون به طعاماً لأصحاب الصّفّة،

---

(١) البقرة: ٢٠٧.

(٢) انظر زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي: (١/ ٢٢٠).

(٣) انظر البداية والنهاية: (٤/ ٦٥)، وعيون الأثر: (٢/ ٦٢).

(٤) وهو رأس بني عامر، وهو عمّ عامر بن الطفيل. مؤلف.

وكان فيهم عامر بن فهيرة رضي الله عنه.

وكتب ﷺ لهم كتاباً فأخذوه معهم وساروا رضي الله عنهم حتى نزلوا بئر معونة، وهي بئر بني عامر، فلمّا نزلوا عندها بعثوا حرام بن ملحان ـ وهو خال ابن مالك ـ بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدوّ الله عامر بن الطّفيل لعنه الله ـ وهو ابن أخي عامر بن مالك الذي أجارهم سابقاً ـ فلما أتاه حرَام بالكتاب لم ينظر في كتابه حتى عدا عليه فقتله[١] فجاءه رجل من خلفه فطعنه بالرمح في جنبه حتى نفذ من جنبه الآخر، فقال: الله أكبر نفذت ورب الكعبة، وقال: بالدّم هكذا، فنضحه على وجهه ورأسه، ثمّ استصرخ عليهم ـ أي: استغاث بني عامر ـ فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: إنا لن نخفر بأبي براء[٢] فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم، وهي عصية ورعلا وذكوان والقارة، فأجابوه إلى ذلك، ثمّ خرجوا حتى أحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد، فإنه بقي به رمق، وحُمِل من المعركة فعاش بعد ذلك حتى قُتِل يوم الخندق شهيداً، وإلا عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن محمد بن عقبة الأنصاري كانا في سَرْح القوم.

ولما أحاطوا بهم قالوا: اللهم إنا لا نجد من يبلّغ رسولك منّا السلام غيرك، فأقرئه منّا السلام، فأخبَرَه جبريل عليه السلام بذلك، فقال ﷺ: «وعليهم السلام»[٣].

وفي لفظ: أنهم قالوا أيضاً: اللهم بلّغ عنّا نبيّنا ﷺ أننا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنّا، فلمّا جاءه ﷺ الخبر من السماء بذلك قام فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: «إنّ إخوانكم قد لقوا المشركين وقتلوهم، وإنهم قالوا: اللهم بلّغ... الخ»[٤].

ولم يعرف عمرو بن أمية والمنذر بن محمد ما حلّ بإخوانهم حيث لم يحضرا تلك الوقعة لأنهما كانا في سرح القوم، وما دلّهما على ما حصل إلا الطير تحوم في أفق السماء ثمّ تحطّ، فلمّا رأى عمرو بن أمية الطير على هذه الحال قال: والله، إنّ لهذا الطير لشأناً، فأقبلَ ينظر فإذا القوم في دمائهم، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال المنذر: يا عمرو، ماذا ترى؟؟، فقال عمرو: نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فقال

---

(١) قتلوه بعد أنْ قال لهم: (يا لأهل بئر معونة إنّي رسول رسول الله ﷺ إليكم، فآمِنُوا بالله ورسوله ﷺ). مؤلف.

(٢) أي: لا نزيل خفارته وننقض عهده، وكان أبو براء هذا قد عقد اهم عقداً وجواراً. مؤلف.

(٣) انظر عيون الأثر: (٢/٦٧).

(٤) انظر البداية والنهاية: (٤/٧٢)، وتاريخ الإسلام: (١/٢٢٤).

له الرجل: لكني ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قُتِل فيه المنذر بن عمرو، فأقبلا فلقيا القوم، فقُتِل المنذر وأُسِر عمرو، فأخبرهم أنه من مضر، فأخذه عامر بن الطفيل وجزَّ ناصيته وأعتقه عن رقبة كانت على أمّه.

ولما قتل عامر بن فهيرة رُفِع إلى السماء فلما رأى قاتله ذلك أسلم، وهو جبار ابن سلمى. وروي أنّ الأرض وارته[1].

ويمكن الجمع بأنه بعدما رُفِع نزل إلى الأرض فوارته، فلم ير مع القتلى.

ثمّ إنّ عمرو بن أمية خرج متوجّهاً إلى المدينة وفي الطريق أوى إلى ظلّ فجلس فيه، فأقبل رجلان حتى نزلا عنده، فسألهما فأخبراه أنهما من بني عامر، وفي لفظ: من بني سليم، وكان معهما من رسول الله ﷺ عهد وأمان لم يعلم به عمرو فأمهلهما حتى ناما وعدا عليهما فقتلهما، وهو يرى ـ أي: يظن ـ أنه قد أصاب ثأراً من بني عامر.

فلما قدم عمرو على رسول الله ﷺ أخبره الخبر وأخبره بقتل الرجلين، فقال له النبيّ ﷺ: «لقد قتلت قتيلين لأدينّهما» أي: لأدفعنّ ديتهما، ثمّ قال رسول الله ﷺ: «هذا عمل أبي براء، قد كنتُ لهذا كارهاً متخوِّفاً».

ولما بلغ أبا براء أنّ عامربن الطّفيل ـ ولد أخيه ـ أزال خفارته شقَّ عليه ذلك وشقّ عليه ما أصاب أصحاب رسول الله ﷺ، فعند ذلك حمل ربيعة بن براء على عامر بن الطّفيل ـ الذي هو ابن عمِّه ـ فطعنه بالرمح، فوقع في فخذه، ووقع عن فرسه وقال: أي عامر، إنْ أنا متّ فدمي لعمّي ـ يعني: أبا براء ـ وإنْ عشتُ فسأرى رأيي، ولم يلبث أنْ مات أبو براء ـ ولم يُعْلم له إسلام ـ أسفاً على ما صنع ابن أخيه عامر بن الطفيل من إزالة خفارته.

وعاش عامر بن الطّفيل ولم يمت من هذه الطعنة بل مات بالطاعون بدعائه ﷺ، فعن أنس بن مالك ﷺ أنّه قال: ما رأيت رسول الله ﷺ وَجَد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة، ومكث ﷺ يدعو عليهم ثلاثين صباحاً[2].

وفي رواية الشيخين[3]: قنت ﷺ شهراً ـ أي: متتابعاً ـ يدعو على قاتلي أصحابه

---

(١) انظر عيون الأثر: (٢/٦٧)، وسيرة ابن كثير: (٣/١٣٩).

(٢) حديث أنس ﷺ أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٣٨٦٤)، ومسلم في صحيحه برقم: (٦٧٧)، وأحمد في مسنده برقم: (١٣٢٧٨). ورواه غيرهم.

(٣) البخاري في صحيحه برقم: (٢٨٩٩)، ومسلم في صحيحه برقم: (٦٧٧).

ببئر معونة ـ أي: في الصّلوات الخمس بعد الاعتدال من الركعة الأخيرة.

وفي رواية: أنه ﷺ جمع في الدعاء على الذين أصابوا أصحابه في الموضعين. أي: بئر معونة وأصحابه الذين قتلوا في الرّجيع.

وإنما جمع ﷺ بين الفريقين لأنّ خبر أصحاب الرّجيع وأصحاب معونة جاءه في يوم واحد فدعا عليهم دعاء واحداً.

سرية عمرو بن أمية الضمري وسلمة بن أسلم بن حريش

وقيل بدل حريش جبّار بن صخر[1] إلى أبي سفيان بن حرب بمكة ليقتلاه، وسببها: أنْ أبا سفيان قال لنفر من قريش: ألا أحدٌ يغتال لنا محمداً؟ فإنّه يمشي في الأسواق وحده، فأتاه رجل من الأعراب، وقال له: قد وجدتَ أجمعَ الرجال قلباً، وأشدّهم بطشاً، وأسرعهم عدواً، فإذا أنت قوّيتني خرجتُ إليه حتى أغتاله، فإنّ معي خنجراً كجناح النّسر وأنا عارف بالطريق، فقال له: أنت صاحبنا، فأعطاه بعيراً ونفقة، وقال له: اطو أمرك، فخرج ليلاً إلى أنْ قدم المدينة، ثمّ أقبل يسأل عن رسول الله ﷺ فدُلّ عليه.

وكان في مسجد ابن عبد الأشهل، فعقل راحلته، وأقبل على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «إنّ هذا يريد غدراً، والله حائل بينه وبين ما يريد»، فجاء لينحني على رسول الله ﷺ فجذبه أُسَيْد بن حضير بداخلة إزاره ـ أي: بجانبه من داخل ـ فإذا بالخنجر، فأخذ أسيد يخنقه خنقاً شديداً، فقال رسول الله ﷺ: «اصْدقني»، قال: وأنا آمِن؟، قال ﷺ: «نعم»، فأخبره بأمره، فخلّى عنه رسول الله ﷺ فأسلم، وقال: يا رسول الله، ما كنت أخاف الرّجال، فلمّا رأيتك ذهب عقلي، وضعفت نفسي، ثمّ اطّلعت على ما هممتُ به، فعلمتُ أنك على الحقّ، فجعل رسول الله ﷺ يبتسم.

فعند ذلك بعث ﷺ عمرو بن أمية الضمري وسلمة إلى أبي سفيان بمكة، وذلك بعد قتل خبيب بن عدي وصلبه على الخشبة، ومضى عمرو بن أمية ﷺ ودخل مكة، وصار يطوف بالبيت ليلاً فرآه معاوية بن أبي سفيان، فعرفه فأخبر قريشاً بمكانه، فخافوه لأنه كان فتّاكاً في الجاهلية، وقالوا: لم يأت عمرو بخير، واشتدّوا في طلبه، وفي رواية: لما قدما مكة حبسا جمليهما ببعض الشّعاب ثمّ دخلا ليلاً، فقال صاحبه له: يا عمرو، لو طفنا بالبيت وصلينا ركعتين، ثمّ طلبنا أبا سفيان، فقال له عمرو: إني

---

(١) انظر عيون الأثر: (٢/١٥٨).

أعرَف بمكة من الفرس الأبلق، وإنّ القوم إذا تعشّوا جلسوا على أفنيتهم فيحسّون بنا، فقال: كلا إنْ شاء الله تعالى، فلمّا طفنا وصلينا، وخرجنا نطلب أبا سفيان عُرِف عمرو ابن أمية، قال عمرو: فخرجت أنا وصاحبي وصعدنا الجبل، وخرجوا في طلبنا فدخلنا كهفاً في الجبل، ولقي عمرو رجلاً[1] من قريش فقتله، قال عمرو: فلما أصبحنا غدا رجل من قريش يقود فرساً له، ونحن في الغار، فقلت: لصاحبي إنْ رآنا صاح بنا فخرجت إليه ومعي خنجر أعددته لأبي سفيان فضربته على ثديه، فصاح صيحة أسمع بها أهل مكة، فجاء الناس يشتدّون فوجدوه بآخر رمق، فقالوا له: من ضربك؟، فقال: عمرو بن أمية، وغلبه الموت فمات مكانه، ولم يدلل على مكاننا، فاحتملوه، فقلتُ لصاحبي لما أمسينا: النجاة، فخرجنا ليلاً من مكة نريد المدينة فمررنا بالحرس الذين يحرسون خشبة خبيب بن عدي فقال أحدهم: لولا أنّ عمرو بن أمية بالمدينة لقلت إنه هذا الماشي، فلمّا حاذيت الخشبة شدّيت عليها فاحتملتها واشتديتُ وصاحبي، فخرجوا وراءنا، فألقيتُ الخشبة فغيّبه الله تعالى.

وتقدّم أن الزبير هو من قذفه فابتلعته الأرض. ويمكن الجمع بتعدد الإنزال والابتلاع، وأنّ آخر الإنزالين كان بعد أخذ السيول له.

ويقال: إنّ عمرو بن أمية قتل من أهل مكة رجلاً آخر سمعه يقول:

لست بمسلم ما دمت حيًّا ... ولست أدين دين المسلمين[2]

ولقي رجلين آخرين بعثهما قريش إلى المدينة يتجسَّسان لهم الخبر، فقتل عمرو أحدهما وأسر الآخر، ثمّ قدم المدينة، فجعل يخبر رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ يضحك.

غزوة بدر الأخرى[3]

لما قدم رسول الله ﷺ من غزوة ذات الرّقاع أقام بقيَّة جمادى الأولى إلى آخر رجب، ثمّ خرج في شعبان ـ وقيل: شوال، وقيل: مستهل ذي القعدة ـ كلّ ذلك سنة

---

(١) هو عبيد الله بن مالك.

(٢) البيت من الوافر، وأجزاؤه: مفاعلتن مفاعلتن فعولن.

(٣) ويقال لها: «بدر الموعد، سميت بذلك للوعد الذي ضربه أبو سفيان، حيث قال حين منصرفه من أُحُد: موعد ما بيننا وبينكم بدراً، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب ﷺ قل له: «إنْ شاء الله..»، ينظر البداية والنهاية: (٤/٧١)، وتاريخ الطبري: (٢/٨٠)

أربع، وكان وصوله ﷺ إلى بدر هلال ذي القعدة، وكان ذلك موسماً لبدر كلّ سنة يحضره الناس ويقيمون فيه ثمانية أيام.

وحين خرج ﷺ من المدينة استخلف عليها عبد الله بن عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول رضي الله عنه، وقيل: استخلف عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، وخرج ﷺ في ألف وخمسمئة من أصحابه، وكانت الخيل عشرة أفراس.

وعند تهيؤ المسلمين للخروج قدم نُعَيم بن مسعود الأشجعي مكة قبل إسلامه، وأخبر قريشاً أنّ المسلمين تهيؤوا لقتالهم ببدر، فَكَرِه أبو سفيان الخروج لذلك، وجعل يقول لنُعيم: أنِ ارجع إلى المدينة وخذِّل المسلمين عن الخروج ولك عشرين بعيراً، وقيل: عشرة من الإبل، وحَمَله على بعير، وقال له أبو سفيان: إنه بدا لي أنْ لا أخرج وأكرهُ أن يخرج محمد ولا أخرج أنا، فيزيدهم ذلك جراءة، فلأن يكون الخَلَف من قِبَلهم أحبَّ إليَّ من أن يكون من قِبَلي فالحق بالمدينة، وأعلمهم أنَّا في جمعٍ كثير ولا طاقة لهم بنا، ولك عليَّ من الإبل كذا أدفعها لك على يد سهيل بن عمرو.

فجاء نُعَيم إلى سهيل بن عمرو وقال له: يا أبا يزيد، تضمنُ لي هذه الإبل وأنطلق إلى محمّد وأثبِّطه؟، قال: نعم، فقدم نُعَيم المدينة، وأرجف بكثرة جموع أبي سفيان، وصار يطوف فيهم حتى قذف الرّعب في قلوب المسلمين، ولم يبق لهم نيّة في الخروج.

واستبشر المنافقون واليهود وقالوا: محمد لا يفلت من هذا الجمع، فجاء أبو بكر وعمر إلى النبيّ ﷺ، وقد سمعا ما أرجف به المسلمون، وقالا له: يا رسول الله، إنّ الله مظهر نبيّه ومعزٌّ دينه، وقد وعدنا القوم موعداً لا نحبُّ أن نتخلَّف عنه، فيرون هذا جبناً، لنبرَّ لموعدهم، فوالله إنّ في ذلك لخيراً، فسرَّ رسول الله ﷺ لذلك وقال: «والذي نفسي بيده لأخرجنّ إليهم، وإنْ لم يخرج معي أحد»، فأذهب الله عن أهل المدينة ما كانوا يجدون.

وحمل لواء رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وخرج المسلمون معه بتجارات إلى بدر، فربحوا الضّعف، ثمّ إنّ أبا سفيان قال لقريش: لقد بعثنا نُعيماً ليخذِّل أصحاب محمّد عن الخروج، ولكن نحن نخرج فنسير ليلة أو ليلتين، ثمّ نرجع، فإنْ كان محمّد لم يخرج وبلغه أننا خرجنا فرجعنا، وأنه لم يخرج، كان هذا لنا عليه، وإنْ خرج أظهرنا أن هذا عام جَدْب، ولا يصلحنا إلا عام خصب، قالوا له: نِعمَ ما رأيت.

فخرج أبو سفيان في قريش، وهم ألفان، ومعهم خمسون فرساً حتى انتهوا إلى مجنّة[1] وقيل: انتهوا إلى عسفان، ثمّ قال أبو سفيان: يا معشر قريش لا يصلحكم إلا عام خصب، ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، وإنّ عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا، فرجع الناس.

وصار المسلمون كلمّا سألوا عن قريش قيل لهم: قد جمعوا لكم، فيقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل حتى قيل لهم لما قاربوا من بدر: إنها قد امتلأت من الذين جمعهم أبو سفيان يرعبونهم ويرهبونهم، فيقول المؤمنون: حسبنا الله ونعم الوكيل، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[2].

فلمّا قدموا بدراً لم يجدوا واحداً، ووجدوا أسواقاً قائمة لا ينازعهم فيها أحد، وأقام رسول الله ﷺ على بدر ينتظر أبا سفيان لميعاده مدّة الموسم التي هي ثمانية أيام، فإنه ﷺ انتهى إلى بدر هلال ذي القعدة كما تقدم، وقام السّوق صبيحة الهلال، فأقاموا ثمانية أيام، والسوق قائمة، ثمّ انصرف ﷺ راجعاً إلى المدينة، وبلغ قريشاً خروج المسلمين لبدر وكثرتهم، وأنّهم كانوا أصحاب الموسم، والمخبر لهم بذلك معبد بن أبي معبد الخزاعي، فإنّه بعد انقضاء الموسم خرج سريعاً إلى مكة، وأخبرهم بذلك، فقال صفوان بن أمية لأبي سفيان: قد نهيتك والله أن تَعدَ القوم، وقد اجترؤوا علينا، ورأوا أنا خَلَفْنَاهم، وإنما بلغنا الضعف.

غزوة دُومة الجندل

سميت باسم دُومى بن إسماعيل عليه السلام، لأنه كان نزلها[3]، وهي بلدة بينها وبين دمشق خمس ليال، وهي أقرب بلاد الشام إلى المدينة الشريفة، بينها وبين المدينة خمس عشرة، أو ست عشرة ليلة وهي بقرب تبوك.

---

(١) مَجَنَّة: بالفتح والتشديد، سوق للعرب في الجاهلية، وكانت تقوم عشرة أيام من آخر ذي الحجة، ومجنّة: هذه كانت بمرّ الظهران قرب جبل يقال له: الأصفر بأسفل مكّة على قدر بريد منها. انظر المعالم الأثيرة: (٢٤٠).

(٢) آل عمران: ١٧٣.

(٣) انظر تاريخ الإسلام: (١/ ٣٣٠).

وسببها: أنه ﷺ بلغه أنّ بها جمعاً كثيراً يَظْلمون من مرَّ بهم، وأنّهم يريدون أنْ يدنوا من المدينة فحينئذ ندب رسول الله ﷺ الناس للخروج في ألف من المسلمين، وذلك في أواخر السنة الرابعة من الهجرة، وقيل: كانت في ربيع الأول من السنة الخامسة.

واستخلف ﷺ على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري، فكان ﷺ يسير ليلاً ويكمن نهاراً، ومعه دليل له من بني عُذْرة يقال له: مذكور ﷺ، فلمّا دنا ﷺ منهم جاء إليهم الخبر، فتفرَّقوا، فهجم على ماشيتهم ورعاتهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب.

ونزل ﷺ بساحتهم فلم يلق منهم أحداً، وبعث ﷺ السرايا فرجعت ولم تجد منهم أحداً، ورجعت كلّ سرية بإبل، وأخذ محمد بن مسلمة منهم رجلاً، وجاء به إلى النبيّ ﷺ فسأله رسول الله ﷺ عنهم فقال: هربوا حيث سمعوا أنك أخذت نعمهم، فعرض عليه الإسلام فأسلم.

ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وفي رجوعه صالح عيينة بن حصن[1] أنْ يرعى بينه وبين المدينة ستة وثلاثين ميلاً لأنّ أرضه كانت قد أجدبت، ولما سمن حافره وخفّه، وانتقل إلى أرضه غزا لقاح[2] رسول الله ﷺ بالغابة كما سيأتي، وقيل له: بئس ما صنعت بما جزيت به محمداً ﷺ، أحلَّك أرضه حتى سمن حافرك وخفّك وتفعل معه ذلك؟! فقال: هو حافري، وسمي عيينة لأنه أصابته لقوة فجحظت عيناه، وقد أسلم بعد الفتح وشهد حنيناً والطائف، وكان من المؤلَّفة قلوبهم كما سيأتي.

وكان يقال له: «الأحمق المطاع»[3] كان يتبعه عشرة آلاف قناة، دخل على النبيّ ﷺ بغير إذن وأساء الأدب[4] فصبر النبيّ ﷺ على جفوته، وقال فيه ﷺ: «إنّ شرَّ الناس من يكرمه الناس اتّقاء شرّه».

وقد ارتدَّ عيينة بعد ذلك زمن الصّديق ﷺ، فلحق بطليحة بن خويلد حين تنبَّأ وآمن به، فلمّا هرب طليحة أُسِرَ عيينة أسره خالد بن الوليد، وأرسل به إلى الصّديق في وثاق، فلمّا دخل المدينة صار أولاد المدينة ينخسونه بالحديد، ويضربونه ويقولون

---

(١) واسمه حذيفة بن بدر الفزاري. ينظر الروض الأنف: (١/ ٣٣٢).

(٢) لقاح: جمع لِقحة، وهي ذات اللبن القريبة عهد بالولادة. مؤلف.

(٣) لقبه النبيّ ﷺ بذلك. انظر المرجع السابق.

(٤) قال للنبيّ ﷺ وقد رأى بجانبه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: من هذه الحميراء معك يا محمد؟، فقال النبيّ ﷺ: «هي عائشة بنت أبي بكر»، فقال: طلقها، وأنزل لك عن أمّ البنين. انظر المرجع السابق.

له: أي عدو الله كفرتَ بالله بعد إيمانك، فيقول: والله ما كنت آمنت بـالله طرفـة عـين، فمنَّ عليه الصّديق ﵁، فأسلم، ولم يزل يظهر الإسلام.

غزوة بني المصطلق[1]

لما بلغ النبيّ ﷺ أنّ الحارث بن ضرار سيّد بـن المـصطلق ﵁[2] جمـع لحـرب رسول الله ﷺ من قَدَر على الحرب من قومه ومن العرب، فأرسل رسول الله ﷺ بُرَيْدة بن الحصيب ليَعْلم علم ذلك.

واستأذن بريدة رسول الله ﷺ أن يقـول مـا يـتخلّص بـه مـن شـرِّهم، وإن كـان خلاف الواقع، فأذن له رسول الله ﷺ، فخرج حتى ورد عليهم ورأى جمعهم فقـالوا: مَن الرجل؟، قال: رجل منكم قدمت لما بلغني من جمعكم لهـذا الرجـل، فأسـير في قومي ومن أطاعني فنكون أيدٍ واحدة حتى نستأصله، فقال لـه الحـارث: فـنحن علـى ذلك فعجّل علينا، قال بريدة: أركبُ الآن فآتيكم بجمع كثير من قومي. فسرُّوا بذلك.

ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر القوم، فندب رسول الله ﷺ الناس إليهم، فأسرعوا إلى الخروج، وكان في شعبان لليلتين خلت منه سـنة خمـس مـن الهجـرة، وقيل: ست، وقادوا الخيل وهي ثلاثون فرساً: عشرة للمهاجرين، منها فرسان له ﷺ: اللزاز والظراب، وعشرون للأنصار، واسـتخلف علـى المدينـة زيـد بـن حارثـة ﵁، وقيل: أبا ذر الغفاري، وقيل: غيلة بن عبد الله الليثي.

ويمكن الجمع بأنه استخلف كلّ واحد على أمر من أمورها.

وخرج معه ﷺ خلق كثير من المنافقين لم يكونوا خرجوا في غـزوة قـطّ مثلـها، منهم عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول، وزيد بن الأصلت، ليس لهم رغبة في الجهاد، وإنمـا غرضهم أن يصيبوا من عرض الدنيا مع قرب المسافة.

وسار رسول الله ﷺ حتى بلغ محلًّا نزل به، فأتى رجل مـن بـني عبـد القـيس، فسلَّم على رسول الله ﷺ، فقـال لـه: «أيـن أهلـك؟»، قـال: بالروحـاء، قـال: «أيـن تريد؟»، قال: إياك، جئتُ لأومن بك، وأشهد أنّ مـا جئـت بـه حـقّ، وأقاتـل معـك عدوّك، فقال ﷺ: «الحمد لله الذي هداك للإسلام».

---

(١) بنو المصطلق: هم بطن من خزاعة، ويقال للغـزوة: غـزوة المريـسيع، وهـو مـاء مـن ميـاههم في ناحيـة قديد. مؤلف.

(٢) فإنه أسلم بعد ذلك.

وسئل رسول الله ﷺ: أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله؟، فقال رسول الله ﷺ: «الصّلاة لأوّل وقتها»[1]، فكان بعد ذلك يصلي الصّلاة لأول وقتها.

وأصاب ﷺ عيناً للمشركين كان وجَّهه الحارث ليأتيه بخبر رسول الله ﷺ، فسأله رسول الله ﷺ فلم يذكر من شأنهم شيئاً، فعرض عليه الإسلام فأبى، فأمرَ ﷺ عمر بن الخطاب أنْ يضرب عنقه، فلما بلغ الحارث مسير رسول الله ﷺ، وأنه قتل عينه سيء بذلك، وخاف من معه خوفاً شديداً، وتفرَّق عنه جمع كثير ممن كان معه.

وانتهى رسول الله ﷺ إلى المريسيع، فضُرِبت له ﷺ قبَّة من أدم، وكان معه فيها عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، فتهيَّأ المسلمون للقتال، ودفع ﷺ راية المهاجرين إلى أبي بكر، وقيل: لعمّار بن ياسر، وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة، وأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن يقول لهم: قولوا: لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم، ففعل عمر ذلك، فأبوا، فتراموا بالنبل ساعة.

ثمّ أمر رسول الله ﷺ أنْ يحملوا عليهم فحملوا عليهم حملة رجل واحد، فما أفلت منهم إنسان، وقتل منهم عشرة، وأسر سائرهم الرجال والنساء والذُّرِّيَّة، واستاق المسلمون إبلهم وشياههم، فكانت الإبل ألفي بعير والشياه خمسة آلاف شاة.

واستعمل ﷺ على ذلك مولاه شقران، واسمه صالح، وكان حبشيًّا، وكان السبي مئتي أهل بيت، وقيل: أكثر من سبعمائة، وكانت برَّة بنت الحارث الذي هو سيد بني المصطلق في السبي، وكان شعار المسلمين ـ أي: علامتهم التي يُعرفون بها في ظلمة الليل وعند الاختلاط ـ (يا منصور أمت) تفاؤلاً بأنْ يحصل لهم النصر بعد موت عدوّهم.

وأمر رسول الله ﷺ بالأسارى فكتِّفوا واستعمل عليهم بريدة، ثمّ فرَّق السبي، فصار في أيدي الناس، وبعث ﷺ أبا ثعلبة الطائي إلى المدينة الشريفة بشيراً من المريسيع، وجمع المتاع الذي وجده في رحالهم والسلاح والنعم والشاه، وعدلتِ الجزورُ بعشر من الغنم[2].

ووقعت برّة بنت الحارث في سهم ثابت بن قيس وابن عمّ له، فخلُص ثابت ببرّة لنفسه من ابن عمه، ودفع له بدل نصيبه منها نخلات كانت لثابت في المدينة، ثمّ

(١) انظر هذا وما بعده في سبل الهدى والرشاد: (٤/٣٤٤).

(٢) أي: عدلت الجزور بعشر من الغنم، فمن أخذ جزوراً فكأنّما أخذ عشر شياه.

كاتبها ثابت على تسع أواق من ذهب، فقدمت على النبيّ ﷺ وطلبت منه ﷺ أنْ يعينها على فكاكها، فقال رسول الله ﷺ: «أؤدي عنك كتابك وأتزوَّجك»، قالت: نعم يا رسول الله، قد فعلت.

فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت بن قيس فطلبها منه، فقال ثابت: هي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي، فأدَّى رسول الله ﷺ ما كان كاتبها ثابت عليه، وتزوَّجها رسول الله ﷺ وهي بنت عشرين سنة، وسمَّاها جويرية.

ولما رأى المسلمون أنه ﷺ تزوَّج جويرية قالوا في حقِّ بني المصطلق: أصهار النبيّ، فأعتقوا ما بأيديهم ممن بقي بعد الفداء من قومهم لهم.

قالت عائشة رضي الله عنها: لا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها من جويرية، أُعتق بتزوّجها لرسول الله ﷺ مئة بيت[1].

قالت جويرية رضي الله عنها: لما أعتقني رسول الله ﷺ وتزوَّجني، والله ما كلَّمته في قومي ـ أي: فيمن بقي منهم بعد الفداء ـ حتى كان المسلمون هم الذين أرسلوهم، وما شعرت إلا بجارية من بنات عمّي تخبرني الخبر فحمدت الله تعالى[2].

وقيل في حقها: ما عُرفت امرأة هي أيمن على قومها منها.

وذكرت جويرية أنها قبل قدومه ﷺ بثلاث ليال رأت كأنّ القمر يسير من يثرب حتى وقع في حجرها، قالت: فكرهت أنْ أخبر بها أحداً من الناس، قالت: فلما أتانا رسول الله ﷺ ونحن على المريسيع سمعت أبي يقول: أتانا ما لا قِبَل لنا به، فلبثت أرى من الناس والخيل والسلاح ما لا أصفه من الكثرة، وقال رجل ممن أسلم لنا: نرى رجالاً بيضاً على خيل بلق[3].

ولما أعتقها رسول الله ﷺ وتزوَّجها قدم أبوها في فدائها، فلمّا كان بالعقيق نظر إلى إبله التي فدى بها ابنته، فرغب في بعيرين منها كانا من أفضلها فعقبّهما ـ أي: تركهما ـ في شعب من شعاب العقيق، ثمّ أقبل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمّد، أصبتم ابنتي كريمة لا تُسْبَى، وهذا فداؤها، فقال له رسول الله ﷺ: «فأين البعيران

(١) رواه أبو دواد في سننه برقم: (٣٩٣١)، وأحمد في المسند برقم: (٢٦٤٠٨)، وابن حبان في صحيحه برقم: (٤٠٥٤). ورواه غيرهم.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك برقم: (٦٧٨١).

(٣) انظر تاريخ الإسلام: (١/ ٢٣٠).

اللذان عقّبتهما بالعقيق في شعب كذا وكذا؟»، فقال الحارث: أشهد أنك رسول الله ﷺ، ما اطّلع على ذلك إلا الله، وأسلم في الحال، وأسلم معه ابناه وناس من قومه، فأمره رسول الله ﷺ أن يخبرها فقال: أحسنتَ وأجملتَ يا رسول الله، فقال لها أبوها: يا بنيّة لا تفضحي قومك، فقالت: اخترت الله ورسوله ﷺ[1].

وفي هذه الوقعة قُتِل عشرة من المشركين، ولم يُقْتَل من المسلمين إلا هشام بن صبابة قتله رجل من الأنصار خطأً يظنّه من المشركين، فقدم أخوه من مكة على رسول الله ﷺ مظهراً الإسلام، وقال: جئتُ أطلب دية أخي، فأمر له رسول الله ﷺ بدية أخيه، فأخذها مئة من الإبل، ثمّ أقام عند رسول الله ﷺ غير كثير، ثمّ عدا على قاتل أخيه، فقتله، ثمّ خرج إلى مكة مرتداً، ويوم فتح مكة أهدر رسول الله ﷺ دمه، فقُتِل في ذلك اليوم.

ثمّ بعد ذلك أسلم بنو المصطلق، ولما انقضت الوقعة اختصم أجيرٌ لعمر بن الخطاب يقال له: جهجاه رضي الله عنه مع رجل من حلفاء الخزرج حليف ابن أُبَيٍّ ابن سلول المنافق يقال له: سنان رضي الله عنه، اختلفا على الماء، أيُّهما يستقي أوّلاً، فضرب أجير عمر رضي الله عنه سناناً فسال منه الدم، فنادى: يا للخزرج ـ لأنه منهم ـ ونادى جهجاه: يا لكنانة يا لقريش، فاجتمع جمع من الفريقين، وشهروا السّلاح حتى كادت أن تكون فتنة عظيمة، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟»، فأُخبر بالحال، فقال ﷺ: «دعوها ـ أي: تلك الكلمة، وهي يا لفلان ـ فإنها منتنة»[2]. أي: مذمومة لأنها من دعوى الجاهلية.

ثمّ كلّموا ذلك المضروب، فترك حقَّه وسكنت الفتنة، وعند تخاصمهما غضب ابن أُبَيٍّ، وكان عنده من الخزرج منافقون فيهم زيد بن الأرقم، وهو غلام حديث السنِّ، فقال عبد الله بن أُبَيٍّ: والله ما رأيت كاليوم مذلَّة، أَوَقد فعلوها، نافرونا ـ أي: غلبونا ـ وكاثرونا في بلادنا، وأنكرونا ملّتنا، كما قال الأقدمون: سمِّن كلبك يأكلك، واجع كلبك يتبعك، والله إني ظننت أني سأموت قبل أن أسمع هاتفاً يهتف بما سمعت، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلّ ـ يعني بالأعزّ نفسه وبالأذلّ النبيّ ﷺ ـ ثمّ قال لمن حضر عنده: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموه بلادكم

---

(١) انظر سيرة ابن هشام: (٤/٢٥٧)

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٤٦٢٢)، ومسلم في صحيحه برقم: (٢٥٨٤). ورواه غيرهما.

وقاسمتموه أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم، ثمّ لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا فقتلتم دونه ـ يعني النبيّ ﷺ ـ فاستيتم أولادكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضُّوا من حول محمّد ـ ﷺ ـ فسمع ذلك زيد بن الأرقم رضي الله عنه فأخبر به النبيّ ﷺ وعنده عمر بن الخطاب ونفر من المهاجرين والأنصار.

وفي صحيح البخاري[1]، عن زيد بن الأرقم أنه قال: ذكرت ذلك لعمّي أو لعمر، فذكره للنبيّ ﷺ فدعاني فحدّثته فكره رسول الله ﷺ ذلك وتغيَّر وجهه، وقال له: «يا غلام، فلعلك غضبت عليه؟»، قال: والله يا رسول الله، لقد سمعته، فقال من حضر من الأنصار: لعله أخطأ السمع، ولاموا زيداً، وقالوا: عمدت إلى سيّد قومك تقول عليه ما لم يُقَل، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قطّ وجلست في الخباء، فقال لي عمر: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك، فقلت: والله لقد سمعت ما قال، ولو سمعت هذه المقالة من أبي لنقلتها إلى رسول الله ﷺ، وإني لأرجو أن ينزل الله على نبيه ﷺ ما يصدِّق حديثي.

وكان زيد لما سمع الحديث من ابن أُبَيٍّ قال له: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزّ منها الأذلّ، أنت والله الذّليل المنقّص في قومك، ومحمّد في عزّ من الرحمن وقوة من المسلمين، فقال ابن أُبَيٍّ: اسكت، فإنما كنتُ ألعب.

وعند تغيُّر وجه ﷺ بسبب الخبر قال عمر رضي الله عنه: جئت رسول الله ﷺ وهو في فيء شجرة عنده غُلَيم أسود يغمز ظهره ـ أي: يلبسه ـ فقلت: يا رسول الله، كأنك تشتكي ظهرك؟، فقال لي: «تقحَّمت بي الناقة ـ أي: ألقتني ـ الليلة»، فقلت: يا رسول الله، ائذن لي أن أضرب ابن أُبَيٍّ، أو اؤمر محمّد بن مسلمة يقتله، فقال رسول الله ﷺ: «كيف يا عمر إذا تحدَّث الناس بأنّ محمّداً يقتل أصحابه؟؟».

ولما شاع الخبر ولم يكن للناس في ذلك الوقت حديث إلا ذلك أذن ﷺ بالرّحيل، وكانت ساعة شدَّة الحرِّ لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها لشدَّة الحرِّ، فارتحل الناس، وسار رسول الله ﷺ فجاءه أسيد بن حضير فحيَّاه بتحيَّة النبوة وسلَّم عليه ـ أي قال: السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته ـ وقال: يا نبي الله، والله لقد رحلت في ساعة منكرة، ما كنت ترحل في مثلها ـ أي: فإنه ﷺ كان لا يرحل إلى أن يبرد الوقت ـ فقال له رسول الله ﷺ: «أما بلغك ما قال صاحبك؟»، فقال: أيُّ

(١) انظر الحديث فيه برقم: (٤٥٢٤).

صاحب يا رسول الله؟، فقال: «عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول»، قال: وما قال يا رسول الله؟، قال: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزُّ منها الأذلّ»، قال: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إنْ شئت، هو والله الذّليل وأنت العزيز، ثمّ قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنَّ قومه لينظمون له الخرز ليتوِّجوه ما بقيت عليهم من الخرز إلا خرزة واحدة عند يوشع اليهودي، فإنه ليرى أنك سلبته ملكاً بمجيئك إلينا[1].

ثمّ سار ﷺ بالناس يومهم ذلك وليلتهم سيراً حثيثاً، وصَدْرَ اليوم الثاني حتى آذتهم الشمس، ثمّ نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نائمين، وإنما فعل ﷺ ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من ابن أُبَيٍّ ابن سلول.

وذهب بعض الأنصار إلى ابن أُبَيٍّ ابن سلول فقالوا له: يا أبا الحباب، إن كنت قلت ما نقل عنك فأخبر النبيّ ﷺ فليستغفر لك ولا تجحده فينزل فيك ما يكذِّبك، وإن كنت لم تقله فائت رسول الله ﷺ فاعتذر له واحلف له ما قلت شيئاً، فحلف بالله العظيم ما قال من ذلك شيئاً.

ثمّ مشى إلى رسول الله ﷺ بعد أن دعاه ﷺ وسأله عن صحَّة الخبر، فقال له رسول الله ﷺ: «يا ابن أبيّ إنْ كان سبق منك مقالة فتب» فجعل يحلف بالله ما قلت ما قاله زيد عني وما تكلَّمت به، فقالت الأنصار: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام أوهم في حدثيه ولم يحفظ ما قال الرجل، وفي لفظ: أنهم قالوا: يا رسول الله شيخنا وكبيرنا لا تصدق عليه كلام غلام.

ثمّ إن عبد الله ؓ ولد عبد الله بن أُبَيّ لما بلغه مقالة عمر بن الخطاب مِنْ قَتْل أبيه جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبَيٍّ ـ يعني والده فيما بلغك عنه ـ فإنْ كنت فاعلاً فمُرْني أن أحمل لك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبرّ بوالده مني، إني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال ﷺ: «ما أردت قتله، ولنحسن صحبته ما كان بين ظهرنا».

وقد اتفق بعد هذه الواقعة أنّ النبيّ ﷺ مرَّ بعبد الله بن أبيٍّ فقال ابن أُبَيّ: لقد عتا ابن أبي كبشة في هذه البلاد ـ أي: تمكّن محمد ﷺ فيها ـ فسمعها منه ابنه عبد الله ؓ

(١) انظر تاريخ الطبري: (٢/١٠٩)، وعيون الأثر: (٢/١٣٤).

فأخبر بها النبيّ ﷺ، وقال: ائذن لي يا رسول الله حتى آتيك برأسه، فقال له ﷺ: «لا، ولكن برَّ أباك»[1].

ولما وصل النبيّ ﷺ لمكان بقرب المدينة هبَّت ريح شديدة تخوَّفوها كادت تدفن الراكب ـ أي: خافوا أن تكون لأمر حدث على أهليهم بالمدينة من عيينة بن حصين ـ فحينئذ قال ﷺ: «لا تخافوها فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار»، فمات في ذلك اليوم بالمدينة زيد بن رفاعة بن التابوت، وكان كهفاً للمنافقين، كان من عظماء يهود بني قينقاع، كان ممن أسلم ظاهراً، وهو منافق[2]. وقال المصنف يشير إلى هذا الحادثة:

وقد عصفت ريح فأخبرتَ أنها　　لموت عظيم في اليهود بطيبة

وعند ذلك قال عبادة بن الصّامت لابن أُبَيّ: يا أبا الحباب مات خليلك، قال: أيُّ خليل؟، قال: من موته فتح للإسلام وأهله، فقال له: ومن هو؟، قال: زيد بن رفاعة، قال: وا ويلاه، من أخبرك يا أبا الوليد بموته؟، فقال له: أخبرنا رسول الله ﷺ أنه مات الساعة فحزن ابن أُبَيّ عليه حزناً شديداً. وذكر أهل المدينة أن هذه الريح وجدت عند موته، فلما دفن سكنت.

وفقدت ناقة رسول الله ﷺ القصواء من بين الإبل ليلاً فجعل المسلمون يطلبونها من كلّ وجه فلم يجدوها، فقال زيد بن اللصيت، وكان منافقاً من بني قينقاع، وكان في مجمع من الأنصار: يزعم أنّه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين مكان ناقته، فقالت الأنصار: قاتلك الله يا عدوَّ الله نافقت وأرادوا قتله فهرب إلى رسول الله ﷺ متعوِّذاً به ـ أي: ملتجأً إليه ـ فقال رسول الله ﷺ: «إن قائلا قال : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله ما أعلم إلا ما علّمني ربي، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها».

فذهبوا فأتوا بها من حيث قال ﷺ، فقام ذلك الرجل سريعاً إلى رفقائه فقالوا له حين دنا: لا تدن منَّا، فقال لهم: أنشدكم الله، هل أتى أحد منكم محمداً ﷺ فأخبره خبري، فقالوا: لا والله ولا قمنا من مجلسنا، فقال: إني وجدت ما تكلّمت به عنده، فأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ، كأني لم أسلم إلا اليوم، فقالوا له: فاذهب إلى

(١) انظر الروض الأنف: (١/٣٤٨).

(٢) انظر البداية والنهاية: (٤/١٥٨)، وتاريخ الطبري: (٢/١١٠)..

رسول الله ﷺ ليستغفر لك، فذهب إليه واعترف بذنبه واستغفر له رسول الله ﷺ، ولم يزل فشلاً ـ أي: جباناً ـ حتى مات[1]. وقد وقع مثل هبوب الريح وإضلال الناقة في غزوة تبوك[2].

ثمّ لما انتهى رسول الله ﷺ إلى وادي العقيق تقدَّم عبد الله بن عبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول، وجعل يتصفَّح الركاب حتى مرَّ أبوه فأناخ به، ثمّ وطئ على يد راحلته فقال له أبوه: ما تريد يا لكع؟، فقال: والله لا تدخل المدينة حتى تقرّ أنّك أنت الذليل وأنّ رسول الله ﷺ هو العزيز، وحتى يأذن لك رسول الله ﷺ، لتعلم الأعزّ من الأذلّ، فصار يقول: لأنا أذلّ من الصّبيان، لأنا أذلّ من النّسوان، حتى جاء رسول الله ﷺ فقال له: «خلِّ عن أبيك» فخلَّى عنه[3].

وفي رواية، قال له ابنه: لئن تقر بما ذُكر لأضربنَّ عنقك فقال: ويحك أفاعل أنت؟، قال: نعم، قال: أشهد أن العزَّة لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، فقال رسول الله ﷺ لابنه: «جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيراً»[4].

وأنزل الله تعالى سورة المنافقين، قال زيد بن أرقم: فلما سرِّي عنه ﷺ الوحي أخذ بأذني وأنا على راحلتي يرفعني حتى ارتفعت عن مقعدي وهو يقول: «وعت أذنك يا غلام وصدَّق الله حديثك وكذب المنافقين»، ونزل: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾[5] فكان يقال لزيد بن أرقم: ذو الأذن الواعية.

وصار قوم ابن أُبيٍّ يعاتبونه ويبغضوه، فقال ﷺ لعمر: «لو قتلته يوم قلت لأرعدت له أنوف، ولو أمرتها اليوم بقتله لقَتَلَتْه»، فقال عمر: قد والله علمتُ لَأَمْرُ رسول الله ﷺ أعظمُ بركة من أمري.

ولما نزلت سورة المنافقين قال قوم ابن أُبيٍّ لأبيّ: اذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك فلوَّى رأسه، ثمّ قال: أمرتموني أن أؤمن فآمنت، وأمرتموني أن أعطيَ زكاة مالي فقد أعطيت، فما كان إلا أن أسجد لمحمّد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ

---

(١) انظر البداية والنهاية: (٣/٢٤٠)، وعيون االأثر: (١/٢٣٥).

(٢) انظر تاريخ الطبري: (٢/١٨٤)، وتاريخ الإسلام: (١/٣٤٠).

(٣) انظر سبل الهدى والرشاد: (٤/٣٥٢).

(٤) لم أعثر على هذه الرواية.

(٥) الحاقة: ١٢.

﴿تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ...﴾[1] الآية.

وقدم رسول الله ﷺ المدينة هلال رمضان، فكانت غيبته ﷺ ثمانية وعشرين ليلة، وكانت قصة الإفك وقعت في هذه الغزوة قبل وصوله ﷺ المدينة بأيام قليلة، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه فأيّتهن خرج سهمها خرج بها معه ﷺ، فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج سهمي فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما نزلت آية الحجاب، فأنا أُحْمل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ـ أي: رجع ـ فلمّا دنونا من المدينة قافلين آذن رسول الله ﷺ بالرّحيل ليلة فقمت حين آذنوا بالرّحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلمّا قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فتلمّست صدري فإذا عقد لي من جزع أظفار[2]، قد انقطع فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه ـ أي: التفتيش عنه ـ قالت: وأقبل الرّهط الذين كانوا يُرحِلُون لي فاحتملوا هودجي فرحّلوه على بعيري الذي كنت ركبت عليه وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهنَّ اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام ـ أي: القليل منه ـ فلم يستنكر القوم خفّة الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السنّ فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعدما سافر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فأممت منزلي الذي كنت فيه فظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ، فينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناي فنمت.

وكان صفوان بن المعطّل السلمي ثمّ الذكواني من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني وكان يراني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه[3]، فخمّرت وجهي بجلبابي، والله ما كلّمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير ترجيعه حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين[4] في نحر الظهيرة فهلك من هلك، وكان الذي تولّى الإفك عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين

---

(١) المنافقون: ٥.

(٢) جزع أظفار: خرز في سواده بياض كالعروق نسبة إلى بلدة باليمن يؤتى به منها.

(٣) الاسترجاع: هو قول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٤) المراد: أنهم نزلوا في وقت الحرّ الشديد.

قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك وأنا أشعر بشيء من ذلك، والذي يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيسلم ثمّ يقول: «كيف تيكم؟»، ثمّ ينصرف فذلك الذي يريبني، ولا أشعر بالشرّ، حتى خرجت بعدما نقهت ـ أي: شفيت ـ فخرجتْ معي أم مسطح قِبَلَ المناصع وهو متبرزنا ـ أي: مكان قضاء الحاجة ـ وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمرُ العرب الأُوَل في التبرز قِبَل الغائط، وكنا نتأذى بالكنف أنْ نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح ـ وهي بنت أبي رُهم ابن عبد المطلب بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصّديق، وابنها مسطح بن أثاثة ـ فأقبلت أنا وأم مسطح قِبَل بيتي قد فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلتِ، أتسبِّين رجلاً شهد بدراً؟!!، قالت: أي هنتاه[1]، أو لم تسمعي ما قال؟، قالت: قلت: وما قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، قالت: فازددت مرضاً على مرضي فلمّا رجعت إلى بيتي، ودخل عليَّ رسول الله ﷺ فسلّم ثمّ قال: «كيف تيكم؟»، فقلت: أتأذن أن آتي أبوي، وأنا أريد أن استيقن الخبر من قبلهما، قالت: فأذن رسول الله ﷺ فأتيتُ أبويّ، فقلت لأمي: يا أماه، ما يتحدَّث الناس؟، فقالت: يا بنية، هوّني عليك، فوالله لقلَّما كانت امرأة قطّ وضيئة عند رجل يحبّها، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت عائشة: فقلت: سبحان الله، أولقد تحدّث الناس بهذا؟!، قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثمّ أصبحت أبكي، ودعا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد يستشيرهما حين أبطأ عليه الوحي في فراق أهله، ، قالت: فأما أسامة، فأشار عليه بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم من ودٍّ في نفسه ﷺ، فقال: يا رسول الله، أهلك وما نعلم والله إلا خيراً، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله ﷺ لم يضيِّق الله عليك، والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك، فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: «يا بريرة هل رأيت فيها شيئاً يريبك؟»، فقالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق إنْ ـ أي:

---

(١) هذه اللفظة تختص بالنداء، ومعناها: يا هذه، وقيل: يا امرأة، وقيل: يا بلهاء، كأنها نسبت إلى قلة المعرفة بمكايد الناس وشرورهم.

ما ـ رأيت منها أمراً أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السنِّ تنام عن العجين فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبيّ ابن سلول، قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي»، فقام سعد بن معاذ الأنصاري ﷺ فقال: يا رسول الله، أنا والله أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحميَّة، فقال لسعد بن معاذ: كذبتَ لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله، أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تُضْرب أعناقهم، فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال: كذبتَ لعمر الله، والله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيَّان الأوس والخزرج حتى همُّوا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ على المنبر، فلم يزل ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، وسكت رسول الله ﷺ قالت: فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، فأصبح عندي أبواي، وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع، حتى أظن أنّ البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت عليَّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها فجلست تبكي معي، قالت: فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلَّم، ثمّ جلس قالت: ولم يجلس عندي من يوم قيل فيَّ ما قيل قبلها، وقد مكث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء قالت: فتشهّد رسول الله ﷺ حين جلس ثمّ قال: «أما بعد: يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه، فإنّ العبد إذا اعترف بذنبه، ثمّ تاب إلى الله عزَّ وجلَّ تاب الله عليه»، قالت: فلمّا قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحسّ منه بقطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فيما قال، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ فيما قال، قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت: فقلت ـ وأنا جارية حديثة السنِّ لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث الذي تحدَّث به الناس حتى استقر في أنفسكم وصدّقتم به، فإن قلتُ لكم: إني بريئة ـ والله يعلم أني لبريئة ـ لا تصدقونني بذلك،

ولئن اعترفت لكم بأمر ـ والله يعلم أني منه لبريئة ـ لتصدقنّي، والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾(١)، قالت: ثمّ تحوَّلتُ فاضطجعت على فراشي، وأنا أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أنّ الله عزَّ وجلَّ ينزل في شأني وحياً يتلى، لَشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلّم الله فيَّ بالقرآن بأمر، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل الله عليه الوحي فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء(٢) حتى إنّه ليتحدَّر منه مثل الجُمان من العرق، وهو في يوم شاتٍ من ثقل القول الذي ينزل عليه، قالت: فلما سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكان أول كلمة تكلَّم بها أن قال لي: «يا عائشة احمدي الله فقد برّأك الله»، فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله ﷺ، فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ...﴾(٣) العشر كلها.

فلما أنزل الله عزَّ وجلَّ هذا في براءتي قال أبو بكر الصّديق ﷺ ـ وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعدما قال عن عائشة ما قال، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٤) فقال أبو بكر ﷺ: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري، فيقول: «يا زينب، ماذا علمتِ أو رأيتِ»، فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من الأزواج(٥)

---

(١) يوسف: ١٨.

(٢) البرحاء: شدّة الكرب.

(٣) النور: ١١.

(٤) النور: ٢٢.

(٥) أي: تضاهيني بجمالها ومكانتها عند النبيّ ﷺ، من السمُوّ: وهو العلو والارتفاع..

فعصمها[1] الله بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك[2].

ولما نزلت آيات الإفك خرج رسول الله ﷺ وتلى الآيات بعد خطبة خطبها، وأمر بجلد أصحاب الإفك ثمانين جلدة، فجلدت حمنة بنت جحش وأخوها مسطح، ولم يجلد ابن أُبَيٍّ المنافق لأنه كان لا يأتي بذلك على أنه من عند نفسه وإنما يقوله نقلاً عن غيره، وقيل: جلد مرتين في مجلس واحد.

وكان ممن خاض حسان بن ثابت ولم يثبت جَلْده، نعم عوقب بالعمى في آخر عمره.

واتَّفق بعد هذه الغزوة في غزوة أخرى[3] أن عائشة رضي الله عنها فقدت عقدها ثانياً والجيش سائر فلم تطلبه بنفسها وإنما أعلمت به رسول الله ﷺ، فأرسل ﷺ فوقف الجيش، وأرسل رسول الله ﷺ رجلين في طلبه أحدهما أسيد بن حضير، فحضرت الصّلاة ـ أي: صلاة الصّبح ـ وكانوا على غير ماء، وليس معهم ماء، فشكى الناس لأبي بكر ما نزل بهم، فجاء إليها ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذها، وقد نام ﷺ، فقال لها أبو بكر: قد حبست رسول الله ﷺ والناسَ، وليسوا على ماء، وصار يطعنها في خاصرتها، ويقول لها: يا بنيّة كل سَفْرة تكونين علينا عناء وبلاء، ولم تتحرّك خوفَ أن توقظ النبيّ ﷺ حتى استيقظ ﷺ بنفسه، وحضرت صلاة الصّبح، فالتمس الماء فلم يوجد، فأنزل الله تعالى آية التيمم، فقال أبو بكر: والله يا بُنَيَّة إنك كما علمتُ مباركة، وقال لها رسول الله ﷺ: «ما أعظم بركة قلادتك».

وقال أسيد بن حضير: ما هذا بأوّل بركتكم يا آل أبي بكر، جزاكِ الله خيراً فما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله منه فرجاً للمسلمين، يا آل أبي بكر، ما أنتم إلا بركة للمسلمين.

قالت عائشة رضي الله عنها وعن أبويها وإخوتها وجدّها وجدّتها: فأقمنا البعير الذي كنتُ عليه من مبركه، فوجدنا العقد تحته.

---

(١) أي: حفظها ومنعها من الخوض في الباطل.

(٢) حديث الإفك رواه البخاري في صحيحه برقم: (٣٩١٠)، ومسلم في صحيحه برقم: (٢٧٧٠)، وأبو داود في سننه برقم: (٣٢٠)، والنسائي برقم: (٣١٤). ورواه غيرهم.

(٣) قال في سبل الهدى والرشاد: جزم محمد بن حبيب الأخباري في تعدد سقوط العقد، سقط في غزوة ذات الرقاع وفي غزوة بني المصطلق. انظر سبل الهدى والرشاد: (١٢/٦١).

وفي هذه السنة (الخامسة) خسف القمر فصلَّى رسول الله ﷺ بأصحابه صلاة الخسوف حتى انجلى القمر، وصارت اليهود تضرب بالطاس ويقولون سحر القمر.

فما يفعله الناس حين يخسف القمر من ضرب الطاس وغيره بدعة لا أصل له.

غزوة الخندق[1]

لما وقع الجلاء لبني النّضير من أماكنهم كما تقدّم، سار منهم جمع من كبرائهم، منهم سيّدهم حييّ بن أخطب، أبو صفية أم المؤمنين رضي الله عنها، وعظيمهم سلام بن مشكم، ورئيسهم كنانة بن أبي الحقيق، وهَوْذَةُ بن قيس، وأبو عامر الفاسق.

وذهب معهم رؤساء خيبر فكان المجموع سبعين راكباً إلى أن قدموا مكة على قريش يدعونهم ويحرّضونهم على حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنَّا سنكون معكم حتى نستأصله ونكون معكم على عداوته قال أبو سفيان: مرحباً وأهلاً، أحبّ الناس منَّا من أعاننا على عداوة محمّد، ولكن لا نأمنكم إلا إنْ سجدتم لآلهتنا حتى نطمئنّ لكم ففعلوا ذلك، فقالت قريش: يا معشر اليهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم، أدينُنا خيرٌ أم دين محمّد، أنحن أهدى سبيلاً أم محمد؟، فقالوا: أنتم أهدى سبيلاً، لأنكم تعظّمون هذا البيت وتقومون على السقاية وتعبدون ما كان يعبد آباؤكم فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾[2].

وعند ذلك خرج من بطون قريش خمسون رجلاً وتحالفوا معهم وألصقوا أكبادهم بالكعبة متعلّقين بأستارها أن لا يخذل بعضهم بعضاً ويكونوا كلّهم يداً واحدة على محمّد ما بقي منهم رجل واحد، ثمّ إنّ أولئك اليهود جاؤوا إلى غطفان ودعوهم وحرّضوهم على حرب رسول الله ﷺ، وقالوا لهم: إنا سنكون معكم وإنّ قريشاً قد بايعوهم على ذلك وجعلوا لهم تمر خيبر سنة إنْ نصروهم عليه فتجهَّزت قريش ومن تبعها من القبائل، وغطفان ومن تبعها، وقائد قريش أبو سفيان بن حرب كان معه أربعة آلاف وثلاثمئة فرس، وألف وخمسمئة بعير، وعقدوا اللواء بدار الندوة، وحمله

---

(١) ويقال لها غزوة الأحزاب، وهي الغزوة التي ابتلى الله بها عباده المؤمنين وثبّت الإيمان في قلوب أوليائه المتقين وأظهر ما كان يبطنه أهل النفاق. مؤلف.

(٢) النساء: ٥١.

عثمان بن طلحة رضي الله عنه[1] وقائد غطفان عيينة بن حصن الفزاري في بني فزارة وهم ألـف، وقائد بني مرة وهم أربعمئة الحارث بن عوف المرّي ـ وأسلم بعد ذلـك ـ وقائـد بـني أشجع مسعود بن رخيلة ـ وأسلم بعد ذلك ـ وقائد بني سليم وهم سبعمئة سـفيان بـن عبد شمس، ولا يُعلم له إسلام، وقائد بني أسد طليحة بن خويلد الأسـدي ـ وأسـلم بعد ذلك ـ وكان القوم الذين وافوا الخندق من قريش وأشجع وأسـد وسـليم وغطفـان عشرة آلاف، وأبو سفيان قائد الجميع ومدبّرهم والقائم بشأنهم.

ولما تهيَّأت قريش للخروج أتى ركب مـن خزاعـة في أربـع ليـال حـتى أخـبروا رسول الله ﷺ بما أجمعوا عليه فعند ذلك ندب ﷺ النـاس ـ أي: دعـاهم ـ وأخـبرهم خبر عدوّهم وشاورهم في أمرهم[2] فأشير عليه ﷺ بالخندق أشار به سـلمان الفارسـي رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، إنّا كنّـا بـأرض فـارس إذا تخوَّفنـا الخيـل ـ وفي روايـة: إذا حوصرنا خندقنا علينا ـ فإنّ ذلك من مكائد الفرس ومعه عدّة من الأنصار والمهـاجرين فاختار موضعاً ينزله، وجعل سَلْعاً ـ اسم جبـل ـ خلـفَ ظهـره وأمـر بالجـدّ في حفـر الخندق ووعدهم النصر إنْ هم صبروا، وجعل ﷺ على كل عشرة رجال أربعين ذراعاً يحفرونها من الخنـدق، وحـدَّه لهـم، وعملـوا فيـه، وعمـل رسـول الله ﷺ فيـه مـع المسلمين، وحمل التراب على ظهره الشريف، واستعاروا من بني قريظة آلة كثيرة مـن مساحي ومكاتل وغيرها.

وكان من جملة من يعمل يوم الخندق جُعال أو جعيل بن سـراقة، وكـان رجـلاً ذميماً قبيح الوجه لكنّه صالح من أصحاب الصّفَّة، وهو الـذي تمثَّـل بـه الـشيطان يـوم أُحُد، وقال: إنّ محمداً قُتِل كما تقدم، فغيّر رسول الله ﷺ اسمه يومئذ وسمَّاه عمـراً، فجعل المسلمون يرتجزون ويقولون:

سمـاه مـن بعـد جعيـل عمـراً وكـان للبـائس يومـاً ظهـراً

وصار رسول الله ﷺ إذا قالوا عمراً قال: «عمراً»، وإذا قالوا: ظهراً، قال: «ظهراً».

وحصل للصحابة تعب وجوع، لأنه كان في زمن عسرة ومجاعة، فكانوا يؤتـون بملء الكفِّ من الشعير، فيصنع لهم بإهالـة سـنخة توضـع بـين يـدي القـوم، والقـوم جياع، وهي بشعة في الحلق ولها ريح منتن. والإهالـة: الـدهن مـن زيـت أو سمـن أو

---

(١) فإنه أسلم بعد ذلك.

(٢) أي: قال لهم: هل نبرز من المدينة أو تكون فيها؟. مؤلف.

شحم، والسَّنِخة: المتغيّرة لوناً وطعماً من قِدَمها.

ولما رأى رسول الله ﷺ ما بالصّحابة من النَّصَبِ والجوع تمثّل بقول ابن رواحة:

اللّـهم لا عـيش إلا عـيش الآخـرة فـارحم الأنـصار والمهـاجرة[1]

وفي روايـة: «فـأكرم الأنـصار والمهـاجرة»[2]، وفي روايـة: «فانـصر الأنـصار والمهاجرة»[3]، والكلّ صحيح لتعدد القول منه ﷺ. وأجابوه بقولهم:

نحـن الـذين بـايعوا محمـداً علـى الجهـاد مـا بقينـا أبـداً[4]

وفي البخاري[5] عن البراء ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم الخندق وهـو ينقـل التراب وارى الترابُ شعر صدره الشريف، وهو يرتجز برجز عبد الله بن رواحة:

اللّـهم لـولا أنـت مـا اهتـدينا ولا تـصدقنا ولا صـلينا

فـأنزلن سـكينة علينـا وثبـت الأقـدام إن لاقينـا

والمـشركون قـد بغـوا علينـا وإن أرادوا فتنـة أبينـا[6]

وفي رواية: «إن الأعداء قد بغوا علينا» يمدُّ بها صوته ﷺ مكرراً: «أبينا أبينا»[7].

ولما بدأ ﷺ بحفر الخندق قال:

«باسـم الإلـه وبـه بـدينا ولـو عَبَـدْنا غـيرَه شـقينا

يا حبـذا رباً وحـب دينـا»[8].

وتباطأ رجال من المنافقين وتعللوا بالضّعف وصار الواحد منهم يتسلّل إلى أهلـه من غير استئذان من رسول الله ﷺ، وكان زيد بن ثابت ممن ينقل التراب فقـال رسـول الله ﷺ في حقِّه: «أما إنه نعم الغلام»، وغلبته عيناه فنام في الخندق، فأخذ عمـارة بـن حزم سلاحه، فلما استيقظ فزع على سلاحه فقال ﷺ له: «يا أبا زيد، قـد نمـت حتى ذهب سلاحك»، ثمّ قال ﷺ: «لا تروعوا المسلم فإنّ روعة المسلم ظلم عظيم، من له

---

(١) رواه عبد الرزاق في مصنّفه برقم: (١٩٩١٢)، وهذا لفظه.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٢٨٠١)، ومسلم في صحيحه برقم: (١٨٠٥). ورواه غيرهما.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٣٧١٧)، ومسلم في صحيحه برقم: (٥٢٤). ورواه غيرهما.

(٤) البيت من بحر الرجز، وأجزاؤه: مستفعلن مستفعلن مستفعلن.

(٥) هو في صحيحه برقم: (٢٦٨١ـ ٢٦٨٢ ـ ٢٨٧٠ ـ ٣٨٨٠ ـ ٣٩٦٠ ـ ٦٨٠٩).

(٦) الأبيات من بحر الرجز.

(٧) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٢٨٧٠).

(٨) عزاه ابن كثير في (البداية) إلى البيهقي في الدلائل، انظر البداية والنهاية: (٤/٩٧)

علم بسلاح هذا الغلام؟»، فقال عمارة: أنا يا رسول الله، وهو عندي فقال ﷺ: «ردَّه عليه»، ونهى ﷺ أن يروِّع المسلم ويؤخذ متاعه لعباً.

وصعبت على الصّحابة في حفر الخندق كدية ـ أي: محلّ صلب ـ فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ وبطنه معصوب بحجارة من الجوع ـ فعن جابر رضي الله عنه: لبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً ـ فنزل رسول الله ﷺ الخندق ودعا بماء فتفل عليه، ثمّ دعا بما شاء الله أن يدعو به، ثمّ نضح ذلك الماء على تلك الكدية فعادت كالرّمل لا تردّ فأساً ولا معولاً[1].

وفي رواية لوقعة أخرى، عن سلمان رضي الله عنه قال: ضربت في ناحية من الخندق فغلظت عليَّ ورسول الله ﷺ قريب مني فلما رآني أضرب ورأى شدَّة المكان عليَّ نزل فأخذ المعول من يدي فضرب ضربة فلمعت تحت المعول برقة، ثمّ ضربه أخرى فلمعت تحته برقة ثمّ ضرب الثالثة فلمعت برقة أخرى[2].

وفي رواية: اشتدت كدية على سلمان، فأخذ ﷺ المعول وقال: «باسم الله وضرب ضربة فكسر ثلثها وبرقت برقة، فخرج منها نور من قبل اليمن كالمصباح في جوف الليل المظلم»، فكبَّر رسول الله ﷺ وقال: «أعطيت مفاتيح اليمن، لأني أبصرت أبواب صنعاء من مكاني الساعة، كأنها أنياب الكلاب»، ثمّ ضربها ثانية فقطع ثلثها الآخر وبرق منها برقة، فخرج نور منها قِبَلَ الروم فكبَّر رسول الله ﷺ وقال: «أعطيت مفاتيح الشام، والله لأبصر قصورها الحمر»، ثمّ ضرب الثالثة فقطع بقيَّتها وبرقت برقة قِبَلَ فارس فكبَّر رسول الله ﷺ وقال: «أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصور الحِيْرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب من مكاني هذا، وإني لأبصر قصر المدائن الأبيض» وجعل رسول الله ﷺ يصف لسلمان أماكن فارس، وسلمان يقول: صدقت يا رسول الله هذه صفتها، أشهد أنك رسول الله، ثمّ قال ﷺ: «هذه فتوح يفتحها الله بعدي يا سلمان»[3].

وعند ذلك قال جمع من المنافقين منهم معتب بن قشير: ألا تعجبون من محمد يمنّيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم إنماتحفرون الخندق من الخوف لا تستطيعون أن تبرزوا، وفي

---

(١) انظر سيرة ابن هشام: (٤/١٧٤).

(٢) انظر عيون الأثر: (٢/٨٤).

(٣) انظر سيرة ابن كثير: (٣/١٨٦)، وتاريخ الإسلام: (١/٣٤٧).

رواية: تبعدوا لمكان تبرزكم.[1] فأنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ...﴾[2] الآية.

وقيل: سبب نزولها أنه ﷺ لما فتح مكة وَعَدَ أمَّته ملك فارس والروم، فقالت المنافقون واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم، وهم أعز وأمنع[3]. ولا مانع من تكرّر النزول أو تكرر الردّ من النبيّ ﷺ على من أنكر عليه بها.

ولما فرغ ﷺ من الخندق أقبلت قريش ومن معها، وكانوا عشرة آلاف من غير ما انضمَّ إليها من اليهود من حول المدينة وخيبر فنزلوا بمجمع الأسيال، وغطفان ومن معهم بجانب أُحُدٍ.

وكان المسلمون ثلاثة آلاف وعسكرَ بهم رسول الله ﷺ بسفح سلع ـ اسم جبل فوق المدينة ـ فجعل ﷺ ظهر عسكره إلى سلع والخندق بينه وبين القوم، وضُربت له قبَّة من أدم، وكان ﷺ يعقّب فيها بين ثلاثة من نسائه: عائشة وأم سلمة وزينب بنت جحش رضي الله عنهن، كلّ واحدة تكون عنده ﷺ أياماً، فإنه ﷺ مكث في عمل الخندق قريباً من شهر، وقيل: خمسة عشر يوماً، وبه جزم النووي.

وسائر نسائه ﷺ كنّ في بني حارثة، وجعل النساء والذراري في آطام الحصن، وعرض الغلمان وهو يحفر الخندق، وكانوا بأجمعهم من بلغ ومن لم يبلغ يعملون فيه.

فلما التحم الأمر أَمَر من لم يبلغ خمس عشرة سنة أن يرجع إلى أهله، وأجاز من بلغ خمس عشرة سنة، فممن أجازه عبد الله بن عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، والبراء بن عازب، وشبّكوا المدينة بالبنيان من كلّ ناحية فصارت كالحصن إلا جانب أُحُدٍ ففيه الخندق بدل البنيان.

واستخلف ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، وأرسل ﷺ سليطاً وسفيان بن عوف طليعة للأحزاب فقتلوهما، فأُتي بهما رسول الله فدفنهما في قبر واحد فهما الشهيدان القرنيان، وأعطى ﷺ لواء المهاجرين لزيد بن حارثة، ولواء الأنصار لسعد بن عبادة، وبعث سلمة بن أسلم في مئتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمئة رجل يحرسون المدينة ويظهرون التكبير خوفاً على الذراري من بني قريظة لما بلغه ﷺ أنهم نقضوا

---

(١) انظر تاريخ الطبري: (٢/٩٢)، والبداية والنهاية: (٣/٢٣٨)، وعيون الأثر: (١/٣٣٥).

(٢) آل عمران: ٢٦.

(٣) انظر زاد المسير: (١/٣٦٨).

العهد وأنهم يريدون الإغارة على المدينة، فإنّ حيي بن أخطب أرسل إلى قريش وطلب أن يأتيه منهم ألف رجل، وإلى غطفان أن يأتيه منهم ألف رجل أخر ليغيروا على المدينة.

وجاء الخبر لرسول الله ﷺ بذلك فعَظُم البلاء وصار الخوف على الذراري أشدّ من الخوف على أهل الخندق، ولما نظر المشركون إلى الخندق قالوا: والله إنّ هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها، وصار المشركون يتناوبون، فيغدو أبو سفيان في أصحابه يوماً، ويغدو خالد بن الوليد يوماً، ويغدو عمرو بن العاص يوماً، ويغدو هبيرة بن وهيب يوماً، ويغدو عكرمة بن أبي جهل يوماً، ويغدو ضرار بن الخطاب يوماً، فلا يزالون يُجيلون خيولهم ويفترقون مرة ويجتمعون أخرى، ويناوشون أصحاب رسول الله ﷺ ـ أي: يقربون منهم ويقدمون رجالهم فيرمون ـ ومكثوا على ذلك مدَّة، ولم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبل والحصار.

وفي تلك المدّة أقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرس ليوثبه الخندق فوقع فاندقَّت عنقه ومات.

وفي رواية: أنّ نوفل بن عبد الله ضرب فرسه ليدخل الخندق فوقع فيه مع فرسه فحطمهما جميعاً، وقيل: رمي بالحجارة، فجعل يقول: قتلة أحسن من هذه يا معشر العرب، فنزل إليه علي ﷺ فضرب عنقه بالسيف، فقطعه نصفين وكَبُر ذلك على المشركين، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أنِ ابعث إلينا بجثته ونعطيك اثني عشر ألفاً، فقال رسول الله ﷺ: «لا خير في جثته ولا في ثمنه، ادفعوه إليهم، فإنّه خبيث الدية».

ثمّ إنّ عدو الله حيي بن أخطب سيد بني النّضير كان يقول لقريش في سيره معهم: إنّ قومي بني قريظة معكم، وهم آلة حرب وافرة، وهم سبعمئة مقاتل وخمسون مقاتلاً.

فلمّا وصلوا المدينة قال له أبو سفيان: ائت قومك حتى ينقضوا العهد الذي بينهم وبين محمّد، فعند ذلك خرج حيي ـ لعنه الله ـ حتى أتى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة ووليّ عهدهم الذي عاهدهم عليه رسول الله ﷺ المتقدم ذكره فدقَّ عليه باب حصنه فأبى أن يفتح له، فألحَّ عليه في ذلك، فقال له: ويحك يا حيي إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمداً، فلستُ بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً، فقال له حيي: ويحك افتح لي أكلّمك فقال له: ما أنا بفاعل، فأغاظه

حيي، فقال له: ما أغلقتَ دوني بابك إلا تخوُّفاً على جثيثتك أن آكل معك منها، فقال حيي: ويحك يا كعب جئتك بعزِّ الدهر، جئتك بقريش حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال، وبغطفان حتى أنزلتهم بجانب أُحُد، قد عاهدوني وعاقدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمّداً ومن معه، فقال له كعب: جئتني والله بذلِّ الدهر، وكلّ ما يُخشى، لم أر في محمّد إلا صدقاً ووفاء، ويحك يا حيي، دعني وما أنا عليه.

فلم يزل حيي بكعب حتى أعطاه عهداً من الله وميثاقاً: لئن رجعت قريش وغطفان ولم يقتلوا محمداً أن يكون معه في حصنه ويصيبه ما أصابه، فعند ذلك نقض العهد وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ ومزّق الصّحيفة التي كان فيها العقد، وجمع رؤساء قومه، وهم: الزبير بن مُطَأ، وشاس بن قيس، وعزّال بن سمعان، وعقبة بن زيد، وأعلمهم بما صنع من نقض العهد وشقّ الكتاب الذي كتبه له رسول الله ﷺ.

وكان حيي بن أخطب في اليهود كأبي جهل في قريش فلمّا انتهى الأمر بذلك الخبر إلى رسول الله ﷺ، أخبره بذلك عمر بن الخطاب ﷺ، فقال: يا رسول الله، بلغني أنّ بني قريظة قد نقضت العهد وحاربت، فاشتدَّ الأمر على رسول الله ﷺ وشقّ عليه ذلك، وأرسل سعد بن معاذ سيّد الأوس وسعد بن عبادة سيّد الخزرج، وأرسل معهما ابن رواحة وخُوات بن جبير، وقال لهم: «انطلقوا حتى تنظروا أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم؟ فإنْ كان حقًّا؛ فالحنوا لي لحناً ـ أي: لغزاً ـ أعرفه أنا دون القوم، ولا تفتّوا في أعضاد الناس، وإنْ كانوا على الوفاء فاجهروا بذلك للناس».

فخرجوا حتى أتوا بنو قريظة فوجدوهم قد نقضوا العهد ونالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: من رسول الله ﷺ؟ وقالوا: لا عهد بيننا وبين محمّد، وشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه، وكان رجلاً فيه حدّة ثمّ أقبل السعدان ـ سعد بن معاذ، وابن عبادة ـ ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فكنّوا له عن نقضهم العهد، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين بنصر الله وعونه»، وتقنّع رسول الله ﷺ بثوبه واضطجع ومكث طويلاً، فاشتدَّ على الناس البلاء والخوف حين رأوه ﷺ اضطجع، ثمّ رفع رأسه ﷺ فقال: «أبشروا بفتح الله ونصره»[1].

ولعل إرسال السعدين ومن معهما كان بعد إرساله ﷺ الزّبير إليهم ليأتي بخبرهم: هل نقضوا العهد؟ استثباتاً للأمر.

---

(١) انظر سيرة ابن كثير: (٣/١٩٨).

فعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: كنت يوم الأحزاب أنا وعمرو بن مسلمة مع النّساء في أطم حسان بن ثابت، وكان حسان مع النساء أيضاً، ومن جملتهن صفية بنت عبد المطلب، واتّفق أنّ يهودياً جعل يطوف بذلك الحصن فقالت صفية لحسّان: لا آمَنُ من هذا اليهودي أنْ يدلَّهم على عورة الحصن فيأتون النساء فانزلْ إليه فاقتله، فقال حسّان: يا ابنة عبد المطلب، قد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا، قالت: فلمّا آيستُ منه أخذتُ عموداً ونزلت ففتحت باب الحصن وأتيتُه من خلفه فضربته بالعمود حتى قتلته وصعدت الحصن، فقلت: يا حسّان، انزل إليه فاسلبه، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل، فقال: يا ابنة عبد المطلب ما لي بسلبه حاجة، قال عبد الله بن الزبير فنظرت فإذا الزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثاً، فلمّا رجع قلت له: يا أبت رأيتك تختلف إلى بني قريظة؟، قال: رأيتَني يا بُنَي؟، قلت: نعم، قال: كان رسول الله ﷺ قال: «من يأتي بني قريظة فيأتيني بخبرهم؟» فأتيتهم.

فلما رجعت جمع لي رسول الله أبويه، فقال: «فداكَ أبي وأمي، الزبير ابن عمي وحواريّ من أمتي».

وعظم عند ذلك البلاء على المسلمين لما وصل إليهم خبر نقض بني قريظة العهد وجاءهم عدوُّهم من فوقهم من أعلى المدينة ومن أسفل منهم ـ أي: من أسفلها ـ حتى ظنَّ المسلمون كلّ الظنّ. كما قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾[1].

وحينئذ ظهر النفاق من المنافقين حتى قال بعضهم: كان محمّد يعدنا أنّ لنا كل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً. كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[2].

ولما رأى ﷺ شدَّة الأمر بعث إلى عيينة بن حصين الفزاري وإلى الحارث بن عوف المرّي في أن يُقطِعَهما ثلثَ نخل المدينة على أنْ يرجعا بمن معهما عنه فجاءا مستخفيين من أبي سفيان فوافقاه ﷺ على ذلك بعد أنْ كانا طلبا النّصف وكتبا بذلك

(١) الأحزاب: ١٠.

(٢) الأحزاب: ١٢.

صحيفة ـ أي: طلبا كتب صحيفة بذلك ـ فحينئذ أرسل رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما فذكر ذلك لهما واستشارهما، فقالا: يا رسول الله، أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمَرَكَ الله به لا بدَّ لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ إنْ كان أمراً من السماء، فامضِ، وإن كان أمراً لم تُؤْمر به ولك فيه هوىً فالسمع والطاعة، وإنْ كان إنما هو الرأي، فما لهم عندنا إلا السّيف، فقال رسول الله ﷺ: «لو أمرني الله به ما شاورتكما، واللهِ ما أصنع ذلك خوفاً منهم إلا إنّي رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كلّ جانب، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم إلى أمرٍ ما»، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنّا نحن وهؤلاء القوم ـ أي: غطفان ـ على الشرك بالله وعبادة الأوثان، ولا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة إلا قِرىً أو بيعاً، وإنْ كانوا ليأكلون العهن في الجاهلية من الجهد، فحين أكرمنا الله تعالى بالإسلام وهدانا له وأعزّنا بك وبه نُقْطِعُهم أموالنا، ما لنا بهذا حاجة، والله لا نعطيهم إلا السّيف حتى يحكم الله بيننا وبينَهم، فقال رسول الله ﷺ: «فأنت وذاك».

فأخذ سعد الصّحيفة فمحا الكتابة ـ على رواية أنّ الكتابة وقعت بالفعل ـ وشقّ الورقة ـ على رواية أنه ﷺ أخبرهما قبل الكتابة حين عزم عليها ـ وكان الشقُّ والمحو بأمر رسول الله ﷺ لسعد بذلك.

وقال سعد ﷺ لعيينة والحارث: ارجعوا، بيننا وبينكم السّيف رافعاً صوته، ثمّ إن طائفة من المشركين أقبلوا وأكرهوا خيولهم على اقتحام الخندق من مضيق به، وفيهم عكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن وهب، وهو زوج أم هانئ أخت علي بن أبي طالب، وضرار بن الخطاب، وعمرو بن ودٍّ، وكان عمرو بن ودٍّ عمره إذ ذاك تسعين سنة، فقال: من يبارز؟ فقام عليٌّ ﷺ وقال: أنا له يا نبي الله، فقال رسول الله ﷺ: «اجلس، إنه عمرو بن ودٍّ»، ثمّ كرَّر عمرو النداء، وجعل يوبِّخ المسلمين ويقول: أين جنّتكم التي تزعمون أنه من قُتِلَ منكم دخلها، أفلا تُبْرزون إليّ رجلاً واحداً وأنشد أبياتاً منها:

ولقد بححتُ من النداء لجمعهم هل من مبارز
إن الشجاعة في الفتى والجودَ من خير الغرائز

فقام عليٌّ ﷺ فقال: أنا له يا رسول الله، فقال ﷺ له: «اجلس، إنه عمرو بن ودٍّ»، ثمّ نادى عمرو الثانية فقام علي ﷺ فقال: أنا له يا رسول الله، فقال له رسول الله

ﷺ: «إنه عمرو بن ودٍّ»، فقال: وإن كان عمراً، فأذن لـه رسـول الله ﷺ وأعطـاه سـيفه ذا الفقار وألبسه درعه الحديد وعممه بعمامته، وقال: «اللهم أعنه عليه، اللهم هذا أخي وابن عمي، لا تذرني فرداً وأنت خير الـوارثين»، ورفـع ﷺ عمامتـه إلى جهـة السماء وقـال: «إلهي أخذت عبيدة مني يوم بدر، وحمزة يوم أُحُد، وهذا عليّ أخـي وابـن عمـي، فـلا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين»، فمشى عليّ وبرز إليه وجعل ينشد أبياتاً منها قوله:

لا تعجلـن فقـد أتـاك مجيـ ـب قولـك غـيرُ عـاجز
في نيـة وبـصيرة والـصّـ ـدق منجـي كـل فـائز

وقال له: يا عمرو، إنك كنت تقول: لا يـدعني أحـد إلى واحـدة مـن ثلاثـة إلا قبلتها، قال: أجل، فقال علي ﷺ: فإني أدعوك أنْ تشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمـداً رسول الله وتسلم لربّ العالمين، فقال: يا ابن أخي، أخِّـر عنّـي هـذه، قـال: وأخـرى ترجع إلى بلادك، فإنْ يك محمّد صادقاً كنتَ أسعد النـاس بـه، وإن يـك كاذبـاً كـان الذي تريد، قال: هذا مما لا يتحدَّث به نـساء قـريش أبـداً، كيـف وقـد قـدرتُ علـى استيفاء ما نذرتُ[1]، قال: والثالثة؟، قال: ما هي؟، قال عليٌّ: البراز ـ أي: المبـارزة ـ فضحك عمرو، وقال: إنّ هذه لخصلة ما كنتُ أظنُّ أنّ أحداً من العرب يـروّعني بهـا، ثمّ قال له عند طلب المبارزة: لِمَ يا ابن أخي، فوالله ما أحبّ أنْ أقتلـك، فقـال علـيٌّ: لكنّني والله أحب أنْ أقتلك، فحمي عمرو عند ذلك ـ أي: أخذته الحمية ـ فقـال علـي ﷺ: كيف أقاتلك وأنت على فرسك؟ ولكن انزل معي، فترجّل عمرو وسلَّ سيفه كأنّـه شعلة نار، فعقر فرسه وضرب وجهها، وأقبـل علـى علـيٍّ ﷺ فاستقبله علـيٌّ بدرقتـه فضربه عمرو فيها فقدَّها، وأثبت فيها السيف، وأصاب رأس علي فشجَّه، فضربه عليٌّ ﷺ على حبل عاتقه ـ وهو موضع الوريد من العنـق ـ فـسقط وكبَّـر المـسلمون، فلمـا سمع رسول الله ﷺ التكبير عرف أنّ عليًّا قتل عمرو بن ودٍّ، فقال ﷺ: «قتل عليٍّ لـه، أفضلُ من عبادة الثقلين»، فلمّا رجع عليٌّ ﷺ قال لـه رسـول الله ﷺ: «كيـف وجـدت نفسك معه يا علي؟»، فقال علي ﷺ: وجدتُ لو كان أهل المدينة كلّهم في جانب وأنا في جانب لقدرتُ عليهم، فبعث الكفار يشترون جيفة عمرو بن ودّ بعشرة آلاف، فقال رسول الله ﷺ: «هو لكم ولا نأكل ثمن الموتى»[2].

---

(١) فإنه نذر يوم بدر لما أفلت هارباً بجلده مجروحاً أن لا يمس رأسه بدهن حتى يقتل رسول الله ﷺ. مؤلف.

(٢) انظر البداية والنهاية: (٤/١٠٧).

وحين قتل عمرو بن ودٍّ رجع من وصل الخندق من المشركين بخيلهم هاربين، وحمل الزبير على هبيرة فضرب شعر فرسه فقطعه، وسقطت درع كان يحقبها الفرس، فأخذها الزبير وألقى عكرمة بن أبي جهل رمحه وهو منهزم، وفي رواية: ثمّ حَمل ضرار بن الخطاب ـ أخو عمر بن الخطاب ـ وهبيرة على عليّ ﷺ، فأقبل عليٌّ عليهما، فأمّا ضرار فولّى هارباً، ولم يثبت، وأما هبيرة فثبت، ثمّ ألقى درعه وهرب، وكان فارس قريش وشاعرها.

وكان شعارُ المسلمين (حم لا ينصرون) فكفَّ بعضهم عن بعض، وجاؤوا، فقال رسول الله ﷺ: «جراحكم في سبيل الله، ومن قتل فهو شهيد»[١].

ورُمِيَ سعد بن معاذ بسهم قطع أكحله ـ وهو عرق في الذراع يتشعَّب منه عروق البدن، ويقال له: عرق الحياة ـ رماه به ابن أبي العرقة[٢]، وقال: خذها وأنا ابن العرقة[٣]، فلمّا بلغ رسول الله ﷺ قال: «عرق الله وجهه في النار»، وعند ذلك قال سعد: اللهم إن كانت وضعت الحرب بيننا وبينهم ـ يعني قريشاً ومن معهم ـ فاجعلها لي شهادة، وإلا فلا تُمِتْني حتى تقرَّ عيني وتشفني من بني قريظة.

واتَّفق في يوم استمرت المقاتلة من سائر جوانب الخندق إلى الليل، ولم يصلّ النبيّ ﷺ ولا أَحَد من المسلمين صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وصار المسلمون يقولون: ما صلينا، فقال رسول الله ﷺ: «ولا أنا»، فلمّا انكشف القتال جاء ﷺ إلى قبّة وأمر بلال، فأذّن وأقام الظهر فصلّى، ثمّ أقام بعد كلّ صلاة إقامة، وصلّى هو وأصحابه ما فاتهم من الصّلوات.

وعن جابر بن عبد الله، فأذَّن وأقام بلال لكلّ صلاة أذاناً وإقامة.

وفي بعض أيام الخندق فاتتهم صلاة العصر فقط فقال ﷺ: «شغلونا عن الصّلاة الوسطى صلاة العصر حتى غابت الشمس ملأ الله أجوافهم ـ وفي رواية: قبورهم[٤] ـ ناراً»[٥].

---

(١) انظر سبل الهدى والرشاد: (٤/٣٨١).

(٢) العرقة: هي جدته، وسميت بذلك لطيب رائحة عرقها. مؤلف.

(٣) والعرقة: هي قلابة بنت سعيد، وابنها الذي رمى سعداً هو حبان بن قيس بن العرقة. انظر الروض الأنف: (١/٣٣٥).

(٤) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٢٧٧٣)، ومسلم في صحيحه برقم: (٦٢٧).

(٥) رواه مسلم في صحيحه برقم: (٦٢٨).

وفي سنن ابن ماجه[1] والنسائي[2] والترمذي[3] عن عمر بن الخطاب ﷺ: «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصّلاة الوسطى حتى غابت الشمس».

ثمّ إنّ طائفة من الأنصار خرجوا ليدفنوا ميتاً لهم بالمدينة فصادفوا عشرين بعيراً لقريش محمّلة شعيراً وتمراً وتبناً، حمّلها حيي بن أخطب تقويةً لقريش، فأتوا بها رسول الله ﷺ فتوسَّع بها أهل الخندق، ولما بلغ أبا سفيان ذلك، قال: إنّ حيياً لمشؤوم ما أعلمه إلا قطع بنا، ما نجد ما نتحمّل عليه إذا رجعنا[4].

ثمّ إن خالد بن الوليد كرَّ بطائفة من المشركين يطلب غِرَّة المسلمين ـ أي: غفلتهم ـ فصادف أسيد بن حضير على الخندق في مئتين من المسلمين فناوشوهم ـ أي: تقاربوا منهم ـ ساعة، وكان في أولئك المشركين وحشيّ قاتل حمزة فزرق الطفيل بن النعمان بمزارقه[5] فقتله[6].

ثمّ بعد ذلك صاروا يرسلون الطلائع بالليل يطمعون في الغارة، فأقام المسلمون في شدّة من الخوف، فحينئذ دعا ﷺ على الأحزاب فقال: «اللهم منزِّل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم وزلزلهم».

وقام ﷺ في الناس خطيباً فقال: «يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدوِّ وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»، ثمّ دعا ﷺ بقوله: «يا صريخ المكروبين يا مجيب المضطرين، اكشف همِّي وغمِّي وكربي، فإنك ترى ما نزل بي وبأصحابي».

وقال المسلمون له ﷺ: هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر؟، فقال ﷺ: «نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا»، فأتاه جبريل فبشّره أنّ الله تعالى يرسل عليهم ريحاً وجنوداً، فأعلمَ ﷺ أصحابه بذلك وصار ﷺ يرفع يديه قائلاً: «شكراً شكراً».

وكان دعاؤه ﷺ على الأحزاب يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء، والاستجابة

---

(١) في سننه برقم: (٦٨٤).

(٢) في سننه برقم: (٤٧٣).

(٣) في سننه برقم: (٢٩٨٤).

(٤) انظر سبل الهدى والرشاد: (٤/٣٨٢).

(٥) المزراق: رمح قصير أخفّ من العنزة، وزرقه: طعنه. ينظر المصباح المنير، مادة: المزراق.

(٦) انظر عيون الأثر: (٢/٨٤).

كانت يوم الأربعاء بعد الظهر وقبل العصر، فعرف السرور في وجهه ﷺ.

وكان ﷺ يختلف إلى ثلمة في الخندق، فعن عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يذهب إلى تلك الثلمة فإذا أخذه البرد جاءني فأدفأته في حضني، فإذا أدفئ خرج إلى تلك الثلمة، ويقول: «ما أخشى أن تؤتى الناس إلا من تلك الثلمة» فبينما رسول الله ﷺ في حضني جعل يقول: «ليت رجلاً صالحاً يحرس هذه الثلمة الليلة فسمع صوت السلاح»، فقال رسول الله ﷺ: «من هذا؟»، فقيل: سعد سعد يا رسول الله، أتيتك أحرسك، فقال ﷺ: «عليك بهذه الثلمة فاحرسها».

ونام ﷺ حتى غطَّ، وقام ﷺ في القبة يصلي لأنه ﷺ كان إذا أحزنه أمر فزع إلى الصّلاة، ثمّ خرج ﷺ من قبّته فقال: «هذه خيل المشركين تطوف بالخندق»، ثمّ نادى: «يا عبّاد بن بشر»، قال: لبيك، قال: «هل معك أحد؟»، قال: نعم، أنا في نفر حول قبّتك يا رسول الله.

وكان ﷺ ألزم الناس لقبّة رسول الله ﷺ يحرسها، فبعثه ﷺ يطوف بالخندق، وأعلمه بأنّ خيل المشركين تطوف به، ثمّ قال ﷺ: «اللهم ارفع عنّا شرّهم وانصرنا عليهم واغلبهم لا يغلبهم غيرك»، وإذا أبو سفيان في خيل المشركين يطوفون بمضيق الخندق فرماهم المسلمون حتى رجعوا.

ثمّ إنّ نعيم بن مسعود الأشجعي أتى رسول الله ﷺ ليلاً فقال: يا رسول الله، إني أسلمت، وإنّ قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت رجل واحد فخذِّل عنّا ما استطعت» ـ وفي المثل السائر: (إذا لم تغلب فاخلب) أي: اخدع[1] ـ فقال نعيم: يا رسول الله، إني أقول ما يقتضيه الحال، وإن كان خلاف الواقع، فقال ﷺ له: «قل ما بدا لك فأنت في حلّ».

فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديماً قال: فلما رأوني رحّبوا بي وعرضوا عليَّ الطعام والشراب فقلت: إني لم آت لشيء من هذا، إنما جئتكم تخوُّفاً عليكم لأشير عليكم برأي، يا بني قريظة قد عرفتم ودِّي إياكم وخاصّةَ ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتَّهم، فقال لهم: اكتموا عني، قالوا: نفعل ذلك، قال: لقد رأيتم ما وقع لبني قينقاع ولبني النّضير من إجلائهم وأخذ أموالهم، وإنّ قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، وبه أموالكم ونساؤكم وأبناؤكم، لا

(١) انظر جمهرة الأمثال للعسكري: (٦٦/١)، ومجمع الأمثال للميداني: (٣٤/١).

تقدرون على أن ترحلوا منه إلى غيره، وإنّ قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمّد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم ـ أي: عاونتموهم عليه ـ وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإنْ رأوا نهزة ـ أي: فرصة ـ أصابوها، وإنْ كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلُّوا بينكم وبين بلدكم، والرجل ـ يعني النبيّ ﷺ ـ ببلدكم، ولا طاقة لكم به إنْ خلا بكم، فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم سبعين رجلاً يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمّداً، قالوا: لقد صدقت وأشرت بالرأي والنّصح، ودعوا له وشكروا، وقالوا: نحن فاعلون، قال: لكن اكتموا عنّي، قالوا: نفعل.

ثمّ خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان ومن معه من أشراف قريش: قد عرفتم ودّي لكم وفراقي لمحمّد وأنه قد بلغني أمر قد رأيت أنْ أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا عنّي قالوا: نفعل.

قال: تعلمون أنّ معشر يهود بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمّد من نقض عهده، وقد أرسلوا إليه وأنا عندهم يقولون له: قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان من أشرافهم سبعين رجلاً نعطيكهم فتضرب أعناقهم وتردَّ جناحنا الذي كسرت إلى ديارهم ـ يعنون بني النّضير ـ ثمّ نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم، فأرسَلَ إليهم محمّد: أنْ نعم. فإن بعثتْ إليكم يهودُ بني قريظة يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً.

ثمّ خرج حتى أتى غطفان فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذَّرهم من بني قريظة، وقال لهم: اكتموا عنّي، فقالوا: نفعل.

فحينئذ أرسل أبو سفيان عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش إلى قريظة يقول لهم: إلى متى هذا التواني؟ قوموا معنا حتى نناجز محمّداً الحرب، وإنا لسنا بدار مقام وقد هلك الخفُّ والحافر، فابرزوا معنا حتى نفرغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم الجواب: بأنّ الليلة هذه ليلة سبت وقد علمتم ما أصاب من تعدَّى في السبت منَّا من المسخ، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً سبعين رجلاً من أشرافكم، فإننا نخاف إنْ أصابكم ما تكرهون رجعتم إلى بلادكم وتركتمونا، فقالت قريش وغطفان: صدق نُعَيم والله.

فرجع نعيم إلى بني قريظة وقال لهم: كنت عند أبي سفيان وقد جاء جوابكم فقال: لو طلبوا مني عناقاً ما دفعتها لهم.

فاختلفت كلمتهم فجاء حييٌّ بن أخطب إلى بني قريظة فلم يجد لهم موافقة له، وقالوا له: لا نقاتل معهم حتى يدفعوا لنا سبعين رجلاً من قريش وغطفان رهناً عندنا[1].

فبعث الله تعالى ريحاً عاصفاً ـ وهي ريح الصَّبا ـ في ليلة شديدة البرد، فنقلت بيوتهم ـ أي: كفّار قريش ومن معهم ـ وقطعت أطنابهم، وكفأت قدروهم على أفواهها، وصارت الريح تلقي الرجال على أمتعتهم، وأطفأت نيرانهم وأرسل الله تعالى ملائكة أوقعت الرّعب في قلوبهم وزلزلتهم قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾[2].

ولم تقاتل الملائكة بل نفثت في رُوعهم الرّعب، فعنه ﷺ أنه قال: «ريح الجنوب من الجنة[3] والشمال[4] من النار» أي: نار جهنم، تخرج فتمرُّ بالنار فتصيبها نفحة منها فبردها من ذلك، وهي تمرُّ من جهة القطب حارةً في الصّيف، والريح الثالثة: ريح الصّبا، ويقال لها: القبول، وهي تهبُّ من مطلع الشمس، والرابعة: ريح الدَّبُور ـ كرسول ـ وهي تهب من المغرب، قال ﷺ: «نصرت بالصّبا وأهلكت عاد بالدبور»[5]، وفي لفظ: (ضرب الله عزّ وجلّ وجوه أعدائه بالرّيح فهزمهم الله عزّ وجلّ بالريح)[6] وكانت ريحاً صفراء ملأت عيونهم ودامت عليهم.

ثمّ إنّ رسول الله ﷺ بلغه اختلاف كلمتهم ـ أي: اختلاف قريش مع بني قريظة ـ وكانت تلك الليلة شديدة البرد والريح، في أصوات ريحها أمثال الصّواعق، لكنّها لم تجاوز معسكر المشركين، شديدة الظلمة بحيث لا يرى الشخص أصبعه إذا مدَّها

---

(١) انظر سبل الهدى والرشاد: (٤/٣٨٤)، وزاد المعاد: (٣/٢٤٠).

(٢) الأحزاب: ٩.

(٣) وهي الريح اليمانية، وهي الريح اللواقح، ذكر الله في كتابه ما فيها من منافع للناس.

(٤) كسلام، وتهمز كجعفر.

(٥) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٩٨٨ـ ٣٨٧٩ـ ٣١٦٥ـ ٣٠٣٣)، ومسلم في صحيحه برقم: (٩٠٠)، وأحمد في المسند برقم: (١٩٥٥ـ ٢٠١٣). ورواه غيرهم.

(٦) رواه أحمد في المسند برقم: (١١٠٠٩) من حديث أبي سعيد ﷺ عن أبيه، وعزاه ابن كثير في البداية والنهاية إلى الإمام أحمد من حديث أبي سعيد ﷺ عن أبيه، وإلى ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث أبي سعيد ﷺ، وقال معلقا على إسناده: هو الصّواب. ينظر البداية والنهاية: (٤/١١١).

لاجتماع ظلمات ثلاث: ظلمة الليل وظلمة الرياح وظلمة الغبار، فجعل المنافقون يستأذنون رسول الله ﷺ ويقولون: إنّ بيوتنا عورة ـ أي: من العدو، لأنها خارج المدينة ـ وحيطانها قصيرة يخشى عليها السرقة، فأذنْ لنا يا رسول الله نرجعْ إلى نسائنا وأبنائنا وذريّاتنا، فأذن لهم رسول الله ﷺ.

قيل: لم يبق معه ﷺ تلك الليلة إلا ثلاثمئة، وحينئذ قال رسول الله ﷺ: «من يأتينا بخبر القوم؟»، فقال الزبير ﷺ: أنا يا رسول الله، قال ﷺ ذلك ثلاثاً، والزبير ﷺ يجيبه بما ذكر، فقال ﷺ: «لكلّ نبيّ حواريّ ـ أي: ناصر ـ وحواريي الزبير»[1]، ولم يأذن له رسول الله ﷺ بالخروج إليهم.

ثمّ قال ﷺ: «من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثمّ يرجع، أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة»، وفي لفظ: «يكون معي يوم القيامة»، قال ذلك ثلاثاً، فما قام أحد من شدَّة الخوف والجوع والبرد، فحينئذ دعا رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان ﷺ، قال حذيفة: فلم أجد بدًّا من القيام حيث تفوّه رسول الله ﷺ باسمي، فجئته ﷺ فقال: «تسمع كلامي منذ الليلة ولا تقوم؟!»، فقلت: لا والذي بعثك بالحق، إنْ قدرت ـ أي: ما قدرت ـ على ما بي من الجوع والبرد والخوف، فقال ﷺ: «اذهب حفظك الله من أمامك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك حتى ترجع إلينا»، وعهد لي رسول الله ﷺ أنْ لا أحدث حدثاً.

قال حذيفة: فمرَّ عليَّ رسول الله ﷺ، وما عليَّ جنَّة من العدو والبرد إلا مرطاً لامرأة حذيفة، وما يجاوز ركبتي وأنا جاثٍ على ركبتي، فقال ﷺ: «من هذا؟»، قلت: حذيفة، فقال رسول الله ﷺ: «حذيفة؟!»، قال حذيفة: فتقاصرت في الأرض، وقلت: بلى يا رسول الله، قال: «قم»، فقمت، فقال ﷺ: «إنه كائن في القوم خبر فأتني بخبر القوم»، فقلتُ: والذي بعثك بالحق ما قمت إلا حياءً منك من البرد، فقال ﷺ: «لا بأس عليك من حرٍّ ولا برد حتى ترجع إليَّ»، فقلت: والله ما بي أنْ أقتل ولكن أخشى أنْ أوسر، فقال ﷺ: «إنك لن تؤسر، اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته»، قال حذيفة: فمضيت أمشي كأنيَ في حمَّام، فلمّا ولّيت دعاني، فقال لي: «لا تحدث شيئاً، لا ترمِ بسهم ولا حجر، ولا تضرب بسيف

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٢٦٩١ـ ٣٥١٤)، ومسلم: (٢٤١٥)، والترمذي في سننه برقم: (٣٧٤٤ـ ٣٧٤٥). ورواه غيرهم

حتى تأتيني»، فجئت إليهم ودخلت في غمارهم، فسمعت أبا سفيان يقول: يا معشر قريش، ليعرف كلّ منكم جليسه واحذروا الجواسيس والعيون، فأخذتُ بيد جليسي على يميني، وقلت: من أنت؟، فقال: معاوية بن أبي سفيان، وقبضت يد من على يساري وقلت: من أنت؟ فقال: عمرو بن العاص، وإنما قلت ذلك خشية أن يُفْطن لي، فقال أبو سفيان: يا معشر قريش، والله إنكم لستم بدار مقام، ولقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل، ووثب على جمله، فما حلّ عقاله إلا وهو قائم، فقال له عكرمة بن أبي جهل: إنك رأس القوم وقائدهم تذهب وتترك الناس؟!، فاستحيا أبو سفيان وأناخ جمله ونزل عنه وأخذ بزمامه وهو يقوده، وقال: ارحلوا، فجعل الناس يرحلون، وهو قائم.

ثمّ قال لعمرو بن العاص: يا أبا عبيدة، تقيم في جريدة من الخيل بإزاء محمّد وأصحابه فإنّا لا نأمن أن نُطْلَب، فقال عمرو: أنا أقيم، وقال أيضاً لخالد بن الوليد: ما ترى يا أبا سليمان؟، فقال: وأنا أقيم أيضاً، فأقام عمرو وخالد في مئتي فارس وسار جميع العسكر.

قال حذيفة: ولولا عهد رسول الله ﷺ إليَّ حين بعثني أنْ لا أحدث شيئاً لقتلتُ أبا سفيان بسهم، وسمعت غطفان بما فعلت قريش فاشتدّوا راجعين إلى بلادهم[١].

وفي رواية، قال حذيفة: فدخلت العسكر، فإذا الناس يقولون: الرحيل الرحيل، لا مقام لكم، والريح تقلبهم على بعض أمتعتهم وتضربهم بالحجارة لا تجاوز عسكرهم، فلما انتصفت الطريق إذا أنا بعشرين فارساً معتمّين فخرج إليَّ منهم فارسان وقالا: أخبر صاحبك أنّ الله كفاه القوم[٢].

قال حذيفة: ثمّ أتيت رسول الله ﷺ فوجدته قائماً يصلّي فأخبرته، فحمد الله وأثنى عليه وضحك حتى بدت ثناياه في سواد الليل، وعاودني البرد وجعلتُ أقرقف، فأومأ إليَّ رسول الله ﷺ بيده فدنوت منه، فأسدل عليَّ من فضل شملته، فنمتُ ولم أزل نائماً حتى الصّبح، فلما أن أصبحت قال لي رسول الله ﷺ: «قم يا نومان» أي: يا كثير النوم.

---

(١) انظر عيون الأثر: (٢/٨٤).

(٢) انظر البداية والنهاية: (٤/١١٥).

وكان يقال لحذيفة: صاحب سرّ رسول الله ﷺ الذي لا يعلمه غيره، فقد قال حذيفة: لقد حدَّثني رسول الله ﷺ بما كان وبما يكون حتى تقوم الساعة، وهذا الوصف ورد لغير حذيفة أيضاً، منهم عبد الله بن مسعود، فقد كان صاحب سرِّ رسول الله ﷺ، وغيره كثير من الصّحابة كذلك، منهم أبو ذرٍّ وأبو هريرة والخلفاء الأربعة وغيرهم.

وقال ﷺ صبيحة ليلة انصرافهم: «الآن نغزوهم ولا يغزونا»، وانصرف رسول الله ﷺ لسبع ليال من ذي القعدة، وقيل: من شوال، سنة خمس، وقيل: أربع.

وأرسل أبو سفيان كتاباً لرسول الله ﷺ فيه: باسمك اللهم، فإني أحلف باللات والعزّى وإساف ونائلة وهُبَل، لقد سرت إليك في جمع، وأنا أريد أن لا أعود إليك أبداً حتى أستأصلكم، فرأيتك قد كرهت لقاءنا واعتصمت بالخندق مكيدة ما كانت العرب تعرفها، وإنما تعرف ظلّ رمحها وسيوفها، وما فعلت هذا إلا فراراً من سيوفنا ولقائنا ولك مني يوم كيوم أُحُد.

فأرسل له رسول الله ﷺ جواباً فيه: «أما بعد: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى صخر بن حرب فقد أتاني كتابك، وقد أغرّك بالله الغرور، وأما ما ذكرت أنك سرت إلينا، وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا، فذلك أمرٌ يحول الله بينك وبينه، ويجعل الله لنا العاقبة، وليأتينّ عليك يوم أكسر لك فيه اللات والعزّى وإساف ونائلة وهُبَل حتى أذكر لك ذلك يا سفيه بني غالب».

ومما وقع من الآيات في هذه الغزوة في مدّة حفر الخندق أن بنت بشير بن سعد جاءت لأبيها وخالها عبد الله بن رواحة بجفنة من تمر ليتغديا بها، فقال لها رسول الله ﷺ: هاتيه فصبَّته في كفّي رسول الله ﷺ فملأها، ثمّ أمر رسول الله ﷺ بثوب فبسطت له، ثمّ قال لإنسان عنده: «اصرخ في أهل الخندق أنْ هلمُّوا إلى الغداء»، فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب[1].

وروى البخاري في صحيحه، أنّ جابر بن عبد الله لما علم ما به ﷺ من الجوع استأذن رسول الله ﷺ في الانصراف إلى بيته فأذن له، قال جابر: فجئت امرأتي وقلت لها: إني رأيت رسول الله ﷺ خُمْصاً[2] شديداً فهل عندك شيء؟، قالت: عندي صاع

---

(١) انظر تاريخ الإسلام: (١/٢٣٩).

(٢) بزنة قرباً، أي ذا خمص، أي: جوع، والخميص: الجائع. مؤلف.

من شعير وعَنَاق[1] فذبحت العناق وطحنت الشعير، وجعلت اللحم في برْمة.

فلمّا أمسينا جئت رسول الله ﷺ فساررته وقلت له: طُعَيْم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل آخر أو رجلان، فشبك رسول الله ﷺ أصابعه في أصابعي، وقال: «كم هو؟»، فذكرت له، قال ﷺ: «كثير طيّب»، قل لها: «لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنّور حتى آتي»، وصاح ﷺ يا أهل الخندق، إنّ جابراً قد صنع لكم سؤراً ـ أي: ضيافة ـ فحيهلاً بكم ـ أي: سيروا ـ فساروا مسرعين، وسار رسول الله ﷺ يقدم الناس، قال جابر: فلقيني من الحياء ما لا يعلمه إلا الله، وقلت في نفسي: والله إنها لفضيحة، وأسرع إلى زوجته يعلمها بما وقع، فقالت له: رسول الله ﷺ أعلم.

فتقدم رسول الله ﷺ وبصق في القدر بعد أن سمَّى الله تعالى ودعا بالبركة وكذا فعل بالعجين، وأمرها أن تحضر عندها من الجيران من يعينها على الخبز، وأنّها كلما أخذت شيئاً سمَّت الله تعالى وأنْ تبقي العجين مغطًّى، وتدخل يدها فتقطع من العجين، ولا تكشف الغطاء عنه لتنظر ما بقي، وتفعل مثل ما ذكر حين أَخْذِها من بُرْمة اللحم، فدعت الجيران حتى أَعَنَّها على الخَبْزِ والفتّ في القصاع، وصارت تعلو الخبز الذي في القصاع بمرق اللحم، ثمّ باللحم ورسول الله ﷺ يدعو عشرة فعشرة حتى لا يزدحموا على الطعام إلى أنْ أكل من أهل الخندق ألف، وكانوا كلّهم جياعاً، بعضهم له يوم، وبعضهم يومان، وبعضهم ثلاثة أيام ما ذاقوا طعاماً، وربطوا الأحجار على بطونهم، وشكوا ما بهم للنبيّ ﷺ فكشف لهم عن بطنه الشريف فوجدوا حجرين، والكلّ شبعوا طاقتهم.

ثمّ أرسلت زوجة جابر بقصعة إلى أزواج النبيّ ﷺ فأكلت منها أم سلمة ومن معها في القبّة عند الخندق، ثمّ خرج حامل القصعة بالقصعة، ونادى يا أهل الخندق فحضروا فأكل منها من لم يكن أكل قبلاً حتى نهلوا، ثمّ أرسلت إلى جويراتها ومن أعانها. ثمّ كشفت عن العجين، قال جابر: فأقسم بالله، للذي تركوه أكثر مما كانوا أكلوه[2].

وقد تقدم نظير هذا عن أم أنس بن مالك خادم النبيّ ﷺ يوم الخندق وحاصلها: أنّ أمّ أنس رضي الله عنهما لفّت له أربع أقراص شعير في طرف حزامه وجعلها تحت إبطه حتى لا يبصرها أحد، وحزّمته بباقي حزامه، وقالت له: إذا انفردت برسول الله

---

(١) العناق: ولد الماعز.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٣٨٧٥).

ﷺ فأعطه إياهنّ خفية، فإني رأيت عليه أثر الجوع، فجاء أنس ووقف على رأس النبيّ ﷺ فقال له النبيّ ﷺ: «هل معك طعام لي؟»، قال: نعم، فقال ﷺ: «بَعَثَتْك به أُمُّك؟»، قال: نعم، قال له: «اذهب قدّامي فأنا في إثرك».

وأمر ﷺ منادياً ينادي: يا أهل الخندق هلمُّوا، فإنّ أمّ أنس قد صنعت لكم طعاماً، فأقبلوا جياعاً، وتقدَّمهم رسول الله ﷺ، فأخبرته أمّ أنس بأنه ليس عندها إلا هذه الأقراص، وقدّمت له نحو العشرة، فقال ﷺ: «خير»، ودعا بقصعة وفتَّهنَّ بيده، وقال: «هل من أدم؟»، فأتت له بعكَّة سمن فعصرتها، فخرج منها شيء يسير، ثمّ بعكّة العسل فعصرتها فخرج منها شيء يسير أيضاً، ثم دعا النبيّ ﷺ وبرَّكَ فيها وتفل فيها، ثمّ دعا أهل الخندق أن يدخلوا عشرة فعشرة، فما زالت تدخل عشرة وتخرج عشرة حتى أكلوا عن آخرهم، وقد بقي في القصعة أكثرُ مما كان قبلَ أكلهم[1].

وقد أشار لغزوة الخندق المصنِّف بقوله:

وفي الخندق اشتدَّت على الناس كدُية ... فصارتْ كثيباً إذْ دعوت وجلت
نصرتَ على الكفار من تلك بالصّبا ... فأدبر في كل ارتياب ورعدة
وأشبعتهم من كف تمرٍ وتارةً ... لدى جابر أشبعتَهم بالشُّوَيْهَةِ
وأرويت ألفاً ثمّ خمسَماءٍ[2] وقد ... توضأ كل من بقية ركوة

تقدم الكلام على غزوة الخندق وما اكتنفته من الغرائب والمعجزات الدالة على صدق نبوّة سيّدنا محمّد ﷺ، وبقي أن نتكلم على شرح البيت الأخير للمنصف.

وحاصله: لقد وقع لك يا رسول الله معجزة في غزوات أخرى متعددة حين فقدت الصّحابة الماء، فدعوت بفضلة ماء، فأتوك ببقية ماء كانت في ركوة ـ أي: قربة صغيرة يحملها المسافر ليشرب منها في سفره ـ فوضعت يا رسول الله يدك فيها، فصار الماء يفور من بين أصابعك حتى توضأ وشرب وارتوى وملأ قُرَبه وسقى دوابّه كلّ من كان معك في تلك الغزوة، وهم ألف وخمسمئة في بعض الغزوات، وأكثر من ذلك في بعضها، وأقل في بعض، لأنّ هذه المعجزة تكررت في غزوات متعددة بكثرة حتى

---

(١) رواه البخاري في صحيحه بغير هذا السياق برقم: (٣٣٨٥ـ ٥٠٦٦ـ ٤١٣٥ـ ٦٣١٠)، ومسلم في صحيحه بغير هذا السياق برقم: (٢٠٤٠)، ورواه الطبراني في الأوسط واللفظ له برقم: (٣٢٢٣ـ ٩٠١٠)، ورواه في الكبير برقم: (٢٠٧٨٣). وقال الهيتمي في مجمع الزوائد: إسناده حسن، انظر المجمع: (٨/٥٤٠).

(٢) كذا، والمراد: خمسمئة.

صارت كالمتواترة، وهي إنْ لم تبلغ حدّ التواتر في بعض الغزوات، فهي متواترة من حيث هي قطعاً[1].

وقد عصفت ريح فأخبرت أنها ذلموت عظيم في اليهود بطيبة

حاصله: أنّ من جملة معجزاتك إخبارك لما هبت الريح وعصفت يوم رجوعك من غزوة بني المصطلق بأنها إنما هبّت لموت عظيم المنافقين رفاعة بن التابوت في المدينة، فكان الأمر كما أخبرت وقررت يا رسول الله. وقد تقدم الكلام على غزوة بني المصطلق بالتفصيل قبل الكلام على غزوة الخندق فارجع إليه.

غزوة بني قريظة[2]

لما رجع رسول الله ﷺ من الخندق، وكان وقت الظهيرة، وكان ﷺ قد صلَّى الظهر ودخل بيت عائشة رضي الله عنها، وقيل: زينب بنت جحش رضي الله عنها[3]، ودعا ﷺ بماء غسل به رأسه واغتسل ودعا بالمجمرة ليتبخّر إذ جاءه جبريل عليه السلام معتجراً بعمامة سوداء من استبرق ـ وهو نوع من الديباج ـ مُرْخٍ عذبة منها بين كتفيه، وعليه لامتُه، وهو على بغلة شهباء عليها قطيفة[4]، وفي رواية: جاءه ﷺ على فرس أبلق، فقال: (يا رسول الله، غفر لك أوَقد وضعت السلاح قبل أن تضعه الملائكة؟!)، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال جبريل: (فوالله ما وضعت الملائكةُ السّلاح منذ نزل بك العدوُّ، وما رجعنا الآن إلا من طلب القوم ـ يعني: الأحزاب ـ حتى بلغْنا حمراء الأسد، إنّ الله يأمرك يا محمّد بالمسير إلى بني قريظة، فإنّي عامد إليهم فمزلزل بهم).

---

(١) رواه البخاري في صحبحه برقم: (١٩٧ـ ٣٣٧٩ـ ٣٩٢١ـ ٥٣١٦) ومسلم في صحيحه برقم: (٢٢٧٩) والترمذي في سننه برقم: (٣٦٣٣) والنسائي برقم: (٧٧ـ ٧٨)، وأحمد في المسند برقم: (٢٢٦٨ـ ٢٩٩١ـ ٤٣٩٣ـ ١٢٥١٩ـ ١٢٧٦٥ـ ١٣٢٦٧ـ ١٤١١٣ـ ١٤٥٦٢ـ ١٤٨٤٨)، والدارمي في سننه برقم: (٢٦ـ ٢٩ـ ٣٠)، وصحيح ابن خزيمة برقم: (١٢٤ـ ١٢٥ـ ١٤٤ـ ٢٠٤) وابن حبان في صحيحه برقم: (٦٥٣٨ـ ٦٥٤٠ـ ٦٥٤٢ـ ٦٥٤٤ـ ٦٥٤٦ـ ٦٥٤٧) والدارقطني في سننه برقم: (١)، الطبراني في الكبير برقم: (١٠٠١٦) والأوسط برقم: (٢٧٣٢)، وأبو يعلى الموصلي في مسنده برقم: (٢٨٩٥ـ ٣٠٣٦ـ ٣١٧٢ـ ٣١٩٣ـ ٣٣٢٩ـ ٥٣٧٢) والبزار في مسنده برقم: (١٤٦٣) والبيهقي في الشعب برقم: (١٣٨)، ورواه أيضاً في السنن برقم: (١١٦ـ ١١٧ـ ١٩١ـ ٨٠ـ ٨٤) ورواه غيرهم.

(٢) وهم قوم من اليهود بالمدينة من حلفاء الأوس وسيد الأوس سعد بن معاذ ﷺ. مؤلف.

(٣) وذكر ابن كثير في الفصول في سيرة الرسول ﷺ: (١٧١) أنّ النبيّ ﷺ كان يغتسل في بيت أمّ سلمة رضي الله عنها.

(٤) القطيفة: كساء من ديباج أحمر له وبر. مؤلف.

فأمر رسول الله ﷺ منادياً فأذّن في الناس: أنْ من كان سامعاً مطيعاً، فلا يصلينّ العصر إلا في بني قريظة، وقدّم رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه برايته إلي بني قريظة، وابتدرها الناس، فسار عليّ رضي الله عنه حتى دنا من الحصون فسمع منها مقالة قبيحة في النبيّ ﷺ منهم، فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق فقال: يا رسول الله، لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابيث، فقال رسول الله ﷺ: «لِمَ؟، أظنّك سمعت منهم لي أذى؟»، قال علي: نعم يا رسول الله، فقال ﷺ: «لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً».

فلمّا دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال: «يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نِقْمته؟»، فجعلوا يقولون: يا أبا القاسم، ما كنت جهولاً ما كنت فاحشاً.

وتقدّم أسيد بن حضير إلى يهود بني قريظة قبل ذلك، فقال لهم: يا أعداء الله، لا تبرحوا من حصنكم حتى تموتوا جوعاً، إنما أنتم بمنزلة ثعلب في حجر، فقالوا: يا ابن الحضير، نحن مواليك، وخافوا، فقال لهم: لا عهد بيني وبينكم، وحاصر النبيّ ﷺ بني قريظة خمساً وعشرين ليلة، وقيل: شهراً، وكان طعام الصّحابة التمر يُرسِل به إليهم سعد بن عبادة رضي الله عنهم أجمعين، وقال ﷺ يومئذ: «نعم الطعام التمر».

واستمر الحصار على بني قريظة حتى أجهدهم، وقذف الله في قلوبهم الرّعب، وكان حُيَيُّ بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجَعتِ الأحزاب وفاءً لكعب بما كان عاهده عليه أوّل غزوة الخندق، فلمّا أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم ـ أي: يقاتلهم ـ خارج الحصن ويقتلهم، قال كبيرهم كعب بن أسيد: يا معشر اليهود، قد نزل بكم ما ترون وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فاختاروا أيها شئتم، قالوا: وما هي؟، قال: نتابع هذا الرجل ونصدّقه فوالله الذي لا إله غيره، لقد تبين لكم أنه نبيّ مرسل وإنه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، وما منعنا من الدخول معه إلا الحسدُ للعرب، ولم يكن البلاء والشؤم إلا من هذا الجالس ـ يعني حُيَيُّ بن أخطب ـ أتذكرون ما قال لكم ابن خراش حين قدم عليكم: أنّه يخرج من هذه القرية نبيّ فاتبعوه وكونوا له أنصاراً تكونوا آمنتم بالكتابين الأول والآخر ـ أي: التوراة والقرآن.

وكان يهود بني قريظة يدرسون ذكر رسول الله ﷺ في كتبهم ويعلِّمون الولدان صفته وأنَّ مهاجره المدينة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان يهود قريظة وبني النّضير وفَدَك

وخيبر يجدون صفة النبيّ ﷺ قبل أن يُبْعث وأنّ دار هجرته المدينة.

ولما قال لهم كعب ذلك قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره.

قال كعب: فإن أبيتم من هذه فهلّموا فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثمّ نخرج إلى محمّد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف لم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإنْ نظفر فلعمري لنجدنّ النّساء والأبناء، قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خير في العيش بعدهم، قال: فإن أبيتم عن هذه، فإنّ الليلة ليلة السبت، وأنْ عسى أنْ يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلّنا نصيب من محمّد وأصحابه غِرَّةً ـ أي: غفلة ـ فقالوا: نُفْسِدُ سَبتنا ونُحدث فيه ما لم يُحدث فيه من قبلنا.

وقال لهم عمرو بن سُعْدى: قد خالفتم محمّداً فيما خالفتموه فيما عاهدتموه عليه ولم أُشْرِكُكم غَدْركم، فإنْ أبيتم أن تدخلوا معه فاثبتوا على اليهودية وأعطوا الجزية، فوالله ما أدري أيقبلها أم لا، قالوا: نحن نقرُّ للعرب بخَرَاج في رقابنا يأخذونه؟؟!! القتلُ خير من ذلك. قال: فإني بريء منكم.

وخرج في تلك الليلة فمرَّ بحرس رسول الله ﷺ، ومعهم محمد بن مسلمة، فقال محمد بن مسلمة: من هذا؟، قال: عمرو بن سُعْدى، فقال محمد بن مسلمة حين عرفه: اللهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام، وخلّى سبيلَه، فخرج على وجهه حتى بات في مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة تلك الليلة، ثمّ ذهب لم يُدْرَ أين توجّه من الأرض إلى يومه هذا، وقيل: إنّه أوثق برمة فيمن أوثق من بني قريظة حين نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأصبحت رمته ملقاة ولا يُدرى أين ذهب[1].

وأُخبر رسول الله ﷺ خبرَه فقال: «ذاك رجل نجّاه الله بوفائه»[2].

وفي لفظ، أنّ عمرو بن سُعْدى قال لهم قبل أن يقدم النبيّ ﷺ لحصارهم: يا بني قريظة لقد رأيتُ عِبَراً: رأيت منازل إخواننا ـ يعني: بني النّضير ـ خالية بعد ذلك العزِّ والجلد والشرف الفاضل والعقل البارع، قد تركوا أموالهم، قد تملكها غيرهم وخرجوا خروجَ ذلٍّ، لا والتوراة ما سُلِّطَ هذا على قوم قطّ لله بهم حاجة، قد أُوقِع ببني قينقاع ـ وكانوا أهل عدَّة وسلاح ونخوة ـ فلم يخرج منهم أحد رأسه حتى سباهم، فكُلِّم فيهم فأجلاهم من يثرب، يا قوم، قد رأيتم ما رأيتم فأطيعوني وتعالوا

---

(١) انظر البداية والنهاية: (٤/١٢١)، وتاريخ الطبري: (٢/١٠٠).

(٢) رواه البيهقي في سننه برقم: (١٨٦٣٦).

نَتَّبع محمداً، فوالله إنكم لتعلمون أنه نبيّ، وقد بَشَّرَنا به علماؤنا، فأسكت القوم ولم يتكلّم منهم متكلّم، ثمّ أعاد هذا الكلام ونحوه، وخوّفهم بالحرب والسبي والجلاء.

ثمّ أقبل على كعب بن أسد فقال له: والتوراة التي نزلت على موسى يوم طور سيناء، إنه العزّ والشرف في الدينا، فبينما هم على ذلك لم يرعهم إلا مَقدم النبيّ ﷺ قد حلَّ ساحتهم، فقال عمرو: هذا الذي قلت لكم.

وبعد الحصار أرسلوا بنباش بن قيس إلى رسول الله ﷺ على أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النّضير من أنّ لهم ما حملت الإبل إلا الحلق، فأبى رسول الله ﷺ، فأرسلوه في أن يحقن دماءهم ويسلّم لهم نساءهم والذريّة لا غير، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأرسلوه[1] أن ابعث لنا أبا لبابة ـ وهو رفاعة بن المنذر ـ لنستشيره في أمرنا لأنه كان من حلفاء الأوس وبنو قريظة منهم، وكان ناصحاً لهم لأنّ ماله وولده وعياله كانت في بني قريظة، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلمّا رأوه قام إليه الرجال وأسرعت إليه النّساء والصّبيان يبكون في وجهه من شدّة الحصار وتشتُّت مأربهم، فرَقَّ لهم، وقالوا: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمّد؟، قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه ـ أي: أنه الذبح، أي: فلا تفعلوا.

قال أبو لبابة: فوالله ما زالتْ قدمايَ عن مكانهما حتى عرفت أني خنتُ الله ورسوله ـ أي: لأنّ في ذلك تنفيراً لهم عن الانقياد لرسول الله ﷺ، ومن ثمّ أنزل الله تعالى في شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ...﴾[2] الآية. وقيل: نزل فيه: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ...﴾[3] الآية.

قال أبو لبابة: فندمت واسترجعت قبل أن تزول قدماي من مجلس قريظة، فقال لي كعب: مالَكَ مالَكَ يا أبا لبابة؟، فقلت: خنتُ الله ورسوله ﷺ، فنزلتُ من حصنهم، وإنّ عيناي لتسيلان من الدموع.

ثمّ انطلق أبو لبابة على وجهه فلم يأت رسول الله ﷺ، ولكن ربط نفسه بالمسجد إلى سارية من سواريه[4]، كانت عند باب حجرة أم سلمة زوج النبيّ ﷺ في حرٍّ

---

(١) أي: أرسلوا نبّاشاً.

(٢) الأنفال: ٢٧.

(٣) التوبة: ١٠٢.

(٤) وتعرف هذه السارية بسارية التوبة وسارية أبو لبابة، وهي موجودة مسماة في الروضة حتى الان.

شديد، وكان أكثر تنفُّله ﷺ عند تلك السارية، فكان ﷺ ينصرف إليها من صلاة الصّبح، وكان الفقراء والمساكين ومن لا بيت له إلا المسجد يستبقون إليها فيجيء ﷺ إليهم ويتلو عليهم ما أُنزل عليه من ليلته ويحدّثهم ويحدّثونه.

وكان ﷺ قد ربط نفسه بسلسلة ربوض ـ أي: ثقيلة ـ وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليَّ مما صنعت، وعاهد الله تعالى أن لا يطأ بني قريظة أبداً ولا يُرَى في بلد خان الله ورسوله فيه أبداً.

فلمّا بلغ خبرُه رسولَ الله ﷺ، وكان قد استبطأه وسأل عنه، فقال رسول الله ﷺ: «أما لو جاءني لاستغفرت له، وأمّا إذ فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقه حتى يتوب الله عليه».

فاستمر مربوطاً ستة أيام، وقيل: أكثر، وكانت تأتيه زوجته فتطلقه وقت الصّلوات ووقت قضاء الحاجة، ثمّ تعيد ربطه، فنزلت توبته ﷺ على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة رضي الله عنها، قالت أم سلمة رضي الله عنها: سمعت رسول الله ﷺ يضحك في السَّحَر، فقلت: لِمَ تضحك يا رسول الله، أضحك الله سنَّك، فقال ﷺ: «تيب على أبي لبابة»، قالت: قلت: أفلا أبشرّه يا رسول الله؟، قال: «بلى، إن شئت»، فقامت على باب حجرتها فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك، قالت: فثار النّاس إليه ليطلقوه، فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده الشريفة، وقيل: إنّ من بشّره بتوبة الله عليه هي عائشة رضي الله عنها.

فلما مرَّ رسول الله ﷺ على أبي لبابة خارجاً إلى صلاة الصّبح أطلقه، فقال أبو لبابة: من تمام توبتي أنْ أهجر دار قوم أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي، فقال له عليه الصّلاة والسلام: «يجزيك الثلثُ، أنْ تتصدَّق به»، ولم يأمره رسول الله ﷺ أن يهجر تلك الدار. أي :لم يأذن له في ذلك.

ثمّ إنّ بني قريظة بعد نزول أبي لبابة من عندهم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ فأمر بهم فكتّفوا وجُعلوا ناحية، وأخرج النساء والذراري من الحصون، وجُعلوا ناحية، واستعمل ﷺ عليهم عبد الله بن سلام، فتواثب الأوس، فقالوا: يا رسول الله، موالينا وحلفاؤنا، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما فعلت ـ يعنون بني قينقاع ـ لأنهم كانوا حلفاء الخزرج، ومن الخزرج ابن أُبَيٍّ، وقد كلَّم النبيّ ﷺ فيهم، فوهبهم له على أنْ يُجلوا من المدينة كما تقدم.

فظنَّت الأوس أن يهبهم بني قريظة كما وهب بني قينقاع للخزرج، فلما كلَّموه في بني قريظة قال لهم رسول الله ﷺ: «ألا ترضون يا معشر الأوس أنْ يحكم فيهم رجل منكم؟»، قالوا: بلى، فقال لهم: «فذلك سعد بن معاذ»، وقيل: أنه ﷺ قال لهم: «اختاروا من شئتم من أصحابي»، فاختاروا سعد بن معاذ، وقيل: إنهم من أول الأمر نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فرضي بذلك رسول الله ﷺ.

وكان سعد بن معاذ رضي الله عنه يومئذ في المسجد في خيمة رفيدة رضي الله عنها تداويه من جرحه الذي أصابه من حصار الخندق بأمره ﷺ بذلك، فإنها كانت مُعَدّة لمداواة الجرحى، فحينئذ أمر النبيّ ﷺ بإحضاره إلى مجلسه ﷺ عند بني قريظة، فأتاه قومه فحملوه على حمار، ثمّ أقبلوا به على رسول الله ﷺ وهم يقولون له: يا أبا عمرو، مواليك، فإنّ رسول الله ﷺ إنما ولَّاك ذلك لتُحْسِنَ فيهم، فقد رأيتَ ابن أُبَيٍّ وما صنع في حلفائه.

وفي شرح البخاري[1]: فلما دنا سعد من مجلس النبيّ ﷺ قال ﷺ للصحابة ومن حضر المجلس معه ﷺ من بني قريظة: «قوموا إلى سيّدكم ـ وفي رواية: إلى خيركم ـ فأنزلوه»، فقاموا إليه.

وقالت بنو قريظة: يا أبا عمرو، إنّ رسول الله ﷺ قد ولَّاك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال رسول الله ﷺ: «احكم فيهم يا سعد»، فقال: الله ورسوله أحقّ بالحكم، فقال ﷺ: «قد أمرك الله أن تحكم فيهم»، فقال سعد لجميع من حضر مجلس النبيّ ﷺ: عليكم عهد الله وميثاقه أن ترضوا بحكمي؟، قالوا: نعم، قال: وعلى من ها هنا؟، وأشار إلى الناحية التي فيها رسول الله ﷺ وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، ثمّ قال ذلك ثانياً وثالثاً، فقالوا في كلّ ذلك: نعم.

فقال رضي الله عنه: فإني أحكم أن يقتل مقاتلتُهم، وتسبى الذراري والنساء، وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار، فقالت الأنصار: إخواننا المهاجرين كنّا معهم، فقال: إني أحبُّ أن يستغنوا عنكم.

فقال رسول الله ﷺ لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع أرقعة» أي: السماوات السبع[2]. سميت بذلك لأنها رقعت بالنجوم.

---

(١) انظر فتح الباري: (١١/٥١) وعمدة القاري للعيني: (١١/٢٦٩).

(٢) سميت أرقعة لأنها رقعت بالنجوم. مؤلف.

وفي أمره ﷺ بالقيام لسعد دليل على ندب القيام لأهل الفضل، وقد قام رسول الله ﷺ لعكرمة بن أبي جهل لكونه من رؤساء قريش، ولعدي بن حاتم لكونه سيد بني طيّ يتألّفهما، والنهي عن القيام إنما هو في الإعظام كما هو دأب الأعاجم في الإكرام، وفيه أيضاً جواز إطلاق السيّد على المخلوق.

وقسّم رسول الله ﷺ أموال بني قريظة على المسلمين، فجُمِع ما في حصونهم، فكان ألفاً وخمسمئة سيف وثلاثمئة درع، وألفي رمحٍ، وخمسمئة ترس وجحفة، ووُجِد أثاث كثير وآنية كثيرة، وجِمَال نواضح يُسْقَى عليها الماء، وماشية وشياه كثيرة، فخمَّسَ ذلك مع النّخل والسبي حتى الرثّ من أمتعة البيت خمّسه أجزاء، فأعطى أربعة أسهم للناس، فجعل للفارس ثلاثة أسهم: سهم له وسهمان لفرسه، وللراجل سهم، ورَضْخُ[1] للنّساء المؤمنات اللاتي حضرْن القتال، ومنهن صفية عمَّته ﷺ، وأم عمارة[2]، وأم سليط[3]، وأم العلاء[4]، والسميراء بنت قيس، وأم سعد بن معاذ كبيشة بنت رافع.

وأخذ رسول الله ﷺ خُمُسَ ذلك الباقي، فصرفه ﷺ مصرفه، ثمّ أمر رسول الله ﷺ بالأسرى أن يكونوا في دار أسامة بن زيد، والذرية في دار ابنة الحارث النجَّارية، وأمر بالمتاع أن يُحْمل وأنْ تترك المواشي هناك ترعى الشجر، ثمّ غدا رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثمّ خرج إلى سوق المدينة فخندق فيها خنادق ـ أي: أمر أن تحفر فيها حفائر ـ ثمّ أمر رسول الله ﷺ أن يقتل من أنبت منهم[5]، ، فبعث إليهم فجاؤوا إليه

---

(١) الرضخ: العطاء القليل. انظر المرجع السابق: (٢/٥٥٦).

(٢) واسمها نسيبة بنت كعب بن عمرو. انظر الإصابة: (٨/٢٦٥)، والطبقات الكبرى: (٨/٤١٢)، وتقريب التهذيب: (١/٧٥٧)، وأسماء من يعرف بكنيته للأزدي: (٦٨).

(٣) وهي بنت عبيد بن زياد بن ثعلبة من بني مازن، ولم يعرف لها اسم، فكأنّ اسمها كنيتها، كنيت رضي الله عنها بولدها سليط بن عمرو بن قيس من بني عدي بن النجار، وتزوجت مالك بن سنان بعد أبي سليط فولدت له أبا سعيد الخدري فهو أخو سليط لأمّه. انظر الإصابة: (٨/٢٢٦)، والطبقات الكبرى: (٨/٤١٩).

(٤) هي بنت الحارث بن ثابت بن خارجة بن ثعلبة بن الجلاس الأنصارية رض الله عنها، ولم يعرف لها اسم، فكأنّ اسمها هو كنيتها. انظر فتح الباري: (١١/٢٥٧)، تهذيب الكمال: (٣٥/٣٧٦)، وتقريب التهذيب: (١/٧٥٧).

(٥) أن يقتل من أنبت منهم: أراد نبات شعر العانة، فجعله علامة للبلوغ، وليس ذلك حداً عند أكثر أهل العلم، إلا في أهل الشرك، لأنهم لا يُوقف على بلوغهم من جهة السنّ، ولا يمكن الرجوع إلى قولهم للتهمة في دفع القتل وأداء الجزية. =

أرسالاً تضرب أعناقهم ويلقون في تلك الخنادق، وقال بعضهم لسيِّدهم كعب بن أسيد: يا كعب، ما تراه يصنع بنا؟، قال: في كلّ موطن لا تعقلون، أما ترون أنّ من ذهب منكم لا يرجع، هو والله القتل، قد دعوتكم إلى غير هذا فأبيتم عليَّ، قالوا: ليس الآن وقت عتاب، فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ، ثمّ ردَّ عليهم التراب في تلك الخنادق.

ومن لم يكن أنبت منهم تُرك، وكانوا ما بين الستمئة إلى السبعمائة، وقيل: ما بين السبعمئة إلى الثمانمئة، ولم يقتل من النساء أحداً سوى امرأة واحدة، وهي بَنَانَة[(١)] امرأة الحكم القُرَظي، لأنها كانت طَرَحت على رأس خلّاد بن سويد رحىً فقتلته[(٢)] لعنها الله تعالى.

وكان المتولِّي لقتلهم علي بن أبي طالب والزبير بن العوَّام رضي الله عنهما، وعند قتلهم صاحت نساؤهم وشققنَ جيوبهنّ ونشرنَ شعورهنّ ولطمن خدودهنّ، ومُلئت المدينة نُواحاً.

وكان من جملة من أتي به معهم عدوّ الله حييُّ بن أخطب مجموعةً يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال له: «ألم يُمْكني الله منك يا عدوَّ الله؟»، قال: بلى، أبى الله إلا أن يمكِّنك مني، أما والله ما لمتُ نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يُخْذَل، ثمّ أقبل حييٌّ على الناس فقال: يا أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة، كتب على بني إسرائيل، ثمّ جلس، فضربت عنقه.

ولما أتى كعب بن أسيد سيّد بني قريظة، قال له النبيّ ﷺ: «يا كعب»، قال: نعم يا أبا القاسم، قال: «ما انتفعتم بنصح ابن حراش لكم[(٣)]، وكان مصدِّقاً بي، أما أمركم باتِّباعي، وإن رأيتموني تقرئوني منه السلام؟»، قال: بلى والتوراة يا أبا القاسم، ولولا أن تعيّرني اليهود بالجزع من السيف لاتَّبعتك، ولكنه[(٤)] على دين يهود، فأمر به

= وقال أحمد: الإنبات حدّ معتبر تُقام به الحدود على من أنبت من المسلمين، ويُحكى مثله عن مالك. انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: (٥/٥).

(١) وقيل: مزنة.

(٢) قتلته بإشاد زوجها لأنّه خشي أن تعيش من بعده فيتزوج بها غيره.

(٣) كان ابن حراش هذا وابن الهيبان أبو عمير ـ وهما أعلم يهود ـ قد جاءا إلى المدينة يتوقعان خروج النبيّ ﷺ فلم يدركاه، فأمرا يهود باتباعه إن هو ظهر، وأن يقرئوه سلامهما، ثمّ ماتا على دين اليهودية، ودفنا في الحرة من المدينة. انظر البداية والنهاية: (٤/٨٠).

(٤) أي: نفسه، أعني: كعب بن أسيد.

ﷺ فضربت عنقه.

وقد أسهم ﷺ لخلّاد بن سويد هذا، وقال: «إنّ له أجر شهيدين»، وأسهم لسنان بن محصن، وكان قد مات في زمن الحصار.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لم يقتل من نساء بني قريظة إلا واحدة، والله إنها لعندي تتحدَّث معي وتضحك ظهراً وبطناً، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السّوق إذ هتف هاتف باسمها أين بنانة، قالت: أنا والله، قالت عائشة رضي الله عنها فقلت لها: ويلك مالك؟، قالت: أُقْتل، قلتُ: ولِمَ، قالت: لحدث أحدثته، وفي لفظ: قالت: قتلني زوجي، فقالت لها عائشة كيف قتلك؟ قالت: أمرني أن أُلْقِيَ رحىً على أصحاب محمّد كانوا تحت الحصن مستظلِّين في فيئه فأدركتْ خلادَ بن سويد فشدختْ رأسه فمات وأنا أُقْتَلُ به، وفي لفظ آخر: إني كنت زوجة رجل من بني قريظة، وقد كان بيني وبين زوجي كأشدّ ما يتحابّ الزوجان، فلما اشتد أمر المحاصرة، قلت لزوجي: يا حسرتى على أيام الوصال كادت أن تنقضي وتتبدل إلى الفراق، وما أصنع بالحياة بعدك، فقال لي زوجي: إن كنتِ صادقة في دعوى المحبة، تعالَيْ فإنّ جماعة من المسلمين جالسون في ظلّ الحصن فألقي الرّحى على واحد من أصحاب محمد تقتليه فتُقتلي به إنْ ظفروا بنا وتلحقي بي ولا ينالك غيري ففعلتُ ما ذَكَر، قالت عائشة رضي الله عنها: فانطُلِقَ بها فضُرِبَتْ عنقها، والله ما ألقى أعجب منها: من طيب نفسها وكثرة ضحكها، وقد عرفتْ أنها تقتل.

وكان في بني قريظة الزبير بن بطا وكان شيخاً كبيراً، وكان قد مَنَّ على ثابت بن قيس في الجاهلية يوم بغاث[1] فجاء ثابت بن قيس الزبيرَ يوم قريظة فقال: يا أبا عبد الرحمن، هل تعرفني؟، فقال الزبير: وهل يجهل مثلي مثلك؟!، فقال: إني قد أردت أن أجزيك بيدك عندي، فقال: إنّ الكريم يجزي الكريم، وأحوجَ ما كنتُ إليك اليومَ، فأتى ثابت إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه كان للزبير بن بطا عليَّ منَّة، وقد أحببتُ أن أجزيه بها فهبه لي، فقال رسول الله ﷺ: «هو لك»، فأتاه فقال: إنّ رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك، فهو لك، فقال: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟!، فقال ثابت: فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي،

---

(١) يوم بغاث: يوم الحرب التي نشبت بين الأوس والخزرج قبل قدومه ﷺ الدينة، وكان الظفر فيها للأوس على الخزرج، فأخذ الزبير ثابتاً فجزّ ناصيته ثمّ أطلق سبيله. مؤلف.

امرأتَه وولدَه، فقال ﷺ: «هم لك»، قال: فأتيته فقلت له: قد وهب لي رسـول الله ﷺ أهلك وولدك، فهم لك، فقال: أهلُ بيت في الحجاز لا مال لهم، فمـا بقـاؤهم علـى ذلك، قال: فأتيتُ رسول الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله، مالَه، قال ﷺ: «هـو لـك»، فأتيته فقلت: قد أعطاني رسول الله ﷺ مالَك، فهو لك، فقـال: أيْ ـ هـي أداة نـداء ـ ثابتُ أمّا أنت فقد كافيتَني وقد قضيتَ الذي عليك، فما فعـل الـذي كـان وجهـه مـرآة مضيئة تترائى فيه عذارى الحيِّ كعبُ بن أسيد سيّدُ بني قريظة؟، قلت: قد قُتـل، قـال: فما فعل سيّد الحاضر والبادي ـ أي: من يحملهم في الجـدب ويطعمهـم في المَحْـل ـ حييُّ بن أخطب؟، قلت: قُتل، قال: فما فُعِـل بمقـدِّمتنا إذا شـددنا وحامينـا إذا فررنـا عزّال بن سموأل؟، قلت: قد قُتِل، قال: فما فعل المَجْلسان[1] ــ أي: بـني كعـب بـن قريظة وبني عمرو بن قريظة ـ؟، قلت: قُتِلا. وفي لفظ: قُتلوا، قال: فـإني أسـألك يـا ثابت بيدي عندك إلا ما أَلْحقْتَني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير فما أنا بصابر لله قبلة دلوِ ناضحٍ[2] حتى ألقى الأحبة، قال ثابت: فقدّمْتُه فضربت عنقه، وقيل: إنّ ثابتاً قال له: ما كنتُ لأقتلك، فقال: لا أُبالي مَن قتلني، فقتله الزبير بن العوام.

ولما بلغ أبا بكر مقالتُه[3]، قال ﷺ: يلقاهم ـ والله ـ في نـار جهـنم خالـداً فيهـا مخلّداً.

قال عطية القرظي: كنت غلاماً فوجدوني لم أُنبت فخلّـوا سـبيلي لم يقتلـوني، وكان رفاعة قد أنبت فأرادوا قتله فلاذ بسلمى بنت قبيس أم المنـذر، وكانـت إحـدى خالاته ﷺ ـ أي: خالات جدّه عبد المطلب لأنها من بني النجار ـ فقالـت: يـا رسـول الله، بأبي أنت وأمي، هب لي رفاعة، فوهبه لها فأسلم.

وقرَّت عينُ سعد بن معاذ ﷺ بقتل بني قريظة حيث استجاب الله دعوتـه فـيهم، فإنّه سأل الله تعالى لما أُصيب بالسّهم في الخندق فقال: لا تُمِتْني حتى تقرَّ عـيني مـن بني قريظة كما تقدم.

ولما انقضى شأن بني قريظة قال رسول الله ﷺ: «لن تغزوكم قريش بعد عـامكم هذا، ولكنّكم تغزونهم»، فكان الأمر كما قال ﷺ.

---

(١) المجلسان: محل الجلوس، كنى بالمجلس عن أهله وأصحابه على سبيل المجاز.

(٢) أي: بالقدر الذي يحتاجه الناضح لإفراغ دلوه. مؤلف.

(٣) أي: فما أنا بصابر لله قبلة دلو ناضح حتى ألقى الأحبة.

وانفجر جرح سعد بن معاذ ﷺ الذي في يده وسال الدم، فاحتضنه النبيّ ﷺ فجعل الدم يسيل على رسول الله ﷺ، وكان ورم جرحُه حتى اتّصل الورم بصدره ولَبّته فحصل الانفجار من لبّته فلم يَرُعْ أهل المسجد إلا الدمُ يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الدم الذي يأتينا من قبلكم، فإذا سعد يفيض جرحه دماً، فحمل إلى منزله، فمات منه ليلاً.

ولم يكن رسول الله ﷺ علم بموته بعد، فجاءه جبريل من الليل معتجراً بعمامة من استبرق، فقال: يا محمد من هذا العبدُ الصّالح؟. وفي لفظ: من هذا الميت الذي فُتحت له أبواب السماء واهتزَّ له العرش. وفي رواية: عرش الرحمن، أي: فتحت أبواب السماء لصعود روحه واهتزَّ عرش الرحمن، أي: تحرك فرحاً بذلك، فقام ﷺ سريعاً يجرُّ ثوبه إلى سعد بن معاذ فوجَدَهُ قد مات.

ولما دفن ﷺ قال ﷺ: «لو كان أحدٌ ناجياً من ضمَّة القبر لنجا منها سعد، فإنه ضمّه ضمَّة ثمّ فرَّج الله عنه»، وسئل رسول الله ﷺ عن سبب ضمّه فقال: «كان يقصّر في بعض الطهور من البول بعض التقصير». ولما ناحت أم سعد عليه قال ﷺ: «كل نائحة تكذب إلا نائحةَ سعد بن معاذ» أي: فإنّه موصوف بكلّ ما يقال فيه من الأوصاف الحسنة بخلاف غيره.

وبعث صاحب دومة الجندل إلى رسول الله ﷺ بجبَّة من سندس فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يعجبون من تلك الجبَّة فقال رسول الله ﷺ: «لمناديل سعد بن معاذ في الجنّة أحسن» يعني من هذه. ومن المعلوم أن المناديل أدنى الثياب لأنها معدَّة للامتهان، فثيابه في الجنة أعلى وأغلى.

وقد وهب ﷺ تلك الجبَّة لعمر بن الخطاب ﷺ، ثمّ بعث ﷺ سبايا قريظة إلى نجد، وقيل: إلى الشام مع سعد بن عبادة فباعها، واشترى بثمنها سلاحاً وخيلاً، وقسَّمها رسول الله ﷺ على المسلمين، ونهى ﷺ أن يفرَّق بين أم وولدها حتى يبلغ، قيل: يا رسول الله وما بلوغه؟، فقال ﷺ: «تحيض الجارية ويحتلم الغلام»، وقال ﷺ: «من فرَّق بين والدة وولدها فرَّق الله بينه وبين أحبَّته يوم القيامة».

وكان إذا وجد الصّغير ليس له أمّ لم يُبَع من مشركي العرب ولا من اليهود وإنما يباع من المسلمين، وكانت أم الولد الصّغير إذا لم تسلم تباع من المشركين هي وولدها ومن العرب ومن يهود المدينة.

واصطفى ﷺ لنفسه منهم ريحانة بنت عمرو، وهو شمعون مولى رسول الله ﷺ من بني النّضير، وكانت متزوِّجة في بني قريظة، وكانت جميلة وأسلمت بعد أن أبت الإسلام، فسرَّ رسول الله ﷺ بإسلامها، وخيَّرها النبيّ ﷺ بين أن يعتقها ويتزوَّجها وبين أن تكون باقية في ملكه يطؤها بالملك، فاختارت أن تكون في ملكه، ثمّ أعتقها وتزوّجها ﷺ وأعرس بها سنة ست بعد أنْ حاضت حيضة، وضرب عليها الحجاب فغارت عليه ﷺ، فطلَّقها تطليقة، فأكثرت من البكاء فراجعها النبيّ ﷺ ولم تزل عنده حتى ماتت مرجعَه من حجة الوداع سنة عشرة، فدفنها بالبقيع، وتقدَّم أنّ قريظة والنّضير أَخَوان من أولاد هارون عليه السلام.

غزوة بني لِحْيان بناحية عسفان: (وهي قبيلة من هذيل)

غزاهم رسول الله ﷺ بعد مضي ستة أشهر من غزوة بني قريظة يطلبهم بأصحاب الرّجيع: وهم خبيب وأصحابه رضي الله عنهم الذين قتلوا ببئر معونة، لأنه ﷺ وجد وجداً شديداً عليهم، وأراد أن ينتقم من هذيل، فأمر أصحابه بالتهيُّؤ وأظهر أنه يريد الشّام ليدرك من القوم غفلة، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وخرج في مئتي رجل، ومعهم عشرون فرساً، ولما وصل إلى المحل الذي قُتِل فيه أهل الرّجيع ترحَّم عليهم، ودعا لهم بالمغفرة، فسمعت به بنو لحيان فهربوا في رؤوس الجبال، وأرسل ﷺ السّرايا في كلّ ناحية فلم يجدوا أحداً، وأقام ﷺ على ذلك يومين، فلمّا رأى ﷺ أنه فاته ما أراد من غفلتهم، قال: «لو أنا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أنّا قد جئنا مكة»، وسار ﷺ حتى بلغ عسفان، ثمّ بعث ﷺ فارسين حتى بلغ كراع الغميم[1]، ثمّ كرا راجعين.

ثمّ قفل ﷺ راجعاً إلى المدينة فقال ﷺ: «آيبون تائبون إن شاء الله، لربنا حامدون، أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال والولد، اللهم بلغنا بلاغاً صالحاً إلى خير مغفرتك ورضواناً»، ثمّ لما وصل الأبواء نظر يميناً وشمالاً فرأى قبر أمه ﷺ آمنة فتوضأ ثمّ صلى ركعتين، وبكى ﷺ وبكى النّاس لبكائه، ثمّ قام فصلى ركعتين ثمّ انصرف إلى الناس، وقال لهم: «ما الذي أبكاكم؟»،

(١) كراع الغميم: منطقة تقع جنوب عسفان بنحو ستة عشر كيلاً على الجادة إلى مكة، أي: على مسافة (٦٤) كيلاً من مكة على طريق المدينة، وتعرف اليوم: برقاء الغميم. انظر المعالم الأثيرة: (٢٣١).

فقالوا: بكينا لبكائك يا رسول الله ـ ووقع نظير ذلك في فتح مكة ـ ثمّ قال ﷺ: «ما ظننتم؟»، قالوا: ظننا أنّ العذاب نازل علينا، قال: «لم يكن من ذلك شيء»، قالوا: ظننا أنّ أمّك كُلّفت من الأعمال ما لا تطيق، قال: «لم يكن من ذلك شيء، ولكنني مررت بقبر أمي، فصلّيت ركعتين، ثمّ استأذنت ربي عزَّ وجلَّ أنْ استغفر لها فزجرتُ زجراً ـ أي: مُنعتُ عن ذلك منعاً شديداً ـ أبكاني»، ثمّ أحيي له ﷺ أبواه فآمنا به كما ورد في الحديث الضعيف، لكنّه صحّ عن يقين عند أهل الكشف.

وأما إيمان أبي طالب فقد ورد أنه أحيي أيضاً وآمن به ﷺ لكنّه أضعف من الأول، ولا بُعْد في ذلك بالنسبة لجاهه ﷺ، وهو الذي ندين الله عليه، كما قاله بعض مشايخنا اللوذعيين، منهم الشيخ الفضالي[1] ﷺ وأرضاه، وجزاه عنَّا كلّ خير، وجزى جميع مشايخنا عنَّا أحسن الجزاء، وجزى الله عنَّا نبيّنا ﷺ وأصحابه وأهل بيته أحسن الجزاء. آمين يا رب العالمين.

غزوة ذي قرد: (ويقال: غزوة الغابة)

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة من غزوة بني لحيان لم يُقِم بها إلا ليالي قلائل حتى أغار عُيينة بن حصن في خيل من غطفان على لقاح رسول الله ﷺ بالغابة[2]، وكانت اللقاح[3] عشرين لَقْحة، وفيها أبو ذرٍّ الغفاري وزوجته وولده، وكان راعيها يسير ـ أي: يرجع ـ بلبنها كلّ ليلة عند المغرب إلى المدينة، فقتلوا ولده وحملوا المرأة مع اللقاح، وكان أبو ذر الغفاري استأذن رسول الله ﷺ في أن يكون في اللقاح، فقال له رسول الله ﷺ: «لا تأمن عيينة بن حصن وذويه أن يُغيروا عليك»، فألحَّ على النبيّ ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «لكأني بك قد قتل ابنك وأخذتِ امرأتك وجئت تتوكأ على عصاك».

فكان أبو ذرٍّ يقول: عجباً لقد كان الأمر كما قاله ﷺ، فإني وابني في منزلنا فلمّا كان الليل أحدق بنا عيينة بن حصن في أربعين فارساً فصاحوا بنا وهم قيام على رؤوسنا فأشرف لهم ابني فقتلوه، وكان معه ثلاثة نفر فتنحَّوا عنه وتنحَّيت عنهم

---

(١) هو الإمام محمد بن شافعي الفضالي. فقيه مصري شافعي. توفي (١٢٣٦) هـ. انظر الأعلام للزركلي: (١٥٥/٦).

(٢) الغابة: موضع كان ذا أشجار كثيفة من الأثل والطرفاء يقع في الشمال الغربي لجبل أحد.

(٣) اللقاح: جمع لَقْحة، وهي الناقة ذات اللبن القريبة العهد بالولادة، أو هي الحامل ذات اللبن.

وشغلهم عن إطلاق عقل اللقاح، ثمّ صاحوا في أدبارها فكان آخر العهد بها، ولما قدمت المدينة على رسول الله ﷺ وأخبرته تبسَّم ﷺ.

وكان أوّل من علم بهم سلمة بن الأكوع فإنه كان يريد الغابة متوشّحاً قوسه ومعه غلام لطلحة بن عبيد الله معه على فرس لطلحة يقوده، فلقي غلاماً لعبد الرحمن بن عوف فأخبره، فأخبر الغلام عبد الرحمن بن عوف، قال سلمة: فلمّا لقيني عبد الرحمن أخبرني الخبر فرجعت إلى المدينة ووقفت على تلّ بناحية سلع، ثمّ ناديت ثلاث مرات: يا صباحاه، أسمعتُ ما بين لابتيها ـ وهي كلمة تقال عند استعداء من كان غافلاً عن عدوِّه لأنهم يسمُّون يوم الغارة يوم الصّباح.

ثمّ قال سلمة بن الأكوع: ثمّ رجعت أشتدّ في أثر القوم كالسّبع، وكان في عَدْوِهِ يسبق الفرس في جريه ـ وروي أنّ كعبيه أو إبهامي رجليه كانا يضربان في شحمتي أذنيه ـ فلمّا أشرف على جماعة عيينة صار يرميهم بالنبل ويقول إذا رماهم: خذوها وأنا ابن الأكوع، واليوم يوم الرضّع ـ أي: يوم هلاك اللئام ـ فإذا وجّهت الخيل نحوه انطلق هارباً فلا يدركونه، وإن هربوا أدركهم هو.

قال رضي الله عنه: كنت ألحق الرجل منهم فأرميه بسهم في رجله فأعقره فإذا رجع إليّ فارس منهم أتيت شجرة فجلست في أصلها، ثمّ أرميه فأعقره فيولّي عني، فإذا دخلت الخيل في بعض مضايق الجبل علوتُ الجبل ورميتهم بالحجارة، ولم أزل أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين رمحاً وأكثر من ثلاثين بردة يستخفّون، ولا يلقون شيئاً من ذلك إلا جمعته على طريق رسول الله ﷺ وجعلتُ عليه الحجارة، وما زلتُ أتبعهم حتى ظننت أنه لم يبق معهم شيء من اللقاح إلا وخلّفوه وراءهم.

ولما بلغ صوت سلمة إلى رسول الله ﷺ نادى بالمدينة: «الفزع الفزع، يا خيل الله اركبي»، فكان أوّل من ركب ووصل إلى النبيّ ﷺ المقداد بن الأسود[1] ثمّ قدم عبّاد بن بشر وسعد بن زيد، ثمّ تلاحقت بهم الفرسان، فأمَّر ﷺ عليهم سعد بن زيد، وقيل: المقداد، وعقد ﷺ لذلك الأمير لواء في رمحه، ثمّ قال له: «اخرج في طلب القوم حتى ألحقك بالناس»، فخرج الفرسان في طلب القوم حتى تلاحقوا بهم، وكان شعارهم يومئذ (أمت أمت)، وأوّل فارس لحق بهم محرز بن نضلة ويقال له: الأخرم الأسدي، وقف لهم بين أيديهم وقال لهم: قفوا يا معشر بني اللكيعة ـ أي: اللئيمة ـ

---

(١) ويقال له: ابن الأسود لأنّه كان في حِجْر الأسود بن عبد يغوث فنسب إليه لأنّه تبنّاه. مؤلف.

حتى يلحق بكم من وراءكم من المهاجرين والأنصار، فحمل عليه شخص من المشركين فقتله.

قال سلمة بن الأكوع: إنّ القوم جلسوا يتغدّون وجلستُ على رأس جبل، فقال لهم رجل أتاهم: «من هذا؟»، قالوا: لقينا من هذا البرح حتى انتزع كلّ شيء في أيدينا، قال: فليقم إليه منكم أربعة، فتوجّهوا إليَّ فهددتهم، وقلت لهم: هل تعرفوني؟، قالوا: لا، ومن أنت؟؟، قلت: أنا سلمة بن الأكوع، والذي كرّم وجّه محمّد ﷺ، لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته، ولا يطلبني رجل منكم فيدركني، قال أحدهم: أنا أظنّ ذلك فرجعوا، قال: ولما رأيت الأحزم الأسدي أوّل الفرسان نزلت من الجبل، فأخذتُ بعنان فرسه، وقلت له: احذر القوم، لا يقتلونك، حتى يلحق رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال: لا تَحُلْ بيني وبين الشهادة، وأقسم عليَّ حتى تركته، فالتقى هو وعبد الرحمن بن عيينة، فعقر فرس عبد الرحمن وطعنه عبد الرحمن فقتله، وتحوَّل على فرسه، ولحق عبد الرحمن أبا قتادة ﷺ فعقر عبد الرحمن فرس أبي قتادة، فقتله أبو قتادة، وتحوَّل أبو قتادة على الفرس، وغشّى أبو قتادة عبد الرحمن ببرده ـ ويقال له: حبيب أيضاً ـ ليُعرف أنه صاحبه.

ولم يقتل يومئذ من المسلمين إلا محرز بن نضلة الذي هو الأحزم الأسدي المذكور، وكان قبل ذلك بيوم رأى أنّ سماء الدنيا فرجت وما بعدها فهو صاعد فيها حتى انتهى إلى السماء السابعة إلى سدرة المنتهى، فقيل له: هذا منزلك، فعرضها على أبي بكر ﷺ فأوّلها له شهادةً ينالها في سبيل الله تعالى.

وكان يومئذ استعمل رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، واستعمل على حرس المدينة سعد بن عبادة في ثلاثمئة من قومه يحرسون المدينة، ولما وصل ﷺ إلى الموضع الذي قَتَل فيه أبو قتادة مقتولَه وسجّاه ببرده، استرجع المسلمون وقالوا: قُتِل أبو قتادة، فقال رسول الله ﷺ: «ليس بأبي قتادة، ولكنه قتيلٌ لأبي قتادة، وضع عليه برده ليُعْرف أنه صاحبه ـ أي: القاتل له ـ والذي أكرمني بما أكرمني، إن أبا قتادة على آثار القوم يرتجز».

وقيل: الذي قتل محرز الأسدي ثمّ قتله أبو قتادة وغشّاه ببرده هو مَسْعدة، وعلى كلٍ، فنزل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فكشفا بردة أبي قتادة، فوجدا الأمر كما قال ﷺ.

ويمكن الجمع بأنّ أبا قتادة قتل كلًّا منهما، فقد روي أنّ أبا قتادة اشترى فرساً فلقيه مَسْعدة الفزاري فتفاوض معه الحديث، فقال له أبو قتادة: أما إني أسأل الله تعالى أنْ ألقاك وأنا عليها، قال: آمين، فلما أُخِذت اللقاح ركب أبو قتادة تلك الفرس وسار فلقي النبيّ ﷺ، فقال ﷺ له: «امض يا أبا قتادة صَحِبَكَ الله»، قال: فسرت حتى هجمت على القوم، فرُميتُ بسهم في جبهتي، فنزعت قدحه، وأنا أظنُّ أني نزعت الحديدة، فطلع عليَّ فارس وقال: لقد ألقانيك الله يا أبا قتادة، وكشف عن وجهه فإذا هو مسعدة الفزاري، فقال: أيٌّ أحبّ إليك: مجالدة، أو مطاعنة، أو مصارعة؟، فقال: ذاك إليك، فقال: صراع، فنزل وعلَّق سيفه في شجرة، ونزلتُ أيضاً وعلَّقت سيفي في شجرة وتواثبنا فرزقني الله تعالى الظَّفَر عليه، فإذا أنا على صدره، وإذا بشيء مسَّ رأسي، فإذا سيف مسعدة قد وصلت إليه في المعالجة، فجررته فقال لي لما رأى أنّ السيف وقع بيدي: يا أبا قتادة، استبقني، فقلت: لا والله، قال: فمن للصّبية؟، قلت: النّار، ثمّ قتلته وأدرجته في بردي، ثمّ أخذت ثيابه فلبستها، وكنتُ استويت على فرسه حين تعالجنا، ثمّ ذهبت خلف القوم فحملت على ابن أخيه فدققت صلبه فانكشف من كان معه عن بعض اللقاح، فحبست اللقاح برمحي وجئت أحوسها ـ أي: أقودها وأخالطها ـ فقال رسول الله ﷺ: «أفلح وجهك يا أبا قتادة»، فقلت: ووجهك يا رسول الله، فقال ﷺ: «أبو قتادة سيّد الفرسان، بارك الله فيك يا أبا قتادة، وفي ولدك وولد ولدك»، وقال لي: «ما هذا الذي بوجهك؟»، فقلت: سهم أصابني، فقال ﷺ: «ادنُ مني»، فدنوت منه، فنزع ﷺ النّصل نزعاً رفيقاً، ثمّ بزق فيه ووضع راحته الشريفة عليه، فوالله الذي أكرمه بالنبوّة، ما ضرب عليَّ ساعةً قطّ ولا قرح ولا قاح.

وقال ﷺ: «قتلت مسعدة؟»، قلت: نعم، فقام ﷺ يدعو لي يقول: «اللهم بارك له في شَعْره وبشره»، فمات أبو قتادة ﷺ وهو ابن سبعين سنة وكأنّه في مظهره وصورته ابن خمس عشرة سنة، وأعطاه فرس مسعدة الفزاري وسلاحه، وقال له: «بارك لك فيه».

وكانت جملة اللقاح عشرين، فاستنقذ منها أبو قتادة وسلمة بن الأكوع عشرة، وكل منهما ظنّ أنه استنقذ الجميع وبقي في يد القوم عشرة، فسار ﷺ حتى نزل بالجبل من ذي قرد بناحية خيبر، وتلاحق به النّاس، وقال سلمة بن الأكوع: يا رسول الله، إنّ القوم عطاش، فلو بعثتني في مئة رجل استنقذت ما بقي في أيديهم من

السّرح، وأخذتُ بأعناق القوم، فضحك ﷺ، وقال: «ملكتَ فاسجح» أي: فارفق، والمعنى: قدرتَ فاعفُ.

ولم يرسله رسول الله ﷺ إلى استنقاذ ما بقي في أيدي القوم، ونزلوا على ماء يقال له: ذو قرد، فطردهم عنه سلمة بن الأكوع، ولذا قال لرسول الله ﷺ: «إنّ القوم الآن يغبقون بأرض غطفان» أي: يشربون اللبن بالعشي الذي هو الغبوق، فجاء رجل من غطفان فقال: مَرّوا على فلان الغطفاني، فنحر لهم جزوراً، فلمّا أخذوا يكشطون جلدها رأوا غبرة، فتركوها وخرجوا هراباً.

ولما نزل ﷺ بالمحل المذكور لم تزل الخيل تأتي والرجال على أقدامهم وعلى الإبل حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ، ومكث يوماً وليلة، ولما أصبح ﷺ قال: «خير فرساننا أبو قتادة، وخير رجالنا سلمة» وبعث سعدُ بن عبادة ﷺ بأحمال تمر وبعشر جزائر فوافتْ رسول الله ﷺ بذي قرد، وقسّم ﷺ في كلّ مئة من أصحابه جزوراً ينحرونه، وكانوا سبعمائة، وقال ﷺ: «اللهم ارحم سعد وآل سعد، نِعْمَ المرء سعد بن عبادة»، فقالت الأنصار: هو سيّدنا وابن سيدنا من بيت يطعمون في المَحْل ويحملون الكَلّ ويحملون عن العشيرة، فقال رسول الله ﷺ: «خيار النّاس في الإسلام خيارهم في الجاهلية إذا فقهوا في الدين».

وأقبلت امرأة أبي ذرّ على ناقة من إبل رسول الله ﷺ التي أخذها القوم أفلتت من القوم فطلبوها فأعجزتهم.

روي أن المرأة أفلتت من الوَثاق ليلاً فأتت الإبل فجعلت إذا دنت من البعير رغا فتتركه حتى انتهت إلى العَضْباء، فلم تَرْغُ فقعدت في عجزها ثمّ زجرتْها فعلموا بها، فطلبوها فأعجزتهم، وكانت نذرتْ إنْ نجّاها الله تعالى عليها لتنحرنّها، فلمّا أخبرت النبيّ ﷺ الخبر، قالت: يا رسول الله، قد نذرتُ أن أنحرها إنْ نجاني الله عليها وآكل من كبدها وسنامها فتبسَّم رسول الله ﷺ، وقال: «بئسما جَزيتيها إن حملك الله تعالى عليها ونجاك بها، ثمّ تنحرينها، لا نذرَ في معصية الله ولا فيما لا تملكين»، وفي لفظ: «لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم، إنما هي ناقة من إبلي، ارجعي إلى أهلك على بركة الله تعالى».

فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة على ناقته العضباء مُرْدِفاً سلمة بن الأكوع ﷺ وقد غاب ﷺ عنها خمس ليال، وأعطى ﷺ سلمة بن الأكوع سهم الراجل والفارس

جميعاً مع كونه كان راجلاً.

واتفق إغارة عيينة بن حصن على اللقاح في الغابة والخروج خلفه مرّة أخرى بعد الحديبية وقبل خيبر فلذا اختلفت الروايات. والله أعلم.

سرية محمد بن مسلمة ﷺ إلى القرطاء: (وهم بنو بكر بن كلاب)

بعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة إلى القرطا في ثلاثين راكباً وأَمَره أن يسير الليل ويكمن النهار، وأمره أنْ يَشنَّ عليهم الغارة، فسار الليل وكمن النهار وصادف في طريقه ركباً نازلين، فأرسل ﷺ رجلاً من أصحابه يسأل من هم ـ أي: من أي قبيلة هؤلاء ؟، فذهب الرجل ثمّ رجع إليه فقال: القوم من محارب، فنزل قريباً منهم، ثمّ أمهلهم حتى إذا أعطنوا ـ أي: أبركوا الأبل حول الماء ـ أغار عليهم فقتل منهم عشرة، وهرب سائرهم، وساق نعماً وشاءً، ولم يتعرض للظعن ـ أي: للنساء.

ثمّ انطلق حتى إذا كان بموضع يطلعه على بني بكر بعث ابن بشير إليهم، وخرج محمد بن مسلمة ﷺ في أصحابه فشنَّ عليهم الغارة فقتل منهم عشرة، واستاق النَّعم والشاء، ثمّ انحدر ﷺ إلى المدينة فخمَّس رسول الله ﷺ ما جاء به، وعَدَل الجزورَ بعشرة من الغنم، وكان النعم مئة وخمسين بعيراً، والغنم ثلاثة آلاف شاة، وأخذت تلك السرية ثمامة بن أثال الحنفي من بني حنيفة ـ أي: سيد أهل اليمامة ـ وهم لا يعرفونه، وجيء به إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «أتدرون من أخذتم؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفي فأحسنوا أسرَه» أي: قيّدوه، فربطوه بسارية من سواري المسجد.

وقد كان جاء إلى رسول الله ﷺ من عند مسيلمة وأرادَ اغتياله ﷺ، فدعا ﷺ ربّه أن يمكِّنه منه فأُخِذ، قيل: من نفس المدينة لأنه جاء يريد مكة للعمرة فتحيّر في المدينة، فجيء به إلى رسول الله ﷺ فربط بسارية من سواري المسجد، فدخل ﷺ على أهله فقال: «اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا إليه»، وأمر ﷺ له بناقة ذات لبن يأتيه لبنها مساء وصباحاً، وكان ذلك لا يقع عند ثمامة موقعاً من كفايته، وجاء إليه رسول الله ﷺ وهو مربوط بالسّارية، فقال: «مالك يا ثمامة؟ هل أمكن الله منك؟»، فقال: قد كان ذلك يا محمّد، وصار رسول الله ﷺ يأتيه فيقول: «ما عندك يا ثمامة»، فيقول: يا محمد عندي خير، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تعف تعف عن شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، ففعل ﷺ ذلك معه ثلاثة أيام[1].

---

(١) في كلّ يوم من الثلاثة الأيام يأتيه ﷺ فيقول: «ما عندك يا ثمامة؟».

قال أبو هريرة ﷺ: فجعلنا نحن المساكين ـ أي: أصحاب الصُّفَّة ـ نقول: ما نصنع بدم ثمامة، والله لأكلةٌ من جزور سمينة أحبّ إلينا من دمه.

وروي أنه ﷺ انصرف عن ثمامة وهو يقول: «اللهم إنّ أكلةً من لحم جزور أحب إليَّ من دم ثمامة»، ثمّ أمر رسول الله ﷺ به فأطلق ثالثَ يوم، وقال ﷺ: «قد عفوت عنك يا ثمامة»، فانطلق ثمامة إلى ماء جارٍ قريب من المسجد فاغتسل وطهّر ثيابَه، ثمّ دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله.

وفي رواية أخرى: فأسلم فأمره النبيّ ﷺ أنْ يغتسل فاغتسل، وقال: يا محمد، والله ما كان على وجه الأرض أبغضُ إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهُك أحبّ الوجوه كلها إليَّ، ووالله ما كان على الأرض من دين أبغضُ إليَّ من دينك، فقد أصبح دينُك أحبَّ الدّين كلّه إليَّ، ووالله ما كان من بلد أبغضُ إليَّ من بلدك فقد أصبح بلدُك أحبَّ البلاد إليَّ، ثمّ شهد شهادة الحقّ، فلما أمسى جيء له بما كان يأتيه من الطعام، فلم ينل منها إلا قليلاً، ولم يصب من حلاب اللقحة إلا يسيراً، فعجب المسلمون من أكله بعد إسلامه لكونه دون أكله قبل إسلامه، فقال لهم رسول الله ﷺ لهم: «أتعجبون من رجل أكل أوّل النهار في معيّ كافر وأكل آخر النهار في معيّ مسلم، إنّ الكافر يأكل في سبعة أمعاء، وإن المسلم يأكل في معيّ واحد».

وقد وقع ذلك مع جهجاه الغفاري، فإنّه أكل مع النبيّ ﷺ وهو كافر فأكثرَ، ثمّ أكل معه وقد أسلم فأقلَّ، فقال النبيّ ﷺ: «المؤمن يأكل في معاء واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء»، وفي رواية: «إنّ الكافر يشرب في سبعة أمعاء، والمسلم يشرب في معاء واحد».

ثم إنّ ثمامة قال: يا رسول الله، إنّ خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟، فأمره النبيّ ﷺ أنْ يعتمر، فلمّا قدم بطن مكة لَبَّى فكان هو مِنْ أوّل من دخل مكة ملبِّياً، فأخذته قريش وقال قائل منهم: صبوت يا ثمامة؟، فقال: لا، ولكن أسلمتُ لله رب العالمين مع محمّد رسول الله ﷺ، ولا والله تصل إليكم حبةُ حنطة من اليمامة حتى يأذنَ فيها رسولُ الله ﷺ.

فقدّموه ليضربوا عنقه، فقال قائل منهم: دعوه فإنّكم تحتاجون إلى اليمامة، فخلّوا سبيله، فخرج ثمامة إلى اليمامة، فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً حتى أضرَّ بهم الجوعُ وأكلتْ قريش العِلهِز ـ وهو الدم يخالطه وبر الإبل ـ فكتبت قريش إلى

رسول الله ﷺ: ألست تزعم أنك بُعثتَ رحمة للعالمين؟ فقد قتلت الآباءَ بالسيف والأبناءَ بالجوع! إنك تأمر بصلة الرحم، وإنك قد قطعت الرّحم!.

فكتب رسول الله ﷺ إلى ثمامة ﷺ: «أن خلِّ بينهم وبين الحمل»، وفي لفظ: «خلِّ بين قومي وميرتهم» ففعل. وأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ ...﴾[1] الآية.

وكان ثمامة ﷺ مقيماً باليمامة، ولما ارتدَّ أهل اليمامة والعياذ بالله تعالى ثبت ثمامة ﷺ في قومه على الإسلام، وكان ينهاهم عن اتباع مسيلمة الكذّاب، ويقول لهم: إياكم وامرؤاً مظلماً لا نورَ فيه، وإنه لشقاء كتبه الله عزَّ وجلَّ على من اتبعه منكم.

سرية عكاشة بن محصن ﷺ إلى الغَمْر: (وهو ماء لبني أسد)

وجَّه رسول الله ﷺ عكّاشة بن محصن الأسدي في أربعين رجلاً: منهم ثابت بن أرقم إلى جمع من بني أسد، فخرج يسرع في السير إلى أنّ وصل إلى الماء المذكور، فوجد القوم قد علموا بهم فهربوا، ولم يجدوا في دارهم أحد، فبعث عكاشة شجاع بن وهب طليعةً يطلب خبراً أو يرى أثراً، فأخبر أنه رأى أثر نَعَم قريباً، فخرجوا فوجدوا رجلاً نائماً فسألوه عن خبر النّاس فقال: وأين الناس قد لحقوا بعَلْيا بلادهم، وقالوا: فالنَّعم؟، قال: معهم، فضربه أحدهم بسوط في يده، فقال: تؤمنوني على دمي وأطلعكم على نَعَمٍ لبني عمٍّ لهم لم يعلموا بسيركم إليهم؟، فقالوا: نعم، فأمّنوه، فانطلقوا به، فأمعن ـ أي: بالغ ـ في الطّلب حتى خافوا أن يكون غدراً منه لهم، فقالوا له: والله لتصدقنا أو لنضربنَّ عنقك، فقال: تطلعون عليهم من هذا المحلّ فلمّا طلعوا منه وجدوا نَعَماً رواتع، فأغاروا عليها فاستاقوها فإذا هي مئة بعير وشردت الأعراب في كلّ وجه، ولم يطلبوهم وانحدروا إلى المدينة بتلك الإبل وأطلقوا الرجل الذي أمّنوه.

سرية محمد بن مسلمة ﷺ لذي القَصّة: (وهو موضع قريب من المدينة)

بعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة ﷺ في عشرة نفر لبني ثعلبة وبني عوال من ثعلبة بذي القَصّة، فورد عليهم ليلاً فكمن القوم، وهم مئة رجل لمحمّد بن مسلمة وأصحابه وأمهلوهم حتى ناموا، وأحدقوا بهم فما شعروا إلا وقد خالطهم القوم، فوثب محمّد بن مسلمة فصاح في أصحابه السّلاح فوثبوا وتراموا ساعة، ثمّ حمل

---

(١) المؤمنون: ٧٦.

القوم عليهم بالرّماح فقتلوهم ووقع محمد بن مسلمة جريحاً، فضربوا كعبه فلم يتحرّك فظنوا موته فجرَّدوه من الثياب وانطلقوا، ومرّ بمحمد بن مسلمة وأصحابه رجل من المسلمين فاسترجع، فلمّا سمعه محمد بن مسلمة يسترجع تحرّك له، فأخذه وحمله إلى المدينة، فعند ذلك بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح ﷺ في أربعين رجلاً إلى مصارعهم فلم يجدوا أحداً، ووجدوا نعماً وشاءً فانحدروا بها إلى المدينة.

سرية أبي عبيدة بن الجراح ﷺ إلى ذي القَصَّة

وبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة في أربعين رجلاً إلى من بذي القَصّة، فإنه بلغه أنهم يريدون أنْ يغيروا على سَرْح المدينة وهو يرعى يومئذ بمحلّ بينه وبين المدينة سبعة أميال، فصلّوا المغرب ومشوا ليلتهم حتى وافوا ذا القَصّة مع عماية ـ أي: ظلمة ـ الصّبح فأغاروا عليهم فأعجزوهم هرباً في الجبال، وأسروا رجلاً واحداً، وأخذوا نَعَماً من نعمهم ورثّة من متاعهم، وقدموا بذلك إلى المدينة، فخمَّسه رسول الله ﷺ، وقسّم ما بقي عليهم، وأسلم أسيرهم فتركه النبيّ ﷺ.

سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى بني سليم بالجَموم (وهو اسم لناحية ببطن نخل)

بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ﷺ مع جمع من الصّحابة لم يُذْكر عدتهم إلى بني سليم بالجَموم، فسار حتى ورد ذلك المحلّ، فأصابوا امرأة من مزينة فدلّتهم على محلّة من محالّ القوم، فأصابوا في تلك المحلة إبلاً وشاءً، وأسروا منها جماعة، من جملتهم زوج تلك المرأة، وانحدروا بذلك إلى المدينة، فوهب رسول الله ﷺ لتلك المرأة نفسها وزوجها.

سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى العيص (وهو محل بينه وبين المدينة أربع ليال)

بلغ رسول الله ﷺ أن عيراً لقريش قد أقبلت من الشام فبعث ﷺ زيد بن حارثة في مئة وسبعين راكباً ليتعرضها، وكان فيها أبو العاص بن الرّبيع زوج بنت النبيّ ﷺ فقدم زيد بن حارثة به وبتلك العير إلى المدينة، فاستجار أبو العاص بزوجته زينب رضي الله عنها فأجارته، ونادت في الناس حين صلّى رسول الله ﷺ الفجر ـ أي: دخل في الصّلاة هو وأصحابه ـ فقالت رضي الله عنها: أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الرّبيع، فقال رسول الله ﷺ، وقد أقبل على الناس: «هل سمعتم ما سمعت؟»، قالوا: نعم، قال: «أما والذي نفسي بيده، ما علمتُ بشيء من هذا»، ثمّ انصرف ﷺ،

فدخل على ابنته رضي الله عنها، وقال: «قد أجرنا من أجرتِ، المؤمنون يد على من سواهم، يجير عليهم أدناهم».

وفي الصّحيحين: «ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلماً ـ أي: أزال خفارته وعهده ـ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

ثمّ دخلت زينب رضي الله عنها على النبيّ ﷺ فسألته أن يردّ على أبي العاص ما أخذ منه فأجابها إلى ذلك وقال ﷺ: «أي بنيَّة أكرمي مثواه، ولا يخلص إليكِ، فإنكِ لا تحلِّين له»، ثمّ خيَّر رسول الله ﷺ السرية في الردّ لماله وعدم الردّ، فردّوا ماله إليه.

ثمّ إنّ المسلمين قالوا لأبي العاص: إنك في شرف من قريش، وأنت ابن عم رسول الله ﷺ في جدّه عبد مناف، فهل لك أن تسلم فتغنم ما معك من أموال أهل مكة، فقال: بئسما أمرتموني به افتتح ديني بالغدر وعدم الوفاء، ثمّ ذهب أبو العاص إلى مكة فأدَّى لكلّ ذي حقٍّ حقَّه، ثمّ قام فقال: يا أهل مكة، هل بقي عندي لأحد منكم مال لم يأخذه؟، هل وفيت ذمتي؟، فقالوا: اللهم نعم، جزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفيًّا كريماً، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، ما منعني من الإسلام عنده إلا خشية أنْ تظنوا أني إنما أردت أنْ آكل أموالكم.

ثمّ خرج حتى قدم المدينة مسلماً فردَّ له النبيّ ﷺ زوجته بدون عقد جديد لعدم انقضاء العدة[1]، وقيل: بعقد ومهر جديدين[2] ويبعد هذا إلا إنْ كان الحكم أولاً غير

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه من حديث محمد بن إسحق، وقال الترمذي: ليس في إسناده بأس ولكن لا نعرف وجه هذا الحديث، ولعله قبل حفظ داود بن الحصين، وقال السهيلي: لم يقل به أحد من الفقهاء فيما علمت. انظر البداية والنهاية: (٣/٣٣٢).

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والترمذي من حديث الحجاج بن أرطاة، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وقال أحمد: هذا الحديث ضعيف، رواه ولم يسمع الحجاج من عمرو بن شعيب، إنما سمعه من محمد بن عبيد الله العرزمي، والعرزمي لا يساوي حديثه شيئاً، وقال الدارقطني في هذا الحديث: لا يثبت، والصّواب حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أنّ رسول الله ردّها عليه بالنكاح الأول، وقال الترمذي: هذا حديث في إسناده مقال، والعمل عليه عند أهل العلم، أنّ المرأة إذا أسلمت قبل زوجها ثمّ أسلم زوجها أنّه أحقّ بها ما كانت في العدة، وهو قول مالك والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحق، وقال آخرون: بل الظاهر انقضاء عدّتها.

ومن روى أنّه جدد لها نكاحاً فضعيف، ففي قضية زينب والحالة هذه دليل على أنّ المرأة إذا أسلمت وتأخر إسلام زوجها حتى انقضت عدّتها، فنكاحها لا ينفسخ بمجرد ذلك، بل يبقى بالخيار إن شاءت تزوجت غيره، وإن شاءت تربّصت وانتظرت إسلام زوجها في أيّ وقت، وهي امرأته مالم تتزوج، وهذا القول فيه قوة، وله حظّ من جهة الفقه والله أعلم. =

مقيد بجمعهما في العدة أو خصوصية.

سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى بني ثعلبة بالطرف(1)

بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في خمسة عشر رجلاً إلى الطرف فأصاب عشرين بعيراً وشاءً، ولم يجد أحداً لأنهم ظنّوا أن رسول الله ﷺ سار إليهم فصبَّح زيد ﷺ بالنّعم والشاء في المدينة وقد خرجوا في طلبه فأعجزهم.

سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى جذام(2)

وكانوا بمحل يقال له: حسمى ـ بكسر الحاء المهملة وسكون السين ـ وهو موضع وراء وادي القرى يقال: إن الطوفان أقام بذلك المحل بعد ذهابه ثمانين سنة.

وسببها: أنّ دحية الكلبي ﷺ أقبل من عند قيصر ملك الروم، وكان رسول الله ﷺ وجَّهه إليه، ولما وصل إليه أجاره بمال وكساه، فأقبل بذلك إلى أنْ وصل ذلك المحلّ، فلقيه الهنيد وابنه في ناس من جذام، فقطعوا عليه الطريق وسلبوه ما معه ولم

= ويستشهد لذلك بما ذكره البخاري حيث قال: نكاح من أسلم من المشركات وعدتهن. حدثنا ابراهيم بن موسى، ثنا هشام، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس، كان المشركون على منزلتين من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، كانوا مشركين أهل الحرب يقاتلونهم ويقاتلونه، ومشركين أهل عهد لا يقاتلهم ولا يقاتلونه، فكان إذا هاجرت امرأة من أهل الحرب لم تخطب حتى تحيض وتطهر، فاذا طهرت حلّ لها النكاح، فان هاجر زوجها قبل أن تنكح رُدت إليه، وإن هاجر عَبْدٌ منهم أو أَمَةٌ فهما حُرّان، ولهما ما للمهاجرين.

ثمّ ذكر أهل العهد مثل حديث مجاهد وهذا لفظه بحروفه، فقوله: (فكان إذا هاجرت امرأة من أهل الحرب لم تخطب حتى تحيض وتطهر) يقتضي أنها كانت تستبرئ بحيضة ولا تعتد بثلاثة قروء، وقد ذهب قوم إلى هذا، وقوله: (فان هاجر زوجها قبل أن تنكح ردت إليه) يقتضي أنه وإن هاجر بعد انقضاء مدة الاستبراء والعدة أنها ترد إلى زوجها الأول ما لم تنكح زوجاً غيره، كما هو الظاهر من قصة زينب بنت النبيّ صلى الله عليه وسلم، وكما ذهب إليه من ذهب من العلماء. والله أعلم. انظر المرجع السابق.

(1) الطَرَف: بالتحريك والفتح وآخره فاء، قيل: هو قريب من النُّخيل على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة في طريق القصيم، ويُعرف الطَرَف اليوم بالصويدرة على بعد ثلاثة وخمسين كيلاً من المدينة على الطريق إلى القصيم. انظر المعالم الأثيرة: (١٧٠).

(2) قبيلة قحطانية، كانت تنزل بجبال حِسْمى، ومساكنها بين مَدْين إى تبوك فإلى أذرُح، ومنها فخذ مما يلي طبرية إلى اللجون إلى ناحية عكا. انظر المعالم الأثيرة: (٨٨). وقال الإمام الترمانيني ﷺ معلّقاً على قبيلة جذام: كانوا بمحل يقال له حِسْمى: وهو موضع وراء وادي القرى، يقال: إنّ الطوفان أقام بذلك المحل بعد ذهابه ثمانين سنة.

يتركوا عليه إلا ثوباً خلقاً، فسمع بذلك نفر من جذام من بني الضبيب ـ أي: ممن أسلم منهم ـ فنفروا إليهم واستنقذوا لدحية ما أخذ منه، وقدم دحية على النبيّ ﷺ فأخبره بذلك فبعث ﷺ زيد بن حارثة في خمسمئة رجل وردَّ معه دحية.

وكان زيد يسير الليل ويكمن بالنهار ومعه دليل من بني عذرة، فأقبل حتى هجم على الهنيد وابنه ومن كان معهما مع الصّبح فقتلوا الهنيد وابنه ومن كان معهما، وأخذوا من النّعم ألف بعير ومن الشاء خمسة آلاف، ومن السبي مئة من النّساء والرجال، ولما سمع بنو الضبيب بما صنع زيد ركبوا وجاؤوا إلى زيد، وقال له رجل منهم: إنا قوم مسلمون، فقال زيد: اقرأ أمّ الكتاب، فقرأها، ثمّ قدم منهم جماعة على رسول الله ﷺ وأخبروه الخبر، وقال بعضهم: يا رسول الله، لا تحرِّم علينا حلالاً ولا تحلّ لنا حراماً، فقال ﷺ: «كيف أصنع بالقتلى؟»، فقال: أطلق لنا من كان حياً، ومن قُتِل فهو تحت قدمي هاتين فداك يا رسول الله، فقال ﷺ: «صدق»، فقالوا: ابعث معنا رجلاً لزيد فبعث ﷺ معهم علياً ﷺ يأمر زيد أن يخلّي بينهم وبين حريمهم وأموالهم، فقال علي ﷺ: يا رسول الله، إنّ زيداً لا يطيعني، فقال ﷺ: «خذ سيفي هذا»، فأخذه وتوجّه، فلقي رجلاً أرسله زيد ﷺ مبشّراً على ناقة من إبل القوم، فردّها عليٌّ ﷺ على القوم، وأردفه خلفه ولقي زيداً فأبلغه أمر رسول الله ﷺ، وعند ذلك قال له زيد: ما علامة ذلك؟ فقال: هذا سيفه ﷺ، فعرف زيد السيف، وصاح بالناس، فاجتمعوا، فقال: من كان معه شيء فليردّه، فهذا سيف رسول الله ﷺ، فردَّ الناس كافة كلّ ما أخذوه.

سرية أمير المؤمنين سيدنا أبي بكر الصّديق ﷺ لبني فزارة بوادي القرى(١)

روى مسلم في صحيحه، عن سلمة بن الأكوع ﷺ قال: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر إلى فزارة وخرجت معه حتى إذا صلينا الصّبح أمرنا أبو بكر فمشينا الغارة، فوردنا الماء فقتل أبو بكر ـ أي: جيشه ـ من قتل، ورأيت طائفة من الذراري، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فأدركتهم، ورميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلمّا رأوا السّهم وقفوا وفيهم امرأة من بني فزارة معها ابنة لها من أحسن العرب، فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر ﷺ، فنفلني أبو بكر بنتها، فقدمت المدينة، وما كشفتُ لها ثوباً، فلقيني رسول الله ﷺ في السّوق مرتين في يومين، فقال لي: «يا سلمة، هبني المرأة»، فقلت:

---

(١) وادي القرى: هو واد يقع بين المدينة وتبوك، سمي بذلك لكثرة قراه، وأعظم مدنه اليوم: مدينة (العلا) شمال المدينة، على خمسة وثلاثين كيلاً، ويعرف اليوم بوادي العلا. انظر المعالة الأثيرة: (٢٢٤).

هي لك يا رسول الله، فبعث بها رسول الله ﷺ إلى مكة ففدى بها ناساً كانوا أسرى بمكة، وكانوا مسلمين، وليست المرأة هذه أمّ قرفة كما وُهِم، لأنَّ السرية التي أصابت أمّ قرفة هي سرية زيد بن حارثة ﷺ.

سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى (أم قرفة) بناحية وادي القرى

وسببها فيما قالوا: أنّه خرج زيد بن حارثة في تجارة إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبيّ ﷺ فلمّا كان دون وادي القرى لقيه أناس من فزارة فضربوه وضربوا أصحابه، وظنّوا أنهم قد قتلوا، وأخذوا ما كان معهم، فقدم زيد ومن كان معه المدينة ونذر زيد ﷺ أنْ لا يمس رأسه غسل من الجنابة حتى يغزو بني فزارة، فلمّا خلص من جراحته بعثه رسول الله ﷺ في سرية فيها سلمة بن الأكوع، وقال لهم: «اكمنوا النهار وسيروا الليل»، فخرج بهم دليل من بني فزارة، وكان من أمر بني فزارة أنهم كانوا يجعلون لهم ناظراً حين يصبحون فيصعد جبلاً يشرف على الطريق فينظر لهم طلائع المسلمين، فينظر قدر مسيرة يوم، فيقول: اسرحوا فلا بأس عليكم، فإذا أمسوا أشرف ذلك الناظر على ذلك الجبل، فينظر مسيرة ليلة، فيقول: ناموا لا بأس عليكم في هذه الليلة، فلمّا كان زيد بن حارثة وأصحابه رضي الله عنهم مسيرة ليلة أخطأ بهم الدليل الفزاري طريقهم، فأخذ طريقاً آخر حتى أمسوا، وهم على خطأ، فعاينوا الحاضرين من بني فزارة فحمدوا خطأهم، فكمن بهم في الليل حتى أصبحوا، فأحاطوا بهم فكبَّر زيد ﷺ وكبَّر أصحابه رضي الله عنهم، وأخذوا أم قرفة وبنتها، وكانت أم قرفة في شرف من قومها، وكان يعلّق في بيتها خمسون سيفاً كلّهم لها محرم وكان لها اثنا عشر ولداً، ومن ثمّ كانت العرب تضرب بها المثل في العزة فتقول: (لو كنت أعزَّ من أم قرفة).

وأمر زيد بن حارثة ﷺ أن تُقْتل أم قرفة لأنها كانت تسبُّ النبيّ ﷺ ـ وجاء: أنها حضرت ثلاثين راكباً من ولدها، وقالت لهم: اغزوا المدينة واقتلوا محمّداً ـ فربط زيد برجليها حبلين، ثمّ ربطهما إلى بعيرين وزجرهما، وقيل: إلى فرسين وركضا، فشقاها نصفين.

وقرفة هذا الذي تكنى به قتله النبيّ ﷺ ـ أي: أمر بقتله ـ وبقيَّة أولادها قتلوا مع أهل الردة في خلافة الصّديق ﷺ، فلا خير فيها ولا في أولادها.

ونفل زيدٌ ابنَ الأكوع بنت أم قرفة المذكورة، وكانت من أجمل العرب، فاستوهبها منه النبيّ ﷺ فوهبا له، ثمّ وهبها النبيّ ﷺ لخاله حزن بن أبي وهب بن عمر

ابن عائل بمكة أحد الأشراف، فولدت عبد الرحمن بن حزن، وقيل: فدى بها أسيراً مسلماً كان بمكة.

سرية عبد الرحمن بن عوف ﷺ إلى دومة الجندل[1]

دعا النبيّ ﷺ عبد الرحمن بن عوف فأقعده بين يديه وعمَّمه بيده بعد أن قال له: «تجهز فإني باعثك في سرية من يومك هذا أو من الغد إن شاء الله تعالى» ثمّ أمره أن يسير من الليل إلى دومة الجندل في سبعمائة، وعسكروا خارج المدينة، فلمّا كان وقت السحر جاء عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله ﷺ وقال: أحببت يا رسول الله أن يكون آخر عهدي بك، وكان عليه عمامة من كرابيس ـ أي: غليظ الثياب ـ قد لفّها على رأسه، فنقضها رسول الله ﷺ بيده، ثمّ عمَّمه بعمامة سوداء وأرخى بين كتفيه منها أربع أصابع أو نحواً من ذلك، ثمّ قال: «هكذا يا ابن عوف فاعتمّ فإنه أحسن وأعرف».

ثمّ أمر ﷺ بلالاً أن يدفع إليه اللواء فدفعه إليه، وقام رسول الله ﷺ فحمد الله ثمّ صلّى على نفسه الشريفة، ثمّ قال: «خذه يا ابن عوف، اغزُ باسم الله وفي سبيل الله، فقاتل من كفر بالله، ولا تغدر ولا تغلّ ولا تقتل وليداً»، وفي رواية: «لا تغلّوا ولا تغدروا، ولا تنكثوا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا وليداً ـ أي: صبيًّا ـ فهذا عهد الله وسنة نبيكم ﷺ»، ثمّ قال رسول الله ﷺ له: «إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم».

فسار عبد الرحمن بن عوف ﷺ حتى قدم دومة الجندل فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام وهم يأبون ذلك ويقولون: لا نعطي إلا السّيف، وفي اليوم الثالث أسلم رئيسهم وملكهم الأصبغ بن عمرو الكلبي، وكان نصرانيًّا وأسلم معه ناس كثير من قومه، وأقرّ من أقام على كفره بإعطاء الجزية، وأرسل ﷺ إلى رسول الله ﷺ يُعْلمه بذلك وأنه يريد أن يتزوج فيهم فكتب إليه رسول الله ﷺ «أن يتزوّج بابنة الأصبغ[2]»، فتزوّجها وبنى بها عندهم، وقدم بها المدينة، وهي أمّ ولده سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وهي أول كلبية نكحها قرشي، ولم تلد غير سلمة، وطلّقها عبد الرحمن بن عوف في مرض موته ثلاثاً، ومُتْعَتُها جارية سوداء، ومات وهي في العدّة،

---

(١) دُومة الجندل: قرية من الجَوْف شمال السعودية، تقع شمال تيماء على مسافة (٤٥٠) كيلاً. انظر المعالم الأثيرة: (١١٧).

(٢) واسمها تماضر.

وقيل: بعد انقضاء العدة، فورثها عثمان ﷺ فبلغ ربع ثمنها أو ما صولحت عليه من الذهب ثمانين ألف دينار.

سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى مدين[1]

أصاب زيد ﷺ في سريّته تلك سبياً فباعوهم، وفرّقوا بين الأمهات والأولاد، فخرج رسول الله ﷺ وهنّ يبكين، فقال: «مالهنّ؟»، فقيل: يا رسول الله فرّقوا بينهنّ ـ أي: بين الأمهات ـ والأولاد، فقال ﷺ: «لا تبيعوهم إلا جميعاً».

سرية علي بن أبي طالب ﷺ إلى بني سعد بن بكر بفدك

وهي قرية بينها وبين المدينة ست ليال، وقيل: غير ذلك. وسببها: أنه ﷺ بلغه أنّ لبني سعد جمعاً بها يريدون أنْ يُمدّوا يهود خيبر وأن يجعلوا لهم تمر خيبر ـ أي: ما يؤخذ من غلَّتها ـ فبعث ﷺ إليهم عليًّا ﷺ في مئة رجل فسار الليل وكمن النهار إلى أن نزلوا محلاً بين خيبر وفدك فوجدوا به رجلاً فسألوه عن القوم فقال: لا علم لي، فشدّدوا عليه فأقرَّ أنه عين ـ أي: جاسوس لهم ـ وقال: أخبركم على أن تؤمّنوني فأمّنوه، فدلّهم، فأغاروا عليهم وأخذوا خمسمئة بعير وألفي شاة، وهرب بنو سعد بالظعن، فعزل عليّ ﷺ صفيَّ رسول الله ﷺ لقوحاً ـ أي: حلوباً قريبة عهد بنتاج ـ تدعى الحَفِدة[2]، ثمّ عزل الخُمُس، وقسّم الباقي على أصحابه.

سرية عبد الله بن رواحة ﷺ إلى أسير بن رزام اليهودي بخيبر

لما قتل الله عزَّ وجلَّ رافع بن سلام بن أبي الحقيق عظيم يهود خيبر أمَّروا عليهم أسير بن رزام، ولما أمّروه عليهم قال لهم: إني صانع بمحمّد ما لم يصنعه أصحابي فقالوا له: وما عسيت أنْ تصنع؟؟، قال: أسير في غطفان فأجمعهم لحربه فقالوا له: نِعْمَ ما رأيت، وكان ذلك قبل خيبر فسار في غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب رسول

---

(١) اسم المدينة التي أرسل إليها شعيب وهو من أنبياء العرب، ثمّ أصبحت علماً على المكان، وقد ترجّح أنّ أرض مدين كان مركزها في جهات بلدة (البِدع)، بين تبوك والساحل، على مسافة (١٣٢) كيلاً غرب تبوك وشرق رأس الشيخ حميد ـ على البحر ـ بمسافة (٧٠) كيلاً، وهي في واد بين الجبال، ويسمى واديها: (عُفال)، ويظهر أنها كانت ممتدة في أصقاع واسعة، قد تصل إلى معان في شرقي الأردن، وإلى بئر السبع في جنوب فلسطين. وقيل غير ذلك. انظر المعالم الأثيرة: (٢٤٢).

(٢) الحَفِدة: سميت بذلك لسرعة سيرها، ومنه في الدعاء: «وإليك نسعى ونحفد». مؤلف.

الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فوجَّه عبد الله بن رواحة في ثلاثة نفر سرًّا يسأل عن خبر أسير بن رزام وغِرّته، فأُخبر بذلك فقدم على رسول الله ﷺ وأخبره خبره، فندب رسول الله ﷺ الناس لذلك فانتدب له ثلاثون رجلاً، وأمَّر عليهم عبد الله بن رواحة ﷺ، وقيل: عبد الله بن عتيك، فقدموا على أسير بن رزام، فقالوا له: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له؟، قال: نعم، ولي منكم مثل ذلك، فقالوا: نعم، فقلنا: إنّ رسول الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك على خيبر ويحسن إليك، فطمع في ذلك واستشار يهود في ذلك فأشاروا عليه بعدم الخروج، وقالوا: ما كان محمّد ليستعمل رجلاً من بني إسرائيل، قال: بلى، قد ملَّ الحرب، فخرج وخرج معه ثلاثون رجلاً من اليهود مع كلّ رجل رديف من المسلمين، قال عبد الله بن أنيس: كنت رديفاً لأسير بن رزام، فكأنّ أسير ندم على خروجه معنا فأهوى بيده إلى سيفي ففطنت له ـ بفتح الطاء ـ وقلت: أغدراً عدوّ الله ثلاث مرات؟، فضربته بالسيف فأطحت عامّة فخذه فسقط، وكان بيده مخراش[1] من شوحط[2]، فضربني به على رأسي، فشجَّني مأمومة[3]، وملنا على أصحابه فقتلناهم إلا رجلاً واحداً أعجزنا جرياً، ثمّ أقبلنا إلى رسول الله ﷺ فحدثناه الحديث، فقال: «قد نجاكم الله من القوم الظالمين» وبصق ﷺ في شجَّتي فلم تتقيّح ولم تؤذني، وقطع لي قطعة من عصا، فقال: «أمسك هذه معك علامة بيني وبينك يوم القيامة أعرفك بها، فإنك تأتي يوم القيامة متخصّراً»، فلما دفن عبد الله بن أنيس ﷺ جعلت معه على جلده دون ثيابه.

غزوة الحديبية[4]

وسببها: أنه ﷺ رأى في النوم أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصّرين ـ أي: محلّق بعضهم وبعضهم مقصر ـ وأنّه دخل البيت وأخذ مفتاحه وطاف هو وأصحابه واعتمروا، وأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، ثمّ أخبر ﷺ أصحابه أنه يريد الخروج للعمرة فتجهّزوا للسفر، فخرج ﷺ معتمراً ليأمن أهل مكة

(١) الخراش: عصاً معوجة كالصولجان. انظر النهاية في غريب الحديث: (١/٦٢).

(٢) الشَّوْحط: شجر تتخذ منه القسي. مؤلف.

(٣) المأمومة: هي الشجّة التي تصل إلى أمّ الدماغ وهي أشدّ الشجاج. انظر لسان العرب، والقاموس المحيط، مادة أمّ.

(٤) هي بئر، وقيل: شجرة، سمي المكان باسمها، وقيل: قرية من مكة أكثرها في الحرم. مؤلف.

ومن حولهم من حربه ﷺ، وليعلموا أنه إنما خرج زائراً للبيت ومعظّماً له.

وكان إحرامه ﷺ بالعمرة من ذي الحُلَيْفة[1] بعد أن صلّى في المسجد الذي فيها ركعتين، وركب ﷺ من باب المسجد وانبعثت به راحلته مستقبلة القبلة، وأحرم معه ﷺ أصحابه، ومنهم من لم يُحْرِم إلا بالجحفة، وكان خروجه ﷺ في ذي القعدة، وقيل: كان خروجه ﷺ في رمضان، ولفظ تلبيته ﷺ: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك، واستعمل ﷺ على المدينة ثميلة بن عبد الله الليثي، وقيل: ابن أم مكتوم، وقيل: هو مع أبي زهم، فكان ابن أم مكتوم على الصّلاة، وأبو زهم حافظاً للمدينة.

وكان خروجه ﷺ بعد أن استنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب مِنْ أسلم وغفار ومزينة وجهينة خشيةً من قريش أن يحاربوه أو أن يصدُّوه عن البيت فتثاقل ـ أي: أبطأ عليه ﷺ كثير منهم ـ وقالوا: أيذهب بنا إلى قوم قد غزوه في قعر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فيقاتلهم، واعتلّوا بالشّغل بأهاليهم وأموالهم، وأنه ليس لهم من يقوم بذلك فأنزل الله تعالى تكذيباً في اعتذارهم بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[2] وخرج ﷺ بعد أن اغتسل في بيته ولبس ثوبين، وركب ﷺ راحلته القصواء من عند بابه، وأخرج معه أمّ سلمة وأم عمارة[3] وأم منيع[4] أم عامر الأشهلية[5]، ومعه المهاجرون والأنصار ومن لحق بهم من العرب، وساق معه الهدي سبعين بدنة[6] وقد جللها في ذي الحليفة ـ أي: بعد أن صلّى فيها

---

(١) ذو الحليفة: على وزن جهينة، قرية بظاهر المدينة النبوية على طريق مكة، بينها وبين المدينة تسعة أكيال، تقع بوادي العقيق عند سفح جبل (عَيْر) الغربي، ومنها تخرج في البيداء تجاه مكّة وتعرف اليوم بأبار علي وهي ميقات أهل المدينة، ومن مرّ بها حجاً أو معتمراً، وفيها مسجد الشجرة. انظر المعالم الأثيرة: (١٠٣).

(٢) الفتح: ١١.

(٣) تقدّمت ترجمتها.

(٤) أم منيع: هي أسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصارية السلمية أم معاذ بن جبل رضي الله عنهما. انظر الإصابة في تمييز الصحابة: (٤٨٩/٧)، والطبقات الكبرى: (٤٠٨/٨).

(٥) أم عامر الأشهلية: هي أسماء (وقيل: فكيهة) بنت يزيد بن السكن بن رافع بن امرئ القيس بن عبد الأشهل، الأنصارية، رضي الله عنها. انظر الإصابة في تمييز الصحابة: (٢٤٨/٨)، والطبقات الكبرى: (٣٢٠/٨)، وتهذيب الكمال: (١٢٨/٣٥).

(٦) البدنة: ناقة أو بقرة تنحر بمكة، وسميت بذلك لأنهم كانوا يسمنونها، والجمع بُدُن.

الظهر ـ ثمّ أشعر ﷺ بعض تلك البدن، وهي موجهة للقبلة، وفي الشق الأيمن من سنامها، ثمّ أمر ﷺ ناجية[1] فأشعر ما بقي، وقلّدهن نعلاً نعلاً، وأشعر المسلمون بُدُنهم وقلّدوها.

والإشعار: جَرْح صفحة سنامها، والتقليد: أنْ تقلّد في عنقها قطعة جلد أو نعلاً بالية ليُعْلم أنها هدي فيكفّ الناس عنها.

وكان الناس خمسمئة وألف، ثمّ زادوا، أو كانوا سبعمائة[2] وليس معهم سلاح إلا السيوف في القُرَبِ، وقال له عمر بن الخطاب ﷺ: نخشى يا رسول الله من أبي سفيان وأصحابه، ولم نأخذ للحرب عدّتها، فقال رسول الله ﷺ: «لست أحبُّ حمل السلاح معتمراً»، وكان معهم مائتا فرس، فأقبلوا ـ أي: المسلمون ـ نحوه ﷺ في بعض المحالّ وبين يديه ركوة يتوضأ منها، فقال ﷺ: «ما بالُكُم؟»، قالوا: يا رسول الله، ليس عندنا ماء نشرب، ولا ماء نتوضأ منه إلا ما في ركوتك، فوضع ﷺ يديه في الرّكوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه الشريفة أمثال العيون، قال أبو نعيم: وهو أعجب من نبع الحجر لموسى، فإنّ نبعه من الحجر معهود، وأما من بين اللحم والدم فلم يُعْهد، ولم يخرجه ﷺ بلا ملامسة ماء أدباً مع الله تعالى، فإنه المنفرد بإبداع المعدومات من غير أصل، قال جابر ﷺ: فشربنا وتوضأنا، ولو كنا مئة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة.

فلمّا كان ﷺ أرسله إلى مكة عيناً له فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بخروجك واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش، وأجابت ثقيف معهم ومعهم النّساء والصّبيان ومعهم العوذ المطافيل ـ وهي النياق ذوات اللبن التي معها أولادها ليتزودوا بذلك من اللبن ولا يرجعون خوف الجوع ـ قد لبسوا جلود النمر ـ أي: أظهروا العداوة والحقد ـ وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله عزَّ وجلَّ أن لا يدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدّموها إلى كراع الغميم[3]، وكانت مئتي فرس، وقد صفّت إلى جهة القبلة، فأمر رسول الله ﷺ عبّاد بن بشر فتقدم في خيله، فقام بإزاء خالد، وصفّ ﷺ أصحابه، وحانت صلاة الظهر فأذّن بلال ﷺ

---

(١) ناجية: اسمه ذكوان، فغيّره النبيّ ﷺ، وسماه ناجية. مؤلف.

(٢) أي: ثمّ ازداد عددهم بتوارد الناس عليهم من الأعراب حتى بلغوا العدد المذكور.

(٣) تقدم الكلام عنها.

وأقام، فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة وصفَّ الناس خلفه فركع بهم وسجد ثمّ سلّم، فقال المشركون: لقد أمكنكم محمّد وأصحابه من ظهورهم، هلّا شددتم عليهم، ولكن تأتي الساعة صلاة أخرى هي أحبُّ إليهم من أنفسهم وأبنائهم ـ أي: التي هي صلاة العصر ـ فنزل جبريل عليه السلام بين الظهر والعصر على النبيّ ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ ...﴾[1] الآيات.

وحانت صلاة العصر فصلّى رسول الله ﷺ بأصحابه صلاة الخوف على ما ذكره الله عزّ وجلّ فلمّا جعل المسلمون يصلّون سجد بعضهم وبعضهم قائم ينظر إليهم، قال المشركون: لقد أُخبروا بما أردناه فيهم. ولعلّ هذه الصّلاة صلاة عسفان لأن كراع الغميم[2] بالقرب منهم.

وفي الدرّ المنثور[3] صرّح بأنّ هذه الصّلاة هي صلاة عسفان.

ولما سمع رسول الله ﷺ بأنّ قريشاً تريد منعه عن البيت قال ﷺ: «أشيروا عليَّ أيها الناس، أتريدون أن تؤمُّوا البيت، فمن صدّنا عنه قاتلناه؟»، فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله، خرجتَ عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا تريد حرباً فتوجّه له فمن صدّنا عنه قاتلناه، وقال المقداد: يا رسول الله، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾[4] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، والله يا رسول الله لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد لسرنا معك ما بقي منا رجل، فقال ﷺ: «فامضوا على اسم الله»، فساروا، ثمّ قال ﷺ: «يا ويح قريش نهكتهم الحرب ـ أي: أضعفتهم وأكلتهم ـ ماذا عليهم لو خلُّوا بيني وبين سائر العرب، فإنْ هم أصابوا مني كان ذلك الذي أرادوه، وإن أظهرني الله عزَّ وجلَّ عليهم دخلوا في الإسلام داخرين ـ أي: كاملين ـ وإنْ لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله عزَّ وجلَّ حتى يظهره الله عزَّ وجلَّ، أو تنفرد مني هذه السالفة»[5]، ثمّ قال ﷺ: «هل من رجل يخرج بنا على

---

(١) النساء: ١٠٢.

(٢) تقدّم الكلام عنها.

(٣) انظر الدر المنثور للإمام السيوطي: (٢/٦٥٩).

(٤) المائدة: ٢٤.

(٥) السالفة: صفحة العنق، وانفرادها عبارة عن القتل أو الذبح. انظر الروض الأنف: (١/٣٥٤).

طريق غير طريقهم التي هم بها؟»، فقال رجل من أَسْلم يقال له ناجية بن جندب: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقاً وعراً، فلمّا خرجوا منه وقد شقَّ عليهم ذلك وأفضوا إلى أرض سهلة، قال رسول الله ﷺ للنّاس قولوا: «نستغفر الله ونتوب إليه»، فقالوها، فقال ﷺ: «والله إنها ـ أي: نستغفر الله ونتوب إليه ـ الحطّة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها». أي: لأنّ معناها: نسألك يا الله أنْ تحطّ عنا ذنوبنا بمغفرتك لها.

ثمّ إنّ خالداً لم يشعر بالنبيّ ﷺ ومن معه من المسلمين إلا وقد نزلوا بذلك المحلّ فانطلق نذيراً لقريش، ثمّ أمر ﷺ الناس أن يسلكوا طريقاً يخرجهم على مهبط الحديبية من أسفل مكة فسلكوا ذلك الطريق فلمّا كانوا به ـ أي: بالثنية التي يهبط منها بركت ناقته ﷺ القصواء، ونهروها فلم تقم، فقال الناس: خلأت[1] القصواء، فقال ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك بخُلُقٍ لها، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة ـ أي: خصلة ـ يعظّمون بها البيت إلا أجبتهم إليها» أي: منعها الله عن دخولها.

ثمّ زجرها فقامت فولّى ﷺ راجعاً، ونزل بأقصى الحديبية، ثمّ قال ﷺ: «انزلوا»، فقالوا: يا رسول الله، ما بالوادي ماء ينزل عليه، فأخرج ﷺ سهماً من كنانة فأعطاه ناجية أو غيره فنزل في قليب فغرزه في جوفه، فجاش الماء ـ أي: علا ـ وارتفع بالرواء ـ أي: الماء العذب ـ حتى صدروا عنها بعَطَن ـ أي: حتى رووا ورويت دوابّهم ـ حتى بركت حول الماء الإبل، وقيل: لما نزل رسول الله ﷺ بأقصى الحديبية نزل على ثمد من ثمادها ـ أي: ماء قليل ـ في حفرة فلم يلبث الناس حتى نزحوه، فاشتكى الناس إلى رسول الله ﷺ قلّة الماء، وكان الحرّ شديداً، فنزع ﷺ سهماً من كنانته ودفعه للبراء، فقال: «اغرز هذا السّهم في بعض قليب الحديبية»، ففعل، والقليب جافّ، فجاش الماء، فلمّا ارتحلوا أخذ البراء السّهم فجفّ الماء كأنْ لم يكن فيه هناك شيء، وقيل: دفع ﷺ السّهم لناجية بن الأعجم، فعنه ﷺ قال: دعاني رسول الله ﷺ حين شُكي إليه قلّة الماء فأخرج سهماً من كنانته ودفعه إليَّ ودعا بدلو من ماء البئر فجئت إليه به فتوضأ فمضمض ثمّ مجَّ في الدلو ثمّ قال: «انزل بالدلو في البئر وأثر ماءها بالسّهم» ففعلتُ، فالذي بعثه بالحق نبيًّا، ما كدت أخرج حتى غمرني الماء وفارت كما يفور القدر حتى طمت واستوت بشفيرها يغترفون من جوانبها حتى نهلوا

---

(١) الخلأ: الحِران في الإبل. مؤلف.

عن آخرهم، وعلى البئر نفر من المنافقين، منهم عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول، فقال له أوس بن خولا: ويحك يا أبا الحباب، أما آن لك أنْ تبصر ما أنت عليه، أبَعْدَ هذا شيء؟!!، فقال: إني رأيت كثيراً مثل هذا، فقال أوس: قبّحك الله وقبّح رأيك، ثمّ أقبل عبد الله إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا الحباب، رأيت ـ أي: كيف رأيت ـ مثل ما رأيت اليوم؟»، فقال: ما رأيت مثله قطّ، فقال ﷺ: «فلِمَ قلت ما قلت؟»، فقال: يا رسول الله، استغفر لي، وقال ابنه عبد الله: يا رسول الله، استغفر له، فاستَغْفَرَ له.

فلمّا اطمأنَّ رسول الله ﷺ أتاه بُدَيل بن ورقاء، وكان سيد قومه رضي الله عنه[1] وكان مجيء بديل إلى النبيّ ﷺ في رجال من خزاعة فسألوه ﷺ: ما الذي جاء به؟، فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت ومعظِّماً لحرمته، فقال بديل: سأبلّغهم ما تقول، فانطلق بديل حتى أتى قريشاً، فقال: إنّا قد جئناكم من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً فإنْ شئتم أنْ نعرضه عليكم فَعَلْنا؟، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أنْ تخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول: كذا وكذا، يا معشر قريش إنّكم تعجلون على محمّد، وإنّ محمّداً لم يأت لقتال، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، فقالوا: إنْ كان جاء ولا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلها عنوة ولا يتحدَّث بذلك العرب، أيريد محمّد أن يدخلها في جنوده معتمراً، فتسمع العرب أنه دخلها عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا، فوالله لا كان هذا أبداً ومنا عين تطرف.

ثمّ بعثوا إليه ﷺ مكرز بن حفص أخا بني عامر، فلما رآه النبيّ ﷺ مقبلاً قال: «هذا رجل غادر فاجر»، فلمّا انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلّمه، قال له رسول الله ﷺ: نحواً مما قال لبديل فرجع إلى قريش وأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ، ثمّ بعثوا إليه الحليس بن علقمة، وكان سيد الأحابيش يومئذ، فلمّا رآه رسول الله ﷺ قال: «إنّ هذا الحليس من قوم يعظّمون الهدي، ابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه»، فلمّا رأى الهدي يسيل عليه بقلائده، قد أكل أوباره من طول الحبس عن محِلّه ـ أي: موضعه من الحرم الذي ينحر فيه ـ واستقبله الناس يلبُّون، وقد شعثوا، صاح وقال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدّوا عن البيت، أبى الله أنْ يحج لخم وجذام ونهد وحِمْيَر ويمنع ابن عبد

---

(١) فإنه أسلم بعد ذلك يوم الفتح.

المطلب، هلكت قريش وربّ الكعبة، إنمّا القوم أتوا عمّاراً ـ أي: معتمرين ـ فقال رسول الله ﷺ: «أجل يا أخا بني كنانة»، فرجع إلى قريش وقال لهم: إني رأيت ما لا يحلُّ منعه: رأيت الهدي في قلائده، قد أكل أوباره، والرجال قد شعثوا وقملوا، فقالوا له: اجلس فإنما أنت أعرابي ولا علم لك، فما رأيت من محمّد مكيدة، فعند ذلك غضب الحليس، وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أيصدُّ عن بيت الله من جاءَهُ معظِّماً له، والذي نفس الحلَّيس بيده، ليخلينّ بين محمّد وما جاء له، أو لأنفرنّ الأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا: مَهْ ـ أي: كفّ ـ يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به، ثمّ بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي رضي الله عنه[(١)] فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ﷺ، ثمّ قال: يا محمّد جمعت أوباش[(٢)] الناس ـ أي: أخلاطهم ـ ثمّ جئت بهم إلى بيضتك ـ أي: أهلك وعشيرتك ـ لنقضها بهم، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل[(٣)] وقد لبسوا جلود النّمور يعاهدون الله عزَّ وجلَّ لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وايم الله لكأنني بهؤلاء قد انكشفوا عنك ـ أي: انهزموا وتركوك ـ وأبو بكر رضي الله عنه جالس خلف رسول الله ﷺ فقال: امصص بظر اللات[(٤)] أنحن ننكشف عنه؟!!، قال عروة: من هذا يا محمّد؟، قال: هذا ابن أبي قحافة، فقال عروة: أما والله لولا يد كانت لك عندي[(٥)] لكافأتك بها[(٦)].

ثمّ جعل عروة يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلّمه والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد وعليه المغفر، فجعل شعبة ينزع يد عروة بنصل السيف[(٧)] إذا تناول لحية النبيّ ﷺ، ويقول له: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك[(٨)]، فقال عروة للمغيرة: ويحك ما أفظّك وأغلظك وما أشدّ قولك،

---

(١) فإنه أسلم بعد ذلك.

(٢) ويقال: أوشاب.

(٣) العوذ المطافيل: النساء معهنّ أولادهنّ.

(٤) البظر: قطعة من اللحم تبقى في فرج المرأة بعد الختان. مؤلف.

(٥) وتلك اليد التي كانت لأبي بكر رضي الله عنه عند عروة هي إعانته في حمل دية رجل بعشرة من الإبل، وإنّما أعانه النّاس بالبعير والبعيرين. مؤلف.

(٦) أي: رددت عليك القبيحة بمثلها، وانتقمتُ لنفسي بما يحفظ كرامتها.

(٧) النصل: ما يكون أسفل القراب من نحو فضّة. مؤلف.

(٨) وإنّما يَفعل ذلك المغيرة إجلالاً لرسول ﷺ، ولم ينظر لما هو عادة العرب. مؤلف.

ليت شعري من هذا الذي آذاني من بين أصحابك؟، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة»[1] فقال عروة للمغيرة: أيُّ غدر ـ يعني: يا غادر ـ والله ما غسلت عنك غدرتك بعكاظ إلا بالأمس، لقد أورثتنا العداوة من ثقيف إلى آخر الدهر.

أراد بذلك أنّ المغيرة كان قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف، فاختصم بنو مالك مع رهط المغيرة وشرعوا في المحاربة، فسعى عروة في إطفاء نار الحرب وصالح بني مالك على ثلاثة عشر دية، ودفعها عروة لهم.

وسبب قتل المغيرة للثلاثة عشر رجلاً أنه وفد هو وإياهم إلى مصر على المقوقس بهدايا، قال المغيرة: وكنا سدنة اللات ـ أي: خدامها ـ واستشرت عمّي عروة في مرافقتهم فأشار عليَّ بعدم ذلك، فلم أطع رأيه قال المغيرة: فأنزلنا المقوقس في كنيسة الضيافة، ثمّ أدخلنا عليه فقدَّموا ـ أي: تلك الثلاثة عشر رجلاً ـ الهدية له، وعند ذلك استخبر المقوقس كبير القوم عنّي فقال: ممن يكون هذا؟، فقالوا: ليس منَّا، بل من الأجلاف، فكنت أهون القوم عليه، فأكرمهم وقصَّر في حقِّي، فلمّا خرجوا لم يعرض عليَّ أحد منهم شيئاً، فكرهت أن يخبروا أهلنا بإكرامهم وازدراء الملك لي، فأجمعت على قتلهم، ونزلنا محلًّا، وعصبت رأسي فعرضوا عليَّ الخمر، فقلتُ: رأسي متصدّع، ولكن أسقيكم، فسقيتهم وأكثرت لهم بغير مزج حتى همدوا، فوثبت عليهم فقتلتهم جميعاً، وأخذت كلّ ما كان معهم، وقدمت على النبيّ ﷺ في مسجده فسلّمت عليه، وقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي هداك للإسلام يا مغيرة»، فقال أبو بكر: من مصر قدمت يا مغيرة؟ قلت: نعم، قال: فما فعل المالكيون الذين كانوا معك؟ ـ لأنهم من بني مالك ـ فقلت: كان بيني وبينهم ما يكون بين العرب وقتلتهم، وجئت بأسلابهم ليخمّسها النبيّ ﷺ أو يرى فيها رأيه، فقال النبيّ ﷺ: «أما إسلامك فقبلته، ولا آخذ من أموالهم شيئاً، ولا أخمّسه فإنه غدر، والغدر لا خير فيه»، فقلت: يا رسول الله، إنما قتلتهم، وأنا على دين قومي، ثمّ أسلمت، فقال ﷺ: «الإسلام يجبُّ ما قبله».

قال المغيرة: وبلغ ذلك ثقيفاً، فتداعوا للقتال واصطلحوا على أن يحمل عمّي عروة ثلاث عشرة دية، فدفعها عروة عنّي إطفاء لنار الحرب.

ثمّ إنّ النبيّ ﷺ أخبر عروة بما أخبر به من تقدّم من أنه أتى معتمراً ولم يأت

---

(١) لأنّ عروة كان عمّ وال المغيرة رضي الله عنه. مؤلف.

لحرب، فقام عروة من عند رسول الله ﷺ، وقد رأى ما يصنع به أصحابه رضي الله عنهم من أنه ﷺ لا يتوضأ ـ أي: يغسل يديه ـ إلا ابتدروا وَضوءه وكادوا يقتتلون عليه، ولا يبصق بصاقاً إلا ويقع في يد أحدهم فيمسح وجهه وجلده، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، ولا يُحِدُّون النظر إليه تعظيماً له ﷺ، فقال عروة لما رجع: يا معشر قريش، إني جئت كسرى وقيصر والنّجاشيّ، والله ما رأيت مَلِكاً في قوم قطّ مثل محمّد في أصحابه، لقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فَرُوا رأيكم، فإنه قد عرض عليكم رشداً، اقبلوا ما عرض عليكم، فإني لكم ناصح مع أني أخاف أن لا تنصروا عليه، فقالت قريش: لا تتكلّم بهذا يا أبا يعفور، ولكن نردُّه عامنا هذا، ويرجع إلى قابل، فقال: ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة، ثمّ انصرف هو ومن معه إلى الطائف.

ودعا رسول الله ﷺ خراش بن أمية الخزاعي فبعثه إلى قريش، وحمله ﷺ على بعير له يقال له «الثعلب» ليبلِّغ أشرافهم عمّا جاء له ﷺ، ولما جاءهم عقروا به جمل رسول الله ﷺ، عقره عكرمة بن أبي جهل ﷺ[1] وأرادوا قتله فمنعهم الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ وأخبره بما لقي.

ثمّ دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه فيبلغ عنه أشراف قريش بما جاء به ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أخاف من قريش على نفسي، وما بمكة من بني عدي بن مالك أحدٌ يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكن أدلُّك على رجل أعزّ بها مني عثمان بن عفان، فإنّ بني عمّه يمنعونه، فدعا رسول الله ﷺ عثمان ﷺ فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه لم يأت إلا زائراً لهذا البيت ومعظّماً لحرمته، وأمر ﷺ عثمان أنْ يأتي رجالاً من المسلمين بمكة ونساء مسلمات، ويدخل عليهم ويبشّرهم بالفتح ويخبرهم أنّ الله تعالى يوشك أنْ يُظْهر دينه بمكة حتى لا يستخفي فيها بالإيمان مستخفٍ، فخرج عثمان ﷺ إلى مكة ودخل مكة عشرة من الصّحابة أيضاً بإذن رسول الله ﷺ ليزوروا أهليهم، فلقي عثمان ﷺ قبل أنْ يدخل مكة أبان بن سعيد بن العاص ﷺ[2] فأجاره حتى بلّغ رسالة رسول الله ﷺ وجعله بين يديه، فجاء عثمان ﷺ إلى أبي سفيان

(١) فإنه أسلم بعد ذلك.

(٢) فإنه أسلم بعد ذلك.

وعظماء قريش فبلّغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به وهم يردّون عليه: إنّ محمّداً لا يدخلها علينا أبداً، فلمّا فرغ عثمان ﷺ من رسالة رسول الله ﷺ قالوا له: إنْ شئت أنْ تطوف بالبيت فطف؟، قال: ما كنت لأفعل، حتى يطوف به رسول الله ﷺ، وقال المسلمون: قد خلص عثمان إلى البيت فطاف به دوننا، فقال رسول الله ﷺ: «ما أظنّه طاف بالبيت ونحن محصورون»، قالوا: وما يمنعه يا رسول الله، وقد خلص إليه؟، فقال ﷺ: «ذلك ظني به، أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف، لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف به حتى أطوف».

فلمّا رجع عثمان ﷺ وأُخبر بما ظنته الصّحابة من طوافه بالبيت، قال: بئسما ظننتم بي، دعتني قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيتُ، والذي نفسي بيده لو مكثت بها معتمراً كذا وكذا سنة، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ما طفت حتى يطوف رسول الله ﷺ.

وكانت قريش حبست عندها عثمان ثلاثة أيام لضيافة يضيفه أقاربه، فبلغ رسول الله ﷺ أنّ عثمان والعشرة رجال الذين كانوا دخلوا مكة قتلتهم قريش، فحينئذ قال ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، أي: نقاتلهم، ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة بعد أن قال لهم: «إن الله أمرني بالبيعة».

فعن سلمة بن الأكوع ﷺ أنّه قال: بينما نحن جلوس قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ ـ وهو عمر بن الخطاب ﷺ ـ يا أيها الناس، البيعة البيعة، نزل روح القدس فاخرجوا على اسم الله تعالى، فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعناه، وبايعه الناس على عدم الفرار، وأنه إما الفتح وإما الشهادة.

ثمّ علم ﷺ كذب القول بأنّ عثمان ومن معه قد قتلوا، فبايع ﷺ عن عثمان، فوضع ﷺ يده اليمنى على يده اليسرى، وقال: «اللهم هذه عن عثمان، فإنه في حاجتك وحاجة رسولك» وكانت البيعة تحت شجرة سَمُرَة هناك.

ولما رجع عثمان بايع هو أيضاً بنفسه تحتها، وصارت تلك الشجرة التي وقعت المبايعة تحتها يقال لها: شجرة الرضوان، ويقال للبيعة التي وقعت تحتها: بيعة الرضوان، لأنه ﷺ قال: «لا يدخل النّار أحد بايع تحت الشجرة».

وأول من بايعه ﷺ سنان بن أبي سنان الأزدي ﷺ، روي أنه قال للنبي ﷺ: أبايعك على ما في نفسك، فقال ﷺ: «وما في نفسي؟»، قال: أضرب بسيفي بين يديك حتى يظهرك الله أو أُقتل، وصار الناس يقولون له ﷺ: نبايعك على ما بايعك به سنان ﷺ.

ولم يتخلَّف عن هذه البيعة أحد إلا الجد بن قيس استخفى تحت باطن ناقته، قيل: إنّه كان يُرْمى بالنفاق، وروي أنه ﷺ قال: «أيها الناس إنّ الله قد غفر لأهل بدر والحديبية، ولا يدخل النار من شهد بدراً والحديبية»، لكن الراجح أنّ غزوة بدر أفضل الجميع، ثمّ أُحُد، ثمّ الحديبية.

ثمّ إنّه مَرَّ بالمسلمين مشركون يريدون الاعتمار بالبيت فقال المسلمون: نصدّ هؤلاء كما صدّنا أصحابهم عن البيت فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ...﴾[1] الآية.

وكان محمد بن مسلمة على حرس رسول الله ﷺ فبعثت قريش أربعين، وقيل: خمسين رجلاً وأمَّرت عليهم مكرز بن حفص ليطوفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليلاً رجاء أن يصيبوا منهم أحداً ويجدوا منهم غفلة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، وقيل: وخمسمائة، فأخذهم محمد بن مسلمة إلا مكرزاً فإنه أفلت، وهو الذي بعثته قريش أولاً له ﷺ ليسأله فيما جاء، فأتى بهم إلى رسول الله ﷺ فأمر بهم فحبسوا، وبلغ قريشاً خبر أصحابهم فجاء جمع منهم حتى رموا المسلمين بالنبل والحجارة، فأسر المسلمون منهم اثني عشر رجلاً، وعند ذلك بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ جمعاً فيهم سُهيل بن عمرو، فلما رآه النبيّ ﷺ قال لأصحابه: «سَهُل أمركم»، فقال سهيل: يا محمّد، إنّ من حبس أصحابك ـ أي: عثمان والعشرة رجال ـ كان من سفهائنا ولم يكن من ذوي رأينا، فلما بلغنا خبرهم كنا لذلك كارهين، وقتال من قاتلكم لم نكن راضين به، فأرسل لنا أصحابنا الذين أسرتهم أولاً وثانياً، فقال ﷺ: «إني غير مرسلهم حتى ترسلوا لي أصحابي»، فقالوا: نفعل، فبعث سهيل ومن معه إلى قريش بذلك، فبعثوا بمن كان عندهم، وهم عثمان والعشرة رجال رضي الله عنهم، فأرسل رسول الله ﷺ أصحابهم.

ولما علمت قريش بهذه البيعة خافوا وأشار أهل الرأي منهم بالصّلح على أن يرجع ويعود من قابل فيقيم ثلاثة أيام، ومعه سلاح الراكب السيوف في القُرَب[2] ـ جمع قراب بكسر القاف، وهو شبه الجراب يطرح فيه الراكب سيفه بغمده ويطرح فيه سوطه وقد يطرح فيه زاده أيضاً ـ فحينئذ بعثوا سهيل بن عمرو ثانياً، ومعه مكرز بن

---

(١) المائدة: ٢.

(٢) جمع قِراب بكسر القاف، وهو شبه الجراب يَطْرح فيه الراكب سيفه بغمده ويطرح فيه سوطه وقد يطرح فيه زاده أيضاً. مؤلف.

حفص وحويطب بن عبد الله العزى إلى رسول الله ﷺ ليصالحه على أن يرجع عامه هذا لئلَّا تتحدث الناس بأنه دخلها عنوة وأنه يعود من قابل.

فلمّا رأى النبيّ ﷺ سهيلاً عائداً قال: إنّ القوم أرادوا الصّلح حيث بعثوا هذا الرجل ثانياً، فلمّا انتهى سهيل إلى رسول الله ﷺ جثى على ركبتيه بين يديه ﷺ والمسلمون جلوس، وتكلَّم سهيل فأطال، فقال النبيّ ﷺ: «خلُّوا بيننا وبين البيت فنطوف به»، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب بنا أنَّا أخذنا ضغطة بالضرّ ـ أي: بالشدة والإكراه ـ ولكن ذلك من العام القابل، ثمّ التأم الأمر بينهما على الصّلح على ترك القتال إلى آخر ما يأتي، ولم يبق إلا الكتاب بذلك فحينئذ وثب عمر بن الخطاب ﷺ، فقال لأبي بكر: يا أبا بكر، أليس هو رسول الله ﷺ؟، قال: بلى، قال: وألسنا المسلمين؟، قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلامَ نعطي الدنيَّة ـ أي: النقيصة والخصلة المذمومة ـ في ديننا، فقال أبو بكر: يا عمر، إنه رسول الله ﷺ، وليس يعصي ربّه، وهو ناصره، استمسك بغرزه ـ أي: ركابه ـ حتى يموت، فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثمّ أتى عمر إلى رسول الله ﷺ[1] فقال له: مثل ما قال لأبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: «أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره، ولن يضيّعني الله»، فحصل لعمر ﷺ من ذلك ومن الصّلح الآتي أمر عظيم، وجعل يردّ الكلام على رسول الله ﷺ حتى قال له أبو عبيدة بن الجراح ﷺ: ألا اسمعْ يا ابن الخطاب ما يقول رسول الله ﷺ، تعوَّذ بالله من الشيطان الرجيم، فجعل عمر ﷺ يتعوَّذ بالله من الشيطان الرجيم، فقال له رسول الله ﷺ: «إني رضيتُ، وتأبى يا عمر؟؟!!».

فكان عمر ﷺ يقول: ما زلت أصلِّي وأصوم وأتصدّق وأعتق مخافة كلامي الذي تكلّمت به مع النبيّ ﷺ حتى رجوت أن يكون خيراً.

ثمّ دعا النبيّ ﷺ عليّ بن أبي طالب فقال له: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل بن عمرو: لا أعرف الرحمن الرحيم، ولكن اكتب باسمك اللهم، فكتبها، لأنّ قريشاً كانت تكتبها، ثمّ قال ﷺ: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو»، فكتب عليٌّ، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولم أصدّك عن البيت، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك: محمد بن عبد الله، فقال رسول الله ﷺ

(١) لقد سأل عمر ﷺ النبيّ ﷺ أوّلا ثمّ سأل أبا بكر ﷺ ثانياً كما هو مقرر في البداية والنهاية: (٤/ ١٧٥).

لعلي: «امحه» أي: لفظ رسول الله، وفي لفظ: «امح رسول الله»، فقال عليٌّ: ما أنا بالذي أَمْحُوه، والله لا أمحوك أبداً، فقال: أرنيه فأراه إيّاه فمحاه ﷺ بيده الشريفة، ثمّ قال ﷺ: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو»، ثمّ قال ﷺ: «أنا والله رسول الله وإن كذَّبتموني، وأنا محمد بن عبد الله»، فوقع الصّلح على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، وقيل: أربع سنين، ويكفُّ بعضهم عن بعض، قال سهيل: وعلى أنّ من أتى محمداً من قريش ممن هو على دين محمّد بغير إذن وليه يَرُدُّه محمّد إلى وليِّه، ومن أتى قريشاً ممن كان مع محمّد مرتداً لم نردّه إلى محمّد، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد محمّد وعهده دخل فيه، وإن بيننا صدوراً خالية من الغلّ والخداع، منطوية على الوفاء بالصّلح، وأنه لا سلال ولا إعلال، ولا سرقة ولا خيانة، وإنك ترجع عامك هذا، فلا تدخل مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجت منها قريش، فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثة أيام معك سلاح الراكب السّيوف في القُرَب والقوس، لا تدخلها بغيرهما، فكتب ما ذكر كلّه في نسختين: نسخة مع سهيل وأخرى مع النبيّ ﷺ.

ولما شرط سهيل أن يردّ عليهم من جاء مسلماً ولا يردّوا من جاء إليهم مرتداً صعب ذلك على المسلمين وقالوا: كيف نردّ ولا يردّون، أم كيف نردّ المسلم للمشركين ليفتنوه عن دينه؟، وقال عمر: أترضى بهذا يا رسول الله؟، فتبسَّم ﷺ وقال: «من جاءنا منهم فرددناه إليهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً، ومن أعرض عنّا وذهب إليهم لسنا منه في شيء، وليس هو منّا».

وقبل انتهاء مجلس الصّلح جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو إلى المسلمين يزحف في الحديد ـ أي: يمشي في قيوده ـ متوشحاً سيفه قد أفلت إلى أن جاء إلى رسول الله ﷺ ورمى بنفسه بين أظهر المسلمين فجعل المسلمون يرحبون به ويهنّئونه، فلمّا رأى سهيل ابنه أبا جندل قام إليه فضرب وجهه ضرباً شديداً حتى رقَّ عليه المسلمون وبكوا، ثمّ قال سهيل: يا محمّد، هذا أوّل ما أقاضيك عليه أن تردَّه إليَّ، فقال ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، فقال سهيل: فوالله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً، فقال النبيّ ﷺ: «فأجزه لي»، فقال: ما أنا بمجيزه لك، فقال: بلى فافعل، فقال: ما أنا بفاعل، فقال مكرز: بلى، قد أجزناه لك.

وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أُردُّ إلى المشركين

يفتنوني في ديني، ألا ترون ما لقيتُ؟!![1]، فازداد المسلمون غيظاً حتى كادوا يهلكون، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإنّ الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم»، ورجع أبو جندل إلى مكة في جوار مكرز بن حفص وحويطب أن لا يعذَّب فأدخلاه مكاناً وكُفّ عنه أبوه.

ودخلتْ خزاعة في عقد النبيّ ﷺ وعهده، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ولما فرغ ﷺ من الصّلح وأشهد عليه رجالاً من المسلمين: هم أبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة ورجالاً من المشركين: منهم حويطب ومكرز.

ثمّ أمر ﷺ المسلمين بنحر الهدي وبالحلق والتحلل ثلاث مرات، فلم يجبه أحد، بل بهتوا مما حصل لهم من الغيظ، فدخل ﷺ على أمّ سلمة رضي الله عنها، وهو شديد الغضب فاضطجع فقالت: يا نبيّ الله، أتحبّ ذلك، اخرج ثمّ لا تكلّم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج ﷺ وفعل كما ذكرت رضي الله عنها، فأخذ الحربة بيده الشريفة وقصد هديه وأهوى بالحربة إلى البدنة رافعاً صوته: «بسم الله والله أكبر»، ثمّ دخل قبة له من أدم أحمر، ودعا بخراش فحلق رأسه ورمى بشعره على شجرة فأخذه الناس وتخاصموه، وأخذت أمّ عمارة طاقات منه، فكانت تغسلها للمريض وتسقيه فيبرأ ـ بإذن الله ـ فلمّا رأوا ذلك قاموا فنحروا وحلقوا فقال ﷺ: «اللهم ارحم المحلّقين»، قالوا: يا رسول الله، والمقصرين؟، قال: «اللهم ارحم المحلّقين»، قالوا: والمقصّرين؟، قال: «اللهم ارحم المحلّقين»، قالوا: يا رسول الله، والمقصّرين؟، فقال ﷺ: «اللهم ارحم المحلّقين والمقصّرين» في الرابعة، فقالوا: لم أظهرت يا رسول الله الترحُّم للمحلّقين دون المقصّرين؟، فقال ﷺ: «لأنهم لم يشكّوا»، أي: أنّ المقصرين أخّروا بقية شعورهم رجاء أن يحلقوها بعد طوافهم بالبيت بخلاف المحلّقين.

ثمّ أرسل الله ريحاً عاصفاً فاحتملت شعورهم فألقتها في الحرم فاستبشروا بقبول عمرتهم، وكان من جملة هدي النبيّ ﷺ جملٌ لأبي جهل نجيب كان برأسه برة ـ أي:

---

(١) فإنّه كان عُذّب عذاباً شديداً على أن يرجع عن الإسلام. مؤلف.

حلقة ـ من فضة، وقيل: من ذهب غَنِمَه ﷺ يوم بدر، ففرّ يوم الحديبية من الذبح ودخل مكة، ثمّ دخل دار أبي جهل، وخرج في أثره عمرو بن غنمة الأنصاري رضي الله عنه فأبى سفهاء مكة أن يعطوه إيّاه حتى أمرهم سهيل بن عمرو بدفعه له، وقال لهم: إنْ كنتم تريدونه فاعرضوا على محمّد مئة من الإبل بدله، فإنْ قبلها فأمسكوا هذا الجمل، وإلا فلا تتعرضوا له، فعرضوا ذلك على النبيّ ﷺ فأبى، وقال: «لو لم يكن هذا الجمل للهدي لقبلتُ المائة».

وفرَّق ﷺ لحم الهدي على الفقراء الذين حضروا الحديبية، وفي رواية: بعث ﷺ إلى مكة عشرين بدنة مع ناجية حتى نُحرت بالمروة، وقسَّموا لحمها على فقراء مكة، ثمّ جلس رسول الله ﷺ فحلق رأسه إلى آخر ما مرَّ.

ثمّ انصرف ﷺ ومن معه من المسلمين راجعاً للمدينة الشريفة بعد أنْ أقام بالحديبية تسعة وعشرين يوماً، وقيل: عشرين يوماً، فلمّا وصل إلى كراع الغميم[1] أنزلت عليه ﷺ سورة الفتح، فقال ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أنزلت عليَّ سورة هي أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس».

وهنأ جبريل عليه السلام النبيّ ﷺ وهنأه المسلمون، وتكلّم بعض الصّحابة، وقالوا: ما هذا بفتح لقد صدّونا عن البيت وصدّوا الهدي، فقال رسول الله ﷺ لما بلغه ذلك: «بئس الكلام، بل هي أعظم الفتح، قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالسراح عن بلادهم وسألوكم الصّلح وقد أمّنوكم، وقد رأوا منكم ما كرهوا، وأظفركم الله عليهم، وردّكم سالمين مأجورين، فهو أعظم الفتوح، أنسيتم أُحُد إذ تصعدون ولا تلوون على أحَد وأنا أدعوكم في أخراكم، أنسيتم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنّون بالله الظنونا؟»، فقال المسلمون: صدق الله ورسوله، فهو أعظم الفتوح، والله يا رسول الله ما فكَّرنا فيما ذكرت، ولأنت أعلم بالله عزَّ وجلَّ وبأمره منَّا، وقال عمر رضي الله عنه: ألم تقل يا رسول الله أنك تدخل مكة آمناً؟، قال ﷺ: «بلى، أقلتُ في هذا العام؟»، وفي لفظ: «أفقلت لكم من عامي هذا؟»، قالوا: لا، فقال ﷺ: «فهو كما قال جبريل عليه السلام، فإنكم تأتونه وتطوفون به»، ولما قالوا له ﷺ: أين رؤياك؟، أنزل الله تعالى:

---

(١) تقدم الكلام عنها.

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ...﴾ [1] الآية.

فلمّا دخل ﷺ مكة عام عمرة القضاء وحلق رأسه الشريف قال لهم ﷺ: «هذا الذي وعدتكم به»، وروي عن جابر ﷺ قال: عطش الناس يوم الحديبية ـ أي: في إيابها أو ذهابها ـ ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة يتوضأ منها فأقبل الناس نحوه وقالوا: يا رسول الله، ليس عندنا ماء إلا ما في ركوتك، فوضع رسول الله ﷺ يده في الرّكوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فقيل لجابر: كم كنتم؟ قال: لو كنا مئة ألف لكفانا، كنّا خمس عشرة مائة.

وقصة نبع الماء من بين أصابعه ﷺ تكررت خمس مرات كما قاله ابن حبان، ونبع الماء وانشقاق القمر وتسليم الحجر وحنين الجزع لم يثبت لأحد من الأنبياء غير نبينا محمد ﷺ.

ولما قدم رسول الله ﷺ، هاجرت إليه أمّ كلثوم بنت عتبة بن أبي معيط في تلك المدة، وكانت أسلمت بمكّة وبايعته ﷺ قبل الهجرة إلى المدينة، وهي أول من هاجر من النّساء بعد هجرته ﷺ إلى المدينة، خرجت من مكة وحدها، وصاحبت رجلاً من خزاعة حتى قدمت المدينة، وهي أخت عثمان بن عفان لأمّه، فرحَّب بها ﷺ لما دخل على أمّ سلمة فوجدها عندها، ثمّ خرج أخواها عمارة والوليد في ردِّها بالعهد، فقالا: يا محمّد، أوف لنا بالعهد الذي عاهدتنا عليه، فلم يفعل النبيّ ﷺ لما قالت له: إني امرأة، وحال النّساء إلى الضعف، أفتردّني إلى الكفّار يفتنوني عن ربي ولا صبر لي، فنزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ...﴾ [2] الآية.

فكان ﷺ يستحلف المرأة أنها ما هاجرت ناشزة ولا رغبة بأرض عن أرض وما خرجت من بغض زوج ولا لرجل من المسلمين ولا طلباً للدنيا، وما خرجت إلا حبًّا لله ورسوله، فإذا حلفت لم تُردّ، ورُدَّ صداقها إلى بعلها، وروي أنّ الذي كان يتولّى تحليفهنّ عمر بن الخطاب ﷺ، ولم يكن لأمّ كلثوم زوج فزوّجها رسول الله ﷺ من زيد بن حارثة ﷺ، ثمّ نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ...﴾ [3] الآية.

---

(١) الفتح: ٢٧.

(٢) الممتحنة: ١٠.

(٣) الممتحنة: ١٠.

فنهى الله المؤمنين عن البقاء على نكاح المشركات، فطلّق الصّحابة كلّ امرأة كافرة في نكاحهم حتى أنّ عمر بن الخطاب طلّق مشركتين يومئذ، فتزوّج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أميَّة.

وكان ﷺ يردّ الرجال ولا يردُّ النساء، حتّى روي أنهم قالوا له: رُدَّ النساء كما عاهدتنا، فقال ﷺ: «كان العهد من أجل الرجال لا من أجل النّساء»، وقيل: غير ذلك.

وفي هذه المدَّة ـ أي: مدة العهد ـ جاء مُسْلما إلى النبيّ ﷺ وهو بالمدينة أبو بصير[1]، وكان ممن حُبس بمكة، وكتب في ردِّه أزهر بن عوف رضي الله عنه[2] والأخنس بن شريق، فإنهما كتبا كتاباً وبعثا به رجلاً من بني عامر يقال له: خنيس، ومعه مولى يهديه الطريق، فقدما على النبيّ ﷺ بالكتاب فقرأه عليٌّ على رسول الله ﷺ، فإذا فيه: قد عرفتَ ما شارطناك عليه مِنْ ردِّ مَنْ قدم عليك من أصحابنا، فابعث إلينا بصاحبنا، فقال ﷺ: «يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما علمتَ، ولا يصلح في ديننا الغدر، وإنّ الله تعالى جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك، فانطلق معهما»، وصار المسلمون يغرونه بهما ليقتلهما، ويقولون له: الرجل يكون خيراً من ألف رجل، ودم الكافر كدم الكلب والخنزير، فسار رضي الله عنه معهما حتى إذا كانوا بذي الحليفة جلسوا عند جدار، فقال أبو بصير لأحد صاحبيه ومعه سيفه: أصارمٌ سيفك هذا يا أخا بني عامر؟، فقال: نعم، انظر إليه إنْ شئت فاستلَّه أبو بصير، ثمّ علاه به حتى قتله، فطلب المولى فخرج المولى سريعاً حتى أتى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد، فلما رآه رسول الله ﷺ والحصا يطنّ تحت قدميه، وفي لفظ: يطيّره من تحت قدميه من شدَّة عَدْوِه، وأبو بصير في أثره قد أعجزه، فقال ﷺ: «إنّ هذا الرجل قد رأى فزعاً»، وفي لفظ: «قد لقي هذا ذعراً»، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد قال له: «ويحك مالك؟»، قال قد قَتل صاحبُكم أبو بصير صاحبي، وأفلتُّ منه، وإني لمقتول، فأمَّنه رسول الله ﷺ، فإذا أبو بصير قد أناخ بعير العامري بباب المسجد ودخل متوشِّحاً سيفه، ووثب على رسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله، قد وفيَّت ذمَّتك، أسلمتني بيد القوم، وقد امتنعتُ بديني أن أفتتن فيه،

---

(١) أبو بصير: هو عتبة بن أسيد بن جارية، وقيل: عبيد. حكاه ابن عبد البر. انظر الإصابة: (٤٣/٧)، والثقات لابن حبان: (٢٩٨/٣)، وأسماء من يعرف بكنيته للأزدي: (٣٤).

(٢) فإنه أسلم بعد ذلك.

فقال رسول الله ﷺ: «ويلُ أمه مسعرُ حرب، لو كان لها حد قواه»، والمراد بذلك التعجب من إقدامه في الحرب والإيقاد لنارها وسرعة النهوض لها، لو صار له أحد ينصره على إسعاره الحرب لأثار الفتنة وأفسد الصّلح، فلمّا سمع أبو بصير ذلك من النبيّ ﷺ عرف أنه سيردّه إليهم، فقال: يا رسول الله، هذا سلب العامري وسيفه فخمِّسه، فقال ﷺ: «إذا خمّسته رأوني لم أوفِ لهم بالذي عاهدتهم عليه، ولكن شأنك بسلب صاحبك»، فعند ذلك ذهب أبو بصير إلى محلّ من طريق الشام يمرُّ به عيران قريش.

واجتمع إليه جمع من المسلمين الذين كانوا حبسوا بمكة لأنّه كان بلغهم خبره وأنّ رسول الله ﷺ قال في حقِّه: «ويل أمه مسعر حرب، لو كان معه رجال - وفي لفظ: لو كان معه أحد..» فصاروا يتسلّلون إليه، وانفلت أبو جندل بن سهل بن عمرو الذي ردَّه ﷺ يوم الحديبية، وخرج من مكة في سبعين راكباً أسلموا فلحقوا بأبي بصير وكرهوا أنْ يقدموا على رسول الله ﷺ في مدّة العهد خوفاً من أنْ يردَّهم إلى أهلهم، وانضمَّ إليه ناس من غِفَار وأَسْلم وجهينة وطوائف من العرب ممن أسلم حتى بلغوا ثلاثمئة مقاتل فقطعوا مارَّة قريش لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا يمرُّ بهم عير إلا أخذوها حتى كتبت قريش لرسول الله ﷺ تسأله بالأرحام إلا آواهم، ولا حاجة لهم بهم، وقالوا: إنا أسقطنا هذا الشرط، فإنّ هؤلاء الركب قد فتحوا علينا باباً لا يُصْلح إقراره، فكتب رسول الله ﷺ إلى أبي جندل وإلى أبي بصير أن يقدما عليه، ومن معهما من المسلمين يلحقوا ببلادهم وأهليهم، ولا يتعرَّضوا لأحد مرَّ بهم من قريش ولا لعيرانهم، فقدم كتاب رسول الله ﷺ عليهما وأبو بصير يموت، فمات ؓ وكتاب رسول الله ﷺ في يده يقرؤه، فدفنه أبو جندل مكانه، وجعل عند قبره مسجداً، ثمّ قدم على رسول الله ﷺ مع ناس من أصحابه ورجع باقيهم إلى أهليهم، وأمنت قريش على عيرها، وعلمت الصّحابة رضي الله عنهم أنّ رأيه ﷺ في ردِّ أبي جندل مع أبيه سهيل بن عمرو خير من رأيهم في عدم الردّ، وأن مصالحته ﷺ لقريش أولى لأنها سبب كثرة المسلمين، فإنّ الكفار لما أمنوا القتال اختلطوا بالمسلمين فأثَّر فيهم الإسلام، فأسلم كثير منهم، فقد ذكر بعض المفسّرين أنّ الذين أسلموا في مدّة الصّلح يعدلون الذين أسلموا قبلها.

وعن أبي بكر الصّديق ؓ أنه كان يقول: ما كان فتح أعظم في الإسلام من فتح الحديبية، ولكن الناس قصّر رأيهم عمَّا كان بين محمّد ﷺ وربّه، والعباد يعجلون، واللهُ لا يعجل لعجلة العباد حتى يبلّغ الأمور ما أراد، لقد رأيتُ سهيل بن عمرو بعد

إسلامه في حجّة الوداع قائماً عند المنحر يُقَرِّب لرسول الله ﷺ بُدْنَه، ورسول الله ﷺ ينحرها بيده الشريفة، ودعا الحلاق لحلق رأسه ﷺ فأنظرُ إلى سهيل يلقط من شعر رسول الله ﷺ ويضعه على عينيه، وأذكرُ امتناعه أن يقرَّ يوم الحديبية بأن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم، وأن محمداً رسول الله، فحمدت الله وشكرته الذي هداه للإسلام.

وبعد الحديبية قبل خيبر، وقيل: بعدها نزلت آية الظهار: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا...﴾[1] إلى آخرها، وسببها شهير في كتب التفسير، وفي هذه السنة ـ أعني سنة ست ـ حرّمت الخمرة مطلقاً.

وأشار المصنِّف لبعض ما وقع في الحديبية بقوله:

وسهمك مذ ألقاه ناجية على قلب أتانا بالمياه الغزيرة

يعني: أنك يا رسول الله، لما قدمت مع أصحابك على الحديبية ثمّ نزح ماء قليبها بسرعة لقلّته، دَفَعْتَ لناجية الصّحابي سهماً وأَمَرْتَه أنْ يغرزه في القليب الذي نُزِح ماؤه، فلمّا غرزه فيه أتى الماء الغزير الكثير بسرعة كما مرَّ موضَّحاً، ويناسب هذه المعجزة معجزة أخرى وقعت في غير الحديبية قد أشار إليها المصنف بقوله:

دعوت ففاض الوبل حتى ارتوى الورى وملّوه فانجاب السحاب بدعوة

حاصله: يشير المصنف إلى ما روي عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال: بينما النبيّ ﷺ يخطب إذ قام رجل فقال: يا رسول الله، هلك الكراع والنّساء فادع الله أن يسقينا، فمدَّ يديه ﷺ، وإنّ السماء كمثل الزجاجة صافيةً من الغيم، فهاجت ريح، ثمّ أنشأت سحابة، ثمّ اجتمعت، ثمّ أرسلت عزاليها، فخرجنا نخوض في الماء حتى أتينا منازلنا، فلم يزل المطر إلى الجمعة الأخرى، فقام ذلك الرجل أو غيره، فقال: يا رسول الله، تهدَّمت البيوت، فادع الله أنْ يحبسه، فتبسَّم رسول الله ﷺ، ثمّ قال: «اللهم حوالينا ولا علينا»، فنظرتُ إلى السّحاب يتصدَّع حول المدينة كأنه الأكليل، وفي رواية: فقال ﷺ: «لو كان أبو طالب حيًّا لسرَّ بذلك» فقال: رجل يا رسول الله، كأنّك تعني قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلّاك من آل هاشم فهم حوله في نعمة وفواضل

فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فحينئذ أنشد رجل من كنانة:

(١) المجادلة: ١.

لك الحمد والحمد ممن شكر ... سُقِينا بوجه النبيّ المطر
دعا الله خالقه دعوة ... إليه وأشخص منه البصر
فلم يك إلا كلفّ الرداء ... وأسرع حتى رأينا الدرر
فكان كما قاله عمه ... أبو طالب أبيض ذو الغرر
به الله يسقي بصوب الغمام ... وهذا العيان لذاك الخبر

فقال النبيّ ﷺ: «إنْ يك شاعر يحسن فقد أحسنت»[١].

والمعنى: لما دعوتَ يا رسول الله فاض الوبل ـ أي: المطر ـ حتى ارتوى الورى ـ أي: المخلوقات ـ وملُّوا ـ أي: سئموا من كثرة المطر ـ فانجاب ـ أي: انزاح ـ السحاب عن السماء التي هي فوق المدينة، وكان ذاك الانجياب بدعوتك يا رسول الله بانجيابه كما دعوت أوّلاً بنزوله.

ثمّ إنّه ﷺ في السنة السابعة من الهجرة أواخر السادسة شرع في مراسلة الملوك يدعوهم للإسلام، ولما أراد ﷺ أن يكتب لهم كتباً قال الصّحابة له: يا رسول الله، إنّه لا يكون كتاباً حتى يكون مختوماً، فاتخذ حينئذ ﷺ خاتماً من ذهب[٢] فاقتدى به ذووا اليسار من أصحابه فصنعوا خواتيم من ذهب، ولما لبس ﷺ ذلك الخاتم ولبس أصحابه خواتيمهم، فنزل جبريل عليه السلام على النبيّ ﷺ من الغد ـ أي: في غد لِبسه ـ بأنّ لبس الذهب حرام على ذكور أمتك، فطرح رسول الله ﷺ خاتمه، وطرح الصّحابة خواتمهم، ثمّ اتخذ ﷺ خاتماً من فضة، ونقش فيه ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول، سطر، والله سطر، والأسطر الثلاثة تُقْرأ من أسفل إلى فوق، فمحمّد آخر الأسطر، ورسول في الوسط، والله فوق، وفصّه قيل: من فضة، وقيل: من عقيق، وقيل: من زبرجد، ولبسه ﷺ في خنصر يده اليسرى، ثمّ حوَّله لخنصر يده اليمنى، قاله صاحب السيرة[٣] التي ننقل منها لنشرِّف أقلامنا وطروسنا[٤] ونفوسنا وألسنتنا ومسامعنا بشمائله ﷺ وإلا فأي ثمرة لما كتبناه مع أنه نقل مما هو أوضح منه وأبسط وأحسن.

---

(١) انظر البداية والنهاية: (٦/ ٩١).
(٢) روى البخاري عن عبد الأعلى بن حماد عن يزيد بن زريع عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وأبو داود بإسناده عن أنس أنّه ﷺ اتّخذ خاتمه أول ما اتخذه من فضّة. انظر البداية والنهاية: (٦/ ٢).
(٣) لعلّه يريد سبل الهدى والرشاد (السيرة الشامية) إذ يظهر للمتتبع أنّ معظم النقول مأخوذة منها، والله أعلم.
(٤) الطرس: هو الكتاب.

باب بيان كتبه ﷺ التي أرسلها إلى الملوك يدعوهم للإسلام

ذكر كتابه ﷺ للمقوقس[(١)] ملك القبط[(٢)]

.....[(٣)] بعث رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس بكتابٍ صورته: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلامٌ على من اتَّبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن تولّيت فإنما عليك إثمّ القبط الذين هم رعاياك، و﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[(٤)] وختم ﷺ الكتاب[(٥)].

روي أنه ﷺ عند منصرفه من الحديبية قال: «أيها الناس، أيكم ينطلق بكتابي هذا إلى صاحب مصر وأجره على الله؟»، فوثب إليه حاطب، وقال: أنا يا رسول الله، فقال ﷺ: «بارك الله فيك يا حاطب»، قال حاطب رضي الله عنه: فأخذتُ الكتاب وودَّعته ﷺ وسرتُ إلى منزلي، وشددت على راحلتي وودّعت أهلي وسرتُ.

زاد السهيلي: وأنّه ﷺ أرسل مع حاطب جبيراً مولى أبي زهم الغفاري، فإنّ جبيراً هو الذي جاء بمارية من عند المقوقس، فجاء به ـ أي: بالكتاب ـ حاطب حتى قدم على المقوقس بالإسكندرية بعد أن ذهب إلى مصر فلم يجده فذهب إلى الإسكندرية، فأُخبر أنه في مجلس مشرفٍ على البحر، فركب سفينة حتى حاذى مجلسه، وأشار بالكتاب إليه.

فلمّا رآه أمر بإحضاره بين يديه، فلما جيء به إليه، نظر إلى الكتاب وفضّه

---

(١) معنى المقوقس: مطول البناء، وهذا لقب كل من ملك مصر من المصريين، وكان اسمه جريج بن ميناء. انظر عيون الأثر: (٢/٣٥٠).

(٢) القبط: وهم أهل مصر والإسكندرية وليسوا من بني إسرائيل. مؤلف.

(٣) ذكر المؤلف في هذا الموضع أنّه لن يراعي الترتيب عند كلامه على هذه الكتب، وقد حذفت هذه العبارة من الأصل ووضعتها في الهامش مراعاة لجودة السبك.

(٤) آل عمران: ٦٤.

(٥) وهذا الكتاب محفوظ بدار الآثار في اسطبول، قيل عثر عليه عالم فرنسي في دير بمصر قرب أخميم في زمن سعيد باشا. انظر كتاب محمد رسول الله ﷺ لمحمد رضا: (٤٣١).

وقرأه، وقال[1] لحاطب: إني سائلك عن كلام فأحبّ أنْ تفهم عني، قال: قلت: هلّم، قال: أخبرني عن صاحبك أليس هو نبيّ؟، قلت: بل هو رسول الله، قال: فما له حيث كان هكذا لم يدعُ على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها؟، فقال حاطب: ألستَ تشهد أن عيسى ابن مريم رسول الله؟ فقال: نعم، فقال له: فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه أنْ لا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله تعالى حتى رفعه إلى السماء الدنيا؟، فقال المقوقس: أحسنت أنت حكيم من عند حكيم.

ثمّ قال له حاطب: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الربّ الأعلى ـ يعني فرعون ـ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثمّ انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك، إنّ هذا النبيّ ـ ﷺ ـ دعا الناس للإسلام، فكان أشدّهم عليه قريشاً وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمّد ﷺ، وما دعاؤنا إيَّاك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكلّ نبي أدرك قوماً فهم أمته، فالحقّ عليهم أن يطيعوه، فأنتَ ممن أدرك هذا النبيّ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنّا نأمرك به ـ أي: لأنّ عيسى عليه السلام قال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[2].

وعند ذلك قال المقوقس: إني نظرتُ في أمر هذا النبيّ فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالسّاحر الضّال ولا الكاهن الكذّاب، ووجدتُ معه آية النبوّة بإخراج الخبء ـ أي: الشيء الغائب المستور ـ والإخبار بالنجوى ـ أي: يخبر بالمغيبات ـ وسأنظر، وأخذ كتاب رسول الله ﷺ وجعله في حُقّ عاجٍ وختم عليه ودفعه إلى جارية له، ثمّ دعا كاتباً له يكتب بالعربية فكتب إلى النبيّ ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد: فقد قرأتُ كتابك وفهمت ما ذكرتَ فيه وما تدعو إليه، وقد علمتُ أنّ نبيًّا قد بقي، وقد كنت أظنّ أنه يخرج بالشّام وقد أكرمتُ رسولك[3] وبعثتُ لك بجاريتين لهما مكان في القبط[4] عظيم وأهديت لك بغلة لتركبها والسلام». ولم يزد

(١) بعد أن جمع بطارقته.

(٢) الصّف: ٦.

(٣) فإنّه قد دفع له مئة دينار وخمسة أثواب. مؤلف.

(٤) وهما: ماريه وسيرين، وفي رواية: وثالثة اسمها قسرو، وهي أخت ماريه. وذكر بعضهم أنّ الثلاث أخوات، وأما بريرة فلا وجه لعدها منه. مؤلف.

على ذلك ولم يُسْلِم.

ومن جملة ما بعث به المقوقس إلى رسول الله ﷺ عشرون ثوباً من قباطي مصر وعمائم وطيباً وعوداً ونَدّاً ومسكاً مع ألف مثقال من الذهب، ومع قدح من قوارير، فكان ﷺ يشرب فيه.

وورد أنه هو أو نائبه أهدى للنبيّ ﷺ خصيًّا وحماراً أشهب يقال له: يعفور، وأما البغلة فهي الدُلْدُل، وأصل الدلدل: القنفذ العظيم، وأول من استنتج البغال قارون.

وسأل حاطباً ما الذي يهوى صاحبك من الخيل؟ فقال حاطب: الأشقر، فأرسل له فرساً منتخباً من خيل مصر مُسْرجاً ملجماً أشقر، وهي المسمى بالميمون واللزاز، وأهدى له عسلاً من عسل بَنْها ـ قرية من قرى مصر ـ فأعجبه ﷺ ودعا لعسل بَنْها بالبركة، وأهدى إليه ﷺ مربعة يضع فيها المكحلة وقارورة الدّهن والمشط والمقصّ والسواك، ومكحلة من عيدان شامية، ومرآة ومشطاً، وقيل: إنه أرسل طبيباً للنبيّ ﷺ، فقال ﷺ له: «ارجع إلى أهلك، نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع، فأيُّ حاجة لنا في الطبيب»[1].

قال حاطب: فرحلتُ من عنده، وقد بعث معي جيشاً إلى أن دخلت جزيرة العرب، فوجدتُ قافلة من الشام تريد المدينة، فرددتُ الجيش وارتفقت بالقافلة، قال حاطب: فلمّا دخلت المدينة ذكرتُ قوله لرسول الله ﷺ فقال: «ضنَّ الخبيث بملكه، ولا بقاء لملكه».

ذكر كتابه ﷺ لكسرى ملك الفرس

بعث ﷺ عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى وبعث معه كتاباً مختوماً فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى كسرى عظيم فارس، سلامٌ على من اتَّبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الإسلام، فإني أنا رسول الله إلى النّاس كافَّة، لأنذر من كان حيًّا ويحقَّ القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإنْ أبيت فعليك إثمّ المجوس» أي: الذين هم أتباعه.

---

(١) وذكر أن من جملة هدايا المقوقس للنبيّ ﷺ زيادة على تقدّم: غلام أسود اسمه هابو. انظر كتاب سيدنا محمد رسول الله ﷺ لمحمد رضا: (٤٣١).

قال عبد الله بن حذافة ﷺ: فأتيت إلى بابه وطلبت الإذن عليه حتى وصلت إليه، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرئ عليه، فأخذه ومزّقه وغضب حيث بدأ رسول الله ﷺ بنفسه، فارتحلتُ حالاً عن بلدته حتى أخبرتُ النبيّ ﷺ بصنيعه، فقال ﷺ: «اللهم مزّق ملكه كلّ ممزّق».

ثمّ كتب كسرى إلى بعض أمرائه باليمن يقال له (باذان): أنه بلغني أنّ رجلاً من قريش خرج بمكة يزعم أنّه نبيّ فسرْ إليه فاستَتِبْه، فإنْ تاب وإلا فابعث إليَّ برأسه، يكتب إليَّ هذا الكتاب الذي بدأ فيه بنفسه، وهو عبدي، فإنْ لم تكفني رجلاً بأرضك يدعوني إلى دينه، وإلا فعلتُ بك كذا وكذا ـ يتوعّده ـ فابعث إليه برجلين جَلْدين فليأتياني به، فبعث باذان بكتاب كسرى إلى النبيّ ﷺ مع قهرمانه، وبعث معه رجلاً آخر من الفرس، وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، فخرجا حتى قدما عليه ﷺ المدينة على زيِّ الفُرْسِ من حَلْق لحاهم وإعفاء شواربهم، فقالا له ﷺ: شاهنشاه ملك الملوك كسرى بعث إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتي بك، وفي رواية: مقيّداً، وفي رواية: برأسك إنْ أبيت، وقد بعثنا إليك فإن أبيت أهلكك وأهلك قومك وأخرب بلادك، فكره ﷺ النظر إليهما، ثمّ قال لهما: «ويلكما مَنْ أمركما بهذا؟»، قالا: أمرنا ربّنا ـ يعنيان كسرى ـ فقال رسول الله ﷺ: «ولكن ربِّي أمرني بإعفاء لحيتي وقصّ شاربي»، ثمّ قال لهما: «ارجعا حتى تأتياني غداً»، وأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بأنّ الله قد سلّط على كسرى ابنه فقتله في شهر كذا في ليلة كذا، فلمّا كان من الغد دعاهما رسول الله ﷺ وأخبرهما الخبر، وكتب رسول الله ﷺ إلى باذان: «أنّ الله قد وعدني أنْ يقتل كسرى في شهر كذا في يوم كذا»، فلمّا أتى الكتاب باذان توقّف، وقال: إنْ كان نبيًّا فسيكون ما قال، فقتل الله كسرى في اليوم الذي قاله رسول الله ﷺ على يد ولده شيرويه، وقيل: أنه قتله ليلاً بعد ما مضى من الليل سبع ساعات.

ثمّ قدم على باذان كتاب ولد كسرى شيرويه قاتل أبيه، وفيه أما بعد: فقد قتلتُ كسرى ولم أقتله إلا غضباً لفارس، فإنه قتل أشرافهم، فتفرّق النّاس، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قِبَلَك، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب إليك فيه، ولا تزعجه حتى يأتيك أمري فيه.

فبعث باذان بإسلامه وإسلام من معه إلى رسول الله ﷺ.

ذكر كتابه ﷺ للنجاشي ملك الحبشة

بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أميَّة الضمري إلى النّجاشيّ وبعث معه كتاباً فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النّجاشيّ الأصحم ملك الحبشة، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيّبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخته كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تتبعني فتؤمن بي وبالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عزَّ وجلَّ، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى».

فلمّا وصل إليه الكتاب وضعه على عينيه ونزل عن سريره وجلس على الأرض، ثمّ أسلم ودعا بِحُقٍّ من عاج فجعل فيه كتاب رسول الله ﷺ، وقال: لن تزال الحبشة بخير ما دام هذا الكتاب بين أظهرهم، وكتب إليه في جواب الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمّد رسول الله ﷺ من أصحمة النّجاشيّ، السلام عليك يا نبيّ الله من الله ورحمة الله وبركاته لا إله إلا هو الذي هداني للإسلام، أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى بن مريم فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد شيئاً على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرينا ابن عمك وأصحابه ـ يعني: جعفر بن أبي طالب ومن معه من المسلمين ـ فأشهد أنك رسول الله صادقاً ومصدقاً وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله ربّ العالمين، وقد بعثت إليك يا نبيّ الله بأربحا بن الأصحم بن أبجر فإني لا أملك إلا نفسي وإنْ شئت آتيك فعلت يا رسول الله، فإني أشهد أنّ ما تقول حقّ فصل.

وعند وصول الجواب للنبيّ ﷺ وقراءته عليه قال ﷺ: «اتركوا الحبشة ما تركوكم».

ذكر كتابه ﷺ إلى قيصر (هرقل) ملك الروم

كتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى قيصر يدعوه فيه إلى الإسلام، وبعث به دحية الكلبي رضي الله عنه، وأمره أن يدفعه إلى هرقل وله الجنة، وهرقل ـ بكسر ففتح فسكون كهزبر ـ ملك الروم، وهو اسم علم له غير منصرف للعلمية والعجمة، وهو صاحب حروب

الشام وملك إحدى وثلاثين سنة، وفي ملكه مات النبيّ ﷺ، ولقبه قيصر.

وقد أمر رسول الله ﷺ دحية أن يدفع الكتاب لعظيم بصرى ـ مدينة بحوران ـ فلمّا وصل دحية إلى الحارث أرسل معه عدي بن حاتم ليوصله إلى قيصر، فذهب به فلمّا وصل إليه قال قومه لدحية: إذا رأيت الملك فاسجد له، ثمّ لا ترفع رأسك حتى يأذن لك، قال دحية ﷺ: لا أفعل هذا أبداً، ولا أسجد لغير الله تعالى، فقالوا له: إذن لا يؤخذ كتابك، فقال له رجل منهم: أنا أدلُّك على أمر يؤخذ فيه كتابك ولا تسجد له فقال دحية ﷺ: وما هو؟، فقال: إنّ له على كلّ عتبة منبراً يجلس عليه فضع كتابك تجاه المنبر فإنّ أحداً لا يحرّكه حتى يأخذه هو، ثمّ يدعو صاحبه من غير أنْ يسجد له، ففعل، فلمّا أخذ قيصر الكتاب وجد عليه عنوان كتابة العرب فدعا ترجمانه الذي يقرأ بالعربية، ثمّ قال قيصر: انظروا لنا من قومه أحداً نسأله عنه، وكان أبو سفيان بن حرب بالشّام ـ أي: بغزة ـ مع رجال من قريش في تجارة لهم، وذلك زمن هدنة الحديبية، فقال أبو سفيان: فأتانا رسول قيصر، وهو والي شرطته، فانطلق بنا حتى قدمنا عليه في بيت المقدس، فإذا هو جالس وعليه التاج وعظماء الروم حوله، وعند حضورهم مجلس قيصر قال لترجمانه: سلهم أيّهم أقرب نسباً لهذا الرجل الذي يزعم أنه نبيّ؟، فقال أبو سفيان: أنا أقربهم نسباً، لأنه لم يكن في الرّكب يومئذ من بني عبد مناف غيرُه، لأن عبد مناف هو الأب الرابع له ﷺ، وكذا لأبي سفيان، فقال قيصر لأبي سفيان: ما قرابتك منه؟، فقلت: هو ابن عمي، فقال لي: ادن مني، ثمّ أمر بأصحابي فجُعلوا خلف ظهري، ثمّ قال قيصر لترجمانه: قل لأصحابه: إنما قدّمتُ هذا أمامكم لأسألَه عن هذا الرجل الذي يزعم أنّه نبيّ، وإنما جعلتكم خلفه لتردّوا عليه إنْ كذب في مقاله، ولا تستحيوا أن تشافهوه بالتّكذيب إذا كذب، فقال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء يومئذ أن يُؤْثَرَ عني الكذبُ لكذبتُ، ثمّ قال قيصر لترجمانه: قل له: كيف نسب هذا الرجل فيكم؟، قلت: هو منّا ذو نسب، قال: قل له: هل قال هذا القول أحد منكم قبله؟، قلت: لا، قال: قل له: هل كنتم تتهمونه بالكذب على الناس قبل أن يقول ما قال؟، قلت: لا ـ وفي رواية: هل كان حلّافاً كذاباً مخداعاً في أمره، لعله يطلب ملكاً وشرفاً كان لأحد من أهل بيته؟ قلت: لا.

ويروى أنّ أبا سفيان قال لقيصر ـ لما سأله: هل تتهمونه بالكذب؟ ـ فقال: لا، ولكن أخبرك عنه أيّها الملك خبراً تعرف به أنه قد كذب قال: وما هو؟، قلت: إنه

يزعم أنه خرج من أرضنا ـ أرضِ الحرم ـ في ليلة فجاء مسجدكم هذا، ورجع أيضاً في تلك الليلة قبل الصّباح، فقال بَطْرق من بطارقته: صدق أيّها الملك، وأنا أعرف تلك الليلة، كنت لا أنام حتى أغلق أبواب المسجد، ففي ليلة غلّقتُ الأبواب إلا باباً استعنت على غلقه بكلّ ما أمكنني فلم ينغلق ولم يتحرك فتركته، فلمّا أصبحت جئت إليه فإذا الحجر الذي في زاوية الباب ـ وفي رواية: المسجد ـ مثقوب، وإذا فيه أثر مربط الدابة التي هي البراق، ولم أجد في الباب ما يمنعه من الإغلاق، فعلمتُ أنه إنما امتنع لأجل ما كنتُ أجده في العلم القديم أنّ نبياً يصعد من المقدس إلى السّماء، وقلت لأصحابي: ما حبس هذا الباب في هذه الليلة إلا لهذا الأمر.

قال قيصر: قل له: هل كان من آبائه من ملك؟، قلت: لا، وفي رواية: كيف عقله ورأيه؟، قلت: لم نعب عليه عقلاً ولا رأياً قطّ، قال قيصر: فأشراف الناس يتّبعونه أم ضعفاؤهم؟، قلت: بل ضعفاؤهم ـ والمراد بأشراف الناس هنا: أهل الكبر والخيلاء وحمية الجاهلية، فلا يرد مثل أبي بكر وعمر وحمزة، أو أنّ المراد أكثر أتباعه الضعفاء ـ قال قيصر: فهل يزيدون أو ينقصون؟، قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتدّ منهم أحد سخطة لدينه ـ أي: كراهة له ـ وعدم رضى به؟، قلت: لا، قال: فهل يغدر إذا عاهد؟، قلت: لا، ونحن الآن منه في ذمّة ما ندري ما هو فاعل فيها، قال: فهل قاتلتموه؟، قلت: نعم، قال: فكيف حربكم وحربه؟ قلت: دُوَل وسجال، ندال عليه مرة، ويدال علينا أخرى، انتصر علينا مرة يوم بدر، وأنا غائب، ثمّ غزوتهم في بيوتهم فبقرت البطون وجدعت الآذان والأنوف والفروج[1]، قال قيصر: فما يأمركم به؟، قلت: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ـ وفي البخاري: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ـ وينهانا عمّا كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصّلاة والصّدقة والصّلة والعفاف ـ أي: ترك المحارم وخوارم المروءة ـ والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، فقال قيصر لترجمانه: قل له: إني سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرّسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل هذا القول قاله منكم أحد قبله، فزعمتَ أنْ لا، فلو كان أحد منكم قال هذا القول قبله لقلت: هو يأتمُّ بقول قيل قبله، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمتَ أن لا، فقد عرفتُ أنه لم يدع الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك هل كان من آبائه ملك، فقلت: لا، فلو

---

(١) أشار إلى ما وقع يوم في أحد مع حمزة ﷺ. مؤلف.

كان من آبائه ملك لقلتُ رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك أأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم، فقلت: ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل، وسألتك هل يزيدون أو ينقصون، فزعمت أنهم يزيدون، كذلك الإيمان حتى يتمّ، وسألتك هل يرتدّ أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان يخالط بشاشة القلوب، فإذا دخل القلبَ انشرح له الصّدر وفرح به فلا يسخطه بعد ذلك أحد، وسألتك هل قاتلتموه، فقلت: نعم، وأنّ حربكم وحربه دول وسجال، يدال عليكم مرة وتدالون عليه أخرى، وكذلك الرّسل تبتلى، ثمّ تكون لهم العاقبة، وسألتك ماذا يأمركم به فزعمت أنه يأمركم بالصّلاة والصّدقة والصّلة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، وكذلك شأن الرّسل، وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، فعلمتُ أنه نبيٌّ، وقد كنتُ أعلم أنه خارج، ولكن لم أظنّ أنه فيكم، فإنْ كان ما حدثتني به حقًّا فيوشك ـ أي: يقرب أن يملك موضع قدميَّ هاتين ـ ثمّ قال قيصر: ولو أعلم أني أخلص ـ أي: أصل إليه ـ لتجشّمت ـ أي: تكلّفت مع المشقة ـ لقاءه، وفي لفظ آخر: لا أستطيع أن أفعل ذلك، إنْ فعلتُ ذهب ملكي وقتلني الروم.

ثمّ قال قيصر: ولو كنتُ عنده لغسلتُ عن قدميه ـ أي: مبالغة في خدمته والتعبد له ـ ولا أطلب منه ولاية ولا منصباً.

قال أبو سفيان: ثمّ دعا قيصر بكتاب النبيّ ﷺ فقُرِأ عليه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتَّبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ـ أي: لإيمانك بعيسى ثمّ بمحمد ﷺ، أو لإيمان أتباعك بسبب إيمانك ـ فإنْ توليت، فإنما عليك إثمّ الأريسيين[1] ـ أي: فلاحي القرى ـ ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتَّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون.

قال أبو سفيان: فلمّا قضى مقالته وفرغ من الكتاب علت أصوات الذين حوله وكثر لَغَطُهم وأُمِر بنا فأُخْرجنا فلمّا خرجت أنا وأصحابي وخلصنا، قلت لهم: لقد أَمِر أَمْرُ ابن أبي كبشة ـ أي: عَظُم أمره ـ هذا ملك بني الأصفر يخافه، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام. وفي رواية: فما زلت مرعوباً من محمّد ﷺ حتى أسلمت.

(١) لأنه إذا أسلم أسلموا، والمراد بالأريسين جميع رعاياه. مؤلف.

وروي أنّ قيصر قال لقومه: لما قرأ الكتاب وسمعه: يا قوم ألستم تعلمون أنّ بين يدي الساعة نبيًّا بشَّركم به عيسى بن مريم ترجون أن يجعله الله فيكم؟، قالوا: بلى، قال: فإنّ الله قد جعله في غيركم، وهي رحمة الله عزَّ وجلَّ يضعها حيث يشاء، وأمر بإنزال دحية وإكرامه.

وروي أن أخا قيصر لما قرأ الكتاب ضرب القارئ وأراد أن يمزِّق الكتاب، فقال له قيصر: وما شأنك؟، فقال: تنظر في كتاب رجل بدأ بنفسه قبلك، وسمّاك قيصر صاحب الروم، وما ذكر لك ملكاً؟!، فقال له قيصر: إنك أحمق صغير تريد أن تمزق كتاب رجل قبل أن أنظر فيه، ولعمري لئن كان رسول الله كما يقول، لَنَفْسُه أحقّ أن يبدأ بها مني، ولئن سمّاني صاحب الروم لقد صدق، ما أنا إلا صاحبهم، وما أملكهم، ولكن الله سخّرهم لي، ولو شاء الله لسلّطهم عليّ كما سلّط فارس على كسرى فقتلوه، وأخذ الكتاب ووضعه في قصبة من ذهب تعظيماً له.

ولما جاءه ﷺ الخبر عن قيصر قال: «ثبت ملكه»، وفي لفظ: «سيكون له بقيّة».

ويروى أنّ قيصر لما رجع من بيت المقدس إلى محلّ دار ملكه وهي حمص فإنه لما ظهر على الفرس وأخرجهم من بلاده نذر أنْ يأتي بيت المقدس ماشياً شكراً لله تعالى، فلمّا أراد الذهاب إلى بيت المقدس ماشياً بسط له البسط وطرح عليها الرياحين، ولا زال يمشي على ذلك إلى أن وصل إلى بيت المقدس، ثمّ لما جاءه دحية بكتاب رسول الله ﷺ وقرئ عليه كما تقدّم رجع إلى حمص، وكان له فيها قصر عظيم فأغلق أبوابه وأمر منادياً ينادي: ألا إنّ هرقل قد آمن بمحمّد واتّبعه، فدخلت الأجناد في سلاحها وطافت بقصره تريد قتله، فأرسل إليهم إني أردت أن أختبر صلابتكم في دينكم، فقد رضيتُ، فرضوا عنه.

وعند ذلك كتب كتاباً إلى رسول الله ﷺ وأرسله مع دحية يقول فيه: إني مسلم ولكن مغلوب، وأرسلَ بهدية فلمّا قرئ الكتاب على رسول الله ﷺ قال: «كذب عدوّ الله ليس بمسلم»، وقبل هديته وقسَّمها على المسلمين، وقيل: أنه اعتزل قومه في مشربة ـ عُليّة ـ متعللاً بالتعبّد مع الضّعف، فأحسَّت البطارقة منه الميلَ للإسلام، فأغروا به ابنه حتى قتله، وولّوه بعده، وقالوا له: والدك يُطْمِع فينا العرب ويملّكهم مُلْككم فلا تعود لنا مملكة إنْ فعل ذلك أبداً.

ذكر كتابه ﷺ للمنذر بن ساوى بالبحرين

بعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى وبعث معه كتاباً فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا هو وأنّ محمداً عبده ورسوله، أما بعد: فإني أذكّرك الله عزَّ وجلَّ فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وأنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإنّ رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفعتك في قومك فاترك المسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته، فعليه الجزية».

وهذا الكتاب جواب كتاب المنذر الذي أرسله للنبي ﷺ قبل الجميع، وكان المنذر مجوسيًّا فأسلم وحسن إسلامه.

وهذه صورة كتابه: أما بعد: يا رسول الله، فإني قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحبّ الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وأنا بأرض مجوس ويهود، فأحدث لي في ذلك أمرك.

ذكر كتابه ﷺ إلى جيفر وعبد ابنا الجلُنْدي

قال في القاموس[1]: وجيفر بن الجلندي ملك عُمان أسلم هو وأخوه عبد الله على يد عمرو بن العاص لما وجهه رسول الله ﷺ إليهما وهما على عُمان.

بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إليهما بكتاب فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى جَيْفَرٍ وعبد ابني الجُلَنْدي، سلام على من اتّبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافّة لأنذر من كان حيًّا ويحقّ القول على الكافرين، وإنّكما إنْ أقررتما بالإسلام ولَّيْتُكما، وإنْ أبيتما أن تُقرَّا بالإسلام فإنّ ملككما زائل عنكما، وخيل تحلُّ بساحتكما وتظهر نبوّتي على ملككما»، وختم رسول الله ﷺ الكتاب.

قال عمرو: ثمّ خرجتُ حتى انتهيت إلى عُمان فعمدت إلى عبد، وكان أحلم الرّجلين وأسهلهما خُلُقاً فقلت له: إني رسولُ رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك، فقال

---

(١) انظر القاموس المحيط: (٤٦٨/١).

عبد: أخي المقدَّم عليَّ بالسّن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك، ثمّ قال: وما تدعونه إليه؟، قلت: أدعوك إلى الله وحده لا شريك له وتخلع ما عُبِدَ من دونه، وتشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، قال: يا عمرو، إنك ابن سيّد قومك، فكيف صنع أبوك ـ يعني العاص بن وائل ـ فإنّ لنا فيه قدوة، قلت: مات ولم يؤمن بمحمّد ﷺ، ووددتُ له لو كان آمن وصدَّق به، وقد كنتُ قبلُ على مثل رأيه حتى هداني الله عزَّ وجلَّ للإسلام، قال: فمتى اتّبعته؟، قلت: قريباً، فسألني: أين كان إسلامي؟، فقلت: عند النّجاشيّ، وأخبرته أنّ النّجاشيّ قد أسلم، قال: فكيف صنع قومه بملكه؟، قلت: أقرُّوه واتَّبعوه، قال: والأساقفة ـ أي: رؤساء دين النصرانية ـ والرهبان؟، قلت: نعم، قال: انظر يا عمرو ما تقول، إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له ـ أي: أكثر فضيحة ـ من كذبٍ، قلت: ما كذبتُ وما نستحلُّه في ديننا، ثمّ قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النّجاشيّ، قلت له: بلى، قال: بأيِّ شيء علمت ذلك يا عمرو؟، قلت: كان النّجاشيّ يُخرج خرَاجاً، فلمّا أسلم وصدَّق بمحمّد ﷺ قال: لا والله، ولو سألني درهماً واحداً ما أعطيته، فبلغ هرقل قولُه، فقال أخوه: أتَدَعُ عبدك لا يُخرج لك خراجاً وتديّن ديناً محدثاً؟، فقال هرقل: رجلٌ رغب في دين واختاره لنفسه ما أصنع به، والله لولا الضنّ بملكي لصنعت كما صنع، قال عبد: انظر ما تقول يا عمرو!، قلت: والله صدقتك، قال عبد: فأخبرني، ما الذي يأمر به وينهى عنه؟، قلت: يأمر بطاعة الله عزَّ وجلَّ وينهى عن معصيته، ويأمر بالبرّ وصلة الرّحم، وينهى عن الظلم والعدوان، وعن الزنا، وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصّليب، فقال عبد: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، لو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمّد ﷺ ونصدّق به، ولكنّ أخي أضنّ بملكه أن يدَعَه ويصير ذَنَباً ـ أي: تابعاً ـ قلت: إنه إنْ أسلم ملّكه رسول الله ﷺ على قومه فأخذ الصّدقة من غنيِّهم فردَّها على فقيرهم، قال: إنّ هذا لخلق حسن، وما الصّدقة؟، فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من الصّدقات في الأموال، ولما ذكرت المواشي قال: يا عمرو، وتؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى في الشجر وتَرِد المياه؟، فقلت: نعم، فقال: والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا، قال عمرو: فمكثت أياماً بباب جَيْفَرٍ حتى أَوْصَلَ إليه أخوه خبري، ثمّ إنه دعاني فدخلت عليه، فأخذ أعوانُه بضَبُعي ـ أي: عضدي ـ فقال: دعوه، فأرسلوني فذهبتُ لأجلس فأبوا أن يدعوني أجلس، فنظرت إليه فقال: تكلّم بحاجتك، فدفعت إليه

الكتاب مختوماً، ففضَّ خاتمه فقرأه حتى انتهى إلى آخره، ثمّ دفعه إلى أخيه فقرأه ثمّ قال: ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت؟، فقلت: تبعوه، إمّا راغب في الدين، وإما راهب مقهور بالسّيف، قال: ومن معه؟، قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره، واعترفوا بأنهم كانوا على ضلال، فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الحرجة، وأنت إنْ لم تسلم اليوم وتتْبعه يوطئك الخيل ويبد ـ أي: يُهلِك ـ خضراءك ـ أي: جماعتك ـ فأسلمْ تسلمْ، ويستعملك رسول الله ﷺ على قومك، ولا يُدخل عليك الخيل والرجال، قال: دعني يومي هذا وارجع إليَّ غداً، فلمّا كان الغد أتيتُ إليه فأبى أن يأذن لي فرجعت إلى أخيه، فأخبرته أني لم أصل إليه، فأوصلني إليه فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إنْ ملَّكت رجلاً ما في يدي، وهو لا تبلغ خيله إلى ههنا، وإن بلغت خيله أَلْفَتْ ـ أي: وجدت ـ قتالاً ليس كقتال من لاقى، قلت: وأنا خارج غداً، فلمّا أيقن بمخرجي خلا به أخوه، فأصبح فأرسل إليَّ فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً وصدَّقا وخلَّيا بيني وبين الصّدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي أعواناً على من خالفني.

ذكر كتابه ﷺ إلى هَوْذة صاحب اليمامة على يد سليط بن عمرو العامري

بعث رسول الله ﷺ سليط بن عمرو العامري إلى هوذة صاحب اليمامة، وبعث معه كتاباً فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد رسول الله إلى هوذة بن عليّ، سلام على من اتَّبع الهدى، واعلم أنّ ديني يظهر إلى منتهى الخفِّ والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك».

فلمّا قدم عليه سليط بكتاب رسول الله ﷺ مختوماً أنزله وحيَّاه وقرأ عليه الكتاب، فردَّ ردّاً دون ردٍّ فكتب إلى النبيّ ﷺ: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني، فاجعل إليَّ بعض الأمر أتبعك، وأجاز سليطاً بجائزة وكساه أثواباً من نسج هجر، فقدم بذلك كلّه إلى النبيّ ﷺ فأخبره، وقرأ على النبيّ ﷺ كتابه، وقال: «والله لو سألني سيابة ـ قطعة ـ من الأرض ما فعلت، باد وباد ما فيه يده».

فلمّا انصرف رسول الله ﷺ من الفتح جاءه جبريل عليه السلام فأخبره أنّ هوذة قد مات، فقال ﷺ: «أما إنّ اليمامة سيخرج بها كذَّاب يتنبَّأ بعدي» أي: وهو مسيلمة

الكذاب، وقتله وحشي قاتل حمزة، وكان سنّ هوذة مئة وخمسين سنة.

ذكر كتابه ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني[1]

بعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي شمر، وبعث معه كتاباً فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتَّبع الهدى وآمن وصدّق، وإني أدعوك أنْ تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك» وختم الكتاب.

قال شجاع: فخرجت حتى انتهيت إلى بابه، فأقمت يومين أو ثلاثة، فقلت لحاجبه: إني رسولُ رسولِ الله ﷺ إليه فقال: لا تصلُ إليه حتى يخرجَ في يوم كذا، وجعل حاجبه يسألني عن رسول الله ﷺ وما يدعو إليه، فكنت أحدّثه فيرقّ حتى يغلبه البكاء ويقول: إني قرأت في الإنجيل فوجدت صفة هذا النبيّ ﷺ بعينه، فكنت أراه ـ أي: أظنه ـ يخرج بالشام، فأراه قد خرج بأرض القرظ، فأنا أؤمن به وأصدّقه وأنا أخاف من الحارث بن شمر أن يقتلني، فكان هذا الحاجب يكرمني ويحسن ضيافتي ويخبرني عن الحارث باليأس منه ويقول: هو يخاف قيصر، فخرج الحارث يوماً وجلس وعلى رأسه التاج، وأذن لي عليه، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرأه، ثمّ رمى به ثمّ قال: من ينزع مني ملكي، أنا سائر إليه، ولو كان باليمن جئته، عليَّ بالنّاس فلم يزل جالساً يعرض عليه حتى الليل، وأمر بالخيل أن تنعل، ثمّ قال: أخبر صاحبك بما ترى، وكتب إلى قيصر يخبره الخبر، وصادف أنه كان عند قيصر دحية الكلبي بعثه رسول الله ﷺ فلمّا قرأ قيصر كتاب الحارث كتب إليه أن لا تسر إليه والْهَ عنه ـ أي: لا تذكره ـ ووافني إلى إيلياء ـ أي: بيت المقدس.

قال شجاع: فجاء الحارثَ ردُّ كتاب قيصر يأمره أنْ يَلْهُ عن النبيّ ﷺ ولا يذكره، وأنا مقيم، فدعاني وقال: متى تريد أن تخرج إلى صاحبك؟، قلت: غداً فأمر بمئة مثقالٍ ذهباً، ووصلني حاجبه بنفقة وكسوة، وقال لي ذلك الحاجب: اقرأ على رسول الله ﷺ مني السلام وأخبره أني متّبع دينه، قال شجاع: فقدمت على النبيّ ﷺ فأخبرته بما كان من الحارث قال ﷺ: «باد ـ أي: هلك ـ ملكه»، وأقرأته السلام من الحاجب، وأخبرته بما قال، فقال رسول الله ﷺ: «صدق».

---

(١) وكان في غوطة دمشق. مؤلف.

ويروى أنّ شجاع بن وهب قال لجَبَلة بـن الأيهـم مـدّة انتظـاره لجـواب كتـاب رسول الله ﷺ منه: يا جبلة إنّ قومك ـ يعني الأنصار ـ نقلـوا هـذا الـنبيّ مـن داره إلى دارهم، فآووه ومنعوه ونصروه، وإنّ هذا الدين الذي أنـت عليـه لـيس بـدين آبائـك، ولكنك لما ملكت الشام وجاورت الروم دنت دينهم، ولو جاورت كـسرى دنـت ديـن الفرس، فإن أسلمت أطاعتك الشام، وهابتك الروم، وإن لم يفعلوا كانت لهـم الـدنيا ولـك الأخـرى، وقـد كنـت استبدلت المـساجد بـالبِيَع والأذان بالنـاقوس والجَمَـع بالشعانين، وكان ما عنـد الله خـير وأبقـى، فقـال جبلـة: إني والله لـوددت أنّ النـاس اجتمعوا على هذا النبيّ اجتماعهم على مـن خلـق الـسماوات والأرض، وقـد سـرّني اجتماع قومي له، وقد دعاني قيصر إلى قتال أصحابه يـوم مؤتـة فأبيـت عليـه، ولكـن لست أرى حقاً ولا باطلاً وسأنظر.

وروي أنه أسلم وثبت على إسـلامه إلى خلافـة عمـر ﷺ، قيـل: فلطـم ـ هـو ـ رجلاً من فزارة كان وطئ إزاره وانحلّ من الـوطئ فهـشّم جبلـة أنـف الفـزاري وكـسر ثناياه، وقيل: فقأ عينه، فرفع أمره لعمر ﷺ فطلـب منـه القـصاص وإرضـاء خـصمه، وكان ما ذكر في مكّة وقت الطواف، وقيل: بدمشق الشّام، وأنّ جبلة هو وطـئ رجـلاً من مزينة، وأنّ المزني لطم جبلة من غير عطب، وأنّ جبلة طلب مـن أمـير الـشام أبي عبيدة بن الجراح أن تقطع يد المزني، فقال أبو عبيدة: لا يلزمه إلا لطمة، فقـال: هـذا الدين الذي يسوّى فيه بين الملوك والسوقة لا أدينـه، وهـرب وارتـدَّ وتنـصَّر، ولحـق بهرقل فسرَّ به وزوَّجه ابنته، وبنى له بلدة جَبْلة مدفن ابن الأدهم ﷺ، وكان طول جبلة اثني عشر شبراً، وكان يمسح الأرض برجليه وهو راكب، ومات نصرانياً نديماً لهرقل.

غزوة خيبر

بوزن جَعْفر، وهي في لغة اليهود: الحصن، ومن ثمّ قيل لها: خيابر لأنّ بها حصوناً ثمانية: حصون النطاة، وحصون الشق، وحصون الكُتَيْبة، فحصون النطـاة ثلاثـة: حـصن الناعم وحصن الصّعب وحصن قلعة الزبير، وحصون الـشق اثنـان: حـصن أُبَـيّ وحـصن النّزاز، وحصون الكتيبة ثلاثة: حصن القموص وحصن الوطيح وحصن السُّلالم، فجميـع حصون خيبر فُتحت عنوة إلا حصن الوطيح وحصن السُّلالم، فإنهما فُتحا صلحاً.

وخيبر مدينة كبيرة ذات مزارع ونخل كثير بينها وبين المدينة ثمانية برد، والبريد:

أربع فراسخ، والفرسخ: ثلاثة أميال، والميل: أربعة آلاف خطوة[1].

لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية أقام شهراً ثمّ خرج ﷺ إلى خيبر، وقد استنفر مَنْ حوله ممن شهد الحديبية يغزون معه ﷺ وجاءه المخلَّفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة فقال ﷺ: «لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا» أي: فلا تعطوا منها شيئاً.

ثمّ أمر ﷺ منادياً ينادي بذلك فنادى به، والذين تخلَّفوا عن الحديبية: أسلم وجهينة ومزينة وغفار، وقد حرموا من مغانم خيبر، وقد نهاهم الله عن الخروج إلى خيبر بقوله تعالى: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾[2] نفي بمعنى النهي.

وخرج معه ﷺ أنس بن مالك ﷺ يخدمه، قال أنس: فكان رسول الله ﷺ إذا نزل خَدَمْتُهُ، فسمعته كثيراً يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع الدَّين وغلبة الرجال».

واستخلف ﷺ على المدينة نميلة[3]، وقيل: سباع بن عرفطة[4]، وقد كان الله تعالى وعد نبيّه ﷺ عند منصرفه من الحديبية في سورة الفتح بمغانم كثيرة بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من الإخلاص ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ وهي الطمأنينة وسكون النفس بالتشجع والصّلح ﴿وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[5] فتح خيبر عقب انصرافهم، ومغانم كثيرة يأخذونها، يعني: مغانم خيبر غالباً مُراعياً مقتضى الحكمة.

وخرج معه ﷺ من نسائه أمّ سلمة رضي الله عنها، وخرج معه أيضاً عشرون امرأة منهنّ صفية عمّته ﷺ، وأم سليم[6]، وأم عطيّة الأنصارية[1]، وكان ﷺ يرتجز له

---

(١) تقع خيبر شمالي المدينة المنورّة على بعد (١٧١) كَيْلاً. ينظر روضة الأنوار في سيرة النبيّ المختار ﷺ للمباركفوري: (٢٤٣) بتهذيب الأخ الكبير محمد بسام حجازي حفظه الله تعالى.

(٢) الفتح: ١٥.

(٣) هو ابن عبد الله الليثي.

(٤) وهو الراجح.

(٥) الفتح: ١٨.

(٦) أم سليم: هي سهلة، وقيل: رملة، وقيل: رميثة، وقيل مليكة، وقيل: أنيسة، وهي الرميصاء أو الغميصاء بنت ملحان بن خالد بن زيد الأنصارية. ينظر الإصابة: (٦٥٦/٧)، وتهذيب الكمال: (٣٦٥/٣٥)، وتهذيب التهذيب: (٤٩٧/١٢).

في أسفاره، وكان مما قال ﷺ في مسيره إلى خيبر لعامر بن الأكوع: «انـزل فحـرّك بنـا الرّكاب»، فقال عامر: يا رسول الله، قد تركـت قـول الـشعر، فقـال عمـر ﷺ: اسمـع وأطع، فنزل يرتجز بقوله:

والله لـولا الله مـا اهتـدينا ... ولا تـصدّقنا ولا صـلينا
إنـا إذا قـوم بغـوا علينـا ... وإن أرادوا فتنـة أبينـا
فـأننزلن سـكينة علينـا ... وثبـت الأقـدام إن لا قينـا

فقال ﷺ: «يرحمه الله»، وفي رواية: «غفر لك ربك»، فقال عمـر بـن الخطـاب ﷺ: «والله وجبت[٢]، يا رسول الله، لولا أمتعتنا به» أي: أبقيته لنا لنـستمتع بـه، أي: هلّـا أخرّت الدعاء له بذلك إلى وقت آخر، لأنه ﷺ ما قال ذلك لأحد في مثل هذا الموطن إلا استشهد، فقتل في هذه الغزوة رجع إليه سيفه فقتله لما برز لمرحب كما سيأتي.

قال أنس ﷺ: وكان رسول الله ﷺ إذا غزا قوماً لم يغزُ حتى يـصبح، فـإنْ سمـع أذاناً أمسك وإنْ لم يسمع أذاناً أغار بعدما يصبح فنزلنا خيبر ليلاً قبيل وقت الصّبح، ثمّ قال ﷺ لأصحابه: «قفوا»، ثمّ قال ﷺ لهم «قولوا: اللهم ربّ الـسماوات ومـا أظللـن وربّ الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنـا نسألك من خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرِّها وشرِّ أهلـها وشرِّ ما فيها، اقدموا بسم الله على بركة الله».

وكان ﷺ يقول ما ذكر لكلّ قريـة دخلـها، وجـاء أنـه ﷺ لمـا توجّـه إلى خيـبر أشرف الناس على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «اربعوا على أنفسكم ـ أي: ارفقوا بأنفسكم لا تبالغوا في رفع أصواتكم ـ إنكـم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إنّكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم» والمـراد بـالرّفع المنـهي عنه: الخارج عن العـادة الـذي ربمـا آذى بـدليل قولـه: «اربعـوا» فـإن معنـاه: ارفقـوا بأنفسكم، قال عبد الله بن قيس[٣]: وكنت خلف دابته ﷺ فسمعني أقول: لا حـول ولا

(١) أم عطيّة: هسي نسيبة بنت كعب، ويقال: بنت الحارث، المدنيّـة الأنـصارية. انظـر الإصابـة: (٢٦١/٨)، وتهذيب الكمال: (٣١٥/٣٥)، وتقريب التهذيب: (٧٥٤).

(٢) أي: الشهادة.

(٣) هو أبو الأشعري ﷺ. انظر الإصـابـة: (٢١١/٤)، والطبقـات الكـبرى: (١٠٥/٤)، والكاشـف للـذهبي: (٥٨٦/١).

قوة إلا بالله، فقال ﷺ: «يا عبد الله بن قيس»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «ألا أدلُّك على كلمة من كنوز الجنة؟»، قلت: بلى يا رسول الله، فداك أبي وأمي، قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

ولما أبصر عُمَّال خيبر الجيش وقد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم قالوا: محمد والخميس[1]، ثمّ أدبروا هاربين.

وكان بخيبر حينئذ عشرة آلاف مقاتل، وكانوا لا يظنّون أنّ رسول الله ﷺ يغزوهم، وحين بلغهم أنّ رسول الله ﷺ يغزوهم صاروا يخروجون ويصفّون صفًّا يقولون: محمّد يغزونا، هيهات هيهات، ولما ولوا هاربين، قال ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

واستدل ﷺ على خرابها بما شاهده في أيديهم أول خروجهم منها من المساحي والمكاتل. قال النووي: والأصحُّ أنّ الله تعالى هو الذي أعلمه بذلك.

ونزل ﷺ قريباً من حصون النطاة فجاءه حباب بن المنذر ﷺ فقال: يا رسول الله، إنْ كان نزولك عن وحي فلا نتكلّم، وإن كان الرأي تكلّمنا، فقال رسول الله ﷺ: «هو الرأي»، فقال: يا رسول الله، إنّ أهل النطاة لي بهم معرفة، ليس قوم أبعد مدى سهم منهم، ولا أعدل رمية منهم، وهم مرتفعون علينا وهو أسرع لانحطاط نبلهم، ولا نأمن من بياتهم، يدخلون في حمر النخل[2]، تحوّل يا رسول الله من هذا المكان، فقال ﷺ: «أشرت بالرأي، إذا أمسينا إنْ شاء الله تحوّلنا»، ودعا رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة، وقال: انظر لنا منزلاً بعيداً، فطاف محمّد وقال: يا رسول الله، وجدت لك منزلاً، فقال رسول الله ﷺ: «على بركة الله تعالى»، فلمّا أمسى تحوّل وأمر الناس بالتحوُّل، وفي رواية: أنّ راحلته ﷺ قامت تجرُّ زِمامها، فأُدْرِكَتْ لتردَّ، فقال رسول الله ﷺ: «دعوها فإنها مأمورة»، ثمّ بركت في موضع من الصّحراء، فتحوّل رسول الله ﷺ إلى الموضع الذي بركت فيه، واتخذ ذلك الموضع معسكراً، وبنى فيه مسجداً صلّى به طول مقامه ﷺ بخيبر.

وأمر ﷺ بقطع نخيل أهل حصون النطاة، فوقع المسلمون في قطعها حتى قطعوا

---

(١) الخميس: الجيش العظيم، وسمي خميساً لأنّه على خمسة أقسام: المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب. مؤلف.

(٢) يدخلون في النخيل المجتمع بعضه إلى بعض فيختفون عنّا ويرصدوننا.

أربعمئة نخلة، ثمّ نهاهم ﷺ عن القطع، فما قطع من نخيل خيبر غيرها.

قيل: وقاتل رسول الله ﷺ يومه ذلك أشدَّ القتال وعليه درعان وبيضة ومغفر وهو على فرس يقال له: الظَّرِب، وفي يده قناة وترس، وقيل: إنه ﷺ يوم خيبر كان على حمار مخطوم برسن من ليف وتحته إكاف من ليف.

ولا مانع من كونه ﷺ ركب الحمار والفرس كلّ واحد في وقت.

والمراد بكونه ﷺ قاتل أنه ﷺ تهيّأ وأمر بالقتال، وإلا فلم يقاتل ﷺ بنفسه إلا في أُحُد كما مرَّ، فالمراد في غيره أنه قاتل جيشُه بأمره وبحثّه وبتهيُّئه ﷺ للقتال بنفسه إلا أنه لم يباشر القتال بنفسه.

وكان القتال أولاً على حصن ناعم وهو من حصون النطاة، فرمى ودفع ﷺ الراية لرجل من المهاجرين، فرجع ولم يصنع شيئاً، ثمّ دفعها لآخر فرجع ولم يصنع شيئاً، وخرجت كتائب اليهود يقدمهم ياسر فَكُشِفت الأنصار حتى انتهت إلى رسول الله ﷺ في موقفه فاشتدّ ذلك على رسول الله ﷺ، وحارب محمود بن مسلمة ـ أخو محمد ـ ذلك اليوم حرباً بليغاً حتى أعياه الحرب، وكان الحر شديداً، فانحاز إلى ظلّ حصن[1] فرموه[2] برحى كسرت البيضة على رأسه ونزلت جلدة جبينه على وجهه وغطَّت عينيه، فأدركه المسلمون، ثمّ احتملوه، وأتوا به رسول الله ﷺ فسوّى الجلدة إلى مكانها، وعصبه بخرقة، ثمّ مات من شدّة ألم الجراحة، فجاء أخوه محمد بن مسلمة إلى رسول الله ﷺ فقال: إنّ اليهود قتلوا أخي محمود بن مسلمة، فقال ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإنكم لا تدرون ما تبتلون به منهم، فإذا لقيتموهم، فقولوا: اللهم أنت ربنا وربهم ونواصينا ونواصيهم بيدك، وإنما تقتلهم أنت، ثمّ الزموا الأرض جلوساً، فإذا غشوكم فانهضوا وكبروا»، وقيل: أنه ﷺ مكث سبعة أيام يقاتل أهل حصون النطاة يذهب كلّ يوم بمحمّد بن مسلمة ويخلّف على محل العسكر عثمان بن عفان، فإذا أمسى رجع إلى ذلك المحلّ، ومن جُرِح من المسلمين يحمل إلى ذلك المحلّ ليداوى جرحه.

وذُكِر أنّ عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول أرسل لأهل خيبر: إنّ محمّداً سائر إليكم، فخذوا حذركم، وأدخلوا أموالكم حصونكم، واخرجوا إلى قتاله ولا تخافوا منه، إنّ

---

(١) هو حصن ناعم.

(٢) رماه بها مرحب اليهودي.

عددكم كثير، وقوم محمّد شرذمة قليلون، لا سلاح معهم إلا القليل، فاحترسوا.

فلمّا كانت الليلة التي نزل ﷺ صبيحتها بساحتهم لم يتحركوا تلك الليلة، ولم يصح لهم ديك، فأصبحوا وأفئدتهم تخفق، وفتحوا حصونهم ومعهم الفؤوس والمساحي[1] والمكاتل[2]، فلمّا رأوا رسول الله ﷺ ولوا هاربين.

وفي فتح الباري[3]: فلمّا وصلنا خيبر خرج ملكهم مَرْحب يخطر بسيفه، ويقول:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلتهب

فبرز له عامر بن الأكوع رضي الله عنه يقول:

قد علمت خيبر أني عامر شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا في ضربتين فوقع سيف مرحب في ترس عامر فعلق فذهب عامر يضرب مرحباً من أسفل فعاد سيف عامر على نفسه فأصاب عين ركبته فمات من ذلك، فحينئذ قال الناس: قتله سلاحه فليس شهيد، فقال رسول الله ﷺ: «إنه لشهيد وصلّى عليه رسول الله ﷺ والمسلمون»، وفي رواية: قال سلمة بن الأكوع: يا رسول الله، فداك أبي وأمي، زعموا أنّ أخي عامراً حبط عمله إذ قُتِل بسيفه، فقال ﷺ: «كذب من قال ـ أي: أخطأ في قوله ـ وإن له أجرين» وجمع ﷺ بين أصبعيه[4].

وكان رسول الله ﷺ يناوب بين أصحابه في حراسة الليل، فلمّا كانت الليلة السادسة من السبع استعمل ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فطاف عمر بأصحابه حول العسكر وفرقهم، فأتي عمر برجل من يهود خيبر في جوف الليل فأمر به عمر أنْ يضرب عنقه، فقال: اذهب بي إلى نبيّكم حتى أكلّمه، فأمسك عنه، وانتهى به عمر إلى باب النبيّ ﷺ فوجده يصلّي، فسمع رسول الله ﷺ كلام عمر، فسلّم من صلاته، وأدخله عمر رضي الله عنه عليه، فقال رسول الله ﷺ لليهودي: «ما وراءك؟»، قال: تؤمني يا أبا القاسم؟ قال: «نعم»، قال: خرجت من حصن النطاة من عند قوم يتسللون من الحصن

---

(١) المساحي: المجارف. مؤلف.

(٢) الماتل: الزنابيل. مؤلف.

(٣) فتح الباري: (٧/٤٦٦).

(٤) وفي رواية مسلم برقم: (١٨٠٢)، البخاري برقم: (٣٩٦٠ ـ ٥٧٩٦ـ ٦٤٩٦)، قال رسول الله ﷺ: «إنّ له لأجرين ـ وجمع بين أصبعيه ـ إنّه لجاهد مجاهد، قلّ عربي مشى بها ـ في الأرض ـ مثله».

في هذه الليلة، قال ﷺ: «فأين يذهبون»، قال: إلى الشقّ يجعلون فيه ذراريهم ويتهيؤون للقتال. والمراد ما أبقوه من ذراريهم لأنه تقدم أنهم أدخلوا أموالهم وعيالهم في حصون الكتيبة.

قال: وفي هذا الحصن ـ في بيت فيه تحت الأرض ـ منجنيق ودبّابات ودروع وسيوف، فإذا دخلت الحصن غداً وأنت تدخله، فقال رسول الله ﷺ: «إنْ شاء الله»، قال اليهودي: إن شاء الله أوقفك عليه، فإنه لا يعرفه غيري، وأخرى، قيل: ما هي؟، قال: تستخرج المنجنيق وتنصبه على الشقّ، ويدخل الرّجال تحت الدبابات فيحفرون الحصن فتفتحه من يومك، وكذلك تفعل بحصون الكتيبة، ثمّ قال: يا أبا القاسم، احقن دمي، قال ﷺ: «أنت آمن»، قال: ولي زوجة فهبها لي، قال: «هي لك»، ثمّ دعاه إلى الإسلام، فقال: انظرني أياماً، ثمّ قال رسول الله ﷺ لمحمّد بن مسلمة: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، لا يولي الدُّبر يفتح الله على يديه، فيمكّنه الله من قاتل أخيك».

وعند ذلك لم يكن أحد من الصّحابة له منزلة عند النبيّ ﷺ إلا رجا أن يعطاها. وعن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: ما أحببت الإمارة إلا ذلك اليوم، ولما سمع عليٌّ ﷺ مقالة النبيّ ﷺ قال: اللهم لا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت، فبعث رسول الله ﷺ من الغد إلى عليٍّ ﷺ وكان أرمد شديد الرّمد قد تخلّف في المدينة، ثمّ لحق بالقوم، فقيل له: إنه يشتكي عينيه، فقال ﷺ: «من يأتيني به؟»، فذهب إليه سلمة بن الأكوع، وأخذ بيده يقوده حتى أتى به النبيّ ﷺ، قد عصب عينيه، فعقد ﷺ له اللواء الأبيض المسمّى بالعقاب، قيل: إنه مكتوب عليه بالسّواد: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، فقال عليٌّ ﷺ: يا رسول الله، إني أرمد كما ترى لا أبصر موقع قدمي، فوضع رأسه في حجره وتفل ﷺ في كفّه وفتح عليٌّ ﷺ عينيه فدلكهما، فبرئ حتى كأنْ لم يكن بهما وجع، قال علي ﷺ: فما رمدت بعد إلى يومي هذا ولا صدعت، وما اشتكيت عيني حتى الساعة.

روي عن علي ﷺ، أنّ رسول الله ﷺ دعا له حينئذ فقال: «اللهم اكفه الحرّ والبرد»، قال عليٌّ ﷺ: فما وجدت بعد ذلك حرًّا ولا برداً.

وفي الحديث إشارة إلى أنّ من لم يطلب الشيء ولم يتعرّض لطلبه ربما وصل إليه، وفي الحديث: أنّ النبيّ ﷺ قال: «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل: اجعلني على

خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكن لأجل سؤاله إياه أخّر عنه سنة، ثمّ فوّض إليه أمر مصر، وتوّج ملكاً فيها نيابة عن عزيزها وملكها إلا مستقلاً»[1].

وقد قيل: لو وقعت قلنسوة من السماء لا تقع على رأس من يريدها[2].

واعلم أنّ ما ذكر في الطلب من المخلوق، وأما طلب الأمور من الخالق فهو عين الصّواب وتركه خطأ، فتنبّه.

ثمّ إنّ عليًّا ﵁ قال: يا رسول الله، علام أقاتلهم؟ فقال ﷺ: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ﷺ، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقّها وحسابهم على الله تعالى» أي: حساب بواطنهم وسرائرهم على الله تعالى لأنه المطّلع وحده على ما فيها من إيمان خالص أو نفاق وكفر، وفي رواية: «وأخبرهم بما يجب عليهم من حقوق الله تعالى، فوالله لأنْ يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم» أي: تتصدق بها في سبيل الله تعالى، وفي رواية: «امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك».

وعن حذيفة ﵁، أنّه قال: لما تهيأ عليٌّ ﵁ يوم خيبر للحَمْلَة قال رسول الله ﷺ: «يا علي، والذي نفسي بيده إنّ معك من لا يخذلك، هذا جبريل عن يمينك بيده سيف لو ضرب به الجبال لقطعها، فاستبشر بالرّضوان والجنة، يا عليّ إنك سيّد العرب وأنا سيّد ولد آدم»، وفي رواية: إنّ الراية أعطيَهَا أول يوم أبو بكر، وثانيه عمر، وثالثه رجل من الأنصار، وجهد كلّ واحد منهم، فلم يفتح له حتى أخذها عليٌّ ﵁، وفي رواية: أن رسول الله ﷺ دعا لعليٍّ ومن معه بالنصر وألبسه درعه الحديد وسيفه ذا الفقار قد قلّده إيّاه وشدّه على وسطه، ووجّهه إلى الحصن، فخرج بالراية حتى ركزها تحت الحصن فاطلع عليه يهودي من رأس الحصن فقال: من أنت؟، قال: علي بن أبي طالب، فقال اليهودي: علوتم وما أُنْزل على موسى.

ثمّ خرج إلى عليّ ﵁ أهل الحصن، وكان أول من خرج إليه منهم الحارث أخو مرحب، وكان معروفاً بالشجاعة، فانكشف المسلمون وثبت عليٌّ ﵁، فتضاربا، ثمّ قتله عليّ ﵁ وانهزم اليهود إلى الحصن، ثمّ خرج مرحب إلى عليٍّ ﵁ فضرب مرحب علياً فطرح ترسه من يده، فتناول علي ﵁ باباً كان للحصن فترّس به عن نفسه، فلم

---

(١) انظر تفسير الألوسي: (١٣/٥)، وتفسير البغوي: (٢٥١/١)، والقرطبي: (١٨١/٩).

(٢) انظر إحياء علوم الدين للاستزادة في هذا الموضوع: (٢٨٥/٣).

يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه الحصن، ثمّ ألقاه من يده وراء ظهره ثمانين شبراً، قال الراوي: فجهدت أنا ونفر سبعة على أن نقلب ذلك الباب فلم نقدر.

وقيل: لم يقدر على حمله أربعون رجلاً، وقيل: سبعون رجلاً، وفي رواية: أنّ عليًّا لما انتهى إلى باب الحصن اجتذب أحد أبوابه فألقاه بالأرض فاجتمع عليه بعد سبعون رجلاً فكان جهداً أنْ أعادوه مكانه، وقيل: حمل الباب على ظهره حتى صعد المسلمون عليه ودخلوا الحصن.

وجاء أنّ مرحباً لما رأى أخاه قد قتل خرج سريعاً من الحصن في سلاحه، وقد كان لبس درعين وتقلّد بسيفين واعتمَّ بعمامتين ولبس فوقهما مغفراً وحجراً قد ثقبه قدر البيضة، ومعه رمح، لسانه ثلاثة أسنان، وهو يرتجز ويقول: من أبيات:

قد علمت خيبر أني مرحب ... شاكي السلاح بطل مجرب

ومعنى (شاكي السلاح): تامّه وحادّه وقويه كناية عن قوّة نفسه، ومعنى (مجرَّب): معروف بالشجاعة، وقد قهر الفرسان، ثمّ صار يقول: هل من مبارز؟، فقال رسول الله ﷺ: «من لهذا؟»، قال محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول الله، قد قتل أخي بالأمس فلم آخذ بثأره إلى الآن، فقال ﷺ: «قم إليه، اللهم أعنه عليه» فقتله محمد بن مسلمة، وقيل: القاتل له عليٌّ ﷺ، وبه جزم مسلم. ويروى أن عليًّا ﷺ لما خرج إليه ارتجز بقوله:

أنا الذي سمتني أمي حيدره ... ضرغامُ آجام وليث قسوره

وقيل بدله: كليث غابات كريه المنظرة، أي: فإنّ أمّ عليّ سمّته أسداً باسم أبيها، وكان أبوه أبو طالب غائباً فلمّا قدم كره ذلك وسماه عليًّا، ومن أسماء الأسد حيدرة، والحيدرة: الغايظ القوي، وقيل: إنّ ذلك من كشف عليّ ﷺ فإنّ مرحباً كان رأى في تلك الليلة في المنام أن أسداً افترسه، فذكّره علي ﷺ بذلك ليخيفه ويضعف نفسه ويروى أنَّ عليًّا ضرب مرحباً فترس مرحب بالترس، فوقع السيف على الترس فقده وشق المغفر والحجر والعمامتين وفلق هامته حتى أخذ السيف في الأضراس وإلى ذلك يشير بعضهم بقوله:

وشادن أبصرته مقبلاً ... فقلت من وجدي به مرحباً

قد فؤادي في الهوى قدُّه ... قدَّ عليٌّ في الوغى مرحبا

ويجوز أن يكون علي ﷺ شقّ هامته ولم يثبته، فأثبته وكمّل قتله محمد بن مسلمة، ثمّ إن عليًّا ﷺ ذفف عليه فأضيف قتله إلى كلّ منهما، ثمّ خرج بعد مرحب أخوه ياسر، وهو يرتجز بقوله:

قد علمت خيبر أني ياسر   شاكي السلاح بطل مغامر

وكان أيضاً من مشاهير فرسان اليهود وشجعانهم، خرج وهو يقول: من يبارز؟، فخرج إليه الزبير، فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ: يا رسول الله، إنه يقتل ابني، فقال ﷺ: «بل ابنك يقتله إن شاء الله تعالى»، فقتله الزبير، وفي رواية: أن القاتل لياسر علي بن أبي طالب ويمكن الجمع بمثل ما تقدم في مرحب.

وكان شعار المسلمين (أمت أمت)، وفي رواية: (يا منصور أمت)، ومن جملة من قتل من المسلمين الأسود الراعي كان أجير الرجل من اليهود يرعى غنمه، وكان عبداً حبشيًّا يسمى: أسلم، وقيل: يسار، فجاء إلى النبيّ ﷺ وهو محاصر خيبر فقال: يا رسول الله، اعرض عليَّ الإسلام فعرضه عليه فأسلم، وفي رواية: إنه قال: يا رسول الله، إنْ أسلمت ماذا لي؟، قال: الجنة فأسلم، فلمّا أسلم قال: يا رسول الله، إني كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم فكيف أصنع بها، قال ﷺ: «اضرب في وجهها فإنها سترجع إلى ربها»، فقام الأسود فأخذ حفنة من حصى فرمى بها في وجهها وقال: ارجعي إلى صاحبك، فوالله لا أصحبك، فخرجت مجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت الحصن، ثمّ تقدّم إلى الحصن فقاتل مع المسلمين فأصابه حجر، وفي رواية: سهم غَرْب ـ وهو من لا يعرف راميه ـ فقتله، ولم يسجد لله سجدة، فأتي به إلى النبيّ ﷺ ومعه نفر من أصحابه، ثمّ أعرض عنه، فقالوا: يا رسول الله، لِمَ أعرضت عنه؟ قال: إنّ معه الآن زوجتيه من الحور العين تنفضان التراب عن وجهه، وتقولان: ترَّب الله وجه من ترَّب وجهك، وقتَل من قتلك، وفي رواية: «لقد أكرم الله هذا العبد وساقه إلى خيبر قد كان الإسلام من نفسه حقًّا».

ثمّ إنّ الله سبحانه وتعالى فتح ذلك الحصن الذي هو حصن ناعم، وهو أوّل حصن فتح من حصون النطاة على يد عليٍّ ﷺ، وعن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: ما شبع رسول الله ﷺ من خبز الشعير والتمر حتى فتحت دار بني قميئة، وهي أول دار فتحت بخيبر، وهي بالنطاة، وهي منزل يا سر أخي مرحب.

وظاهر السياق أنها حصن ناعم، وأصاب المسلمين مجاعة، وأرسلت أسلم إلى

رسول الله ﷺ أسماء بن حارثة وأمرته أن يقول له ﷺ: إنّ أسلم[1] تقرئك السلام، ويقولون: أجهدنا الجوع، فلامهم رجل، وقال لهم: من بين العرب تصنعون هذا؟!، فقال هند بن حارثة أخو أسماء: والله إني لأرجو أن يكون البعث إلى رسول الله ﷺ مفتاح الخير، فجاءه أسماء وبلّغه ما قالت أسلم، فدعا لهم، وقال: «اللهم إنك قد عرفت حالهم، وأنْ ليست بهم قوة، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه، اللهم افتح أكثر الحصون طعاماً وودكاً»، ودفع ﷺ اللواء للحباب بن المنذر، وندب الناس، وكان من سلم ومن بقي من يهود حصن ناعمٍ انتقل إلى حصن الصّعب من حصون النطاة، وفتح الله حصن الصّعب قبيل غروب شمس ذلك اليوم بعدما أقاموا على محاصرته يومين، وما بخيبر حصن أكثر طعاماً من شعير وتمر، وودكاً من سمن وزيت وشحم وماشية، ومتاعاً منه، وكان في هذا الحصن الذي هو حصن الصّعب خمسمئة مقاتل، وقبل فتحه خرج منه رجل يقال له (يوشع) مبارزاً فخرج له الحباب فقتله الحباب، وخرج منه آخر يقال له (الديال) فبرز له عمارة بن عقبة الغفاري فضربه على هامته فقتله، وقال: خذها وأنا الغلام الغفاري، فقال الناس حبط عمله، فقال رسول الله ﷺ لما بلغه ذلك: «يؤجر ويحمد».

وحملت اليهود حينئذ حملة منكرة، فانكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو واقف قد نزل عن فرسه، فثبت الحباب بن المنذر، فحرّض رسول الله ﷺ المسلمين على الجهاد فأقبلوا وزحف بهم الحباب، فانهزمت يهود وأغلقوا الحصن خلفهم.

ثمّ إنّ المسلمين اقتحموا الحصن يقتلون ويأسرون، فوجدوا في ذلك الحصن من الشعير والتمر والسمن والعسل والزيت والودك شيئاً كثيراً، ونادى منادي رسول الله ﷺ: كلوا واعلفوا ولا تحملوا ـ أي: لا تخرجوا به ـ إلى بلادكم، ووجدوا فيه منجنيقاً كما أخبر به اليهودي المتقدم الكلام عنه.

ولما فُتح ذلك الحصن تحوّل من سلم من أهله إلى حصن قلعة الزبير، وهو حصن بقلّة جبل، وهو آخر حصون النطاة، لأن حصون النطاة ثلاثة: حصن ناعم وحصن الصّعب وحصن قلعة الزبير، فأقام المسلمون على حصاره ثلاثة أيام، فجاء رجل من اليهود فقال: يا أبا القاسم، تؤمّنني على أنْ أدلك على ما تستريح به، فإنك

---

(١) المراد بطن من بطون أسلم وهم بني سهم. انظر تاريخ الطبري: (٢/١٣٥)، وعيون الأثر: (٢/١٨١).

لو مكثت شهراً لا تقدر على فتح هذا الحصن، فإنه له دبولاً ـ وهي الأنهر الصّغيرة ـ تحت الأرض يخرجون ليلاً يشربون منها، فلأن قطعت عنهم شربهم أهلكتهم، فأمّنه رسول الله ﷺ، وسار إلى دبولهم فقطعها، فعند ذلك خرجوا، وقاتلوا أشدّ القتال، وفتح ذلك الحصن.

ثمّ انتقل المسلمون إلى حصار حصون الشقّ، فكان أول حصن بُدِئَ به من حصون الشق حصن أُبَيّ، فقاتل أهله قتالاً شديداً، وخرج رجل منهم يقال له (غزوال) يدعو إلى المبارزة، فبرز له الحُباب وحمل عليه فقطع يده اليمنى ونصف الذراع، فبادر راجعاً منهزماً إلى الحصن، فتبعه الحباب فقطع عرقوبه، فوقع فذفف عليه، فخرج آخر مبارزاً، فبرز له رجل من المسلمين فقُتل ذلك الرجل، وقام مكانه يدعو للمبارزة فبرز له أبو دجانة، فضربه أبو دجانة فقطع رجله، ثمّ ذفف عليه، وعند ذلك أحجمت اليهود عن المبارزة، فكبَّر المسلمون وتحاملوا على الحصن ودخلوا يقدمهم أبو دجانة، فوجدوا فيه أثاثاً ومتاعاً وغنماً وطعاماً، وهرب من كان فيه ولحق بحصن يقال له (حصن النزال) من حصون الشق، فتمنَّعوا به أشدَّ التمنُّع، وكان أهله أشدّ أهل الشقّ رمياً للمسلمين بالنّبل والحجارة حتى أصاب النبل ثياب رسول الله ﷺ، وعلقت به فأخذ رسول الله ﷺ كفاً من حصى فحصب به ذلك الحصن، فرجف بهم، ثمّ ساخ في الأرض، وأخذ المسلمون مَن فيه، فوجدوا فيه آنية من نحاس وفخار كانت اليهود تأكل وتشرب فيها، فقال ﷺ: «اغسلوها واطبخوا وكلوا واشربوا».

ثمّ إنّ المسلمين لما أخذوا حصون النطاة وحصون الشقّ انهزم من سلم من يهود تلك الحصون إلى حصون الكتيبة، وهي ثلاثة حصون: القموص والوطيح وسلالم، وكان أعظم حصون خيبر القموص، وكان منيعاً حاصره المسلمون عشرين ليلة، ثمّ فتحه الله سبحانه وتعالى على يد عليٍّ ﷺ، ومنه سبيت صفية، فقيل: كان اسمها قبل أن تسبى زينب، فلما صارت ممن اصطفاهم رسول الله ﷺ لنفسه سميت صفية.

وانتهى المسلمون إلى حصار الوطيح والسُّلالم، ومكثوا على حصارها أربعة عشر يوماً، فلم يخرج أحد منهم، فهمَّ النبيّ ﷺ أن يجعل على من فيهما المنجنيق، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصّلح على حقن دماء المقاتلة، وترك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم، وأن لا يصحب أحداً منهم إلا ثوب واحد يكون على ظهره فصالحهم على ذلك وعلى أنّ ذمة الله وذمّة رسوله بريئة منهم

إنْ يكتموه شيئاً من متاعهم يسألهم ﷺ عنه، ووجدوا في الحصنين المذكورين مئة درع وأربعمئة سيف وألف رمح وخمسمئة قوس عربية بجعابها، ووجدوا في صحائف متعددة من التوراة، فجاءت اليهود بطلبها، فأمر رسول الله ﷺ بدفعها لهم، وغيّبوا الجلد الذي كان فيه حليّ بني النّضير ـ أي: وعقود الدرر والجواهر الذي كانوا أجلوا بها كما تقدم ـ فقال رسول الله ﷺ حينئذ لكنانة بن أبي الحقيق زوج صفية ولأخيه الربيع: «أين آنيتكم التي كنتم تعيرونها أهل مكة؟»، فقالا: أذهبتها النفقات والحروب، فقال ﷺ: «العهد قريب، والمال أكثر من ذلك، إنكما إنْ كتمتماني شيئاً، فاطلعتُ عليه استحللتُ دماءكما وذريتكما»، فقالا: نعم، فأخبره الله تعالى بموضع ذلك الحلي. أي: فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار وقال له: ذهب إلى محلّ كذا وكذا، ثمّ ائت النخل، فانظر نخلة عن يمينك، أو قال عن يسارك مرفوعة، فأتني بما فيها، فانطلق فجاءه بالآنية والكنز الذي هو حُلي.

وكان أولاً في جلد شاة ثمّ كثُر فجعل في جلد ثور ثمّ كثُر فجعل في جلد بعير، فقوّم بعشرة آلاف دينار لأنه وجد فيه أساور ودمالج وخلاخل وأقرطة وخواتم ذهب وعقود جوهر وزمرد وجَزْع ظِفَار بالذهب[1]، فضرب أعناقهما وسبى أهليهما، وفي رواية: أنه ﷺ لما سألهما عن الكنز أنكراه فجاء رجل من اليهود إلى النبيّ ﷺ وقال له: إني رأيت كنانة يطوف بهذه الخربة كلّ غداة، فحينئذ أمر النبيّ ﷺ بها فحفرت فأخرج منها بعض كنزهم، ثمّ سأله ما بقي فأبى أن يؤديه فأمر ﷺ الزبير فقال: عذّبه حتى يؤديه فكان الزبير يقدح بالزناد الذي يخرج به النار في صدره حتى أشرف على الهلاك، ثمّ دفعه ﷺ إلى محمّد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود.

ويمكن الجمع بأنّ بعض الحلي وجد في الخربة وبعضها تحت النخلة. والله أعلم.

وأمر ﷺ بالغنائم التي غنمت قبل الصّلح فجمعت فأصاب رسول الله ﷺ منهم سبايا منهنّ صفية بنت حيي بن أخطب من سبط هارون بن عمران أخي موسى عليهما السلام، فاصطفى رسول الله ﷺ صفية لنفسه، وجعلها عند أمّ سليم التي هي أمّ أنس خادمه ﷺ حتى اهتدت وأسلمت، ثمّ أعتقها النبيّ ﷺ وتزوّجها وجعل عتقها

---

(١) جزع ظفار: هو نوع من الخرز الثمين الذي كانت تصنع منه القلائد في الجاهلية وصدر الإسلام، وظفار: اسم المدينة اليمنية التي ينسب إليها هذا النوع من الخرز، وقوله بالذهب: لعلّه أراد أنّ هذا الخرز مع نفاسته الذاتية كان مطعّماً بالذهب أو كان منظوماً بسلك منه أو سلسلة. والله أعلم.

صداقها، وذلك بعد أن خيّرها بين أن يعتقها فترجع إلى من بقي من أهلها، أو تسلم فيتخذها لنفسه ﷺ، فقالت: اختار الله ورسوله ﷺ، وفي رواية: إنّ صفية سُبيت هي وبنت عمّ لها، وإنَّ بلالاً جاء بهما فمرّ على قتلى اليهود فلمّا رأتهم بنت عم صفية صاحت وصكّت وجهها وحثت التراب على رأسها، فلما رآها النبيّ ﷺ قال: «اغربوا عني هذه الشيطانة» وقال لبلال: «أنزعت منك الرحمة يا بلال حتى تمرَّ بامرأتين على رجالهما قتلى؟!».

ثمّ دفع ﷺ بنت عمّها لدحية الكلبي، واصطفى صفية لنفسه كما تقدم.

وجاء أنه ﷺ لما قطع ستة أميال من خيبر أراد أن يعرّس بها، فأبت، فوجد ﷺ في نفسه، فلما ساروا وصل الصّهباء[1] مال إلى دومة هناك فطاوعته، فقال لها: «ما حملك على إبائك حين أردتُ المنزلَ الأول؟»، فقالت: يا رسول الله، خشيت عليك قرب اليهود.

وجاء أنه ﷺ لما دخل بصفية رأى بأعلى عينها خضرة فقال: «ما هذه الخضرة؟»، قالت: كان رأسي في حجر ابن أبي الحقيق ـ تعني زوجها، أي: عروس ـ وأنا نائمة، فرأيت كأنّ القمر وقع في حجري، فأخبرته بذلك، فلطمني وقال: تتمنين ملك العرب. أي: فاخضرت عينها من تلك اللطمة.

وعن صفية رضي الله عنها قالت: انتهيت إلى رسول الله ﷺ، وما من الناس أحد أكره إليَّ منه قَتَل أبي وزوجي وقومي، فقال ﷺ: «يا صفية، أما أني أعتذر إليك مما صنعتُ بقومك، إنهم قالوا لي كذا وكذا، وقالوا فيَّ كذا وكذا» وما زال يعتذر إليَّ حتى ذهب ذلك من نفسي، فما قمت من مقعدي وما من الناس أحد أحبُّ إليَّ منه.

ولما أعرس رسول الله ﷺ بصفية جعل وليمتها حيساً[2] في نطع صغير، فقال ﷺ لخادمه أنس: «آذِنْ مَنْ حولك».

وقد وَلَد صفية مئة نبي، ثمّ مئة ملك، ثمّ صيّرها الله أَمَة لسيّد الرسل ﷺ وأعرس بها ﷺ بعد أن طهرت من الحيض في قبّة بعد أنْ دفعها لأمّ سليم أمّ أنس

---

(١) الصهباء: جبل يطل عل خيبر، ويسمى اليوم جبل (عطوة) يشرف على بلدة الشُّريف قاعدة خيبر من الجنوب، وفي وفاء الوفا: أن النبيّ ﷺ تزوج عنده بصفية بنت حيي رضي الله عنها. انظر المعالم الأثيرة: (١٦٢).

(٢) الحيس: تمر وأقط وسمن. مؤلف.

لتصلح شأنها، وأقام ﷺ بذلك المحلّ ثلاثة أيام، وبات أبو أيوب الأنصاري ﷺ ليلة أعرس رسول الله ﷺ بصفية متوشحاً سيفه يحرسه ﷺ ويطوف بتلك القبّة حتى أصبح رسول الله ﷺ فرأى مكان أبي أيوب فقال ﷺ: «مالك يا أبا أيوب؟»، فقال: يا رسول الله، خفت عليك من هذه المرأة، قتلتَ أباها وزوجها وقومها، وهي حديثة عهد بكفر، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني».

قال السهيلي[1]: فحرس الله تعالى أبا أيوب بهذه الدعوة حتى أنّ الروم لتحرس قبره ويستشفون به فيُشْفون ويستسقون به فيسقون، فإنه غزا مع يزيد بن معاوية سنة خمسين فلمّا بلغوا القسطنطينية مات أبو أيوب هناك، فأوصى يزيد أن يدفنه في أقرب موضع من مدينة الروم، فركب المسلمون ومشوا به حتىٰ إذا وجدوا مكاناً مساغاً دفنوه فسألهم الروم عن شأنهم فأخبروهم أنه كبير من أكابر المسلمين الصّحابة، فقالت الروم ليزيد: ما أحمقك وأحمق من أرسلك أأمنت أن ننبشه بعدك فنحرق عظامه، فحلف لهم يزيد لئن فعلوا ذلك ليهدمنَّ كلّ كنيسة بأرض العرب، وينبش قبورهم، فحينئذ حلفوا له بدينهم ليكرمُنَّ قبره وليحرسنّه ما استطاعوا.

ونهى رسول الله ﷺ عن إتيان الحبالى من النساء اللاتي سبين ولا يصب أحد امرأة من السبي غير حامل حتى يستبرئها بحيضة، وبلغه ﷺ أن شخصاً ألمَّ بحبلى من السبي، فقال ﷺ: «لقد هممت أن ألعنه لعنة تدخل معه في قبره».

ونهى ﷺ عن أكل الثوم والبصل نيئين، وعن إتيان مَنْ أكَلَهُما محلّ الصّلاة مع الناس، ونهى ﷺ عن المتعة يوم خيبر، وعن لحوم الحمر الأهلية، فأراقوا القدور وأكفؤوها، وإنها لتفور بلحومها، وأباح أكل لحوم الخيل، ونهى ﷺ عن أكل كلّ ذي ناب من السّباع وذي مخلب من الطّير وعن بيع المغانم حتى تقسم.

وقدم عليه ﷺ وهو في خيبر أبو هريرة وطائفة من قومه وهم دَوْس، قال أبو هريرة ﷺ: قدمنا المدينة ونحن ثمانون بيتاً من دَوْس فصلينا الصّبح خلف سباع بن عرفطة الغفاري، فأخبرنا أنّ النبيّ ﷺ بخيبر فزوّدنا سباع وسرنا حتى أتينا خيبر، وهو ﷺ مقيم يحاصر الكتيبة، فأقمنا حتى فتح الله عزَّ وجلَّ خيبر، وقدم عليه ﷺ بعد فتح خيبر جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة ومعه الأشعريون: أبو موسى الأشعري، وأخواه: أبو رهم وأبو بردة وعمه أبو عامر، ولما أقبل جعفر على النبيّ ﷺ قام إليه

---

(١) انظر الروض الأنف: (١/٣٦٧).

وقبَّل بين عينيه واعتنقه رسول الله ﷺ، وفعل ذلك أصلاً لاستحباب المعانقة.

ولما رأى جعفر النبيّ ﷺ حجل جعفر ـ أي: مشى على رجل واحدة ـ إعظاماً لرسول الله ﷺ لأنّ الحبشة يفعلون ذلك للتعظيم، وقدم مع جعفر سبعون رجلاً عليهم ثياب الصّوف منهم اثنان وستون من الحبشة، وثمانية من أهل الشام، وفي رواية: قدم معه سبعون كانوا أصحاب الصّوامع، وقيل: كانوا ثمانين رجلاً: أربعون من أهل نجران واثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية رومانيّون من أهل الشام، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة ياسين إلى آخرها، فبكوا وأسلموا، وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى.

ولعلّ هؤلاء هم المرادون بقول بعضهم وفد عليه ﷺ وفدُ النّجاشيّ فقام ﷺ يخدمهم بنفسه، فقال له أصحابه: نحن نكفيك يا رسول الله، فقال ﷺ: «إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وإني أحبّ أن أكافئهم».

وكان من جملة من قدم عليه ﷺ من بلاد الحبشة أم حبيبة بنت أبي سفيان ﵂ زوجة النبيّ ﷺ، عقد عليها وهي في الحبشة، فإنها كانت ممن هاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة بلاد النّجاشيّ مع زوجها عبد الله بن جحش، فارتدَّ عن الإسلام هناك وتنصَّر ومات على ذلك والعياذ بالله تعالى من ذلك، وبقيت هي على إسلامها، فأرسل ﷺ عمرو بن أمية الضمري في المحرم سنة سبع إلى النّجاشيّ ليزوجها منه ﷺ، قالت أم حبيبة: رأيت وأنا في بلاد الحبشة في المنام كأن قائلاً يقول لي: يا أمّ المؤمنين، ففزعتُ، فأوّلتها بأنّ رسول الله ﷺ يتزوّجني، قالت: فما شعرت إلا وقد دخلت عليَّ جارية النّجاشيّ تقول لي: إنّ الملك يقول لك: إنّ رسول الله ﷺ كتب إليه أن يزوجك منه، فقلت لها: بشّرك الله بالخير، ويقول لك: وكّلي من يزوجك، فأرسلت بالوكالة إلى خالد بن سعيد، وأعطيتُ تلك الجارية سوارين وخلخالين وخواتم فضة سروراً بما بشّرت به، فلمّا كان العشاء أمر النّجاشيّ جعفر بن أبي طالب ومن معه من المسلمين فحضروا وخطب النّجاشيّ فقال: الحمد لله الملك القدوس المؤمن المهيمن العزيز الجبار، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله، وأنه الذي بشَّر به عيسى بن مريم عليهما السلام، أما بعد: فإنّ رسول الله ﷺ كتب إليَّ أن أزوِّجه أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، فأجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وقد أصدقها أربعمئة دينار، ثمّ سكب الدنانير بين يدي القوم، فتكلّم خالد بن سعيد بن العاص، فقال: الحمد لله، أحمده واستعينه واستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ

محمّداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه، ولو كره المشركون، أما بعد: فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وزوّجته أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسوله ﷺ وقبض الدنانير سعيد بن العاص، ودعا النّجاشيّ بطعام فأكلوا، قالت أم حبيبة: فلمّا كان الغد جاءتني جارية النّجاشيّ فردت عليَّ جميع ما أعطيتها، وقالت لي: إنّ الملك عزم عليَّ أنْ لا أرزأك شيئاً، وقد أمر الملك نساءه أنْ يبعثن إليك بكلّ ما عندهنّ من العطر فجاءت بوَرْس وعنبر وزباد[1] كثير، وقالت:حاجتي إليك أن تقرئي مني السلام على رسول الله ﷺ، وتُعْلميه أني قد اتبعته ـ أي: على دينه ـ وكانت كلّما دخلت عليّ تقول لي: لا تنسي حاجتي إليك، ثمّ أرسلها النّجاشيّ مع شرحبيل بن أخته، فقدمت على رسول الله ﷺ هي وشرحبيل مع من قدم من الحبشة، وهو ﷺ في خيبر كما تقدم.

قالت أم حبيبة: ولما دخلتُ على رسول الله ﷺ أخبرته ﷺ بكلّ ما وقع من أمر الخطبة، وما فعلت الجارية، وما وصّتني به فتبسَّم رسول الله ﷺ، وقال: وعليها السلام ورحمة الله وبركاته.

وأسهم ﷺ للأشعريين من خيبر، وفي البخاري[2]، عن أبي موسى الأشعري ﷺ أنه قال: بلغنا مهاجرة النبيّ ﷺ إلى المدينة ونحن باليمن فخرجنا مهاجرين إليه أنا وأخوان لي، أنا أصغرهم، أحدهما أبو بردة والآخر أبو رهم في ثلاثة وخمسين رجلاً من قومنا، فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النّجاشيّ بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده، فقال جعفر: إنّ رسول الله ﷺ بعثنا إلى ههنا وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً، فوافقنا النبيّ ﷺ حين فتح خيبر، وكان أناس من الناس يقولون لنا ـ يعني لأهل السفينة ـ سبقناكم بالهجرة.

ودخلت أسماء بنت عميس، وهي ممن قدم معنا على حفصة زوج النبيّ ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النّجاشيّ فيمن هاجر، فدخل عمر ﷺ على حفصة وأسماء عندها، فقال عمر ﷺ حين رأى أسماء: من هذه؟، قالت: أسماء بنت عميس، قال عمر ﷺ: الحبشة هذه البحرية هذه، قالت أسماء: نعم، قال عمر: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله منكم، فغضبت أسماء، وقالت: كلا والله،

---

(١) نوع من الطيب.

(٢) انظره في صحيحه برقم: (٣٩٩٠).

كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار أو أرض العدا البُغَضا بالحبشة، وذلك في الله ورسوله ﷺ، وايم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلتَ للنبيّ ﷺ، نحن كنا نُؤْذَى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبيّ ﷺ وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه، فلما جاء النبيّ ﷺ قالت: يا نبيّ الله، إنّ عمر قال: كذا وكذا، قال ﷺ: «فما قلتِ له؟»، قالت: قلت: كذا وكذا، قال ﷺ: «ليس هو بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهلَ السفينة هجرتان»، قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السّفينة يأتونني أرسالاً يسألونني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبيّ ﷺ.

ولم يقسّم رسول الله ﷺ غنائم خيبر إلا على من شهد فتح خيبر ولمن حضر معهم من الأشعريين والدوسيين وجعفر وأصحابه، وقد حضر أيضاً فتح خيبر أبان بن سعيد فلم يعطه رسول الله ﷺ شيئاً من فيء خيبر، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبيّ ﷺ أبان على سرية من المدينة قِبَل نَجْد فقدم أبان وأصحابه على رسول الله ﷺ بخيبر بعدما افتتحها، وإن حُزُم خيلهم الليفُ، فقلت: يا رسول الله، لا تقسم لهم، قال أبان: وأنت بهذا يا وَبْرُ تَحدَّرَ من رأس ضأل، فقال النبيّ ﷺ: «يا أبان، اجلس» فلم يقسم ﷺ لهم.

الضأل: السدر، يا وبر، بفتح الواو وسكون الموحدة: دويبة أصغر من السّنور لا ذنب لها تدجن في البيوت(1).

قال الخطابي: أراد أبان تحقير أبي هريرة، وأنه ليس في قدر مَنْ يشير بعطاء ولا منع، وأنه قليل القدرة على القتال.

روي من رأس ضأل، وروي أيضاً: من قدوم الضال ـ أي: نزل من جبل، وفي رواية أخرى: أنّ أبا هريرة قال: يا رسول الله، هذا ـ أي: أبان ـ قاتلُ بن قوقل، وقال أبان لأبي هريرة: وا عجباً لك وَبْر تدلّى مَن قدوم ضأل تنعى عليّ امرءاً أكرمه الله بيدي ومنعه أن يهينني بيده.

قوله: تنعى عليّ، أي: يعيب عليّ، قوله: امرءاً، أي: النعمان بن قوقل الأنصاري قتله أبان يوم أحد، قوله: أكرمه الله بيدي، أي: حيث صار شهيداً، ومنعه أن يكون بالعكس، بأن يقتل النُعمان بن قوقل أباناً على سبيل الإهانة والخزي في

---

(1) انظر النهاية في غريب الحديث: (٥/٣١١).

الدارين لأنّ أباناً يوم أُحُدٍ لم يكن مسلماً، ثمّ أسلم بعد ذلك.

وقدم عليه ﷺ يوم خيبر حجاج بن علاط السلمي وأسلم، وكان كثير المال، فقال: يا رسول الله، إن مالي عند امرأتي بمكة ومتفرّق في تجار مكة فأذنْ لي أنْ آتي مكة لآخذ مالي قبل أن يعلموا بإسلامي، فلا أقدر على أخذ شيء منه، فأذنَ له رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله لا بدَّ لي من أن أقول خلاف الواقع ـ أي: أحتال به على ما يوصلني إلى أخذ مالي ـ قال ﷺ: «قلْ»، قال حجاج: فخرجت حتى انتهيت إلى الحرم فإذا رجال من قريش يتشممون الأخبار، وقد بلغهم أن رسول الله ﷺ سار إلى خيبر وتراهنوا على مئة بعير في أنّ النبيّ ﷺ يغلب أهل خيبر أو لا.

فقال: حويطب بن عبد العزى بالأول، وقال عباس بن مرداس وجماعة بالثاني، فقالوا: حجاج عنده واللهِ الخبر، ولم يكونوا علموا بإسلامي، قالوا: يا حجاج، إنه قد بلغنا أنّ القاطع ـ يعنون رسول الله ﷺ ـ قد سار إلى خيبر، فقلت: عندي من الخبر ما يسرُّكم، فاجتَمَعوا عليَّ يقولون: إيهِ حجاج، فقلتُ: هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قطّ، وقتل أصحابه قتلاً لم تسمعوا بمثله قطّ، وأُسر محمّد، وقالوا: لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلونه بين أظهرهم، وفي لفظ: يقتلونه بمن كان أصاب من رجالهم، فصاحوا، وقالوا لأهل مكة: قد جاءكم الخبر: هذا محمّد، إنما تنتظرون أنْ يُقدم به عليكم فيُقتل بين أظهركم، قال حجاج: فقلت لهم: أعينوني على غرمائي أريد أنْ أقدم فأصيب من غنائم محمّد وأصحابه قبل أن يسبقني التّجار إلى ما هناك، فجمعوا لي مالي على أحسن ما يكون، ففشى ذلك بمكة وأظهر المشركون الفرح والسرور وانكسر قلب من كان بمكة من المسلمين، وسمع بذلك العباس بن عبد المطلب فجعل لا يستطيع أنْ يقوم، ثمّ أرسل إلى حجاج غلاماً وقال: قل له: يقول لك العباس: الله أعلى وأجل من أن يكون الذي جئت به حقًّا، فقال له حجاج: اقرأ على أبي الفضل السلام، وقل له: ليتأخّر عني حتى ألقاه على خلاء فأخبره الخبر على ما يسره، واكتم عني، فأقبل الغلامُ فقال: أبشر يا أبا الفضل، فوثب العباس رضي الله عنه فرحاً وسروراً كأن لم يمسّه شيء.

وحين أخبره بذلك أعتقه وقال: لله عليَّ عتق عشر رقاب، فلمّا كان وقت الظهر جاءه حجاج فناشده الله أن يكتم عنه ثلاثة أيام، وقال: إني أخشى الطّلب، فإذا مضت الثلاث فأظهر أمرك، فوافقه العبّاس على ذلك، فقال: إني قد أسلمت، وإنّ لي عند امرأتي مالاً ولي دين على الناس، ولو علموا بإسلامي لم يدفعوه إليَّ، وإني قد تركت

رسول الله ﷺ قد فتح خيبر، وجرت سهام الله وسهام رسوله ﷺ فيها، وتركته عروساً بابنة ملكهم حيي بن أخطب، وقتل ابن أبي الحقيق.

فلمّا أمسى حجاج أخذ ماله وخرج بعدما أخبرته امرأته بما أخبر به كفّار مكة، وطالت على العباس تلك الليالي الثلاث، فلمّا مضى حجاج ومضت الثلاث ليالي عمد العباس إلى حلّة فلبسها وتخلّق بخلوق، وأخذ بيده قضيباً وأتى امرأة حجاج فقال لها: ما فعل زوجك؟ قالت: ذهب، وقالت: لا يحزنك، والله يا أبا الفضل لقد شقَّ علينا الذي بلغك، فقال: أجل لا يحزنني الله، فلم يكن محمداً إلا كما أحبّ فتح الله على رسوله ﷺ خيبر واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه صفية، فإنْ كان لك في زوجك حاجة فالحقي به فقد أسلم، قالت: أظنّك والله صادقاً، قال: فإني والله صادق، والأمر على ما أقول.

ثمّ ذهب يخطر حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون إذا مرّ بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل، والله هذا التبختر لحرِّ المصيبة، فقال العباس: كلا والله الذي حلفتم به، لم يصبني إلا خير بحمد الله، أخبرني حجاج أنّ خيبر فتحها الله عزَّ وجلَّ على يد رسوله ﷺ، وجرت فيها سهام الله وسهام رسوله ﷺ، واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت ملكهم حيي بن أخطب لنفسه، وأنه تركه عروساً بها، وإنما قال ذلك لكم ليخلِّص ماله، وإلا فهو أسلم، فردّ الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين، فقال المشركون: ألا يا عباد الله انفلت عدوّ الله ـ يعنون حجاجاً ـ أما والله لو علمنا به لكان لنا وله شأن، ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك.

وفي هذه الغزوة أراد ﷺ أن يتبرّز فقال لابن مسعود: «يا عبد الله، انظر هل ترى شيئاً؟»، قال: فنظرت فإذا شجرة واحدة فأخبرته، فقال لي: «انظر لي هل ترى شيئاً؟»، فنظرت فإذا شجرة أخرى متباعدة عن الأولى فأخبرته، فقال: «قل لهما: إنّ رسول الله ﷺ يأمركما أنْ تجتمعا»، فقلت لهما ذلك، فاجتمعتا فاستتر ﷺ بهما ثمّ قام، فانطلقتْ كلّ واحدة إلى مكانها بعد أمره ﷺ لهما بذلك.

وفي خيبر وقعت حادثة أكله ﷺ من الشاة المسمومة، فإنه لما فتحت خيبر واطمأن الناس جعلت زينب بنت الحارث أخي مرحب، وهي امرأة سلام بن مشكم تسأل: أيُّ الشاة أحبُّ إلى محمّد ﷺ؟، فيقولون: الذِّراع، فعمدت إلى عنز لها فذبحتها، ثمّ عمدت إلى سمّ يقتل من ساعة فسمَّت الشاة، وأكثرت في الذراعين

والكتف، فلمّا غابت الشمس وصلّى رسول الله ﷺ المغرب بالناس انصرف وهي جالسة عند رحله، فسأل عنها، فقالت: يا أبا القاسم، هدية أهديتها لك، فأمر النبيّ ﷺ فأُخذت منها، فوضعت بين يديه وبعض أصحابه حضور، وفيهم بشر بن البراء بن معرور، فقال رسول الله ﷺ: «ادنوا»، فقعدوا وتناول رسول الله ﷺ الذراع فانتهش منه، فلمّا ازدرد رسول الله ﷺ لقمة ازدرد بشر ما في يده، ووضع القوم أيديهم ليأكلوا منها، فقال رسول الله ﷺ: «ارفعوا أيديكم، فإنّ هذه الذراع أو الكتف تخبرني أنها مسمومة»، فقال بشر: والذي أكرمك، لقد وجدت ذلك من أكلتي ـ أي: لقمتي ـ التي أكلتها فما منعني أن ألفظها إلا أن أنغّص عليك طعامك، فلمّا أكلت ما في فيك لم أرغب بنفسي عن نفسك، ورجوت أن لا تكون ازدرتّها، فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونه كالطيلسان ـ أي: أسود ـ ثمّ توفي.

ثمّ احتجم رسول الله ﷺ على كاهله وأمر أصحابه فاحتجموا أواسط رؤوسهم، لأنهم وإنْ لم يأكلوا لكن ربما سرى السمّ إليهم بمجرد وضع أيديهم في اللحم المسموم، وكانوا ثلاثة، فاحتجم ﷺ بين الكتفين في ثلاثة مواضع، قيل: ثمّ احتجم في وسط رأسه، ثمّ أرسل رسول الله ﷺ إلى تلك اليهودية التي سمَّت الشاة، فقال: «أسممت هذه الشاة؟»، فقالت: نعم.

وأخبرها ﷺ بأنّ الذراع الذي في يده أخبره بالسمّ، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما حملك على ما صنعت؟»، قالت: بلغتَ من قومي ما لا يخفى عليك، قتلت عمّي وأبي وزوجي، فقلتُ: إنْ كان ملكاً استرحنا منه، وإنْ كان نبيًّا فسيُخْبر، فعفا ﷺ عنها.

وفي البخاري[1]: لما فتحت خيبر أُهديت للنبيّ ﷺ شاةٌ فيها سمّ، فقال النبيّ ﷺ: «اجمعوا لي من كان ههنا من يهود»، فجُمعوا عنده، فقال ﷺ: «إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقيّ فيه؟»، فقالوا: نعم، فقال لهم النبيّ ﷺ: «من أبوكم؟»، قالوا: أبونا فلان، فقال ﷺ: «كذبتم بل أبوكم فلان»، قالوا: صدقت، قال: «فهل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألت عنه؟»، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإنْ كذبنا عرفتَ كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم: «من أهل النار؟»، قالوا: نكون فيها يسيراً ثمّ تخلفونا فيها، فقال ﷺ لهم: «اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً»، ثمّ قال: «هل أنتم

---

(١) انظره في صحيحه برقم: (٢٩٩٨ـ ٤٠٠١ـ ٥٤٤١).

صادقي عن شيء إنْ سألتكم عنه؟»، فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كما عرفته قبل، فقال ﷺ: «هل جعلتم في هذه الشاة شيئاً من السمّ؟»، قالوا: نعم، قال ﷺ: «ما حملكم على ذلك؟»، قالوا: أردنا إنْ كنت كاذباً نستريح منك، وإن كنت نبيًّا لم يضرك.

ويروى أنه ﷺ دفع المرأة التي وضعت السمَّ لأولياء بِشْر بعد إسلامها وموت بِشْر، فقتلوها به، ويروى أن أم بشر دخلت على النبيّ ﷺ في مرض موته فقالت له ﷺ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما تتهم بنفسك، فإني لا أتهم بابني إلا الطعام الذي أكله بخيبر، وكان ابنها بشر بن البراء بن معرور مات قبل النبيّ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «وأنا لا أتّهم غيرها، هذا أوان انقطاع أبهري»[1]، وفي رواية: «ما زلت من الأكلة التي أكلت بخيبر فها أوان انقطاع أبهري»[2].

وروي أنه ﷺ لما فتح خيبر أصاب حماراً أسود فقال له رسول الله ﷺ: «ما اسمك؟»، قال: يزيد بن شهاب، أخرج الله تعالى من نسل جدّي ستين حماراً كلّهم لا يركبهم إلا نبيّ، وقد كنت أتوقّعك لتركبني لم يبق من الأنبياء غيرك، قد كنتُ لرجل يهودي أتعثر به عمداً، وكان يجيع بطني ويضرب ظهري، فقال له النبيّ ﷺ: «فأنت يعفور»، وكان رسول الله ﷺ يبعثه إلى باب الرّجل فيأتي الباب فيقرعه برأسه، فإذا خرج إليه صاحب الدار أومأ إليه أن أجب رسول الله ﷺ. فلمّا مات رسول الله ﷺ ألقى نفسه في بئر جزعاً على رسول الله ﷺ فمات.

والحقّ أنّ هذه القصة مكذوبة عليه ﷺ وإن ذكرها عياض في الشّفاء والسّهيلي في روضه، وقد صحّ ما هو أبلغ من ذلك، وهو إجابة الجماد، فقد صحّ أنه ﷺ خرج إلى بعض شعاب مكة قبل الهجرة وقد دخله من الغمّ ما شاء الله من تكذيب قومه إيّاه فقال: «يا رب أرِني اليوم آيةً أطْمَئِنّ إليها، ولا أبالي بمن آذاني بعدها»، وكان ذلك الوادي به شجر فأُمر ﷺ أن يدعو شجرة من تلك الشجر، وفي لفظ: غصناً من أغصان شجرة، فدعا ذلك فانتزع من مكانه، وجاء إليه وسلّم عليه، ثمّ أمره ﷺ بالعَوْد فعاد إلى مكانه، فحمد الله عزَّ وجلَّ وطابت نفسه، وقال: «ما أبالي بمن آذاني بعد هذا من قومي». ووقع له ﷺ إجابته الحجر إلى غير ذلك.

---

(١) رواه الحاكم في المستردك، وقال: هذا صحيح علة شرط الشيخين ولم يخرّجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الدارمي في سننه برقم: (٦٧).

وقد رضّخ رسول الله ﷺ للنساء اللاتي كنّ في تلك الغزوة، ثمّ دفع ﷺ أراضي خيبر لأهلها يعملون فيها بشطر ما يخرج منها، وقال ﷺ لهم: «على أنّا إذا شئنا أنْ نخرجكم أخرجناكم»، وكان ذلك الدفع لهم بعد أنْ قالوا له ﷺ: نحن أعلم بها منكم، واستعمل ﷺ رجلاً على أهل خيبر، وصار ﷺ كلّ سنة يرسل إليهم خارصاً، وإلى بعض ما وقع في خيبر أشار المصنف بقوله:

وخيبر في أخبارها أيُّ مُعجِزٍ	لِمَنْ بَلَغَتْه قِصَّةُ الخيبريَّة
أتتكَ بشاةٍ سُمَّ لحمُ ذِرَاعِها	ولم تَدْرِ أنَّ الله قاضٍ بعِصْمَةِ
فأحْيَيْتَ عضو الشاة بعد مماتها	فجاءَ بنُطقٍ مُوضِحٍ للنَّصيحة
وقال رسولَ اللهِ لا تَكُ آكلي	فزينبُ سامَتْني الهوانَ وسَمَّت
قلتَ عليٌّ سوفَ تَفتحُ في غدٍ	لخيبر حِصْنا فارْتَقاهُ بغُدْوَة
وأذهبَ عنه الحرَّ والبردَ دَعوةٌ	كما عُوفِيَتْ عيناهُ منك بتفْلَةِ

يعني: أنّه في مدينة خيبر وقعت لك يا رسول الله معجزة أيُّ معجزة، أي: بليغة عظيمة تلك المعجزة، (لمن) أي: عند أيّ شخصٍ بلغته قصّة المرأة الخيبرية حيث أتتك يا رسول الله بشاة وُضِعَ سمٌّ في لحم ذراعها، ولم تدر وتعلم تلك المرأة التي أتتك بها وقد وضعت السمَّ فيها أنّ الله قاض وحاكم بعصمة وحفظ لك يا رسول الله من كون السم يؤثر فيك، فأحييتَ عضو الشاة المسمومة وأخبرتك بأنها مسمومة بعد مماتها وطبخها، فجاء ذلك العضو بنطق موضح للنصيحة لك يا رسول الله حتى لا تأكل منها لا أنت ولا أصحابك حيث قال ذلك العضو المسموم: يا رسول الله لا تكن آكلي فزينب اليهودية (سامتني) أي: كلّفتني وأوقعت فيَّ الهوان لها، والأمر الذي تهان وتعذّب من أجله، وهو أنها قد سمَّت اللحم الكائن فيَّ لتقتلك وتقتل أصحابك الآكلين منها، كما وأنك قلت يا رسول الله: عليٌّ بن أبي طالب سوف يفتح حصناً من حصون خيبر شقَّ فتحته على المسلمين، ويكون فتحه في (غد) في ثاني يوم من مقالتك يا رسول الله، فلما كان الغد ارْتَقى ذلك الحصن عليٌّ (بغدوة) أي: في نصف النّهار الأول، ففتحه الله تعالى على يديه تصديقاً لمقالتك يا رسول الله، وأيضاً لما دعوت عليًّا لتدفع له الراية ليقاتلهم أخبرك بوجع عينيه فتفلت في عينيه فعوفيتا في الحال، ثمّ قلت يا رسول الله في عليٍّ حينئذ: «اللهم اكفه الحرَّ والبرد»، فكانت دعوتك هذه لعليّ قد أذهبت عنه الحرَّ والبرد مدّة عمره كما صحّ عنه، وتقدَّمت القصة

بأبسط مما ذكر هنا.

وقد أصلح الرحمنُ بالسيِّد ابنه ... كما قُلت بينَ المسلمين بفتنة

حاصله: أنّ من جملة معجزاتك التي فيها الإخبار بالمغيَّبات أنك قلت يا رسول الله وأنت على المنبر بحضرة جمع من الصّحابة في شأن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما: «إن ابني هذا سيِّد ولعل الله أن يُصلِحَ به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» فكان الأمر كما قلت يا رسول الله، أزاح الله الفتنة على يديه، فإنه لما توفي والده عليٌّ كرَّم الله وجهه بايعَه بعد أبيه أكثرُ من أربعين ألفاً على الخلافة، فنازعه فيها معاوية وانتصر لكلّ منهما جمع غفير، فلمّا التقى الصّفَّان قال الحسن ﷺ: والله لقد سمعتُ أبي يقول: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر والحسنُ بن عليٍّ إلى جنبه وهو يُقبلُ على الناس مرة وعليه أُخْرَى، ويقول: «إنَّ ابني هذا سيّد ولعل الله أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

واصْطَلح الحسن مع معاوية وتنازل له عن الخلافة بعد أن وَلِيَها بحقٍّ وبقي نحو سبعة أشهر خليفةً بالعراق وما وراءها من خُراسان على أن يدفع له معاويةُ كلّ سنة من المال ما هو كذا وكذا على أنْ لا مطالبة لأحد الفريقين بثأر ما وقع بين معاوية وعليٍّ، فقبل معاوية الشروط ووفَّى بها، وكاد يطير فرحاً بتحْصِين دماء الفئتين.

وكان الذي طلب ذلك أولاً معاوية بإشارةِ عَمْرو بن العاص بعد أن قال له: أرى كتائب لا تولِّي حتى تقتل أقرانها، فحينئذ قال له معاوية: إنْ قتل هؤلاء هؤلاء مَنْ لي بأمور الناس، مَن لي بنسائهم، من لي بضعيفهم، فأمره بأن يرسل بالصّلح، ففعل، فكان حقنُ دماء المسلمين يومئذ بسبب تنازل الحسنِ عن الخلافة كما قلتَ يا رسول الله، وعن أبي هريرة ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ يُقبِّله ويقول: «اللهم إني أُحِبُّه فأحِبَّه وأحبَّ مَن يُحبُّه».

وكان ﷺ وَرِعاً سخيًّا شجاعاً زاهداً، ومن زهده تركه الدنيا والملك رغبة فيما عند الله، وكان أشبه الناس برسول الله ﷺ في النصف الأعلى، وأخوه الحسينُ أشبه به في النصف الأسفل.

ورُدَّتْ عليك الشمسُ بعد مَغيبها ... كما أنها قِدماً لِيُوشعَ رُدَّتِ

حاصله: أنه من جملة معجزاتك يا رسول الله أنه نزل عليك الوحيُ ورأسك في حِجْر عليٍّ، وفي رواية: نمت ورأسك على ركبته وذلك في الصّهباء بخيبر فما سُرِّيَ

الوحيُ أو استيقظت حتى غربت الشمسُ فقلتَ لعليٍّ: «أصليتَ العصرَ؟»، فقال لك: لا، فقلت يا رسول الله: «اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك، فارْدُدْ عليه الشمس» فرجعتْ حتى بلغتْ نصف المسجد، وفي رواية: ورؤوسَ الحيطان والجبال والنخل، وفي رواية أخرى: وصلَّى العصر حاضراً. فكان ردُّ الشمس بعد غيابها بدعوتك يا رسول الله كما ردَّت الشمس ليوشع بن نون يوم فتحه بيتَ المقدس، وكان يوم جمعة ليكمل فتحه له وقتاله الجبارين، وكان ذلك بدعوته أيضاً كما هو مبسوط في كتب التفسير.

وسالَ دم فيها على وجه عائذ فأتْبَعْتَهُ مَسْحاً فصارَ كغُرَّة

حاصله: أنه من جملة معجزاتك يا رسول الله ما نقله عياض في الشفا[1]، وهو أنّ النبيّ ﷺ سلتَ الدمَ عن وجه الصّحابي المعروف بأنه عائذ، وكان جُرِحَ بخيبر على ما قاله المصنف تبعاً لبعض الرواة، أو حُنَين على ما قاله عياض تبعاً لآخرين، فلما مسح ﷺ ابيضَّ كغُرَّة الفرس وشُفِي في الحال، واستمر ذلك إلى مماته ﷺ.

ويقرب من ذلك أنه ﷺ تفل على شجَّة عبد الله بن أنيس فلم تدم، وفي الدلائل[2] للبيهقي معجزة عظيمة وهي أنّ أمّ محمّد بن حاطب قالت له: أقبلتُ من أرض الحبشة حتى إذا كنت بالمدينة بليلة أو ليلتين طحنت لك طحيناً ففني الحطب فخرجت أطلب الحطب فتناولت القدرَ فانكفأت على ذراعك فقدمتُ المدينة فأتيتُ بك النبيّ ﷺ فقلت: يا رسول الله، هذا محمّد بن حاطب فمسح ﷺ على رأسك ودعا لك وتفل على يدك وهو يقول: «ربّ الناس أذهب الباس اِشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً» قالت: فما قمتُ بك من عنده ﷺ حتى شُفيتْ يدك.

غزوة وادي القرى

ثمّ عند منصرفه ﷺ من خيبر أتى وادي القرى، وأهله يهود فدعاهم إلى الإسلام فامتنعوا من ذلك وقاتلوا، أي: برز رجل منهم فقتله الزبير، فبرز آخر فقتله أبو دجانة، ثمّ برز آخر فقتله أبو دجانة، وقاتلهم المسلمون إلى المساء، وقتل منهم أحد عشر رجلاً ففتحها رسول الله ﷺ عنوة وغنّمه الله تعالى أموال أهلها، وأصاب المسلمون

(١) انظر الشفا: (١/ ٢٤٥).

(٢) هو في دلائل النبوّة برقم: (٢٤٢٥).

منهم أثاثاً ومتاعاً فخمّسه رسول الله ﷺ وترك الأرض والنخيل في أيدي أهلها ـ أي: من بقي منهم ـ وعاملهم رسول الله ﷺ على نحو ما عامل أهل خيبر، ومنَّ رسول الله ﷺ على يهود فَدَك وترك في أيديهم أراضي وادي القرى والبساتين والحدائق يعملون فيها ويأخذون الأجرة.

ولما بلغ أهلَ تيماء ما فعل رسول الله ﷺ بأهل خيبر وفدك ووادي القرى صالحوه ﷺ على الجزية فأقاموا ببلادهم، وأراضيهم في أيديهم، وبينما عبدٌ له[1] ﷺ يرحِّل النبيّ ﷺ ـ أي: يحطّ رحله ـ إذ جاءه سهم فقتله فقال الناس: هنيئاً له، له الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «كلا والذي نفسي بيده، إنّ الشّملة التي أخذها سرقة من غنائم خيبر قبل أن تقسم تشتعل عليه ناراً».

ومات شخص صحابي أيضاً في أراض خيبر فقال رسول الله ﷺ: «صلُّوا على صاحبكم» وامتنع ﷺ من الصّلاة عليه فتغيّرت وجوه الناس لذلك، فقال ﷺ: «إنَّ صاحبكم قد غلَّ في سبيل الله»، ففتّش متاعه فوجد فيه خرز من خرز اليهود لا يساوي درهمين.

إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه

وكان بعد عمرة القضاء إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، قال خالد رضي الله عنه: لما أراد الله عزَّ وجلَّ بي ما أراد من الخير قذف في قلبي الإسلام وحضرني رشدي وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلّها على محمد ﷺ فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني مُوضع في غير شيء وأنّ محمّداً سيظهر، فلمّا جاء ﷺ لعمرة القضاء تغيبت ولم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد دخل معه ﷺ فطلبني ﷺ فلم يجدني فكتب أخي إليَّ كتاباً فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد: فإني لم أر أعجب من ذهاب عقلك ورأيك عن الإسلام، ومثل الإسلام لا يجهله أحد، وقد سألني عنك رسول الله ﷺ فقال: «أين خالد؟»، فقلت: يأتي به الله تعالى، فقال: «ما مثله يجهل الإسلام، ولو كان يجعل نكايته وجدّه مع المسلمين على المشركين كان خيراً له، ولقدَّمناه على غيره»، فاستدرك يا أخي ما قد فاتك، فقد فاتك مواطن صالحة).

فلمّا جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الإسلام، وسرتني مقالة

---

(١) واسمه مدعم أهداه له بعض بني الضبيب. انظر البداية والنهاية: (٤/٢٠٨)، والفصول في السيرة: (١٩١)، وعيون الأثر: (٢/١٩٧).

رسول الله ﷺ، ورأيت في المنام كأني في بلاد ضيقة جدبة فخرجت إلى بلاد خضراء واسعة، فلمّا أجمعت الخروج إلى المدينة لقيت صفوان فقلت: يا أبا وهب، أما ترى أنّ محمّداً ظهر على العرب والعجم، فلو قدمنا عليه فاتبعناه، فإنّ شرفه شرف لنا، فقال صفوان: لو لم يبق غيري ما اتبعته أبداً، قلت: هذا رجل قُتِل أبوه وأخوه ببدر، فقلت لعكرمة بن أبي جهل مثل ما قلت لصفوان، فقال مثل الذي قال لي صفوان، قلت: فاكتم ذكر ما قلت لك، قال: لا أذكره، ثمّ لقيت عثمان بن طلحة فقلت: هذا صديق لي، فأردت أنْ أذكر له، ثمّ تذكرت من قُتِلَ من آبائه وأخوته الأربع: مسافع والجلاس والحارث وكلاب قتلوا كلّهم يوم أحد فكرهت أن أذكر له، ثمّ قلت: وما عليَّ، فقلت له: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر لو صُبَّ فيه ذَنُوب ماء لخرج، ثمّ قلت له ما قلت لصفوان ولعكرمة، فأسرع الإجابة وتواعدني إنْ سبقني أقام في محلّ كذا، وإنْ سبقته إليه انتظرته فلم يطلع الفجر حتى التقينا فغدونا حتى انتهينا إلى الهداة(1) فوجدنا عمرو بن العاص بها فقال عمرو: مرحباً بالقوم، فقلنا: وبك، فقال: أين مسيركم؟، قلنا: الدخول في الإسلام، قال: وذلك الذي أقدمني فاصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة فأنخنا بظهر الحرّة ركابنا، فأُخبر بنا رسول الله ﷺ فسرَّ بنا وقال: «رمتكم مكة بأفلاذ كبدها»، فلبست من صالح ثيابي، ثمّ عمدت إلى رسول الله ﷺ فلقيني أخي، فقال: أسرع فإنّ رسول الله ﷺ قد سرَّ بقدومكم وهو ينتظركم، فأسرعنا المشي، فاطّلعت عليه ﷺ فما زال ﷺ يبتسم إليَّ حتى وقفت عليه، فسلّمت عليه بالنبوة فردَّ عليَّ السلام بوجهٍ طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، قال ﷺ: «الحمد لله الذي هداك، قد كنتُ أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير»، قلت: يا رسول الله، ادع الله أنْ يغفر لي تلك المواطن التي كنت أشهدها عليك، فقال ﷺ: «الإسلام يجبُّ ما كان قبله».

وتقدَّم عثمان وعمرو فأسلما، وكان عمرو أسلم على يد النّجاشيّ، فعنه ﷺ قال: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يرون مكاني ويسمعون مني فقلت لهم: تعلمون والله أني لأرى أمر محمّد يعلو الأمور علواً منكراً، وإني قد رأيت رأياً فما ترون فيه؟، قالوا: وما رأيت؟، قال: رأيت أن نلحق بالنّجاشيّ فنكون عنده فإنْ ظهر محمّد على قومنا كنا عند النّجاشيّ، فإنا إنْ نكن تحت يده أحبّ

(1) هو موضع بين عسفان ومكة أو سبعة أميال من عسفان. انظر المعالم الأثيرة: (٢٩٣).

إلينا من أن نكون تحت يد محمّد، وإن ظهر قومنا فنحن ممن قد عرفوا، فلم يأتنا منهم إلا خير، فقالوا له: إنّ هذا هو الرأي، فقلت لهم: اجمعوا ما يُهدى له وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم، فجمعنا له أدماً كثيرة، ثمّ خرجنا إليه، فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري بعثه رسول الله ﷺ في شأن جعفر وأصحابه وأمره أن يزوِّجه من أم حبيبة، قال: فدخلت على النّجاشيّ فسجدت له فقال: مرحباً بصديقي، أهديتَ إليَّ من بلادك شيئاً؟، فقلت: نعم أيها الملك أهديت إليك أدماً كثيرة، ثمّ قربتُ ما أهديتُه إليه فأعجبه، وفرَّق منه أشياء بين بطارقته، وأمر بسائره ـ أي: بباقيه ـ فأدخل في موضع، وأمر أنْ يكتب ويحفظ عليه فرأيت طيب نفسه، فقلت: أيها الملك إني رأيت رجلاً خرج من عندك ـ يعني: عمرو بن أمية الضمري ﷺ ـ وهو رسول عدوٍّ لنا، قد وترنا وقتل أشرافنا وخيارنا، فأعطينيه فأقتله، فغضب، ثمّ رفع يده فضرب أنفي ضربة ظننت أنه قد كسره، فجعلت اتقي الدّماء بثيابي، وعند ذلك أصابني من الذلّ ما لو انشقّت لي الأرض لدخلت فيها فرقاً ـ أي: خوفاً منه ـ ثمّ قلت: أيها الملك، لو ظننت أنك تكره ما قلت ما سألتكه، فقال: يا عمرو تسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى عليه السلام والذي كان يأتي عيسى بن مريم عليه السلام لتقتله؟؟، قلت: أوشهدتَ أنت أيها الملك أنه رسول الله؟، قال: نعم أشهد أنه رسول الله أشهد بذلك عند الله يا عمرو، فأطعني واتّبعه، فوالله إنه لعلى الحقّ، قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم فمدّ يده فبايعته على الإسلام، ثمّ خرجت إلى أصحابي وقد كساني الملك فلمّا رأوا الكسوة سروا بذلك وقالوا: هل صاحبك قضى حاجتك؟[1]، فقلت لهم: كرهت أنْ أكلمه أوّل مرة وقلت: أعود إليه، فقالوا: الرأي ما رأيت وفارقتهم وكأني أعمد إلى حاجة فعمدت إلى موضع السفن فوجدت ركاب سفينة قد شحنت فركبت معهم ودفعوها من ساعتهم حتى انتهوا إلى الشعيبة[2]، وهو محلّ معروف كانت ترمى فيه السفن قبل وجود جُدّة، فخرجت من السفينة فابتعت بعيراً وتوجهت إلى المدينة حتى إذا كنت بالهداة، وإذا أنا برجلين

---

(١) يعني: قتل عمرو بن أمية الضمري. مؤلف.

(٢) الشعيبة: وهو مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز، وكان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة، وهي تقع اليوم جنوب جدة على مسافة حوالي ثمانية وستين كيلاً. وهناك خليجان يسمى أحدهما: الشعيبة المغلقة، والثاني الشعيبة المفتوحة. انظر المعالم الأثيرة: (١٥١).

أحدهما خالد بن الوليد وثانيهما عثمان بن أبي طلحة فرحّبا بي، وإذا هما يريدان الذي أريد فسرنا حتى قدمنا المدينة فأنخنا بالحرّة فلبسنا من صالح ثيابنا، ثمّ نودي بالعصر فانطلقنا حتى اطَّلعنا على النبيّ ﷺ وإنّ لوجهه تهلّلٌ والمسلمون حوله قد سرُّوا بإسلامنا، فتقدَّم خالد بن الوليد فبايع، ثمّ تقدَّم عثمان بن أبي طلحة، فبايع ثمّ تقدَّمت فوالله ما هو إلا أنْ جلست بين يديه ﷺ فما استطعت أن أرفع طرفي حياءً منه، فبايعته على أن يُغْفَر لي ما تقدَّم من ذنبي، ولم يحضرني ما تأخَّر، فقال ﷺ: «إنّ الإسلام يجبُّ ما كان قبله، والهجرة تجبُّ ما كان قبلها» فوالله ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في أمر حربه منذ أسلمنا.

ولقد كنا عند أبي بكر بتلك المنزلة، ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة، وكان عمر على خالد كالعاتب، ومن حين أسلم خالد لم يزل رسول الله ﷺ يوليه أعنة الخيل فيكون في مقدمها.

عمرة القضاء، ويقال لها: عمرة القضية

وسبب تسميتها بذلك: أنّ رسول الله ﷺ قاضى قريشاً عليها، أي: صالحهم عليها، ومن ثمّ قيل لها: عمرة الصّلح، ويقال لها: عمرة القصاص لأنها كانت في شهر ذي القعدة من السنة السابعة، وهو الشهر الذي صدَّه فيه المشركون عن البيت في سنة ست، وليست قضاء عن العمرة التي صُدّ عن البيت فيها، فإنها لم تكن فسدت بصدّهم له عن البيت، بل كانت عمرة تامَّة معدودة في عُمَرِه ﷺ التي اعتمرها بعد الهجرة، وهي أربعة: عمرة الحديبية، وعمرة القضاء، وعمرة الجِعِرَّانة لما قسم غنائم حنين، والعمرة التي قرنها ﷺ مع حجة الوداع بناء على ما هو الراجح من أنه كان قارناً.

وكون العمرة لا تفسد بالصدّ عن البيت إنما هو على ما يراه الإمام الشافعي رحمه الله تعالى، أما على رأي من يرى أن العمرة تفسد بالصدّ عنها، وأنه يجب قضاؤها وهو المنقول عن أبي حنيفة رضي الله عنه[1] فواضح أنها قضاء.

وهذه العمرة ليست من الغزوات، وإنما ذكرها البخاري فيها لأنه ﷺ خرج مستعداً بالسّلاح للمقاتلة خشية أن يقع من قريش غدر وليس من لازم الغزوة وقوع المقاتلة، ومن ثمّ قيل لها: غزوة الأمْن.

---

(١) انظر المبسوط: (١٠٧/٤)، وبدائع الصنائع: (١٧٨/٢).

خرج رسول الله ﷺ قاصداً مكة للعمرة على ما عاقد عليه قريشاً في الحديبية من أنه يدخل مكة في العام القابل معه سلاح المسافر ولا يقيم بها أكثر من ثلاثة أيام، وأمر ﷺ أن لا يتخلَّف عنه أحد ممن شهد الحديبية فلم يتخلَّف أحد إلا من استشهد بخيبر ومن مات.

وخرج معه ﷺ جمع ممن لم يشهد الحديبية، واستخلف ﷺ على المدينة أبا ذر الغفاري، وقيل: غيره، وساق ﷺ ستين بدنة وقلّدها لتُعلم أنها هدي، وجعل عليها ناجية بن جندب، وحمل ﷺ السّلاح والدروع والرّماح، وقاد مئة فرس، وجعل عليها محمّد بن مسلمة، وعلى السلاح بشير بن سعد، وأحرم ﷺ من باب المسجد، فلمّا انتهى إلى ذي الحليفة قدَّم الخيل أمامه، فقيل: يا رسول الله، حملت السّلاح، وقد شرطوا أن لا تدخلها عليهم بسلاح إلا سلاح المسافر السّيوف في القرب، فقال رسول الله ﷺ: «لا ندخل عليهم الحرم بالسّلاح، ولكن يكون قريباً منَّا، فإنْ هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريباً منا».

فمضى بالخيل محمد بن مسلمة فلمّا كان بمرِّ الظهران[1] وجد نفراً من قريش فسألوه فقال: هذا رسول الله ﷺ يصبح هذا المنزل غداً إن شاء الله تعالى ـ أي: وقد رأوا سلاحاً كثيراً ـ فخرجوا سراعاً حتى أتوا قريشاً فأخبروهم بالذي رأوا من الخيل والسّلاح ففزعت قريش وقالوا: والله ما أحدثنا حدثاً، وإنا على كتابنا ومدَّتنا، ففيم يغزونا محمّد في أصحابه.

ثمّ إن قريشاً بعثت مكرز بن حفص في نفر من قريش إليه ﷺ فقالوا: والله يا محمد ما عُرِفتَ صغيراً ولا كبيراً بالغدر تدخل بالسّلاح في الحرم على قومك، فقال ﷺ: «إني لا أدخل عليهم بسلاح»، فقال مكرز: هو الذي تعرف به البرُّ والوفاء، ثمّ رجع مكرز إلى مكة سريعاً، وقال: إنّ محمّداً لا يدخل بسلاح وهو على الشرط الذي لكم فحينئذ خرج كبراء مكة منها حتى لا يروه ﷺ يطوف بالبيت هو وأصحابه عداوة وبغضاً وحسداً لرسول الله ﷺ، فدخل رسول الله ﷺ وأصحابه مكة راكباً ناقته القصواء وأصحابه محدقون به قد توشّحوا بالسّيوف يلبون.

ثمّ دخل ﷺ من الثنية التي تطلعه على الحجون، وهي ثنية كداء ـ بالمدّ ـ وكان ﷺ إذا دخل مكة قال: «اللهم لا تجعل منيّتنا بها»، يقول ذلك من حين يدخل حتى

(١) تقدم الكلام على هذا المَعْلم.

يخرج منها، وجعل السلاح في بطن يَأْجَج[1]، وتخلَّف عنده جمع من المسلمين نحو مئتين من أصحابه ﷺ وأمّر رسول الله ﷺ عليهم أوس بن خولي، وقعد جمع من المشركين بجبل قيقعان[2] ينظرون إليه ﷺ وإلى أصحابه وهم يطوفون بالبيت وقد قالوا[3]: إنّ المهاجرين أوهنتهم ـ أي: أضعفتهم ـ حمَّى يثرب.

فأطْلَعَ اللهُ تعالى نبيّه ﷺ على مقالتهم، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوّة»، وأمر ﷺ أصحابه أنْ يرملوا الأشواط الثلاثة ليُروا المشركين أنّ لهم قوة فعند ذلك قال المشركون ـ أي: بعضهم لبعض: هؤلاء الذين زعمتم أنّ الحمّى قد أوهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا إنهم لينفرون ـ أي: يثبون ـ نفر الظبي ـ أي: الغزال. وإنما لم يأمرهم ﷺ بالرَّمَل في الأشواط كلها رفقاً بهم.

واضطبع ﷺ بردائه وكشف عضده اليمنى ففعل الصّحابة رضوان الله عليهم كذلك، ويروى أنّ عبد الله بن رواحة كان يرتجز في طوافه وهو آخذ بزمام ناقة النبيّ ﷺ بأبيات:

خلوا بني الكفار عن سبيله ... خلوا فكل الخير في رسوله
قد أنزل الرحمن في تنزيله ... بأن خير القتل في سبيله
فاليوم نضربكم على تأويله ... كما ضربناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... أو يذهل الخليل عن خليله

فقال عمر ﷺ: مه يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تعالى تقول الشعر!، فقال رسول الله ﷺ: «خلِّ يا عمر، فلهوَ أسرع فيهم من نضح النّبل».

وذكر أنه ﷺ قال: «إيهاً يا ابن رواحة، قل: لا إله إلا الله وحده»، فقالها ابن رواحة ﷺ وقالها الناس.

وطاف ﷺ على راحلته واستلم الحجر بمِحْجَنه، وذُكِرَ أنه ﷺ دخل البيت فلم يزل به حتى أذَّن بلال الظهر فوق ظهر الكعبة، وقيل: إنّ دخوله ﷺ داخل الكعبة

---

(١) وهو واد من أودية مكة شمال عمرة التنعيم، ووادي التنعيم يصبّ في يأجج، يقطعه الطريق إلى المدينة على عشرة أكيال من المسجد الحرام، يعرف اليوم باسم (ياج). انظر المعالم الأثيرة: (٢٩٧).

(٢) هو جبل مكة المشرف على المسجد الحرام من الشمال الغربي، يمتدّ بين ثنيتي كَداء وكُدي، ويشرف على وادي ذي طوى غرباً، ولا يعرف اليوم بهذا الاسم، ولكل جهة منه اسم جديد، منها: العبّادي، والسليمانية، وجبل هندي، وجبل الفلق.. انظر المرجع السابق: (٢٢٧).

(٣) أي: كفار مكة. مؤلف.

وأذان بلال فوق ظهرها كان يوم الفتح.

ثمّ سعى رسول الله ﷺ بين الصّفا والمروة وأوقف الهدي عند المروة، وقال ﷺ: «هذا المنحر، وكلّ فجاج مكة منحر»، فنحر ﷺ عندها، وكان هديه ﷺ ستين بدنة كما تقدم.

وحلق ﷺ رأسه، قال في الإمتاع: حلق رأسَه الشريف معتمرُ بن عبد الله العدوي، وفعل كفعله المسلمون، ومن لم يجد منهم بدنة رخص له في البقرة، وكان قدم رجلٌ مكة ببقر فاشتراه الناس منه، وأمر ﷺ من تحلل أن يذهب إلى السّلاح ويأتي آخرون فيقضوا نسكهم ففعلوا.

وتزوج رسول الله ﷺ ميمونة قبل إحرامه، أو بعد تحلُّله، أو حال إحرامه، وبه استدلت الحنفية على صحّة نكاح المحرم، ولما انتهت إليها خطبة النبيّ ﷺ كانت على بعيرها فقالت: البعير وما عليه لله تعالى ولرسوله ﷺ، ومن ثمّ قيل: إنها التي وهبت نفسها للنبيّ ﷺ وأصدقها رسول الله ﷺ أربعمئة درهم بعد أنْ جعلت أمرها لأختها أم الفضل زوج العباس عمّ النبيّ ﷺ.

وأقام ﷺ وأصحابه ثلاثة أيام بمكة، فلما تمَّت الثلاثة التي هي مدَّة الصّلح جاء حويطب بن عبد العزَّى ومعه سهيل بن عمرو رضي الله عنهما ـ فإنهما أسلما بعد ذلك ـ إلى رسول الله ﷺ يأمرانه بالخروج هو وأصحابه من مكة فقالا: ننشدك الله والعقد إلا خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاثة.

وأراد ﷺ أن يبني بميمونة في مكة فلم يمهلوه حتى يبني بها، وقد قال لهم: «ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم فصنعت لكم طعاماً»، فقالوا: لا حاجة لنا في طعامك، اخرج عنَّا من أرضنا هذه الثلاثة قد مضت، وكان ﷺ يتحدَّث مع سعد بن عبادة ﷺ، فصاح حويطب: ناشدتك الله والعقد إلا خرجت من أرضنا، فقد مضت الثلاثة، فحينئذ غضب سعد بن عبادة لما رأى من غلظ كلامهم للنبيّ ﷺ فقال: كذبتَ لا أمَّ لك، ليست بأرضك ولا أرض آبائك يا عاضَّ بظر أمِّه، والله لا يخرج منها إلا طائعاً راضياً، فتبسَّم رسول الله ﷺ وقال: «يا سعد لا تؤذ قوماً زارونا في رحالنا»، وأسكت ﷺ الفريقين، ثمّ أمر رسول الله ﷺ أبا رافع أن ينادي الناس بالرّحيل وأن لا يمسي بها أحد من المسلمين، وخلَّف ﷺ أبا رافع ليأتي له بميمونة حين يمسي، فخرج ﷺ ولقيتْ ميمونة وأبو رافع عناء من سفهاء مكة من أذى ألسنتهم للنبيّ ﷺ

ولميمونة، فقال لهم أبو رافع: ما شئتم، هذه والله الخيل والسّلاح ببطن ياجج وأنتم تريدون نقض العهد فولّوا راجعين منكشفين عنهم.

وأقام ﷺ بسَرِف[1] وفيه دخل ﷺ بميمونة تحت شجرة هنالك، ودفنت ميمونة هناك حين موتها. فإنها لما ثقل عليها المرض بمكة قالت: أخرجوني فإنّ رسول الله ﷺ أخبرني أني لا أموت بمكة فحملوها فماتت ودفنت في ذلك الموضع وهي آخر امرأة تزوَّجها رسول الله ﷺ، وآخر من توفي من أزواجه ﷺ.

ولما خرج رسول الله ﷺ من مكة تبعته عمارة بنت حمزة وكانت مع أمها سلمى بنت عميس بمكة تنادي: يا عمّ يا عمّ فتناولها عليٌّ رضي الله عنه وأخذها بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنة عمِّك، وروي أنه لما وصلت المدينة اختصم فيها علي وجعفر وزيد بن حارثة، فقال زيد: أنا أحقّ بها لأنها ابنة أخي، وأنا وصيه، لأنه ﷺ آخى بين حمزة وزيد، وجعل حمزةُ زيداً وصيه. وقال عليٌّ: أنا أحقّ بها، لأنها ابنة عمِّي وجئت بها من مكة، وقال جعفر: أنا أحقّ بها إنها ابنة عمي وخالتها تحتي[2]، فقضى بها رسول الله ﷺ لجعفر، وقال ﷺ لجعفر: «الخالة بمنزلة الأم»[3].

سرية سعيد بن زيد رضي الله عنه

وقيل: كرز بن جابر، وقيل: جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنهما إلى العُرَنيين[4].

وسببها: أنه قدم على رسول الله ﷺ نفر مسلمين[5]، وكانوا مجهدين، وقد كادوا يهلكون لشدة هزالهم وصفرة ألوانهم وعظم بطونهم، وقالوا: يا رسول الله، آونا وأطعمنا، فأنزلهم ﷺ عنده بالصّفة، ثمّ قال لهم[6]: «لو خرجتم إلى ذود لنا[7] فشربتم

---

(١) تقدم الكلام عنه.

(٢) وهي أسماء بنت عميس رضي الله عنها.

(٣) انظر زاد المعاد: (٣/٣٣١)، وسبل الهدى والرشاد: (٥/١٩٥).

(٤) العرنيّون: هم أبناء عرينة بن النذير أو بنو عرينة بن ربيعة بن نذير، لأنهما عرينتان، وأحدهما عمّ الآخر. انظر الروض الأنف: (١/٤١)، ومعجم البلدان: (٢/١٠٤).

(٥) قيل: كانوا ثملانية من عرينة، وقيل: أربعة من عرينة، وثلاثة من عكل، والثامن من غيرهما. مؤلف.

(٦) قال لهم هذه المقالة بعد أنْ ذكروا له ﷺ أنّ المدينة وبيّة ـ أي: ذات وباء ـ وأنّهم أهل ضرع ولم يكونوا أهل ريف. مؤلف.

(٧) أي: لقاح لنا، وكانت خمس عشرة. مؤلف.

من ألبانها وأبوالها»[1] ففعلوا ذلك، ثمّ لما صحَّت أجسامهم كفروا بعد إسلامهم وقتلوا راعيها[2]، ومثَّلوا به[3]، واستاقوا اللقاح، فبلغ النبيَّ ﷺ الخبر، فبعث ﷺ في آثارهم عشرين فارساً، واستعمل عليهم سعيد بن زيد، وأرسل معهم من يقصّ آثارهم فأدركوهم، فأحاطوا بهم فأسروهم ودخلوا بهم المدينة، فأمر بهم رسول الله ﷺ فقطّعت أيديهم وأرجلهم، وسُمِلَتْ أعينهم[4] وألقوا بالحرة ـ وهي أرض ذات حجارة سود ـ يستسقون فلا يسقون، قال أنس ﷺ: ولقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه من العطش ليجد بردها لما يجد من العطش حتى ماتوا على حالهم. وأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم ...﴾[5] الآية.

ولم يقع بعد ذلك أنه ﷺ سَمَل عيناً، قيل: لأنه حرّمت المثلة، وقيل: هي محرمة قبل ذلك لكنّه ﷺ فعل بهم ما ذكر نظير ما فعلوه براعيه ﷺ، وذلك لا يضر[6]. ثمّ إنه ﷺ فقد ناقة من اللقاح تدعى الحَنَّاء فسأل ﷺ عنها فقيل: نحروها[7].

سرية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ إلى هوازن

بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ في ثلاثين رجلاً إلى عَجُزِ هوازن بتُرَبَةَ[8]، وأرسل معه دليلاً من بني هلال، وكان يسير الليل ويكمن النهار، فأتى الخبر لهوازن فهربوا، فجاء عمر محالهم فلم يجد منهم أحداً فانصرف راجعاً إلى المدينة، فلمّا كان بمحلّ بينه وبين المدينة ستة أميال قال له الدليل: هل لك في جمع آخر من

---

(١) أي: لأنّ في اللقاح تليناً وإدراراً وتفتيحاً للسّدد والاستسقاء، وعظم البطن إنما ينشأ عن السّدد وآفة في الكبد، ومن أعظم ما ينفع الكبد لبن اللقاح لا سيما إن استعمل بحرارته التي يخرج بها من الضرع مع بول الفصيل مع حرارته التي يخرج بها.

(٢) وهو يسار مولى لرسول الله ﷺ. مؤلف.

(٣) قطعوا يديه ورجليه وغرزوا الشوك في لسانه وعينيه حتى مات. مؤلف.

(٤) فقئت أعينهم بحديدة محماة بالنار أو غيرها، وقيل: سَمْل الأعين فقؤها بالشوك وهو بمعنى السَّمر. انظر النهاية في غريب الحديث: (١/١٠٠٢).

(٥) المائدة: ٣٣.

(٦) انظر الروض الأنف: (١/٣٠٦).

(٧) انظر عيون الأثر: (٢/١٣١).

(٨) تربة: هو واد من أودية الحجاز الشرقية، ذو مياه وزروع وقرى. انظر المعالم الأثيرة: (٧٢).

خثعم؟، فقال عمر: لم يأمرني رسول الله ﷺ بهم، إنما أمرني بقتال هوازن.

سرية أمير المؤمنين أبي بكر الصّديق رضي الله عنه إلى بني كلاب

عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه وأمَّره علينا فسبى ناساً من المشركين فقتلناهم، فقتلت بيدي سبعةً أهل أبيات من المشركين.

سرية بشير بن سعد الأنصاري رضي الله عنه إلى بني مرة بفدك

بعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد في ثلاثين رجلاً إلى بني مرَّة بفدك[1]، فخرج رضي الله عنه فلقي رعاة الشاء فسأل عن الناس فقيل: في نواديهم فاستاق النعم والشاء وانحدر إلى المدينة فخرج الصّريخ إليهم، فأدركه منهم العدد الكثير عند الليل فباتوا يرمونهم بالنبل حتى فني نبل أصحاب بشير، فلما أصبحوا حملوا على بشير وأصحابه فقتلوا من قتلوا وولَّى من تولَّى منهم، وقاتل بشير قتالاً شديداً حتى ارتثَّ ـ أي: جرح حتى أثخنته الجراح ـ وضربوا كعبه اختباراً لحياته فلم يتحرك، فقيل: أنه مات ورجعوا بنعمهم وشائهم، ووصل الخبر إلى النبيّ ﷺ، ثمّ جاء بشير بعد ذلك إلى المدينة لأنه استمر بين القتلى حتى جاء الليل فلما أمسى تحامل حتى انتهى إلى فدك فأقام عند يهودي بفدك أياماً حتى قوي على المشي وجاء إلى المدينة.

سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه إلى بني عوال وبني عبد الله بن ثعلبة بالميفعة[2]

بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثي في مئة وثلاثين رجلاً إلى بني عوال وبني عبد الله بن ثعلبة بالميفعة، ودليلهم يسار رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ فهجموا عليهم جميعاً ووقعوا في وسط محالهم فقتلوا جمعاً من أشرافهم واستاقوا نعماً وشاءً ولم يأسروا أحداً.

وفي هذه السرية قَتَلَ أسامة بن زيد رضي الله عنه الرجل الذي قال: لا إله إلا الله، وهو مرداس بن نهيك، وعن أسامة رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرَقة من جهينة فصبّحناهم، وفيها رجل يدعى مرداس بن نهيك إذا أقبل القوم كان من أشدّهم علينا، وإذا أدبروا كان حاميهم، فهزمناهم، فتبعته أنا ورجل من الأنصار فرفعت عليه السيف

---

(١) أي: بالقرب منها أو بأرضها. مؤلف.

(٢) الميفعة: اسم مكان وراء بطن نخل. مؤلف.

فقال: لا إله إلا الله، وزاد في رواية: محمد رسول الله، فكفَّ الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، ثمّ إني وجدت في نفسي من ذلك موجدة عظيمة حتى كنت ما أقدر على أكل الطعام، فلما قدمت على رسول الله ﷺ قبّلني واعتنقني، قال بعضهم: وكان رسول الله ﷺ إذا بعث أسامة ؓ يسأل عنه أصحابه، ويحب أن يثنى عليه خيراً، فلمّا رجعوا لم يسألهم رسول الله ﷺ عنه، فجعل القوم يحدِّثون رسول الله ﷺ ويقولون: يا رسول الله، لو رأيت ما فعل أسامة لقيه رجل، فقال الرجل: لا إله إلا الله فشدَّ عليه أسامة فقتله، وهو ﷺ يُعرض عنهم، فلمّا أكثروا عليه رفع رأسه الشريف ﷺ، وقال لأسامة: «يا أسامة، قتلته بعدما قال لا إله إلا الله، كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟»، فقال أسامة ؓ: إنما قالها خوفاً من السلاح، وفي رواية: إنما كان متعوِّذاً من القتل، فقال له النبيّ ﷺ: «هلَّا شققت عن قلبه، فتعلم أصادق هو أم كاذب؟»، قال أسامة ؓ: يا رسول الله، استغفر لي، فقال ﷺ: «فكيف بلا إله إلا الله؟!!»، ولا زال ﷺ يكرر عَلَيَّ حتى تمنَّيت أني لم أسلم إلا قبل ذلك اليوم[1]. ثمّ أمر رسول الله ﷺ أسامة أنْ يعتق رقبة كفّارة لأنّه قتل خطأ.

سرية بشير بن سعد الأنصاري ؓ إلى يَمن وجَبار (وادٍ قريب من خيبر)

لما بلغ رسولَ الله ﷺ أنّ جمعاً من غطفان قد واعدهم عيينة بن حصن قبل إسلامه ليكون معهم على رسول الله ﷺ، دعا رسول الله ﷺ بشير بن سعد فعقد له لواء وبعث معه ثلاثمئة رجل فساروا الليل وكمنوا النهار حتى أتوا المحل المذكور، فأصابوا نعماً كثيرة، وتفرَّق الرِّعاء وذهبوا إلى القوم فأخبروهم، فتفرَّقوا ولحقوا بعَلْيا بلادهم، فلم يظفر بأحد منهم إلا برجلين أسرهما، فرجع بالنَّعم والرجلين إلى المدينة، فأسلم الرجلان، فأرسلهما ﷺ.

سرية ابن أبي العوجاء السلمي إلى بني سليم

بعث رسول الله ﷺ ابن أبي العوجاء السّلمي في خمسين رجلاً إلى بني سليم فكان لهم جاسوس مع القوم، فخرج إليهم وسبق القوم فحذَّرهم فجمعوا لهم جمعاً كثيراً، فجاؤوهم وهم معدون لهم، فدعوهم للإسلام فقالوا: أيُّ حاجة لنا لما تدعونا

---

(١) أي: ليخلص من جريرة هذا الفعل، وذلك لأنّ الإسلام يجبّ ما قبله، والحديث أخرجه البخاري في المغازي برقم: (٤٢٦٩).

إليه؟، فقاموا فتراموا ساعة بالنّبل وجعلت الأمداد تأتيهم حتى أحدقوا بالمسلمين من كلّ ناحية فقاتل المسلمون قتالاً شديداً حتى قتل عامَّتهم، وأصيب ابن أبي العوجاء جريحاً مع القتلى، ثمّ تحامل حتى أتى رسول الله ﷺ.

وفي السنة الثامنة بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثي في بضعة عشر رجلاً إلى بني المُلَوِّح بالكديد وأمرهم رسول الله ﷺ أن يشنوا الغارة على القوم ـ أي: بني المُلَوِّح ـ بالكديد[1] فخرجوا حتى إذا كانوا بالكديد لقوا الحارث الليثي فأسروه فقال: إنما خرجت إلى رسول الله ﷺ أريد الإسلام، فقالوا له: إن كنت مسلماً لم يضرّك ربطنا لك يوماً وليلة، وإن كنت غير ذلك استوثقنا منك فشدّوه وثاقاً وخلفوا عنده سويد بن صخر، وفي لفظ: خلفوا عليه رجلاً أسود منهم[2]، وقالوا له: إنْ نازعك فاحتزَّ رأسه، وساروا حتى أتوا محلّ القوم عند غروب الشمس، فكمنوا في ناحية الوادي، قال جندب الجهني ﷺ: وأرسلني القوم جاسوساً لهم، فخرجت حتى أتيت تلًّا مرتفعاً مشرفاً على الحاضر ـ أي: القوم المقيمين بمحلّهم ـ فلما استويت على رأسه انبطحت عليه لأنظر، إذ خرج رجل منهم فقال لامرأته: إني لأنظر على هذا الجبل سواداً ما رأيته قبل، انظري إلى أوعيتك لا يكون الكلاب جرت منها شيئاً فنظرتْ فقالت: والله ما فقدت من أوعيتي شيئاً، فقال: ناوليني قوسي ونبلي فناولته قوسه وسهمين، فأرسل سهماً، فوالله ما أخطأ بين عيني فانتزعته وثبتّ مكاني، ثمّ أرسل آخر فوضعه في منكبي فانتزعته وثبتّ مكاني، فقال لامرأته، والله لو كان جاسوساً لتحرَّك، لقد خالطه سهمان لا أبا لك، فإذا أصبحتِ فانظري سهماي لا يمضغهما الكلاب، ثمّ دخل، فلمّا اطمأنوا وناموا شنَّينا عليهم الغارة واستقنا النعم والشاء بعد أن قتلنا المقاتلة وسبينا الذرية، ثمّ إنهم رجعوا ومرّوا على الحارث الليثي فاحتملوه واحتملوا صاحبهم الذي تركوه عنده، فخرج صريخ القوم في قومهم، فجاء ما لا قبل لنا به، فصار بيننا وبينهم الوادي، فأرسل الله سحاباً أمطر الوادي ما رأينا مثله، فسال الوادي بحيث لا يستطيع أحد أن يجوزه، فصاروا وقوفاً ينظرون إلينا ونحن متوجهون إلى أن قدمنا المدينة.

---

(١) الكديد: يُعرف اليوم باسم (الحَمض): أرض بين عسفان وخليص على مسافة (٩٠) كيلاً من مكة على طريق المدينة. انظر المعالم الأثيرة: (٢٣١).

(٢) يسمى سويد بن منحر. انظر سبل الهدى والرشاد: (٦/١٣٧).

سرية غالب بن عبد الله الليثي ﷺ إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد في بني مرة بقرب فدك

لما قدم غالب من الكديد مؤيداً منصوراً بعثه رسول الله ﷺ في مئتي رجل إلى حيث أصيب أصحاب بشير بن سعد ﷺ وذلك في بني مرة بقرب فدك، وكان ﷺ قبل قدوم غالب هيأ الزبير لذلك وعقد له لواء، فلمّا قدم غالب قال ﷺ للزبير: «اجلس» فسار غالب ﷺ إلى أن صبّح القوم فأغاروا عليهم.

وكان غالب ﷺ قد أوصاهم بعدم مخالفتهم له، وآخى بين القوم، ولما دنا غالب منهم ليلاً قام فحمد الله سبحانه وتعالى وأثنى عليه بما هو أهله، ثمّ قال: أما بعد: فإني أوصيكم بتقوى الله لا شريك له وأن تطيعوني ولا تخالفوا لي أمراً، فإنه لا رأي لمن لا يُطاع، وفي رواية: لا تعصوني، فإنّ رسول الله ﷺ قال: «من أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصاه فقد عصاني» إلى أن ألَّف بين القوم، فقال: يا فلان، أنت وفلان، ويا فلان، أنت وفلان، لا يفارق رجل منكم زميله، فإياكم أنْ يرجع الرجل منكم، فأقول له: أين صاحبك؟، فيقول: لا أدري، فإذا كبّرت فكبِّروا، فلمّا أحاطوا بالقوم كبَّر غالب ﷺ وكبَّروا معه، وجرّدوا السيوف فخرج الرجال فقاتلوا ساعة ووضع المسلمون فيهم السيوف، وكان شعار المسلمين (أَمِت أَمِت)، وساق المسلمون النعم والشاء والذرية فكان سهم كل رجل عشرة أبعرة، وعُدِل البعير بعشرة من الغنم.

سرية شجاع بن وهب الأسدي ﷺ إلى بني عامر

بعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب ﷺ في أربعة وعشرين رجلاً إلى جمع من هوازن يقال لهم: بنو عامر، وأمره رسول الله ﷺ أن يُغِير عليهم فكان يسير بالليل ويكمن بالنهار حتى صبّحهم وهم غافلون، وقد نهى أصحابه ﷺ أن يمعنوا في الطلب، فأصابوا نعماً وشاء، واستاقوا ذلك حتى قدموا المدينة، فكان سهم كلّ رجل منهم خمسة عشر بعيراً، وعُدِل البعير بعشرة من الغنم.

سرية كعب بن عمير الغفاري ﷺ إلى ذات أطلاح

بعث رسول الله ﷺ كعب بن عمير الغفاري ﷺ إلى ذات أطلاح من أرض الشام وراء وادي القرى في خمسة عشر رجلاً فوجدوا جمعاً كثيراً، فلمّا وصل المسلمون إليهم دعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا، ورشقوهم بالنَّبل، فقاتلهم المسلمون أشدَّ

القتال حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن عمير، فإنه ظُـنَّ قتلـه، فلمّـا أمـسى تحامـل حتى أتى رسول الله ﷺ فشقّ ذلك عليه ﷺ، فهمَّ بالبعث إليهم، فبلغه أنهم ساروا إلى محل آخر فتركهم.

سرية عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى ذات السلاسل (وهي وراء وادي القرى)

بلغ رسول الله ﷺ أنّ جمعاً من قضاعة تجمعوا يريدون المدينة، فدعا رسول الله ﷺ عمرو بن العاص رضي الله عنه، وذلك بعد إسلامه بسنة، وعقد له لواء أبيض، وجعل معـه راية سوداء، وبعثه في ثلاثمئة من سَرَاة المهـاجرين والأنـصار ومعهـم ثلاثـون فرسـاً، وأمره أن يستعين بمن يمرّ عليهم، فسار الليل وكمن النهار حتى قَرُب من القوم، فبلغه أنّ لهم جمعاً كثيراً فبعث رافعَ بن كعب الجهـني إلى رسـول الله ﷺ ليـستمدّه، فبعـث ﷺ إليه أبا عبيدة بن الجراح في مئتين من سَرَاة المهاجرين والأنـصار: منـهم أبـو بكـر وعمر رضي الله عنهما، وعقد له لواء، وأمره أن يلحق بعمرو، وأن يكونـا جميعـاً ولا يختلفا، فلحقوا بعمرو قبل أنْ يصل إلى القوم، فأراد أبو عبيدة أن يـؤمَّ النـاس، فقـال عمرو بن العاص: إنما قَدِمْتَ عليَّ مدداً لي، وليس لك أن تؤمني وأنـا الأمـير، فقـال جمع من المهاجرين لعمرو بـن العـاص: كـلا بـل أنـت أمـير أصـحابك، وهـو أمـير أصحابه، فقال عمرو: لا، أنتم مدد لنا، فلمّـا رأى أبـو عبيـدة رضي الله عنه الاخـتلاف، قـال: لتعلم يا عمرو أنّ آخر شيء عهد إليَّ رسول الله ﷺ أن قال: إذا قدمتَ علـى صـاحبك فتطاوعا ولا تختلفا، وإنك والله إنْ عصيتني لأطيعنَّك، قال عمرو: فإني الأمير عليك، وأنت مددي، قال أبو عبيدة: فدونك، فكان عمرو رضي الله عنه يصلّي بالنّاس.

ورأوا جمعاً كثيراً، فحمل المسلمون عليهم فتفرقوا، وأراد المسلمون أن يتبعوهم، فمنعهم عمرو رضي الله عنه عن ذلك، وأرادوا أن يوقدوا ناراً ليصطلوا عليها من البرد، فمـنعهم عمرو أيضاً؛ وقال: كلّ رجل أوقد ناراً لأقذفنَّه فيها، فشقَّ عليهم ذلك لما هم فيه مـن شدّة البرد، فكلّمه بعض سراة المهاجرين في ذلك، فغالظه عمرو في القول، وقال له: قد أُمِرت أن تسمع لي وتطيع؟، قال: نعم، قال: فافعل.

ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه غضب، وهمَّ أن يأتيه، فمنعه أبو بكـر رضي الله عنه، وقال: إنّ رسول الله ﷺ لم يستعمله إلا لعلمـه بـالحرب، فـسكت، واحـتلم عمـرو رضي الله عنه، وكانت تلك الليلة شديدة الـبرد جـدًّا، فقـال لأصـحابه: تـرون قـد والله احتلمـت، فـإنِ

اغتسلتُ متُّ، فدعا بماء فغسل فرجه، وتوضَّأ وتيمَّم، قيل: تمعَّك في التراب كلّ بدنه، فلمّا بلغ الخبر إلى النبيّ ﷺ قال: «كان يكفيه ضربتان: ضربة للوجه وضربة لليدين».

ثمّ إنَّ عَمْراً ؓ بعد ذلك قام وصلّى بالنّاس، ثمّ بعث عمرو ؓ عوف بن مالك ؓ مبشِّراً للنبيّ ﷺ بقدومهم وسلامتهم، قال عوف بن مالك ؓ: جئته ﷺ، وهو يصلي في بيته، فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فقال ﷺ: «عوف بن مالك؟»، فقلت: نعم بأبي وأمي يا رسول الله، قال: «أخبرني»، فأخبرته بما كان من مسيرنا وما كان بين أبي عبيدة بن الجراح وبين عمرو، ومطاوعة أبي عبيدة لعمرو، فقال ﷺ: «يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح»، وأخبرته بمنع عمرو للمسلمين من اتباع العدو ومن إيقاد النار ومن صلاته بأصحابه وهو جنب، فلمّا قدم عمرو على النبيّ ﷺ كلَّمه ﷺ في ذلك، فقال: كرهتُ أن يوقدوا ناراً فيرى عدوّهم قلّتهم، وكرهت أنْ يتبعوهم فيكون لهم مدد فيعطفون عليهم، فحمد رسول الله ﷺ أمره.

قال عمرو: سألني رسول الله ﷺ عن صلاتي فقال ﷺ: «يا عمرو، صلّيت بأصحابك، وأنت جنب؟»، فقلت: والذي بعثك بالحق، إني لو اغتسلت لمتُّ لأني لم أجد برداً قطّ مثله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[1] فضحك ﷺ.

سرية الخبط وهو ورق السَّلَم

بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح ؓ في ثلاثمئة رجل من المهاجرين والأنصار فيهم عمر بن الخطاب ؓ إلى حَيٍّ من جهينة في ساحل البحر وقال له: «أُرْصُدْ عير قريش» فأقاموا بالساحل شهراً فأصابهم جوع شديد حتى أكلوا الخبط، كانوا يبلونه بالماء ثمّ يأكلونه حتى تقرَّحَتْ أشداقهم، فإنَّ أبا عبيدة ؓ كان يُعْطِي الواحد منهم في اليوم والليلة تمرةً واحدةً يَمُصُّها، ثمّ يَصُرّها في ثوبه.

وعن الزبير ؓ أنه قيل له: كيف كنتم تصنعون بالتمرة الواحدة؟، قال: نمصُّها كما يمصُّ الصّبيُّ ثَدْيَ أُمِّه، ثمّ نشرب عليها الماء فتكفينا يومنا إلى الليل.

وإنه ﷺ زوَّدَهم جراباً من تمر فجعل أبو عبيدة ؓ يقوتهم إياه حتى صار يَعُدُّهُ لهم عدًّا حتى كان يُعْطِي الواحد منهم تمرة كلّ يوم، ثمّ بعد فناء التمر أكلوا الخبط، وقال قائلهم: والله لو لقينا عدوّنا ما كان منّا حركة إليه، لِماَ نالنا مِنَ الجهد، فقيل: ما

---

(١) البقرة: ١٩٥.

تُغْنِي عنكم التمرةُ؟، فقال: لقد وجدنا فقدها حِينَ فَنِي التّمر، ولما رأى قيسُ بنُ سعد ابن عُبادةَ رضي الله عنهما ما بالمسلمين من جهد الجوع، قال: من يشتري مني تمراً أوفيه له بالمدينة بِجُزُر[1] يوفيها لي هنا؟ فقال رجل من أهل الساحل أنا أفعل، لكنْ والله ما أعرفك، فمن أنت؟، قال: أنا قيسُ بن سعد بن عبادة، فقال له الرجل: ما أعْرَفَني بسعد إنّ بيني وبين سعد لخلَّة، سيد أهل يثرب، فاشترى منه خمس جزر، كلّ جزور بوسق تمرٍ، فقال له الرجل: أَشْهِدْ لي، فقال: أَشْهِدْ مَنْ تحب، فأشهدَ نفراً من المهاجرين والأنصار، من جملتهم: عُمر بن الخطاب ﷺ، وأخذ قيس الجزر، فنحر لهم منها ثلاثةً في ثلاثة أيام، وأراد أن ينحر لهم في اليوم الرابع فنهاه أبو عبيدة ﷺ، وقال له: عَزمْتُ عليك أن لا تنحر أتُرِيد أن تخفر ذمَّتك، ولا مال لك، فقال له قيس: أترى أنَّ أبا ثابت ـ يعني والده سعداً ـ يقضي ديون الناس ويُطْعِمُ في المجاعة ولا يقضي ديناً استدنته لقوم مجاهدين في سبيل الله، وفي البخاري[2]: إنَّ قيساً ﷺ نحر لهم تسع جُزر كلّ يوم ثلاثاً، ثمّ نهاه أبو عبيدة ﷺ.

ثمّ إنّ البحر ألقى لهم دابة هائلةً يقال لها: العنبر، وكانت هذه الدابّة من الضخامة والعظم بحيث أن أبا عبيدة ﷺ نصب ضِلعاً من أضلاعها ومَرَّ تحته أطولُ رجل في القوم وهو قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما راكباً على أطول بعيرٍ ولم يطأطئ رأسَه[3].

وعن جابر ﷺ أنه قال: دخلنا خمسة في عينها فلم يرنا أحد، وفي لفظ: وقعد أبو عبيدة ﷺ وثلاثة عشر رجلاً في وقب[4] عينها[5].

وكان المسلمون ثلاثمئة مع أبي عبيدة ﷺ فأكلوا منها نحو شهر، وعن بعضهم: لمَّا تقرَّحت أشداقنا من الخبط انطلقنا على ساحل البحر فدفع لنا كهيئة الكثيب الضخم فأتيناه فإذا هي تُدْعَى العنبر، فقال أبو عبيدة: ميتة، ثمّ قال: لا، بل نحن رسل رسول

---

(١) الجُزُر: جمع جزور، والجزور اسم يقع الأنثى والذكر من الإبل. انظر الصّحاح للجوهري، مادة: جزر.

(٢) انظره في صحيحه برقم: (١٥٨٥ ـ ٥١٧٥).

(٣) هو هنا بالمعنى، لكن رواه البخاري في صحيحه برقم: (١٥٨٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٤) أي: محجر العين.

(٥) رواه مسلم في صحيحه برقم: (١٩٣٥)، وسنن أبي داود برقم: (٣٨٤٠)، وابن حبان في صحيحه برقم: (٥٢٦٠).

الله ﷺ، وفي سبيل الله وقد اضْطُرِرْتُمْ فكلوا، فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلاثمئة حتى سمنّا، ولقد رأيْتُنَا نغْتَرِفُ من وقب عينها الدّهنَ بالقُلال وصحبوا من لحمها إلى المدينة، قال جابر ﷺ: فلمّا قدمنا المدينة ذكرْنَا لرسول الله ﷺ أمْرَ العنبر فقال: «رزق أخرجه الله تعالى لكم، لعل معكم من لحمها شيئاً فتطعمونا» فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله[1].

وسمِّيت هذه الدابة بالعنبر لأنها تأكله، فعن الإمام الشافعي ﷺ قال: سمعت من يقول: رأيت العنبر نابتاً في البحر ملتوياً مثل عنق الشاة. وقيل: إنّ أصله نبت في البحر وله رائحة ذكية وفي البحر دويبة تقصده لذكاء رائحته وهو سمها فتأكله فيقتلها، فيلفظها البحر، فيخرج العنبر من جوفها[2].

وقيل: العنبر اسم لنوع هذه الدابة الهائلة.

وروي أن جملاً مات على ساحل البحر فأُلْقِي في البحر فجاءت سمكة فابتلعتْه فبينما أخفافُهُ بفمها إذا جاءت سمكة أخرى ابتلعت الأولى كلَّها وذهبت.

وفي زمن الحاكم بأمر الله وجدت سمكة بدمياط طولها مئتي ذراعٍ، وعرضها مئة وستون ذراعاً، وكان يقف في قحفها خمسة رجال بالمجارف يجرفون الشحم، وأقام أهل دمياط يأكلون من لحمها نحو خمسة أشهر.

ولما بلغ سعد بن عبادة ﷺ ما حصل للمسلمين من المجاعة قبل قدومهم قال إن يكن قيس ـ يعني ولدَه ـ كما أعْهَدُ، فلينحر للقوم، فلما قَدِمَ قيس قال له سعد: ما صنعتَ في مجاعة القوم؟ قال: نحرتُ لهم، قال: أصَبْتَ، قال: ثمّ ماذا؟، قال: نحرتُ، قال: أصبت، قال: ثمّ ماذا؟ قال: نحرتُ، قال: أصبت، قال: ثمّ ماذا؟ قال: نُهِيْتُ، قال: ومن نهاك؟ قال: أميري أبو عبيدة، قال: ولِمَ؟ قال: زعم أنه لا مال لي أنما مال أبيك، فقلتُ له: أبي يقضي عن الأباعد ويحملُ الكَلَّ ويطعم في المجاعة ولا يصنع هذا لي!! فأبى إلا التصميمَ على المَنْعِ، فقال سعدُ لولدِهِ قيس: لك أربع حوائط ـ أي: بساتين ـ أدناها ما يتحصّل منه خمسون وسقاً.

ثمّ إنّ قيساً وفَّى صاحب الجُزر وحمله ـ أي: أعطاه ما يركبه ـ وكساهُ فبلغ النبيّ ﷺ ما فعل قيس، فقال ﷺ: «إنه في بيت جود، إنّ الجود لَمِنْ شِيمَةِ أهل ذلك البيت».

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم: (١٩٣٥).

(٢) انظر حياة الحيوان للدميري: (٢/٧٢).

ومن ثمّ قيل: لم يكن في الأوس مطعمون يتوالدون في بيت واحد إلا قيس، وأبوه سعد، وأبوه عبادة، وأبو دُلَيْم كان في كلِّ يوم يقف شخص على أطم ينادي: مَنْ يريدُ اللَّحمَ والشَّحْم، فعليه بدار أبي دُلَيْم.

وكان أصحابُ الصّفَّة إذا أمْسَوْا انطلق الرجلُ بالواحدِ، والرجلُ بالاثنين، والرجلُ بالجماعة، وأما سعد ﷺ فينطلق بالثمانين، وقال عمّ سعد بن عبادة ﷺ: زارنا النبيّ ﷺ في مَنْزلنا فقال: «السلام عليكم ورحمةُ الله، ثمّ رفع يديه، وقال: اللهم اجعل صَلَوَاتِكَ ورحمتك على آل سعد بن عُبادةَ».

سرية أبي قتادة ﷺ إلى غطفان أرض محارب

بعث رسول الله ﷺ أبا قتادة في خمسة عشر رجلاً إلى غطفان، وأمَرَه أن يَشِنَّ الغارة عليهم، فصار يسير الليل ويكمن النهار حتى هجم عليهم وأحاط بهم، وقتلوا من أشرافهم واستاقوا الإبل والغنم، كانت الإبلُ مئة بعيرٍ، والغنمُ ألْفي شاة، وسَبوْا سبْياً كثيراً، فأصاب كلّ رجل بعد إخراج الخمس اثنا عشر بعيراً، وعُدِل البعير بعشرة من الغنم، ووقع في سهم أبي قتادة ﷺ جارية حسناءُ وَضيئة، فاستوهبها النبيّ ﷺ منه فوهبها له، ثمّ وهبها النبيّ ﷺ لشخص كان وعده بجارية من أول فيء يُفيءُ الله به عليه، فجاء ذلك الشخصُ إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إنّ أبا قتادة قد أصابَ جاريةً وضيئةً، وقد كنتَ وعدتني جارية من أول فَيْءٍ يُفِيءُ الله به عليك، فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي قتادة فوهبها له.

سرية عبد الله بن حَدْرَدْ الأسلمي ﷺ إلى الغابة (وهي الشجرُ المُلْتفُّ)

قال عبد الله المذكور: تزوجتُ امرأة من قَوْمي فجئت رسول الله ﷺ استَعينه على ذلك فقال ﷺ: «كم أصْدَقْتَ؟»، قلت: مئتي درهم، فقال ﷺ: «سبحان الله، لو كنتم تأخذون الدراهم من بطن واديكم هذا»، وفي لفظ: «لو كنتم تغترفونها من ناحية بطحان ما زدتم، والله ما عندي ما أعينك به»، فلبثْتُ أياماً فبلغ رسول الله ﷺ أنّ رجلاً يقال له: رفاعة بن قيس أو قيس بن رفاعة وجمع عظيم نزل بالغابة يُريدُ حربَ رسول الله ﷺ فدعاني رسول الله ﷺ ورجلين من المسلمين فقال: «اخرُجوا إلى هذا الرّجل حتى تأتوني منه بخبر»، ودفع ﷺ لنا شارفاً عجفاء - أي: ناقة مُسنَّة - وقال: «تبلغوا عليها، واعتقبوها»، فركبها أحدُنا، فوالله ما قامتْ به ضعفاً حتى ضُرِبتْ فخرجنا ومعنا

سِلاحُنا: النَّبْلُ والسيوفُ، حتى إذا جئْنا قريباً من القوم عند غروب الشمس، فكنت في ناحيةٍ وصاحبايَ في ناحيةٍ أخرى، قلتُ لهما: إذا سمعتماني كبَّرتُ فكبِّرُوا، فوالله إنا كذلك ننتظرُ غرَّة القوم إلاّ ورفاعة بن قيس أو قيس بن رفاعة المُجمعُ للقوم خرج في طلب راع لهم قد أَبْطأ عليهم وتخوَّفوا عليه، فقال له نفر من قومه: نحن نكفيك ولا تذهب أنت، فقال: والله لا يذهب إلا أنا، قالوا: فنحن معك، قال: والله لا يتبعني أحد منكم، وخرج وحده حتى مرَّ بي، فلمّا أمكنني نضحْتُه ـ أي: رميته ـ بسهم فوضعته في فؤاده، فوالله ما تكَلَّم، ووثبتُ إليه فاحْتَزَزْتُ رأسَهُ وسددتُ في ناحية العسكرِ وكبَّرتُ، وشدَّ صاحبايَ وكبَّرا، فهرب القومُ واستَقْنا إبلاً وغنماً كثيرة، فجئنا بها إلى رسول الله ﷺ، وجئتُ برأسه أحمله معي إلى رسول الله ﷺ، فأعانني رسول الله ﷺ من تلك الإبل بثلاث عشر في صداقي.

سرية أبي قتادة رضي الله عنه إلى بطن أضم (اسم موضع أو جبل)

لما همَّ رسول الله ﷺ بغزو أهل مكة بعث ﷺ أبا قتادة رضي الله عنه في ثمانية نفر من جملتهم محلم بن جثامة الليثي إلى بطن أضم ليظنّ ظان أنَّ رسول الله ﷺ توجَّه إلى تلك الناحية وتتشبت بذلك الأخبار فمرَّ عليهم ـ أي: على أبي قتادة ومن معه ـ عامر بن الأضبط الأشجعي فسلَّم عليهم بتحية الإسلام، فأمسك عنه القوم، وحمل عليه محلم فقتله لشيء كان بينه وبينه، وسلبه متاعه وبعيره، وعند وصولهم إلى ذلك المحلّ رجعوا فبلغهم أن رسول الله ﷺ توجَّه إلى مكة فمالوا إليه حتى لقوه.

وبلغه ﷺ ما فعل محلم فقال ﷺ لمحلم: «أقتلته بعدما قال: آمنت؟»، وفي رواية: «بعدما قال: أنا مسلم؟» أي: أتى بما لا يأتي به إلا مؤمن آمن بالله وكان مسلماً، فقال: يا رسول الله، إنما قالها ـ أي: تحية الإسلام ـ متعوِّذاً، فقال ﷺ له: «أفلا شققت عن قلبه؟»، قال: لِمَ يا رسول الله؟، قال: «لتعلم أصادق أم كاذب»، فقال: يا رسول الله، لو شققت عن قلبه، أكنتُ أعلم ما في قلبه؟!، فقال ﷺ له: «فلا أنت قبلت ما تكلّم به، ولا أنت تعلم ما في قلبه»، فقال: استغفر لي يا رسول الله، فقال ﷺ له: «لا غفر الله لك»، فقام محلم يتلقى دمعه ببرده، وأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ... ﴾ (1) الآية.

---

(1) النساء: ٩٤.

وذكر ابن إسحاق في خبر محلم أنّ النبيّ ﷺ صلّى الظهر بحنين ثمّ عمد إلى ظلِّ شجرة فجلس تحتها فقام إليه الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن يختصمان في عامر بن الأضبط الذي قتله محلم، فعيينة بن حصن يطلب دمه، ويقول: والله يا رسول الله لا أدعه ـ أي: محلماً ـ حتى أذيق نساءه من الحزن مثل ما أذاق نسائي، والأقرع بن حابس يدافع عن محلم، وارتفعت الأصوات وكثرت الخصومة، ورسول الله ﷺ يقول لعيينة ومن معه: «تأخذون الدية خمسين في سفرنا هذا، وخمسين إذا رجعنا»، وهو يأبى عليه، فلم يزل ﷺ به حتى اتفقا على الدية، ثمّ قالوا: إنّ محلماً يستغفر له رسول الله، فقام محلم وهو رجل آدم طويل عليه حلة قد كان تهيَّأ للقتال فيها حتى جلس بين يدي رسول الله ﷺ وعيناه تدمعان، فقال ﷺ له: «ما اسمك؟»، قال: أنا محلم، قد فعلت الذي بلغك، وإني أتوب إلى الله تعالى، فاستغفر لي يا رسول الله، فرفع رسول الله ﷺ يديه، ثمّ قال: «اللهم لا تغفر لمحلم..» قالها ثلاثاً بصوت عالٍ، فقام محلم يتلقى دمعه بفضل ردائه، فما مكث إلا سبعاً حتى مات فلفظتهُ الأرض مرات حتى ضموا عليه الحجارة وواروه، ولما أخبروا رسول الله ﷺ بذلك قال لهم: «إنّ الأرض تقبل من هو شرّ من صاحبكم، ولكنّ الله يعظكم»، وفي رواية: «إنّ الله أحبّ أن يريكم تعظيم حرمة لا إله إلا الله» أي: حرمة من أتى بها.

قيل: ثمّ بعد مماته ولفظ الأرض له استغفر له رسول الله ﷺ بعد أن قال ﷺ: «أراد الله أن يجعل موعظة لكيلا يقدم رجل على قتل مسلم، ولكن اذهبوا به إلى شعب بني فلان فادفنوه فإنّ الأرض ستقبله» فدفنوه بذلك الشعب. وتقدم قتل أسامة لنظيره واستغفاره ﷺ له وأمره ﷺ له بعتق رقبة.

غزوة مُؤْتة[1] (موضع معروف عند الكرك)

كانت في جمادى الأول سنة ثمان، وكان سببها أنّ رسول الله ﷺ بعث الحارث ابن عمير الأزدي بكتاب إلى هرقل ملك الروم بالشّام، فلمّا نزل مؤتة تعرَّض له شرحبيل بن عمرو الغساني، وهو من أمراء قيصر على الشّام فقال له: أين تريد لعلك من رسل محمّد؟، قال: نعم، فأوثقه، ثمّ قُدّم فَضُرب عنقه، ولم يُقْتَل لرسول الله ﷺ

(١) مؤتة: هي الآن قرية عامرة بالسكان، وبالقرب منها قرية «المزار» تضم قبور الشهداء في غزوة مؤتة، وهم: زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة.. وغيرهم. انظر المعالم الأثيرة: (٢٣٧).

رسول غيره، فلمّا بلغه ﷺ ذلك اشتدَّ الأمر عليه فجهَّز جمعاً من أصحابه ثلاثة آلاف، وبعثهم إلى مقاتلة ملك الروم وأمَّر عليهم زيد بن حارثة وقال ﷺ: «إنْ أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، وإنْ أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس، فإنْ أصيب ابن رواحة فلترض المسلمون برجل منهم فليجعلوه عليهم».

وقد كان حضر المجلس رجل من اليهود فقال: يا أبا القاسم، إنْ كنت نبيًّا يصاب جميع من ذكرت لأنّ أنبياء بني إسرائيل كان الواحد منهم إذا استعمل رجل على القوم وقال: إنْ أصيب فلان فلابدَّ أنْ يصاب، ولو عدَّ مئة أصيبوا جميعهم.

وعقد ﷺ لواء أبيض ودفعه لزيد بن حارثة، وأوصاهم أنْ يأتوا مقتل الحارث ابن عمير الأزدي ويدعوا من هناك إلى الإسلام فإنْ أجابوا، وإلا استعانوا بالله تعالى وقاتلوهم، فساروا وودَّعهم الناس وقالوا لهم: صحبكم الله ودفع عنكم وردَّكم إلينا صالحين غانمين.

وخرج ﷺ معهم مشيِّعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع فوقف فقال: «اعزموا بسم الله، فقاتلوا عدواً لكم في الشام، وستجدون فيها رجالاً في الصّوامع معتزلين الناس فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بعيراً فانياً، ولا تقطعوا شجرة، ولا تهدموا بناء».

فمضوا حتى نزلوا بأرض الشام فبلغهم أنّ هرقل ملك الروم خرج في مئة ألف من الروم وانضمَّ إليه من قبائل العرب المتنصِّرة مئة ألف، وكان المسلمون ثلاثة آلاف كما مرَّ، فلمّا بلغهم ذلك أقاموا في ذلك المحلّ ليلتين ينتظرون أن يبعثوا لرسول الله ﷺ يخبرونه بعدد عدوِّهم، فإمّا أن يمدَّهم برجال أو يأمرهم فيمضوا إليه، فشجَّعهم عبد الله بن رواحة وقال لهم: يا قوم والله إنّ الذي تكرهون لَلّذي خرجتم له، خرجتم تطلبون الشهادة، ونحن ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدِّين الذي أكرمنا الله تعالى به، فإنما هي إحدى الحسنيين إما الظهور وإما الشهادة، فقال الناس: صدق عبد الله بن رواحة، فمضوا للقتال فلقيتهم جموع هرقل ملك الروم، فانحاز المسلمون إلى مؤتة، فالتقى الجمعان عندها، واقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة رضي الله عنه ومعه راية رسول الله ﷺ حتى قتل، فأخذ الراية جعفر رضي الله عنه، وقاتل على فرس له أشقر، ثمّ نزل عنه وعقره هو ورجل من المسلمين عقر فرسه في سبيل الله تعالى[1]،

(١) عقره خوفَ أن يأخذه الكفار، ولم ينكر عليه أحد من الصّحابة، وبه استدلَّ من جوَّز قتل الحيوان خشية أن تنتفع به الكفار أو تقاتل عليه المسلمين.

ثمّ قاتل ﷺ فقطعت يمينه فأخذ الراية بيساره فقطعت يساره فاحتضن الراية وقاتل حتى قتل ﷺ، فأخذها عبد الله بن رواحة ﷺ وتقدم بها وهو على فرسه وجعل يتردد في النزول عن فرسه ثمّ نزل وقاتل حتى قتل ﷺ وحينئذ اختلط المسلمون والمشركون وأراد بعض المسلمين الانهزام فجعل عقبة بن عامر يقول: يقتل الإنسان مقبلاً أحسن من أن يقتل مدبراً فأخذ الراية ثابت بن أرقم ﷺ، وقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، فقالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ﷺ ويقال: إن ثابت بن أرقم دفعها إلى خالد بن الوليد وقال: أنت أعلم بالقتال مني، فقال له خالد: أنت أحق بها مني لأنك ممن شهد بدراً ثمّ أخذها خالد بن الوليد ﷺ ومانع القوم وثبت ثمّ انحاز كل من الفريقين عن الآخر من غير هزيمة على أحدهما فلما أصبحوا جعل خالد مقدمة الجيش ساقة، والساقة مقدمة، وميمنته ميسرة، وميسرته ميمنة، فظن المشركون مجيء مدد للمسلمين فرهبوا، وقاتل خالد ﷺ مع المسلمين قتالاً بليغاً فهزم المشركون، وقتل منهم المسلمون جمعاً عظيماً، ودامت مدة القتال سبعة أيام، وفي البخاري(١) عن خالد ﷺ قال: اندقَّت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، وما ثبت في يدي إلا صحيفة يمانية.

وأطلع الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ على ذلك فأخبر ﷺ به أصحابه، فأمر ﷺ من نادى: (الصّلاة جامعة) ثمّ صعد ﷺ المنبر، وعيناه تذرفان، وقال: «يا أيها الناس، باب خير ـ ثلاثاً ـ أخبركم عن جيشكم هذا الغازي: إنهم انطلقوا فلقوا العدو، فقُتِل زيد شهيداً، فاستغفروا له، ثمّ أخذ الراية جعفر فشدّ على القوم حتى قُتِل شهيداً، فاستغفروا له، ثمّ أخذ الراية عبد الله بن رواحة وأثبت قدميه حتى قتل شهيداً فاستغفروا له، ثمّ أخذ اللواء خالد بن الوليد، لم يكن من الأمراء، وهو أمير نفسه، ولكنه سيف من سيوف الله فآب بنصره»، وفي رواية: «حتى فتح الله عليهم»(٢)، وفي رواية: «اللهم إنه سيف من سيوفك فانصره»(٣). فمن ذلك اليوم سمي خالد: سيف الله.

وعن أسماء بنت عميس زوج جعفر رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ يوم أصيب جعفر وأصحابه فقال: «ائتني ببني جعفر فأتيته بهم، فشمّهم وذرفت عيناه ﷺ ـ وفي رواية: وبكى حتى نقطت لحيته الشريفة ـ فقلت: يا رسول الله، بأبي

---

(١) انظره في صحيحه برقم: (٤٠١٧ ـ ٤٠١٨).

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٣٥٤٧ ـ ٤٠١٤).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه: (٤١٢/٧).

أنت وأمي، ما يبكيك، أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟؟، قال: «نعم أصيبوا هذا اليوم»، فقمت أصيح واجتمع عليّ النساء[1]، وجعل ﷺ يقول لها: «يا أسماء، لا تقولي هجراً، وتضربي خداً».

وجاء إليه ﷺ رجل وقال: يا رسول الله، إنّ النساء عَيِينَ وافْتُتِنَّ، قال ﷺ: «فارجع إليهن، فأسكتهن»، فذهب ثمّ رجع، فقال له مثل الأول، وقد نهيتهنّ فلم يطعنَ، فقال: «اذهب فأسكتهنّ، فإنْ أبينَ فاحث في أفواههن التراب»[2].

وقال ﷺ: «اللهم قد قدم جعفر إلى أحسن الثواب، فاخلفه في ذريته بأحسن ما خلفت أحداً من عبادك في ذريته»[3].

وخرج ﷺ إلى أهله فقال: «لا تغفلوا عن آل جعفر، أنْ تصنعوا لهم طعاماً، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم»[4].

ودخل ﷺ على فاطمة رضي الله عنها، وهي تبكي وتقول: وا عمّاه.. فقال ﷺ: «على مثل جعفر فلتبك البواكي»[5].

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما، أنّ سلمى مولاة النبيّ ﷺ عمدت إلى شعير فطحنته وسفته، ثمّ طبخته وأدمته بزيت، وجعلت عليه فلفلاً، قال عبد الله: فأكلتُ من ذلك الطعام، وحبسني رسول الله ﷺ مع إخوتي في بيته ثلاثة أيام، ندور معه ﷺ كلّما صار في بيت إحدى نسائه، ثمّ رجعنا إلى بيتنا، وقد دعا لي رسول الله فقال: «اللهم بارك له في صنعة يمينه» فما بعت شيئاً ولا اشتريت إلا بورك لي[6].

---

(١) إلى هنا رواه أحمد في المسند برقم: (٢٧١٣١)، والطبراني في الكبير برقم: (٣٨٠)، ورواه غيرهما.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم: (١٢٣٧)، ومسلم في صحيحه برقم: (٩٣٥)، ورواه غيرهما.

(٣) عزاه في سبل الهدى والرشاد إلى ابن سعد وابن عساكر وأحمد وأبي داود الطيالسي والطبراني في الكبير. انظر سبل الهدى والرشاد: (١١/١١٢).

(٤) وهذا الطعام الذي صنع لآل جعفر ﷺ أصل الطعام الذي يقدّم في التعزية، وكانت العرب تسميه: الوضيمة.

(٥) انظر الروض الأنف: (١/٣٧٤).

(٦) أورد الإمام محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الصالحي الشامي في سيرته من طريق أبي يعلى الموصلي والطبراني برجال الصحيح، عن عمرو بن حريث ﷺ أنّ رسول الله ﷺ مرّ بعبد الله بن جعفر رضي الله عنهما وهو يلعب مع الغلمان ـ أو مع الصبيان ـ فقال ﷺ: «بارك الله بعبد الله في بيعته أو في صفقته». انظر سبل الهدى والرشاد: (١١/١١٢).

ولما قدم عليه ﷺ بعض الصّحابة[1] بخبر الجيش قال له رسول الله ﷺ: «إنْ شئت فأخبرني وإن شئت أخبرتك؟» قال: فأخبرني يا رسول الله، فأخبره رسول الله ﷺ خبره كلّه، ووصف ﷺ له فقال: والذي بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفاً واحداً لم تذكره، وإنّ أمرهم كما ذكرتَ، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ الله رفع لي الأرض حتى رأيت معتركهم»[2].

وقال ﷺ: «مثّل لي جعفر وزيد وابن رواحة في خيمة من درٍّ كلّ واحد منهم على سريره، فرأيت زيداً وابن رواحة في أعناقهما صدود، ورأيت جعفراً مستقيماً ليس فيه صدود، فسألتُ ـ أو قيل لي ـ إنّهما حين غشيهما الموت أعرضا أو كأنّهما صدّا بوجوههما، وأما جعفر فإنّه لم يفعل»، وقال ﷺ في جعفر: «إنّ الله أبدل جعفراً بيديه جناحين، يطير بهما في الجنة حيث شاء».

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: وجدنا فيما بين صدر جعفر ومنكبيه وما أقبل منه تسعين جراحة ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرّمح[3]، فأتيتُه وهو مستلق آخر النهار، فعرضت عليه الماء فقال: إني صائم فضعه في ترس عند رأسي، فإنْ عشت حتى تغرب الشمس أفطرتُ، قال: فمات صائماً قبل غروب الشمس شهيداً، وعمره إحدى وأربعين سنة[4].

ويوم مؤتة رفع ﷺ رأسه الشريف إلى السّماء فقال: «وعليكم السلام ورحمة الله»، فقال الناس: يا رسول الله، ما كنتَ تصنع؟؟!، قال ﷺ: «مرَّ بي جعفر بن أبي طالب في ملأ من الملائكة، فسلَّم عليّ»[5].

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: «هنيئاً لك، أبوكَ يطير مع الملائكة في السماء»[6].

وعند الطبراني مرفوعاً: «دخلتُ البارحة الجنة، فرأيت فيها جعفر بن أبي طالب

(١) الذي قدم بخبر الجيش هو يعلى بن أمية رضي الله عنه. انظر سبل الهدى والرشاد: (٦/١٥٣).

(٢) انظر عيون الأثر: (٢/٢٠٨).

(٣) انظر عيون الأثر: (٢/٢٠٨).

(٤) لم أعثر على هذه التتمة.

(٥) عزاه في سبل الهدى والرشاد إلى الإمام الدارقطني في غرائب مالك، من حديث ابن عمر، وضعّفه. انظر سبل الهدى والرشاد: (١١/١٠٩).

(٦) عزاه في المرجع السابق إلى الطبراني بإسناد حسن، فانظره فيه.

يطير مع الملائكة»[1].

وفي لفظ: «يطير مع جبريل وميكائيل، له جناحان عوَّضه الله تعالى من يديه»[2].

وروي: «جناحان من ياقوت يقتدر بهما على الطيران»[3].

ولما دنا الجيش من المدينة تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون، ولقيهم الصّبيان ينشدون، ورسول الله ﷺ يقبل مع القوم على دابة، فقال ﷺ: «خذوا الصّبيان، فاحملوهم، وأعطوني ابن جعفر» فأُتِي بعبد الله بن جعفر، فأخذه فحمله بين يديه، وصار المسلمون يحثون في وجوههم التراب، ويقولون لهم: يا فرارون، فررتم في سبيل الله!!، وصار رسول الله ﷺ يقول لهم: «بل هم الكرارون»[4]. وفي لفظ: قالوا: يا رسول الله، نحن الفرارون؟!، فقال لهم رسول الله ﷺ: «بل أنتم العكارون»[5] أي: الكرارون.

وكان عوف بن مالك قتل مشركاً، فأراد أخذ سلبه، فمنعه خالد رضي الله عنه، فلمّا قدم عوف شكا للنبيّ ﷺ، فلمّا مرَّ خالد، قال له النبيّ ﷺ: «ما منعك أن تعطيه سلبه؟»، فقال خالد: استكثرتُه يا رسول الله، فقال ﷺ: «ادفعه». وقيل: صاحب السلب رجل آخر، وعوف هو الواسطة في الكلام، فلما مرَّ خالد بعوف أطلق عوف لسانه في خالد، فغضب رسول الله ﷺ، وقال لخالد: «لا تعطه يا خالد، هل أنتم تاركوا إلي أمرائي، إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعى إبلاً وغنماً فرعاها، ثمّ تحيّن سقيها فأوردها حوضاً فشرعت فيه، فشربت صفوه وتركت كدره، فصفوه لكم وكدره عليهم»[6].

فكان ذلك تأديباً لعوف، والمستحق للسلب كان غير عوف على الصّحيح، وعوف منتصر له، وبعد أمر النبيّ ﷺ استحقّه خالد لا غير[7]. والله أعلم بالصّواب.

وإلى ذلك أشار المصنف بقوله:

---

(١) رواه الطبراني في الكبير برقم: (١٤٦٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط برقم :(٦٩٣٢ ـ ٦٩٣٦) من حديث ابن عباس وأسماء بنت عميس رضي الله عنهما.

(٣) لم أعثر عليه.

(٤) رواه البيهقي في الشعب برقم: (٤٣١١).

(٥) رواه أبوداود في سننه برقم: (٢٦٤٧)، والترمذس في سننه برقم: (١٧١٦)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبي زياد، ورواه البخاري في الأدب المفرد برقم: (٩٧٢). ورواه غيرهم.

(٦) رواه الطبراني في الكبير برقم: (٨٩).

(٧) الروض الأنف: (١/ ٢٧٧).

وعن جعفر أخبرت وابن رواحة ... وزيد بموت حين كانوا بمؤتة
ومن حين ساروا قد أشرت بموتهم ... بكثرة توديع وترتيب إمرة
وكل نبي إن يعلق أمارة ... بموت يقع من غير شكٍّ وريبة

حاصله : من جملة معجزاتك يا رسول الله أنك أخبرت عن جعفر وعن ابن رواحة وعن زيد بن حارثة بأنّهم ماتوا، وكان ذلك الإخبار حين ـ أي: وقت ـ موتهم شهداء بوقعة مؤتة المتقدّمة، فكان الأمر كما أخبرتَ، وأيضاً من حين ساروا أشرتَ بموتهم بسبب كثرة توديعك لهم وذِكْرِك لهم كيفية ترتيبهم في الإمارة، وأنتَ تقول: «إنْ أصيب فلان فالأمير فلان» مع أنّ كلّ نبيّ متى علّق إمارة آخر بموت الأول لابدَّ أنْ يقع موت الأول من غير شكّ ولا ريبة كما مرَّ موضَّحاً. والله أعلم بالصّواب.

وحنّ إليك الجذع حين تركته ... حنين الثكالى عند فَقْدِ الأحبة

حاصله : أنّك يا رسول الله لما جُعِلَ لك المنبر الشريف وعَلَوته لتخطُب عليه حنَّ واشتاق إليك الجذع ـ أي: الخشبة ـ التي جُعِلت كالعامود للمسجد الذي كنتَ تخطب سابقاً، وأنت مسندٌ ظهرك له ـ أي: لذلك الجذع ـ حتى صار ذلك الجذع يصوّت كتصويت الناقة وقت الولادة، وارتجَّ المسجد بخواره، وكثر بكاء الناس لما رأوا ذلك، وفي رواية: تصدَّع وانشقَّ حتى نزل ﷺ إليه وضمَّه بيديه إلى صدره الشريف، فصار يئنُّ كأنين الطّفل، ويشهق كشهيق الطّفل وقت سُكوته من بكائه، ثمّ قال له رسول الله ﷺ: «إنْ شئت أردّك إلى الحائط الذي كنتَ فيه، يجدّد لك خوص وثمرة، وإنْ شئت أغرسك في الجنّة، فيأكلُ أولياء الله من ثمرك؟»، ثمّ أصغى له ﷺ يستمع ما يقول، فقال: بل تغرسني في الجنة، فسمعه من يليه، فقال ﷺ: «قد فعلت»[1] فسكن أنينه بالمرّة، وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو لم ألتزمه لكان لم يزل هكذا إلى يوم القيامة» تحزُّناً على رسول الله ﷺ، ثمّ أمر به فدفن تحت المنبر الشريف. والله أعلم بالصّواب.

ولم يخفَ عنك الله إرسال حاطب ... كتاباً بما يخفي إلى أهل مكة
دعوت بأن تخفى أحاديث سيركم ... إليهم فلم يمكن وصول الظعينة
إلى أن أتاك الفتح ثمّ تساقطت ... لرؤيتك الأصنام من كل وجهة

---

(١) انظر عيون الأثر: (١/ ٣٧٥).

وأظهرت سراً لابن حرب وحارث ولابن أسيد كان تمّ بخفية

حاصله: لما كان صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وبين قريش دخلت بنو بكر في عهد قريش، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ كما علمت، وكان بينهما قبل ذلك دماء، فحجز بينهم الإسلام لتشاغُلِ النّاس به مع بقاء العداوة فيما بينهم، وكانت خزاعة قبل الإسلام حلفاء جدّ النبيّ ﷺ عبد المطلب على عمّه نوفل بن عبد مناف حين استولى على مال أخيه المطلب، وحَرَم منه ابنه عبد المطلب.

وذُكِر في حلفهم مع عبد المطلب أنّ ذرية وما يلوذ بكلٍّ يناصر ويعين ذرية ما يلوذ بالفريق الآخر، فلما ذكَّروا النبيّ ﷺ بعهد الأجداد قال ﷺ: «ما أعرفني بحقكم وما أنتم عليه من الحلف». أي: فأنتم معي كما كنت مع جدي عبد المطلب.

ثمّ لما كانت الهدنة يوم في صلح الحديبية تولى بنو نفاشة[1] نقض العهد، فهجا شخص منهم رسول الله ﷺ، وصار يتغنّى به، فسمعه غلام من خزاعة، فضربه، فشجَّه، فثار الشرُّ بين الحيَّين مع ما كان بينهم من العداوة، فطلب بنو نفاشة من قريش أنْ يعينوهم بالرجال والسلاح على خزاعة، فأمدتهم قريش بذلك، فبيّتوا خزاعة ـ أي: جاؤوهم ليلاً ـ بغتة، وهم آمنون على ماء لهم يقال له: الوتير[2]، فقتلوا منهم عشرين أو ثلاثة وعشرين رجلاً، وقاتل معهم جمع من قريش مستخفين، منهم صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى وعكرمة بن أبي جهل وشيبة بن عثمان وسهل بن عمرو رضي الله عنهم، فإنهم أسلموا بعد ذلك، وما زالوا يقاتلونهم حتى أدخلوهم دار بديل بن ورقاء الخزاعي بمكة، ولم يشاوروا في ذلك أبا سفيان، وظنّوا أنّ ذلك لا يبلغ رسول الله ﷺ.

ثمّ بعد ذلك ندموا، وجاء الحارث بن هشام إلى أبي سفيان وأخبره بما فعل القوم، فقال: هذا أمر لم أشهده، ولم أغب عنه، وإنه لشرّ، والله ليغزونّا محمّد ـ ﷺ ـ ولقد حدثتني هند بنت عتبة ـ يعني زوجته ـ أنها رأت رؤيا كرهتها، رأت أنّ دماً أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخندمة، فكره له القوم ذلك.

وعند نقض العهد خرج عمرو بن سالم الخزاعي سيّد خزاعة في أربعين راكباً من خزاعة فيهم بديل بن ورقاء الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، ودخل

---

(١) هم طائفة من بني بكر. مؤلف.

(٢) يقع هذا الماء أسفل مكة، ويعرف اليوم بالوتائر، ويقال: الوتران، وهما شِعْبان جنوب غربي مكة. انظر المعالم الأثيرة: (٢٩٥).

المسجد ووقف على رسول الله ﷺ، وهو جالس في المسجد بين الناس، وقال أبياتاً منها:

يا رب إني ناشد محمداً	حلف أبينا وأبيه الأتلدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا	ونقضوا ميثاقك المؤكّدا
هم بيّتونا بالوتير هُجّداً	وقتلونا ركعاً وسجّدا
وزعموا أنْ لست تدعو أحدا	وهم أذلّ وأقلّ عددا

فقال النبيّ ﷺ: «نصرتَ يا عمرو بن سالم»، ودمعت عينا رسول الله ﷺ، وقال: «لا نصرتُ إنْ لم أنصر بني كعب ـ يعني خزاعة ـ مما أنصر منه نفسي وأهل بيتي».

ثمّ مرت سحابة في السماء فقال ﷺ: «إنّ هذه السحابة لتستهلّ بنصر بني كعب ـ يعني خزاعة ـ خزاعة مني وأنا منهم».

وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت صبيحة الواقعة: قال لي رسول الله ﷺ: «لقد حدث في خزاعة حدث» فقلت: يا رسول الله، أترى قريشاً تجترئ على نقض العهد الذي بينك وبينهم، وقد أفنالهم السيف؟؟، فقال ﷺ: «ينقضون العهد لأمر يريده الله»، فقلت: خير.. ؟، فقال ﷺ: «خير»[1].

وعن ميمونة رضي الله عنها، أنها قالت: إنّ رسول الله ﷺ بات عندي تلك الليلة، فقام ليتوضّأ للصّلاة في جوفها[2]، فسمعته يقول: «لبيك ـ ثلاثاً ـ نصرتَ ـ ثلاثاً»، فقلت: لما فرغ من صلاته: يا رسول الله، لمن تكلِّم آنفاً؟!، فقال ﷺ: هذا راجز بن كعب ـ يعني: خزاعة ـ يزعم أنّ قريشاً أعانت عليهم بكر بن وائل ـ أي: بطناً منهم، وهم بنو نفاشة ـ فلمّا صلّى النبيّ ﷺ الصّبح سمعتُ راجزَهم بالأبيات المتقدمة[3].

فلمّا تمّ إنشادُهم قال ﷺ لعمرو بن سالم وصحبه: «فيمن تهمتكم؟» قالوا: في بني بكر، قال: «كلّهم؟»، قالوا: ولكن في بني نفاشة ـ وهم بطن من بني بكر.

ثمّ إنّ قريشاً ندمت على ما فعلت من نقض العهد، فأرسلوا إلى أبي سفيان، وقالوا له: ما لها سواك، اخرجْ إلى محمّد ـ ﷺ ـ وكلِّمه في تجديد العهد وزيادة المدّة.

فخرج أبو سفيان ومولى له على راحلتين، فأسرع السّير يظنُّ أنّه أوّل من يخرج

(١) انظر مغازي الواقدي: (٢/٧٨٨).

(٢) الضمير عائد على الليلة.

(٣) المراد الأبيات التي ارتجز بها ابن سالم.

من مكّة إلى رسول الله ﷺ، فقال ﷺ ليالي مسيره: «كأنّكم بأبي سفيان، قد جاءكم ليشدّ العقد، ويزيد في المدة، وهو راجع بسخطه»، ثمّ ركب ورجع ركب خزاعة، فالتقوا مع أبي سفيان ومولاه بعُسْفان، فخاف أبو سفيان أن يكونوا سبقوه بالخبر إلى النبيّ ﷺ، فسألهم: هل ذهبتم إلى المدينة؟، فقالوا: لا، وتركوه وأسرعوا، فأخذ أبو سفيان من بَعْر دوابهم فوجد فيه النّوى، فعلم بأنهم سبقوه بالخبر، فلمّا وصل أبو سفيان المدينة دخل على ابنته أمّ حبيبة زوج النبيّ ﷺ، وأراد أنْ يجلس على فراش النبيّ ﷺ فطوته لئلّا يجلس عليه، فقال لها: يا بنيَّة، ما أدري أرغبتِ بي عن هذا الفراش أم رغبتِ به عني؟، فقالت: إنه فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشرك نجس، فقال لها: والله لقد أصابك بعدي شرّ، فقالت: بلى، هداني الله إلى الإسلام، وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر، فقال لها: أَتْرُكُ ما كان يعبد آبائي وأتّبع دين محمّد؟!!.

ثمّ خرج من عندها حتى أتى النبيّ ﷺ فقال: إني كنت غائباً في صلح الحديبية، فامدد العهد وزد في المدّة، فقال ﷺ: «لذلك جئت يا أبا سفيان؟» فقال: نعم، فقال ﷺ: «هل كان فيكم من حدث؟» قال: معاذ الله، نحن على صلحنا وعهدنا، لا نغيّره ولا نبدِّله، فقال ﷺ: «ونحن على مدَّتنا وصلحنا»، فأعاد أبو سفيان القول فلم يردَّ عليه النبيّ ﷺ شيئاً، فذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه فكلَّمه ليكلِّم رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، جواري جوار رسول الله ﷺ، والله لو وجدتُ الذرَّ تقاتلكم لأعنتها عليكم، ثمّ ذهب إلى عمر رضي الله عنه فكلَّمه ليكلِّم له رسول الله ﷺ، فقال عمر رضي الله عنه: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ! فوالله لو لم أجد إلا الذرّة لجاهدتكم بها، وفي رواية أنه قال: ما كان من حلفنا جديداً فأَخْلَقَه[1] الله، وما كان منه مثبتاً قطعه الله، وما كان منه مقطوعاً فلا وصله الله، فقال أبو سفيان: جزيتَ من ذي رحم شرًّا، وفي لفظ: سوءاً، ثمّ ذهب إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال له: ليس في القوم أحد أقرب بي رحماً منك، فزد في المدّة وجدّد العهد، فإنّ صاحبك لا يردّه عليك أبداً، فقال عثمان: جواري في جوار رسول الله ﷺ، ثمّ ذهب فدخل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعنده فاطمة رضي الله عنها، والحسن غلام يدبُّ بين يديها، فقال: يا عليّ، إنّك أمسُّ القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة فلا أرجع كما جئت خائباً، اشفع لي إلى محمّد، فقال عليّ: ويحك يا أبا سفيان، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلِّمه فيه، فالتفت إلى

---

(١) أي: أبلاه، من الثوب الخَلَق، وهو البالي.

فاطمة، فقال: يا بنت محمّد، هل لك أن تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس فيكون سيّد العرب إلى آخر الدهر، فقالت: والله ما بلغ بنيّ ذلك، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ، وفي رواية: أنه كلّم فاطمة رضي الله عنها في ذلك، فقالت: إنما أنا امرأة، وليس لمثلي أنْ يجير، قال: قد أجارت أختك زينب أبا العاص بن الربيع ـ يعني زوجها ـ وأجاز ذلك محمّد ـ ﷺ ـ قالت: إنما ذاك إلى رسول الله ﷺ، قال: فَأْمُري أحد ابنيك، قالت: إنهما صبيان ليس لمثلهما أنْ يجير، قال: فكلّمي عليًّا، فقالت: أنت كلّمه، فكلَّم عليًّا فقال: يا أبا سفيان، إنه ليس أحد من أصحاب رسول الله ﷺ يفتات[1] على رسول الله ﷺ بجوار.

ثمّ إن أبا سفيان أتى أشراف قريش والأنصار وكلٌّ يقول: جواري في جوار رسول الله ﷺ، ثمّ رجع إلى عليٍّ ﷺ وقال: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد انسدَّت عليَّ، فانصحني قال: والله لم أعلم لك شيئاً يغني عنك، ولكنّك سيد بني كنانة، فقم وأجر بين الناس، ثمّ الحقْ بأرضك، قال: أَوَ تَرَى ذلك مغنياً عني شيئاً؟، قال: لا والله، ما أظنّه، ولكنْ لا أجد لك غير ذلك، فحينئذ قام أبو سفيان في المسجد وقال: يا أيها الناس إني أجرتُ بين الناس، لا والله ما أظنّ أن يخفرني ويردَّ جواري أحد، فقال رسول الله ﷺ: «أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة!».

ثمّ ركب إلى مكة وقد طالت غيبته، واتهمته قريش أنه اتَّبع محمّداً سرًّا وكتم إسلامه، وقالت له زوجته: إنْ كنت مع طول غيبتك جئت بنُجْح فأنت الرّجل. فلمّا أخبرها بالخبر سرًّا، وقد دنا منها، وجلس مجلس الرّجل من امرأته ضربت برجلها على صدره، وقالت له: قبِّحت من رسول قوم، فما جئت بخير، فلمّا أصبح أبو سفيان حلق رأسه عند إساف ونائلة، وذبح لهما البدن ومسح بالدم رؤسهما ليدفع عنه التّهمة، فلما رأته قريش قالوا: وما وراءك، هل جئت بكتاب من محمّد أو عهد؟، قال: لا والله، لقد أبى عليَّ ذلك، وتبعت أصحابه فما رأيت قوماً لملك أطوع منهم له، وفي رواية: قال: جئت محمداً فكلَّمته، فوالله ما ردَّ عليَّ شيئاً، ثمّ جئت إلى ابن أبي قحافة، فلم أجد فيه خيراً، ثمّ جئت إلى عمر بن الخطاب فوجدته أعدى عدوّ، ثمّ جئت إلى عليٍّ فوجدته ألين القوم، وفي رواية: أرأف القوم، وقد أشار عَلَيَّ بشيء صنعته، فوالله ما أدري أيغني عني شيئاً أم لا، قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أنْ أجير

(١) أي: ليس لأحد أن يعمل عملاً دون مشورته وأمره ﷺ.

بين الناس، قال لي: لِمَ تلتمس جوار النّاس على محمّد ولا تجيرُ أنت عليه، وأنت سيد قريش وأكبرها وأحقّ أنْ لا يخفر جواره، ففعلتُ، قالوا: فهل أجاز ذلك محمّد؟، قال: لا، وإنما قال: «أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة»، والله لم يزدني، وما أدري بعد ذلك ما هو صانع، فقالت قريش: رضيت بغير رضا وجئتنا بما لا يغني عنا ولا عنك شيئاً، وإنما لعب بك عليّ، لعمر الله ما جوارك بجائز، وإنّ إخفارك عليهم - أي: إزالة خفارتك - لهيّن.

ثمّ إنّ رسول الله ﷺ أعلم الناس بأنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجدّ والتجهيز، وأرسل إلى أهل البادية ومن حوله من المسلمين في كلّ ناحية يقول لهم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يصومنّ من رمضان إلا في المدينة» وأبهم ﷺ جهة مسيره عن غير كبار الصّحابة، وطلب من الذين أعلمهم كتم الخبر، ثمّ قال ﷺ: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغت بلادها، اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم، فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعون بنا إلا فجأة»، وأوقف ﷺ بكلّ طريق جماعة وقال: «لا تدعوا أحداً يمرُّ بكم ممن تنكرونه إلا رددتموه».

فلمّا بلغ الخبر إلى حاطب بن أبي بلتعة كتب كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم الخبر، ثمّ أعطاه لامرأة وجعل لها جُعلاً عظيماً على أن توصل المكتوب إليهم بسرعة وخُفْية، فجعلته في قرون - أي: ضفائر شعر - رأسها، وسارت، فنزل على النبيّ ﷺ الوحي بما صنعه حاطب، فبعث ﷺ في طلبها عليًّا والزبير رضي الله عنهما، وأمرهما أن يسبقاها إلى مكان يقال له: روضة خاخ على مرحلتين أو ثلاثاً من المدينة، فإذا وصلا إليه يقفان به إلى أن تمرَّ فيأخذا منها الكتاب، ثمّ يرسلاها، ففعلا ومكثا إلى أن مرَّت بهما فقالا لها: أين الكتاب، فحلفت بالله ما معها كتاب، ففتّشا ملابسها كلّها ورَحْلها وما معها، فلم يجدا شيئاً، فحينئذ حلف عليٌّ رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ ما كذب ولا كذبنا، تخرجين الكتاب أو نعرينّك ثمّ نضرب عنقك، فلمّا رأت الجِدَّ منه أخرجته من قرون رأسها بعد أن حلّتها فأخذاه وجاءا به رسول الله ﷺ، فإذا مكتوب فيه: (من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، فلان وفلان... إلى آخره، أما بعد: فإنّ رسول الله ﷺ قد توجَّه إليكم بجيش كالليل، يسير كالسّيل، وأقسم بالله أنّه لو سار إليكم وحده لينصرنّه الله عليكم، فإنّه منجز له ما وعده فيكم، فإنّ الله سبحانه وتعالى ناصره ووليُّه)

فدعا ﷺ حاطب وقال له: «أتعرف هذا الكتاب؟»، فقال: نعم، قال: «ما

حملك على هذا؟»، فقال: والله، إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيّرتُ ولا بدّلتُ، ما كفرتُ منذ أسلمتُ، ولا غششتُ منذ نصحتُ، ولا أجبتُهم منذ فارقتُهم، ولكن ليس لي في القوم أهل ولا عشيرة، ولي بين أظهرهم ولدٌ وأهل، فعانقتهم عليهم ليحفظوني فيهم، وما فعلتُ ذلك كفراً بعد إسلامي، وقد علمتُ أنّ الله منزل عليهم بأسه، ولا يغني عنهم كتابي شيئاً، فقال رسول الله ﷺ: «إنّه قد صدقكم»، وقال عمر بن الخطاب ﵁: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فإنّ الرّجل قد نافقَ، فقال رسول الله ﷺ: «إنّه قد شهد بدراً، وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟»، وفي رواية: «فقد وجبت لكم الجنة»، ففاضت عينا عمر ﵁ بالبكاء، وقال: الله ورسوله أعلم. وأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ...﴾[1] الآيات.

ثمّ مضى رسول الله ﷺ في سفره في عشرة آلاف باعتبار من لحقه من القبائل في الطريق، واستخلف ﷺ على المدينة أبا رهم كلثوم بن الحصين الغفاري وابن أم مكتوم في شهر رمضان سنة ثمان، ولم يستخلف أحداً من المهاجرين والأنصار، وكان المهاجرون سبعمئة ومعهم ثلاثمئة فرس، وكانت الأنصار أربعة آلاف، ومعهم خمسمئة فرس، وكانت مُزَيْنة ألفاً وفيها مئة فرس، وكانت أَسْلم أربعمئة ومعها ثلاثون فرساً، وكانت جهينة ثمانمئة ومعها خمسون فرساً، ولحقه ﷺ بالقرب من مكة جماعة، فكان جيشه ﷺ اثني عشر ألفاً.

ولما وصل ﷺ قريباً من الأبواء لقيه أبو سفيان ابن عمه الحارث، وكان الحارث أكبر أولاد عبد المطلب، وكان أبو سفيان أخاه ﷺ من الرّضاع على حليمة السعدية، ولقيه أيضاً ﷺ عبد الله بن أمية بن المغيرة ابن عمته ﷺ عاتكة بنت عبد المطلب، أخو أم سلمة أم المؤمنين لأبيها، وكان مجيء أبي سفيان وعبد الله بن أميمة بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم للإسلام بعدما كان من أشدّ الناس أذيَّة له ﷺ، فأعرض ﷺ عنهما فكلَّمته أمّ سلمة فيهما، وقالت: لا يكون ابن عمّك وابن عمَّتك مع كونه صهرك أشقى الناس بك، فقال ﷺ: «لا حاجة لي بهما، أمّا ابن عمي أبو سفيان، فقد هتك عرضي، وأمّا ابن عمّتي عبد الله، فقال لي: والله لا آمنتُ بك حتى تتخذ سُلَّماً إلى

---

(١) الممتحنة: ١.

السماء، فتعرُج فيه، وأنا أنظر إليك، ثمّ تأتي بصكٍّ، وأربعة من الملائكة يشهدون ذلك: أنّ الله أرسلك...[1] إلى آخر مقالته»، فلمّا وصل الخبر إليهما، قال أبو سفيان ومعه ابن له: والله ليأذنن لي أو لآخذنَّ بيد ابني هذا، ثمّ لنذهبنّ في الأرض نموت جوعاً وعطشاً، فلمّا بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقَّ لهما، ثمّ أذِنَ لهما، فدخلا عليه، فأسلما، وقبل ﷺ إسلامهما، وقيل: إنّ عليًّا رضي الله عنه قال لأبي سفيان: ائت رسول الله من قِبَل وجهه، فقل له ما قالته أخوة يوسف ليوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾[2] فإنه ﷺ لا يرضى أن يكون أحد أحسن قولاً منه، ففعل، فقال رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[3]، ورقَّ ﷺ لهما، وقَبِل إسلامهما.

فكان أبو سفيان بعد ذلك لا يرفع رأسه إلى النبيّ ﷺ حياءً منه، لأنه عاداه نحو عشرين سنة لم يتخلّف عن قتاله ﷺ مرة، وكان ﷺ بعد ذلك يجلسه ويحييه ويشهد له بالجنّة، ويقول: «أرجو أن يكون خَلَفاً من حمزة».

ثمّ إنّه ﷺ كان يصوم في سفره، فلمّا بلغ الكديد ـ محل بين عُسْفان وقُدَيْد ـ بلغه أنّ الناس شقّ عليهم الصّيام، فأمرهم بالفطر، وقال لهم: «إنّكم دنوتم من عدوّكم، والفطر أقوى لكم» فأفطر قليل، وقيل: يا رسول الله، إنّ الناس ينتظرون فِطْرك، فحينئذ استوى ﷺ على راحلته بعد العصر، ودعا بإناء فيه ماء، وقيل: لبن، وشرب منه، ثمّ ناوله لمن بجنبه، فشرب منه، وأفطر معظم الصّحابة، فقيل: يا رسول الله، إنّ ناساً لم يفطروا، فقال ﷺ: «أولئك العصاة ـ أي: لأنهم خالفوا الأمر: «ليس في أم برام صيام في أم سفر».

واستمر ﷺ يفطر مع كل الجيش حتى انسلخ رمضان، وفي قديد عقد ﷺ الألوية والرايات، ودفعها للقبائل، ثمّ سار إلى أن وصل مرَّ الظهران[4] عشاء[5] فنزل

(١) وتتمة قول عبد الله بن أميمة بن المغيرة: (وايم الله إن لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك). انظر سبل الهدى والرشاد: (٢/ ٣٤٠).

(٢) يوسف: ٩١.

(٣) يوسف: ٩٢.

(٤) تقدّم الكلام على هذا المَعلم.

(٥) علّق الشارح هنا بقوله: (وهو الذي يقال له الآن بطن مرو).

ﷺ فيه، وأمر أصحابه الذين معه أن يوقد كلّ واحد نار، وجعل على الحرس عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأخفى الله تعالى الخبر عن أهل مكة إجابة لدعوة النبيّ ﷺ، فكانت النيران أكثر من عشرة آلاف نار على عدد الجيش، وجاء العباس مهاجراً من مكة مظهراً إسلامه، فالتقى مع النبيّ ﷺ بالجحفة، وقيل: بذي الحليفة، فرجع معه إلى مكة، وأرسل أهله، ونقله إلى المدينة، وقال له رسول الله ﷺ: «هجرتك يا عمّ آخر هجرة، كما أنّ نبوّتي آخر نبوّة».

قال العباس رضي الله عنه: حين نزل النبيّ ﷺ مرَّ الظهران، رقَّت نفسي لأهل مكة، وقلت: واصباح قريش، والله لو دخل رسول الله ﷺ مكّة عنوة قبل أن يستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الزمان.

وكانت قريش تخوَّفت، ولم تعلم الخبر يقيناً، فأرسلت أبا سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام يتجسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبراً، وقالوا لهم: إنْ لقيتم محمّداً فخذوا لنا منه الأمان، قال العباس رضي الله عنه: فركبتُ بغلة رسول الله ﷺ البيضاء التي أهداها له هرقل مع دحية الكلبي، وخرجت إلى الأراك لعلّي أرى أحداً من الحطّابة أو ذوي اللبن أو الحاجات يأتي مكة يُعْلمهم ليستأمنوه ﷺ قبل أنْ يدخلها عنوة، فوالله إني لسائر إذ سمعت أبا سفيان وبديل وحكيم يقولون: ما رأينا كالليلة نيراناً قطّ ولا عسكراً كهذا، إنها كنيران عرفة، وحكيم يقول: إنها خزاعة، وأبو سفيان يقول: خزاعة أقلّ من ذلك، فعرفتُ صوت أبي سفيان، وكان صديقاً لي ونديماً، فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي، وقال: أبو الفضل؟، قلت: نعم، قال: مالك فداكَ أبي وأمي؟، قلت: هذا والله رسول الله ﷺ في النّاس، قد جاءكم بما لا قِبَلَ لكم به، وفي رواية: قد جاءكم بعشرة آلاف، فقال أبو سفيان: واصباح قريش، فما الحيلة فداك أبي وأمي؟، قلت: والله لئن ظفر بك ليضربنّ عنقك، فاركب عجز هذه البغلة خلفي حتى آتيك رسول الله ﷺ، فأستأمنه لك، فركب خلفي، ورجع صاحباه، وقيل: جاء العباس بهم جميعاً، فكان كلّما مرَّ بنا من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟، فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ قالوا: العبّاس عمّ رسول الله ﷺ على بغلته، حتى مررنا بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟، أو قام، فلمّا رأى أبا سفيان على عجز الدابة، قال: أبو سفيان عدوّ الله، الحمد لله الذي أمكنني منك من غير عقد ولا عهد.

ثمّ خرج العبّاس يشتدّ نحو رسول الله ﷺ قال العبّاس: فركضَتِ البغلة، فسبقت

عمر، واقتحمتُ من على البغلة، فدخلتُ على رسول الله ﷺ مع أبي سفيان، ودخل عمر في إثري، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان عدوّ الله، قد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد، فدعني أضرب عنقه، قال العبّاس: فقلت: يا رسول الله، إني قد أجَرْته، فلمّا أكّد عمر في شأنه، قلت: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلتَ هذا، ولكنْ قد عرفتَ أنه من رجال عبد مناف!، فقال عمر: مهلاً يا عباس، فوالله لَإسلامك يوم أسلمت أحبّ إليَّ من إسلام الخطّاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفتُ أنّ إسلامك كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ، اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به، قال العباس ﷺ: فذهبتُ به، فلمّا أصبح عدوتُ به إلى رسول الله ﷺ بعد أنْ نودي بالصّلاة، وثار النّاس للصلاة، ففزع أبو سفيان، وقال للعبّاس: يا أبا الفضل ما يريدون؟ قال الصّلاة، وفي رواية: ما للناس، أُمِروا في شيء؟، قال العباس: لا، ولكنّهم قاموا إلى الصّلاة.

ورأى[1] المسلمين يتلقون وَضُوء النبيّ ﷺ، ويركعون إذا ركع، ويسجدون إذا سجد، فقال أبو سفيان: يا عباس، ما يأمرهم بشيء إلا فعلوه؟!!، فقال له العباس: لو نهاهم عن الطّعام والشراب لأطاعوه، فقال: ما رأيتُ مُلْكاً مثل هذا، لا مُلْك كسرى، ولا مُلْك قيصر، ولا مُلْك بني الأصفر!!، فقال له العباس: ويحك، إنه لرسول الله، وما هو من ملوك الدنيا، فقال أبو سفيان: كلِّمه يا عباس في قومك يعفو عنهم.

ثمّ دخلا عليه ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟»، فقال أبو سفيان: بأبي وأمي أنت ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، لقد ظننتُ أنّه لو كان مع الله إلهاً غيره ما أغنى شيئاً بعدُ، ثمّ قال ﷺ: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أنْ تعلم أني رسول الله؟»، قال: بأبي أنت وأمي، أمَا والله فإنّ في النفس من هذه شيئاً، فقال العباس: ويحك يا أبا سفيان أَسْلم، واشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنّ محمّداً رسول الله قبل أنْ تُضْرب عنقك.

وذكر عبد بن حميد، أنّ النبيّ ﷺ حين عرض الإسلام على أبي سفيان قال له: كيف أصنع بالعزى؟ فسمعه عمر بن الخطاب ﷺ من وراء القبة، فقال له: تخرا عليها، فقال له أبو سفيان: ويحك يا عمر، إنك رجل فاحش، دعني مع ابن عمي فإيّاه أُكلِّم.

---

(١) أي: أبو سفيان ﷺ.

ثمّ أسلم ﷺ، ونطق بالشهادتين، وقال: يا رسول الله، ادعُ الناس بالأمان، فقال ﷺ: «نعم، من كفَّ يده، وأغلق داره فهو آمن»، قال العباس: فقلت: يا رسول الله، إنّ أبا سفيان رجل يحبّ الفخر، فاجعل له شيئاً، فقال ﷺ: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن».

ثمّ أمر ﷺ بالرّحيل وبأخذ الرايات والألوية، وأمر العباس أنْ يقف بأبي سفيان وبديل وحكيم صاحبيه بمضيق ليمرّ المسلمون ويرونهم، فمرّت القبائل، كلّما مرّت عليهم قبيلة كبّرت ثلاثاً، وأبو سفيان يسأل العبّاس عن القبائل، والعباس يعلمه، وأبو سفيان يتعجّب من كثرتهم وشدّتهم وقوة إسلامهم مع ما كانوا عليه من البغض والعداوة له ﷺ، حتى مرَّ رسول الله ﷺ بالجيش العظيم المقنَّعين بالحديد، وهو كتيبته الخضراء، وسمّيت الخضراء لكثرة الحديد فيها، وفيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق، وعمر بن الخطاب ﷺ يقول: رويداً حتى يلحق أوّلكم آخركم، فقال: سبحان الله، يا عبّاس من هؤلاء؟، فقلتُ: هذا رسول الله ﷺ في الأنصار، فقال: ما لأحد بهؤلاء طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً، فقلت: يا أبا سفيان، إنما هي النبوّة، فقال: نعم، ثمّ قلت: اذهب إلى قومك وأعلمهم بالأمان، فأسرع حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته بكيفية تأمين رسول الله ﷺ لأهل مكة قائلاً: يا معشر قريش، هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقالت زوجته هند بنت عتبة ـ بعد أن أمسكت بلحيته: اقتلوا الشيخ الأحمق، يا آل غالب هلا قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلدكم، فقال لها أبو سفيان: ويحك اسكتي وادخلي بيتك، وقال: ويلكم لا تغترّوا بأنفسكم، فقد جاءكم محمّد بما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنّا دارك، قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل دار حكيم فهو آمن، فتفرَّق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

وفي رواية: أنّ النبيّ ﷺ وجّه حكيم بن حزام مع أبي سفيان بعد إسلامهما إلى مكّة، وقال: «من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن» وكانت ـ أي: دار أبي سفيان ـ بأعلى مكة، قيل: وإنما قال رسول الله ﷺ لأبي سفيان: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» لما ورد أنّ النبيّ ﷺ تعرّض له بعض

سفهاء المشركين ليؤذوه وهو قريب من دار أبي سفيان، فأدخله أبو سفيان داره فسلم ﷺ من الأذى، فأراد النبيّ ﷺ مجازاته ومكافأته على ذلك، فكان ﷺ أحفظ الناس للمعروف، وأحسنهم جزاء على الإحسان، وأكثرهم حلماً على المسيء، فلذلك لم يأخذ أبا سفيان بعظيم إساءته، وأكرمه بقليل حسناته، فقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

ثمّ دخل رسول الله ﷺ من ذي طوى في جيوشه وعساكره، وطأطأ رأسه تواضعاً لله تعالى بما أكرمه به من الفتح، وأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أنْ يدخل مع جملة قبائل العرب من أسفل مكة، وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت، وأنْ لا يقاتل إلا من قاتله.

وكان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو رضي الله عنهم - فإنهم أسلموا بعد ذلك - قد جمعوا ناساً بالخندمة - وهو جبل بمكة - ليقاتلوا المسلمين، وكان من جملتهم رجل من قريش[1] كان قال لامرأته وهي تبري له نبلاً، وكانت أسلمت سرّاً: استعجلي، فقالت له: لم تأمرني ببري النّبل؟، فقال لها: بلغني أنّ محمّداً يريد أنْ يفتح مكة ويغزوها، فإنْ كان حقاً لآخذنّه لك خادماً من بعض من أستأسره، فقالت له: والله لكأني بك، وقد رجعت تطلب مني مخبأ أخبؤك فيه إذا رأيت خيل محمّد، فلمّا دخل رسول الله ﷺ يوم الفتح، ودخل خالد بن الوليد من أسفل مكة كما أمره رسول الله ﷺ لقي خالداً صفوان ومن معه من المشركين فرموه بالنّبل، وقالوا: لا تدخلها عنوة أبداً، فصاح خالد بأصحابه وأغاروا عليهم، فقتل من قتل، وانهزمت البقية، وكان من جملة من انهزم ذلك الرجل، فدخل بيته، وقال لامرأته: أغلقي عليَّ الباب، ويحك هل من مخبأ؟، فقالت له: وأين الخادم الذي وعدتني؟، تسخر منه، فقال لها أبياتاً منها:

وأنت لو أبصرت يوم الخندمة	إذ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمة
وأبو يزيد قائم كالمؤتمة	واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة	ضربا فلا يسمع إلا غمغمة
لهم نهيت خلفنا وهمهمة	لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

---

(١) واسمه حماس بن قيس بن خالد. انظر البداية والنهاية: (٤/٢٩٦).

واستمرَّ خالد يقاتلهم وينهزموا إلى أنْ وصل إلى باب المسجد، وصعدت طائفة منهم الجبل، فتبعهم المسلمون، فرأى رسول الله ﷺ بارقة السيوف، وهو على العقبة، فقال: «ما هذا، وقد نهيت عن القتال؟»، فقيل له: لعلّ خالداً قوتل وبُدِئ بالقتال، فلم يكن له بدٌّ من أن يقاتل من قاتله، وما كان يا رسول الله خالد يخالف أمرك، فقتل من قريش أربعة وعشرون، ومن هذيل أربعة. ووجه ﷺ اللوم على خالد بعد أنْ أحضره، وقال ﷺ لخالد: «لِمَ قاتلت، وقد نهيتُ عن القتال؟»، فقال: هم يا رسول الله بدؤوني بالقتال، ورمونا بالنّبل ووضعوا فينا السّلاح، وقد كففتُ ما استطعت، ودعوتهم إلى الإسلام، فأبوا حتى إذا لم أجد بدّاً قاتلتُهم، فأظفرنا الله بهم، فهربوا في كلّ وجه، فقال ﷺ: «كفّوا السّلاح إلا خزاعة عن بني بكر» فأذن لهم حتى صلى العصر، ثمّ قال ﷺ: «كفّوا السلاح»، وفي رواية: إنّ أوباش مكة جمعت جموعاً، وتعمدت لمنع المسلمين من دخول مكة، فقال رسول الله ﷺ: «احصدوهم حصداً» فانطلق الصّحابة حتى قتلوا أكثر من سبعين، فجاء أبو سفيان فقال: أبيحت جماعة قريش، لا قريش بعد اليوم يا رسول الله، فحينئذ قال ﷺ: «من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن.. إلى آخر ما مرّ» إلا جماعة أمر ﷺ أن يقتلوا، ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة معينين بأسمائهم.

ودخل ﷺ مكة وهو على ناقته القصواء مردفاً أسامة بن زيد رضي الله عنهما بكرة يوم الجمعة أو الاثنين معتجراً شقة بُرْد حبرة حمراء واضعاً رأسه الشريف على الرَّحل تواضعاً لله سبحانه وتعالى الذي مكَّنه من الفتح قائلاً: «اللهم إنّ العيش عيش الآخرة».

وقيل: دخل وعلى رأسه ﷺ المغفر، وعليه عمامة سوداء خرقانية[1]، وقد أرخى طرفها بين كتفيه بغير إحرام مع رايته السوداء، وتسمى العقاب، ومع لواء أسود ولواء آخر أبيض جمعاً بين الروايات.

وكان دخوله ﷺ مكة يوم الفتح من كَدَاء ـ بفتح الكاف والمد والتنوين ـ من أعلى مكة، وغرزت رايته بالحجون بشعب أبي طالب، وهو المكان الذي حصرت فيه بنو هاشم.

روى محمد بن عمر، عن جابر ﷺ أنه قال: كنت ممن لزم رسول الله ﷺ

(١) عمامة خرقانية: قال ابن الأثير في النهاية (٢/٦٨): كأنه لواها ثمّ كوّرها كما يفعله أهل الرساتيق. اهـ وأهل الرساتيق: هم سواد الناس.

فدخلت معه يوم الفتح، فلمّا أشرف رسول الله ﷺ من أذاخر[1]، ورأى بيوت مكّة، وقف عليها، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ونظر إلى موضع قبّته، فقال: «هذا منزلنا يا جابر حيث تقاسمت قريش علينا في كفرها»[2].

ثمّ سار ﷺ وإلى جانبه أبو بكر الصّديق ﷺ يحادثه، ويقرأ سورة الفتح حتى جاء البيت وطاف به سبعاً على راحلته، ومحمّد بن مسلمة ﷺ آخذ بزمامها، يستلم الحجر بمِحْجن في يده.

وقد كان حول الكعبة ثلاثمئة وستون صنماً تُعْبد من دون الله تعالى، لكلّ حيٍّ من أحياء العرب صنم مشدودة أقدامها بالرّصاص، فجاء ﷺ ومعه قضيب يشير به إليها قائلاً: ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾[3] كلّما أشار إلى صنم سقط على وجهه، حتى مرَّ عليها كلّها، وفي رواية: أنّ الذي كان يشير ﷺ به قوسه الشريف من جهة طرفه، وأنّه ﷺ أولاً استلم الحجر، ثمّ أتى على صنم بجنب باب الكعبة، وهو هبل أعظم الأصنام جِرْماً، فجعل ﷺ يطعنه في عينه، ويقول: ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾.

ثمّ أمر به رسول الله ﷺ فكُسِر، فقال الزبير بن العوام ﷺ لأبي سفيان: إنّ هبل الذي كنتَ تفتخر به يوم أُحُد كُسِرَ، فقال: دعني ولا توبّخني، لو كان مع إله محمّد ﷺ غيره لكان الأمر غير ذلك، وفي رواية: أنّ النبيّ ﷺ أمر عليّاً ﷺ أنْ يصعد على سطح الكعبة، ويلقي ما عليها من الأصنام، ففعل، إلا صنم خزاعة لكونه كان موتّداً بأوتاد الحديد، وهو غير هبل المتقدِّم، فقال ﷺ لعليّ: «عالجه يا عليّ»، فما زال عليٌّ يعالجه، والنبيّ ﷺ يقول: إنه ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ حتى أفلته وقذفه، فتكسّر، وكانت العرب تحجّ لهذه الأصنام وتخرُّ لها.

ثمّ أمر رسول الله ﷺ أنْ يفتحوا له باب الكعبة ليدخلها فأبى عثمان بن أبي طلحة ﷺ[4] أنْ يعطيهم المفتاح فقالوا له: إنّ رسول الله ﷺ يريد أنْ يدخلها، فقال: لو علمته رسول الله لدفعت إليه المفتاح، ولكنْ أنّى له ذلك، فذهب عليٌّ ﷺ وفتل يده،

---

(1) هي ثنيّة من ثنيات مكّة، وقد اختلفوا في تحديدها.

(2) انظر سبل الهدى والرشاد: (٥/ ٢٣٠).

(3) الإسراء: ٨١.

(4) فإنّه أسلم بعد ذلك.

وأخذ المفتاح رغماً عنه، وفتحها للنبيّ ﷺ ليدخلها، فلمّا دخلها النبيّ ﷺ وجد فيها صور الأنبياء وصورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام يستقسمان بها، وصورة مريم وصورة الملائكة، فقال ﷺ: «قاتل الله قوماً يصوِّرون ما لا يخلقون، قاتلهم الله، لقد علموا أنهما لم يستقسما بالأزلام قطّ»، ووجد فيها صورة حمامة من عَيْدان ـ بفتح العين المهملة ـ فكسرها ﷺ بيده الشريفة، ثمّ طرحها، ودعا بماء فمحا الصّور، ودعا بزعفران فلطخه بموضعها، حتى لا يبقى لها أثر، وصلَّى بها ركعتين، ثمّ خرج ﷺ إلى مقام إبراهيم، وكان ملاصقاً للبيت، فصلّى فيه ركعتين، ثمّ أخّره، ودعا بماء فشرب منه وتوضأ[1].

ثمّ لما جلس ﷺ في المسجد جاء أبو بكر ﷺ بوالده أبي قحافة يقوده، وكان قد كفَّ بصره وشابت لحيته، فقال ﷺ: «لو تركتَ الشيخ في بيته لأتيناه» تكرمةً لأبي بكر ﷺ، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحقّ أن يمشي إليك من أن تمشي إليه، فلمّا جلس بين يدي النبيّ ﷺ مسح ﷺ على صدره، وقال له: «أسلم تسلم»، فأسلم ﷺ فهنّأ النبيّ ﷺ أبا بكر بإسلام والده، وقال ﷺ: «غيّروا هذا الشيب، ولا تتشبهوا باليهود والنصارى، وجنِّبوه السواد»[2].

ثمّ أتى رسول الله ﷺ الصّفا، فعلاه حيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه، وجعل يذكر الله بما شاء أنْ يذكره ويدعوه، والأنصار تحته، فقال بعضهم لبعض: أمّا الرّجل فقد أدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته، فنزل الوحي عليه ﷺ بمقالتهم، فلما سرِّي رفع رسول الله ﷺ رأسه وقال: «يا معشر الأنصار، قلتم: «أما الرجل فقد أدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته؟»»، فقالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، فقال ﷺ: «كلا، لا أفعل ذلك، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم والممات مماتكم».

فأقبلوا عليه ﷺ، وهم يبكون، ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا لضنٍّ منا بالله وبرسول الله ﷺ ـ أي: لا تسمح أنفسنا بك يا رسول الله ـ فقال رسول الله ﷺ: «الله

(١) رواه البخاري مختصراً برقم: (٣١٧٤)، وانظر تاريخ الإسلام للذهبي: (١/٣١٥).

(٢) رواه أحمد في المسند برقم: (١٢٦٥٦ـ ١٤٤٤٢ـ ١٤٤٩٥ـ ١٤٦٨٢) وابن حبان في صحيحه برقم: (٥٤٧٢)، والطبراني في الكبير برقم: (٨٣٢٤ـ ٨٣٢٦)، ورواه في الأوسط برقم: (٤٥٦٨). ورواه غيرهم.

ورسوله يعذرانكم ويصدّقانكم»[1].

وكان الأنفار الذين استثناهم النبيّ ﷺ من الأمان بمكة أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، فقال ﷺ: «اقتلوهم، ولو وجدتم أحدهم معلّقاً بأستار الكعبة».

منهم: عبد الله بن سرح، أخو عثمان بن عفّان من الرّضاع، كان أسلم وخان في كتابته، فكان ﷺ يقول له: «اكتب سميعاً بصيراً» فيكتب عليماً حكيماً، وإذا أملى عليه: «عليماً حكيماً» يكتب غفوراً رحيماً، حتى ظهرت خيانته، وكان آخر الأمر أنْ أملى عليه النبيّ ﷺ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[2]، إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[3] فتعجب من تفصيل خلق الإنسان، فنطق بقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[4] قبل أن يملي عليه، فقال له رسول الله ﷺ: «اكتب ذلك، هكذا أنزلت» فلمّا ظهرت خيانته، وعلم أنّ النبيّ ﷺ مؤاخِذُه بذلك هرب مرتدّاً إلى مكة، وصار يقول: إنْ كان محمد نبيّاً، فأنا نبيّ، كنتُ أتلاعب به، وأوجّه له الكلام ليُمْله.

فلمّا كان يوم الفتح، وعلم بهدر دمه لاذ بعثمان بن عفان أخيه من الرّضاع، فقال: يا أخي، استأمن لي رسول الله ﷺ قبل أن يضرب عنقي، فأتى النبيّ ﷺ فاستعطف النبيّ ﷺ، والنبيّ ﷺ يُعْرض عنه ويأبى ذلك مراراً، فلمّا أكثر الإلحاح قبله النبيّ ﷺ، فبايعه، فلمّا خرجا من عنده قال ﷺ للصحابة: «ما منكم أحد كان يجزُّ عنقه قبل أنْ كنتُ أمّنته، أعرضتُ عنه مراراً ليقوم أحدكم فيجزّ عنقه».

وكان عباد بن بشر نذر إنْ رآه قتله، فلمّا رآه مع عثمان أخذ بقبضة سيفه ينظر أمر النبيّ ﷺ ليقتله ويوفي بنذره، فقال له النبيّ ﷺ حينئذ: «يا عباد بن بشر، انتظرتك لتفي بنذرك»، فقال: يا رسول الله، خفتك، أفلا أومضت إليَّ، فقال ﷺ: «ليس لنبيّ أنْ يومض ـ أي: يومئ ـ الإيماض خيانة».

ثمّ إنّ عبد الله بن سرح صار بعد الإسلام لا يقدر على مواجهة النبيّ ﷺ حياء

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم: (١٧٨٠) ورواه أحمد في المسند برقم: (١٠٩٦١)، وابن حبان في صحيحه برقم: (٤٧٦٠)، والحاكم في المستدرك برقم: (٢٣٢٨) والدارقطني في سننه برقم: (٢٣٢).

(٢) المؤمنون: ١٢.

(٣) المؤمنون: ١٤.

(٤) المؤمنون: ١٤.

من جرمه، وأخبر بذلك النبيّ ﷺ، فقال ﷺ: «إنّ الإسلام يجبّ ما قبله».

ومنهم عبد الله بن خطل، كان اسمه عبد العزى، فأسلم أولاً، وسمّاه النبيّ ﷺ عبد الله، وقد بعثه ﷺ بعد أنْ أسلم لأخذ الصّدقة وأرسل معه رجلاً من الأنصار يخدمه، فنزلا منزلاً، وأمر خادمه أنْ يذبح له شاة، ويضع له طعاماً، ثمّ نام واستيقظ، فلم يجده صنع له شيئاً، ووجده نائماً فعدا عليه فقتله وارتدّ، وكان شاعراً يهجو رسول الله ﷺ في شعره.

وكان له قينتان تغنيان له بهجو رسول الله ﷺ الذي هو وضعه، ويوم الفتح ركب فرسه وتقنّع بالحديد، وأخذ رمحاً وصار يُقْسِمْ لا يدخل مكة عنوة، فلمّا رأى خيل المسلمين كارّة عليه هرول وتعلّق بأستار الكعبة ملقياً سلاحه، فلمّا طاف ﷺ قال: «من هذا؟»، فقالوا: ابن خطل، فقال: «اقتلوه، فإنّ الكعبة لا تعيذ عاصياً، ولا تمنع من إقامة حدّ واجب»، فقتل وأمر ﷺ بقتل قينتيه، فقتلت إحداهما، وأسلمت الأخرى، فعفا ﷺ عنها.

ومنهم الحويرث بن نفيل، كان يؤذي رسول الله ﷺ بمكة كثيراً، وينشد الهجاء له ﷺ، وكان العباس عمُّ النبيّ ﷺ حمل فاطمة وأم كلثوم بنتي النبيّ ﷺ من مكة على بعير يريد بهما المدينة، فنحر الحويرث البعير لهما، فرمى بهما الأرض، فقتله عليٌّ رضي الله عنه يوم الفتح وهو هارب، لعلمه بجريمته وهدر دمه.

ومنهم مقيس بن صبابة، أمر النبيّ ﷺ بقتله لأنه كان أتى النبيّ ﷺ مسلماً طالباً لدية أخيه هشام بن صبابة رضي الله عنه من الأنصار، الذي قتل خطأً في غزوة ذي قرد، فدفع له النبيّ ﷺ الدية، ثمّ عدا على الأنصاري قاتل أخيه فقتله بعد أنْ أخذ الدية، ولحق بمكة مرتدّاً، فأمر ﷺ بقتله، فقتله ابن عمّه نميلة بن عبد الله الليثي بين الصفا والمروة، وقيل: وهو متعلّق بأستار الكعبة.

ومنهم هبار بن الأسود أمر ﷺ بقتله لأنه كان عرض لزينب بنت النبيّ ﷺ مع سفهاء قريش حين بعث بها زوجها أبو العاص إلى المدينة، فنحر هبار بعيرها برمح، فسقطت على الأرض هي والجمل، وكانت حاملاً فألقت ما في بطنها، وسالت منها الدماء، ولم يزل بها مرضها إلى أن ماتت، فقال ﷺ: «إنْ وجدتم هباراً، فأحرقوه»، ثمّ قال ﷺ: «إنّما يعذب بالنّار ربّ النّار، إنْ ظفرتم به فاقطعوا يده ورجله، ثمّ اقتلوه» فلم يوجد يوم الفتح. وأسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، واعتذر بعد أن اعترف بذنبه،

وأنه يستحق العقوبة، وقال لما وقف بين يدي النبيّ ﷺ بغتة رافعاً صوته: جئتك يا رسول الله مسلماً مقرًّا بالإسلام، وقد كنت مخذولاً، وكنتُ أردتُ اللحوق بالأعاجم، فذكرتُ صفحك عمن جهل عليك، وكنّا أهل شرك، فهدانا الله بك، ونطق بالشهادتين، فقال رسول الله ﷺ: «يا هبار، عفوت عنك، وقد أحسن الله إليك حيث هداك للإسلام، والإسلام يجبُّ ما كان قبله».

ومنهم عكرمة بن أبي جهل أمر ﷺ بقتله، لأنه كان أشدّ الناس هو وأبواه أذيّة للنبيّ ﷺ، هرب يوم الفتح لما بلغه أنّ النبيّ ﷺ أهدر دمه، فاتبعته امرأته ابنة عمّه أم حكيم بنت الحارث بن هشام بعد أنْ أسلمت فوجدته بساحل البحر يريد أنْ يركب السفينة، فردَّته بعد أنْ قالت له: يا ابن عمّ، جئتك من عند أوصل الناس وأبرِّ الناس وخير الناس، لا تهلك نفسك، فقد استأمنته لك، فجاء معها، وأسلم بعدُ وحسن إسلامه بعد أنْ دخل على النبيّ ﷺ وقال: يا محمّد، هذه ـ يعني زوجته ـ أخبرتني أنك أمَّنتني، فقال ﷺ: «صدقتْ، إنك آمن»، فقال عكرمة: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله، وطأطأ رأسه من الحياء، فقال له النبيّ ﷺ: «يا عكرمة، ما تسألني شيئاً أقدر عليه إلا أعطيتك»، فقال: يا رسول الله، استغفر لي كلّ عداوة عاديتكها، فقال ﷺ: «اللهم اغفر لعكرمة كلّ عداوة عادانيها، أو منطق تكلّم به».

ولمَّا قدم المدينة الشريفة مهاجراً وثب إليه ﷺ قائماً فرحاً ورمى عليه رداءه وقال: مرحباً بمن جاء مؤمناً مهاجراً، وكان ﷺ قبل إسلام عكرمة قال: «رأيت في الجنة عذقاً فأعجبني ـ وفي رواية: عنقوداً ـ فقلت: لمن هذا؟، فقيل: لأبي جهل، فتعجبتُ من ذلك ـ وفي رواية: فشقَّ عليَّ ذلك ـ وقلت: الجنة لا يدخلها إلا نفس مؤمنة» فلمّا أسلم عكرمة ﷺ أوّل النبيّ ﷺ الرؤيا به.

وروي أنه أوَّلها به قبل إسلامه، ولما سبَّت الصّحابة أباه شكاهم للنبيّ ﷺ، فقال ﷺ: «لا تسبّوا أباه، فإنّ سبَّ الميّت يؤذي الحيّ ولا يلحق الميت»، ونهاهم عن أن يقولوا له: ابن أبي جهل.

ولما قَتَل عكرمة قبل ذلك مسلماً مبارزة ضحك ﷺ، وقال: «إنهما في درجة واحدة في الجنة» فقتل عكرمة شهيداً في قتال الروم في وقعة اليرموك.

ومنهم سارّة حاملة كتاب حاطب كانت مغنّية بهجاء النبيّ ﷺ في مكة فطلب لها الأمان حتى أسلمت.

ومنهم الحارث بن هشام وزهير بن أمية، وفي رواية: هبيرة بن وهب، هربا يوم الفتح، واستجارا بأمّ هانئ بنت أبي طالب أخت عليٍّ ﷺ قبل إسلامها، فأجارتهما، فجاء عليٌّ ﷺ ليقتلهما، فأغلقت عليهما الباب، وجاءت إلى النبيّ ﷺ بأعلى مكة، فوجدته يغتسل من جفنة فيها أثر العجين، وفاطمة بنته تستره بثوب، فسلّمت عليه، فقال ﷺ: «من هذه؟»، فقيل: أم هانئ، فقال ﷺ لها: «مرحباً بأمّ هانئ»، فلمّا فرغ ﷺ من الغسل لبس ثوبه، وصلّى ثمان ركعات، وقال لها: «مرحباً بأم هانئ، ما جاء بك؟»، فأخبرته الحديث، فقال: «أجرنا من أجرتِ»[1]، وأسلمت بعد ذلك أمّ هانئ والحارث في يوم واحد يوم الفتح.

ومنهم صفوان بن أمية استأمن له عمير بن وهب بعد أنْ هرب، وأراد النزول في البحر فأمَّنه النبيّ ﷺ، فأدركه، فقال: لا أعود معك إلى مكة إلا بعلامة أعرفها من النبيّ ﷺ، فرجع عمير للنبيّ ﷺ وأخبره بذلك، فأعطاه النبيّ ﷺ عمامته، وقال له: «أدرك بها ابن عمّك»، فلمّا دفعها له عاد معه إلى مكة حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال: إنّ هذا يزعم أنك أمَّنتني، فقال ﷺ: «صدق»، فقال: يا رسول الله، أمهلني بالخيار شهرين، فقال ﷺ: «أنت بالخيار أربعة أشهر».

ثمّ خرج النبيّ ﷺ إلى حنين، ولما فرّق غنائمها بالجِعِرَّانة رأى النبيّ ﷺ صفوان يرمق شعباً مليئاً نَعَماً وشاءً، فقال له رسول الله ﷺ: «يعجبك هذا؟»، قال: نعم، قال: «هو لك بما فيه»، فقبضه صفوان، وقال: إنّ الملوك لا تطيب نفوسها بمثل هذا، ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، فأسلم وحسن إسلامه، وترك المدينة التي كان يطلبها، وكان يقول: كان ﷺ أبغض الخلق إليَّ، فما زال يعطيني حتى صار أحبَّ الخلق إليّ.

ومنهم هند امرأة أبي سفيان كانت مثّلت بحمزة ﷺ بأُحُد ولاكت قلبه، ثمّ أسلمت بعد ذلك.

ومنهم كعب بن زهير كان يهجو رسول الله ﷺ. ووحشيّ قاتل حمزة ﷺ فإنّهما أسلما بعد ذلك رضي الله عنهما.

وجلس ﷺ يوم الفتح على الصّفا يبايع الناس كباراً وصغاراً، رجال ونساء، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

---

(١) رواه مالك في الموطأ (برواية يحيى الليثي): (١/١٥٢)، والبخاري في صحيحه برقم: (٣٥٠ـ ٣٠٠٠ـ ٥٨٠٦)، ومسلم في صحيحه برقم: (٣٣٦)، وأبو داود في سننه برقم: (٢٧٦٣). ورواه غيرهم.

ولما خرج ﷺ من الكعبة يوم الفتح وضع يده الشريفة على عضادة الباب، ثمّ قال: «ماذا تقولون يا معشر قريش؟»، فقال سهيل بن عمرو: نقول خيراً، أخٌ كريم وابن أخ كريم وقد قَدَرت، فقال ﷺ: «أقول كما قال أخي يوسف ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[1] اذهبوا فأنتم الطلقاء ـ أي: من الأسر والانتقام.

ثمّ جلس ﷺ في المسجد، ومفتاح الكعبة بيده، فقال علي ﷺ: أجمع الناس يا رسول الله مع السقاية والحجابة ـ أي: مفتاح الكعبة وخدمتها؟، فقال ﷺ: «أعطيكم ما تبذلون فيه أموالكم للناس ـ أي: وهي السقاية ـ لا ما تأخذون به من الناس أموالهم ـ أي: وهي الحجابة والبوابة ـ لشرفكم وعلوِّ مقامكم».

وتطاول العباس ﷺ كثيراً في ذلك اليوم ليأخذ الحجابة، والنبيّ ﷺ لم يمكّنه من ذلك لعدم الوحي حتى نزل في ذلك اليوم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[2] فدفع ﷺ مفتاح الكعبة لعليّ ليردّه على عثمان بن طلحة، وقال ﷺ حينئذ: «خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم»[3].

فلمّا دفع له المفتاح وأعلمه بالقصّة أسلم ﷺ، وأعطى ﷺ السقاية للعبّاس في ذلك اليوم، وقال: «اليد العليا خير من اليد السفلى».

ولما كان ﷺ يطوف بالبيت حدَّث فَضَالة[4] نفسه بقتل النبيّ ﷺ، فالتفت النبيّ ﷺ خلفه، فقال: «يا فَضَالة؟»، قال: نعم يا رسول الله، قال: «ماذا كنت تحدِّث نفسك؟»، قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك النبيّ ﷺ، ثمّ قال: استغفر الله، ثمّ وضع ﷺ يده الشريفة على صدره فكان فَضَالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله تعالى من شيء أحبّ إليَّ منه[5].

وهكذا كان كلّ حديث في القلب أو في غيره وقع بمكة كان النبيّ ﷺ يُخْبر به صاحبه يوم الفتح.

---

(١) يوسف: ٩٢.

(٢) النساء: ٥٨.

(٣) رواه الطبراني في الكبير برقم: (١١٢٣٤)، والأوسط برقم: (٤٨٨)، وعبد الرزاق في مصنفه برقم: (٩٠٧٦).

(٤) هو فضالة بن عمير بن الملوح الليثي.

(٥) انظر البداية والنهاية: (٤/٣٠٨)، وعيون الأثر: (٢/٢٤٠).

ولما أسلمت هند زوج أبي سفيان ﷺ، قالت: يا رسول الله، إنك لتأخذ عليّ ما لا تأخذه على الرّجال ـ لأنّ الرّجال كان ﷺ يبايعهم على الإسلام والجهاد، ويبايع النساء على أنْ لا يسرقن ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم، ولا يخمشن وجهاً، ولا ينثرن شعراً، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن[1] ولا يعصين في معروف.

ولما قال ﷺ للنساء: «أبايعكن على كذا إلى أنْ قال: «ولا يسرقن»، قالت هند زوجة أبي سفيان[2]: كنت أصيب من مال أبي سفيان الهَنَة بعد الهَنَة، وما كنت أدري، أكان ذلك حلال أم لا، فقال أبو سفيان، وكان حاضراً: أمّا ما أصبت فيما مضى فأنتِ منه في حلٍّ، عفا الله عنك، فضحك النبيّ ﷺ وعرفها، فقال لها: «وإنّك لهند بنت عتبة؟» قالت: نعم، فاعف عمّا سلف، عفا الله عنك يا نبيّ الله.

ولما قال ﷺ: «وتزنين»، قالت هند: وتزني الحرة يا رسول الله؟، ولما قال ﷺ: «ولا تقتلن أولادكن»، قالت هند: ربيناهم صغاراً فقتلتهم كباراً، وهل تركت لنا ولداً إلا قتلته يوم بدر، فتبسّم النبيّ ﷺ، وضحك عمر ﷺ حتى استلقى.

ولما قال ﷺ: «ولا تأتين ببهتان تفترينه»، قالت: والله إنّ إتيان البهتان لقبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، ولما قال ﷺ: «ولا تعصين في معروف»، قالت: والله ما جلسنا في مجلسنا هذا، وفي أنفسنا أن نعصيك في معروف، ثمّ قالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان مسيك شحيح، فهل عليَّ حرج أن أُطْعَم من ماله، فإنّه لا يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذتُ منه، وهو لا يعلم؟، فقال ﷺ: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»[3].

وطلبت النساء المصافحة وقت البيعة كما كان ﷺ يصافح الرّجال، فقال ﷺ: «لا أصافح النساء، وإنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمئة امرأة»[4].

وقال ﷺ لعمّه العباس: «أين عتبة ومعتب أولاد أخيك أبي لهب؛ فإني لم

---

(١) هو بمعنى الزنا وإلحاق ما ليس من الزوج به. مؤلف.

(٢) وكانت متنقبة متنكرة تريد أن لا يعرفها رسول الله ﷺ حيث صنعت ما صنعت بعمّه سيد الشهداء حمزة ﷺ.

(٣) انظر البداية والنهاية: (٣١٩/٤)، وتاريخ الطبري: (١٦١/٢).

(٤) رواه أحمد في المسند برقم: (٢٧٠٥٤) والحاكم في المستدرك برقم: (٦٩٤٦)، كلاهما من حديث أميمة بنت رقيقة التميمية.

أرهما؟»، فقال: تخفّيا فيمن تخفّى من أهل مكة، فقال رسول الله ﷺ: «ائتني بهما»، قال العباس ﷺ: فركبت إليهما فأتيت بهما، فدعاهما للإسلام فأسلما، ثمّ أخذ بأيديهما وانطلق إلى المنزل، فدعا ساعة، ثمّ انصرف مسروراً، وقال: «إني استوهبت ابني عمي هذين من ربي، فوهبني إياهما».

ولما دخل ﷺ الكعبة أمر بلال أن يصعد سطح الكعبة فيؤذّن ففعل، وكان حينئذ أبو سفيان وعتاب بن أسيد وخالد بن أسيد والحارث بن هشام جلوساً بفناء الكعبة، فقال عتاب بن أسيد وخالد بن أسيد: لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه، فقال الحارث: ما وجد محمّد غير هذا الغراب الأسود مؤذّناً، وقال غيرهم ممن حضر من المشركين: لقد أكرم الله والده، مات قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة، والله إنّه لحدث عظيم أن يصبح عبد بني جمح ينهق على بيته، فقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً، لو تكلّمت لأخبرت عنّا هذه الحصباء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ، وقال لهم: «لقد علمتُ الذي قُلْتم» ثمّ ذكر ذلك لهم واحداً واحداً.

ولما رجعت هند من المبايعة لبيتها مسلمة أخذت قدوماً فكسرت صنماً كانت تعبده في بيتها، وقالت: طالما كنّا منك في غرور[١].

ثمّ بعث ﷺ السّرايا لكسر الأصنام التي حول مكة في أحياء العرب، ونادى المنادي بأمر النبيّ ﷺ: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره.

ودخل مكة ابن الأثوع الهذلي من بني بكر ثاني يوم من الفتح، وهو على شركه، فعرفته خزاعة، فأحاطوا به، فطعنه منهم خراش بمشقص في بطنه فقتله، فقال ﷺ: «يا معشر خزاعة، ارفعوا أيديكم عن القتل، فلقد كثر القتل إن نفع، لقد قتلتم قتيلاً لأدينّه، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين: إن شاؤوا فدم قاتله وإن شاؤوا نعقله لهم» أي: نعطيهم ديته.

ثمّ ودى رسول الله ﷺ الرّجل ـ أي: دفع ديته ـ وقال: «لو كنت قاتلاً مسلماً بكافر، لقتلت خراشاً»[٢].

وقال ﷺ: «لا تغزا مكة بعد اليوم إلى يوم القيامة[٣]»، فإن الله سبحانه وتعالى قد

---

(١) انظر سبل الهدى والرشاد: (٥/ ٢٥٥).

(٢) انظر البداية والنهاية: (٤/ ٣٠٥).

(٣) رواه أحمد في المسند برقم: (١٤٨٦١).

حرَّم مكة يوم خلق السماوات والأرض، ويوم خلق الشمس والقمر، ووضع هذين الجبلين، فهي حرام إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ولا يعضد فيها شجرة، لم تُحَلَّ لأحد كان قبلي، ولا تُحَلّ لأحد بعدي، ولم تحلل لي إلا هذه الساعة ـ أي: من صبيحة يوم الفتح إلى عصره ـ غضباً على أهلها، ألا قد رجعت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلّغ الشاهد منكم الغائب»[١].

ولما همَّ ﷺ بالرجوع من غزوة الفتح قام وقال: «يا أيها الناس إنّ المتعة حرام كالميتة والدم ولحم الخنزير، وكنت أذنت لكم في الاستمتاع، والآن حرّمها الله تعالى إلى يوم القيامة»[٢].

واستقرض ﷺ من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم، ومن عبد الله بن أبي ربيعة أربعين ألف درهم، وفرَّق الجميع على ضعفاء الصّحابة، ثمّ قضاها من غنيمة هوازِن.

وأقام ﷺ بمكة يوم الفتح ثمانية عشر يوماً غير يوم الخروج، وهو يقصر الصّلاة مدّة إقامته بها، وولَّى ﷺ على أهل مكة عتاب بن أسيد، وكان عمره حينئذ إحدى وعشرين سنة، وأمره أن يصلِّ بالناس، وترك معه معاذ بن جبل معلِّماً للناس السنن والفقه.

وسرقت أيام الفتح امرأة فأمر ﷺ بقطع يدها، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد بن حارثة يتشفّعون به إلى النبيّ ﷺ فلمّا كلَّم أسامة النبيّ ﷺ في شأنها تلوَّن وجهه الشريف، وقال: «أتكلّمني في حدٍّ من حدود الله؟!»، فقال أسامة: استغفر الله يا رسول الله، ثمّ قام ﷺ خطيباً، فأثنى على الله بما هو أهله، ثمّ قال: «أمّا بعد، فإنما أهلك الناس قبلكم أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، والذي نفس محمّد بيده، لو أنّ فاطمة بنت محمّد سرقت لقطعتُ يدها»، ثمّ أمر ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها[٣].

غزوة حنين[٤]

لما فتحت مكة وأطاعت قبائل العرب إلا هوازن وثقيفاً، مشت حينئذ هوازن

---

(١) جمع المؤلف في هذه الرواية بين عدة أحاديث وصاغها في قالب واحد، ولعل المسوّغ أنّها جميعاً قيلت في مناسبة واحدة ولو لم تكن قيلت بهذا السياق وعلى هذا النسق البياني. انظر البداية والنهاية: (٤/٣٠٥)، وسيرة ابن هشام: (٥/٧٦).

(٢) لم أعثر عليه.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٣٢٨٨)، ومسلم في صحيحه برقم: (١٦٨٨). ورواه غيرهما.

(٤) ويقال: غزوة أوطاس وغزوة هولازن. مؤلف.

وثقيف بعضها إلى بعض وقالوا: قد فرغ محمّد لنا فلا مانع له منّا، فالآن نغزوه قبل أن يغزونا، والله إنّ محمّداً لاقى أقواماً لا يحسنون القتال، فأجمعت هوازن أمرها، وكان إجماع أمر الناس من هوازن إلى مالك بن عوف النضري ﷺ[1] وكان سنّه حينئذ ثلاثين سنة، فاجتمع إليه من القبائل جموع كثيرة فيهم بنو سعد بن بكر قبيلة حليمة السعدية مرضعته ﷺ، وحضر معهم دريد بن الصّمة، وكان شجاعاً مجرباً، لكنه كبر وعمي وصار لا نفع له إلا برأيه ومعرفته بالحرب، وكان قائد ثقيف ورئيسهم كنانة بن عبد ياليل ﷺ[2] ثمّ إنهم لما وصلوا إلى أوطاس[3] قال دريد بن الصّمة: بأيِّ وادٍ أنتم؟، قالوا: بأوطاس، قال: نِعْمَ المحلّ للخيل، ما لي أسمع رغاء البعير، وخوار البقر، ونهاق الحُمُر، وبكاء الصّغير، ويعار الشاء؟، فقالوا له: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فقال: أين مالك فأتي له به، فقال: يا مالك، إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإنّ هذا يوم كأنّ له ما بعده من الأيام، ما لي أسمع رغاء البعير، وخوار البقر، ويعار الشاء، ونهاق الحمر، وبكاء الصّغير؟، فقال: أردتُ أنْ لا يفرّ الناس حماية لأموالهم، فزجره عن ذلك، فلم ينزجر، فقال: رويعي ضأن والله، هل يردّ المنهزم شيء إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك يفتضح أهلك ويسلب مالك، وأشار بأمور فلم يقبلها منه، وقال: والله لا أطيعك، إنك قد كبرت وضعف رأيك، وكان عاهده أولاً أن لا يخالفه، فقال له: يا مالك، إنك تقاتل كريماً أوطأ العرب، وأخاف العجم، وأجلى اليهود من الحجاز إما قتلاً وإما خروجاً عن ذل وصَغار، فقال مالك: والله لا نطيعك، قال دريد: يا هوازن، قد شرط مالك أنْ لا يخالفني، وقد خالفني، أنا أرجع إلى أهلي، فمنعوه، وقال مالك لهوازن: والله لتطيعونّني أو لأتكئنّ على سيفي هذا حتى يخرج من ظهري، فقالوا له: أطعناك، فجعل مالك النّساء فوق الإبل وراء المقاتلة صفوفاً، وجعل البقر والغنم وراء ذلك لئلا يفروا، وجعل الخيل ثم الرّجال أمام ذلك، وقال لهم: إذا رأيتم أصحاب محمّد ـ ﷺ ـ شُدّوا عليهم شَدَّة رجل واحد، وبعث ثلاثةً عيوناً ليأتوه بأخبار النبيّ ﷺ وأصحابه، فرجعوا إليه، وقد تفرقت أوصالهم من الرّعب، فقال لهم: ويلكم ما شأنكم؟!، قالوا:

---

(١) فإنه أسلم بعد ذلك.

(٢) فإنه أسلم بعد ذلك.

(٣) أوطاس: واد في أرض هوازن. انظر المعالم الأثيرة: (٤١).

رأينا رجالاً بيضاً على خيول بُلْق، فوالله ما تماسكنا أنْ أصابنا ما ترى، وإنْ أطعتنا رجعت بقومك، فقال لهم: أفٍّ لكم، بل أنتم أجبن العسكر، فحبسهم عنده لئلَّا يشيع الخبر، ومضى على ما يريد.

ثمّ إنّ النبيّ ﷺ كان لما سمع باجتماعهم أرسل إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، وأمره أنْ يدخل فيهم، ويمكث عندهم، ويسمع منهم ما أجمعوا عليه، فدخل ومكث نحو يومين عندهم، وسمع ما أجمعوا عليه، ثمّ رجع وأخبر النبيّ ﷺ بما أجمعوا عليه من الحرب، وجاء رجل فقال: يا رسول الله، إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونَعَمهم وشياههم اجتمعوا إلى حنين[1]، فتبسّم النبيّ ﷺ وقال: «تلك غنيمة للمسلمين غداً إن شاء الله تعالى».

فأجمع رسول الله ﷺ أمره ليسير إلى هوازن، وذُكِرَ له ﷺ أنّ عند صفوان بن أمية أدرعاً وسلاحاً، ولم يكن صفوان أسلم يومئذ، وإنما كان مؤمَّناً، فطلبها منه رسول الله ﷺ فقال صفوان: أغصباً يا محمّد؟، فقال ﷺ: «بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك»، فأعطاه مئة درع بما يكفيها من السّلاح، واستعار ﷺ من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح، وخرج ﷺ من مكّة لقتالهم في اثني عشر ألفاً: عشرة آلاف من الذين فتح الله بهم مكة، وألفان من أهل مكة، وقيل: أكثر مما ذكر.

وكان ممن خرج من مكة جماعة كثيرون يريدون الغنيمة أو الصّدمة برسول الله ﷺ وأصحابه لعدم إيمانهم، أو كمال إيمانهم، فلما قاربوا العدوة صفّهم رسول الله ﷺ ووضع الألوية والرايات، وركب ﷺ بغلته، ولبس درعين والمغفر والبيضة، ولما قاربوا حنيناً مروا بشجرة كانت الكفار تعظمها وينوطون ـ أي: يعلِّقون ـ بها أسلحتهم، فقالت الصّحابة: يا رسول الله، اجعل لنا شجرة ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، هذا كما قال قوم موسى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[2]، إنها السنن، لتركبنّ سنن من قبلكم».

ولما كانوا بحنين وانحدروا في الوادي، وذلك عند غبش الصّبح، خرج عليهم القوم، وكانوا كمنوا لهم في شعاب الوادي ومضايقه، وذلك بإشارة دريد بن الصّمة

---

(١) حنين: واد يعرف اليوم بالشرائع، يبعد عن مكّة (٢٦) كيلاً شرقاً، وعن حدود الحرم من علَمَيْ طريق نجد (١١) كيلاً. انظر المعالم الأثيرة: (١٠٤).

(٢) الأعراف: ١٣٨.

قال لمالك: اجعل لك كميناً يكون لك عوناً، إنْ حمل القوم عليك جاءهم الكمين من خلفهم، وكررت أنت بمن معك عليهم، وإن كانت الحيلة لك لم ينفلت من القوم أحد.

فلمّا كان المسلمون بحنين وانحدروا بالوادي رآهم المشركون، فحملوا عليهم حملة رجل واحد، وكانوا رماة، فاستقبلوهم بالنّبل كأنهم جراد منتشر، لا يكاد يسقط لهم سهم، فأخذ المسلمون راجعين منهزمين، لا يلوي أحد على أحد، ويقال: إنّ الطُلَقَاء ـ وهم أهل مكة ـ قال بعضهم لبعض[1]: اخذلوه، فهذا وقته، فانهزموا، وتبعهم الناس، وعند ذلك قال أبو قتادة لعمر رضي الله عنهما: ما شأن الناس؟، قال عمر: أمْر الله، وانحدر رسول الله ﷺ ذات اليمين ومعه نفر قليل، منهم أبو بكر وعمر، وعلي والعباس، وابنه الفضل، وأبو سفيان ابن عمه ﷺ الحارث، وربيعة بن الحارث ومعتب بن عمه أبي لهب، ومعتب ابن عمته ﷺ.

وعن العباس ﷺ قال: كنت آخذ بزمام بغلة رسول الله ﷺ. أي: حينئذ.

وعن أنس قال: انهزم المسلمون بحنين، ورسول الله ﷺ على بغلته الشهباء، وكان يسميها دُلْدلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: «دلدلاً البدي» فألزقت بطنها في الأرض وأبو سفيان بن الحارث آخذ بركابه ﷺ، وهو يقول حين رأى الهزيمة: إلى أين أيها الناس، فلم يلتفت أحد إليه، فحينئذ قال ﷺ: «يا عباس اصرخ: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السّمرة ـ يعني شجرة بيعة الرضوان ـ اصرخ: يا مهاجرين، ناد: يا أصحاب سورة البقرة[2]، نادِ يا أنصار الله وأنصار رسوله، يا بني الخزرج، يا مهاجرين، يا أصحاب البيعة» فناداهم العباس ﷺ، وكان عظيم الصّوت.

قيل: كان صوته يُسمع من ثمانية أميال، ولم تسمع صوته حامل إلا وضعت من عظيم صوته.

فلما ناداهم ﷺ وعنهم أجابوا: لبيك لبيك، وفي لفظ: يا لبيك يا لبيك، أبشر نحن معك، وانعطفوا على رسول الله ﷺ انعطاف الإبل والبقر على أولادها حتى صار الرّجل يلوي بعيره فلا يقدر على ذلك لكثرة الأعراب المنهزمين، فيأخذ الرّجل درعه فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، ويقتحم عن بعيره، ويخلِّ سبيله، ويؤم

---

(١) وهم من لم يسلم حقيقة. مؤلف.

(٢) أي: لأنّ فيها: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وفيها ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾، وفيها: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾. مؤلف.

الصّوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ.

قال الراوي: فَلَرِمَاحُهم أخفّ عندي على رسول الله ﷺ من رماح الكفّار، فلما وصلوا إليه ﷺ اقتتلوا مع الكفار والتزموهم، وكان شعار المسلمين كيوم الفتح، وكان النبيّ ﷺ يقول: «أنا النبيّ لا كذب أنا ابن عبد المطلب».

ولما انخفضت به ﷺ بغلته أخذ كفًّا من تراب ـ وعن ابن مسعود ﷺ: حادت بالنبيّ ﷺ بغلته حينئذ فمال السّرج، فقلت: ارتفع رفعك الله، فقال لي: «ناولني كفّاً من تراب»[1] ـ فأخذه فقرأ عليه: «حم لا ينصرون، شاهت الوجوه»، ورماه في وجوه الأعداء، فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملئت عينه وفمه تراباً بتلك القبضة.

ولا مانع من تعدد الرمي، لأنه أيضاً رمى بكف من التراب، وبكف من الحصى ـ أي: من صغارها كالرمل ـ بل نصّ بعضهم على تعدد الرمي.

وكانوا يقولون بعد الوقعة: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ لم يقوموا لنا حلب شاة حتى كببناهم فبينما نحن نسوقهم إذ تلقانا صاحب بغلة[2]، فإذا هو رسول الله ﷺ، ومعه رجال بيض الوجوه حسان، وقالوا: شاهت الوجوه، ارجعوا، فانهزمنا من قولهم حتى صار يخيّل إلينا أنّ وراءنا كلّ حجر وشجر فارس يطلبنا، فركبوا أجسادنا فكانت إياها.

وكانت الجماعة التي ثبتت مع رسول الله ﷺ وقت الهزيمة مئة، قال حارثة بن النعمان ﷺ: مررتُ على رسول الله ﷺ، وهو يناجي جبريل عند باب المسجد، فقال جبريل: يا محمّد من هذا؟، فقال رسول الله ﷺ: «حارثة بن النعمان»، فقال جبريل: يا محمّد هو أحد المئة الصّابرة يوم حنين، لو سلّم لرددتُ عليه السّلام، قال: فلمّا أخبرني بذلك رسول الله ﷺ قلتُ له: ما كنت أظنّه إلا دحية الكلبي واقفاً معك.

وأخرج البيهقي في (الأسماء والصّفات(عن الضحّاك أنّه قال: دعاء موسى حين توجَّه إلى فرعون، ودعاء رسول الله ﷺ يوم حنين: «كنتَ وتكون، وأنت حيٌّ لا تموت، تنام العيون، وتنكدر النجوم وأنت حيّ قيُّوم، لا تأخذك سِنَةٌ ولا نوم، يا حيُّ يا قيُّوم[3]، اللهم إني أنشدك ما وعدتني، اللهم لا ينبغي لهم أن يظهروا علينا» فنصره

(١) تفرد به أحمد. انظر البداية والنهاية: (٤/٣٣٢).

(٢) واسم هذه البغلة دلدل، وكانت بيضاء اللون. انظر الروض الأنف: (١/٣٩٥).

(٣) إلى هنا رواية البيهقي في (الأسماء والصّفات) انظرها فيه برقم: (٢١٦).

الله تعالى بالملائكة.

وعن جمع من هوازن قالوا: لقد رأينا يوم حنين رجالاً بيضاً على خيل بلق، عليهم عمائم حمر، قد أرخوا أطرافها بين أكتافهم بين السماء والأرض كتائبَ، لا نستطيع أن نقاتلهم من الرّعب منهم.

وكان يوم حنين أمام المشركين رجل على جمل أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح طويل، وهوازن خلفه إذا أدرك مسلماً طعنه برمحه، وإذا فاته رفع رمحه لمن خلفه فاتبعوه، فبينما هو كذلك إذ هوى إليه علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار، فضرب علي ﷺ عرقوب جمله من خلفه فوقع على عجزه، ووثب الأنصاري على الرجل فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه، واجتلد الناس فما كمل رجوع المسلمين من هزيمتهم حتى وجدوا الأسرى مكتّفين عند رسول الله ﷺ.

ولما انهزم المسلمون في حنين تكلّم رجل من أهل مكة بما في نفوسهم في حقّ رسول الله ﷺ فعن شيبة الحجبي ـ أي: حاجب البيت وهي الكعبة المشرفة ـ أنه كان يحدِّث عن سبب إسلامه فيقول: سرت إلى حرب هوازن مع قريش، فقلت في نفسي: عسى أن يختلطوا، فأصيب من محمّد غرَّة، فأقتله فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلّها، لأنّ أباه وعمّه قتلهما حمزة يوم أُحُد ـ وكان يقول: لو لم يبق من العرب والعجم أَحَدٌ إلا اتّبع محمّداً ما تبعته ـ فلمّا اختلط المسلمون بالكفار، ونزل ﷺ عن بغلته أصلتُّ السيف، ودنوت منه أريد الذي أريد منه، ورفعت السّيف حتى كدت أوقع به الفعل، فرفع إليَّ شواظ من النّار كالبرق كاد يهلكني، فلمّا هممت به حال بيني وبينه خندق من نار وسور من حديد، والتفت إليَّ رسول الله ﷺ وتبسّم، وعرف الذي أريد، فناداني: «يا شيبة، ادن مني»، فدنوت منه فمسح صدري، ثمّ قال: «اللهم أعذه من الشيطان»، قال شيبة ﷺ: فوالله لهو كان مني تلك الساعة أحبّ إليّ من سمعي وبصري ونفسي، وأذهب الله ما كان فيَّ، ثمّ قال لي ﷺ: «ادن يا شيبة فقاتِلْ»، فتقدمت أمامه أضرب بسيفي، الله أعلم أنّي أحبّ أنْ أقيه بنفسي وكل شيء، ولو كان أبي حيّاً، ولقيته تلك الساعة لأوقعت به السيف، فصرت ألزمه فيمن لزمه حتى تراجع المسلمون، وكروا كرَّة رجل واحد، وقربت إليه بغلته، فاستوى عليها قائماً، وخرج في أثرهم حتى تفرّقوا في كلّ وجه لا يلوي أحد منهم على أحد.

وأمر ﷺ أن يقتل من قدر عليه، ومن قتل قتيلاً فله سلبه، فأبو طلحة ﷺ أخذ

سلب واحد وعشرين رجلاً، لأنه هو الذي قتلهم ذلك اليوم.

قال أبو قتادة: رأيت يوم حنين مسلماً ومشركاً يقتتلان، وإذا رجل من المشركين يريد إعانة المشرك على المسلم، فأتيته وضربت يده فقطعتها، فاعتنقني بيده الأخرى، فوالله ما أرسلني حتى وجدت ريح الموت، ولولا أنّ الدم نزفه لقتلني، فسقط وضربته فقتلته، وأجهضني عنه القتال فلا أدري من سلبه، فلما وضعت الحرب أوزارها قلت: يا رسول الله، لقد قتلت قتيلاً ذا سلب، وأجهضني عنه القتال فما أدري من استلبه، فقال رجل من أهل مكة: صدق يا رسول الله، أنا سلبته، فأرضه مني عن سلبه، فقال أبو بكر ﷺ: أيعمد إلى أسد من أُسد الله يقاتل عن دين الله تقاسمه سلب قتيله، فقال رسول الله ﷺ: «صدق أبو بكر، ردَّ عليه سلبه» فردّه عليه. قال أبو قتادة: فأخذته منه واشتريت بثمن السلب الذي جمعته ذلك اليوم بستاناً.

وأدرك ربيعة بن رفيع دريداً فأخذ خطام جمله، وهو يظنّ أنه امرأة فإذا هو شيخ كبير أعمى، ولا يعرفه الغلام، فقال له دريد ما تريد؟، قال: قتلك، قال: ومن أنت؟، قال: أنا ربيعة بن رفيع السلمي، ثمّ ضربه بسيف فلم يغني عنه شيئاً، فقال له دريد يسخر به: بئسما سلّحتك أمّك، خذ سيفي هذا من مؤخّر الرّحل، ثمّ اضرب به، وارفع عن العظام، واخفض عن الدّماغ، فإني كذلك كنت أضرب الرّجال، ثمّ إذا أتيت أمّك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصّمة فربَّ يوم مَنَعْتُ فيه نساءك، فقتله، فلمّا أخبر ربيعة أمه بقتله قالت: أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثاً، ألا تكرّمت عن قتله لما أخبرك بمنِّه علينا، فقال: ما كنت لأتكرّم حتى يرضى الله ورسوله.

ولما انهزم المشركون عسكر بعضهم بأوطاس فبعث رسول الله ﷺ في آثارهم أبا عامر الأشعري، ورجع رسول الله ﷺ إلى معسكره، قال شيبة[1]: فدخل رسول الله ﷺ خباءه، فدخلتُ عليه، وما دخل عليه غيري حبًّا لرؤية وجهه وسروراً به، فقال: «يا شيبة، لَلَّذي أراد الله خير مما أردت بنفسك»، ثمّ حدثني بكلّ ما أضمرتُ في نفسي مما لم أذكره لأحد قطّ، فنطقت بالشهادتين، ثمّ قلتُ: استغفر لي يا رسول الله، فقال ﷺ: «غفر الله لك»[2].

ولما وقعت الهزيمة للكفّار أسلم ناس من كفّار مكة وغيرهم لما رأوا نصر الله

---

(١) هو شيبة بن عثمان بن أبي طلحة العبدري الحجبي.

(٢) انظر البداية والنهاية: (٨/٢١٣)، وعيون الأثر: (٢/٢٥٣).

لرسوله ﷺ، وأمر رسول الله ﷺ بالسبي والغنائم أن تُجمع فجمع ذلك كلّه وأحدروه إلى الجعِرَّانة، فكان بها إلى أنِ انصرف رسول الله ﷺ من غزوة الطائف.

وعن عابد بن عمرو قال: أصابني رمية يوم حنين في جبهتي، فسال الدم على وجهي وصدري، فسدّ النبيّ ﷺ الدم بيده الشريفة عن وجهي وصدري، ثمّ دعا لي، فصار أثر يده غرة سائلة كغرّة الفرس[1].

وجرح خالد بن الوليد رضي الله عنه فتفل ﷺ في جرحه فلم يضرّه، وكانت أم سليم مع زوجها أبي طلحة، وهي حازمة وسطها ببرد لها، وفي حزامها خنجر، وكانت حاملاً بابنها عبد الله، فقال لها زوجها أبو طلحة: ما هذا الخنجر الذي معك يا أم سليم؟، قالت: إنْ دنا مني أحد من المشركين بعجته به، فقال أبو طلحة: ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أمّ سليم الرُّمَيْصاء، فأعاد عليه القول، فجعل ﷺ يضحك.

وكان يقول لها: الغُمَيْصاء: وهي التي يخرج القذى من عينها، كانت أسلمت قبل أبي طلحة، فخطبها أبو طلحة، وهو مشرك فأبت إلا أن يسلم، فتزوجته بلا صداق، فأسلم وتزوجها، قال أنس: قال رسول الله ﷺ: «دخلتُ الجنة فسمعت خَشْفَة[2]، فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذه الرميصاء بنت ملحان أم أنس بن مالك»[3].

غزوة الطائف

سببها: ما تقدّم أنّ مالك بن عوف ذهب مع جمع من أشراف قومه منهزمين إلى الطائف، وتحصنوا به، وأخذوا فيه ما يصلحهم سنة، فلمّا علم رسول الله ﷺ بذلك خرج ﷺ من حنين، وتوجَّه إليهم، وترك السبي والغنائم بالجِعرَّانة مع بديل بن ورقاء الخزاعي، ومرَّ ﷺ بحصن مالك بن عوف، فأمر به فهُدِم، ومرَّ ﷺ بحائط ـ أي:بستان ـ لرجل من ثقيف قد تمنّع فيه، فأرسل إليه رسول الله ﷺ: «إما أنْ تخرج، وإما أنْ نخرب عليك حائطك»، فأبى أنْ يخرج، فأمر ﷺ بإحراقه.

ومرّ ﷺ بقبر، فقال: «هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف وكان من ثمود».

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك برقم: (٦٤٨٦)، وتعقبه الذهبي في التلخيص بقوله: في سنده مجهولان، ورواه الطبراني في الكبير برقم: (٣٢).

(٢) الخَشْفَة: الحسّ والحركة. انظر النهاية لابن الأثير: (٢/٩٢).

(٣) رواه أحمد في المسند برقم: (١٣٥٣٨)، وابن حبان في صحيحه برقم: (٧١٩٠)، والطبراني في الكبير برقم: (٣١٧). ورواه غيرهم.

وأخرج إسحق بن بشر وابن عساكر عن مجاهد أنّه سأل: هل بقي من قوم لوط أحد؟ قال: لا، إلا رجل بقي أربعين يوماً كان تاجراً بمكة فجاءه حجر ليصيبه في الحرم، فقامت إليه ملائكة الحرم، وقالوا للحجر: ارجع من حيث جئت، فإنّ الرّجل في حرم الله تعالى، فرجع الحجر، فوقف خارجاً من الحرم أربعين يوماً بين السماء والأرض حتى قضى الرجل تجارته فلمّا خرج أصابه الحجر خارجاً من الحرم[1]، فقتله فدفن محلّه.

وقال ﷺ: «وآية ذلك: أنه دفن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه»، فابتدره الناس، فاستخرجوا منه الغصن[2].

ثمّ إنه ﷺ قدّم خالد بن الوليد ﷺ على مقدّمته حتى وصل إلى الطائف، ونزل قريباً من الحصن، وعسكر هناك، فرموا المسلمين بالنّبل رمياً شديداً حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحات، ومات ممن جرح بالطائف اثنا عشر رجلاً، وحينئذ ارتفع ﷺ إلى موضع مسجد الطائف الآن، وكان معه ﷺ من نسائه أمّ سلمة وزينب رضي الله تعالى عنهما فضرب لهما قبتين، وكان يصلي بين القبتين الصّلاة المقصورة مدّة حصار الطائف، وكانت ثمانية عشر يوماً غير يومي الدخول والخروج.

ودخل ﷺ خيمة لأم سلمة وعندها أخوها عبد الله ومخنّث[3]، وإذا المخنّث يقول: يا عبد الله، إنْ فتح الله عليكم الطائف غداً، فعليك بابنة غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان[4]، فقال ﷺ: «قاتلك الله، لقد أمعنت النظر، ما كنت أظنّ هذا المخنث يعرف شيئاً من أمر النساء» ثمّ نفاه من المدينة.

ثمّ إنّ خالداً نادى: من يبارز؟، نادى بذلك مراراً، فأجابوه بأنه لا مبارز، وإنْ أقبلتَ أصبناك بسهامنا، فحينئذ نُصِب عليهم المنجنيق بأمر النبيّ ﷺ فرمُوا به، أرشد

---

(١) انظر الدر المنثور: (٤/٤٦٤).

(٢) رواه أبو داود في سننه برقم: (٣٠٨٨)، وابن حبان في صحيحه برقم: (٦١٩٨)، والطبراني في الأوسط برقم: (٢٧٨٨). ورواه غيرهم.

(٣) واسم هذا المخنّث: هيت. انظر سيرة ابن كثير: (٣/٦٦٠).

(٤) علق عليه في هامش المخطوط بهذه الكلمات: وأراد المخنّث بالأربع التي تقبل بهنّ: عكنها الأربع التي في بطنها، ولكلّ عكنة طرفان فتكون ثمانية التي تدبر بهنّ. اهـ. وهذه المرأة هي بادية بنت غيلان من سادات ثقيف. انظر سيرة ابن كثير: (٣/٦٦٠).

المسلمين إلى ذلك سلمان الفارسي ﷺ، ثمّ دخل نفر من الصّحابة تحت دبابة[1] وزحفوا بها إلى جدار الحصن ليخرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد المحمّاة بالنار، فخرجوا من تحتها هاربين، فرموهم بالنبل، فقتل منهم جماعة.

وأمر رسول الله ﷺ بقطع أعنابهم ونخيلهم وتحريقها، فقطع المسلمون قطعاً ذريعاً، فسألوه ﷺ أن يدعها لله وللرّحم، فقال ﷺ: «فإني أدعها لله وللرّحم»، ونادى رسول الله ﷺ: «أيُّ عبد نزل من الحصن، وخرج إلينا فهو حُرٌّ» فخرج منهم بضعة عشر، وقيل: ثلاثة وعشرون رجلاً، ونزل أبو بكرة في بكرة، فلقب من يومئذ بأبي بكرة، وكان اسمه عبد الحارث بن كلدة، فأعتقهم رسول الله ﷺ، ودفع كلّ شخص منهم لواحد من المسلمين يموّنه، فشقّ ذلك على أهل الطائف مشقّة عظيمة.

واستأذن عيينة بن حصن النبيّ ﷺ ليدخل الحصن فيدعو من فيه إلى الإسلام، فأذن له النبيّ ﷺ، فدخل وقال لهم: تمسّكوا في حصونكم، فوالله، إنا لنحن أذلُّ من العبيد، فلمّا رجع وادَّعى أنه دعاهم للإسلام فأبوا، كذَّبه رسول الله ﷺ، وقال له: إنما قلت كذا وكذا، فقال: صدقت يا رسول الله، إني تائب إلى الله وإليك من ذلك.

ولم يؤذن للنبيّ ﷺ في فتح الطائف، كما ورد أنّ عدداً من الصّحابة قالوا: يا رسول الله، ما يمنعك من أن تحمل عليهم حملة رجل واحد فتفتح الحصن؟، فقال ﷺ: «لم يؤذن لي في فتحه هذه المرة».

واستشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الدئلي في الذهاب أو المقام، فقال نوفل: ثعلب في جحر، إنْ أقمت أخذته، وإنْ تركته لم يضرك، فأمر ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ فآذن الناس بالرّحيل، فقبّح الناس ذلك، وقالوا: كيف نرحل ولم يفتح لنا؟!، فقال رسول الله ﷺ: «فاغدوا على القتال»، فغدوا فأصاب المسلمين جراحات، فقال رسول الله ﷺ: «إنا قافلون إن شاء الله تعالى»، فسرّوا بذلك وأذعنوا، فجعلوا يرحلون، ورسول الله ﷺ يضحك تعجُّباً من سرعة رجوعهم لرأيه ﷺ، وقال لهم: «قولوا: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، فلمّا ارتحلوا واستقبلوا رسول الله ﷺ قال لهم: «قولوا: آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون»، فقيل: يا رسول الله، ادع على ثقيف أهل الطائف، فقال ﷺ: «اللهم اهد ثقيفاً وأت بهم مسلمين».

---

(١) الدّبّابة: آلة من جلد يدخل فيها الرجال ليدنوا بها إلى الأسوار فيثقبونها. مؤلف.

ويوم الطائف قلعت عين أبي سفيان بن حرب، فأتى بها النبيّ ﷺ، فقال له النبيّ ﷺ: «إنْ شئت دعوت الله، فرددت عليك عينك، وإنْ شئت فعين في الجنة»، قال: بل في الجنة، ثمّ رمى بها من يده، ثمّ إنّه قلعت عينه الثانية يوم اليرموك عند مقاتلة الروم آخر خلافة الصّديق رضي الله عنه وأول خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان يحرّض المسلمين حينئذ على قتال الروم والثبات لهم، ويقول: الله الله عباد الله، انصروا الله ينصركم، اللهم إنّ هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك.

ومن جملة من جُرِح بالطائف سيدنا عبد الله بن أبي بكر الصّديق رضي الله تعالى عنهما، رماه بسهم أبو محجن فطاوله ذلك الجرح إلى أنْ مات به في خلافة أبيه، وكان متزوِّجاً بعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، وكان يحبّها حبّاً شديداً، مرَّ عليه أبوه يوم جمعة، وهو يلاعبها، وقد صلَّى الناس الجمعة، فقال عبد الله رضي الله عنه: أو جَمَّعَ الناسُ؟، فسمعه أبوه، فقال له: أشغلتك عن الصّلاة؟! لا جرم لا أبرح حتى تطلّقها، فطلّقها.

ثمّ تعب عبد الله بسبب طلاقها، فاطّلع عليه أبوه يوماً، فسمعه يقول أبياتاً من جملتها هذا البيت:

فلم أر مثلي طلّق اليوم مثلها ... ومثلها من غير جرم تطلّق[1]

فقال أبوه: يا عبد الله، راجع عاتكة، فقال لأبيه: قف مكانك، وكان معه مملوك، فقال له: أنت حرٌّ لوجه الله تعالى، واشهدوا أني قد راجعت عاتكة، فلمّا مات عبد الله رثته بأبيات منها:

آليت لا تنفك عيني سخية ... عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

ثمّ تزوَّجها عمر رضي الله عنه فقال له علي رضي الله عنه: أتأذن لي أن أُكَلِّم عاتكة، فقال: لا غيرة عليك كلِّمها، فقال لها: أنت القائلة:

آليت لا تنفك عيني سخية ... عليك ولا ينفك جلدي أغبرا[2]

قالت: لم أقل هكذا وبكت، وعادت إلى حزنها، فقال عمر: يا أبا الحسن ما أردت إلا فسادها عليَّ، فلما قتل عمر رضي الله عنه رثته بأبيات منها:

من لنفسي عادها أحزنها ... ولعين شفها طول السهد

---

(١) والبيت الثاني: لها خلق جزل ورأي ومنصب ... وحلم وعقل في الأمور ومصدق

(٢) وبقية الأبيات: فلله عيناً من رأى مثله فتى ... أعفّ وأكفى في الأمور وأصبرا
إذا أشرعت فيه الأسنّة خاضها ... إلى الموت حتى يترك أحمرا

جسد لفف في أكفانه رحمة الله على ذاك الجسد[1]

ثمّ تزوجها الزبير ﷺ، فلما قتل رثته بأبيات تخاطب قاتله منها:

ثكلتك أمك إن قتلت لمسلما حلّت عليك عقوبة المتعمد[2]

ثمّ خطبها عليٌّ ﷺ فقالت له: يا أمير المؤمنين، بالمسلمين إليك حاجة، ولِمَ تتزوج. ومن ثمّ قيل في حقها: من أراد الشهادة فعليه بعاتكة[3].

وعند منصرفه ﷺ من الطائف بينما هو يسير ليلاً بواد بقرب الطائف إذ غشي سدرة في سواد الليل، وهو في وسن النوم، فانفرجت له السّدرة نصفين، فمرَّ ﷺ بين نصفيها، وبقيت منفرجة على حالها.

وعند انحداره ﷺ إلى الجِعرَّانة لقيه سراقة، وهو واضع الكتاب الذي كتبه له ﷺ عند الهجرة كما تقدّم بين أصبعيه، وينادي: أنا سراقة، وهذا كتابي، فقال ﷺ: «هذا يوم وفاء ومودّة»، فأدنوه منه ﷺ حتى أجلسوه بين يديه، وأعلمه ﷺ بحديث الصّدقة ـ أي: الزكاة ـ وسأل سراقة رسول الله ﷺ عن ضالّة الإبل تَرِدُ حوضه الذي ملأه لإبله، فهل له أجرٌ إذا هو سقاها منه؟، فقال ﷺ: «نعم، في كل ذات كبد حرَّاء أجر».

وعند وصوله ﷺ الجِعرَّانة أحصى السبي فكان ثمانية وستين ألف متنوّعة: فالإبل أربعة وعشرون ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألفاً، وأربعة آلاف أوقية فضة، فأعطى ﷺ المؤلفة ـ أي: من أسلم من أهل مكة ـ فكان أوّلهم أبا سفيان، فأعطاه النبيّ ﷺ أربعين أوقية من الفضة، ومئة من الإبل، وأعطى ابنه يزيد كذلك، وابنه معاوية كذلك، فقال أبو سفيان: هذا غاية الكرم، جزاك الله خيراً، بأبي أنت يا رسول الله، لأنت كريم في الحرب والسلم.

وسأل حكيم بن حزام النبيّ ﷺ مئة من الإبل، فأعطاه، ثمّ سأله مئة، فأعطاه، ثمّ سأله، فأعطاه، وقال له: «يا حكيم، هذا المال خضرة حلوة، من أخذه بسخاوة

---

(١) لم أجد هذين البيتين لعاتكة في رثاء سيدنا عمر ﷺ بل وجدت بيتاً واحداً، وهو:

وفجعني فيروز لا درّ دره بتالي الكتاب في الظلام منيب

(٢) البيت منحوت من بيتين اثنين قالتهما عاتكة رضي الله عنها، وهما:

ثكلتك أمك إن ظفرت بمثله فيما ما مضى ممن يروح ويغتدي

والله ربك إن قتلت لمسلماً حلّت عليك عقوبة المتعمّد

(٣) كان سيّدنا عليّ ﷺ يقول: من أراد الشهادة الحاضرة فعليه بعاتكة. انظر الوافي في الوفيات: (٥/٣١٥).

نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من السفلى»، فأخذ حكيم المئة الأولى وترك المئتين الأخيرتين، وقال: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر وعمر في خلافتهما يعرضان عليه العطاء فيأبى أن يأخذه[1].

وأعطى ﷺ الأقرع بن حابس مئة من الإبل، وأعطى عيينة بن حصن مثله، وأعطى العبّاس بن مرداس أربعين من الإبل فقال شعراً:

أتجعل نهبي ونهب العبيد ... بين عيينة والأقرع

فما كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرداس في المجمع

وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تضع اليوم لا يرفع[2]

فقال ﷺ: «اقطعوا عنّي لسانه، أعطوه تمام المائة»، فأعطوه تمامها، فقال الصّحابة رضي الله عنهم: يا رسول الله، أعطيت هؤلاء ما ذكروا، وتركتَ جعيل بن سراقة؟!، فقال ﷺ: «أما والذي نفس محمّد بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلّهم من مثل عيينة والأقرع، ولكن تألفتهما ليُسْلما، ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه». وجعيل هذا كان من فقراء الصّحابة، تصوّرَ الشيطان بصورته يوم أُحُد، فقال: إنّ محمّداً قد مات. وكان صالحاً ذميم المنظر، وجاء أنه ﷺ قال: «إني لأعطي الرجل، وغيرُه أحبّ إلي منه خشية أنْ يُكبَّ في النار على وجهه، وإنّ من الناس ناساً أَكِلُهُم إلى إيمانهم منهم خوات بن حبان».

وأعطى ﷺ صفوان بن أمية جميع ما في الشّعب بين جبلين من الإبل والغنم، فأسلم كما تقدم، وجاء عن أنس ﷺ قال: كان الرجل يأتي النبيّ ﷺ فيُسْلم لشيء يُعطاه من الدنيا، فلا يمسي حتى يكون الإسلام أحبُّ إليه من الدنيا بما فيها، ولا زال رسول الله ﷺ يعطي الرّجل مئة وخمسين من الإبل، وذلك كلُّه من الخُمُس.

وقسّم ﷺ الأربعة أخماس الباقية بعد أن أكثروا عليه ﷺ في الطلب قِسْمتها، فخَصّ رسول الله ﷺ كلّ رجل بأربع من الإبل، وأربعين شاة، وأخذ الفارس اثني عشر من الإبل، ومئة وعشرين من الشاء.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري (مع اختلاف باللفظ) برقم: (١٤٠٣)، والترمذي في سننه برقم: (٢٤٦٣). ورواه غيرهما.

(٢) وتتمة الأبيات: وقد كنت في الحرب ذا تدرأ ... فلم أعط شيئاً ولم أمنع

وازدحم الناس على النبيّ ﷺ يسألونه حتى ألجؤوه إلى شجرة، وخطفوا رداءه، فقال ﷺ: «ردّوا عليَّ ردائي أيّها النّاس، فوالله، لو كان لي بشجر تهامة نَعَماً لقسمته عليكم، ما لقيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذوباً»، ثمّ قال ﷺ: «ما لي من فيئكم الخُمُس، والخُمُس مردود عليكم».

وقال معتب بن قشير: هذه القسمة ما عُدِل فيها، وما أُرِيد بها وجه الله، فأُخْبِر رسول الله ﷺ بذلك، فغضب غضباً شديداً، واحمرَّ وجهه ﷺ وقال: «من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟؟، رحمة الله على أخي موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

وروي أنّ ذا الخويصرة التميمي، وهو منافق أيضاً لكنه غير اليماني الذي بال في المسجد، قال مثل هذه المقالة، فقال: قد رأيتُ يا محمّد ما صنعت في هذا اليوم، فقال رسول الله ﷺ: «أجل، فكيف رأيت؟»، قال: لم أرك عدلت، فغضب رسول الله ﷺ، ثمّ قال ﷺ: «ويحك، إذا لم يكن العدل عندي، فعند من يكون؟؟!»، فقال عمر رضي الله عنه: ألا أضرب عنقه؟، ثمّ أدبر ذو الخويصرة، فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: ألا أضرب عنقه؟، قال رسول الله ﷺ: «لا دعوه فإنه سيكون منه شيعة يتعمَّقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية»[1].

فاتفق مصداق قوله ﷺ فيه أنْ خرج منه حرقوص المعروف بذي الثدية، وهو أول من بويع من الخوارج بالأمة، وأول مارق من الدين.

وقد أخبر ﷺ بالخوارج، وأنّ فيهم رجلاً له عضد، وليس له ذراع، رأس عضده مثل ثدي المرأة. فلما قاتل عليٌّ رضي الله عنه الخوارج، وقتل غالبهم، التَمَس ذلك الرجل، فوجده مقتولاً، فقال عليٌّ رضي الله عنه: الله أكبر، صدق رسول الله ﷺ في وصفه لهم.

ولما أعطى رسول الله ﷺ العطايا لقريش وقبائل العرب، ولم يعطِ الأنصار إلا سهمهم، قالت أحداثهم: إنّ هذا لهو العجب، يعطي قريشاً والمهاجرين، ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، وإنّ غنائمنا تردّ عليهم، فإنْ كان من الله صبرنا، وإنْ كان من أمر رسول الله ﷺ استعتبناه، فأخبر سعد بن عبادة النبيّ ﷺ بمقالتهم، وقال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي، فقال ﷺ: «اجمع لي قومك في هذه الخيمة»، فاجتمعوا، فأتاهم النبيّ ﷺ، وقال: «هل فيكم أحد من غيركم يا معشر الأنصار؟»،

---

(١) هذا الحديث متواتر، من أعلام النبوّة، وقد أورد ابن كثير له اثنا عشر طريقاً. انظر البداية والنهاية: (٧/٢٩١) وما بعدها.

قالوا: لا، إلا ابن أخت لنا، فقال ﷺ: «إنّ ابن أخت القوم منهم»، ثمّ حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله، وقال ﷺ بعد ذلك: «يا معشر الأنصار، ما مقالة بلغتني عنكم، وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟، ألم آتكم ضُلَّالاً، فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألّف بين قلوبكم، ألم آتكم متفرقين فجمعكم الله، ألم يمنَّ الله عليكم بالإيمان، وخصكم بالكرامة، وسماكم بأحسن الأسماء: أنصار الله وأنصار رسوله؟»، قالوا: بلى، الله ورسوله أمنُّ وأفضل، فقال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟»، قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المنّة والفضل افعل يا رسول الله ما شئت، فأنت في حلٍّ، فقال ﷺ: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصُدِّقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدقّناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فأغنيناك، وخائفاً فأمَّناك».

فقالت الأنصار: المنُّ لله ولرسوله، والفضل علينا وعلى غيرنا، وجدتنا يا رسول الله في ظلمة، فأخرجنا الله بك إلى النور، ووجدتنا على شفا جرف هار من النار، فأنقذنا الله بك، ووجدتنا ضُلَّالاً فهدانا الله بك، فرضينا بالله ربًّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمّد ﷺ نبيًّا ورسولاً، فقال ﷺ: «ما حديث بلغني عنكم فسكتوا؟»، فأعاد الاستفهام التقريري أو الإنكاري التوبيخي، فقال: فقهاء الأنصار: أمّا رؤساؤنا فلم يقولوا شيئاً، وأما ناس منَّا حديثة أسنانهم، قالوا: يغفر الله تعالى لرسوله ﷺ، يعطي قريشاً، ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، ولم يكذبوك، فقال ﷺ: «إني لأعطي رجالاً حديثو عهد بكفر أتألّفهم، وإنّ قريشاً حديثو عهد بجاهلية ومصيبة، وإني أردت أجبرهم وأتألفهم، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعَاعة ـ أي: شيء قليل من الدنيا ـ ألّفتُ بها قوماً ليسلموا ـ أي: أعطيها لهم ـ يحسن إسلامهم، وليسلم غيرهم تبعاً لهم، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم، فوالذي نفس محمّد بيده للذي تنقلبون به خير مما ينقلبون به، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، اللهم صلِّ على الأنصار وعلى ذرية الأنصار، وعلى ذرية ذرية الأنصار» فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قَسْماً وحظّاً، ثمّ انصرف رسول الله ﷺ وتفرّقت الأنصار[1].

---

(١) رواه أحمد في المسند برقم: (١١٧٤٨)، وابن أبي شيبة في المصنّف برقم: (٤١٨).

ولما أُسرت أخته ﷺ من الرّضاع الشّيماء ويقال له: الشمّاء بلا ياء، فصارت تقول: إني والله أخت صاحبكم ولا يصدّقونها إلى أن أتى بها الأنصار إلى النبيّ ﷺ، فقالت: يا محمّد إنّي أختك، فقال ﷺ: «وعلامة ذلك الحديث»، قالت: عضّة عضضتنيها في ظهري لما حملتك، وأنت صغير، وكشفت عن مكان العضّة، فحينئذ قام لها رسول الله ﷺ، وبسط لها رداءه الشريف، وأجلسها عليه، ودمعت عيناه ﷺ، وسألها عن أمّه وأبيه، فأخبرته بموتهما، فقال ﷺ لها: «سليني تعطي، واشفعي تشفّعي»، فاستوهبته سَبْي حيِّها، فوهبه لها، وخيّرها بين المقام عنده ﷺ، وبين الرّجوع إلى قومها، فاختارت قومها، فردَّها النبيّ ﷺ إلى قومها، وأعطاها ثلاثة أعبد وجارية وإبلاً وشاء[1].

ثمّ قدم عليه ﷺ وفد هوازن يطلبون منه ﷺ أن يمنَّ عليهم بالسَّبْي والمال المأخوذ منهم، وكان الوفد أربعة عشر رجلاً قدموا مسلمين، ورئيسهم زهير بن صرد، كنيته: أبو برقان، عمٌّ لرسول الله ﷺ من الرّضاع، فقالوا: يا رسول الله، إنا أصل العشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك إن ما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك كنّ يكفلنك، ولو أنّ ملحنا لابن شمر أو النعمان بن المنذر، ثمّ أصابنا منهما مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما، وأنشأ زهير يقول أبياتاً منها:

امنن رسول الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه وندّخر

فقال ﷺ: «نساؤكم وأبناؤكم أحبّ إليكم، أم أموالكم؟» فقالوا: يارسول الله، خيّرتنا بين أحسابنا وأموالنا، بل أبناؤنا ونساؤنا أحبّ إلينا، فقال ﷺ: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا أنا صلّيت بالناس، فقوموا وقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ في أبنائنا ونسائنا»، فقالوا: هذه المقالة بعد صلاة الظهر، فقال ﷺ بعد أن أثنى على الله بما هو أهله: «أما بعد: فإنّ إخوانكم هؤلاء جاؤونا تائبين، وإني قد رأيت أن أردَّ عليهم سبيهم، فمن أحبّ أن يطيب نفساً فليفعل، ومن أحبّ منكم أن يكون على حظِّه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل»، فقال الصّحابة: رضينا جماعة بعد جماعة، فردّوا السبي كلّه إلا عجوز من عجائزهم، كانت عند عيينة بن حصن، فأبى أن يردَّها.

---

(١) انظر البداية والنهاية: (٤/٣٦٣)، وتاريخ الطبري: (٢/١٧١).

ودعا ﷺ على من لم يردّ أنْ يبخس ـ أي: يكسد عليه سبيه ـ فقال ﷺ للوفد: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم»، فقال المهاجرون والأنصار: وما كان لنا، فهو لرسول الله ﷺ، فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال العباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: بلى، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال العباس بن مرداس: وهّنتموني ـ أي: ضعّفتموني حيث صيّرتموني منفرداً ـ فقال رسول الله ﷺ: «هؤلاء القوم جاؤوا مسلمين، وقد خيّرتُهم، فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئاً، فمن كان عنده شيء، وطابت نفسه أنْ يردّه فليردّه، ومن أبى فليردّ عليهم ذلك قرضاً علينا، بكلّ إنسان ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا»، فقالوا: رضينا وسلمنا، فردّوا عليهم نساءهم وأبناءهم إلا عيينة بن حصن أبقى عجوزاً عنده وأبى أن يردّها إلا بالفداء، فجاء ابنها ودفع له مئة من الإبل، فأبى، ثمّ غاب عنه، فمرّ عليه، فقال: خذها بالمائة، فقال ابنها: لا آخذها إلا بخمسين، فأبى، ثمّ غاب عنه، ومرّ عليه، فقال: خذها بخمسين، فقال ابنها: لا أدفع إلا خمسة وعشرين، فأبى، ثمّ غاب ابنها عنها، ومرّ عليه معرضاً عنها، فقال: خذها بالخمسة وعشرين، فقال: لا آخذها إلا بعشرة، وفي رواية: بستة، فقال: خذها، لا بارك الله لك فيها.

ولما أخذها ولدها قال لعيينة: إنّ رسول الله ﷺ كسا السبي قبطية قبطية، فقال: لا والله، ما ذاك لها عندي، فما فارقه ولدها حتى أخذ لها منه ثوباً أو القبطية ـ بضم القاف: ثوب أبيض من ثياب مصر، منسوبة للقبط، وهم أهل مصر.

وأمر رسول الله ﷺ بحبس أهل مالك بن عوف النَّصْري بمكة عند عمّتهم أم عبد الله بن أمية بعد أنْ كلّمه الوفد فيهم، وقالوا: يا رسول الله، هؤلاء سادتنا، فقال ﷺ: «إنما أريد بهم الخير».

ولم يجر ﷺ السهمين في مال مالك بن عوف ـ أي: لم يأمر ﷺ بقسمته بين الراجل والفارس ـ وقال ﷺ لوفد هوازن: «ما فعل مالك بن عوف؟»، قالوا: يا رسول الله، هرب فلحق بحصن الطائف مع ثقيف، فقال ﷺ: «أخبروه أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مئة من الإبل»، فلمّا بلغه ما قال ﷺ نزل من الحصن مستخفياً خوفاً من أن تحبسه ثقيف إذا علموا حاله، ولحق برسول الله ﷺ فأدركه بالجِعِرَّانة، وأسلم وردَّ ﷺ أهله وماله، واستعمله على من أسلم من هوازن، فكان لا يقدر على سرج لثقيف إلا أخذه، ولا على رجل إلا قتله لكفرهم وإسلامه.

وأحرم رسول الله ﷺ من الجِعِرَّانة، ودخل مكة ليلاً، واستمرَّ يلبِّي حتى استلم الحجر الأسود، ثمّ رجع ﷺ من ليلته، ولم يسق هدياً في هذه العمرة، وحلق رأسه الشريف فيها أبو جد الحجام وقيل: أبو خراش الذي حلق رأسه ﷺ في الحديبية.

وكانت هذه العمرة بعد أن أقام ﷺ في الجِعِرَّانة ثلاث عشرة ليلة، وقال ﷺ: «اعتمر منها سبعون نبيّاً».

وجاءه ﷺ رجل وهو بالجِعِرَّانة فوقف على رأسه فقال: يا رسول الله، إنّ لي عندك موعداً، فقال ﷺ: «صدقت فاحتكم ما شئت»، فقال: أحتكم ثمانين ضائنة وراعيها، فقال ﷺ: «هي لك، ولقد احتكمت يسيراً، ولصاحبة موسى ـ عليه السلام ـ التي دلّته على عظام يوسف ـ عليه السلام ـ كانت أحزم منك وأجزل حكماً منك حين حكّمها موسى ـ عليه السلام ـ فقالت: حكمي أن تردني شابة، وأدخل معك الجنة»[1].

روي أنها قالت: لا أدلّ عليه حتى تدعو لي بذلك، فدعا لها موسى عليه السلام، وعاد شبابها بعد أنْ كان عمرها سبعمئة سنة، فأرته القبر تحت ماء النيل، فاستخرجه موسى عليه السلام، وكان في صندوق من الرخام، وعاشت بعد ذلك بقدر ما مضى من عمرها.

وإلى بعض ما وقع في غزوة هوازن أشار المصنف بقوله:

ويوم حنين قد رميت العدا بما　　　رميت عليهم من تراب بغضة

حاصله: يا رسول الله ـ في يوم غزوة هوازن، في المكان الذي يقال له: حنين، لما فرّ أصحابك منهم ـ أخذتَ كفّاً من تراب، وفي رواية: من حصى ـ أي: رمل لأنه حصى صغير ـ ثمّ رميته في وجوه أعدائك هوازن، وكانوا ألوفاً في مكان بعيد لا يصل إليه التراب المرمي من هذه المسافة عادة، فوصل إليهم التراب مع بعدهم، وملأ أعينهم كلّهم مع قلّته وكثرتهم وبعد مكانهم، فإنّ قبضة التراب في العادة لا تبلغ هذا المقدار، فرجعوا مخذولين، وكان ذلك من معجزاتك يا رسول الله. قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[2] الآية.

وكانت الهزيمة من الله لهم أولاً ليتحققوا أنّ النصر من الله، لا من قوّتهم، ولا

---

(١) أورد هذا الحديث الغزّالي في إحياءه، وقال العراقي: أخرجه ابن حبان والحاكم وقال: (صحيح الإسناد)، وفيه نظر. انظر الإحياء: (٢/١٣٣).

(٢) الأنفال: ١٧.

من كثرتهم، لأنهم لما خرجوا من مكة، كانوا يقولون: لا نغلب اليوم مع هذا الجمع العظيم، فقد كنا ننتصر مع العدد القليل، فكيف بهذا الجمع الغفير. كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾[1]. أي: لم تغن من الله شيئاً، فلمّا حصل النصر بعد الهزيمة، تحقّقوا أنّ النصر من الله، لا من العَدَد، ولا من العُدَد.

سرية خالد بن الوليد ﷺ إلى العزّى بنخلة لتخريبها

بعد أنْ فتح الله مكة على رسوله ﷺ، أرسل النبيّ ﷺ خالد بن الوليد ﷺ مع ثلاثين فارساً من أصحابه بهدف تخريب العزّى، وهو صنم كانت قريش تعظّمه جداً، ويهدون إليه كالكعبة، لأنّ عمرو بن لُحَي الذي دعا لعبادة الأصنام أخبرهم بأنّ الربَّ جلّ وعلا شتَّى بالطائف عند اللات، ويصيف عند العزَّى بنخلة، وعمرو هذا أول من غيَّر دين إبراهيم عليه الصّلاة والسلام، وأوّل من ولي البيت بعد جُرْهم، وهو أبو خزاعة القبيلة المشهورة، وحمله على ذلك أنه له جنّي كان يستصحبه يقال له: أبو ثمامة، لما رآه قال له: أرحب أبا ثمامة، فقال الجني له: لبيك من تهامة، ائت سوق جدة، تجد آلهة فيه، فخذها، ولا تهب، وادع إلى عبادتها تجب.

فتوجَّه إلى جدّة فوجد الأصنام التي كانت تعبد من دون الله في زمن نوح عليه السلام: وهي وَدّ، وسُوَاع ويغوث ونَسْر، فحملها، ودعا إليها، فانتشرت عنه عبدة الأوثان والأصنام في العرب.

وكانت قبل مدة نوح صوراً لجماعة صالحين يتذكرون برؤيتها صلاحهم وعبادتهم، ويتبركون بها لأنها صورتهم، كما كانوا يتبركون بهم في حياتهم، فلمّا تقادم الزمان دعاهم الشيطان لعبادتها، فأطاعوه وخيّل لهم فيها عقائد، فتابعوه عليها، فبُعِث نوح عليه السلام بِرَدِّها، ثمّ بعد وفاة سيدنا نوح عليه السلام عاود الشيطان بتلك الوساوس من بعده، وحسَّن وصوَّب لهم رأي المتقدمين في عبادتها فأطاعوه، فبُعِث هود عليه السلام بِرَدِّهم عنها، وهكذا جيلاً بعد جيل، حتى بُعِث نبيّنا محمّد ﷺ.

فلمّا وصل خالد ﷺ إلى محلّ العزّى هدم بناء هناك، وقطع سَمُرَات كانت العزّى مبنية عليها، فتساقطت، ثمّ رجع خالد إلى النبيّ ﷺ وأخبره بذلك، فقال ﷺ:

---

(١) التوبة: ٢٥.

«هل رأيت شيئاً؟»، قال: لا، فقال ﷺ: «ارجع إليها»، فرجع خالد متغيّظاً، فمانعه الخادم، وخوّفه من ضررها، فاقتحمها بسيفه، يقطع جدر الأشجار، ويُكْمل هدم البنيان، فخرجت إليه امرأة عُرْيانة سوداء ناثرة شعر رأسها، تحثوا التراب على رأسها، فجعل الخادم يصيح بها، ويقول: يا عزّى عوّريه، يا عزّى خبّليه، فضربها خالد بسيفه فقدّها نصفين، وهو يقول: يا عزّى كفرانك لا سبحانك، إني رأيت الله قد أهانك، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فقال ﷺ: «نعم، تلك العزى».

سرية عمرو بن العاص إلى سُوَاع[١]

قال عمرو: فانتهيت إلى ذلك الصّنم، وعنده سادنه ـ أي: خادمه ـ فقال لي: ما تريد؟، فقلت: أمرني رسول الله ﷺ أنْ أهدمه، قال: لا تقدر، قلت: ولم؟، قال: تُمْنع، قلتُ: حتى الآن أنت على الباطل؟ ويحك، وهل يسمع أو يبصر؟، فدنوت منه فكسرته، وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته، فلم نجد فيه شيئاً، ثمّ قلتُ للخادم: كيف رأيت؟، قال: أسلمت لله عزَّ وجلَّ.

سرية سعد بن زيد الأشهل إلى مناة[٢]

أرسل رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأشهل مع عشرين فارساً إلى مناة لهدم محلِّه وكسره، فلمّا وصل إليه قال له خادمه: ما تريد؟، قال هدم مناة، قال له: دونك، أنت وذاك، فأقبل سعد إلى ذلك الصّنم، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها، فقال لها السادن: مناة دونك بعض عصاتك، فضربها سعد ﷺ فقتلها، وهدم محلها.

سرية خالد بن الوليد ﷺ إلى بني خزيمة بناحية يلملم[٣]

سار خالد ﷺ بسرية إلى بني خزيمة يدعوهم إلى الإسلام، ولم يكن ﷺ علم

---

(١) سمي بسواع بن نوح وكان على صورة امرأة، وكان لقوم نوح عليه السلام، ثمّ صار لهذيل، وكانوا يحجون إليه. مؤلف.

(٢) وهي صنم كان للأوس. مؤلف.

(٣) يلملم: هو واد فحل يمر جنوب مكة على مسافة (١٠٠) كيل، فيه ميقات أهل اليمن ممن يأتي على الطريق التهامي، وبقي هذا ميقاتاً حياً حتى عام ١٣٩٩هـ بالسّعدية، ثمّ زُفِّت طريق السيارات، فأخذ الساحل، فهُجِر هذا الميقات لبعده عن الطرق الحديثة. انظر المعالم الأثيرة: (٣٠١).

بإسلامهم، ولم يُؤمر خالد بمقاتلتهم إذا لم يسلموا، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه في ثلاثمئة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار من بني سليم، وهو ﷺ مقيم بمكة بعد الفتح إليهم، وكانوا في الجاهلية قد قتلوا الفاكه عمّ خالد، وقتلوا أيضاً أخا الفاكه، وكانوا أشدّ حي في الجاهلية، وكانوا يسمون (لعقة الدم)، وقتلوا أيضاً والد عبد الرحمن بن عوف.

فلمّا توجَّه إليهم تخوَّفوا منه للقتلى التي بينهم، فلبسوا السّلاح، فلمّا وصل خالد إليهم تلقوه، فقال خالد: أسلموا، فقالوا: نحن قوم مسلمون، قال: فألقوا سلاحكم وانزلوا، قالوا: لا والله، ما بعد وضع السلاح إلا الأسار وما بعد الأسار إلا ضرب الأعناق، وما نحن بآمنين لك ولا بمن معك، قال خالد: فلا أمان لكم، إلا أن تنزلوا، فنزلت فرقة منهم فأسرهم، وتفرّقت بقيّة القوم، فلمّا كان في السّحر نادى منادي خالد من كان معه أسير فليقتله، فقتل بنو سليم من كان معهم، وامتنع المهاجرون والأنصار، فلمّا بلغ الخبر إلى النبيّ ﷺ رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد».

وغضب ﷺ غضباً عظيماً، ودفع ديتهم، قيل: إنما أمر خالد ﷺ بقتلهم لأنهم قالوا: صبأنا، ولم يقولوا: أسلمنا، لعدم علمهم بها، وقيل: إنما قال خالد لمناديه: من كان معه أسير فليكتفه، ففهم المنادي أنه قال: فليقتله، كما وقع في خلافة الصّديق لما ارتدت العرب بعد موت النبيّ ﷺ، فإنه عيَّن خالداً لقتالهم، فأسر خالد ومن كان معه جملة منهم في ليلة باردة، فنادى مناديه: من كان معه أسير فليدفئه، ففهموا فليدفنه ـ أي: يقتله ـ فقتلوهم، فقال خالد لما بلغه الخبر: إذا أراد الله أمراً أصابه[1].

سرية أبي عامر الأشعري إلى أوطاس[2]

لما انصرف رسول الله ﷺ من حنين، وانهزم المشركون عسكر منهم طائفة بأوطاس، فبعث رسول الله ﷺ أبا عامر الأشعري ـ عم أبي موسى الأشعري ـ في جماعة منهم أبو موسى الأشعري فلحقوا بالقوم وتناوشوا القتال، وبارز أبو عامر تسعة، ويقال: أنهم أخوة، فقتلهم واحداً بعد واحد، وكلّما برز لواحد منهم يدعوه

---

(١) انظر البداية والنهاية: (٦/٣٢٢)، وتاريخ الطبري: (٢/٢٧٣).

(٢) تقدّم الكلام عليه.

للإسلام، فيأبى فيقول: اللهم اشهد، فيحمل عليه فيقتله، ثمّ برز إليه أخوهم العاشر، فقال له: أسلم فأبى، فقال: اللهم اشهد، فقال: اللهم لا تشهد وفرش يديه، فظنّ أبو عامر أنه أسلم فكفَّ عنه، فعاد إلى أبي عامر فقتله، ثمّ أسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه ﷺ، فكان إذا رآه رسول الله ﷺ يقول: «هذا شريد أبي عامر»، وقبل أن يموت أبو عامر استخلف ابن أخيه أبا موسى، ودفع له الراية، ففتح الله عليه، وانهزم المشركون، وظفر المسلمون بالغنائم والسبايا.

ولما رجع أبو موسى إلى رسول الله ﷺ وأخبره بموت أبي عامر استغفر له رسول الله ﷺ وقال: «اللهم اجعله من أعلى أمتي في الجنة».

سرية الطفيل بن عمرو الدوسي إلى ذي الكفين (صنم عمرو بن حممة الدوسي) ليهدمه

لما أراد رسول الله ﷺ المسير إلى الطائف بعث الطفيل ليهدم ذي الكفين فهدمه، وحثى التراب على وجهه وانحدر معه من قومه أربعمئة سراعاً بأمر النبيّ ﷺ له أن يستمدّ بقوم ويوافيه بالطائف، فلمّا هدموه، انحدروا، فوافوا رسول الله ﷺ بالطائف، فقال ﷺ: «يا معشر الأزد، من يحمل رايتكم؟»، قال الطفيل: من كان يحملها في الجاهلية. وهو النعمان بن الرازية اللهبي. قال ﷺ له:«أصبت».

سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم

وسببها: أنه ﷺ بعد رجوعه من فتح مكة بعث بشر بن سفيان إلى بني كعب لأخذ صدقاتهم، وكانوا مع بني تميم على ماء، فأخذ بشر صدقات بني كعب، فمنعه بنو تميم، وردُّوها بغير رضا بني كعب، فحينئذ رجع وأخبر النبيّ ﷺ، فأرسل ﷺ عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم في خمسين فارساً من العرب، ليس فيهم مهاجري وأنصاري، فكان يسير الليل ويكمن بالنهار، فهجم عليهم آخر الأمر، وأخذ منهم أحد عشر رجلاً، وإحدى وعشرين امرأة، وثلاثين صبيّاً، وجاء بهم إلى المدينة، فأمر ﷺ فحبسوا في دار رملة بنت الحارث، فجاء في إثرهم جماعة من رؤسائهم: منهم عطارد بن حاجب، والزبرقان بن بدر، والأقرع بن حابس، وقيس بن الحارث، ونعيم بن سعد، وعمر الأهتم، ورياح بن الحارث، فلمّا رأوهم بكى إليهم النساء والذراري، فجاؤوا إلى باب النبيّ ﷺ بعد أنْ دخلوا المسجد ووجدوا بلالاً يؤذِّن

بالظهر، والناس ينتظرون خروجه ﷺ، فاستبطؤوه فجاؤوا من وراء الحجرات ينادونه بصوت مرتفع مزعج قائلين له ﷺ: «اخرج إلينا يا محمد نفاخرك ونشاعرك، فإنّ مدحنا زين وذمّنا شين»، فخرج ﷺ إليهم، وقد تأذّى من صياحهم، ونزل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] وأقام بلال الصّلاة، وتعلّقوا برسول الله ﷺ يكلّمونه، فوقف ﷺ معهم، فقالوا: نحن ناس من تميم، جئناك بشاعرنا وخطيبنا لنشاعرك ونفاخرك، فقال ﷺ: «ما بالشعر بعثنا، ولا بالفَخَار أمرنا»، ثمّ مضى ﷺ فصلّى الظّهر، ثمّ جلس في صحن المسجد، فتقدّموا إليه قائلين له ﷺ: إنّ مدحنا لزين، وإنّ شتمنا لشين، نحن أكرم العرب، فقال ﷺ: «كذبتم، بل مدح الله عزّ وجلّ الزين، وشتمه الشين، وأكرم منكم يوسف بن يعقوب» أي: فقد جاء فيه: «الكريم بن الكريم بن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصّلاة والسلام».

قالوا: ائذن لخطيبنا وشاعرنا، فقال ﷺ: «إنّي لم أبعث بالشعر، ولم أؤمر بالفخر، ولكن هاتوا»، فقدّموا عطارد بن الحارث، وقيل: قال الأقرع لشابّ منهم: قم يا فلان، فاذكر فضلك وفضل قومك، فقام وتكلّم خطيباً وقال: الحمد لله الذي جعلنا خير خلقه، وأعطانا أموالاً عظاماً، نفعل فيها ما نشاء، فنحن خير أهل الأرض، وأكثرهم عدداً، وأكثرهم سلاحاً، فمن أنكر علينا قولنا، فليأت بقول هو أحسن من قولنا، أو بفعال هي أفضل من فعالنا، فأمر ﷺ ثابت بن قيس بن شماس أن يجيبه، وكان ثابت هذا يُعْرف بخطيب رسول الله ﷺ، فقام ثابت وقال: الحمد لله نحمده ونستعينه، ونؤمن به ونتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، دعا المهاجرين من بني عمّه أحسن الناس وجوهاً، وأعظم الناس أحلاماً، فأجابوه، والحمد لله الذي جعلنا أنصاره ووزراء رسوله ﷺ وعزّ الدين، فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فمن قالها منع نفسه وماله، ومن أباها قاتلناه، وكان زعمه في الله علينا هيناً، أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم، لي وللمؤمنين والمؤمنات.

ثمّ قال الزبرقان لرجل منهم: قم يا فلان، قل أبياتاً تذكر فيها فضلك وفضل

---

(١) الحجرات: ٤ ـ ٥.

قومك، فقام وقال أبياتاً منها:

نحـن الكـرام فـلا حـي يعادلنـا ... مـن الملـوك وفينـا تنـصب البيـع

إنـا أبينـا فـلا يـأبى لنـا أحـد ... إنـا كـذلك عنـد الفخـر نرتفـع

فقال رسول الله ﷺ: «قم يـا حـسان بـن ثابـت فأجبـه»، فقـام حسّان، وقـال: ليُسْمعني مقالته ـ لأنه كان غائباً وقتها ثمّ حضر ـ فأسمعه، فقال حسان أبياتاً منها:

نـصرنا رسـول الله والـدين عنـوة ... على رغم عـات مـن بعيـد وحاضـر

وأحياؤنـا خـير مَـنْ وَطِـئ الحـصى ... وأمواتنـا مـن خـير أهـل المقـابر

ثمّ وقعت مفاخرة بين حسان والأقرع، وقـال الأقـرع: إني والله يـا محمـد، قـد قلتُ شعراً فاسمعه، فقال ﷺ: «هات»، فأنشد شعراً:

أتينـاك كيمـا تعـرف النـاس فـضلنا ... إذ خالفونـا عنـد ذكـر المكـارم

وإنـا رؤوس النـاس مـن كـل معـشر ... وأن لـيس في أرض الحجـاز كـدارم

فقال ﷺ: قم يا حسان فأجبه، فقام حسان فقال شعراً منه:

بـني دارم لا تفخـروا إن فخـركم ... يعـود وبـالاً عنـد ذكـر المكـارم

هبلـتم علينـا؟ تفخـرون وأنـتم ... لنـا خـول مـن بـين ظئـر وخـادم

فقال رسول الله ﷺ للأقرع بن حابس: «لقد كنت غنياً يا أخا بـني دارم أن يـذكر ما كنت ترى أنّ النّاس قد نسوه»، فكان هذا القول من رسول الله ﷺ أشدّ علـيهم مـن قول حسان.

وحينئذ قال الأقرع: يا هؤلاء، ما أدري مـا هـذا الأمـر؟، تكلّـم خطيبنـا فكـان خطيبهم أرفع صوتاً، وتكلّم شاعرنا فكان شاعرهم أرفع صوتاً وأحـسن قـولاً، ثمّ دنـا إلى النبيّ ﷺ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال ﷺ: «لا يـضرك مـا كان قبل هذا».

ثمّ أسلم القوم، وبقوا في المدينة مدّة يتعلّمون القرآن والدِّين، وكـانوا ثمـانين، وقيل: تسعين، ثمّ لما أرادوا الخروج إلى قومهم أعطاهم النبيّ ﷺ نساءهم وأبنـاءهم، وأحسن جوائزهم، وأنزل الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[1].

(١) النور: ٦٣.

ولما رأى الأقرع النبيّ ﷺ يُقبِّلُ الحَسَن قال: إنّ لي عشرة من الولد، ما قبَّلت واحداً منهم، فقال رسول الله ﷺ: «من لا يَرْحَم لا يُرْحَم»[1].

سرية قطبة بن عامر إلى حي من خثعم

بعثه رسول الله ﷺ مع عشرين رجلاً إليهم، وأمره أنْ يشنَّ الغارة عليهم، فخرجوا على عشرة أبعرة يعتقبونها، فأخذوا رجلاً فسألوه عنهم، فلم يُعْلمهم وجعل يصيح ويحذّرهم، فضربوا عنقه، ثمّ أمهلوا القوم حتى ناموا، فشنُّوا عليهم الغارة، واقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثرت الجرحى في الفريقين، وساقوا النعم والشاء إلى المدينة، فلحقوهم ببدر ليستنقذوها منهم، فحال بينهم السيل فمنعهم..

سرية الضحَّاك الكلابي

بعثه رسول الله ﷺ في جمع إلى بني كلاب، فلقوهم فدعوهم إلى الإسلام فأبوا، فقاتلوهم فهزموهم، ووجد رجل من المسلمين أباه فدعاه للإسلام فسبَّه وسبَّ الإسلام، فضرب عرقوب فرسه إلى أنْ وقع فأمسكه إلى أنْ أتى بعض المسلمين فقتله.

ويروى أنه ﷺ أرسل إليهم أولاً رِقّاً مكتوباً يدعوهم للإسلام فأبوا، وغسلوا الرِقَّ وخاطوه تحت دلوهم رقعة، فلمّا بلغ النبيّ ﷺ صنعيهم، قال: «مالهم، أذهب الله عقولهم؟؟!» فصار لا يوجد أحد منهم إلا مختل العقل مختلط الكلام بحيث لا يُفْهَم كلامه.

سرية علقمة بن مجزز إلى جمع من الحبش

بلغ رسول الله ﷺ أنّ ناساً من الحبشة تراءاهم أهل جدة في مراكب، فبعثه رسول الله ﷺ إليهم في ثلاثمئة، فخاض بهم البحر حتى انتهى إلى جزيرة في البحر، فهربوا، ثمّ رجعوا ولم يلقوا كيداً، فلما كانوا في الطريق أرسل علقمة جماعة تبشّر بسلامتهم، وأمَّر عليهم واحداً منهم فنزلوا في الطريق، فقال أميرهم: أوقدوا ناراً، فأوقدوا ناراً يصطلون عليها، ثمّ قال لهم: ارموا أنفسكم فيها طاعة لي لأني أميركم، فامتنعوا بعد أن همُّوا بذلك، فضحك، وقال: اجلسوا، أنا كنت ألعب، فبلغ الخبر

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٥٦٥١)، ورواه مسلم في صحيحه برقم: (٢٣١٩)، ولفظه: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله عزّوجلّ»، ورواه أبو داود في سننه برقم: (٥٢١٨)، والترمذي في سننه برقم: (١٩١١). ورواه غيرهم.

النبيّ ﷺ فقال: «من أمركم بمعصية الله، فلا تطيعوه، لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف».

سرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى هدم الفلس صنم طيّ وإلى الإغارة على أهله

بعثه رسول الله ﷺ في مئة وخمسين من الأنصار على مئة بعير وخمسين فرساً ومعه راية سوداء ولواء أبيض، فشنُّوا الغارة عليهم في الفجر، فهدموا الفلس وأحرقوه، واستاقوا النعم والشاء والسبي، وكان في السبي أخت عديّ بن حاتم الطائي، واسمها سفَّانة، ووجدوا عند الصّنم ثلاثة أسياف لها شهرة عند العرب، وهي: رَسُوب، والمِخْذَم، واليماني، وثلاثة أدراع، فلما مرَّ ﷺ بأخت عدي بن حاتم، وكانت جزلة ـ أي: ذات وقار وعقل ـ فكلّمته ﷺ أن يمنَّ عليها، فمنَّ ﷺ وأسلمت.

روي أنها أولاً قالت له ﷺ: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليَّ منَّ الله عليك، فقال ﷺ: من وافدك قالت: عدي بن حاتم ـ تعني أخاها ـ فقال ﷺ: «الفارّ من الله ورسوله؟» لأنه كان يعادي النبيّ ﷺ، فلما جاءهم عليٌّ رضي الله عنه هرب إلى الشّام بأهله وولده، وخلَّف أخته فأُسِرَت[1].

وروي أنها ذكرت للنبيّ ﷺ أنها بنت حاتم الطائي، وأنه كان يُطْعم الطعام، ويحفظ الجوار، ويفكّ العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العريان، ولم يرد طالب حاجة قط، وقالت: لا تفضحني يا رسول الله، فإني بنت سيّدهم، فقال ﷺ: «نعم هذه مكارم الأخلاق حقًّا، ولو مات أبوك مسلماً لترحَّمتُ عليه، خلُّوا عنها، فإنّ أباها كان يحبّ مكارم الأخلاق، وإنّ الله يحبّ مكارم الأخلاق»[2].

ثمّ أطلق ﷺ من كان معها لأجلها، فقالت للنبيّ ﷺ: (أصاب الله برك مواقعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سُلِبَت نعمة كريم قوم إلا جعلك الله سبباً لردِّها)، ثمّ كساها رسول الله ﷺ وحملها، وأعطاها نفقة، فخرجت وذهبت إلى أخيها بدومة الجندل، فأخبرته بمكارم أخلاق النبيّ ﷺ، وأشارت عليه بأن يتابعه فجاء معها وأسلم.

سرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى بلاد مذحج بين أرض اليمن

بعثه رسول الله ﷺ مع ثلاثمئة فارس إلى بلاد مذحج ـ كمسجد ـ قبيلة من

(١) انظر البداية النهاية: (٥/٦٤)، وتاريخ الطبري: (٢/١٨٧).

(٢) انظر سبل الهدى والرشاد: (٦/٣٧٦).

اليمن، وعقد ﷺ لعليٍّ ﷺ لواءاً، وعمّمه بيده الشريفة، وقال له: «امض ولا تلتفت، فإذا نزلت بساحتهم، فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك»، فكانت أول خيل دخلت إلى تلك البلاد، ففرق أصحابه، فأتوا بنهب وغنائم وأطفال ونساء ونعم وشاء وغير ذلك، وجعل على الغنائم بريدة بن الحصيب، ثمّ لقي جمعهم، فدعاهم للإسلام فأبوا، ورموا بالنبل والحجارة، فصفَّ أصحابه، ودفع لواءه إلى أبي مسعود بن سنان، ثمّ حمل عليهم، فقتل منهم عشرين رجلاً، فانهزموا وتفرّقوا، فكفّ عن طلبهم، ثمّ دعاهم للإسلام فأسرع للإجابة جماعة منهم، وقالوا: نحن على من وراءنا من قومنا، وهذه صدقاتنا، فخذ منها حقّ الله تعالى، وقسَّم عليٌّ ﷺ الغنيمة على أهلها، ورجع فوافى النبيّ ﷺ بمكة في حجة الوداع.

وروي أنّ همدان كلها أسلمت في هذه السرية في يوم واحد، فكتب عليٌّ بذلك إلى رسول الله ﷺ، فلمّا قرأ ﷺ كتابه خرَّ ساجداً، ثمّ جلس فقال: «السّلام على همدان»، وتتابع أهل اليمن إلى الإسلام، وقيل: إنّ هذه الرواية كانت المرة الثانية من إرسال عليٍّ إلى اليمن.

سرية خالد بن الوليد ﷺ إلى أكيدر بن عبد الملك النصرانيّ صاحب دومة الجندل

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ﷺ إليه في رجب سنة تسع مع أربعمئة وعشرين فارساً، وقال ﷺ له: «إنك ستجده يصيد البقر»، فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين، وكانت ليلة مقمرة صائفة وأكيدر ـ بزنة أحيمر ـ مع امرأته على السطح، فجاءت البقر تحكُّ قرونها بباب حصنه، فقالت له امرأته: وهل رأيت مثل هذا قطّ، قال: لا والله، قالت: فمن يترك هذه؟، قال: لا أحد، ونزل وأمر بفرسه فأسرج وركبه ومعه نفر من أهله، فيهم أخ له يقال له: حسان، فتلقتهم خيل خالد فاستأسر أكيدر وقاتل أخوه حتى قتل، وأجار خالد أكيدر من القتل حتى يأتي به إلى رسول الله ﷺ على أن يفتح له دومة الجندل، وكان على أكيدر قباء من ديباج مُخَوَّصة ـ أي: فيها خطوط منسوجة بالذهب مثل: خوص النخل ـ فاستلبه خالد إيَّاها وأرسلها إلى رسول الله ﷺ، فتعجَّبت الصّحابة منها، فقال رسول الله ﷺ: «لمناديل سعد بن معاذ في الجنّة أحسن من هذا»[1].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٢٤٧٣)، ومسلم في صحيحه برقم: (٢٤٦٨). ورواه غيرهما.

وصالح خالداً أكيدر على دومة الجندل بألفي بعير وثمانمئة رأس غنم وأربعمئة رمح، ثمّ خرج خالد بأكيدر وأخته إلى المدينة، فصالحه النبيّ ﷺ على الجزية، وحقن دمه ودم أخته، وخلّى ﷺ سبيلهما وبقيا على النّصرانية، ثمّ إنّ خالداً حاصره في زمن أبي بكر، ثمّ قتله لنقضه العهد.

وقيل: كان أسلم، ثمّ ارتد، فقتل مرتدًّا.

غزوة تبوك ويقال لها غزوة العسرة

ويقال لها: الفاضحة، لأنها أظهرت حال كثير من المنافقين، وهي آخر غزواته ﷺ، ففي شهر رجب سنة تسع من الهجرة بلغ رسول الله ﷺ أنّ الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشّام، وأنهم قدموا مقدمتهم إلى البلقاء(١) يريدون المدينة المشرفة وأهلها، لأنَّ متنصّرة العرب كتبت إلى هرقل المولى بعد ممات أبيه المتقدم: إنّ هذا الرّجل ـ يعنون محمداً ﷺ ـ الذي خرج يدّعي النبوّة قد هلك مع أصحابه من شدّة السير عليهم فبعث هرقل أربعين ألفاً ليستأصل ما بقي منهم.

هكذا وقع الخبر للنبيّ ﷺ ثمّ تبين أنه كذب من أراجيف المنافقين ليُرْعبوا ويؤذوا بها المسلمين، وكان ﷺ لما يخرج في غزوة إلا كنّى وورّى بغيرها إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه ﷺ صرَّح بها لبعد المسافة وشدَّة الزمان وكثرة العدو بحسب ما بلغهم مع عدم نزول وحي فيها يكشف أمرها وأمر ما سيقع فيها، فأراد ﷺ أنْ يستعد لها المسلمون استعداداً تامّاً، وكان ﷺ أولاً شاور كبراء الصّحابة في شأنها، فأشار كبار الصّحابة بغزوهم، وقال: ما نأمن منهم إن قدموا بلادنا، وأعزُّ لنا أن نتلقّاهم ببلادهم، فندب رسول الله ﷺ الناس إليه: من أهل مكة وقبائل العرب وغيرهم، وحثَّ ﷺ أهل الغنى على الشفقة والصّدقة والحمل في سبيل الله، فجاء عثمان بن عفان بعشرة آلاف دينار وتسعمئة بعير ومئة فرس والزاد وما يتعلق بذلك كلّه حتى ما تربط به الأسقية، فجهز عشرة آلاف إنسان جهازاً تامّاً، فعند ذلك قال ﷺ: «اللهم ارض عن عثمان، فإني عنه راضٍ»(٢).

---

(١) البلقاء: إقليم في الأردن، تتوسطه مدينة عمّان، ومن أشهر مدنه: عمّان والسلط ومأدبا والزرقاء، ويشرف على الغور الأردني غرباً. انظر المعالم الأثيرة: (٥٣ـ ٥٤).

(٢) انظر سيرة ابن هشام: (٢/٥١٨).

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ من أوّل الليل إلى أنْ طلع الفجر رافعاً يديه الكريمتين يدعو لعثمان بن عفان ﷺ يقول: «اللهم عثمان رضيت عنه فارض عنه»[١].

وجاء أنه ﷺ قال: «سألت ربي أن لا يدخل النار من صاهرت إليه أو صاهر إليّ»[٢]، وفي رواية: لما صَبَّ عثمان ﷺ العشرة آلاف دينار في حجر النبيّ ﷺ، صار ﷺ يقلّبها بيديه ظهراً لبطن، ويقول: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما كان منك وما هو كائن إلى يوم القيامة، ما يبالي ما عمل بعدها»[٣].

وجاء أبو بكر ﷺ بأربعة آلاف درهم فقال له رسول الله ﷺ: «وهل أبقيت لأهلك شيئاً؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله»[٤].

وجاء عمر ﷺ بنصف ماله، وعبد الرحمن بن عوف بمئة أوقية من الفضة، والعبّاس بمال كثير، وكذا طلحة، وبعث النساء بكل ما يقدرن عليه من حليِّهنَّ، وتصدَّق عاصم بن عدي بسبعين وسقاً من تمر.

وجاءه ﷺ سبعة من فقراء الصّحابة يسألونه دوابّ يحملهم عليها ليغزوا معه ﷺ، فقال ﷺ لهم: «لا أجد ما أحملكم عليه»، فحينئذ تولوا وانصرفوا، وأعينُهم تفيض من الدمع حَزَنَاً أن لا يجدوا ما ينفقون مدة الغزو ذهاباً وإياباً من محمل ومأكل ومشرب، فقيل عنهم: البكّاؤون[٥].

فحمل العباس ﷺ منهم اثنين، وحمل عثمان بعد من تقدم ثلاثة، وحمل يامين بن عمرو النضري اثنين، دفع لهما ناضحاً، وزوّد كلّ واحد منهما صاعين من تمر.

وجاء أبو موسى الأشعري إلى النبيّ ﷺ، وقد أرسله أصحابه إليه، فقال: يا رسول الله، أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم، فقال ﷺ: «لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه»، فرجع حزيناً مخافة أن يكون النبيّ ﷺ غضب عليهم حيث حلف على

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ.

(٢) أورده ابن عبد البر في الاستيعاب. انظره فيه: (٣١٩/١).

(٣) رواه الترمذي في سننه برقم: (٣٧٠١)، وأحمد في المسند برقم: (٢٠٦٤٩)، والطبراني في الكبير برقم: (٥٧٧)، والأوسط برقم: (٢٣٦). وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٤) انظر مغازي الواقدي: (٩٩١/٣).

(٥) عزاه السيوطي في الدرّ المنثور إلى ابن جرير وابن إسحق وابن المنذر وأبو الشيخ. انظر الدرّ المنثور: (٢٦٣/٤ـ٢٦٤).

أن لا يحملهم، قال: فأخبرت أصحابي بالذي قاله رسول الله ﷺ، فلم ألبث إلا ساعة حتى سمعت بلالاً ينادي فأجبته، فقال: أجب رسول الله ﷺ يدعوك، فلمّا أتيته ﷺ قال: «خذ هذه الستة أبعرة، فانطلق بها إلى أصحابك»، فلما أتيتهم بها قال بعضهم لبعض: أغلقنا رسول الله ﷺ - أي: حملناه على يمين الغلق، أي: المنع من الإعطاء، فكأنه أغلق باب الإعطاء، أي: فكيف نحنثه على يمينه فلعلّه نسي اليمين - ثمّ قالوا: والله لا يبارك الله لنا في ذلك إنْ أخذناها واستغفلناه في يمينه، فذكروا ذلك للنبيّ ﷺ فقال: «ما أنا حملتكم، الله حملكم»، ثمّ قال ﷺ: «وإني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها، إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها»[1].

وخلف ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاريّ مع علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وسار ﷺ بالناس، وهم ثلاثون ألفاً، وقيل: أربعون ألفاً، وقيل: سبعون ألفاً، وكانت عشرة آلاف فرس، وقيل: اثنا عشر ألفاً.

وعسكر رسول الله ﷺ عند خروجه على ثنية الوداع، وعسكر عبد الله بن أُبَيّ ومن معه من المنافقين أسفل ثنية الوداع، فلمّا ارتحل رسول الله ﷺ بالمؤمنين تخلّف عن الارتحال، ورجع إلى المدينة عبد الله بن أُبَيّ بمن معه من المنافقين، وقال عند تخلّفه: يغزو محمّد بني الأصفر مع جهد الحال والحرّ والبلد البعيد إلى ما لا طاقة له به، يحسب محمد أنّ قتال بني الأصفر معه اللعب، والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرّنين في الحبال.

ومراده بذلك تكسيل المسلمين وتثبيطهم وتخويفهم حتى لا يتابعوا النبيّ ﷺ فتكثر جماعته المنافقون.

ولما ارتحل ﷺ من ثنية الوداع عقد الألوية والرايات، فدفع ﷺ لواءه الأعظم لأبي بكر ﷺ، ورايته العظمى للزبير، وراية الأوس لأسيد بن حضير، وراية الخزرج إلى الخباب بن المنذر، ودفع لكلّ بطن وقبيلة لواء، وقبل الخروج اجتمع نفر من المنافقون في بيت سويلم اليهودي وصاروا يقولون: تحسبون جلاد - أي: قتال - بني الأصفر كقتال العرب، والله لكأنهم - يعني الصّحابة رضي الله عنهم - مقرّنين في الحبال.

فقال ﷺ لعمار بن ياسر: «أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا، فاسألهم عمّا قالوا، فإن أنكروا فقل لهم: قلتم كذا وكذا»، فانطلق إليهم فسألهم فأنكروا، فأخبرهم بما

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٢٩٦٤)، ومسلم في صحيحه برقم: (١٦٤٩). ورواه غيرهما.

قالوا، فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، نظير ما وقع منهم أثناء السير كما سيأتي فأنزل الله فيهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[1].

وكان رسول الله ﷺ قال للجدِّ بن قيس ـ وكان من المنافقين استخفى يوم صلح الحديبية تحت باطن ناقته حتى لا يبايع النبيّ ﷺ لما نودي ليبايع قبل الخروج لغزوة تبوك: «يا جدُّ هل لك في جلاد بني الأصفر؟»، فقال: يا رسول الله، ائذن لي في التخلُّف، ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشدّ عجباً بالنّساء منّي، وإني أخشى إنْ رأيت نساء بني الأصفر أنْ لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «أذنتُ لك»، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾[2] الآية.

وصارت جماعة المنافقين يقولون كمقالته قال الله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ﴾ أي: الردّة والنفاق والكفر ﴿سَقَطُوا﴾[3].

وقال الجدّ للنبيّ ﷺ: يا محمّد، أعينك بمالي، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾[4].

وكان المنافقون يتواصون بعدم الخروج، ويتعللون بالحرّ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾[5].

واعتذر جماعة في التخلّف لا لنفاق بل لضعف وفقر، وكانوا اثنين وثمانين رجلاً من الأعراب، فأذن ﷺ لهم وأنزل الله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أي: في التخلّف، وقعد آخرون من غير عذر ولا اعتذار نفاقاً فقال تعالى: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[6]، وتخلَّف جمع من المسلمين كسلاً لا نفاقاً ولا لعذر ولا مع اعتذار، منهم: كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرادة بن الربيع.

واستخلف ﷺ في هذه الغزوة على العسكر ابن بشير، فكان يطوف بأصحابه حول العسكر، ولما خلّف ﷺ علياً ﷺ في أهله قال المنافقون: ما خلّفه إلا استثقالاً

---

(١) التوبة: ٦٥.

(٢) التوبة: ٤٩.

(٣) التوبة: ٤٩.

(٤) التوبة: ٥٣.

(٥) التوبة: ٨١.

(٦) التوبة: ٩٠.

وبغضاً له فأخذ سلاحه ولحق النبيّ ﷺ بالجُرْف[1] وأخبره بمقالة المنافقين، فقال ﷺ: «كذبوا والله، ولكن خلّفتك لأتركك ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا عليُّ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبيّ بعدي فارجع».

ولم يتخلّف عليّ رضي الله عنه قطّ إلا في هذه المدة، وصار بعد سيره ﷺ يتخلّف الرجل والرجلان فيخبروه ﷺ فيقول: «دعوه، فإنْ يك فيه خير، فسيلحقه الله بكم، وإنْ يك غير ذلك، فقد أراحكم الله منه».

وكان ممن تخلّف عن الخروج معه ﷺ أبو خيثمة، فبعد أيام دخل داره في يوم حارّ فوجد امرأتين له في عريشين لهما في بستان له، وقد رشَّت كلّ امرأة منهما عريشها بماء، وبرّدت فيه ماء، وهيَّأت طعاماً، فلمّا شاهد ذلك قال: أبو خيثمة في ظلّ بارد، وطعام مهيَّأ، وامرأة حسناء، ورسول الله ﷺ في الحرّ، ما هذا بالنَّصَف، والله لا أدخل العريش مع واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فخرج بسيفه ورمحه راكباً ناضحاً[2]، فأدرك رسول الله ﷺ حين نزل تبوك، فلمّا دنا قال الناس: هذا راكب مقبل، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة»، فقالوا: يا رسول الله هو والله. فلمّا وصل أخبر النبيّ ﷺ بما حمله على المجيء، فدعا له رسول الله ﷺ.

ولما مرَّ ﷺ بالحِجْر من ديار ثمود سجّى ثوبه على رأسه ـ أي: غطّاه به ـ واستحثَّ راحلته ـ أي: أسرع سيرها ـ وقال ﷺ: «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم»[3]، ونهى رسول الله ﷺ الناس أن يشربوا من ماء ديار ثمود شيئاً، ولا يتوضّؤوا به للصلاة، ولا يعجنوا منه عجيناً، ولا علف دوابهم، وكلّ ما عجن به، أو جعل به طعام، أو علف دوابّ يُلْقى، ولا أحد يأكل منه هو أو دابته شيئاً[4].

ثمّ سار الناس حتى نزلوا على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، وأخبرهم رسول الله ﷺ بأنها تهب عليهم الليلة ريح شديدة، وقال: «من كان له بعير فليشدَّ

---

(١) الجُرُف: يقع شمال المدينة المنوّرة، بل هو الآن حيّ من أحيائها متّصل بها، فيه زراعة وسكان. انظر المعالم الأثيرة: (٨٩).

(٢) الناضح: الدابة التي تستعمل لحمل الماء.

(٣) انظر عيون الأثر: (٢/٢٩٢)، وسيرة ابن هشام: (٥/٢٠١).

(٤) انظر تاريخ الإسلام: (١/٣٣٨)، وسبل الهدى والرشاد: (١/٢٥١).

عقاله»، ونهى ﷺ الناس عن أنْ يخرج أحد منهم وحده تلك الليلة بل معه صاحبه، فخرج واحد لطلب بعير وحده، وخرج آخر لإخراج غائط حزقه، فخنق الثاني، وهبّت الريح على الأول فألقته في جبلَيْ طيء[1]، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «ألم أنهكم أن يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه»، ثمّ دعا ﷺ للذي خنق فشفي، والذي وقع بجبل طيء أرسله أهل طيء بعدما وصل رسول الله ﷺ المدينة.

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: خرجنا لغزوة تبوك في حرٍّ شديد، فنزلنا منزلاً من منازل السَّيْر إليها، أو منها إلى المدينة فأصابنا عطش حتى أنّ الرجل لينحر بعيره، فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ حيث أصبحوا ولا ماء، وقال أبو بكر: يا رسول الله، قد عوَّدك الله من الدعاء خيراً، فادع الله لنا، فقال ﷺ: «أتحبُّ ذلك يا أبا بكر؟»، قال: نعم، فدعا ﷺ ورفع يديه، فلم يرجعها حتى قالت السماء فأظلمت، ثمّ سكبت فملؤوا ما معهم، ثمّ ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت الجيش[2]، فقيل لبعض المنافقين الذين كانوا مع الجيش: ويحك، انظر هذه المعجزة، فقال ذلك المنافق: مطرنا بنوء كذا وكذا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[3] أي: تجعلون بدل شكر الله على إرساله الرزق لكم أنكم تنسبونها للأنواء وتكذبون كونها من عند الله معجزة[4].

وضلَّت ناقته[5] ﷺ في بعض المنازل، ففتّشوا عنها فلم يجدوها، فقال منافق آخر[6]: إنّ محمّداً يزعم أنه نبيّ وأنّه يؤتى بخبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته، فقال النبيّ ﷺ لأصحابه: «إنّ رجلاً يقول كذا وكذا، وإني والله لا أعلم إلا ما علّمني الله، وإني والله نبيّ الله ورسوله، وإنّ الله الآن أعلمني بها ودلَّني عليها: إنها في شعب كذا

---

(١) واسم هذين الجبلين أجأ وسلمى، وعرف أجأ بأجأ بن عبد الحي كان صُلِبَ في ذلك الجبل وسلمى صلبت في الجبل الآخر، فعرف بها وهي سلمى بنت حام فيما ذكر. انظر الروض الأنف: (١/ ٤٠٩).

(٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه برقم: (١٠١)، وابن حبان في صحيحه برقم: (١٣٨٣)، والحاكم في المستدرك برقم: (٥٦٦)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص.

(٣) الواقعة: ٨٢.

(٤) انظر سبل الهدى والرشاد: (٥/ ٤٤٨).

(٥) هي القصواء كما رواه محمد بن عمر. ينظر المرجع السابق: (٥/ ٤٤٨).

(٦) هو زيد بن اللّصيت. تاريخ الإسلام: (١/ ٣٤٠).

وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها»، فانطلقوا وأتوا بها بعدما وجدوها كما ذكر ﷺ[1].

وفي حال المسير إلى تبوك تباطأ جمل لأبي ذرٍّ في بعض المراحل من التّعب فتخلَّف بسبب ذلك عن الجيش، فلمّا خاف من الانفراد أخذ متاعه وحمله على ظهره، ثمّ أسرع السّير ماشياً فأدرك الجيش نازلاً، فلمّا أشرف على الجيش قال بعضهم: يا رسول الله، إنّ هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال ﷺ: «كن أبا ذرّ»، فلمّا تأمّله القوم، قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذرّ، فقال ﷺ: «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»[2] وكان الأمر كذلك، فإنه مات بالرّبذة[3] وحده ليس عنده إلا مملوكه وزوجته، فلما قدم ركب أهل العراق أعانهما الله على تجهيزه ودفنه بعد الصّلاة عليه.

وقبل وصولهم تبوك بليلة نزلوا آخر الليل، فلما استبطؤوا الفجر قال لهم بلال: ناموا، وأنا أوقظكم إذا طلع الفجر، فما استيقظوا حتى أثّر حرَّ الشمس بالنبيّ ﷺ فكان هو أول المستيقظين، فأيقظ الصّديقَ فلام بلالاً على نومه، فقال ﷺ: «إنّ الشيطان صار يهدي بلالاً للنوم، كما يهدى للصبي حتى ينام»، ثمّ دعا رسول الله ﷺ بلالاً فاستيقظ، وقال: يا رسول الله، أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك، إنّ الشيطان صار يهدي لي كما يُهْدى للصبي حتى ينام، فقال الصّديق ﷺ: أشهد أنك رسول الله.

ثمّ ارتحل ﷺ بالمسلمين غير بعيد، فنزلوا وصلّوا الصّبح قضاءً، ثمّ سار ﷺ مع المسلمين مسرعين بقيَّة يومهم وليلتهم، فأصبحوا بتبوك، فلم يلق ﷺ حرباً، ولم يجاوز تبوك، بل أقام بها عشرين ليلة، ثمّ رجع ﷺ إلى المدينة، وفي رجوعه ﷺ اتفق أنه ﷺ وسبعة ـ وفي رواية: وخمسة ـ من الصّحابة انفردوا عن الجيش فناموا حتى طلعت الشمس، وفاتتهم الصّلاة، ثمّ ساروا قليلاً، ونزلوا وقضوها، وكانت الشمس في ظهر النبيّ ﷺ، فقال بعض الصّحابة تأخير الصّلاة، فسمع ﷺ فقال: «ليس في النوم تفريط، إنما التفريط على من لم يصلّ الصّلاة ـ أي: من غير عذر ـ حتى يجيء

---

(١) انظر المرجع السابق، وانظر سبل الهدى والرشاد: (٥/٤٤٨).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك برقم: (٤٣٧٣)، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي في التلخيص بأنّ في إسناده إرسال.

(٣) الربذة: كانت قرية عامرة ولكنّها خربّت سنة ٣١٩هـ بسبب الحروب، وتقع في الشرق إلى الجنوب من بلدة الحناكية (١٠٠ كيل عن المدينة في طريق الرياض)، وتبعد الربذة شمال مهد الذهب على مسافة (١٥٠) كيلاً. انظر المعالم الأثيرة: (١٢٥).

وقت الأخرى»[1].

قال أبو قتادة ﷺ: كان أيضاً في هذه المرة أوّل من استيقظ رسول الله ﷺ، قال: ولما سرنا وقطعنا الوادي بعد اليقظة دعا رسول الله ﷺ بميضأة فتوضأ منها، وبقي فيها بقيّة، فقال رسول الله ﷺ: «احفظ علينا ميضأتك أبا قتادة، فسيكون لها نبأ»، ثمّ صلّى بنا الفجر بعد طلوع الشمس، ثمّ سرنا، فقال ﷺ لمن معه: «ما ترون الناس ـ يعني الجيش ـ فعلوا؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال ﷺ: «لو أطاعوا أبا بكر وعمر رشدوا»، وكانا أرادا أنْ ينزل الجيش على ماء، فأبى ـ أي: الجيش ـ إلا النزول بفلاة لا ماء بها عند زوال الشمس، فكادت أعناق الخيل والركاب أن تتقطّع من العطش.

فلمّا وصل النبيّ ﷺ إلى الجيش وشاهد ما حلَّ به، قال: «أين صاحب الميضأة؟»، قلتُ: هو أنا يا رسول الله، قال: «جئني بها»، فجئته بها فوضع ﷺ يده الشريفة بالماء، بعد أنْ دعا بالركوة، وأفرغ الماء في قدح، فنبع الماء من بين أصابعه، وأقبل الناس، فاستقوا، وفاض الماء حتى روي الجيش، ورويت الخيول والإبل، وكان في العسكر من الخيل اثنا عشر ألف فرس، ومن الإبل خمسة عشر ألف بعير، وكان الناس ثلاثين ألفاً، وقيل: سبعين ألف من غير دوابهم[2].

ولما نزلوا تبوك وجدوا عينها قليلة الماء، فاغترف ﷺ غرفة بيده من مائها، فتمضمض بها، ثمّ بصق فيها، وقيل: جعلوا أيضاً فيها سهماً دفعه النبيّ ﷺ لهم وقال: «اغرسوه في أرضها وقعرها» كما في صلح الحديبية، ففعلوا فصار الماء يفور حتى امتلأت البئر، فقال ﷺ لمعاذ: «يا معاذ، يوشك إنْ طالت بك حياة أنْ ترى ماءً هنا ملأ جناناً» أي: بساتين.

قال ابن عبد البر: أنا شاهدت البساتين هناك حول الماء.

وفي مسلم[3]: لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة بحيث صارت تمصُّ التمرة الواحدة جماعة، يتناوبونها من قلَّة الزاد وغيره من المطعومات، فقال المسلمون: يا رسول الله، لو أذنت لنا فننحر نواضحنا، فأكلنا وادّهنا، فقال عمر: يا رسول الله، إنْ فعلتُ فني الظَّهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، وادعُ الله لهم فيها

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم: (٦٨١)، وأبو داود في سننه برقم: (٤٤١)، والترمذي: (١٧٧). ورواه غيرهم.

(٢) انظر سبل الهدى والرشاد: (٥/٤٦٤)، ومغازي الواقدي: (١/١٠٤٠).

(٣) هو في صحيحه برقم: (٢٧) من حديث أبي هريرة أو عن أبي سعيد (شك الأعمش، وهو أحد رجال السند).

بالبركة، لعل الله أنْ يجعل ذلك فيها، فقال ﷺ: «نعم»، فدعا بنطع فبسطه، ثمّ دعاهم لفضل أزوادهم، فجعل الرّجل يأتي بكفّ ذرة، والآخر بكفّ تمر، والآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع شيء يسير، فدعا ﷺ بالبركة، ثمّ قال لهم: «خذوا في أوعيتكم»، فأخذوا حتى ما تركوا وعاء في العسكر إلا ملؤوه وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بها عبدٌ غير شاكٍّ فيحجب عن الجنة»، وفي رواية: «إلا حجبت عنه النار يوم القيامة»[1].

ووقع له ﷺ نظير هذه المعجزة عند رجوعه من صلح الحديبية.

وعن بعض الصّحابة، كنت في غزوة تبوك على نحي ـ أي: وعاء السمن ـ فنظرت إلى نَحْي السمن قد قلَّ ما فيه، وقد هيأت للنبي ﷺ طعاماً، فوضعت النَّحْي في الشمس ليجتمع ما فيه من السمن أؤدم به الطعام، فأخذني النوم، فما انتهبت إلا على خرير النحي، فقمت وأخذت برأس النحي بيدي، فقال رسول الله ﷺ لما رأى ذلك: «لو تركته لسال الوادي سمناً»[2].

وعن العرباض بن سارية ﷺ قال: كنت مع رسول الله ﷺ بتبوك، فقال ﷺ لبلال: «هل من عشاء؟» فقال: والذي بعثك بالحق، لقد نفضنا جربنا، فقال ﷺ: «انظر، عسى أن تجد شيئاً»، فأخذ بلال الجرب ينفضها جراباً جراباً، فتقع التمرة والتمرتان حتى رأيت في يده سبع تمرات، ثمّ دعا ﷺ بصحفة، فوضع التمر فيها، ثمّ وضع يده الشريفة على التمرات، وقال: «كلوا بسم الله»، فأكلنا ثلاثة أنفس، وأحصيت أربعاً وخمسين تمرة أعدُّها عداً، نواها في يدي الأخرى، وصاحباي كذلك، فشبعنا، ورفعنا أيدينا، فإذا التمرات السبع كما هي، فقال ﷺ لبلال: «يا بلال ارفعها، فإنه لا يأكل منها أحد إلا نهل منها شَبِعاً»، فلمّا كان من الغد دعا ﷺ بلال بالتمرات، فوضع يده الشريفة عليهنّ، ثمّ قال: «كلوا بسم الله»، فأكلنا حتى شبعنا، وإنا لعشرة، ثمّ رفعنا أيدينا، وإذا التمرات كما هي، فقال رسول الله ﷺ: «لولا أنْ أستحيي من ربي لأكلنا من هذه التمرات حتى نرد المدينة من آخرنا»، فأعطاهن غلاماً فولّى وهو يلوكهن[3].

---

(١) رواه أحمد في المسند برقم: (١٥٤٨٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الدلائل: (١٥٥).

(٣) انظر سبل الهدى والرشاد: (٥/٤٥٥)، ومغازي الواقدي: (١/١٠٣٧).

وقدم على النبيّ ﷺ وهو بتبوك يُحَنَّه بن رؤبة صاحب إيلة، وصالح النبيّ ﷺ وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء ـ قرية بالشام ـ وأهلُ أذرُح وأهل ميناء وأعطوه الجزية، وأهدى يُحَنَّه لرسول الله ﷺ بغلة بيضاء، فكساه رسول الله ﷺ برداً وعرض عليه الإسلام، فلم يسلم، وكتب له رسول الله ﷺ ولأهل أيلة كتاباً هذه صورته: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا أَمَنَةٌ من الله ومحمد النبيّ رسول الله ليحنة بن رؤبة، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبيّ ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه، لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يُمْنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر».

وكتب ﷺ لأهل أذرح وجرباء ما صورته: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب محمد النبيّ ﷺ لأهل أذرح وجرباء، أنّهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأنّ عليهم مئة دينار في كلّ رجب ومئة أوقية طيبة وأنّ الله عليهم كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين ومن لجأ من المسلمين».

وصالح ﷺ أهل ميناء على ربع ثمارهم، وعن ابن مسعود ؓ قال: رأيت ونحن بتبوك شعلة من نار في ناحية العسكر ـ أي: ضوء شمعة ـ فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وإذا عبد الله ذو البجادَيْنِ المزني قد مات، وإذا هم حفروا له، ورسول الله ﷺ في حفرته، وأبو بكر وعمر يدليانه، ورسول الله ﷺ يقول: «دليا إليّ أخاكما»، فلما أدلياه، وجعله النبيّ ﷺ على شقِّه قال: «اللهم إني قد أمسيت راضياً عنه فارض عنه» وكان طلب من النبيّ ﷺ أنْ يدعو له بالشهادة فقال ﷺ: «اللهم حرِّمه على الكفار»، فقال: يا رسول الله، ما أردت هذا، فقال ﷺ: «تأخذك الحمى، فتموت شهيداً» فحُمَّ في تبوك ومات.

ولما أقام ﷺ في تبوك عشرين ليلة شاور أصحابه في مجاوزتها، فقال عمر ؓ: إنْ كنت يا رسول الله أُمِرْتَ بالسّير فسِرْ، فقال ﷺ: «لو أُمِرْتُ بالسير لما استشرتكم»، فأشاروا بالرّجوع.

وفي رجوعه ﷺ من تبوك اشتكى الناس إليه العطش فدعا ﷺ باثنين، قيل هما: عليٌّ والزبير، فقال ﷺ لهما: «اذهبا، فابغيا الماء فإنكما ستجدان امرأة بمكان كذا وكذا معها بعير عليه مزادتان فأتيا بها»، فانطلقا، فلقيا امرأة راكبة بين قربتين من ماء

على بعير لها، فقالا لها: أين الماء؟، فقالت: عهدي بالماء أمس هذه الساعة.

فقالا لها: انطلقي إذاً، قالت: إلى أين؟، قالا: إلى رسول الله ﷺ، قالت: الذي يقال له: الصّابئ؟، قالا: هو الذي تعنين[١]، فانطلقا فجاءا بها إلى النبيّ ﷺ، وحدّثاه بالحديث، قال ﷺ: «فاستنزلوها عن بعيرها»، ودعا النبيّ ﷺ بإناء، فأفرغ فيه من أفواه المزادتين ـ أي: القربتين ـ فمضض في الماء وأعاده في أفواه المزادتين[٢]، وأوكأ أفواهما، وأطلق الغرارتين، ونوديَ في الناس: «اسقوا واستقوا»، فسقى من شاء، واستقى من شاء، وملأنا كلّ قربة معنا وإداوة[٣]، وهي قائمة تنظر ما يفعل بمائها وايم الله، لقد أقلع عنها، وإنّها ليخيّل إليها أنّها أشدّ ملأة منها حيث ابتدأ فيها، فقال النبيّ ﷺ: «اجمعوا لها طعاماً» فجمعوا لها ما بين عجوة ودقيقةً وسويقة حتى جمعوا لها طعاماً فجعلوه في ثوب وحملوها على بعيرها، ووضع الثوب بين يديها، وقالوا لها: تعلمين ما رزأنا[٤] من مائك شيئاً، ولكنّ الله هو الذي أسقانا.

فأتت أهلها فسألوها عن بطئها فقالت: أخذني رجلان إلى هذا الرّجل الذي يقال له: الصّابئ، ففعل كذا وكذا، والله إنه لأسحر ما بين السماء والأرض، أو أنّه لرسول الله حقًّا، فكانت الصّحابة بعد ذلك يغيرون حوالي قومها، ويدعون قومها وظعنهم، فأشارت تلك المرأة على قومها بالإسلام لما شاهدت ذلك فأسلموا[٥].

ولما قرب رسول الله ﷺ من العقبة في منصرفه من تبوك اجتمع رأي من كان معه ﷺ من المنافقين أن يفتكوا برسول الله ﷺ وقت نزوله في العقبة التي بين تبوك والمدينة، وقالوا: ندفعه عن راحلته فيسقط في الوادي، فنزل الوحي وأخبره ﷺ بذلك، فلمّا وصل الجيش العقبة نادى منادي رسول الله ﷺ: أنّ رسول الله يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد، واسلكوا بطن الوادي فإنه أسهل لكم وأوسع، فسلك

---

(١) وهذا أدب منهما رضي الله عنهما، ولو قالا لها: لا، لفات المقصود، أو قالا: نعم، لم يحسن بهما، إذ فيه طلب تقرير ذلك، فتخلّصا أحسن تخلّص.

(٢) المزادتان بفتح الميم والزاي تثنية مزادة: وهي قربة كبيرة يزاد فيه جلد من غيرها.

(٣) قال بعض العلماء: إنما أخذوها واستجازوا أخذ ماءها لأنّها كانت كافرة حربيّة، وعلى تقدير أنْ يكون لها عهد، فضرورة العطش تبيح للمسلم إما المملوك لغيره على عوض، وإلا فنفس الشارع ﷺ تُفدى بكلّ شيء على سبيل الوجوب.

(٤) أي: نقصنا

(٥) انظر سبل الهدى والرشاد: (٩/٤٦٣).

الناس بطن الوادي، وسلك رسول الله ﷺ العقبة، فلما سمع المنافقون بذلك استعدوا لما أرادوا وتلثّموا وتأخّروا خلف رسول الله ﷺ، فلمّا نـزل ﷺ في العقبـة وكـان زمـام ناقتـه الشريفة بيد عمار بن ياسر يقودها بلطف، وحذيفة بن اليمان يسوقها من خلفها خـوفَ أن يزعجها شيء من خلفها، فبينا رسول الله ﷺ يسير من العقبة إذ سمع حسّ القـوم قـد غشوه، فنفّروا ناقة رسول الله ﷺ حتّى سقط بعض متاع الـنبيّ ﷺ في الـوادي، وكـان حمزة بن عمرو الأسلمي لحق برسول الله ﷺ بالعقبة، وكانت ليلة مظلمة.

قال حمزة: فنوّر لي في أصابعي الخمس، فأضـاءت حـتى جمعت مـا سـقط مـن الحبل والسوط وأشباههما، فغضب رسول الله ﷺ وأمر حذيفة أنْ يردّهم، فرجـع حذيفـة إليهم، وقد رأى غضب رسول الله ﷺ، ومعه محجن يضرب وجوه رواحلـهم، ويقـول: إليكم إليكم يا أعداء الله تعالى، فعلم القوم أنّ رسول الله ﷺقد اطلـع علـى مكـرهم، فولوا من العقبة مسرعين حتّى خالطوا الناس، لئلا يعرفوا ـ وكانوا خمسة عشر منافقاً ـ وأقبل حذيفة حتّى أتى رسول الله ﷺ، فقال: «اضرب الراحلة يا حذيفة، وامـش أنـت يا عمّار» فأسرعوا حتّى استوى بأعلى العقبة، وخرج رسـول الله ﷺ مـن العقبـة ينتظـر الناس، وقال ﷺ لحذيفة: «هل عرفت أحداً من الركـب الـذين رددتهـم؟»، قـال: يـا رسول الله، قد عرفت رواحلهم، وكان القوم متلثّمين فلم أبصرهم بسبب ظلمة الليل.

فقال ﷺ: «هل علمتم ما كان من شأنهم وما أرادوا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم.

قالوا ﷺ: «فإنّهم مكروا ليسيروا معي فـإذا طلعـت العقبـة زحمـوني فطرحـوني منها، وإنّ الله قد أخبرني بأسمائهم وأسمـاء آبـائهم، وسـأخبركم إن شـاء الله تعـالى، قالوا: أفلا تأمر بهم يا رسول الله إذا جاء الناس أن تُضْرب أعناقهم؟، قـال ﷺ: «أكـره أنْ يتحدّث الناس، ويقولوا: إنّ محمّداً قد وضع يده في أصحابه» فسمّاهم لهما[1]، ثمّ قال: «اكتماهم».

فلما أصبح رسول الله ﷺ جاء حضير بن أسيد إليه ﷺ فقال: يا رسـول الله، مـا يمنعك البارحة من سلوك الوادي، فقد كان أسهل من العقبة؟، فقال ﷺ: «أتـدري يـا أبا يحيى، أتدري ما أراد بي المنافقون وما همّوا به؟، قـالوا: نتبعـه مـن العقبـة، فـإذا

(١) وهم: (عبد الله بن أبي، وسعد بن أبي السرح، وأبو خاطر الأعرابي، وأبو عامر، وعـامر، والجُلَـاس بـن سويد بن الصّامت، ومجمع بن جارية، ومليح التيمي، وحصن بن نمير، وطعمة بـن أبـيرق، وعبـد الله بن عيينة، ومرّة بن الربيع) وكلّهم ماتوا كافرين محاربين لله ورسوله. انظر زاد المعاد: (٣/٤٧٧ـ ٤٧٨).

أظلم عليه الليل قطعوا أنساع راحلتي ونخسوها حتّى يطرحوني عن راحلتي».

فقال أسيد بن حضير ﷺ: يا رسول الله، قد نزل الناس واجتمعوا، فمر كلّ بطن أن يقتل الرجل الذي همَّ بهذا، فيكون الرجل من عشيرته هو الذي يقتله، وإنْ أحببت والذي بعثك بالحق فنبّئني بأسمائهم فلا أبرح حتى آتيك برؤوسهم.

فقال ﷺ: «يا أسيد، إني أكره أن يقول الناس إن محمّداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم».

وفي رواية: «إنّي أكره أنْ يقول الناس: إنّ محمّداً لما انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه».

فقال: يا رسول الله، هؤلاء ليسوا بأصحاب، فقال ﷺ: «أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله؟»، قال: بلى، ولا شهادة لهم، فقال ﷺ: «أليس يظهرون أني رسول الله؟»، قال: بلى، ولا شهادة لهم، فقال ﷺ: «فقد نهيتُ عن قتل أولئك».

ثمّ جمعهم النبيّ ﷺ وأخبرهم بما قالوا، وما أجمعوا عليه، فحلفوا بالله ما قالوا، ولا أرادوا الذي ذكر، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ...﴾ [1] الآية، وأنزل الله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ [2].

ثمّ دعا ﷺ عليهم بداء يقال له: الدبيلة، وهي: كجمرة النار، تظهر بين الأكتاف حتى تصل إلى الصّدر، ثمّ قال ﷺ لحذيفة بعد أنْ سُرِّي عنه الوحي، وقد قُدِّمت إليه الراحلة ليركبها: «إني مسرٌّ إليك أمراً، فلا تذكره، نهاني ربي أنْ أصلّي على فلان وفلان.. وعدّهم».

ومن ثمّ كان عمر ﷺ ينظر من لم يصلّ عليه النبيّ ﷺ لغير عذر، فيعلم أنّه منهم، فلم يصلّ عليه، وبعد وفاته ﷺ كان إذا مات واحد ممن يظنّ به نفاق يدعو حذيفة يأخذ بيده إلى الصّلاة عليه، فإنْ صلّى عليه حذيفة يصلّي عليه عمر، فإنْ ترك الصّلاة عليه لغير عذر عَلِم عمر أنه منافق فلم يصلِّ عليه.

وجاء أنّ حيّة عظيمة الخلقة عارضت القوم في الطريق، فانحاز الناس عنها، فأقبلت حتى وقفت على رسول الله ﷺ، وهو على راحلته طويلاً، والناس ينظرون إليها، ثمّ الْتوت حتى اعتزلت الناس والطريق فوقفت قائمة، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون

---

(١) التوبة: ٧٤.

(٢) التوبة: ٧٤.

من هذا؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «هذا أحد الرهط الثمانية من الجنّ الذين وفدوا عليَّ يستمعون القرآن». أي: بنخلة عند منصرفه ﷺ من الطائف كما مرَّ.

وقال ﷺ: «إنه يقرئكم السلام»، فقال الناس: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته.

ولما أشرف ﷺ على المدينة قال: «هذه طابة، أسكننيها ربي، تنفي خبث أهلها كما ينفي الكير خبث الحديد»[1]، ولما رأى ﷺ أُحُداً قال: «هذا أُحُدٌ جبل يحبّنا ونحبّه»[2].

وسُمِّي أُحُداً لتوحّده وانقطاعه عن أَجْبُل هناك، وهو ثلاثة أميال من المدينة في جهة الشام منها، وكان ﷺ إذا قدم على المدينة رآه يبشّ لرأيته.

ولما قارب ﷺ المدينة تلقّاه أهلها من ذكر وأنثى، وكبير وصغير، فأمر ﷺ أصحابه أن لا يكلّموا المتخلّفين بغير إذنه وبغير عذر ظاهر حتى يأذن لهم، فصار الواحد يُعْرِض عن أبيه وأخيه، فلا يكلّمه ولا يجالسه لتخلّفه.

وكان تخلّف من المنافقين بضعة وثمانون رجلاً، وتخلّف جماعة من غير المنافقين بلا عذر، منهم: كعب بن مالك وكان من الخزرج، ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وكانا من الأوس.

وأما المنافقون فجعلوا يعتذرون ويحلفون، فقبل رسول الله ﷺ علانيتهم ظاهراً، واستغفر لهم، ووكَل سريرتهم إلى الله تعالى.

وأما الثلاثة، فعن كعب بن مالك ﷺ، أنه قال: لما جئت رسول الله ﷺ وسلَّمت عليه تبسَّم تَبَسُّمَ الغضب، وقال لي: «تعال»، فجئت، حتى جلست بين يديه ﷺ، فقال: «ما خلَّفك؟»، فصدقته، وقلت: والله ما كان لي من عذر، والله ما كنتُ قطّ أقوى ولا أيسر مني حين تخلّفت، لا والله ما كان لي من عذر، فقال ﷺ: «أما هذا، فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك».

وقال مرارة بن الربيع وهلال بن أمية، وكانا ممن شهد بدراً مثل ما قال كعب بن مالك، وقال ﷺ لهما مثل ما قال لكعب.

ونهى ﷺ المسلمين عن تكليم الثلاثة، فاجتنبهم الناس، فأمّا الرجلان، فمكثا

---

(١) رواه بهذا المعنى البخاري في صحيحه برقم: (٦٨٩١)، ومسلم في صحيحه برقم: (١٣٨٣)، والترمذي في سننه برقم: (٣٩٢٠). ورواه غيرهم.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٦٩٠٢)، ومسلم في صحيحه برقم: (١٣٩٢). ورواه غيرهما.

في بيوتهما يبكيان، وأمّا كعب بن مالك، فكان يشهد الصّلاة مع المسلمين، ويطوف بالأسواق فلا يكلّمه أحد منهم.

قال كعب: ولما طال ذلك عليَّ من جفوة الناس تسوّرت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحبُّ الناس إليَّ، فسلّمتُ عليه، فما ردَّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك الله، هل تعلمني أحبّ الله ورسوله؟، فسكت، فعدتُ إليه فنشدته، فسكت، فعدت إليه فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتولّيت.

قال: وبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا بنبطي من أنباط الشّام ممن قدم لبيع الطعام في المدينة يقول: من يدلّني على كعب بن مالك، فصار الناس يشيرون إليّ حتى إذا جاءني دفع إليَّ كتاباً من ملك غسّان، وهو الحارث بن شمرا وجبلة بن الأيهم، ففتحته، فإذا فيه: أما بعد: فإنه بلغني أنّ صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ ولا مضيعة فالْحق بنا نواسيك، قال: فلما قرأته قلتُ: وهذا أيضاً من البلاء، فأحرقته في التّنور.

قال: فلما مضت عليَّ أربعون ليلة جاءني رسول رسول الله ﷺ، فقال لي: إنّ رسول الله ﷺ يقول لك: «اعتزل امرأتك»، فقلت: أطلّقها أم ماذا؟، قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل ﷺ إلى هلال بن أمية ومرارة بن الربيع مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الْحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، فجاءت امرأة هلال بن أمية إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أنْ أخدمه؟، قال ﷺ: «بلى، ولكن لا يقربك»، قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

قال كعب: فقال لي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في أهلك لَأذِن لك كما أذن لامرأة هلال، فقلت: لا أستأذن في خدمتها لي رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول لي لو استأذنته فيها وأنا رجل شابّ.

ثمّ لما كَمُلت خمسون ليلة من نهي رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلمّا كانت صلاة فجر تلك الليلة سمعتُ صوتاً فوق جبل سَلْع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر فخررت ساجداً، وعرفت أنّ رسول الله ﷺ قد آذن ـ أي: أعلم ـ بتوبة الله علينا، فلمّا جاءني البشير، وكان الصّوت سبقه ـ وهو حمزة بن عمرو الأوسي ـ نزعتُ له ثوبي، فكسوته إياه ببشراه، والله ما أملك غيرها يومئذ، واستعرت من أبي قتادة ثوبين

فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فتلقّاني الناس فوجاً فوجاً يهنئونني بالتوبة، يقولون: يهنك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس وحوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبد الله يهرول حتى صافحني، وهنّأني، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة لأنه ﷺ كان آخى بينهما حين قدم المدينة.

قال كعب: فلمّا سلّمت على رسول الله ﷺ، وهو يبرق وجهه من السّرور، وكان ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنّه قطعة قمر، فلمّا جلست بين يديه ﷺ قال: «أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك»، فقلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟، قال: «بل من عند الله»، فقلت: يا رسول الله، إنّ من توبتي أنْ تخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله، فقال ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك»[1].

وكان المبشّر لهلال بن أمية أسعد بن أسيد، والمبشّر لمرارة بن الربيع سلطان بن سلام، أو سلامة بن وقش وأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ...﴾[2] إلى قوله تعالى: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[3].

وأنزل في حق من اعتذر: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[4].

ولما قدم ﷺ المدينة من تبوك، قدم عليه في ذلك الشهر وفد ثقيف، وكان من خبرهم: أنه لما انصرف رسول الله ﷺ من حصارهم في الطائف تبعه عروة بن مسعود فأسلم قبل وصوله المدينة، وسأل النبيّ ﷺ أنْ يرجع إلى القوم فيدعوهم للإسلام، فقال له النبيّ ﷺ: «إنهم قاتلوك»، فقال: يا رسول الله، إني أحبُّ إليهم من أبكارهم، فرجع إليهم ودعاهم للإسلام، فأغلظوا عليه المقال، وسبُّوه، وسبّوا الإسلام، فلمّا كان السَّحَر قام فأذَّن، فرموه بالسّهام، فقتلوه.

ثمّ لما رجع رسول الله ﷺ من تبوك سالماً بالجيش العظيم قَطَعَتْ ثقيف بأنها لا طاقة لها على عداوة النبيّ ﷺ، فقدم منها تسعة عشر رجلاً[5]، هم أشراف ثقيف،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٤١٥٦)، ومسلم في صحيحه برقم: (٢٧٦٩). ورواه غيرهما.

(٢) التوبة: ١١٧.

(٣) التوبة: ١١٩.

(٤) التوبة: ٩٦.

(٥) قدم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ في شهر رمضان من سنة تسع للهجرة النبوية. انظر البداية والنهاية: (٢٩/٥).

وفيهم رئيسهم، وهو كنانة بن عبد ياليل، وكان أصغر الوفد عثمان بن أبي العاص، فلمّا قربوا إلى المدينة لقوا المغيرة بن شعبة الثقفي، فأسرع يبشّر النبيّ ﷺ بقدوم ثقيف، فلقيه أبو بكر ﷺ فأقسم عليه أنْ لا يسبقه بالبشارة، فبشّر بقدومهم أبو بكر ﷺ، ثمّ دخل المغيرة مبشّراً ثانياً، ثمّ رجع إليهم المغيرة يُعَلّمهم كيف يتأدَّبون عند دخولهم عليه ﷺ، ثمّ قدم بهم على رسول الله ﷺ، فأمر ﷺ فضربت لهم قبَّة ـ أي: خيمة ـ في ناحية المسجد ليسمعوا القرآن، وكانوا يخلفون عثمان عند أمتعتهم، فكانوا إذا رجعوا، جاء عثمان إلى النبيّ ﷺ يسأله عن الدين، فإنْ وجده نائماً يتعلّم من أبي بكر، وكان يكتم ذلك عن أصحابه، فأَعْجب النبيّ ﷺ ذلك منه.

وكان واسطَتُهم عند النبيّ ﷺ خالد بن سعيد بن العاص، وكانوا لا يأكلون من الطعام حتى يأكل منه خالد إلى أنْ أسلموا، ثمّ رجعوا إلى قومهم فأخفوا عنهم إسلامهم، وخوّفوهم من النبيّ ﷺ، فقال لهم قومهم: لا طاقة لنا به، ارجعوا فأطيعوه كيفما كان، فأخبروهم بإسلامهم.

وكان ﷺ أمَّرَ عليهم عثمان بن أبي العاص، وأرسل معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم الطاغية، وهو صنم كانوا يحجّون إليه، ويقولون: إنّه الربّة، فلمّا علاها المغيرة ليضربها بالمعول قام قومه دونه مخافة أنْ يُرْمى بالسّهام كما رمي عروة، وخرجت نساء ثقيف مكشوفات الرؤوس يبكين على الطاغية، ثمّ أخذ يهدمها، وأراد أن يضحك قومه على عقول ثقيف، فضربها ضربة عظيمة رمى بها المعول، وأظهر أنه سقط منه قهراً عنه، ثمّ رمى بنفسه، وصار يرجف، ويُظْهر لهم أنها أثّرت فيه، فصاروا يقولون: دونكِ طاغية إياه، اقتليه، اخبليه، ورفعوا أصواتهم فرحين بما أصابه، فقام وأظهر لهم أنّه يسخر بهم وبالطاغية التي يعبدونها، ثمّ علاها فهدمها عن آخرها، ونكت أساسها، وأخرج مالاً عظيماً من أساسها كان يهدى إليها من حليٍّ وغيره، فأُتيَ به إلى النبيّ ﷺ، فأمر ﷺ أنْ يُقْضى منه دين عروة والأسود.

وإلى غزوة تبوك وما قبلها أشار المصنف بقوله:

وغزو تبوك فيه أرسلت خالداً — لتكدير عيش من أكيدر دومة
وقلت ستلقاه يصيد المها فسر — إلى قصره وادخل له في سرية
فَسِيقتْ له في الليل واستخرجته من — حماه بتصديق لتلك القضية

حاصله: وفي عام غزوة تبوك، وقبل خروجك إليها يا رسول الله أرسلت خالد

بن الوليد ﷺ في سرية إلى أُكَيْدر ملك دومة الجندل، فقال لك: يا رسول الله، كيف لي به، وهو في وسط بلاد بني كلب، وإنّني لفي عدد يسير؟!!، فقلتَ: ستلقاه يصيد المها ـ بقر الوحش ـ فتأخذه، فلمّا سرت إليه ووصلت إلى مكانه ليلاً، ساق الله تلك الليلة بقر الوحش إلى باب قصره، فخرج يصيدها، فأمسكته خيل خالد كما تقدّم موضّحاً قبل غزوة تبوك، فما سيقت بقر الوحش إليه ليلاً حتى خرج ليصيدها إلا ليتحقق ما أخبر به النبيّ ﷺ خالداً.

وكانت هذه السرية سبباً لغزوة تبوك لأنّ الروم بعدها تحدّثت بقتال النبيّ ﷺ، وأشاع المنافقون أنّ الروم قادمون عليه ﷺ بجيش عظيم انتقاماً لما فعله بأكيدر وبلاده، وأنّهم مصممون على استئصاله واستئصال أصحابه نسخاً لدينه ﷺ.

وكان ذلك كذباً محضاً قصدوا به إرعاب المؤمنين وتقوية قلوب الكافرين والمنافقين على عداوة سيّد المرسلين ﷺ، فلما بلغه ﷺ الخبر شاور أصحابه الكرام، وأخبرهم بأنه لم ينزل عليه في شأنها شيء، واختلفت آراؤهم، وكان رأي الخلفاء غزوهم، وقالوا: نحن نتلقّاهم قبل أن يصلوا بلادنا، فخرج ﷺ على إثرها لتبوك.

هذا ما نعلمه، وإنْ كان ظاهر عبارة المصنف أنّ هذه السرية وقعت أثناء غزوة تبوك.

وفيها من الكف الكريم تفجرت ... مياه كَوَكْف الظلة المنهلة
فيوماً بوقع النبل جئت بشربهم ... ويوماً بوقع الوبل جئت بسقية

حاصله: ومن جملة معجزاتك يا رسول الله ما وقع لك في غزوة تبوك حيث أنّ الجيش العظيم الذي كان معك أصابه عطش شديد مرّات متعددة في أوقات وأماكن مختلفة، فشكوا لك ذلك، فمرّة دعوت بماء فوضعت يدك الشريفة فيه فتفجّرت منها عيون ملأت الوعاء الذي كان الماء فيه حتى شرب القوم، وسقوا دوابّهم، وتوضأ منهم من توضأ، واغتسل من اغتسل، وحمل من الماء من حمل، والحال أنّ الماء أكثر مما كان أولاً، وكان الجيش ثلاثين ألفاً، وقيل: أربعون ألفاً، وقيل: سبعون ألفاً، وكلّ صحيح، لأنّ الأخير عدّ الدوابّ مع جميع الآدميين، والثاني عدّ أتباع المقاتلين ومن لحق في أثناء الطريق، والأول خصّ المقاتلين الخارجين أولاً، فكان الماء النابع من يدك الشريفة يا رسول الله كوكف ـ أي: مطر ـ السحاب المظلّة لما تحتها لثخنها وكثرة مياهها، المنهلّة: المنصبّة بالماء الغزير على ما تحتها، ومرة أمرت الصّحابة

بوضع النّبل في أسفل مكان الماء لما نزحت عين تبوك، وتمضمضتَ أو توضأتَ، وجعلت ذلك الماء فيها، ففارت حتى امتلأت، وشرب الجيش منها حتى ارتحل وهي عليه، ومرّة عند الرّجوع من تبوك، دَعَوْتَ الله يا رسول الله لما طلب الصّحابة منك ذلك، فنزل الوبل ـ المطر الغزير ـ على الجيش حتى شربوا هم ودوابهم، وملؤوا أوعيتهم، ولم يجاوز ذلك الجيش كما تقدم موضّحاً في غزوة تبوك المتقدّمة.

إلى أبوي ذرّ وخيثمة فقد ... أشرت وقد جاءاك من غير ريبة
وعاش أبو ذر كما قلت وحده ... ومات وحيداً في بلاد بعيدة

حاصله: ومن جملة معجزاتك ما أخبرت به يا رسول الله ﷺ عن أبي خيثمة وأبي ذرّ رضي الله عنهما لما تبعاك إلى تبوك، فكان الأمر كما أخبرت، أما أبو خيثمة، فإنه لما تخلّف عن غزوة تبوك ودخل بستانه فوجد زوجتيه في بيتين لهما قد أحسناهما له، فقال: أكون في هذا النعيم، ورسول الله ﷺ في الحرِّ العظيم، فحلف لا يدخلهما، وركب ناضحه وسار إلى أنْ لحق برسول الله ﷺ، فقدم على تبوك بعد وصول الجيش إليها، فلمّا شاهد الصّحابة زواله قالوا: يا رسول الله، هذا راكب مقبل وحده، فقال ﷺ: «كن أبا خيثمة» فكان الأمر كما ذكر كما تقدم في غزوة تبوك موضحاً.

وأما أبو ذر فتخلّف عن الجيش لضعف بعيره عن اللحوق بهم، فلما آيس منه حمل متاعه على ظهره وترك البعير، فلمّا أشرف على تبوك، قال بعض المسلمين: يا رسول الله، إنّ رجلاً يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا ذرّ»، فلمّا وصل، فإذا هو أبو ذرّ كما قال ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذرّ، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»[1].

وكان رضي الله عنه اسمه جندب بن جنادة بن قيس الغفاري، كان من أوعية العلم المزيدين في الزهد والورع والقول بالحق، وكان من الأقدمين في الإسلام، وأخوه أنيس صحابي أيضاً، وأمهما أيضاً صحابية، مات وحيداً في الربذة كما قال ﷺ، كما تقدم في غزوة تبوك السابقة:

وقد قال زيد هل درى خبر السما ... وناقته لم يدرها أين ضلت
فأخبرت عنه بالذي قال آنفاً ... وعن شعبها أيضاً بوصف وهيئة

---

(١) تقدّم تخريجه.

حاصله: ومن جملة ما وقع لك يا رسول الله من المعجزات في غزوة تبوك: لما ضلَّت ناقتك، وخرج الصّحابة في طلبها، فلم يأتوا عنها بخبر، وكان رجل من المنافقين في الجيش اسمه زيد بن كعب القينقاعي، فقال ذلك المنافق حين بلغه خبر الناقة: أليس يزعم محمّد أنه يخبركم بخبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟، فقلتَ حالاً من غير مخبر لك غير الوحي يا رسول الله: «إنّ رجلاً قال: هذا محمّد يخبركم أنّه نبيّ ويزعم أنّه يخبركم بأمر السماء، وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله لا أعلم إلا ما علّمني الله، وقد دلّني الله عليها، وهي الآن في وادي كذا في شعب كذا، قد حبستها شجرة بزمامها»، فانطلق الصّحابة فوجدوها كما أخبرت يا رسول الله، كما تقدم أيضاً في غزوة تبوك موضّحاً والله تعالى أعلم.

ولما أتاك ابن الطفيل وأربد بكيد تولى الله دفع المكيدة
وأحرق رمياً بالصّواعق أربداً وأهلك نفس ابن الطفيل بغدة

ومن جملة معجزاتك يا رسول الله: أنه لما توافق عامر بن الطفيل مع أربد بن قيس، أخي لبيد بن عامر لأمه على قتل النبيّ ﷺ بإرسال بني عامر لهما في ذلك، واتفقا على أنّ عامرَ يشغل النبيّ ﷺ، وأربد يضربه بسيفه المشهور المسموم.

فلمّا قدما على النبيّ ﷺ، وصار عامر يقول للنبيّ ﷺ: ما لي إذا أسلمت، ويتمنّى على النبيّ ﷺ أموراً، والنبيّ ﷺ يقول له: «ليس ذلك لك ولا لقومك»، وكان مشهوراً بالفروسية والبأس والشدّة إلى أن وضع يديه على منكبيه ﷺ علامةً لأربد ليضرب النبيّ ﷺ، فسلّ أربد نصف سيفه من خلف النبيّ ﷺ، فأبصره النبيّ ﷺ، لأنّه ﷺ كان يرى من خلفه كما يرى من أمامه[1]، فلمّا أبصره رسول الله ﷺ قال: «اللهم اكفنيهما بما شئت، وكيف شئت، اللهم اهدي قوم عامر»، فتركاه ﷺ وهربا مسرعَيْن.

وقال عامر لأربد وقت انصرافهما: ما شأنك لم تضربه؟؟!!، فقال: كلّما هممت أنْ أضربه وجدتك خيالاً بيني وبينه، أفأضربك دونه؟؟.

وأصاب عامر في منصرفه طاعون، فخرجت له غدّة في عنقه من الطاعون كغدّة

---

(١) يشهد لذلك مارواه ابن خزيمة في صحيحه، عن أبي هريرة ﷺ، أنّه قال: صلى بنا رسول الله الظهر، فلمّا سلّم، نادى رجلاً كان يصلّي في آخر الصّفوف: «يا فلان، ألا تتقي الله، ألا تنظر كيف تصلّي، إنّ أحدكم إذا قام يصلّي، إنّما يقوم يناجي ربّه، فلينظر كيف يناجيه، إنّكم ترون أنّي لا أراكم، والله إنّي لأرى من خلف ظهر كما أرى من بين يدي».

البعير، فوقع في بيت امرأة من بني سلول، وصار يقول: غدّة كغدة البكر[١] وموت في بيت سلولية، فركب فرسه ليخرج منه، فركضت به حتى سقط ميتاً كافراً، وكان يقول: ابرز يا ملك الموت حتى أقاتلك حتى ميتاً.

ولحق أربد بجماعة موافقين له في خبيث طويّته، فأنزل الله بهم صاعقة فأحرقتهم معه عن آخرهم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾[٢].

روي أنّ أربد لما قدم على قومه، قالوا له: ما وراءك؟، فقال: لا شيء، والله لقد دعانا محمّد ـ ﷺ ـ إلى عبادة شيء، لوددتُ أنّه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله، فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل يتبعه، فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما في يوم صحو[٣].

فنفذت فيهما دعوة النبيّ ﷺ بعد أنْ صرفهم الله عنه ﷺ معجزة له ﷺ.

كما أكل الضرغام عُتْبَة بعدما دعوت له شراً فيا ويل عتبة

حاصله: ومن جملة معجزاتك يا رسول الله ﷺ ما وقع لعتبة بن أبي لهب، وكان متزوجاً بنت النبيّ ﷺ قبل النبوّة، فلمّا بُعِثَ رسول الله ﷺ كفر هو وأبوه، وطلّق بنت النبيّ ﷺ متبرِّياً منه ومن دينه، وأغلظ المقال في تكذيب النبيّ ﷺ وسبِّه.

ولمّا أنزل الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾[٤] دعا عليه النبيّ ﷺ فقال ﷺ: «اللهم سلِّط عليه كلباً من كلابك»، فخرج عتبة على أثر ذلك مع تجار إلى بلاد الشام، وكان كثيراً ما يتخوَّف من نفوذ دعوة النبيّ ﷺ فيه وينام في وسط القوم خوفاً من ذلك، فجاءهم الضِّرغام ـ أي: الأسد ـ ليلة، وهم نائمون، وصار يشمّهم واحداً واحداً، ويظنّه من يشاهده من المستيقظين أنّه كلب من كلابهم، أو من الكلاب اللاحقة بهم إلى أنْ وصل الأسد إليه فضربه بذنبه ضربة مات بها، ثمّ بعج بطنه، والقوم لا يعلمون، إلى أن أصبحوا وأجلسوه ميتاً مسودّ الوجه، مبعوج البطن.

وكان ذلك بدعوة النبيّ ﷺ معجزة له ﷺ. وقيل: إنّ عتبة أسلم هو وأخوه معتب، أسلما يوم فتح مكة، وأنّ الذي أصابته دعوة النبيّ ﷺ أخوهما عتيبة. والله أعلم.

---

(١) أي: البكر من الإبل.

(٢) الرعد: ١٣.

(٣) انظر زاد المعاد: (٥٢٩/٣)، وسبل الهدى والرشاد: (٣٦٢/٦).

(٤) النجم: ١.

وأخبرت عن موت النّجاشيّ عندما ثوى وكذا العنسيّ وقت المنيّة
كما أنّ كسرى يوم مات نعَيْتَه لفيروز لما جاء منه بقصّة

حاصله: ومن جملة معجزاتك يا رسول الله: ثلاث معجزات، أخبرتَ بهنّ، فكان الأمر كما قلتَ، الأولى: ما رواه جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إنّ صاحبكم أصحمة النّجاشيّ قد توفي هذه الساعة، فاخرجوا بنا إلى المصلى»، فخرجوا، وصلّى عليه النبيّ ﷺ صلاة الجنازة مع الصّحابة، لأنه كان مشهوراً بالصّلاح[1].

والثانية: ما وقع للأسود العنسيّ، الذي ادَّعى النبوّة باليمن، وكان كاهناً من بني مدلج، واستولى على بلاده، وأخرج عمّال النبيّ ﷺ منها، وادَّعى أنّ الملائكة تنزل عليه بوحي، فأرسل رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل ومن معه من المسلمين، فساروا لقتاله إلى أنْ قتله الله على يد فيروز الديلمي، فأخبر ﷺ بقتله في الليلة التي قتل فيها في مرض موته ﷺ، وجاء الخبر كما ذكر بعد ذلك بعشرين ليلة.

وفي الحديث: «بينا أنا نائم إذ أتيتُ بسوارين من ذهب فوضعا في يدي فكرهتهما ـ أي: لأنهما من حلية النساء المشعرة بالذلّ وذهاب الشهامة ـ فنفختهما فطارا، فلما استيقظت أولتهما بكذابين»[2].

فيروز المذكور في اليمن، ومسيلمة باليمامة قُتِلَ بعد وفاته ﷺ على يد وحشي قاتل حمزة رضي الله عنهما، وتقدم بسط هذا.

والثالثة: ما وقع لكسرى أنو شروان، مجدّد الملك، كان مجوسياً يعبد النار، وملكاً على الفرس، أرسل إليه النبيّ ﷺ كتاباً يدعوه فيه للإسلام مع عبد الله بن حذافة السّهمي فمزّقه كسرى، وأرسل إلى عامله باليمن باذان: أنِ احمل إليَّ هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيّ، يبدأ في كتابه لي باسمه مقدِّماً له على اسمي، ويدعوني إلى غير ديني.

فلمّا رجع عبد الله، وأخبر النبيّ ﷺ بتمزيق كتابه الشريف دعا عليه النبيّ ﷺ أنْ يمزّق ملكه كلّ ممزّق، فكان الأمر كذلك، كما مرَّ.

ولما وصل كتاب كسرى لباذان بعثه إلى النبيّ ﷺ مع فيروز الديلمي وجماعة

---

(١) حديث الصّلاة على النّجاشيّ رواه البخاري في صحيحه برقم: (٣٦٦٤)، ومسلم في صحيحه برقم: (٩٥٢). ورواه غيرهما.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٣٤٢٤)، ومسلم في صحيحه برقم: (٢٢٧٤). ورواه غيرهما.

من عنده، فلمّا جاء إلى النبيّ ﷺ قال له: إنّ ربي كسرى أمرني أنْ أحملك إليه، وكتب إلى باذان بذلك، وأنفذني إليك باذان لتجيبه، وهذا كتابه وكتاب كسرى، فقال له النبيّ ﷺ: «وماذا تقول؟»، فأعاد عليه المقال، وأعاد عليه النبيّ ﷺ الاستفهام الإنكاري التوبيخيّ، وهو لا يفهم ثلاث مرّات.

ثمّ قال ﷺ له: «تنحّ إلى غد، حتى أرى فيك رأياً»، فلمّا كان من الغد جاء إلى النبيّ ﷺ يستحثّه على المسير إلى كسرى، فقال له النبيّ ﷺ: «أخبرني ربي أنه قتل ربك كسرى البارحة، سلّط الله عليه ابنه شيرويه فقتله على سبع ساعات من ليلة الثلاثاء، وكانت عاشرة ليلة من جمادى الأولى، سنة سبع، فأمسك نفسك عن مطلوبك بقدر ما يأتيك الخبر»، فارتاع فيروز لذلك وهاله الأمر، وعاد إلى باذان فأخبره بذلك، فقال له باذان: يا فيروز، كيف وجدت حالك لما دخلت عليه؟، فقال: والله ما هبت أحداً من الملوك قطّ كهيبته، فقال باذان: لئن كان ما قاله حقّاً فهو نبيّ، فما مضى إلا قليل حتى ورد عليهم الخبر بقتل كسرى في تلك الساعة والليلة والشهر، فأسلم باذان وفيروز ابن أخت كسرى، وولّى رسول الله ﷺ اليمن لباذان حينئذ بعد هلاك كسرى.

وكان كتب ابن كسرى لباذان أما بعد: فإنّ أبي أحدث أموراً تضرُّ بالرّعية فقتلناه رحمة بهم، وإنّه كتب لك كتاباً في شأن هذا الرجل المدّعي النبوّة ـ يعني النبيّ ﷺ ـ فلا تعجل به، وأخّر أمره حتى نرى فيه رأياً[1].

روي أنه ـ أي: شيرويه ـ دخل عليه ليلاً فضربه بخنجر في بطنه تلك الليلة، وكان ذلك بإذن رعيته له في ذلك. وقيل: ابنه متهوم تهمة بذلك، وأنّ الضربة الإلهية لم يعرف لها ضارب، لكنّ الحديث الأول صريح في القول الأول، وعلى كل حال كانت المعجزة في الخبر عنه، بل وفي قتله أيضاً.

ورب بعير قد شكا لك حاله ... فأذهبت عنه كُلَّ كَلٍّ وقلة

حاصله: ومن جملة معجزاتك يا رسول الله ما وقع لك من أنّ جملاً اشتكى لك أموراً، فأذهبت عنه كُلَّ كَلّ ـ أي: ثقل ـ اشتكاه لك.

روي عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما، أنّ النبيّ ﷺ دخل حائط رجل من الأنصار، فإذا جمل فلمّا رأى النبيّ ﷺ حنَّ، وذرفت عيناه، فأتاه النبيّ ﷺ فمسح

(١) انظر البداية والنهاية: (٤/٢٦٩)، وتاريخ الطبري: (٢/١٣٣) وما بعدها.

رأسه فسكن، ثمّ قال ﷺ لصاحبه: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمه التي ملكك الله إياها، فإنّه شكا إليّ أنّك تجيعه وتدئبه»[1].

وروي عن تميم الداري رضي الله عنه أنّه قال: كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ إذ أقبل بعير يعدو، حتى وقف على هامة رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «أيهاالبعير اسكن، فإنْ تكُ صادقاً، فلك صدقك، وإنْ تكُ كاذباً، فعليك كذبك، مع أنّ الله تعالى قد أمّن عائذنا، وليس بخائب لائذنا، فقلنا: يا رسول الله، ما يقول هذا البعير؟، فقال: «هذا بعير قد همّ أهله بنحره وأكل لحمه، فهرب منهم واستغاث بنبيِّكم ﷺ، فبينا نحن كذلك إذ أقبل أصحابه يتعادون، فلمّا نظر إليهم البعير عاد إلى هامة رسول الله ﷺ، فلاذ بها فقالوا: يا رسول الله، هذا بعيرنا هرب منذ ثلاثة أيام، فلم نلقه إلا بين يديك، فقال ﷺ: «أما إنه يشكو إليّ فبئست الشكاية»، فقالوا: يا رسول الله، ما يقول؟؟، قال: «يقول: إنه رَبِيَ في أَمْنكم أحوالاً، وكنتم تحملون عليه في الصيف إلى موضع الكلإِ، فإذا كان الشتاء رحلتم إلى موضع الدَّفاء، فلما كبر استفحلتموه، فرزقكم الله منه إبلاً سائمة، فلمّا أدركته هذه السنة الخصبة، هممتم بنحره وأكل لحمه»، فقالوا: قد والله كان ذلك يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما هذا جزاء المملوك الصالح من مواليه»، فقالوا: يا رسول الله، فإنا لا نبيعه ولا ننحره، فقال عليه الصلاة والسلام: «كذبتم، قد استغاث بكم فلم تغيثوه، وأنا أولى بالرحمة منكم، فإنّ الله نزع الرحمة من قلوب المنافقين، وأسكنها في قلوب المؤمنين»، فاشتراه عليه الصلاة والسلام منهم بمئة درهم، وقال: «يا أيها البعير، انطلق فأنت حرّ لوجه الله تعالى»، فرغى على هامة رسول الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: «آمين»، ثمّ دعا، فقال: «آمين»، ثمّ دعا، فقال: «آمين»، ثمّ دعا الرابعة، فبكى عليه الصلاة والسلام، فقلنا: يا رسول الله، ما يقول هذا البعير؟!، قال: «قال: جزاك الله أيها النبي عن الإسلام والقرآن خيراً، فقلتُ: آمين، ثمّ قال: سكّن الله رُعْب أمتك يوم القيامة كما سكّنت رُعْبي، فقلتُ: آمين، ثمّ قال: حقن الله دماء أمتك من أعدائها كما حقنت دمي، فقلتُ: آمين، ثمّ قال: لا جعل الله بأسها بينها، فبكيتُ، فإنّ هذه الخصال سألت ربي فأعطانيها، ومنعني هذه، وأخبرني جبريل عن الله تعالى أنّ فناء أمتي بالسيف، جرى

---

(١) رواه أبو داود في سننه برقم: (٢٥٤٩)، وأحمد في مسنده برقم: (١٧٤٥)، والحاكم في المستدرك برقم: (٢٤٨٥). ورواه غيرهم، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرّجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص.

القلم بما هو كائن»[1].

(٢)

....

ونظيره ما قاله النبيّ ﷺ لجماعة فيهم أبو هريرة: «الضرس أحدكم في النار أكبر من أُحُد»[3]، قال أبو هريرة: فترقبت القوم حتى شاهدت آخرهم مات مرتداً باليمامة.

وهل بعد تسبيح الطعام ـ معجزة لك يا رسول الله ـ يشكٌّ برسالتك إلا معانِدٌ جاحد، كما رواه ابن مسعود ﷺ، وسمعه بإذنه وكذا رواه وسمعه علقمة[4].

وروى الطبراني[5] والبيهقي[6] عن أبي ذرّ ﷺ، أنّه قال: كان بين يدي رسول الله ﷺ سبع حصيات، أو قال: تسع حصيات، فأخذهنّ في كفّه، فسبحن، حتّى سمعت لهنّ حنيناً كحنين النحل، ثمّ وضعهنّ فخرسن، ثمّ أخذهنّ فوضعهنّ في كفّ أبي بكر فسبحن، حتّى سمعت لهنّ حنيناً كحنين النحل، ثمّ وضعهن فخرسن، ثمّ تناولهنّ فوضهنّ في كفّ عمر فسبحن حتى سمعت لهنّ حنيناً كحنين النحل، ثمّ وضعهن فخرسن، ثمّ تناولهنّ فوضعهنّ في يد عثمان، فسبحن حتّى سمعت لهنّ حنيناً كحنين النحل، ثمّ وضعهنّ فخرسن، فقال النبيّ ﷺ: «هذه خلافة النبوّة»[7].

وليس بعد معجزة هذا التسبيح مرية أوشك أوتردد في صدقك يا رسول الله في دعوى الرّسالة.

وهل بعد نبع الماء منها لجاحد   تخيل منع أو تخيل شبهة

يعني: ليس بعد معجزة نبع الماء من بين أصابعك يا رسول الله الذي تواتر الحديث عنها في أماكن وأحوال متعددة، ليس بعد هذه الحادثة العظيمة شكّ لمنصف

---

(١) عزاه المنذري في الترغيب إلى ابن ماجه، انظر الترغيب والترهيب: (١٤٤/٣)، وسبل الهدى والرشاد: (٤٠٥/١٢)، ومصباح الظلام للتلمساني: (١٥٦).

(٢) هنا سقط من المخطوط الموجود بحوزتي.

(٣) لم أعثر عليه بهذا اللفظ، لكن وجدت حديثاً في مسند الإمام أحمد برقم: (١٩٢٨٥) عن زيد بن أرقم موقوفاً عليه بمعناه، وفيه: «إنّ الرجل من أهل النّار ليعظم للنار حتى يكون الضرس من أضراسه كأحد».

(٤) لم أجده عن ابن مسعود ﷺ، كذا عن علقمة، ووجدته عن أبي ذر وأنس وابن عباس. انظر سبل الهدى والرشاد: (٥٠٤/٩).

(٥) رواه الطبراني في الأوسط برقم: (٤٠٩٧).

(٦) أخرجه البيهقي في الدلائل: (٦٥/٦).

(٧) عزاه في الكنز إلى ابن عساكر، وعزاه الهيثمي إلى الطبراني في الأوسط والبزار في مسنده. انظر مجمع الزوائد: (٥٢٧/٨)، وكنز العمال: (٦٥٤/١٢).

في صدقك في دعوى البعثة، كما وأنّ هذا الفيض العظيم الذي انساب من بين أصابعك الشريفة يدلّ دلالة قطعية على أنك لو أردت أنْ تجري معك الجبال ذهباً وفضة وأحجاراً كريمة لجرى الأمر وفق مرادك، وأنّك يا رسول ما رددت أو منعت لعجز حلّ بك أو فقر اضطررت إليه.

مما روي في نبع الماء، ما رواه البخاري[1]، عن أنس ﷺ، أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ، وجاءت صلاة العصر فالتمس الناس الوضوء، فلم يجدوه، فأتي رسول الله ﷺ بوضوء فوضع ﷺ يده في ذلك الإناء الذي فيه الوَضوء - بفتح الواو - وأمر ﷺ النّاس أن يتوضؤوا، قال: فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه ﷺ، فتوضّأ الناس حتى توضؤوا عن آخرهم بماء يغمر أصابعه، أولا يكاد يغمر - كما في الشفاء[2] - وكان القوم زهاء - أي: أكثر من - ثلاثمئة.

وروي عن ابن مسعود ﷺ[3] نظير هذه الروايات، ومرّت روايات أخر في أوقات متعددة.

وقد شاع أنّ الضبّ والذئب سلّما عليك وقد يعزى الكلام لظبية

قد شاع وتواتر أنّ من معجزاتك يا رسول الله أنّ الضبّ والذئب سلّما عليك، وقد عزي لمعجزاتك أنّ منها تكليم الظبية - أي: الغزالة - لك[4].

أمّا الضبّ فنقل في (دلائل النبوة)[5] عن عمر ﷺ، أنّ النبيّ ﷺ كان في محفل من أصحابه، إذا أعرابيّ قد صاد ضبّاً، وجعله في كمّه ليأكله فلمّا رأى الجماعة، قال: ما هذا؟، قالوا له: رسول الله ﷺ، فجاء يشقّ النّاس فرماه بين يدي النبيّ ﷺ، وقال: لا أؤمن بك، أو يؤمن بك هذا الضبّ، فقال رسول الله ﷺ: «يا ضبّ»، فقال بلسان عربي سمعه القوم جميعاً: لبيك وسعديك يا زين من وافى القيامة، فقال له النبيّ ﷺ: «من تعبد؟»، قال: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عقابه، فقال ﷺ: «فمن أنا؟»، قال: رسول ربّ

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٣٣٧٩).

(٢) انظر الشفاء: (٢١٦).

(٣) رواه أجمد في مسنده برقم: (٤٣٩٣)، والدارمي في سننه برقم: (٢٩). ورواه غيرهما.

(٤) تكلم الظبية رواه الطبراني في الكبير برقم: (٧٦٣)، وفي الأوسط برقم: (٥٥٤٧)، وانظر مجمع الزوائد: (٨/ ١٤٠).

(٥) دلائل النبوة للبيهقي: (٦/ ١٦٨).

العالمين، وخاتم النبيّين، قد أفلح من صدّقك، وخاب من كذّبك، فقال الأعرابي: أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأن محمّداً ﷺ رسول الله.

ثمّ رجع إلى قومه فأخبرهم بالقصّة، وكان من بني سليم، فأتى النبيّ ﷺ منهم ألف، فأسلموا، فأمرهم النبيّ ﷺ أنْ يكونوا تحت راية خالد ﵁.

قال الماوردي: ولم يتفق أنّ ألفاً من العرب آمنت في وقت واحد غيرهم.

وأمّا الذئب فقد روي في (الشّفا)[1] عن أبي سعيد الخدري ﵁، أنّه قال: بينما راع يرعى غنماً في الحَرَّة إذ جاء ذئب إلى شاة من غنمه فأخذها، فخلّصها منه الراعي، فتنحّى الذئب، وهو يقول للراعي: ألا تتقي الله، حُلْتَ بيني وبين رزقي!!، فقال الراعي: العجب من ذئب يتكلّم بكلام الإنس، فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ رسول الله ﷺ بين الحرَّتين يحدّث الناس بأنباء ما قد سبق ـ أي: وأنت ترعى الغنم هنا ـ فأتى الراعي إلى النبيّ ﷺ فأخبره الخبر، فقال له النبيّ ﷺ: «قم فحدثهم» يعني: الصّحابة، ثمّ قال ﷺ: «صدق»[2].

وأمّا الظبية، فعن أبي سعيد الخدري ﵁ أنّه قال: بينما النبيّ ﷺ منطلق لقضاء حاجته في بعض أسفاره التي كنا معه فيها، إذا هو بأخبية أعراب، وبظبية مربوطة عندهم، تقول بلسان فصيح: يا رسول الله، أنا بالله وبك، يا رسول الله، إنّ هؤلاء القوم قد حبسوني منذ ثلاثة أيام، ولي خِشْفان في هذا الجبل، وقد جاعا، فإنْ رأيتَ أنْ تسرّحَني فآتيهما، ثمّ أرجع إليك؟؟.

قال ﷺ: «أتخوّف أنْ لا ترجعي»، فقالت: بلى، أرجع، عذبني الله عذاب العشّار إنْ لم أرجع، فخلاها، فانطلقت وأرضعت خشفيها، ثمّ رجعت فربطها رسول الله ﷺ مكانها، ثمّ سأل ﷺ عن صاحبها في قومه، وأخبره أنها قالت: لها ثلاثة أيام مَصِيْدة، ولم ترضع خشفيها، وأنه حلّها، فذهبت فأرضعتهما، ثمّ رجعتْ، وأنه يريدها منهم ولو بثمنها، فقالوا: نعم يا رسول الله، الأمر كما قلتَ، هي لك بلا ثمن، فأطلقها رسول الله ﷺ، فخرجت تعدو وهي تقول: أشهد أنك رسول الله ثلاث مرات[3].

---

(١) الشفا: (١/١١١).

(٢) رواه أحمد في مسنده برقم: (١١٨٠٩)، والحاكم في المستدرك برقم: (٨٤٤٤)، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي كما في التلخيص.

(٣) رواه البيهقي في الدلائل عن أبي سعيد بلفظ قريب من هذا. انظر في الدلائل: (٦/١٦٥)، وقد روي هذا الحديث من طرق متعددة تشعر بمجموعها أنّ لهذا الحديث أصلا.

قال ابن النعمان: سمعت الشيخ زكريا الإسكندري، وكان من الأولياء يقول: كنت بحرم رسول الله ﷺ فإذا ظبية قد أقبلت من باب الرحمة وسط القائلة حتى واجهت قبر النبيّ ﷺ، فوقفت من بعيد، وهي تومئ برأسها كالمسلّم عليه، ثمّ ذرفت عيناها بالدّموع، ثمّ تأخّرت على عجزها حتى خرجت من الحرم، ولم تولّ ظهرها تعظيماً وتوقيراً للنبيّ ﷺ، ونحن نشاهد ذلك.

قال: وروي أنّ هذه الظبية من نسل تلك الظبية التي أطلقها النبيّ ﷺ[1].

وتأمّل وجه ذكر المؤلف السلام في الأولَيْن مع أنه في الأخيرة فقط.

وقلت لطفل كان في المهد: من أنا فقال رسول الله من غير مرية

حاصله: ومن جملة معجزاتك يا رسول الله ما رواه في (الشفا)[2] عن معرض بن معيقيب ﷺ قال: رأيت النبيّ ﷺ جيء له بصبيّ يوم وُلِد، فقال له رسول الله ﷺ: «من أنا؟»، فقال الطفل: أنت رسول الله، فقال ﷺ: «صدقت، بارك الله فيك». فكان يسمّى مبارك اليمامة.

واتّفق ذلك أيضاً مع صبيّ آخر أتت به أمّه إلى النبيّ ﷺ، وقد بلغ أوان النّطق، ولم يتكلّم، فقالت: يا رسول الله، إنّ ابني هذا قد شبّ ولم يتكلّم قطّ، فقال ﷺ: «يا صبيّ، من أنا؟»، فقال: أنت رسول الله. ثمّ صار يتكلّم كلاماً فصيحاً[3].

وغادرت ماء البئر بالتفل نابعاً معيناً فراتاً بعد طول الملوحة

حاصله: ومن جملة معجزاتك يا رسول الله ما رواه الماوردي، أنّ قوماً شكوا للنبيّ ﷺ ملوحةَ بئرهم، فتفل ﷺ فيها، ثمّ انصرف فتفجّرت منها عين ماء نبعاً، ويعين النابع بعضه بعضاً في الزيادة، وكانت تلك العين النابعة فراتاً عذبة بعد طول ملوحة ماء تلك البئر[4].

روي أنّ مسيلمة الكذاب، لما بلغه ذلك، وطُلِبَ منه نظيره تفل في بئر فيها بعض ملوحة لتصير عذبة، فصارت كبول الحمير ملوحةً وسمِّية ونتناً، فهجرت إلى الآن[5].

---

(١) انظر مصباح الظلام للتلمساني: (١٦٢).

(٢) الشفا: (١/١١٥).

(٣) انظر المرجع السابق.

(٤) انظر عيون الأثر: (٢/٣٧٥).

(٥) انظر عيون الأثر: (٢/٣١٥)، والروض الأنف: (١/٤١٨).

وأنّه تفل في بئر ليكثر ماؤها، فغار ماؤها بالكلّيّة إلى الآن، ووضع يده على رأس فيه قرع لينبت شعره كما فعل النبيّ ﷺ فصار كلّه أقرع، لم ينبت في موضع مسِّ يده شعرة واحدة، فسئل عن ذلك فقال: بعثت بالشرّ، وبعث محمّد بالخير، لأنكم ما آمنتم بي كإيمان أصحاب محمّد بمحمّد[1].

وروي في بركة ريق النبيّ ﷺ، عن خبيب بن عبد الرحمن بن خبيب، عن أبيه، عن جده خبيب المذكور، أنّه قال: أسلمت في بعض الغزوات، ثمّ قاتلتُ مع النبيّ ﷺ، فأصابني ضربة على عاتقي، فقطعت يدي حتى صارت متدلية لتعلّقها بجلدة، فأتيت بها إلى النبيّ ﷺ فتفل عليها، وأعادها فالْتصقت، وبرئت في الحال، فرجعت للذي ضربني فقتلته، ثمّ بعد ذلك تزوّجتُ ابنته، فكنتُ إذا أغضبتها تقول لي: لا عدمتُ رجلاً وشّحك هذا الوشاح، فأقول لها: ولا أنا عدمت رجلاً عجّل أباك إلى النّار[2].

وروي أنّ شرحبيل بن حسنة كانت في يده سلعة تمنعه من القبض على سيف وعنان الدابة، قال: فشكوتُ ذلك للنبيّ ﷺ، فنفث في كفي، ثمّ طحنها بكفّه الشريف حتى أذهبها الله سبحانه وتعالى[3].

وروي أنّ عقبة بن فرقد السلمي ﷺ، كان لا يمسّ طيباً أبداً، وكان متزوّجاً بأربع نسوة يجتهدن في الطيب لتفوق كلّ واحدة منهنّ زوجَها في طيبه، فعجزن عن ذلك، فسألنه عن سبب ذلك، فقال: أخذني الشّرا ـ أي: زيادة الدم ـ فشكوت أمري إلى رسول الله ﷺ، فأمرني أنْ أتجرّد فتجرّدت عن ثوبي، وألقيت ثوبي على فرجي، وقعدت بين يديه ﷺ، فتفل في يده، ومسح جسدي بيده، فشفيت وعلقت بي هذه الرائحة من حينئذ[4].

وروي أنه ﷺ اغتسل على بئر فتساقط فيه بعض الرشاش الذي أصاب جسده الشريف، فكان الناس يأتون بالمحموم والمريض فيصبون عليه من ماء ذلك البئر فيشفى حالاً بإذن الله تعالى. والله تعالى أعلم.

---

(١) انظر سبل الهدى والرشاد: (٤٠٦/٩)، وانظر المراجع السابقة.

(٢) انظر البداية والنهاية: (١٦٤/٦).

(٣) انظر الشفا: (١١٧/١).

(٤) عزاه الهيثمي إلى الطبراني في الأوسط والكبير، وقال: ورجال الأوسط رجال الصّحيح غير أم عاصم فإني لم أعرفها. انظر مجمع الزوائد: (٥٠٣/٨).

زوى الله من شرق الأراضي لغربها فأبصرت منها كل معنىً وبقعة
فقد صح ما أخبرت إذ قلت صادقاً: سيبلغ منها ما زوي ملك أمتي

حاصله : ومن معجزاتك يا رسول الله تحقّق ما روي في (أعلام النبوة)، ففي مسلم، أنّ النبيّ ﷺ قال: «زويت[1] لي الأرض فأريت مشارق الأرض ومغاربها[2] وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»[3].

وقد تحقق ذلك للأمة المحمدية بعد وفاته ﷺ، وتقدم في غزوة الخندق زيادة على ما ذكر هنا.

وأخبرت أن الأرض لا تقبل امرءاً أتى بعد كتب الوحي يوماً بردة

حاصله : ومن معجزاتك يا رسول الله ﷺ تحقّق ما أخبرت به، كما في البخاري[4]، عن أنس ﷺ، أنّه قال: كان رجل نصراني قد أسلم، وقرأ البقرة وآل عمران، وكان يكتب للنبيّ ﷺ، فعاد نصرانياً، وصار يقول: ما يدري محمّد، إلا ما كُتب له، فأخبرتَ يا رسول الله بأنّ الأرض لا تقبله، فلمّا مات ودفن أصبح على وجهها مراراً، حتى ترك جيفة على وجهها. فكان ذلك من جملة معجزاته ﷺ.

ولما أتم الله نعمته لنا وأكمل ديناً هادياً للخليقة
ولم يك في الدنيا لنفسك بغية سوى ما تأتّى من قيام الشريعة
أردت بقاء ليس يفنى نعيمه وخُيّرت فاخترت الذهاب لجنة
ولم يأتي ملك الموت بابك هاجما ولكن بإذن واحترام ووقفة

حاصله : لما أتمّ الله نعمته على الأمة المحمّدية حسبما اقتضته الحكمة الأزلية والرحمة السرمدية بإرسالك يا رسول الله خاتماً للنبيين وتماماً للمرسلين، وأكمل لها أمر الدين بشهادة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[5]، والحال أنه لم يكن لنفسك يا رسول الله بغية ولا مطلب سوى تبليغ الشرع،

---

(١) أي جمعت وقرّبت.

(٢) أي: فأبصرت أطرافها كلها مع ما يقع فيها وفي بقاعها من الذوات والمعاني. المؤلف

(٣) رواه مسلم في صحيحه برقم: (٢٨٨٩)، وأبو داود في سننه برقم: (٤٢٥٢)، والترمذي في سننه: (٢١٧٦). ورواه غيرهم.

(٤) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٣٤٢١).

(٥) المائدة: ٣.

وامتثال أمر الربّ، بشهادة الحديث: «لست من الدنيا وليست منّي»[1]، وحديث: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[2]، وحديث: «لأن أقول: سبحان الله ولا إلـه إلا الله والله أكبر أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس»[3].

وقد خيّرت يا رسول الله بين الخلود في الدنيا، ثمّ ما لك في الجنّة، وبين لقاء ربك عاجلاً، والمقام في الجنّة، فاخترت وأردتَ التعجيل للقاء ربك مع الجنّة لأنّ ذلك هو الباقي بدليل: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[4].

قال: أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يصلي على أهل البقيع فصلى عليهم ثلاث مرات، فلمّا كان في الثانية هَبَّني ـ أي: أيقظني ـ من جوف الليل فقال: «يا أبا مويهبة إني أمرت أن أستغفر لأهل البقيع؛ فأسرج لي دابتي»، قال: فركب ومشيت حتى انتهى إليهم فنزل عن دابّته، وأمسكت الدابّة، فلما وقف بين أظهرهم قال: «السلام عليكم يا أهل المقابر ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس، لو تعلمون ما نجاكم الله منه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضاً، يتبع آخرها أولها، الآخرة شرّ من الأولى»، ثمّ أقبل عليّ وقال: «يا أبا مويهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثمّ الجنة، فخيّرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة»، قال: قلت بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح الدنيا والخلد فيها، ثمّ الجنة، قال: «لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة»، ثمّ استغفر لأهل البقيع، ثمّ انصرف، فبدأ رسول الله ﷺ في وجعه الذي قبضه الله تعالى فيه حين أصبح[5].

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها وعن أبويها، أنّها قالت: كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: إنّه لن يقبض نبيّ قط حتّى يرى مقعده في الجنّة، ثمّ يحيا أو يخيّر»، فلمّا اشتكى رسول الله ﷺ وحضره القبض، ورأسه على فخذ عائشة غشي عليه، فلمّا أفاق شخص بصره ﷺ نحو سقف البيت ثمّ قال: «اللهم في الرفيق الأعلى»،

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب الزهد انظره فيه: (١٠٦).

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٢٣٥٨)، والترمذي في سننه برقم: (٢٣٣٣). ورواه غيرهما.

(٣) رواه مسلم في صحيحه برقم: (٢٦٩٥)، ورواه الترمذي في سننه برقم: (٣٥٩٧). ورواه غيرهما.

(٤) النحل: ٩٦.

(٥) رواه أحمد في مسنده برقم: (١٦٠٣٩)، والدارمي في سننه برقم: (٧٨)، والحاكم في المستدرك برقم: (٤٣٨٣)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي في التلخيص.

فقلت: إذاً لا يجاورنا، فعرفت أنّ حديثه الذي كان يحدّثنا وهو صحيح[1].

ثمّ إنك يا رسول الله لم يدخل عليك ملك الموت إلا بعد أنْ استأذنك في ذلك وأذنتَ له. روى ابن الجوزي: أنّ ملك الموت أتاه ﷺ في آخر مرض موته في صورة أعرابي، فقال: السلام عليكم يا أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة، أتأذنون لي في الدخول على رسول الله ﷺ، فقيل له: يا أعرابي، إنّ نبيّك بنفسه عنك مشغول، فأعاد المقالة ثانياً، فرمقه النبيّ ﷺ فقال له: «ادخل»، لأنه ﷺ علم بأنه ملك الموت، فدخل فسلّم، ثمّ قال: إنّ الله أرسلني إليك، وأمرني أنْ لا أقبضك حتى تأمرني، فبماذا تأمرني؟، فقال ﷺ: «حتى يأتيني جبريل، فهذه ساعته»، ثمّ جاء جبريل، فقال: يا محمّد، إنّ الله يقرئك السلام، ويقول: كيف تجدك؟، فقال ﷺ: قد زاد شوقي إلى ربي، ولكنّ همّي أمّتي، فقال جبريل: إنّ ربك لا يخزيك في أمتك، فقال ﷺ: الآن طاب قلبي، فَأْمُر ملك الموت أنْ يلحقني بربي، فقال: بلى، ولكنّ ساعتك أمامك، فقال ﷺ حينئذ لملك الموت: «امضي لما أمرت به».

قالت عائشة رضي الله عنها: وحصل لي وللحاضرين دهشة حتى كأننا غائبون عن إحساسنا نسمع الصّوت ولا نقدر على الكلام هيبةً لجبريل ولملك الموت ومن معهما، وكان ﷺ يحصل له غطيط عنا، كما كان يحصل له وقت نزول الوحي.

ثمّ لما سُرّي عن رسول الله ﷺ، قال: «الصّلاة الصّلاة، وما ملكت أيمانكم»[2]، ثمّ قال بعد لحظة: «لا يترك بجزيرة العرب دينان»[3]، ثمّ بعد لحظة قال ﷺ: «اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»[4]، وفي رواية: «اتقوا الله في النساء، وما ملكت أيمانكم»[5]، ثمّ بعد لحظة قال ﷺ: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[6]، وكان

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٤١٧٣)، ومسلم في صحيحه برقم: (٢٤٤٤). ورواه غيرهما.

(٢) رواه أبو داود في سننه برقم: (٥١٥٦)، وأحمد في مسنده برقم: (٥٨٥ـ ٢٦٥٢٦)، وابن حبان في صحيحه برقم: (٦٦٠٥)، والحاكم في المستدرك برقم: (٤٣٨٨)، والبخاري في الأدب المفرد: (١٥٨). ورواه غيرهم، وقال الحاكم: قد اتفقا على إخراج هذا الحديث وعلى إخراج حديث عائشة: آخر كلمة تكلّم ـ ﷺ ـ الرفيق الأعلى.

(٣) رواه أحمد في مسنده برقم: (٢٦٣٩٥)، والبيهقي في سننه برقم: (١٢٣٣٤).

(٤) هو مندرج في الحديث قبله.

(٥) رواه عبد الرزاق في المصنف برقم: (٩٧٥٤).

(٦) رواه مالك في الموطأ (رواية محمد بن الحسن الشيباني) برقم: (٨٧٣)، والبخاري في صحيحه برقم: (١٤٢٤)، ورواه مسلم في صحيحه برقم: (٥٢٩). ورواه غيرهم.

آخر كلامه ﷺ: «جلال ربي الرفيع فقد بلّغت»[1] بالنّصب معمول لـ (أختار) محذوفاً، ثمّ قال ﷺ: «الرفيقَ الأعلى قد بلّغت»[2]، ثمّ شخص ببصره الشريف ﷺ إلى السقف، ثمّ قال: «في الرفيق الأعلى»[3]، وقبض ﷺ.

هذا ما جَمَعْت به الروايات معتمداً على قراءتي للأحوال. وأسأله تعالى الحلم في الخطأ والزلل والزيادة والنقصان لأنّ غالب ما في هذا الكتاب روايات بالمعنى.والله سبحانه وتعالى أعلم بالصّواب.

فأصبح أهل الأرض طراً وقد رموا ... بـأفظع خطـب يـا لـه مـن مـصيبة

فلولا كتاب قد تركت وسنة ... لأظلم من آفاقها كل وجهة

وعلّمتِ الأملاكُ صحبك فِعْلَهُم ... بغسلك واصطفّت لديك وصلّت

وأصبح بين القبر والمنبر الذي ... يليه من الجنات أعظم روضة

حاصله: لما توفّاك الله يا رسول الله حين زالت شمس يوم الاثنين، أصبحت أهل الأرض في حال كونهم طراً ـ أي: مجتمعين ومتفقين ـ في نزول المصيبة بهم، حيث ارتحلتَ عنهم، ورُمُوا بسبب مفارقتك لهم بأفظع وأعظم خَطْب ـ أمر عظيم ـ يقول القائل فيه متعجِّباً من عظمه: يا لها من مصيبة، فلولا كتاب، وهو القرآن، وسنّة: طريقة تلقّتها عنك الصّحابة من الأقوال والأفعال والتقريرات، قد تركتهما يا رسول الله للأمة المحمّدية ليهتدوا بهما بعدك، لأظلم كلّ وجه ومكان من نواحي الأرض بترك عبادة الرحمن، والرجوع إلى ما كانوا عليه من الكفر والطغيان، فلما أبقيت يا رسول الله لأمتك كتاب الله وسنتك التي أتيت بها من الله تعالى لم يضلّوا ما داموا متمسّكين بهما، بدليل ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾[4]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[5].

وفي الحديث: «عليكم بسنتي»[6].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك برقم: (٤٣٨٧)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد إلا أنّ الفارسي ـ أحد رجال سند هذا الحديث ـ واهم فيه على محمد بن عبد الأعلى.

(٢) لم أعثر عليه بهذا اللفظ.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٤١٧٤)، ومسلم في صحيحه برقم: (٢٤٤٤). ورواه غيرهما.

(٤) النجم: ٣.

(٥) الحشر: ٧.

(٦) تتمة الحديث: «وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»، وقد رواه مالك في الموطأ (رواية محمد بن الحسن الشيباني) برقم: (٢٤١)، وأبو داود في سننه برقم: (٤٠٦٧)، والترمذي=

ثمّ لما متَّ يا رسول الله واختلفت الصّحابة: كيف نغسله؟، فقال بعضهم: نجرّده من أثوابه ونغسله كموتانا، وقال آخرون: بل نغسله في أثوابه احتراماً لجسده الشريف أنْ يُرى، فغلبهم النوم، وسمعوا صوتاً يقول: غسّلوا نبيّكم وعليه قميصه، فانتبهوا على الصّوت، وغسلوك بالقميص، لأنّهم جزموا بأن هذا الصّوت من ملك، ليُعَلّمهم كيف يفعلوا بك، فحينئذ قعد العباس وعليٌّ متربّعين متقابلين، ثمّ أُقْعد رسول الله ﷺ على حجورهما، فنودوا أنْ أضجعوا نبيّكم على ظهره، ثمّ غسّلوه واستروه.

فأضجعاهُ، ولما غسلوه ﷺ كانوا لا يريدون تقليبه لجهة إلا جاءهم بسرعة من غير كلفة ولا مشقّة كأنّه حيّ، فغسله ﷺ عليٌّ والفضل بن العباس، وأسامة بن زيد يناول الماء، قيل: وشقران مولاه، وحضر غسله العبّاس وأوس بن خولة الخزرجي، أحد بني عوف، ثمّ كُفِّن ﷺ في ثلاثة أثواب بيض من القطن من عمل سمولة بلدة باليمن، وكان غسله ﷺ وتكفينه صبيحة يوم الثلاثاء لاشتغالهم قبلها بالبيعة، ثمّ بعد تكفينه ﷺ ووضعه على السّرير دخل الصّحابة للصلاة عليه، فكان أوّلَهم دخولاً أبو بكر وعمر ومعهما نفر من المهاجرين والأنصار بقدر ما يسع البيت فصلُّوا عليه ﷺ، فبعد أن قالوا: السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته، وتتابع الناس في الصّلاة عليه ﷺ أفواجاً، ولم يؤم أحد منهم أحداً حتّى صلّى الرجال ثمّ النساء.

وورد أنّ الملائكة صلَّت أولاً، والإنس ثانياً، والجن ثالثاً، ثمّ اختلفوا في موضع دفنه ﷺ، فذكر أبو بكر رضي الله عنه حديث: «ما مات نبيّ إلا دفن حيث قبض»، فحوّلت فراشه ﷺ وحفر له، ثمّ دفن مكان قبضه ﷺ، فكان مدفنه ﷺ روضة من رياض الجنة، وفي الحديث: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة»[1].

** ** **

= في سننه برقم: (٢٦٧٦)، وابن ماجه في سننه برقم: (٤٢)، وأحمد في المسند برقم: (١٧١٨٤). ورواه غيرهم. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد في مسنده برقم: (١١٦٢٨)، والطبراني في الأوسط برقم: (٦١٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه برقم: (٣١٦٥٩)، والبيهقي في سننه برقم: (١٠٠٦١). ورواه غيرهم.

خاتمة

فيها أمور:

الأول: قال بعض العارفين: الأرواح خلقت قبل الأجسام، ثمّ قبضت من عالمها النوراني، فأودعت هذا الجسد الظلماني، فاجتمعا اجتماع غربة، كلّ منهما يشير إلى وطنه، ويطير إلى مسكنه، فعند انقضاء الأجل يخلد البدن في الأرض، وترجع الروح لوطنها وعالمها العلوي، كما قال:

راحت مشرّقة ورحت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب[1]

وروي أنّ الروح لما أمرها الله تعالى أنْ تدخل جسد آدم، وكانت روحه متضمنّة لجميع الأرواح، ومحتوية عليها احتواء النّواة على ما يتفرّع عنها من الأشجار والثمار، والأزهار والأوراق، والنوى ونوى النوى، وهكذا مما لا يعلم نهايته إلا الله تعالى.

فلمّا رأت جسده الشريف قفصاً غابقاً مظلماً متضايقاً صارت تدور حوله وتجول، ولا يطيب لها الدخول كما لا يطيب للطير الحبس في القفص، وهي معذورة في ذلك، إذ لا يطيب لمن في الرّفعة النزول، فقال لها الجبار جلّ جلاله: «وعزّتي التي لا تحدّ ولا تنتهي، لأدخلنّك كرهاً ولأخرجنّك كرهاً»[2] كما أشار إلى ذلك أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا[3] مخاطباً الجسد بقوله[4]:[5]

(١) البيت من البحر الكامل، وأجزاؤه: متفاعل متفاعل متفاعل.

(٢) لم أعثر عليه.

(٣) هو الشيخ الرئيس البارع الألمعي من انتهت إليه الإمامة في عصره وعقدت عليه الأهداب الإمام الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا، أوحد فلاسفة الإسلام وحكيمهم. توفي سنة ٤٢٨هـ. انظر ترجمته في وفيات الأعيان: (١/١٥٢)، وتاريخ حكماء الإسلام: (٢٧ ـ ٢٨)، وخزانة البغدادي: (٤/٦٦)، ولسان الميزان: (٢/٢٩١)

(٤) الأبيات من البحر الكامل، وأجزاؤه: متفاعل متفاعل متفاعل.

(٥) وما ألطف ما قدّم به السياغي في تحفة المشتاق هذه الأبيات، يقول السياغي: اعلم بأنّ كلّ روح من الأرواح الإنسانية قبل التعلّق بالأجساد كان من المقرّبين في حضرة رب العباد، لا يزال الرب يسقيه بكاسات الشراب السلسبيلي شراباً طهورا، ويملأ صدره بالمزاج الزنجبيلي لذة وسرورا، على أيدي سواقي أسمائه وصفاته، في مجلس الحضرة الإلهية وذاته، فطَوَرًا يسكره شراب تجليات الجمال، وطَوْرا يطربه حسن نغمات: ألست بربكم المتعال، فمرّة يصبح في مشاهدة جمال الذات هائما، وأخرى يمسي لحق جواب الله قائما، سالماً عن الأتراح بذي سَلَم السلامة والأفراح، مزدحماً في جيرانه من=

هبطت إليك من المكان الأرفع ... ورقاء ذات تعزّز وتمنّع

محجوبة عن كلّ مقلة عارف ... وهي التي سفرت ولم تتبرقع

وصلت على كره إليك وربما ... كرهت فراقك وهي ذات تفجّع

أنفت فما سكنت فلما واصلت ... ألفت مجاورة الخراب البلقع

وأظنّها نسيت عهوداً بالحمى ... ومنازلاً بفراقها لم تقنع

حتى إذا قرب المسير إلى الحمى ... ودنا المسير إلى الفضاء الأوسع

وغدت مفارقة لكل مخلف ... عنها حليف الترب غير مشيع

هجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت ... ما ليس يدرك بالعيون الهجع

وغدت تغرد فوق روح شاهق ... والعلم يرفع كل من لم يرفع

وهبوطها إن كان ضربة لازب ... لتعود سامعة بما لم تسمع

وتعود عالمة بكل خفية ... في العالمين وحزنها لم يرفع

فهي التي قطع الزمان طريقها ... حتى إذا غربَتْ بغير المطلع

فكأنما برق تألف بالحمى ... ثمّ انطوى فكأنه لم يلمع[1]

الورقاء: الحمامة، شبّه بها الروح، ومحجوبة: أشار به إلى خفاء الروح عن الأبصار، ولا ينافيه قوله بعد ذلك سفرت ـ أي: ظهرت ـ لأنّ المراد ظهرت بظهور الجسم المعمرة له، فمتى خرجت منه انعدم ـ أي: الجسم ـ فكأنّ الظاهر من الأجسام

= الأرواح، مجتنياً ثمار روضة الوصال، ناظراً إلى نضارة رياحين الكمال، ومتشمماً شمائم أزهار الحدائق، ومتنسماً نسائم أنوار الدقائق، مستطلعاً طوالع شوارق الهداية، ومستلمعاً لوامع بوارق العناية، ولما ورد الأمر الإلهي بالهبوط عن تلك الحضرة العليا إلى محل طوارق الآفات والبلايا، ما كان يرضى بمفارقة الوطن المألوف، وما كان يتحمل مباعدة المشغوف، وكان يقول لجيرانه:

أَحِنّ وَما فارَقتُكُم غَيرَ لَيلَةٍ ... فَكَيفَ إِذا سارَ المَطِيُّ بِنا شَهراً

نعم؛ إذا كان الشخص في وطنه مرفّه الحال، وفي منزله فارغ البال، لا يميل إلى المسافرة، ولا يرضى بمقاساة الشدائد والمجاهدة، لا سيما إذا كان ما إليه السفر فاسد الهوى غير عذب الماء إلى غير ذلك من موجبات النفرة وأسباب الدهشة، فأطلعه الله على بعض حكم هذا السفر الشاسع، ثمّ نبأه عن سرّ المعيّة بقوله: وهو معكم أينما كنتم، وأزال عنه توهم المفارقة بإشارة: فأينما تولوا فثمّ وجه الله، ومع هذا هو متوحش عن مفارقة الوطن كارهاً وصاله إلى بلقع البدن. انظر تحفة المشتاق في شرح أبيات المولى إسحاق: (١١).

(١) انظر هذه الأبيات في عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني: (١٨٢ ـ ١٨٣)، وخزانة الأدب للبغدادي: (٤/١٤٥)، والكشكول للعاملي: (١٨٨).

إنما هو الأرواح بدليل أنّ الأجسام تنعدم عند انعدام الأرواح منها، والبلقع: الأرض المهجورة، والترب: المساوي والموافق، وحليف: بدل من كلّ مخلّف. وغير مشيع ـ بكسر الياء ـ حال من حليف الترب، والهجوع: يطلق على النوم الحقيقي، وعليه بمعنى الموت، وهذا هو المراد في أول البيت، وكشف الغطاء: إزالة الحجاب، وهو الجسم، والهجع: النوم إشارة لحديث: «في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، وغردت: صارت تغرّد، تسبّح الله، وهي في الأماكن العالية كتغريد الطير على الأشجار، والعلم يرفع...الخ: مدح للعلم، وهبوطها إن كان الخ: أنها لما هبطت للجسم إنْ صحبتها العناية الإلهية تعود إلى مكانها الأصلي بعد مفارقة الجسم بالأعمال الصّالحة، فتسمع فيه من النعم وتحوز بما (لم يسمع): إشارة إلى بقية الحديث المتقدم، (وحزنها لم يرفع): لا آخر له إن لم تصحبها العناية الإلهية حتى تعود مؤمنة مزوّدة بالأعمال الصّالحة، فيصير حينئذ مثل المقطوع عن السير في طريقه، فلا يصل إلى وطنه ويبقى في غربته لكون مسكنه حينئذ سجين لا عليين، فصدرت كالشّمس التي غربت في غير مطلعها، وسارت إلى ما يبعدها عن وطنها، وقوله: فكأنما...الخ: إشارة لقصر مدّة إعمار الروح للجسد، حتى إذا خرجت من وطنها ـ الجسد ـ بالنظر لمفارقتها له وغادرته، انطفأ ذلك الجسد بخلو الروح منه حتى كأنه لم يكن، وتلك السرعة بالقياس لما قبلها وبعدها من الأزمان. والله أعلم بالصّواب.

الأمر الثاني: قال الغزّالي[1]: الموت هو القيامة الصّغرى، وكلّ من مات قامت قيامته الصّغرى، فهو كالولادة الأولى، وهي الخروج من الصّلب والترائب إلى مستودع الأرحام في قرار مكين إلى قدر معلوم في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوارِ نطفةٍ وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الأرحام إلى فضاء العالم، وهي الولادة الكبرى، وسعة الأولى بالنسبة إلى الثانية كسعة الرحم بالنسبة إلى الدنيا[2].

والروح: جوهر مجرّد عن الموادّ، يحلّ في الجسم حلول الزبد في اللبن، والماء في العود الأخضر، مقرُّه القلب، سارٍ منه إلى الدّماغ، ثمّ منه ينصبّ في

(١) الغزّالي: هو الإمام الجبل بركة الدنيا محمد بن محمد بن محمد الغزّالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام، فقيه متكلم صوفي، له نحو مئتي مصنف. توفي سنة ٥٠٥ هـ. انظر ترجمته في وفيات الأعيان: (١/ ٤٦٣)، وطبقات الشافعية: (٤/ ١٠١)، وشذرات الذهب: (٤/ ١٠)، والوافي في الوفيات: (١/ ٢٧٧).

(٢) انظر إحياء علوم الدين: (٤/ ٦٥).

العروق والأعصاب، ثمّ منها إلى بقيّة الجسد، يسري مع الدم كيفما يسري سريان السمن في اللبن[1].

وذهب جمع، منهم الغزّالي والرازي[2]، وبعض الحكماء والصوّفية إلى أنّ الروح غير حالّة بالبدن بل تعمره وتشرق عليه إشراق الشمس على ما تحتها، ووصلت أشعّتها إليه، وتسري في الجسم سريان النار في الفحم، وسريان النّار في حجر القدّاح على الأول، وسريان النّار من بئرة البلّورة النضّارة[3] المجعولة في الشمس مع المقابلة لبعض الأجسام لتحرقها على الثاني.

والموت: عبارة عن قبض تلك الروح، وأخذها من الجسد على الأول، وكفّها ومنعها من أنْ تعمره على الثاني، بأن تنقل إلى مكان ثاني.

ومذهب أهل السنة: أنه لا يموت أحد إلا بأجله حتى المقتول، وأنّ ملك الموت، وهو سيّدنا عزرائيل، هو يقبض الأرواح، لكن بعد معالجة أعوانه لغالبها، حتى تبرز من الأشباح، وظاهر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ...﴾[4] يؤيّد القول الأول،

وفي الحديث: «إنّ الله خلق الحياة على صورة فرس، لا تمرّ بشيء، ولا تنظر إليه، ولا يجد ريحها شيء، إلا حيي، وإنها التي أخذ السامري من أثرها ما ألقاه على ما سكّه من حليِّ القبط، فصار له خوار، وإنّ الموت يصوّره كبش لا يمرُّ كذلك بشيء إلا مات»[5] وهذا ربما يؤيد الثاني. والله أعلم بالصّواب.

وفي الحديث: «عش ما شئت فإنّك ميّت ـ بالتشديد، أي: آيل للموت ـ وأحبّ من شئت ـ من الخلق والجسم الذي تنعّمه بملاذه وتربّيه بمآربه ـ فإنك مفارقه ـ بموت أو

---

(١) للتوسع انظر الروح لابن القيم: (١٧٨).

(٢) هو الإمام الجليل القدر العظيم الشأن محمد بن عمر بن الحسين الشهير بفخر الدين الرازي، مفسر متكلم فقيه. توفي سنة ٦٠٦هـ. انظر وفيات الأعيان: (١/٤٧٤)، ومفتاح السعادة: (١/٤٤٥ ـ ٤٥١)، ولسان الميزان: (٤/٤٢٦)، والبداية والنهاية: (١٣/٥٥)، وطبقات الشافعية: (٥/٣٣).

(٣) المقصود الزجاج المقعر والذي يستخدم كمكبّر.

(٤) الأعراف: ١٧٢.

(٥) حكي هذا الحديث عن ابن عباس والكلبي ومقاتل، ولم يرفع إلى النبي ﷺ من لفظه، وتعقبه الإمام الألوسي في تفسيره بقوله: هو أشبه بكلام الصّوفية ولا يعقل ظاهره، وقيل: هو وارد على منهاج التمثيل والتصوير. انظر تفسير الألوسي: (٢٩/٤)، وانظر التفسير القرطبي: (١٨/١٨١)، وتفسير البغوي: (١/١٧٥)، وتفسير أبي السعود: (٩/٢).

غيره ـ واعمل ما شئت ـ من خير أو شرّ ـ فإنك مجزيّ به»[1]، وفي رواية: «ملاقيه»[2].

قال الغزّالي: في الحديث تنبيه على أنّ فراق المحبوب شديد، فينبغي أن تحبّ من لا يفارقك وهو الله تعالى بامتثال الأمر واجتناب النهي: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[3] ولا تحبّ من يفارقك وهي الدنيا والمخالفات: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[4] إلا أنك إذا أحببت الدنيا كرهتَ مفارقتها ولقاء الله تعالى، فيكون قدومك عليه تعالى كرهاً بالموت المفرّق بينك وبين محبوبك المقبل بك على من لم توطّن نفسك على محبّته، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه بإنزال العقوبة به[5]، وأنشدوا في ذلك أشعاراً منها:

أيا فرقة الأحباب لا بد لي منك ... ويا دار دنيا إنني راحل عنك

ويا قِصَرَ الأيام ما لي وللمنى ... ويا سكرات الموت ما لي وللضحك

وما لي لا أبكي لنفسي بعبرة ... إذا كنتُ لا أبكي لنفسي فمن أبكي

ألا أي حي ليس بالموت موقناً ... وأيّ يقين منه أشبه بالشك[6]

ومن ذلك ما قد قاله بعض المغاربة وهو يطوف بالبيت:

تمتّع بالرُّقاد على شمال ... فسوف يطول نومك باليمين

ومتّع من يحبّك من تلاق ... فأنت من الفراق على يقين[7]

وفي الحديث: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[8]، وفي الحديث أيضاً: «حبّ الدنيا رأس خطيئة»[9] أي: لأنه يوقع في المخالفات، على أنّ بعضهم

---

(١) رواه البيهقي في الشعب برقم: (١٠٥٤١)، وأبو نعيم في الحلية: (٣/ ٢٥٣).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية: (٣/٢٠٢).

(٣) آل عمران: ٣١.

(٤) الشورى: ٢٠.

(٥) انظر إحياء علوم الدين: (٤/٢٠٥).

(٦) الأبيات من البحر الطويل وأجزاؤه: فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن.

(٧) البيتان من الوافر وأجزاؤه: مفاعلتن مفاعلتن فعولن

(٨) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٦٠٥٣)، والترمذي في سننه برقم: (٢٣٣٣)، وابن ماجه في سننه برقم: (٤١١٤). ورواه غيرهم.

(٩) قال العجلوني في كشف الخفاء: (٢/٨٣): رواه البيهقي في الشعب بإسناد إلى الحسن البصري رفعه مرسلاً، وذكره الديلمي في الفردوس وتبعه ولده بلا سند عن علي رفعه، وقال ابن الغرس: الحديث ضعيف.

جعل حبّ الدنيا هو نفس الوقوع في المخالفات والشهوات بدليل الحديث: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلّم»[1]، وأما الموافقات فليست من الدنيا، فعليه الاستثناء في الحديث منقطع.

وفي الحديث: «ترك الدنيا أمرُّ من الصّبر، وأشد من حطم السيوف في سبيل الله عزَّ وجلَّ، ولا يتركها أحد ويصبر إلا أعطاه الله مثل ما أعطى الشهداء»[2]، وورد: «الأرواح جنود مجنّدة ما تعارف ـ أي: توافق في الصّفات النفسانية ـ ائتلف، وما تناكر ـ أي: لم يتوافق في تلك الصّفات ـ اختلف»[3] لم تقم إلفة بينهما.

ومذهب أهل السنة أنّ الحشر للروح والجسد، وقال الحكماء: بل يخصّ الأرواح.

قال الإمام علي بن أبي طالب ﷺ في ذلك شعراً:

زعم المنجم والطبيب كلاهما ... لن تحشر الأجسام، قلت: إليكما[4]

إنْ صحّ قولكم فلست بخاسر ... أو صحّ قولي فالدّمار عليكما[5]

وورد في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾[6] أنّ الله تعالى مسح بيده ـ أي: أبرز بقدرته ـ على ظهر آدم فأخرج منه ذريته كأمثال الذرّ، وأخرج من هذه الذرية ذرية، وهكذا، حتى لم يبق أحد ممن سيكون من أولاد آدم إلى يوم القيامة على ترتيب ما سيولدون عليه.

قال مقاتل: فمن كان من جهة اليمين من ظهر آدم خرج أبيض، ومن كان جهة اليسار خرج أسود، ثمّ قال لهم ألست بربكم؟، قالوا: بلى، أي: أنت ربنا، فمن كان من أهل اليمين والسعادة قالها طوعاً، ومن كان من أهل الشّمال والشقاوة قالها كرهاً، ثمّ أعادهم على هيئة إخراجهم[7].

---

(١) رواه الترمذي في سنه برقم: (٢٣٢٢)، وابن ماجه في سننه برقم: (٤١١٢)، والدارمي في سننه برقم: (٣٢٢). ورواه غيرهم، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) عزاه في الكنز إلى الديلمي في الفردوس عن ابن مسعود ﷺ. انظره فيه برقم: (٦٣١٤).

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٣١٥٨)، ومسلم في صحيحه برقم: (٢٦٣٨)، وأبو داود في سننه برقم: (٤٨٣٤). ورواه غيرهم.

(٤) أي: إليكما عني، بمعنى ابتعدا، على الاكتفاء.

(٥) البيتان من البحر الكامل وأجزاؤه: متفاعلن متفاعلن متفاعلن.

(٦) الأعراف: ١٧٢.

(٧) انظر تفسير الطبري: (١٣/٢٤٢).

وروي في حديث: أنه تعالى قبل أن يعيدهم لظهر آدم قال لهم: يا عبادي ويا إمائي، تمنّوا ما شئتم من المال والضياع، فإني خلقتكم من الأرض، وفيها أعيدكم، فتمنّ كلّ واحد من المال والضياع ما شاء، فتحوَّل نفر منهم عمّا تمنَّاه البقية، فقال تعالى لهم: تحوّلتم وما تمنيتم؟، قالوا: ربنا لا نريد إلا إجابتك ورضاك والقرب منك ـ وهم الزهَّاد العبَّاد ـ فقال تعالى: وعزّتي وجلالي، ما من عبد فرّغ نفسه لعبادتي إلا سخّرت له السماوات والأرض، وكنت له من وراء تجارة كلّ تاجر، ثمّ قال تعالى للفِرَق كلّها: اسجدوا لي فصاروا فرقتين: فرقة سجدت، وفرقة لم تسجد، وأبت، فلمّا رأت الفرقة الساجدة أنّها وفّقت، وأنّ الأخرى لم توفّق سجدت سجدة ثانية شكراً على نعمة التوفيق، فصار من أجل ذلك السجود في الصّلاة مرتين، فكانت الفرقة الساجدة من يموت على الإيمان، والآبية من يموت على الكفر والحرمان[1].

روي أنّ الصّحابة قال: ففيمَ العمل يا رسول الله؟[2]، فقال ﷺ: «اعملوا فإنّ كلّ إنسان موفّق لما خلق له، وإنّ الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهلها، وإنْ خلقه لنار استعمله بعمل أهل النار، والعبرة بالخواتيم»[3] أو كما قال.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أنّه قال: (الروح إذا خرج من الجسد صار صورة أخرى، لا يطيق الكلام، كالريح إذا دخل المزمار يُسمع له صوت، وفي المكان المتّسع لا صوت له، فحينئذ ينظر إلى الناس يبكون ويغسّلونه، ولا يستطيع أن يتكلّم، فأرواح المؤمنين تنظر إلى الجنة وتجد ريحها، وأرواح الكفار تعذّب في قبورهم إلى النفخة الأولى، فحينئذ يغمى على الأرواح، فتصير كالأموات، فذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[4])[5].

---

(١) لم أعثر عليه.

(٢) أي: وقد تبيّن السعيد من الشقيّ مسبقاً.

(٣) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه الطبراني وابن مردويه وغيره من حديث أبي العالية ﷺ. وفيه: فقال قائل: فما العمل إذاً ؟، فقال النبي ﷺ: «يعمل كل قوم لنزلتهم». انظر الدر المنثور للسيوطي: (٥٦٩/٦)، وبهذا المعنى الكثير من الأحاديث.

(٤) القصص: ٨٨.

(٥) لم أعثر عليه.

وقد جاء أنّ كل مولود يدفن في الطينة التي خلق منها[1]، وعن أنس ﷺ رفعه: «ما من مولود إلا وفي سرّته من تربته التي خلق منها، فإذا ردَّ إلى أرذل العمر، ردَّ إلى تربته التي خلق منها حتى يدفن فيها»[2].

وعن أبي هريرة ﷺ أنّه قال: (ما من مولود يولد إلا بعث الله تعالى ملكاً فأخذ من الأرض تراباً فجعله على مقطع سرّته، فكان فيه شفاؤه، وكان قبره في موضع أخذ التراب منه)[3].

وورد في شروح المصابيح، أنّ الملك يأخذ من تراب مدفنه، فيذرّه على مني الرجل والمرأة، ويتكوّن من ذلك كلّه، فإذا كان التراب من بلد آخر يجعل الله له حاجة إليها ليرتحل ويموت ويدفن فيها.

وأفتى ابن حجر العسقلاني بأنّ الميّت يعلم من يزوره لأنّ الأرواح مأذون لها في التصرّف، وتأوي إلى محلّها في عليين أو سجين.

وأفتى أيضاً بأنّ الميت إنما يسأل قاعداً، فإنّ الروح يلبس الجسد حال السؤال في النصف الأعلى فقط، وبأنّ روح المؤمن بعد السؤال في عليين، وروح الكافر في سجّين، ولكلِّ روح اتصال ببدنها كاتّصال شعاع الشمس بالأرض، ومن ذلك الاتصال يصل للجسم نعيم، أو عذاب، أو سماع، أو خطاب، فإنّ الحكم بعد الممات لعالم الأرواح كما أنه كان قبل الممات للأشباح، وفي الحالتين المدرك لأحد الأمرين إنّما هو الروح.

وفي الحديث: «إنّ الميت إذا دفن سمع خفق نعالهم ـ أي: قعقعة نعال المشيعين له ـ إذا انصرفوا»[4]، وزاد الحاكم[5]: «فإنْ كان مؤمناً كانت الصّلاة عند

---

(١) يشير إلى ما أورده القرطبي في تذكرته: (٨٣) من طريق الترمذي الحكيم في نوادر الأصول، عن أبي هريرة ﷺ أنّه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يطوف ببعض نواحي المدينة، وإذا بقبر يحفر، فأقبل حتّى وقف عليه، فقال ﷺ: «لمن هذا؟»، قيل: لرجل من الحبشة، فقال ﷺ: «لا إله إلا الله، سيق من أرضه حتّى دفن في الأرض التي خلق منها».

(٢) عزاه في فيض القدير إلى الديلمي، وأورد له شواهد. انظر فيض القدير: (٣/٥٣٣).

(٣) رواه عبد الرزاق في مصنّفه برقم: (٤٢٣٠).

(٤) رواه البخاري في صحيحه برقم: (١٣٠٨)، ومسلم في صحيحه برقم: (٢٧٨٠). ورواه غيرهم.

(٥) رواه الحاكم في المستدرك برقم: (١٤٠٣)، وهذه الزيادة عند الطبراني في الأوسط برقم: (٢٦٣٠)، وابن أبي شيبة في المصنّف برقم: (١٢٠٦٢).

رأسه، والصّيام عن يمينه، والزكاة عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصّدقة والصّلاة والصّلة والإحسان عند رجليه».

وجاء في حديث آخر: «إذا مات العبد المطيع ـ أي: وقع في النزع ـ الْتصق الجسد بالروح، ويقول الجسد للروح: خذيني معك إلى الجنة، ولا أبلى بعدك في التراب، وإذا مات العبد العاصي تَثَبَّت الروح بالجسد، ويقول الروح للجسد: خذني معك إلى التراب، ولا ألقى بعدك أليم العذاب»[1].

وفي حديث آخر: «إنّ نفس المؤمن إذا قبضت يلقاها أهل الرحمة من عباد الله كما تلقون البشير من أهل الدنيا، ويقولون: انظروا صاحبكم حتى يستريح، فإنّه كان في كرب شديد، ثمّ يسألونه: ما فعل فلان وفلان، وفلانة هل تزوّجت»[2].

وعن ثابت البناني[3]، أنّه قال: بلغنا أنّ الميت إذا مات احتوشته أهله وأقاربه الذين تقدّموه من الموت، فهو فرح بهم، وهم أفرح به من المسافر إذا قدم إلى أهله[4].

وفي الحديث: «تكون النّسم[5] طيراً ـ أي: على هيئة الطير، أو في حواصل طير كما في رواية[6] ـ تعلق بالشجر[7] حتّى إذا كان يوم القيامة دخلت كلّ نفس في جسدها الذي كانت فيه في الدنيا»[8].

وورد «أنّ الصّوْر كالقرن له دويرات كما بين السماوات والأرض، فيه ثقوب بعدد الأرواح من جميع المخلوقات أصحاب الأرواح، تأوي كلّ روح لثقب، فإذا نفخ إسرافيل في الصّور نفخة البعث خرجت كلّ روح فلا تخطئ جثّتها»[9].

ولتطلب بقية الكلام من نحو الإحياء. والله أعلم.

---

(١) لم أعثر عليه.

(٢) رواه الطبراني في الكبير برقم: (٣٨٨٧)، والأوسط برقم: (١٤٨).

(٣) هو ثابت بن أسلم البناني أبو محمد البصري، تابعي روي عنه أنه قال: صحبت أنساً أربعين سنة. توفي سنة ١٢٧هـ، وقيل سنة ١٢٣هـ. انظر تهذيب التهذيب: (٢/٣)، وتقريب التهذيب: (١/١٤٥)، والإكمال: (١/٤٣٩)، وسير أعلام النبلاء: (٥/٢٢٠).

(٤) انظر أهوال القبور لابن الجوزي: (٤٨).

(٥) أي: أرواح المؤمنين بعد موتهم. مؤلف

(٦) رواه الدارمي في سننه برقم: (٢٤١٠).

(٧) أي: تأكل من ثمارها، والمراد ثمار الجنّة وأرواح الشهداء. مؤلف.

(٨) رواه أحمد في المسند برقم: (٢٧٤٢٧)، وأبو نعيم في الحلية: (٢/٧٢).

(٩) انظر فيض القدير: (٤/٢٤٢).

الأمر الثالث: لما توفي ﷺ كان أبو بكر بالسنح ـ موضع من عوالي المدينة ـ فدهش الناس لموته ﷺ، وطاشت عقولهم، واختلفت أحوالهم، فأمّا عمر ﷺ فخبل، وصار يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، ولا يموت حتى يقطع أيدي ناس من المنافقين وأرجلهم، وصار يتوعَّد من يقول بموته ﷺ بالقتل والقطع، ويقول: إنه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى إلى ربّه.

وأما عثمان ﷺ فأُخْرس، وأما عليٌّ ﷺ فأقعد[1]، وأمّا أسماء فوضعت يدها على موضع خاتم النبّوة، فوقع في قلبها موته ﷺ، والنّساء مع عائشة يبكين ويضربن وجوههن، وقد نسينَ الحرمة[2].

وسمعوا صوتاً، يقال: إنه صوت الخضر، يقول: السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[3]، إنّ في الله عزَّ وجلَّ عزاءً من كلِّ مصيبة وخَلَفاً من كلِّ هالك، ودَرَكاً من كلِّ فائت، فبالله ثِقُوا، وإيّاه فارجوا، فإنّ المُصاب من حُرِم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وصار كلّ صحابيّ في حال إلى أنْ قدم أبو بكر ﷺ فكشف عن وجه رسول الله ﷺ فقبّله، ثمّ قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، طبت حيّاً، وطبت ميتاً، والذي نفسي بيده، لا يذيقك الله الموتتين أبداً. ثمّ خرج، فقال لعمر: أيها الحالف على رِسْلك ـ أي: كن على التؤدة ولا تعجل ـ ثمّ صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمداً ﷺ، فإنّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإنّ الله حيٌّ لا يموت، وقرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[4].

قال عمر ﷺ: فكأني لم أسمع هذه الآية إلا حينئذ، ثمّ قرأ أبو بكر: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[5]، ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ

---

(١) انظر تاريخ الطبري: (٢/٢٣٢)، وعيون الأثر: (٢/٤٤٥).

(٢) أي: حرمة ضرب لوجوه.

(٣) آل عمران: ١٨٥.

(٤) آل عمران: ١٤٤.

(٥) الزمر: ٣٠.

﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[1] فبكى عمر ﷺ وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، كنت كذا وكذا، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، كنت كذا وكذا. إلى أن ذكر أموراً كثيرة، ثمّ أنشد ﷺ أبياتاً[2] منها قوله:

ما زلتُ مذ وضع الفراش لجنبه ... وثوى مريضاً خائفاً أتوقّع

شفقاً عليه أن يزول مكانه ... عنا، فنبقى بعده نتفجع

نفسي فداؤك من لنا في أمرنا ... أم من نشاوره إذا نتوجع

وإذا تحل بنا الحوادث من لنا ... بالوحي من ربّ عظيم يسمع

ليت السماء تفطّرت أكنافها ... وتناثرت منها النجوم الطلّع

لما رأيت الناس هدّ جميعهم ... صوت ينادي بالنعيّ المسمع

والناس حول نبيهم يدعونه ... بتلهف وبغيره لا ينفع

فليبكه أهل المدائن كلهم ... والمسلمون بكل أرض تجدع[3]

وقال غيره ما قال.

ثمّ تركوه ﷺ مسجىً ـ أي: مغطًى بثوب ـ وصاروا يتشاورون في الخلافة الكبرى، لأنّها أعظم الأمور بعد وفاته ﷺ، ثمّ لما تحققت وفاة النبيّ ﷺ اجتمع غالب المهاجرين على أبي بكر وعمر، وتخلّف عليٌّ والزبير ومن كان معهما من المهاجرين كالعبّاس وطلحة بن عبد الله وجمع من بني هاشم في بيت فاطمة، وتخلّف الأنصار بأجمعهم.

واجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ـ أي: في دارسعد بن عبادة ـ وكان سعد مريضاً، وقالوا: نوله هذا الأمر، فقال عمر ﷺ لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار، قال: فانطلقنا نؤمّهم ـ أي: نقصدهم ـ حتى لقينا رجلان صالحان، هما عويم بن ساعدة ومعبد بن عدي، وهما من الأوس، فقالا: أين تريدون؟، فقلت: نريد إخواننا من الأنصار، فقالا: لا، عليكم أن لا تقربوهم، واقضوا أمركم يا معاشر المهاجرين بينكم، قال عمر: فقلت: والله لنأتينهم، فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا هم مجتمعون، وإذا بينهم رجل مزمّل ـ أي: ملفوف بثوب ـ فقلت: من هذا؟، قالوا: سعد بن عبادة، فقلت: ما له؟، قالوا: إنه وَجِع، فلما جلسنا قام

---

(١) الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) الأبيات من البحر الكامل وأجزاؤه: متفاعل متفاعل متفاعل.

(٣) انظر سبل الهدى والرشاد: (١٢/٢٨٧).

خطيبهم، فأثنى على الله بما هو أهله، وقال: أما بعد: فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط نبيّنا؟، وقد دفّت دافّة منكم ـ أي: دبّ قوم بالاستعلاء والترفّع علينا ـ تريدون أن تختزلونا من أصلنا، وتحصنونا من الأمر، وتستقلّون به دوننا؟!!.

قال عمر: فلمّا سكت خطيبهم أردتّ أنْ أتكلّم، فقال أبو بكر: على رِسْلك يا عمر، فكرهت أنْ أغضبه، وكنت أرى منه بعض الحدَّة، فسكتُّ وكان أعلم مني وأحكم، والله ما ترك من كلمة أعجبتني، وكنت أردت أن أقولها إلا قالها في بدهته، فقال: أما بعد فما ذكرتم من خير، فأنتم له أهل، ولم تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحيِّ من قريش ـ أي: أمر النبوّة والخلافة لهم ـ هم أوسط العرب ـ أي: أشرف العرب ـ نسباً وداراً ـ يعني: مكة ـ ولدنا العرب كلّها، فليست منها قبيلة إلا لقريش منها ولادة، وكنّا معاشر المهاجرين أوّل النّاس إسلاماً، ونحن عشيرته ﷺ وأقاربه وذوو رَحِمه، فنحن أهل النبوّة وأهل الخلافة.

ولم يترك شيئاً قاله رسول الله ﷺ في شأن الأنصار رضي الله عنهم إلا قاله، ومنه: «لو سلك الناس وادياً وسلك الأنصار وادياً لسلكت وادي الأنصار»[1].

وقال[2]: لقد علمتَ يا سعد بن عبادة أنّ رسول الله ﷺ قال، وأنت قاعد: «قريش ولاة هذا الأمر»، فقال له سعد سيد الخزرج ﷺ: صدقتَ، فقال الصّديق ﷺ: نحن الأمراء، وأنتم الوزراء، وأنتم يا معشر الأنصار إخواننا في كتاب الله عزَّ وجلَّ، وشركاؤنا في الدّين، وأنتم أحقّ بالرّضى لقضاء الله، وقد رضيتُ لكم أحد هذين الرّجلين، وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح، فقال كل منهما: لا ينبغي لأحد أن يكون فوقك يا أبا بكر، بل نبايعك، فأنت خيرنا وسيّدنا وأحبّنا إلى رسول الله ﷺ، أفلا نرضى لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ لديننا ـ أي: حيث جعله رسول الله ﷺ خليفته في مرض موته ـ فقال الخباب بن المنذر: منّا أمير، ومنكم أمير، وكان من الأنصار، وقال زيد بن ثابت، وكان من الأنصار أيضاً: أتعلمون أنّ رسول الله ﷺ كان من المهاجرين، ونحن كنّا أنصاره فنحن أنصار خليفته كما كنا أنصاره، فقام بشير بن سعد بن النعمان بن بشير وقال: يا معشر الأنصار، إنّا كنّا أول من سبق إلى هذا الدّين

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أي: أبو بكر ﷺ في خطبته تلك.

وجهاد المشركين، فما صدّنا إلا رضاء الله ورسوله ﷺ، فلا ينبغي لنا أن نستطيل على الناس، ولا نطلب عرض الدنيا، وإنّ قريشاً أولى بهذا الأمر منا، فلا ننازعهم فيه.

قال عمر: فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى خشيت الاختلاف، وقلت: سيفان في غمد واحد لا يجتمعان فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، وكذا قال ذلك من الأنصار زيد بن ثابت وأسيد بن حضير وبشير بن سعد ولد النعمان بن بشير الأوسي: والله لا يبايعه أحد قبلي، ولا يتخلف عن بيعتي أنصاري من الأوس والخزرج.

قال عمر: فبسط أبو بكر يده فبايعته وبايعوه، ثمّ ازدحم الناس من المهاجرين والأنصار على المبايعة حتى سعد بن عبادة بايعه، فقال قائل من الأنصار: قد قتلتم سعد بن عبادة، فقال عمر: قتل الله سعد بن عبادة[1]. أي: أنّ ما فعلنا هو عين ما أمر الله به، فالفعل لله، وليس مراده الدعاء عليه أو التشفّي به.

فلمّا انتهت هذه المبايعة أقبلوا على جهاز رسول الله ﷺ، ولما دفن ﷺ وبويع أبو بكر ﷺ البيعة العامّة بعد بيعة السقيفة أصبح أبو بكر وعلى ساعده قماش، وهو ذاهب به إلى السوق ليتّجر به كعادته، فرآه عمر ﷺ فقال له عمر حين رآه: أين تريد؟، قال: السوق، قال: وماذا تصنع في السوق، وقد وليت أمر المسلمين. قال أبو بكر ﷺ: فمن أين أطعم عيالي؟، قال: انطلق إلى أبي عبيدة، هو يفرض لك نفقة، فانطلق به إليه، فقال أبو عبيدة: أفرض لك قوت رجل من المهاجرين، ليس بأفضلهم ـ أي: في سعة النفقة ـ ولا أوكسهم، وكسوة الشتاء والصيّف، وإذا أخلفت شيئاً رددته، وأخذت غيره، قال: نعم، ففرض له كل يوم نصف شاة وما كساه في الرأس والبطن، ثمّ استزادهم، ففرضوا له كلّ عام ألفي درهم، فقال: زيدوني فإنّ لي عيالي، وقد شغلتموني عن التجارة، فزادوه خمسمائة[2].

ثمّ أرسل بعد مدّة لعليٍّ ومن تخلّف معه، فقال أبو بكر لما حضروا: ما الذي خلّفك يا عليُّ عن المبايعة لما بايعني الناس؟!، فقال علي: خلّفني عِظَم المصيبة، ثمّ رأيتكم استقلّيتم برأيكم، وكنتُ أظن أنّ لنا بني هاشم في هذا الأمر نصيباً لقرابة رسول الله ﷺ ـ ففاضت عينا أبي بكر ـ فوجدنا في أنفسنا حيث لم تشاورونا، وقد عرفنا فضلك، ولم نحسدك على ما أولاك الله، فقام أبو بكر خطيباً وقال: والله ما كنت

---

(١) انظر البداية والنهاية: (٥/٢٤٦).

(٢) انظر تاريخ الخلفاء: (٧٢).

حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة قطّ، ولا كنت راغباً فيها، ولا سألتها الله في سرّ ولا علانية، ولكنْ أشفقت ـ أي: خفت من الفتنة ـ لو أُخّرت إلى اجتماعكم، ما في الإمارة من راحة، لقد قلِّدت أمراً عظيماً، ما لي به طاقة، ثمّ أشرف على الناس، فقال: أيّها الناس، إنّ هذا علي بن أبي طالب، لا بيعة لي في عنقه، وهو بالخيار من أمره، ألا وأنتم أيضاً بالخيار جميعاً في بيعتكم، فإنْ رأيتم لها غيري، فأنا أول من يبايعه[1].

فزال ما بقلب عليٍّ ومن معه، وكان من جملة خطبته: والذي نفسي بيده، لقرابة رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ من قرابتي، فقال عليٌّ رضي الله عنه: أجل، لا نرى لها غيرك أهلاً، أمدد يدك نبايعك، فمدّ يده، فبايعه من كان تخلَّف مع عليّ، فقيل لعلي رضي الله عنه سرّاً: هل عهد إليك رسول الله ﷺ بالخلافة؟؟ فحدّثْنا، فأنت الموثوق به والمأمون على ما سمعت، فقال: لا والله، لئن كنتُ أوّل من صدّق به، لا أكون أوّل من كَذَب عليه، والنبيّ ﷺ لم يمت فجأة، بل مكث في مرضه أياماً وليالٍ يأتيه المؤذِّن فيُؤْذنه بالصّلاة، فيأمر أبا بكر فيصلّي بالناس، وهو ﷺ يراني، فلمّا مات رسول الله ﷺ اخترنا لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ لديننا، وكان لذلك أهلاً[2].

وقد قدم رجل من أهل البادية بإبل فاشتراها رسول الله ﷺ منه بتأخير، فلقيه عليّ رضي الله عنه، فقال له: ما أقدمك؟، قال: قدمت بإبل فاشتراها رسول الله ﷺ، قلت له: نَقَدك؟، قال: لا، ولكنْ بعتها بتأخير، قلتُ: ارجع إليه وقل له: إنْ حدث بك حدث، فمن يقضي عنك؟، ففعل، فقال ﷺ: أبو بكر، فقال له: فإنْ حدث بأبي بكر حدث، فمن يقضي؟، فقال ﷺ: عمر، فقال له: فإنْ حدث بعمر حدث، فمن يقضي؟، فقال ﷺ: «ويحك، إذا مات عمر، فإن استطعت أن تموت فمت»[3].

ثمّ لما أثقل المرض أبا بكر رضي الله عنه دعا عبد الرحمن بن عوف فقال: أخبرني عن عمر بن الخطاب، هل يصلح للخلافة؟، فقال عبد الرحمن: أنت أعلم به مني، فقال أبو بكر: وإنْ كان، فقال عبد الرحمن: هو والله أفضل من رأيك فيه، ثمّ دعا عثمان فقال له: أخبرني عن عمر؟، فقال: أنت أخبرنا به، ثمّ دعا عليًّا فقال مثل ذلك، ثمّ قال: اللهم إنّ علمي به أنّ سريرته خير من علانيته، وأنّه ليس فينا مثله، ودعا جمعاً

---

(١) انظر تاريخ الإسلام: (١/٣٦٤).

(٢) انظر المرجع السابق.

(٣) رواه الطبراني في الكبير برقم: (٤٧٨).

من الأنصار، منهم أسيد بن حضير، وسألهم عن عمر، فقال أسيد: أعلمه يرضى للرّضى ويسخط للسخط، الذي يسرّ خير من الذي يعلن، ولن يليَ هذا الأمر أحد أقوى عليه منه.

فعند ذلك قال أبو بكر لعثمان: اُكتب لعمر بالخلافة، اُكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهده أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، أنني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، فإنْ عدل فذلك ظنّي به وعلمي فيه، وإنْ بدّل فلكلّ امرئ ما اكتسب، والخير أردت، ولا أعلم الغيب، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ثمّ أمر بالكتاب فختم، ثمّ دعي عمر خالياً، فأوصاه بالمسلمين خيراً، ثمّ أخرج رأسه أبو بكر من كوّة من حجرته إلى المسجد، والناس مجتمعون، ولا يعلمون كيف آل الأمر، فقال: أيها الناس، إني قد عهدت عهداً، أفترضون به؟، فقال الناس: رضينا يا خليفة رسول الله ﷺ، فقام عليٌّ رضي الله عنه وقال: لا نرضى إلا أنْ يكون عمر، فقال أبو بكر: هو عمر.

فلمّا حضرت الوفاة عمر رضي الله عنه قال الصّحابة له رضي الله عنه: أَوْصي يا أمير المؤمنين بالخلافة، فقال: ما أحد أحقّ بهذا الأمر من عليٍّ وعثمان، والزبير وطلحة، وسعد وعبد الرحمن بن عوف، مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فإنْ أصابت الإمارة سعداً، فهو أهل لذلك، وإلا فليستعن به من اخترتموه للإمارة، وأوصى الخليفة بالمهاجرين والأنصار خير، يقبل من محسنهم ويعفو عن مسيئهم، وأوصاه بأهل الأمصار فإنهم ردء الإسلام وجباة المال وغيظ العدو، وأنْ لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم، وأوصيه بالأعراب خيراً، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أنْ يوفي لهم بعهدهم، وأنْ يقتل من وراءهم، ولا يكلّفوا إلا طاقتهم.

فلما قاربت وفاته قال لابنه عبد الله: اذهب إلى أمّ المؤمنين عائشة فقل لها: إنّ عمر يقرئك السلام، ولا تقل: أمير المؤمنين، فإني لست اليوم بأمير المؤمنين، ويستأذنك أنْ يدفن مع صاحبيه، فإنْ أذنت، فادفنوني، وإنْ أبت، فردوني إلى مقابر المسلمين.

فأتاها عبد الله، وهو يبكي، فقال: إنّ عمر يستأذن أنْ يدفن مع صاحبيه، فقالت: لقد كنت ادّخرت ذلك المكان لنفسي، ولأوثرنه اليوم على نفسي.

فلمّا رجع عبد الله إلى أبيه قال عمر: أقعدوني، ثمّ قال لعبد الله: ما وراءك؟، قال: قد أَذِنَتْ لك، قال: الله أكبر، ما شيء كان أهمّ إليّ من ذلك المضجع.

فلمّا قبض ودفن اجتمع النّفر المذكورون، فقال عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم ـ أي: لينزل ثلاثة منكم عن حقّهم في الخلافة لثلاثة، كلّ واحد يترك حقه لصاحبه ـ فقال الزبير: جعلت أمري لعليّ، وقال طلحة: جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد: جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن: أيُّكما تبرّأ من هذا الأمر، فنجعله إليه، والله عليه والإسلام، لينظرنّ أفضلهم في نفسه. فأسكت علي وعثمان، فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إليّ، والله عَلَيَّ أن آلو عن أفضلكم؟، قالا: نعم.

فأخذ بيد عليّ، وخلا به فقال: الله عليك لئن أمّرتُك لتعدلنّ، ولئن أمّرت عثمان لتسمعنّ وتطيعنّ؟، فقال: نعم.

ثمّ خلا بعثمان فقال له مثل ذلك، فقال: نعم، ثمّ جمع الكلّ، وقال: ارفع يدك يا عثمان أبايعك، فرفع يده فبايعه، ثمّ عليٌّ، ودخل الناس فبايعوه.

فلمّا قتل عثمان انحاز عليٌّ إلى داره زهداً في الخلافة لئلّا ينسب لرغبة في قتل عثمان من أجلها، فدخل الصّحابة كلّهم، واستخرجوه من داره، وألزموه بالخلافة، وقالوا له: لم يبق أهل لها غيرك، فبايعوه عليها، ثمّ نازعه فيها بنو أمية حيث لم يأخذ لهم بثأر عثمان حتى استقرت الخلافة له ﷺ.

وقد كانت الزهراء أول لاحق ... وبشرّها يوماً بذاك فسرَّت

حاصله: يا رسول الله لقد كانت فاطمة الزهراء جلست عندك فأسررت إليها بحديث فبكت، ثمّ أسررت إليها بحديث آخر فسُرَّت وضحكت، فقالت لها عائشة رضي الله عنها: أعلميني بما أسرّ لك حتى بكيت، ثمّ أسرّ لك فضحكت؟، فقالت: ما كنتُ لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ وهو حيٌّ، فلمّا توفي ﷺ أعادت عليها السؤال، فقالت: أسرَّ لي أولاً: أنّ جبريل كان يعارضني القرآن كلّ سنة مرّة، وأنه عارضني العام مرّتين، ولا أراه إلا حضر أجلي فبكيت، ثمّ أسرّ لي ثانياً بأنّك أوّل لاحق بي من أهل بيتي، أما ترضين أنْ تكوني سيّدة نساء أهل الجنة فضحكت[1]. فكان الأمر كما ذكرت

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم: (٢٤٥٠)، وأحمد في مسنده برقم: (٢٦٤٥٦)، والطبراني في الكبير برقم: (١٠٣٢). وروه غيرهم.

يا رسول الله، كانت أوّل من مات بعدك من أهل بيت.

توفيت بعده ﷺ بستة أشهر[1]، فهي آخر أولاده ﷺ موتاً، وأولهم لحوقاً به ﷺ من أهل بيته.

وفي زمن الصّديق كان جميع ما حكيت عن الشيماء بنت بقيلة

حاصله: ومن جملة معجزاتك يا رسول الله ﷺ تحقق ما روه أبو القاسم المنهاجي في مختصر (الحلية) وهو أنّ النبيّ ﷺ ذات يوم أخبر أنّ اليمامة فُتحت له والحيرة، ودفعت له ﷺ منها بغلة بيضاء راكبة عليها بنت بقيلة المعروفة بالشيماء، وهي معتجرة على رأسها بخمار أسود، فقال واحد من الصّحابة لما سمع ذلك، وكان اسمه خريم بن فاتك: يا رسول الله، إنْ نحن فتحناها على هذه الصّفة تعطيني إياها، فقال ﷺ: «هي لك» أي: أعطيتك إياها من الآن.

ثمّ بعد قليل توفي ﷺ، وفتح خالد بن الوليد اليمامة في خلافة الصّديق ﷺ، وقتل مسيلمة الكذاب الذي كان متحصّناً فيها، ثمّ سار خالد بأمر الصّديق إلى بلد بقربها يقال لها: الحيرة، فافتتحها خالد، وكان في جيشه خريم، فلمّا دخلوها كان أول من لقيهم الشيماء المذكورة بنت بقيلة راكبة بغلة بيضاء معتجرة على رأسها بخمار أسود، كما أخبر بذلك النبيّ ﷺ، فتعلّق بها خريم المذكور، وادّعى أنّ النبيّ ﷺ دفعها له، فرُفِعا لخالد فطلب منه خالد بيّنة بذلك، فشهد له بذلك محمّد بن مسلمة وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم أجمعين، فدفعها خالد له، فنزل أخوها عبد المسيح فقال: يا خريم، تبيعها؟، فقال خريم: والله لا أنقصها عن مئة درهم عشر مرات من الفضة، فدفعها له، وكانت ألف درهم فضة، وقال بعد أن أخذها من خريم: لو قلت: مئة ألف لدفعتها لك، فقال خريم: والله ما كنت أحبّ أن يكون لي في الدنيا مال أكثر من عشر مئة[2].

فكان ذلك معجزة له ﷺ حيث تحقق ما أخبر به، وما دفع له ﷺ من الفتوحات وغيرها تناولته أمته ﷺ.

وكل نبي فانطوت معجزاته ومعجزك الباقي لآخر مدة
أليس كتاب الله بين صدورنا نفوه به في بكرة وعشيّة

---

(١) انظر الاستيعاب: (١/٦١٤)، والإصابة: (٨/٥٧)، والطبقات الكبرى: (٢/٣١٥).

(٢) رواه الطبراني في الكبير برقم: (١٨٣ـ ٤١٦٨)، وانظر الحلية لأبي نعيم: (١/٣٦٤).

أتــاك وفرســان البلاغــة أحــدقوا عليك وهم في النـاس أفـصح عـصبة
فحــاروا بعجـز عـن مـضاهاته وقـد تحديتــهم منــه بأيــسر ســورة

حاصله: كلّ نبي بعث لقومه بمعجزة انقضت معجزته بموته، وأمّا أنت يا رسول الله فالقرآن لك معجزة خالدة باقية، مع بقاء عجز الناس عن الإتيان بمثله، فلو أنك أتيت به من عند غير الله لقدر مخلوق على الإتيان بمثله بلاغة وحسناً، لكنّه لم يقدر، مع ما فيه من الأسرار والأخبار مما تحير به الأفكار: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾[1].

إذا طُلبت منا معجزة على صدق نبينا ﷺ نقول: أليس كتاب الله، وهو القرآن بين صدورنا؟. أي: محفوظ بقلوب حفَّاظنا له.

(نفوهُ به) أي: تتفوَّه وتتكلّم وتقرؤه حفاظنا، أو كلّ مكلّف منّا، لأنه يتحقّق إعجازه ولو بثلاث آيات من الفاتحة، أو من غيرها.

(في بكرة): وهي أول النهار، (وعشية) آخره. والمراد كلّ الأوقات، فما من وقت إلا وفي الكون قارئ مصلّ أو متعبّد بتلاوته. وفي هذا المقروء معجزة دالة على صدقه ﷺ.

(أتاك) يا رسول الله القرآن من الله معجزة، والحال أنّ (فرسان البلاغة) الحذّاق فيها، (أحدقوا) أي: أحاطوا مريدين الاستعلاء عليك بمعارضته، ليردّوا عليك ما الموت أهون عليهم منه، والحال أنهم كانوا حينئذ في الخلائق (أفصح عصبة) وجماعة من الآدميين، (فحادوا) رجعوا عن معارضتك متلبّسين بالعجز عن إتيانهم بما يضاهي أو يشابه القرآن فصاحة وبلاغة، والحال أنك يا رسول الله لما نازعوك في دعوى الرسالة، وكذّبوك وأنكروا أن ما جئت به من عند الله، وقالوا فيك الأقاويل المختلفة.

قال بعضهم: هو ﴿شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾[2] أي: أنه كالشعراء في الإتيان به من عند نفسه كلاماً حسناً يستميل به النفوس كاستمالة الشعراء النفوس بأشعارهم، وقال بعضهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾[3]

---

(١) الإسراء: ٨٨.

(٢) الطور: ٣٠.

(٣) الفرقان: ٥.

أي: أكاذيبهم التي ألقوها كالتواريخ المنبثّة عن حوادثهم، أو الأكاذيب التي ادعتها الأنبياء، لأنهم لا يقولون بنبوة نبيّ أصلاً، قال تعالى رداً عليهم: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: ينسبون القرآن إليه، وأن محمداً ﷺ ادَّعاه لنفسه مع أنه مقالة الأنبياء ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾ لأنّ التوراة عبراني، والإنجيل سرياني ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[2] بيِّن واضح، كونه بلغة العرب العرباء.

وقال بعضهم: سحر تعلّمه محمّد ـ ﷺ ـ من السّحرة ليسحر الخلائق به، وقال بعضهم: كهانة، نزل على محمد ـ ﷺ ـ شيطان علّمه إيَّاه كما تنزل على الكهان الشياطين وتعلمهم الأقاويل... إلى غير ذلك من الأقاويل كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾[3] أي: أقساماً مختلفة اختلاف أعضاء الحيوان، فكل فريق قال مقالاً، وكلّ إناء بما فيه ينضح.

فحينئذ أمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يتحدَّاهم ـ أي: يطلب منهم على فرض كونه ليس من عند الله تعالى كما يزعمون ـ أن يأتوا بمثله، فعجزوا، وإلا لأتـوا وما قاتلوا وقتلوا، وبذلوا المال، وانقادوا إلى ما الموت أيسر عليهم منه، أي: فلو كان من عند غير الله لقدروا، وهم فرسان البلاغة، فعجز غيرهم بالأولى.

ثمّ طلب الله تعالى من نبيّه ﷺ أن يكتفي منهم بالمعارضة لما هو الأيسر عليهم من كلّ القرآن، وهو أيّ سورة الصّادق بـ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾[4] وبما هو قدرها، وهو ثلاث آيات، فعجزوا فما ذاك إلا لكونه من عند الله تعالى. وإلا لقدروا على ذلك مع كونهم عباقرة اللغة وأهلها، ومع كون النبيّ ﷺ تحدّاهم وطلب منهم المعارضة والإتيان بمثل ما أتى به على فرض صدقهم في كونه ليس من عند الله.

روي أنّ عتبة بن ربيعة وكان سيداً مطاعاً في قريش قال يوماً: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمّد وأكلّمه وأعرض عليه أموراً لعلّه يقبل بعضها فنعطيه إيّاها ويكفّ

---

(١) يس: ٦٩.

(٢) النحل: ١٠٣

(٣) الحجر: ٩١.

(٤) الكوثر: ١.

عنّا، فقالوا: يا أبا الوليد، فقم إليه فكلِّمه، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منّا حيث قد علمت من الشطر في العشيرة والمكان في النّسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعاتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت من مضى من آبائهم، فإنْ كنت تريد مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا، فلا نقطع أمراً دونك، وإن كان الذي يأتيك رئيا من الجن تراه، لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطبّ وبذلنا فيه أموالنا حتّى نبرئك منه، فإنّه ربّما غلب التّابع على الرجل حتّى يتداوى منه، فقال ﷺ: اسمع يا أبا الوليد ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[1] فوضع عتبة يده على فم النبيّ ﷺ وناشده الله والرّحم أن يكفّ عن ذلك.

ثمّ رجع إليهم، فلمّا جلس قالوا له: ما وراءك يا أبا الوليد؟، قال: إني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قطّ، والله ما هو بالشّعر ولا بالسّحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني فاجعلوها في رأسي، خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فإنْ تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزّكم،

---

(١) فصّلت: ١ ـ ١٣.

وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك بلسانه محمّد يا أبا الوليد، فقال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم[1].

روي أنه سمع أعرابي رجلاً يقرأ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾[2] فسجد، فقيل له في ذلك، فقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام[3].

وسمع آخر رجلاً يقرأ: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾[4] فقال: أشهد أنّ مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام أبداً[5].

وأكثر أشراط القيامة قد أتى	وآت بلا ريب ظهور البقية
وفي كل وقت إن تأمّل ذو النهى	يشاهد حدوث المعجزات، الجديدة

حاصله: ومن جملة معجزاتك يا رسول الله وقوع أكثر أشراط السّاعة كما أخبرت، وأما بقية أشراط السّاعة التي أخبرت بوقوعها ولم تقع إلى الآن كالمهدي وما بعده فستقع في وقتها الذي وقّته الله تعالى لها، ولا ريب ولا شكّ عندنا في تحققها على الوجه الذي بيّنت وأخبرت.

وإذا تأمّل أصحاب (النّهى) أي: العقول المستقيمة التي تنهى وتمنع أصحابها من ارتكاب ما لا يليق.

(يشاهدون) يعلمون ويتحققون حدوث معجزات دالّة على صدقك، في كلّ وقت وزمن يمرّ بهم إلى يوم القيامة، لأنّ كلّ كرامة وليّ معجزة لنبيّ ذلك الوليّ، أبقاها النبيّ ﷺ لذلك الوليّ تقوية لهمّة من فَتَرت همّته عن متابعة ذلك النبيّ عند طول العهد بمعجزة ذلك النبيّ، وما حصلت للوليّ تلك الكرامة إلا ببركة العمل بشريعة ذلك النبيّ، فذلك الأمرُ الخارق للعادة من ثمرة شريعة ذلك النبيّ، فتدلّ على صدقه، فتكون كالمعجزة في الدلالة على صدقه، وإنْ فارقتها باسم الكرامة لعدم ظهورها من نبيّ تحدّى بها، وما دامت الدنيا موجودة لا تخلو من الأولياء، لأنّ آخر مولود يولد

---

(١) انظر البداية والنهاية: (٣/٦٤)، وعيون الأثر: (١/١٩٥)، وتاريخ الإسلام: (١/٣٨).

(٢) الحجر: ٩٤.

(٣) انظر الاتقان للسيوطي: (٢/١٤٩).

(٤) يوسف: ٨٠.

(٥) انظر الشفا: (٢١٩ ـ ٢٢٠)، والتحرير والتنوير لابن عاشور: (١/٦٠).

بالصّين هو ختام الأولياء، يولد مع أخت له في بطن واحد رأسه عند رجلي أخته، لأنها تولد قبله، وبه ينقطع التوالد، فيدعو للإيمان، فلا يجاب، فتقوم الساعة على الأشرار، كما قاله سيدي محي الدين بن العربي ﷺ.

وفي الحديث: «شكت الأرض إلى ربّها انقطاع النبوّة، فقال تعالى: سوف أجعل على ظهرك أربعين صدِّيقاً، كلّما مات رجل منهم أبدلت مكانه رجلاً»(١).

وفي آخر: «إنّ الأبدال يكونون بالشّام، وهو أربعون رجلاً، كلّما مات رجل منهم أبدل الله مكانه رجلاً، يستقى بهم الغيث، وينصر بهم على الأعداء، ويصرف بهم عن أهل الأرض البلاء»(٢).

وفي آخر: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقّ، لا يضرّهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك»(٣). والله أعلم بالصّواب.

وإنك إن تُدعى الورى لمعادهم ... لأول من عنه انشقاق البسيطة
يقومون من أجداثهم لحسابهم ... حفاة عراة في ارتياع ودهشة
ويلحقهم من حرّهم عرق وقد ... أضرَّ بهم طول انتظار ووقفة
ويستشفعون الأنبياء ولم يكن ... سواك الذي يعطى مقام الوسيلة
فذاك مقام فيه يحمدك الورى ... فسميت محموداً لتلك الفضيلة

حاصله: ومن كرامتك على الله يا سيّد المرسلين أنّ إسرافيل إذا وقف على صخرة بيت المقدس، ونادى بأمر الله له في ذلك: أيّتها العظام النّخرة، والجلود المتمزّقة، والأعصاب المتقطّعة، واللحوم المفرّقة ـ أو كما قال ـ إنّ الله يأمركنّ أن تجتمعنَ لفصل القضاء، فتجتمع الأشباح، ثمّ ينفخ في الصّور، فتخرج منه الأرواح، وتدخل تلك الأشباح، وتنشقّ (البسيطة) الأرض المبسوطة عنهم، فيخرجون من قبورهم، تكون أنت يا رسول الله أوّل من تنشقّ عنه الأرض لحديث: «وأنا أول من

---

(١) لم أعثر عليه بهذا اللفظ.

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصّحابة: (٢/٩٠٦)، وأخرجه في المسند برقم: (٨٩٦)، وقال الهيثمي: ورجال أحمد رجال الصّحيح غير شريح بن عبيد وهو ثقة وقد سمع من المقداد وهو أقدم من علي، والحديث حسن، وله شواهد كثيرة.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم: (٣٤٤٢)، ومسلم في صحيحه برقم: (١٩٢٠)، والترمذي في سننه برقم: (٢١٩٢). ورواه غيرهم.

تنشقّ عنه الأرض ولا فخر»[1]، وإذا قام الناس من قبورهم للحساب حفاة عراة في ارتياع وخوف ودهشة وحيرة، وألجمهم العرق من حرِّ أنفاسهم وأجسامهم وخوفهم، وأحاطت جهنّم والملائكة بهم، واستشفع الكلّ بآدم، ثمّ بأولي العزم، فلم يشفعوا لهم، واعتذروا بعدم صلاحيتهم للشفاعة في تلك الحالة، ودلّ بعضهم على بعض إلى أنِ انتهت الدلالة عليك يا سيّد المرسلين، وسألتَ الشفاعة عند رب العالمين، فأجبتهم، وشفعت فيهم، فشفّعك الله الشفاعة العظمى لفصل القضاء الذي هو مفتاح الشفاعات كلّها بعد ذلك، ووسيلة لكلّ خير حصل هناك، فلما قمت بتلك الشفاعة نسب إليك أنّك قمت المقام المحمود، الذي يحمدك عليه الأوّلون والآخرون، فسُمّيتَ الآن يا رسول الله محمداً لتلك المحامد التي تكون لك يوم القيامة، فحينئذ يظهر معاينة للخلائق كلهم أنّه لم يكن سواك يُعْطى مقام الوسيلة ـ أي: الشفاعة العظمى ـ التي هي مفتاح الشفاعات ووسيلة إليها، وذلك المقام الذي هو مقام الوسيلة (فيه) أي: بسببه يحمدك (الورى) أيّ: الخلائق كلّهم، فسُمّيت يا رسول الله محموداً لذلك.

ففي الحديث: «أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة، وأنا أول من ينشقّ عنه القبر، وأنا أوّل شافع وأوّل مشفّع»[2] فيشفع ﷺ فيشفَّع، وتظهر سيادته وجلالته وعظمته على أهل الموقف في ذلك اليوم، والأحاديث في ذلك كله شهيرة كثيرة.

وكم معجزاً أعطى لك الله كائناً	على يد أصحاب كرام العشيرة
كأكل خبيب موثقاً عنباً ولم	تك أرض الله جاءت منه بحبة
وكف أبي بكر به سبَّح الحصى	وطار لأفق عامر بن فهيرة
وفي غزوة بدر أخبر ابن سلامة	فتى سائلاً عن سر مكنون سخلة
وقد كان بالعباس عمك يستقى	لما نال من قرب إليك ونسبة

حاصله: ويا رسول الله كثير من المعجزات التي أعطاكها الله تعالى، جعلها كائنة وظاهرة على يد أصحابك ببركة صحبتهم ومتابعتهم لك، وإن لم تكن معجزة بل

---

(١) رواه الطبراني في الكبير برقم: (١٢٧٧٧)، والترمذي في سننه برقم: (٣١٤٨)، وابن ماجه في سننه برقم: (٤٣٠٨)، وأحمد في المسند برقم: (٢٥٤٦). ورواه غيرهم، وأصل الحديث في صحيح البخاري.

(٢) رواه أبو داود في سننه برقم: (٤٦٧٣)، وابن ماجه في سنه برقم: (٤٣٠٨)، وأحمد في المسند برقم: (١٠٩٨٥)، ابن حبان في صحيحه برقم: (٦٢٤٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه برقم: (٣١٧٢٨)، والبيهقي في سننه برقم: (١٧٤٩١).

كرامة لعدم ظهورها على يد نبيّ تحدّى بها، بل على يد أصحابك (كرام العشيرة) أي: القبائل أو المعاشر والمصاحب لهم، أو الصّحبة لمن صحبهم، فمنها ما تقدّم، أن خبيباً لما أُسِرَ وأُخِذَ لمكة وحُبِسَ ليُقتل، كانوا يجدون معه عنقود العنب، والحال أنه لم يكن حينئذ على وجه الأرض عنب، وإنّه لموثق بالحديد، وما كان ذلك إلا رزقاً، رزقه الله من عنده كرامة له.

ومنها ما تقدّم مراراً من أنّ الحصى سبَّح في كفِّ أبي بكر، بل وعمر وعثمان، قيل: وعليٍّ رضي الله عنهم.

ومنها ما روي أنّ عامر بن فهيرة لما قتل عند بئر معونة مع القرّاء، طعنه جبار بن سلمى، فلمّا طعن، قال: فزتُ وربّ الكعبة، ثمّ أخذ الدم بيديه فنضخه على رأسه ووجهه، فقال جبار: وما قوله فزتُ؟ ألم أُنْفِذ رمحي في ظهره وصدره؟!!، فقيل لجبار: إنّما أراد أنه فاز بالجنّة حين أبصرها، فكان ذلك سبباً لإسلام جبار.

وكان الذي استصرخ لقتل القرّاء عامر بن الطفيل الملعون المتقدِّم الكلام عليه قريباً، ولما قتلوا أسر منهم عمرو بن أميَّة، فمرَّ به على جسد عامر بن فهيرة المقتول أولاً، فقال له عمرو: من هذا؟، فقال: هذا ابن فهيرة مولى أبي بكر الصّديق اشتراه فأعتقه، فقال: والله، لقد رأيته طار وارتفع حتى أني لأرى السماء بينه وبين الأرض، حتى غاب عنّي ثمّ وضع.

روي أن المشركين أرادوا أن يمثلوا به فرفع ولم يقدروا على ذلك.

ومنها أنه ﷺ لما كان متوجِّهاً لبدر صادفه رجل من الأعراب، فقال: إنْ كنت رسول الله ﷺ فأخبرني عمّا في بطن ناقتي هذه، فقال سلمة بن سلامة رضي الله عنه: لا تسأل رسول الله ﷺ، وأقبل عليَّ، فأنا أخبرك بذلك، نزوت عليها، ففي بطنها منك سخلة، وكان الأمر كذلك، فحينئذ قال رسول الله ﷺ: «أفحشت على الرجل».

ومنها ما تواتر أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس رضي الله عنه فقال: اللهم إنّا كنا إذا أقحطنا استسقينا بنبيّك فتسقينا، وإنّا نتقرَّب إليك بعمِّ نبيّك، فاحفظ اللهم نبيّك في عمّه، وقد أتينا مستغفرين، وبه إليك مستشفعين، فقال العباس: اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بي لمكاني من نبيّك، وهذه أيدينا بالذنوب، ونواصينا بالتوبة، ثمّ قام العباس وعيناه تذرفان ـ أي: تدمعان ـ فقال: اللهم أنت الراعي، لا تهمل الضالّة، فقد ضرع الصّغير، ورقّ الكبير، وارتفعت الشكوى،

وأنت تعلم السرّ والنّجوى، اللهم فأغثهم غياثاتك من قبل أن يقنطوا فيهلكون، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

فنشأت سحابة وهطلت السماء، وطفق الناس يقولون للعباس: هنيئاً لك ساقي الحرمين.

وسيّدنا العباس هو الذي شهد البيعة، وأكّد العقد للنبيّ ﷺ على الأنصار عند العقبة حين بايعوه ﷺ. والله تعالى أعلم بالصّواب.

وأقسم لو أن البحار جميعها ... مدادي وأقلامي لها كل غوطة

لما جئت بالمعشار من آيك التي ... تزيد على عدّ النجوم المنيرة

حاصله: وأحلف بالله لو أنّ كلّ البحار كانت حبراً، وكانت مع ذلك أعواد كلّ غوطة وشجر في بستان أو جبل أو غيرهما أقلاماً أكتب بها من مداد البحار معجزاتك وكراماتك ومزاياك يا رسول الله، وفني في كتابة ذلك مداد البحر، وانبرت مع ذلك أقلام أعواد وأغصان الأشجار، لو فرض وقوع ذلك كلّه لما جئت من مزاياك يا رسول الله ومن معجزاتك بالمعشار ـ أي عشر العشر ـ منها، فإنها تزيد أعدادها على عدد النجوم.

قال الأبوصيري[(١)]:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

وكيف يدرك في الدنيا حقيقته ... قوم نيام تسلوا عنه بالحلم[(٢)]

وقال أيضاً:

إنما مثّلوا صفاتك للناس ... كما مثّل النجوم الماء

لك ذات من عالم الغيب ... ومنها لآدم الأسماء[(٣)]

وقال غيره:

إذا الله أثنى بالذي هو أهله ... عليك فما مقدار ما تمدح الورى[(٤)]

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[(٥)]، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ

---

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) الأبيات من البردة، وهي من البحر البسيط، وأجزاؤه: مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

(٣) الأبيات من البحر الخفيف، وأجزاؤه: فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن.

(٤) البيت من البحر الطويل، وأجزاؤه: فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن.

(٥) القلم: ٤.

أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

ألا يــا رســول الله جئتــك زائــراً	فخـذ بيـدي واجعـل قرائـي بجنـة
وأهـديت هـذا الـنظم أرجـو قبولـه	وســنّتك الغــرا قبــول الهديــة
وقـصرت لكـن لي بكـل الأنـام في	قصوري عـن الغايـات أعظـم أسـوة
فـشتان مـن قـد مـدَّ للبـدر باعـه	وناصــب أســبابٍ لديــه طويلــة
أتيــت وشـكلي ذو مقـدمتين مـن	ذنــوب وتــسأل فجــد بالتحيــة
وإني ظلمــت الـنفس أيَّ ظُلامــة	وجئتــك فاســتغفر لـنفس ظلومــة
وكــن لي إذا مــا فــرَّ مــني والــدي	وأمــي وأولادي وأهلــي وإخــوتي
وكــن بهــم بــرًّا فــإن جمــيعهم	لــبرِّك محتــاجون في كــل برهــة

حاصله: ويا رسول الله، جئت حجرتك الشريفة لأزورك فيها، فخذ بيدي، بأن تتشفع لي عند ربك، ليكون قرائي وضيافتي عند زيارتي لك مدَّخراً لي عنـدك لتـوفيني إيَّاه إذا بعثتُ من قبري وشفعت لي في الجنة، فإنّ الدنيا مفروغ منها، فما بقي لي همَّة إلا في الآخرة.

ولما زرتك أهديت لك هذا الـنظم في مـدحك، وأنـا أرجـو قبـول هـذا الـنظم والمدح، لأنّ سنتك وعادتـك الغـرّاء الحسنة ـ لأن مـن معـاني الغـرّ الخيـار ـ قبـول الهدية، فلذلك رجوتك لقبول هديتي، لتجزيني عليها بنيل ما طلبتـه منـك، لأنـه ﷺ كان يردُّ الصّدقة ويقبل الهدية، ويكافئ عليها.

ولست معتمداً عليها لأني قصّرت في مدحي لك يا رسول الله، ومـا كـان يليـق مني أن أتفوّه بها لقصورها عن مقام مدحك، ولكنّ عزائـي أنّـني قـدّمت جهـدي مـع الاعتراف بالتقصير وأنني وجدت جميع العالمين قَصُرت عن إيفائك المدح المجـزي، والقيام بحقوقك، فقلت: إنّ لي بكلّ الأنام والخلق أسوة وقدوة مـن أعظـم الأسـوات في التّقصير الحاصل والواقع مني من حيث أني لم أذكر وأقم بغايات المدح ونهاياتـه، وإنما أتيت بالنزر اليسير منه، والذي بعثني على القناعة من المدح القليل المقصَّر فيـه أنني وجدتك يا رسول الله كالبدر المنير، بل أعلى، ووجدت من مدَّ يده طالبـاً مأربـه من البدر العالي في سمائه مساوياً لمن نصب له أسباباً وحبالاً طويلة أرسلها جهة البدر

---

(1) التوبة: ١٢٨.

يطلب منه مأربه في أنّ كلاً لا يتأتّى له الوصول إلا أنْ يعطف عليه البدر، فحالي حينئذ وسيلة إليك إلى الاعتراف بالعجز، إذا الله أثنى بالذي هو أهله عليك فما مقدار ما تمدح الورى، ومطلوبي منك يا رسول الله الشفاعة، فإني قد أتيت لزيارتك، وشكلي ـ وصفي ـ صاحب مقدمتي أمرين اجتمعا فيه، يقدّماني ويحملاني على القدوم لزيارتك لأنال مطلبي منك: أولهما ذنوبي السابقة، وثانيهما (تسألٌ) أي: كثرة سؤالي منك أنْ تشفع لي عند الله بالعفو عنها لأفوز بمرافقتك وقِرَاك لزائرك في الجدب، فحيث كان الأمر كذلك فجد عليَّ يا رسول الله بتحصيلك لي النتيجة والثمرة والفائدة، وهي الشفاعة المطلوبة لي منك، كالتّحية المطلوبة من مقدمتي شكل القياس المنصف، والحال أنّي ظلمت النفس التي جعلها الله لي (أيَّ ظلامة) أي: ظلامة عظيمة بسبب استعمالي لها في شهواتها حتى ارتكبت ذنوباً كثيرة، وقد جئتك يا رسول الله زائراً مستغيثاً مستجيراً لائذاً بجنابك، وجاهُك عريض يا رسول الله، فإذا كان الأمر كذلك، (فاستغفر) اُطلب المغفرة من الله لصاحب هذه النفس الظلومة لنفسها بمعصية ربها: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].

وكن يا رسول الله مغيثاً ومعيذاً وشافعاً لي إذا بعثت من قبري يوم القيامة، وفرَّ مني والدي وأمي وأولادي وأهلي وزوجتي وعشيرتي وإخوتي لما يرون بي من التقصير وسوء المصير، وكن يا رسول الله أيضاً لهؤلاء الذين تبرؤوا مني برًّا محسناً بأن تتشفع لهم أيضاً، فإنّ جميعهم محتاجون لبرِّك وإحسانك لهم بالشفاعة، كما أني أنا محتاج لها في كلّ (برهة) أي: قطعة زمن، فلا غنى لنا جميعاً عنك يا رسول الله طرفة عين.

فصلى عليك الله ما هبت الصبّا	وما صرخت قمرية فوق دوحة
كذاك ضجيعاك اللذان تكفلا	بدفع ذوي زيغ وحفظ الشريعة
وعثمان ذي النورين مع ذكر سيدي	أبي حسن داعٍ إلى خير ملَّة

حاصله: المؤلف ينشئ الصّلاة على النبيّ ﷺ ويعلّقها على هبوب الصّبا، وهي الريح المعلومة، كما يعلّقها على تصويت القمرية ـ وهي الحمامة ـ فوق دوحة أغصان الشجرة العالية التي يقال لها: دوحة.

كما طلب المؤلّف الصّلاة من الله تعالى على ضجيعيه ﷺ ـ أي: مضاجعيه في

(١) النحل: ١١٨.

المدفن في الحجرة الشريفة ـ سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر رضي الله عنهما اللذَيْنِ تكفّلا مدّة خلافتهما وقبلها، بل وبعدها بدفع ذوي الزَيْغ عن الشريعة المحمّدية لارتدادهم بعد وفاته وكفر من بقي بعده ﷺ على كفره، وتكفَّلا أيضاً بحفظ الشريعة المحمّدية بعد وفاته ﷺ.

كما وطلب المؤلف أيضاً الصّلاة من الله تعالى على عثمان ذي النورين[1].

ومع ذكر عثمان في موطن الصّلاة عليه تبعاً للصلاة على النبيّ ﷺ أتبعه بذكر سيدنا أبي حسن، وهو سيدنا عليّ، لكون أبي حسن المذكور داعياً الناس إلى ملَّة محمّد ﷺ التي هي خير الملل كالثلاثة قبله، فاستحقَّ أنْ يلحق بهم في الصّلاة عليه تبعاً له ﷺ.

روي أنّ المؤلف رحمه الله تعالى قال هذه القصيدة بتمامها رافعاً صوته، وهو قائم مكشوف الرأس مطرقه في الحجرة الشريفة تجاه القبر الشريف في ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، فيحتمل أنّه أنشأها حينئذ، والأظهر أن إنشاءها كان سابقاً، والواقع حينئذ إنشادها. والله أعلم بالصّواب.

وقد زيّنت هذه المنظومة بأبيات لبعض كتبة الشارح المحلي رحمه الله تعالى منها:

وآلك والأصحاب مع كل تابع ... طريقتهم الحسنى ليوم القيامة

وشارحها يا أكرم الخلق كن له ... مغيثاً مدى الأزمان في كل شدة

وناسخها يا رب فاغفر ذنوبه ... وعامله في الأخرى بعفو ورحمة

بجاه ختام الأنبياء محمّد ... نبي أتانا بالكتاب وسنة

قد تم بعون الله تعالى وحسن توفيقه شرح أستاذنا الكبير الشيخ أحمد الترمانيني رضي الله عنه على تائية الإمام تقي الدين السبكي رضي الله عنه، وقد نسخته من مسوّدة المؤلف بخطّه، فالمأمول ممن تحقّق فيه خللاً أو تحريفاً أن يلتمس عذراً بما يليق لأنّ مؤلفه ممن شاع علمه في الأمصار، وذاع صيته في الأقطار، فكان كالشمس في رابعة النهار، ومع ذلك كلّه فقد ذكر الشيخ مراراً: أنه لم يحرّره، وأنه ألّفه في أيام بطالة، وخطّه من حافظته من غير مراجعة مراد أصلاً.

وقد اعتمدت نسخة المؤلف وإذنه، وأخذت بظاهر قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ

---

(١) لقب بذلك لأنّه تزوج بتين للنبيّ ﷺ، وهما: رقية وأم كلثوم رضي الله عنهما، واحدة بعد وفاة الأخرى.

﴿ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ﴾[1]، وأصلحت تحريفه في الخطّ، وزدتُ بعض كلمات ظاهرات السّقوط، وبعض عبارات لائقات الثبوت، لإحكام مباينه الفائقة، وإتمام معانيه الرائقة، وصففته في قالب واحد، لئلا يقدح في مؤلفه حاسد، فهو بعون الله تعالى يسرّ الناظرين، وتقرُّ به عيون القارئين، فأسأله تعالى أنْ يعاملني بمحض الفضل، ولا يقيم عليَّ بذلك ميزان العدل، إنه بالإجابة جدير، وبعباده خبير بصير.

وأنا العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير حمّاد بن حسن البيانوني المجاور في (المدرسة الرضائية) الشهيرة في بلدة حلب الشهباء (بالعثمانية).

ولما تمت كتابته وانتهت صياغته أرَّخته يوم الاثنين المبارك، الواقع في تسعة وعشرين يوماً خلت من محرم الحرام، افتتاح عام اثنين وثلاثمئة وألف. من هجرة من خلقه الله تعالى على أكمل وصف.

غفر الله تعالى لمؤلفه وكاتبه وقارئه، ولمن نظر فيه ولوالديهم ومشايخهم، ولجميع المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

تمت على يد الفقير محمد جميل بن محمد سعيد المنّغي غفر الله له ولمشايخه ولوالديه وللمسلمين أجمعين. آمين. ١٩ محرم ١٣٤٧هـ.

** ** **

---

(١) البقرة: ٢٢٠.

الفهـرس